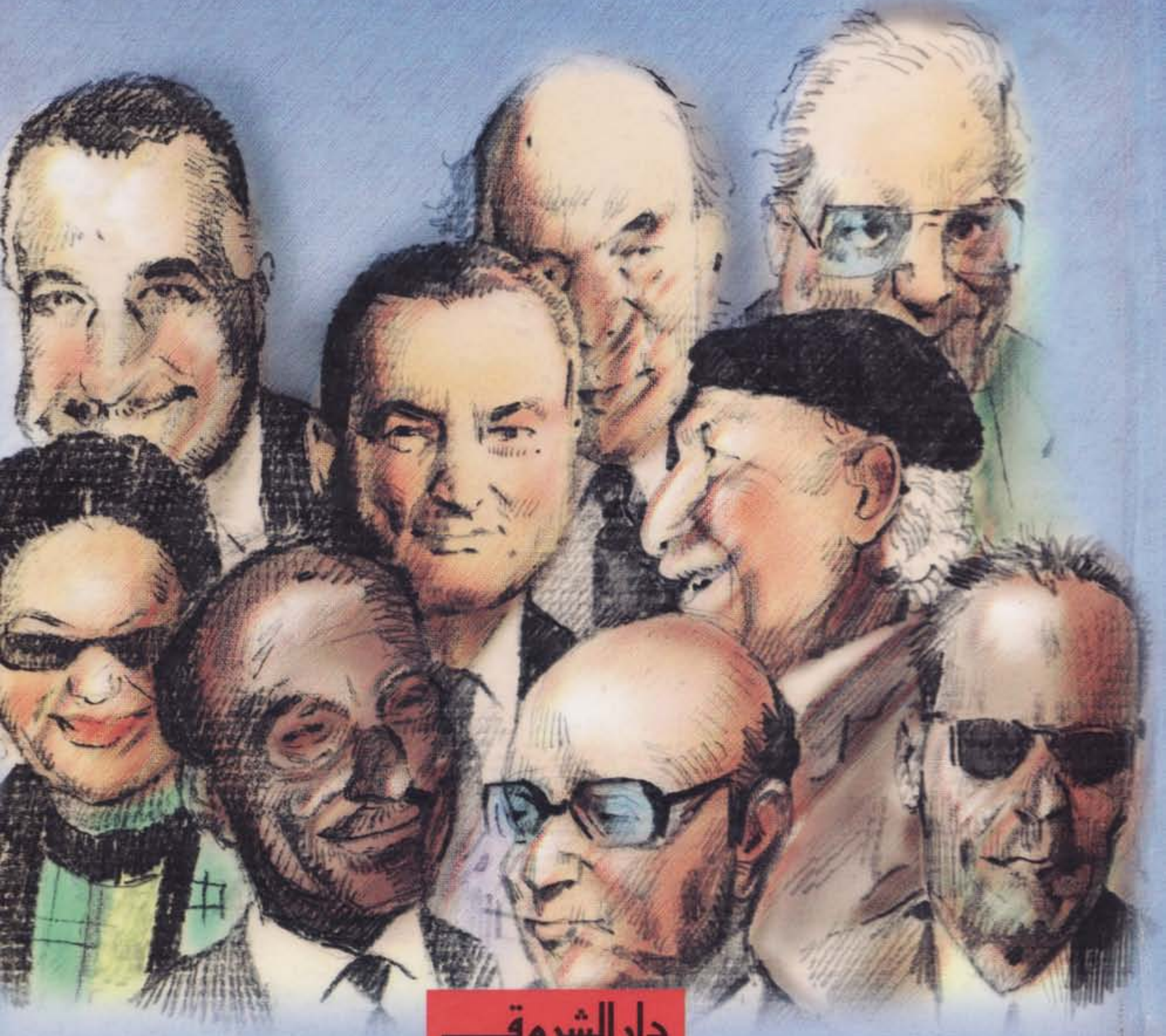
أنيس منصور

الكبار يضحكون أيضا



دار الشروق

الكبار يضحكون أيضا

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بريد إلكترونى : email: dar@shorouk.com

أنيس منصور

الكبار يضحكون أيضا

الحائز على جائزة مبارك في الآداب

دار الشروق

كلمة أولى..

كان والدى يأخذنى معه إلى أى مكان . فإن كان ليلاً ففى بيت أحد أصدقائه . ثم ينبهنى إلى أننى إذا أردت أن أنام ، فلأضع رأسى على ساقه وكان هذا يحدث بعد نصف ساعة من الزيارة . أما ماذا يحدث فى هذه الجلسات فمناقشات وأحيانا غناء وموسيقى . وعندى رغبة فى أن أستمع إلى الموسيقى . ولكن الموسيقى ليست أقوى من النوم . وأنام . وأجدنى فى الصباح فى فراشى . ثم لا أسمع كلمة لوم أو توبيخ من أمى . . إذن مادمت مع والدى فلا خوف منها ولا خوف على . .

أما الذى أدهشنى فهو الذى كان يقوله أبى لأصحابه : أحكى لكم حكاية صاحبنا (ويشير ناحيتى) لم يكد يدخل البيت حتى ينظر لى متوسلاً فأقول له : أيوه تقدر تنام . . ونام . إنه طفل ملهم فقد أدرك بحسه العميق أن الأكل سيئ وأن الأطباق مقرفة وأن الطعام لا يكفى لنصف الموجودين . . هاها . .

ولكن أنا لم أعرف كل ذلك . .

وفى مرة أخرى يقول مشيرا ناحيتى : وصاحبنا لم يكد يسمع صوت المطرب وهو يقول : يا عزيز عينى ، حتى وضع يده على عينيه . . كأنه خاف أن يصيبهما صوت المطرب . . ونام . . هاها . .

ومرة ثالثة يقول نفس الحكاية ، ولكن بشكل آخر : إنه ـ أى أنا ـ ولد مؤدب جدا . وحافظ للقرآن الكريم ـ ويجىء نومه بسرعة إذا كان فى جو لا يعجبه . . أو لا كيف

عرف أن الست صاحبة البيت رائحتها بصل . . وأنها عندما جاءت تقبله وهو نائم أحسست كأن شوال بصل مقشر قد سقط فوق دماغى . . ولكنه محظوظ فقد أغلق كل منافذ الشم والنظر والسمع وهات يانوم . . هاها . .

إنها حادثة واحدة . ولكن والدى كان يحكيها بأشكال مختلفة . حسب المناسبات . أو هو يخلق المناسبات ليحكى الحكاية . . وكان قادراً على إضحاك أصحابه نثرا وشعراً !

ولقد مررت بهذه التجربة . . فبعد نكسة ١٩٦٧ ذهبت أتنقل بين العواصم المصرية والعربية أعرض كتبا عن إسرائيل والصهيونية والنهضة الفلسطينية ــ وقد رفضت أن تكون مؤلفاتى ضمن هذا المعرض . فليس الهدف أن أبيع كتبى وإنما أن يعرف الناس ما لم يعرفوه عن إسرائيل وفلسطين . وقد كانت النكسة هى النتيجة لهذا الجهل . أما اسم المعرض المتجول فهو : اعرف عدوك .

وكنا فى طرابلس . وفى السفارة المصرية قابلت السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية . وطال الليل والكلام وحكيت له ما حدث لنا فى مطار طرابلس . فقد فتحوا إحدى الشنط . ووجدوا فيها زجاجتى ويسكى . فما كان من رجل الجمارك إلا أن ضرب الزجاجتين معا فانكسرتا . . وسال الويسكى على ملابس صاحب الحقيبة . . لقد عاقبه بكسر الزجاجتين دون إذن ، وعاقبه مرة أخرى بإغراق كل ملابسه . وضحكنا لهذا التصرف الغريب . فلم يكن أحد منا يعرف أنهم يُحَرِّمُون الخمر فى ليبيا . وكان من الطبيعى أن نضحك . وضحكنا !

وفى الليل دعيت إلى عشاء مع العقيد القذافى ورجال الثورة الليبية فى مطعم بفندق شهير اسمه الودان . . وانتحيت مكانا بعيداً . وجاءنى من يقول لى : الأخ العقيد عاوزك ضرورى !

عاوزنى . . وضرورى ؟ ظننت أنه سوف يسألنى عن المعرض . وإن المعرض جاء فى وقته . فنحن انهزمنا لأننا لم نعرف عدونا . وبعد ذلك عندما عرفناه انتصرنا عليه فى ١٩٧٣ . أو توقعت أن يشترى هذه الكتب كلها . أو يطلب شراء أضعافها للمكتبة العامة فى طرابلس . . أو أنه سمع عن بعض الكتب المترجمة ، وأنه يريد أن يقرأها أو يشكرنى على هذه الفكرة ويتمنى لو بقى المعرض فترة أطول . .

وذهبت واتجهت العيون إلى السيد حسين الشافعى وأنا أيضًا . فقال السيد الشافعى : يا أخ أنيس احكى للأخ معمر ماذا حدث لكم فى مطار طرابلس !

ماذا حدث لنا؟نظرت إلى عينى حسين الشافعى لكى أفهم : هل أحكى هذه الحادثة على أنها شكوى . . أو على أنها غريبة أو على أن عندهم ضبطًا وربطًا ويقظة فى مطار طرابلس وأنهم لا يجاملون المصريين ولا أحدا . . فالخمر ممنوعة . وهذا قرار نهائى . لم أفهم من النظرة الثابتة الجامدة للسيد نائب رئيس جمهوريتنا على أى شكل أو هدف أحكى ما حدث . . فاتجهت إلى العقيد القذافى . وقلت : كانت مفاجأة . .

هاها . . هاها ــ القذافى يضحك ويدعو الآخرين إلى الضحك . . ويقول : والله زين . . مزيان . . وحصل إيه كمان يا أخ أنيس . . هاها . .

ولم آكد أجلس فى مقعدى حتى جاءنى ضابط كبير يبلغنى أن الأخ معمر يريدنى . وذهبت ووجدته ضاحكًا سعيدًا : يا أخ أنيس احكى للأخ المقريف بالضبط وبالتفصيل ما حدث فى مطار طرابلس . . هاها . . احكى يا أخ أنيس !

إذن الأخ معمر وإخوانه يريدون أن يضحكوا وأن يتسلوا فقلت : والله يا أخ إحنا نزلناإلى المطار وليس فى ذهننا أن أحدًا سوف يفتح شنطتنا . . فلا أحد يفتشنا فى مطار القاهرة . ولكن فوجئنا بواحد يقوم بجمع شنطنا . ونحن واقفون لا نتكلم . فظننا أول الأمر أن سيارة خاصة سوف تنقل شنطتنا إلى الفندق . وبس . .

ــ وبعدين؟

ــ لاشيء من ذلك قد حدث . . وإنما جاء ونظر إلينا بارتياب شديد . . وأدهشنا ذلك . وطلب من كل واحد أن يفتح شنطته . وفتح شنطتى . . ووقعت عيناه على زجاجات صغيرة . صرخ وقال : العينة بدأت . . خمور طبعا . قلت له : هذا دواء للمعدة .

ــ هاها . . ما هى الخمر دواء . وأبو نواس قال وداونى بالتى كانت هى الداء . . إيه ده . .

ـ دواء ألمانى للمعدة والحموضة والغازات اسمه : أندربرج . . وحتى لاتشك لحظة . . فتحت زجاجة وشربتها فهى لا تزيد عن فنجان قهوة . . وقلت إننى مستعد أن أشرب الثانية والثالثة . هات أى واحد يعرف اللغة الألمانية . . وسوف . . ولم أكمل العبارة وأشار إلى واحد وراءه بأن يحرص على هذه الزجاجات الحرام . . ولم أعرف ما الذى يمكن أن أقوله . . ورحت أغلق حقيبتى عندما تقدم أحد رجال الجمرك وفتح شنطة أخرى . وعلى صدر الشنطة رقدت زجاجتا ويسكى . . هنا صرخ الرجل . . وقال : أدى الكلام . . وبسرعة أمسك الزجاجتين حطمهما معا . . وأفرغ الشظايا والخمر فوق الملابس . وكان فى غاية السعادة وأخرج منديلا من جيبه ومسح عرقا وهميا . . ولما وجدت رجل الجمارك يضحك قلت له : أقول لك شعراً قديمافى ظروف مشابهة . .

ـ قول ياخويا . .

قلت : قال شاعر قديم :

كسرت الجرة عمـداً ملأت الأرض شرابا
قلت والخمرة دينى : ! ليتنى كنت ترابـاً

ـ أعوذ بالله . .

ـ هاها . . هاها . .

القذافى يضحك وكل أعضاء مجلس قيادة الثورة . . حتى السيد حسين الشافعى راح يضحك مجاملاً أوللقصة الجديدة التى اخترعتها أو توسعت فيها . . وكان العقيد سعيدا شاكرا . .

وتضايقت من هذا الدور السخيف الذى حشرنى فيه العقيد ، وأناجئت إلى بلاده فى مهمة سياسية قومية جدة . . وجاء الطعام ولم أشعر بأدنى رغبة عندما جاءنى نفس الضابط يقول لى : الأخ العقيد .

ولم يكمل العبارة عندما نهضت متجهاً إلى غرفتى !

وسمعت من صديقى الفنان إسماعيل ياسين نجم الكوميديا الكبير إنه كان يمر

بتجربة قاسية جداً، رغم المبلغ الكبير الذى كانت تدفعه له المخابرات المصرية فقد كان إسماعيل ياسين بعد أن يفرغ من العمل المسرحى فى القاهرة تنتظره سيارة لكى تنقله إلى الإسكندرية إلى مستشفى المواساة حيث يرقد المشير السلال، رئيس اليمن . ولا يهم السلال إن كان إسماعيل ياسين قد نام فى الطريق أو لم ينم . المهم أن يجيء إليه . وأن يجلس إلى جواره ويحكى له بعض النكت . وكان إسماعيل يحكى ويؤلف نكات وقفشات . ممكن . وكان يفعل معى وكثيرين أيضا . ولكن العذاب هو أن يحكى النكتة الواحدة أكثر من مرة . مع أنه يفعل ذلك على المسرح كل ليلة وشهورا طويلة . وليس خروج الممثلين على النص إلا هربا من الملل ــ من أن يقول نفس العبارات والإشارات والحركات كل ليلة . . ربما كان التغيير الوحيد هو أن الجمهور هوالذى يتغير ويضحك لأنها المرة الأولى بالنسبة له . . ولكنها ليست الأولى للممثل . ولذلك فالممثل يضيف جديدا كل ليلة!

أما عذاب إسماعيل ياسين مع المشير السلال فليس أنه يأتى له بنكت جديدة كل يوم . ولكن السلال يريد أن يسمع نكتة واحدة كل يوم . فكان إسماعيل ياسين يضيف تفاصيل وحركات من عنده . زهق إسماعيل ياسين ولكن السلال لم يزهق . واقترح إسماعيل ياسين أن يسجل النكت على شريط يسمعه المشير حتى لا يجيء من القاهرة إلى الإسكندرية كل ليلة . ورفض المشير السلال . لماذا؟ قال : لأن إسماعيل ياسين عندما يحكى النكتة فإنه يتحرك . . كل شيء فيه يتحرك . . دماغه . . وفمه ويداه . . وأهم من كل ذلك كرشه .

يقول إسماعيل ياسين إنه قرر ألا يذهب بلا نكت قديمة ولا جديدة حتى جاءه أحد ضباط الأمن وقال : الرئيس عبد الناصر يرجوك أن . .

وقال إسماعيل ياسين : يرجونى الرئيس يا خبر أسود . . دا أنا أروح عريان ملط يا راجل . . وإذا السلال لم يضحك فتحت فكيه وحشرت النكت فى حلقه حتى يموت من الضحك . . هاها . .

وذهب إسماعيل ووجد عددا من كبار المسئولين فى اليمن . . فى صالون كبير . ونهض المشير وعانق إسماعيل ياسين وشكره على لطفه وذوقه . وأنه ترك عمله وأنه

لن ينسى له أبدا أنه كان المصدر الوحيد لشفائه العاجل . وأنه أقوى من الأقراص والحقن . . وأن مفعوله أكيد . وتبارى الموجودون فى مدح أعمال إسماعيل ياسين المسرحية والسينمائية . وكان إسماعيل سعيدا لهذه الحفلة التى أقامها المشير امتنانا له . ونهض المشير السلال متوجها إلى إسماعيل ياسين يقول له : أنت لا تعرف يا أخ إسماعيل وأنا قلت هذا الكلام لفخامة الرئيس عبد الناصر أنه من فضل الله أن خلق لنا إسماعيل ياسين . . فلولاه لكانت حياته كئيبة . . وربما حياة كل المصريين . . وأنا أعرف أننى قد أرهقتك كثيرا . وأجدد شكرى العميق وامتنانى لك . وأرجوك وأتوسل إليك ولآخر مرة أن تقول النكتة التى حكيتها لى مائة مرة فلم أتوقف عن الضحك . .

فصرخ إسماعيل ياسين : يا نهار أسود يا مشير . . نفس النكتة .

ـ أرجوك . .

أما النكتة فهى : واحد اعتاد أن يجلس على المقهى . وينشر الصحيفة أمامه ثم يبصق عليها ويلقى بها على الأرض . . فجاءه أحد رواد المقهى وقال له : لا مؤاخذة يا أستاذ أنا لم أعرف قارئا أغرب منك . . أنت بالضبط ماذا تقرأ فى الصحيفة وبسرعة تلقى بها على الأرض وتدوسها بالجزمة . . لقد راقبتك أسبوعين !

فقال له الرجل : إننى أقرأ صفحة الوفيات . .

ـ ولكن صفحات الوفيات فى الداخل . .

ـ أعرف ولكن اللى فى بالى لن يموت إلا فى الصفحة الأولى !

ـ هاها . .

ـ هاها . .

والحمد لله أن إسماعيل ياسين لم يقل ولا مرة إن هذه النكتة بالذات من تأليفى أنا ! !

وقد أخبرنى صديقى حسن إبراهيم نائب رئيس الجمهورية أن هذه النكتة قد سمعها عبد الناصر وتضايق منى كثيراً !

❊ ❊ ❊

فالواقعة . . أو الحادثة واحدة . . ولكن أنت كما تشاء . . إن شئت جعلتها موعظة أو مقلبا أو نكتة . ففى جميع الأحوال أنت تصنع عملا . . فنيا مضحكا! وسوف تجد فى هذا الكتاب حكايات رويتها أكثر من مرة . .

* * *

كان الأستاذ العقاد فى سخريته من الموسيقار محمد عبد الوهاب يضحكنا . ثم فاجأنا بشيء لم يخطر على البال . فكان يقول : إن عبد الوهاب ليس فنانا وإنما هو يهز مشاعرنا ببطء الأداء . مثلا ـ يقول العقاد ـ لو فرضنا أن عبدالوهاب يريد أن يغنى : طول عمرى عايش لوحدى . . إذا غناها ببطء شديد فإنه يحزننا ونقول : غلبان مسكين . . ولكن إذا غناها بسرعة فإنه يضحكنا ويجعلنا نتساءل : جالس لوحده مع واحدة؟ . . أو كل يوم يغيرها . . كذاب . . فنضحك!

وكنا نضحك . وقد اعتدنا من الشاعر كامل الشناوى وقدرته العجيبة على أن يقرأ لنا أسخف الشعر بأداء جميل . . ويقرأ أجمل الشعر بأداء سخيف . . وفى الحالتين يضحك علينا ونضحك!

ونحن نضحك كل يوم على مآسينا . . ونقول : شر البلية ما يضحك . . أو شر المصائب هى التى تجعلك تضحك عليها أو منها رغم أنها مأساة!

مثلا : يذهب شاب لزيارة جده العجوز وهو على فراش الموت . . يقع للشاب حادثة فيموت . . ويعيش الرجل العجوز!

ولذلك عندنا مثل شعبى يقول : كيف حال المريض فيقولون : عاش المريض ومات السليم . . أو كما نقولها باللغة العامية : إش حال مريضكم؟ فتقول : سليمنا مات!!

وأنا أضحك الآن على ما كان من أمرى عندما فصلنى من عملى الرئيس جمال عبد الناصر . . فقد كنت رئيسا لتحرير (مجلة الجيل) ومدرسا للفلسفة فى الجامعة .

ووجدت نفسى فى الشارع سنتين . لا أعرف فى ذلك الوقت أية بئر عميقة مظلمة مملوءة بالأفاعى والشياطين والأظافر والأنياب . . إنه لون أسود هذا الذى أضعه على الماضى والحاضر وخصوصا المستقبل . ولم يخطر على بالى لحظة واحدة أننى سوف أخرج من هذه الكارثة .

وخرجت . وأحكى وأضحك الناس على ما كان!

فعندما وقعت الكارثة كانت أكبر منى وكنت أصغر منها . . وكانت الكارثة تهيل التراب والهباب على دماغى . ولما انقشعت هذه الغمة . . صرت أنا فوق وهى تحت . . كبرت وصغرت . . تعاليت وانحطت . ومرة أجدها كرة قدم أضربها بقدمى . ومرة أجدها ذبابة أقتلها بورقة . . وفى أيامها كنت أحكيها وأضيف إليها وأعمقها وأفلسفها وأضعها تحت عنوان : منتهى الظلم . . والآن أضعها تحت عنوان : منتهى الهزل!

وعند بعض الناس موهبة أن يكون أكبر من الحدث أو من الموقف . وأن يسخروا منه . ربما كان الشاعر كامل الشناوى من أبرز هؤلاء الفنانين . ويقال آخرون مثل الشاعر حافظ إبراهيم ويقال الشسخ عبد العزيز البشرى . فكامل الشناوى قادر على أن يخترع قصة معقولة جدا وليست صحيحة . أو أن يدفعنا إلى مشكلة أو مطب دون أن ندرى لتكون نكتة فى النهاية . مثلا كنا على موعد لتناول العشاء فى بيت الموسيقار محمد عبد الوهاب وركبنا فى سيارتين . وفجأة توقفت السيارة . ونزل كامل الشناوى وعاد بعدد من علب السجائر . وزعها علينا وطلب منا أن نضع الأصناف الأخرى فى جيوبنا . لا مانع . وقد اعتدنا على قرارات غريبة مفاجئة من هذا النوع . وذهبنا إلى بيت عبد الوهاب واستمعنا إليه . وأسعدنا . وأكلنا وجلسنا . وفجأة افتتح كامل الشناوى موضوعا عن الجيل الجديد من الفنانين والعازفين . . ومن الكتاب أيضا . ومن رأيه : أن الأجيال الجديدة متشابهة ولا شخصية لها رغم أنه فى الإمكان أن ينفرد كل صاحب فن بأسلوبه لو أبدى اهتماما مكثفا بذلك . .

وللتدليل على صحة ما يقول قال : مثلا انظر إلى هؤلاء الشبان إنهم أحسن

كتاب مصر . . انظر إنهم يدخنون نوعا واحدا من السجائر مع أنه هناك ألف نوع! هاها . .

والضحك طول الوقت موهبة الأطفال الصغار . . انظر إليهم وهم يتحدثون أو يلعبون واقترب . فإنك لن تجد ما يبعث على الضحك . حاولت أن أسجل بعض هذه الحوارات . فلم أجد شيئا يضحكنى إلا هذه المحاولة الجادة التى قمت بها لكى أفهم ـ محاولتى أنا! .

وكثير من الأباء ينهرون أولادهم وبناتهم لأنهم يضحكون على الفاضية والمليانة ـ والحق مع الصغار ـ وليس معنا . إنهم ليسوا فى حاجة إلى جهد لكى يضحكوا . ولكننا نحن الذين فى حاجة إلى منطق لكى نضحك!

لى اثنان من الأقارب واحد إذا شرب نصف كوب من البيرة تشقلب على الأرض ضاحكًا ونحن أيضًا . . نضحك عليه . . ونضحك على أنفسنا لهذه الأشياء التافهة التى تزغزنا وتقلب كياننا . . ولى قريب آخر يجلس كئيبًا ويشرب نصف زجاجة ويسكى وكأنه قد شرب زجاجة من الدموع والآهات . . حتى النكت لا يضحك لها . . ولا يريد أن يضحك أحد . ولايجد نفسه غريبا وإنما يجدنا غرباء ومن عجائب المخلوقات!

وكان الأديب يوسف السباعى خفيف الدم . وكان يضحك كثيرا حتى يخيل إليك أنه لا يعرف الهموم والأوجاع . وكنت أعرف أن له هموما وأوجاعا . ولكنه كان أقوى . وكانت لديه قدرة على أن يكتشف الجانب المضحك من أى شيء .

وكان الروائى عبدالحميد جودة السحار مرحا . ولكنه كان يخترع المواقف المضحكة . ويصنع النكت لكل الأحداث السياسية . وكان الذى يدهشنا أنه وهو رجل اقتصاد كان كثير الغوص فى التاريخ الإسلامى وفى السيرة النبوية . .

وكان عبدالحميد رضوان وزير الثقافة ابن نكتة ومخترعًا للنكت ـ الكثير جداً من النكت . وقد حدث أكثر من مرة أن توقف عند جانب من النكتة ولا يعرف كيف يجعلها مضحكة . وكنت أساهم فى ذلك . . وقد حدثت مواقف كثيرة ضايقتنى

وأحرجتنى عند كثير من الأصدقاء . . وعلى أعلى المستويات فى مصر . والمشكلة تبدأ بأن أقول نكتة من اختراعى لأحد الأصدقاء . أما المصيبة فهو وغيره يقولون : هذه نكتة فلان . . سمعتها من فلان . . وأغلب الظن أنها من اختراعه!

وكذلك كان الشاعر عبد الرحمن صدقى . وكان لا يكتفى برواية النكت المصرية أوالتاريخية وإنما يحكى نكتا بالفرنسية والإيطالية . . وكان يضحك أكثر منا جميعا!

وكان حفنى باشا محمود . وقد عرفته فى صالون أو جلسات كامل الشناوى . وكان يقلد مقالب كامل الشناوى . ولا يهمه إن كانت هذه المقالب مؤلمة أوقاتلة . . المهم أن نضحك والمصيبة أنه لا يضحك . أو غير قادر على الضحك فقد اتخذت ملامح وجهه شكلا بائسا أو متجهما!

وكانت الراقصة زينات علوى ، وهى من أحباب كامل الشناوى . ظريفة خفيفة الدم رشيقة الخطوة بنت بلد أو بتعبيرنا العامى : جدع ـ أى أنها فى غاية الشجاعة والشهامة والكرم . . ثم إنها تحكى قصصا وروايات سمعتها . وعندما نسألها إن كان هذا الذى تقول حقيقة فنكتشف أنها إنما أرادت أن تضحكنا . وفى إحدى الليالى ظلت تتحدث حتى مطلع الفجر تحكى لنا ماذا قيل فى أحد أفراح بنات الباشوات . . ولم يكن من العقل أن نسألها إن كانت هذه الحكايات من عندها . . المهم أنها أضحكتنا حتى بكينا!

* * *

الموسيقار محمد عبدالوهاب كان خفيف الدم وله نكت غليظة . وأحيانًا يستخدم ألفاظًا نابية . وكما يجد أناسا يستمعون إليه مغنيًا ، فهم يستمعون إليه مهما قال . . وكان كامل الشناوى يصف محمد عبدالوهاب فيقول : إنه لا يكذب ولايقول الحقيقه!

ولا يوجد كتاب عن عبدالوهاب أو برنامج أو مسلسل إلا يجده يحكى نكتًا من صنعه أو وقع فيها . .

أما أم كلثوم فهى أبرع فى الحكا ية والرواية وأكثر قدرة على صناعة النكت .

ونكت أم كلثوم فورية أو تلقائية . . تخلقها فى لحظتها . ولا يوجد عازف أو مطرب أو مخرج أو ممثل ليست له نكتة مع أم كلثوم، قفشة . . تعليق . . يرويه لكل الناس . فنجد أن قفشات أم كلثوم فى كل بيت وكل كتاب .

فى يوم قالت لى : عاوز تيجى لى . .

ـ طبعًا . .

ـ عندى شرط .

ـ مقبول . .

ـ إنك تتغدى فى بيتكم . .

ـ إشمعنى . .

ـ ده الشرط . .

ـ وبعد كده نتقابل ونشرب القهوة عندكم كمان!

ـ . . . .

طبعا ضحكت جدا عندما فوجئت أنها كانت قد اتصلت بزوجتى وقالت : أنا جاية أتغدى عندكم!

فى يوم ذهبت مع الصديق كمال الملاخ لزيارة أم كلثوم . فهجم علينا كلبها وأمسك ببنطلون كمال الملاخ . . واندهشنا لماذا هو وليس أنا . . فضحكت أم كلثوم وقالت : إنت عارف الكلاب ما بتحبش الكلب الغريب . .

وغضب الملاخ . وصالحناه على أم كلثوم . وراح الملاخ يحكى تاريخ مصر الفرعونية دون توقف . ثم وقف ينظر إلى نفسه فى المرآة . فسألته أم كلثوم : شايف إيه يا كمال . قال . كثير من الناس يسموننى أبو الهول!

أم كلثوم : يا نهار أسود . . بقى لك ثلاث ساعات بتتكلم وبيقولوا عليك أبوالهول!

سألتنى : كنت فين؟

ـ عند عبدالوهاب

ـ وقبل كده . .

ـ عند عبدالحليم

ـ وقبله

ـ عند كامل الشناوى . .

ـ ياه . . ده النهارده يوم الكذب العالمى !

* * *

فى مقدمة كتابى (قالوا) قلت : إن العبارات الساخرة التى أكتبها توجع المرأة . . وهذه العبارات ليست إلا نوعا من الترتر اللامع الذى يقوم بوخز المرأة وإضحاكها فى نفس الوقت . . فأنا ألمسها بالترتر . . بالشوك الناعم . . فلا أنا طول الوقت كذلك، ولا هى طول الوقت تستحق ذلك . . وإنما هى صناعة السخرية ولعبة الإضحاك . . فلا يخدعك هذا الكتاب الذى بين يديك . . فلا حياتنا كلها كذلك . . وإنما هى أحيانا كذلك . تضحك لها وتضحك علينا . . وليس أحد لا يضحك . أو فى حاجة إلى ذلك . وكبار الناس أكثرهم هموما ، وأشدهم احتياجًا للضحك . . يصنعونه . . أو نصنعه نحن بهم . . فإن لم تضحك لما سوف تقرأ ، فإن المؤلف يرضيه ويسعده كثيرًا أن تبتسم . . فلعلك تفعل !

ونحن لا نضحك إلا من مشاكلنا . إلا من المطبات التى وقعنا فيها . . ولا أحد منا يضحك ونحن غارقون فى الهم والغم واليأس . . ولكن بعد أن تذهب الغمة وينفرج الكرب . . نجد أنها كانت أصغر منا . وأنها أتفه من أن تهزم العقل والقلب . فيوم فصلنى الرئيس عبد الناصر من عملى : رئيسا لتحرير (الجيل) ومدرسا للفلسفة فى الجامعة ، أحسست أن هذه هى نهاية العالم . . ونهايتى قبل ذلك . وأننى سقطت من سفينة نوح . . وإن حوت يونس قد ابتلعنى وهضمنى . . وإن أحدا فى الدنيا لم يتعذب كما تعذبت . . كان ذلك كلاما أقوله . ولما حاولت الهرب من بورسعيد

اكتشف الأستاذان مصطفى أمين وعلى أمين هذه الخطة . وعدت إلى القاهرة واخترعت حكايات وقصصًا لأمى عن سبب غيابى . والذى كان من المفروض أن يكون طويلا . .

وذهبت المحنة . وعدت إلى عملى فى الصحافة والجامعة . . ومضت أربعون عامًا . واليوم أحكى ما حدث على أنه سلسلة من النكت وأضحك . . ويضحك كل من يسمع القصة التى أبكتنى على نفسى وعلى أملى فى الحياة . .

وكثير من حكايات ونوادر حياتى كانت نوعا من المصائب . . ولما تلاشت صارت نكتا كالتى سوف تقرؤها هنا . . فلم تكن حياتى فى الجامعة أو خارجها : مسرحية كوميدية . . كل كلمة وكل حركة تبعث على الضحك . . ولكنها أصبحت كذلك . . أو من الممكن أحكيها على أنها مأساة . . وعلى أنها مهزلة ـ حسب الأحوال . .

* * *

وأذكر أنه عندما صدرت الطبعة الأولى من كتابى (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) . وهى الطبعة التى حصلت بها على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٣ لم تعجبنى . وقررت أن أعيد صياغتها وأن أجعل الفصول متماسكة . وقد حذفت منها كلمة واحدة تكررت كثيرا . هذه الكلمة هى (جدا) . فقد كنت قد رأيت هذه الدنيا لأول مرة . وقد بهرنى ما رأيت وما سمعت . وأسرفت فى استخدام كلمة (جدا) ـ تعبيرا عن دهشتى وفرحتى . وكنت صادقا . ولكن عندما عدت إلى الكتاب حذفت هذه الكلمة . فجعلت الكتابة أكثر وقارا . . صحيح أن فيه حكايات مسلية وحكايات مضحكة ونوادر وعجائب وغرائب . وهذه المغامرات لم تكن كلها مضحكة . ولكنها صارت بعد ذلك . .

وأحد معانى الضحك عند الفيلسوف الفرنسى برجسون أن يشعر الإنسان بأنه ألعوبة . أنه شىء . تماما كما يمشى إنسان وفجأة يقع . ومن يرى ذلك المنظر لا يستطيع أن يمنع نفسه من الضحك . فما الذى أضحكه؟ أضحكه أنه كان يرى إنسانا

وفجأة وبلا سبب واضح قد تحول إلى شيء . . إلى طوبة إلى كرة إلى لعبة . . فسقط على الأرض! وقد يضحك الإنسان على نفسه ويكون ذلك نوعا من التغلب على الشعور بالخجل . . فمثلا وأنت فى الشارع تفاجأ بأن سيارة كادت تدهمك ، فأنت تبتسم أو تضحك . مع أن الموقف لا يقتضى ذلك . . ولكنه الشعور بالخجل من أنك سرحان وأنك غلطان . . ويكون الابتسام أو الضحك تعويضا عن هذا الشعور الذى انتابك . .

وما أكثر ما أوجعنا وما أكثر ما أحزننا وأضحكنا أيضا . ولكن كما يقول المثل الإسبانى عن العشاق : سقط فى الحب واقفا ، سقط فى الحب جالسا . . فقد سقط فى الحب . وكذلك كل ما يقع للكاتب ، فهى مادة للكتابة . . يبكى منها ثم يضحك عليها بعد ذلك .

والشاعر القديم يقول :

رب يوم بكيت منه فلما   صرت فى غيره بكيت عليه

أو :

صرت فى غيره ضحكت عليه!

والآن يمكنك أن تضحك إذا استطعت ، على الذى حكيت ، أو على أنه لا يبعث على الضحك . . وإنما أنا الذى ضحكت عليك!

أنيس منصور

القاهرة يونيو ٢٠٠٣

قلنا: احرثوها..
قالوا: احرقوها!!

فى البدء كان الخطأ فى الترجمة.. عمداً.. سهوا.. جهلا. فقرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ جاء فى نصه الإنجليزى: الانسحاب من (أرض محتلة) وجاء فى الترجمة الفرنسية: الانسحاب من (الأرض المحتلة) وبين مدلول هاتين الترجمتين غرق الشرق الأوسط فى مشاكل وكوارث أفقدتنا كل أمل فى النجاة!

وحدث فى الكنيست يوم ذهب الرئيس السادات يلقى خطابه التاريخى معلناً أنه جاء مسالمًا لا مستسلمًا، يطالب باسترجاع أرضه المحتلة، لا مسترضيًا ولا متوسلاً.. وأنه جاء يقرر حق الشعب الفلسطينى فى حل عادل شامل. وأنه لا سلام دون حل للقضية الفلسطينية.. وبين قوسين: عندما اغتيل السادات فرح الشعب الفلسطينى وأذاع ليل نهار أغنية أم كلثوم: افرح ياقلبى. معلهش سامحهم الله وخفف عنهم عقوبة هذه الشماتة فى رجل عظيم!

وبعد دقائق من خطاب الرئيس السادات حدثت حركة غير مفهومة من الأعضاء وتقاربت الرءوس وتعالى الهمس. ومال موشى ديان على عيزر فايتسمان على يادين على شارون على رابين على بيجين. أيه الحكاية؟ طبعاً نحن جالسون وراء حائط زجاجى حتى لا يسمعونا ولا نسمعهم.. لم نفهم.. ربما كان الشىء الواضح الوحيد الذى رأيناه هو أن السيدة عليزة زوجة مناحم بيجين قد أشارت إليه من شرفة الكنيست فاقترب فألقت فى يديه حبوبا مهدئة. فهو مريض بالسكر

والقرحة. أى أنه رجل عصبى جدا ويكتم فى نفسه. . ولكن فى ذلك اليوم لم يستطع أن يقاوم. .

وعرفنا فيما بعد أن المترجم الفورى لخطاب الرئيس السادات قد أخطأ، فغضب بيجين وآخرون. فقام بيجين معلقاً فى عبارات حادة. . ترجمت إلى السادات فتضايق هو الآخر.

وسألونى فى إذاعة إسرائيل: ما رأيك؟ قلت إن بيجين مثل البارمان. . فكل الناس يشربون وينتشون. ولكنه حريص على أن يكون فائقًا رائقًا حتى لا يغالطوه فى الحساب! فالدنيا كلها تتمايل طربا بالسلام الذى دعا إليه السادات. . إلا هو، إنه رجل إرهابى ولكن فى صوته رنة وبحة حاخام!!

وأنا أيضاً فهمت خطأ ما ترجمه لى الزملاء الصحفيون اليهود وغلط فوق غلط. وهاجت الصحف وهاجت الصحافة المصرية ابتداء بالذى قلت وانتهاء بالمرحوم موسى صبرى حين قال باللغة العربية فى (صوت إسرائيل): يجب أن تغسلوا عيونكم لكى ترونا أوضح!

وترجمتها الصحف: إنه يقول لنا أفضل لكم أن تغسلوا وجوهكم!

وقال لى الرئيس السادات: بلاش هذا الهزار مع الجماعة دول. . لأنهم يأخذون كلامنا بجدية شديدة. ولذلك يحملون الكلمات فوق ما نطيق. خد بالك يا أنيس. .

- حاضر ياريس!

* * *

وفى مطار بن جوريون صافح الرئيس السادات جولدا مائير قائلاً: أهلاً بالسيدة العجوز. .

ولكن جولدا مائير لم ترد ولم يظهر عليها الضيق. ونقلوا عنها. . أنها قد اغتاظت تمامًا. ثم جاءتها الفرصة الذهبية حين نشرت صحف إسرائيل أن الرئيس

السادات قد رزق حفيداً . فسارعت جولدا مائير وأرسلت للرئيس باقة من الورد عليها هذه العبارة : من السيدة العجوز إلى السيد العجوز !

وكان أولاد الحلال قد نقلوا للرئيس السادات أن جولدا مائير قد تضايقت . ولكن تأكد السادات بعد ذلك من أن هذا سوف يحدث كثيراً حتى لا يكون هناك تقارب وتصالح وسلام !

وكان الرئيس السادات قد رأى إن تنشر أحاديثى معه فى كل الصحف ومع مجلة (أكتوبر) فى نفس اليوم . . تشجيعًا للمجلة ودعاية لها . . فجاء فى حديثى مع الرئيس السادات عن قرية (ياميت) أن إسرائيل لابد أن تزيلها . . لابد أن (يحرثوها) . .

ونشرت الصحف فى إسرائيل أن الرئيس يقول (أن يحرقوها)! . . فالخطأ ممكن عند القراءة السريعة لكلمتى : يحرقوها ويحرثوها . .

ولكن الحريق والإحراق والاحتراق يصيب اليهود بالجنون . . فهم لا ينسون (الحريق الشامل) أو (الهولوكست) الذى أصابهم فى عصر النازية فى ألمانيا وبولندا . .

وكان لابد أن أوضح أنها غلطة مطبعة . والنص العربى موجود . فى كل الصحف !

* * *

وحدث معى أنا شخصيًا شىء فظيع . فقد كلفنى الرئيس حسنى مبارك بمهمة خاصة . فذهبت إلى رئيس دولة إسرائيل إسحاق نافون . ونقلت إليه رسالة الرئيس . . وقبل أن أعود إلى القاهرة علمت من أحد الزعماء السياسيين أن نافون مندهش جدًا لكلمة جاءت على لسانى وأنا أتحدث عن الرئيس مبارك . أنا قلت له : إن الرئيس مبارك رجل شجاع واضح ووطنى وعنده صبر أيوب . . وهو ليس كويز ـ Quiz ـ أى ليس لغزاً ولا فزورة ولكن الرئيس نافون فهم أننى أقول إنه ليس كويز لنج وهو الضابط النرويجى الذى خان بلاده وباعها للألمان فجعلوه رئيسًا لها . وبعد هزيمة ألمانيا حاكمه شعبه وأعدمه سنة ١٩٤٥ !

يا نهار أسود . . أعوذ بالله . تصور الفرق بين كلمة (كويز) التى ظنها الرئيس الإسرائيلى اختصاراً لكلمة (كويز لنج)!

حدث معى شيء موجع ومؤلم ولم أكن أقصده مطلقًا . فقد قال لى الرئيس مبارك إن الرئيس عيزر فايتسمان زعلان منى جداً بسبب الذى كتبته عن ابنه . . فقد قيل له إننى قلت عن ابنه إنه مجنون مع أننى أعرفه شخصياً . .

وكتبت تصحيحاً للترجمة الخاطئة . فابنه الوحيد قد أصيب فى الحرب فى دماغه وأماكن مختلفة من جسمه . ولكن الذى ترجم هذه العبارة قال إنه أصيب فى عقله وإنه مجنون!

* * *

وهناك أخطاء فى فهم اللغة العربية أوالعامية المصرية . . فالسياسى الشهير أبا إيبان قد ترجم كتاب توفيق الحكيم (يوميات نائب فى الأرياف) بعنوان آخر هو (متاهة العدالة) ولم يعرف معنى كلمة (كوز درة) أى ثمرة نبات الذرة . فترجمها علبة صفيح قد امتلأت بحبات الذرة والمعنى مختلف وإن كان أقل ضرراً . .

وكان من المستحيل عليه أن يترجم الأغنيات الشعبية فى كتاب توفيق الحكيم . مثلاً :

ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان . .
أو هذه الأغنية التى تقول :
واحد شبارة شفتشى
والثانية بلطية
والثالثة من عجبها
عملت مراكبية . .

* * *

أما سفير إسرائيل ساسون وهو ابن الزعيم ساسون الذى كان حريصًا على

تحقيق الوفاق بين العرب واليهود من سبعين عامًا . . وعندما انتهت مدة خدمته فى مصر أصدر كتابًا شاعريًا بديعًا عن ذكرياته فى مصر . . قال فيه إن بيته فى المعادى كان قريباً من المكان الذى عثرت فيه ابنة فرعون على التابوت الذى كان به موسى عليه السلام . . وهو أيضًا اسمه موسى ساسون! وعندما قدم ساسون أوراق اعتماده للرئيس السادات ـ ضحك الرئيس لدرجة أذهلت السفير المتحمس جداً لوظيفته فى مصر ودوره فى تدعيم العلاقات بين البلدين والذى حدث هو أن السفير الإسرائيلى قال فى كلمته : يا سيدى الرئيس إن (أرياح) السلام تهب علينا ويغمرنا شذاها وعطرها!

فبادره السادات بقوله : يا ساسون (الأرياح) دى لها معنى كريه عندنا فى مصر . . هاها هاها!

وأخيراً الترجمة الغلط لتصريحات الرئيس مبارك بعد لقائه مع بيريز وزير الخارجية . . وكان رد الفعل العنيف فى إسرائيل . . وكان الرد القاطع للرئيس مبارك . . وبسرعة ذهب بيريز إلى أمريكا حتى لا يساء فهمه فى بلاده، وكذب الترجمة العبرية لتصريحات الرئيس . واعتذر وأعلن أن الرئيس مبارك لم يخطئ . وإنما الذين أخطأوا هم أبناء بلده . فهل هو خطأ فى الترجمة؟ أو هى حيلة لإفساد كل ما قال بيريز حتى لا يكون هناك حل سريع . . أو حتى لا يكون هناك وفاق أو اتفاق على أى شيء؟ . . مع زعماء إسرائيل كل شيء جائز ولليهود نكت كثيرة على أخطائهم فى الترجمة .

ومن أشهرها : أن أمريكيا ذهب إلى القدس وطلب من سائق التاكسى أن يأخذه إلى (حائط المبكى) . ولكنه نسى هذا الاسم فقال له : خذنى إلى المكان الذى يبكى عنده اليهود ليلاً ونهاراً . .

فأخذه إلى مبنى مصلحة الضرائب!

هناك مثل إيطالى يقول : «الترجمة تجرمة» أى جريمة فى حق النص الأصلى . .

وهذا أهون كثيراً جداً من أن تكون فى حق الرؤساء والشعوب

لا دورة مياه لمحمد على كلاى !!

تطورت علاقتى بالتليفزيون من ضيف فى برنامج إلى أن أقوم بإعداد عدد كبير من البرامج وإلى قصص ومسلسلات ومسرحيات ، وقد بدأت هذه العلاقة بتأليف أول مسلسل فى التليفزيون المصرى اسمه (العبقرى) بطولة يوسف وهبى ومعظم ممثلى الكوميديا فى مصر .

والمسلسل كان قبل ذلك فى الإذاعة باسم (هـ ٣) بطولة محمد رضا وعبد السلام محمد . وكان (العبقرى) يذاع فى رمضان فاتصل بى الدكتور عبد القادر حاتم وقال : إن الرئيس عبد الناصر لا يمارس أى نشاط إلا بعد مشاهدة المسلسل ، فحاول أن تضيف إليه عدة حلقات ! .

وأضفنا وأضفنا حتى زاد من١٧ حلقة إلى ٣٤ حلقة . . وكانت الحلقة الأخيرة ثالث يوم العيد ومدتها ساعتان ونصف ساعة !

ولكن حدث أن سافر يوسف وهبى إلى إيطاليا ، فخشينا أن يؤدى سفره إلى تعطيلنا فقررنا التخلص من يوسف وهبى وأن نأتى بصلاح ذو الفقار ، ونشرت الصحف أن : أنيس منصور سوف يقتل يوسف وهبى وذلك بأن ينسف المختبر الذى يعمل به !

وفجأة تلقيت برقية من يوسف وهبى يقول : عزيزى أنيس لا تقتلونى حاضر غدا!

* * *

وكنت ضيفًا مزمنًا فى برنامج من إعداد السيدة كوثر هيكل وإخراج المرحوم محمد سالم، البرنامج اسمه (أنا مين؟) فيجيء شخص يعرفه الجمهور ويعرفون صناعته إلا أنا، وأظل أسأله وأستدرجه فى الكلام حتى أعرف من هو . . وكانت تشاركنى فى هذا البرنامج الدكتورة حكمت أبوزيد . .

أما الذى يتولى سؤالنا فهو الفنان محسن سرحان فسألتنى الدكتورة حكمت : من هذا؟ فقلت لها : فريد الأطرش! ثم عادت تسألنى : ولكنهم ينادونه يا محسن، فقلت : إنه اسم الدلع!

وصدقتنى الدكتورة حكمت لأنها كانت تدرس فى الخارج وليست لديها معلومات كثيرة فتفرق بين محسن سرحان وفريد الأطرش وسافر محسن سرحان إلى العلاج فى لندن وعاد ليطلبنى : هل معقول أن الست اللى كانت معانا دى أصبحت وزيرة للشئون الاجتماعية؟!

فقلت : نعم .

فقال : يانهار أسود!

* * *

ثم طلب منى الدكتور حاتم أن أقدم برنامجًا آخر، فكان أشهر البرامج جميعًا مع طه حسين وعدد من الأدباء : نجيب محفوظ ويوسف السباعى وكامل زهيرى وعبد الرحمن الشرقاوى ويوسف غراب وعبد الرحمن بدوى وعبد الرحمن صدقى .

وقبل تسجيل البرنامج جلست إلى طه حسين فقال لى : يا سيدى لا أتقاضى أجرًا أقل من أجر العقاد!

وكنت سجلت حديثًا مع الأستاذ العقاد، وتقاضى ٢٠٠ جنيه وقال طه حسين أيضًا: الفلوس تدفعها مقدمًا.

ـ حاضر.

ولأول مرة فى تاريخ التليفزيون المصرى يجىء مدير التليفزيون ليدفع أجر طه حسين قبل التسجيل، وكان مدير التليفزيون فى ذلك الوقت هو المرحوم حسن حلمى، وأخرج طه حسين (الختم) من جيبه.. وجاءت السيدة سوزى طه حسين ووضع الفلوس فى يدها من شدة الارتباك أخطأ فى العدد.. فكانت ١٩ ورقة بعشرة جنيهات، ثم عددنا عشرا عشرا.. ونزلت حرم طه حسين لحفلة فى السفارة الفرنسية.. ونظرت إلى حديقة فيللا (رامتان) فوجدت كثيراً من الناس يقفون فوق العشب المبلل، وسألتنى: من هؤلاء؟ فقلت لها: عمال التليفزيون!

ولم يكونوا سوى الأدباء ضيوف هذا اللقاء.

وفى البرنامج تساؤلات لطه حسين غير مفهومة للمشاهدين وللضيوف أيضًا.

مثلاً: يا أستاذ أنيس وأوفوا بالعهد!... يا أستاذ أنيس كم يبلغ هؤلاء؟

فقد اتفقت مع طه حسين أن ندفع له ٢٠٠ جنيه إذا كان عدد الأدباء خمسة أما إذا صاروا عشرة فلابد أن أدفع ٤٠٠ جنيه.

وفى كل مرة لا أرد!

وفى البرنامج قال أيضًا: يا أستاذ أنيس لا تعنفوا بالبيت!

والمعنى أن زوجة طه حسين عندما رأت هؤلاء (العمال) فوق الأعشاب المبللة فزعت من أن يدوسوا السجاجيد الفارسية الموجودة فى البيت، وحدث! فقد تحولت السجاجيد الجميلة إلى سجاجيد يغطيها الطين والوحل!!

وكنت قد قلت للمخرج سعيد عيادة أنه يحتمل أن تجىء زوجة طه حسين قبل نهاية حفلة السفارة من شدة خوفها على السجاجيد فطلبت إليه أن يسد الشارع

بسيارة التليفزيون فتتعطل بعض الوقت حتى نفرغ من التسجيل وننظف السجاجيد بقدر ما نستطيع!

هذا التسجيل التاريخى الوحيد لطه حسين قد مسحوه ليسجلوا عليه خطب الرئيس عبد الناصر فاستعرت هذا التسجيل من إحدى الشبكات الشقيقة!

* * *

وسجلت برنامجًا مع المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى قبل وفاته بأسبوع، وهو رجل لطيف فى غاية النقاء والصفاء.. هذه الحلقة مسحوها.. ولم نجد لها أثرًا فى أية دولة عربية. وفى هذا البرنامج سألت المؤرخ الكبير: هل أنت تزوجت عن حب؟

فانزعج قائلاً: عن حب؟ إزاى أنا لم أعرف زوجتى، ولكن الحب ـ عادة ـ يجىء بعد الزواج!!

* * *

وهؤلاء الثلاثة: العقاد وطه حسين وعبد الرحمن الرافعى قد ولدوا فى سنة واحدة هى ١٨٨٩.. وكذلك عبد القادر المازنى وإيليا أبو ماضى وهتلر ونهرو وشارلى شابلن وثلاثة من الفلاسفة الوجوديين هم: الفرنسى مارسيل والألمانى هيدجر والنمساوى فتجنشتين..

* * *

أما الشيخ مصطفى إسماعيل القارئ الشهير فاشترطت عليه أولاً: إذا دخل البيت والكاميرا وراءه فلا داعى لأن تقبل زوجته يده.. فقال: حاضر وقمنا بتجربة.. ثم بدأنا التسجيل فقبلت زوجته يده..

وطلبت إليه: يا عم الشيخ مصطفى لاتقل إنك لم تجد صعوبات فى حياتك وإنما قل: إنك تعبت وشقيت وربنا فتحها عليك بسبب اجتهادك وصبرك.. فلكل

مجتهد نصيب . . والصبر مفتاح الفرج . . وبذلك يكون عند الناس أمل . . وإنهم مثلك إذا صبروا واجتهدوا فسوف ينجحون فى دنياهم . .

فقال لى : حاضر يا أستاذ . .

ويوم التسجيل طلبت إليه أن يفتح البرنامج بتلاوة آية واحدة بالقراءات السبع ، وكان استهلالا جميلاً . . ولما سئل عن طريق كفاحه حتى صار من أشهر القراء فى العالم العربى قال : والله الأستاذ أنيس طلب منى أن أقول إننى تعبت وكافحت حتى وصلت . . والحقيقية غير كده بالمرة . . لا تعبت ولا كافحت وإنما ربنا نصرنى كده على طول !

ثم قال شيئًا آخر غير صحيح وهو أننى عندما سألته : أين أولادك فقال لى : واحد طيار والثانى طبيب أمراض نفسية فى ألمانيا ! .

أما الطيار فقد وجدته فى رحلة بين بغداد والقاهرة مضيفًا جويًا وفوجئت به وثلاث مضيفات يرفعن طرف الجوب ويكشفن عن تمزق فى هذه الجوبات . . دليلاً على إهمال شركة مصر للطيران . . وأما الابن الطبيب النفسى فقد أسعدنى أن أتناول عشائى عنده فى (بار) أنيق جداً فى مدينة ألمانية جميلة جداً هى هيدلبرج التى جاء اسمها فى الأغنية الألمانية الشهيرة : أضعت قلبى فى هيدلبرج .

وهى ترد على أغنية للمطربة المصرية الإيطالية داليدا التى تتغنى بمدينة جميلة جداً على الريفيرا الإيطالية : وجدت قلبى فى بورتوفينو !

* * *

أما أصعب مهمة تليفزيونية فهى التى فاجأنى بها الدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام قال لى : محمد على كلاى موجود فى مصر فى هيلتون عاوزك تجرى حواراً معه !

وأنا لا أعرف شيئًا فى الرياضة ولا الفرق بين الملاكمة والمصارعة وإذا عرفت فما الذى أقوله لملك ملوك الملاكمة فى الدنيا .

لقد سبقتنى الكاميرا فى جناح محمد على كلاى . سألت عنه ، وكنا فى رمضان فقالوا إنه يسلى صيامه بركوب الخيل عند الهرم !

وانتظرت وجاء محمد على كلاى مرهقًا، وألقى بنفسه على السرير وراحوا يخلعون ملابسه لنرى جسمًا بديعًا متناسقًا، ثم قاموا بتدليكه وتدليله . . وبعد نصف ساعة اقتربت منه وعرضت الفكرة فرفضها فوراً طبعًا هو قد اعتاد على الكاميرات ولكن بفلوس وحاولت ورفض، ولم أجد إلا طلبًا متواضعا، فقلت له : أوكى . . إذن أنت تقف أمام الكاميرا وتكشف ذراعك لتظهر عضلاتك!

وكأنى كفرت. فالملاكم ليست له عضلات وإلا كانت تعوق مرونته وخفته فقال غاضبًا ـ ومعه حق ـ مبتعداً: أنت فاكرنى شيال؟!

انتهى الأمر فلا تسجيل! وقد فشلت فى مهمتى تمامًا ثم اقتربت منه وقلت له : اسمع يا محمد . . على كيفك أنت فنان عظيم ولا يستطيع أحد أن يرغمك على شيء . . ولكن عندنا مشكلة : فأنت فخر المسلمين . . وقد جاء كل ملوك وأمراء الأمة الإسلامية يتقدمهم الرئيس عبد الناصر وهم الآن فى انتظارك فى الاستوديو . . وأنت حر . ولكن يجب أن تتصور حجم الصدمة والإهانة التى تسببها لهؤلاء العظماء ممثلى الأمة الإسلامية التى عددها ألف مليون حول الأرض!

ووافق وذهب إلى التليفزيون وحشدنا له أكبر عدد من الموظفين والعمال والسعاة يجلسون فى الظلام . . وهو وحده فى النور يسمعهم ولا يراهم . . وقفزت مشكلة خطيرة : إنه يريد أن يذهب إلى دورة المياه ووجدنا جميع دورات المياه مغلقة . . إلا دورة المياه فى مكتب رئيس التليفزيون المرحوم محمد أمين حماد، ولم يحضر فى ذلك اليوم أما دورات المياه فقد أغلقوها بعد اختفاء قاعدة الكابينيه فى الثلاثين طابقًا.

وبسرعة قلت له : اسمع يا محمد أنا نسيت أقول لك . . إن هناك حديثًا نبويًا شريفًا يقول : إن المسلم لا يدخل دورة المياه إلا بعد الإفطار!!

فليسامحنى الله على هذه الكذبة!

ودخل الأستوديو وصفق له الجمهور الذى لا يراه . . ودار حوار ضاحك بديع وبسرعة انطلق محمد على كلاى من التليفزيون وراح يجرى إلى هيلتون إلى دورة المياه!

وعرفت فيما بعد أنه لم ينتظر المصعد فى الفندق وإنما قفز على السلالم حتى الدور الحادى عشر!

لله يا أسياد فى البندقية!

منذ خمسين عاما احتشد أشهر فنانى مصر على (ظهر) الباخرة الإيطالية إسبيريا. وهذه أسماؤهم: صلاح طاهر وزوجته وحسين بيكار وزوجته وكمال الملاخ وأبو صالح الألفى وحسن فؤاد وجمال كامل وعبد الغنى أبو العينين والأخوان أدهم وانلى وسيف وانلى ولبنى عبد العزيز وأنا.

فعلى (ظهر) السفينة.. وليس هذا تعبيراً مجازيًا، وإنما هى حقيقة، كانت هناك خيمة ننام تحتها حتى إذا طلع الفجر جاء البحارة وأيقظونا بصوت السلاسل والجرادل فقد حان وقت الكنس والغسل.. أى يجب أن ننهض وأن نتوارى فى أى مكان حتى يتم غسل السفينة. وبعدها تبدأ عملية البحث عن الإفطار.. بعضنا يحمل طعامًا مثل عبد السلام الشريف فقد زودته زوجته وكان عريسًا بنوع غريب من الكعك.

.. وكان يلقى به فى البحر وكان السمك يرده إليه.. وعندما وقفت السفينة فى ميناء نابلى الإيطالية دخلنا حلقة السمك. فلم يكد السمك يرى عبد السلام الشريف حتى صرخوا جميعًا: الراجل بتاع الكعك أهوه.. هكذا كنا نشنع على الفنان الكبير عبد السلام الشريف!

وفى ميناء نابلى تفرقنا. كل واحد فى طريق. أنا كنت ضيفًا على بعض الأصدقاء فذهبت إلى الريفيرا الإيطالى.. ثم عدنا فالتقينا قبل الرجوع إلى مصر بأيام من مدينة البندقية.

أما هؤلاء الفنانون فقد نفدت فلوسهم تمامًا. ونزلوا فى فنادق متواضعة فى مدينة البندقية، أما أنا فقد نزلت فى فندق فخم فى حى الليدو الأرستقراطى فلا تزال معظم الفلوس معى.. ولمعلوماتك كان مبلغ ١٥٠ جنيهًا تكفى جدًا للسفر إلى أوروبا شهرا تأكل وتشرب وتشترى هدايا أيضًا للأصدقاء ولم أشتر هدية لأحد. وفى مقدمة الفنان المرحوم كمال الملاخ - فهويقترض ولا يرد. وحجته فى ذلك أنه شرف عظيم لأى إنسان أنه اقترض منه! فهو يعيش دور الفرعون الكبير أما بقية خلق الله فهم الرعية!

وقد وافقت على أن أقرضه بشرط. وكان الشرط مقبولاً فوراً على مضض. وهو أن يجىء هو وعبد السلام الشريف وحسن فؤاد وجمال كامل ويقفون تحت شباك الفندق وينادون ويتوسلون ويطلبون: حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة، هنيًا لك يافاعل الخير.. وبعد أن أستمتع بهذا التسول انظر من النافذة واتظاهر بأننى لا أرى ولا أسمع فلابد أن يتكلموا وأن يعيدوا ويزيدوا فى التوسل والتسول.. ويرق قلبى فألقى بالفلوس من النافذة.. والهواء يدفع الفلوس الورقية يمينًا وشمالاً. فإذا أرادوا مزيدًا - فهناك شروط أخرى.. وكلها مقبولة!

وفى يوم ذهبت لزيارة صلاح طاهر وعبد السلام الشريف والأخوين أدهم وسيف وانلى فاعترضنى البوليس. وسألنى: تعرف هؤلاء؟ يقصد هؤلاء الفنانين فقلت: طبعًا إنهم فنانون كبار.. أهم فنانى مصر!!

ومد رجل البوليس يده ناحيتى كأنه يكنسنى أنا وكلامى: هذا لا يبدو صحيحًا. لأن الشكوى منهم قد زادت. ولابد من تحذيرهم وإلا وضعناهم فى السجن وهذا آخر إنذار!

وذهبت أحذرهم وأنذرهم. وسألتهم عن أسباب هذه الضجة. ولما عرفت تساندت على الجدران من الضحك.. فقد ذهب بهم النبيذ الإيطالى بعيدًا جدًا!

وتأخرت الباخرة عن العودة يومًا.. ثم يومين.. وكان لابد من أن أقرض الزملاء. ولا داعى لأن أعود بفلوسى كما هى.. وفى ليلة السفر وأمام إلحاح

متعرضين وإصرارهم وجدت حلا . فقد اقترحت على هؤلاء الثلاثة ذوى الألوان سمراء : الأخوين أدهم وسيف وانلى وعبد السلام الشريف أن أدور بهم على مطاعم و(أشحت عليهم) باعتبارهم لاجئين من كوريا؟! فقد اشتعلت الحرب الكورية فى ذلك الوقت . أما الهيئة التى كنا عليها فهى كما يلى :

الثلاثة قد وقفوا إلى جوار الحائط بعيداً ووضعوا على رءوسهم برانيط من خوص . . وأنا أتقدم إلى الجرسونة ـ لابد أن تكون سيدة ـ وأقول لها بالإيطالية : هؤلاء السادة وزراء لاجئون من كوريا . .

فتقول : ماذا تريد؟

فأقول لها : لا يجدون طعام اليوم . . فهل . .

فتسألنى : يعنى يريدون أن يأكلوا؟

فأقول : أنا الملحق الصحفى لهؤلاء . .

فتسألنى : وأنت أيضًا؟

فأجيب : نعم .

وتشير لى أن أتبعها . فأدخل المطبخ وأعود بأربعة أطباق من المكرونة وعليها جبنة وصلصة . وأوزع الأطباق وأنضم إليهم ونأكل فى صف واحد . . ولا تكاد تظهر الجرسونة حتى أشير إليهم أن يشكروها . ويكون الشكر بأن يضعوا الأطباق على الأرض ويخلعوا البرنيطة مع الانحناءالشديد إلى الأمام ومعها هذه العبارة باللغة العربية التى لا تفهمها : ربنا يجعل بيت المحسنين عمار!

ونمشى فى طابور ومعنا الأطباق التى مسحناها تمامًا ونكرر الشكر!

ثم نذهب إلى أى مقهى . ويتكرر نفس المشهد وقوفًا فى صف واحد . وأتقدم [illegible] جرسونة ـ لابد أن تكون سيدة فأنا لا أحب أن أمد يدى وأيديهم إلى أى رجل [illegible] : من فضلك . . هؤلاء السادة وزراء لاجئون من كوريا : وزير الخارجية [illegible] حية ووزير المالية وظروفهم فى إيطاليا صعبة . ولم تصلهم فلوسهم بعد . .

وتظهر الدهشة عليها . وانتهز الفرصة فأقول لها : طبعا معك حق فى هذه الدهشة فلم يخطر على بال واحد منهم أن يتسول فنجان كابوتشينو . . إنها ظروف صعبة جدًا . .

وتنظر بالعطف إلى هذه الوجوه الكئيبة الحزينة وتقول : حاضر . . وأنت تريد كابوتشينو . .

فأخلع القبعة وأنحنى عميقًا وأشكرها بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن هؤلاء اللاجئين . وأوزع القهوة عليهم ونظل واقفين طبعًا حتى تظهر الجرسونة وأطلب إليهم أن يقدموا واجب الشكر وعظيم الامتنان . . ونضع الفناجين على الأرض وننحنى والبرنيطة فى أيدينا : وربنا يجعل بيت المحسنين عمار ولا يغيب لك ولد ولا يحرق لك كبد يا شابة ياقمر ١٤ أنت يا سكرة . . ويتغير الشكر من مطعم إلى مطعم ومن مقهى إلى مقهى . .

وفجأة وجدت غضبًا وضيقًا من الأخوين وانلى . . فقال أحدهما بلهجته الإسكندرانية : عاوزين تروحوا مكان محترم! . . فسألونى : فيه إيه!!

فقلت : لا مانع ولابد أن تظهروا جميعاً بمظهر الوزراء الذين كسر أنوفهم الزمن وبهدلتهم الغربة وجعلتهم يمدون أيديهم . . هل فى استطاعة أحد منكم أن يبكى أو يتظاهر بذلك . .

ومن العجيب أن الأخوين وانلى كانا يناقشان كل كلمة وفى الوقت نفسه يرفضان أن يتسولا . ودخلنا فى مناقشة موضوعها : إذا لم نكن نتسول فما اسم هذا الذى نقوم به؟ . .

الأخوان وانلى من رأيهما : أننا نتسلى . .

وعبد السلام الشريف من رأيه : أنه يتفرج على ثلاثة من الشحاذين ويضحك . . وتضايقت كأننى لم أقم لهم بأية خدمة فقلت : إننى تسولت بما فيه الكفاية . . فليتفضل أى أحد منكم ليقوم بهذا الدور .

فقالوا ولكننا لا نعرف الإيطالية . .

قلت أكتب لكم العبارات المطلوبة وفى استطاعتكم أن تضيفوا لها بعض الدموع . وهذا يكفى!

فاعتذروا وباسوا القدم وأبدوا الندم . وتقدمت إلى مطعم فخم ولسوء حظى لم أجد جرسونة واحدة وإنما رجال قد ارتدوا ملابسهم الأنيقة المشجرة المذهبة . وأجسامهم ضخمة ونظراتهم فيها كثير من الترحيب والحفاوة . فانفتح لى الباب على الآخر مع كلمات : بوناسيرا سنيور . . فأقول : بوناسيرا . .

ـ وحدك؟ . .

ـ لا . . معى هؤلاء الوزراء الثلاثة . .

ـ أهلا وسهلاً . تفضلوا . . ترابيزة لأربعة أشخاص على النافذة . . على الحديقة على البحر؟

فقلت : على الواقف!

ـ يعنى إيه؟

ـ الحكاية . .

وقلت له حكايتنا ولم يظهر على الرجل أنه اقتنع . . واقتربت منه أكثر لأهمس فى أذنه . .

وفى هذه اللحظة فوجئنا بمن ينادينا فى الداخل : أهلاً وسهلاً . . تفضلوا . .

وكان السفير أحمد نجيب هاشم الذى صار بعد ذلك وزيراً للتربية والتعليم والصديق صلاح يوسف كامل مدير الأكاديمية فى روما . .

ولم يكد الثلاثة يسمعون ويرون هذه المفاجأة حتى انطلقوا هاربين إلى مرسى الجندول . . ولحقت بهم ونحن فى غاية الخجل والحرج . . ولم نكد نصل إلى ميدان القديس ماركوس فى البندقية القديمة حتى استوقفنى الأخوان أدهم وسيف وانلى . وأشاروا إلى بأن أمشى إلى الوراء . . وتقدم الاثنان إلى أحد الجرسونات واتخذوا

هذه الهيئة : واحد أحنى رأسه والثانى راح يبكى وأشار إلى الجرسونة أن توزع علينا آيس كريم ـ رحمة ونور

وبعد هذه المغامرات الشبابية بثلاثين عامًا ظهرت فى التليفزيون المصرى أحكى وأقول وأعيد . . وكان معظم هؤلاء الفنانين على قيد الحياة . . وفى لقاء مع الرئيس السادات قال لى : أنا سمعتك امبارح . . إيه المسخرة اللى انتوا عملتوها . . شوية شباب مجانين ! . . وهل اكتشف أحد أنكم مصريون؟ . .

فقلت : ياريس . . كوكو جولانى تأكيدوهو !

ـ إيه ده؟

فقلت : باللغة الكورية معناها : أبدا ياريس !

ـ هاها . . هاها . .

ولم تكن الكلمات كورية ! !

حمار الشيخ عبد السلام

الحـمـيـر فى الدنيـا ألوان وأشكال وحظوظ وقـصـص . وأشـهـر الحـمـيـر فى مصر (الحمار الحصاوى) . وليس هذا هو اسمه الصحيح . الصحيح هو (الحساوى) نسبة لمنطقة الحسا فى السعودية . . ومن أشهر الحمير فى تاريخ الفلسفة : حمار بوريدان . . هو حمار لم يركبه أحد . وإنما هناك نظرية تقول إنه حتى الحمير عندها إرادة . . مثلاً :

إذا وضعنا الحمار فى مكان متوسط بين الماء والبرسيم وكان عطشان جائعًا فإنه يقف بينهما يهز رأسه يمينًا وشمالاً والمعنى : أنه متردد بين البرسيم والماء وهذا التردد هو فى الرغبة والإرادة . . إذن حتى الحيوان له إرادة !

ثم حمار الفيلسوف الألمانى شوبنهور . . وهو فيلسوف التشاؤم ، ولكنه جميل العبارة رغم وجهه المكفهر . . وهو يكره فى الدنيا اثنين : أمه وأساتذة الفلسفة الذين يعقدونها ويطفشون منها . . أما أمه فكانت أديبة تغار من عظمة ابنها . وكان لها صالون أدبى يتردد عليه عظماء عصرها من الفلاسفة والشعراء . وفى يوم حاول أن يحضر الصالون فرفضت ودفعته من فوق السلالم وصرخ قائلاً : سوف تعيشين وتموتين وشهرتك إنك أم الفيلسوف شوبنهور !

وهذا ما حدث بالضبط . ولما أصدر كتابه الرائع (الحياة إرادة وامتثال) كانت تعرضه إحدى المكتبات

. . وكان كل يوم يمر على المكتبة فيجد النسخة الوحيدة فى الفترينة . . وفى أحد الأيام اختفت النسخة فسارع يسأل صاحبة المكتبة : ومن سعيد الحظ الذى اشتراها . فقالت له إنه أحد أساتذة الفلسفة وأعطته الاسم والعنوان . وذهب الفيلسوف يستطلع رأى الأستاذ فى تحفته الفلسفية . فبادره الأستاذ بقوله : قرأت الكتاب وهو صعب ومعقد وغير مفهوم!

فقال الفيلسوف شوبنهور : شىء عجيب هل فى كل مرة نفتح كتابًا ونسمع صوت حمار ينهق . لماذا يكون هذا صوت المؤلف دائمًا؟!

وكنا ونحن طلبة نقلد أساتذتنا فى المحاضرات . وكنت أقلد صوت أستاذنا طه حسين . وقد طلب منى طه حسين أن أردد ما كنت أفعله فيما مضى . وخجلت . ولكنه أصر . فقلدته على مسمع منه ومن زوج ابنته الدكتور محمد حسن الزيات والدكتور عبد القادر حاتم ويحيى حقى ، فقد كان طه حسين يكرر الكلمات والمعانى فى الجملة الواحدة وكان صوته غنائيًا .

قلت : إذا كنت راكبًا حمارًا فأنا راكب والحمار مركوب . ولما كان المركوب هو ما نلبسه فى القدم فلا أنا راكب ولا الحمار مركوب!

وضحك طه حسين فأشرق وجهه وتراجع إلى الوراء فى لطف وحنان . وطلب منى أن أعيد ذلك . فأعدت وزدت على ذلك كثيرًا وطويلاً . . ولم أنس حلاوة ابتسامة طه حسين!

وهناك حمار توفيق الحكيم . وقد اتخذه الحكيم صديقًا ومستشارًا ونكتة لكى تضاف إلى سخريته من بنى آدم . وله كتاب اسمه (حمار الحكيم) وكتاب اسمه (أنا وحمارى) . .

وفى يوم قرر توفيق الحكيم أن يشترى حمارًا من سوق الحمير فى إمبابة وكانت هذه السوق بالقرب من منطقة الكيت كات الذى كان كباريه له باب صغير على النيل جعلوه للملك فاروق إذا دخل أو خرج فإن أحدًا لا يدرى به . وقبل أن أصل إلى السوق وجدت الحكيم يصرخ : نزلنى هنا : نزلنى هنا : دى مصيبة كبيرة كبيرة قوى . .

ـ إيه يا أستاذ؟

ـ بلا أستاذ بلا هباب . . نزلنى هنا . . وأوقفت السيارة ونزل توفيق الحكيم ينفض ملابسه ولم أفهم . . واقتربت لأجد النمل قد تسلل إلى البنطلون دخل وخرج . فقلت له الله يخرب بيت حمدى غيث . .

ـ وحمدى غيث ماله؟

فى ذلك الوقت سنة ١٩٦٣ كانت لى مسرحية اسمها (الأحياء المجاور)ة بطولة حمدى غيث وسناء جميل . . بطلان فى ثلاثة فصول . . أما البطل الثالث فهو الانتظار ـ انتظارهما أن يجىء أحد يفتح لهم الباب أو الشباك ثم لا يجىء! وابتهاجًا بيوم الافتتاح قرر حمدى غيث أن يهدينى علبة كعك بالسكر . وضعتها فى السيارة بحديقة المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون . وعرف النمل طريقها ، ثم وهو فى طريقه إلى مغادرة السيارة احتشد فى بنطلون توفيق الحكيم! . .

ونزل الحكيم وأعجبه جحش صغير ظريف وقبل أن يفاصل سألت الحكيم : وكيف تعود به فأجاب بسرعة : نربطه بالسيارة بس إنت تمشى على مهلك شوية . . ويبدو أن السعر كان أعلى مما توقعه الحكيم . فقال للبائع بعد أن قدمت له الأستاذ الحكيم : نربط الحمار فى السيارة وأنت تركب معانا وفى المجلس يحلها ربنا .

فقد كان يطمع فى أن يفاصل فى ثمن الحمار . . فيكون السعر أقل . وربطنا الحمار فى السيارة . ولم يكن سهلاً أن أمشى ببطء . . والسيارات تقترب وتتغامز وتضحك علينا . . والحكيم كأنه ولاهو هنا . وانفلت الحمار وقفز صاحبه وعدنا إلى المجلس وسألنى الحكيم : أين ذهب الحمار قلت : عاد مع صاحبه إلى السوق . . ومن الصدف الغريبة أن يرانا محمد يوسف كبير مصورى (الأهرام) ويلتقط لنا صورة . ويتمكن توفيق الحكيم من الحصول على الصورة حتى لا ينشرها أحد!

وعندما ظهرت الطبعة الأولى لكتاب توفيق الحكيم (أنا وحمارى) عرضها مصطفى أمين/ وكان رئيس تحرير مجلة الاثنين على عدد من الصحفيين والفنانين للتعليق على الغلاف الذى يظهر فيه الحكيم جالسًا إلى جوار حماره .

قالت أم كلثوم: كل الأحبة اثنين اثنين!

وقال محمد عبد الوهاب: أنا مش شايف غير صفين لولى!

وقال كامل الشناوى: حمار وحلاوة!

وقال محمد التابعى: جيكل وهايد!

وقال على أمين: اللى أوله حكيم آخره حمار!

وقال مصطفى أمين: اختبر ذكاءك أيهما توفيق الحكيم؟!

وتصادف وجود حملة عنيفة على توفيق الحكيم فى الصحف.. خصوصًا فى صحيفة الجمهورية واتهام الحكيم بأنه سرق أفكار وقصص الآخرين.. حتى حمار الحكيم مسروق من الشاعر الأسبانى رامون خمينيز الحائز على جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٥٦. فقد كان له كتاب أصدره سنة ١٩١١ بعد أن كتبه فى ست سنوات الكتاب اسمه (بلاتير وأنا). وبالتيرو اسم الحمار. وبلاتيرو معناه صانع الفضيات. وكان الحمار فضى اللون وهذا الكتاب عبارة عن ١٠٧ لوحات شعرية ناعمة وفاتنة وليس لها مثيل فى الأدب العالمى. فقد أخذ الشاعر حماره ينظر إليه من فوق ويهديه السبيل إلى السحر والجمال والرقة..

وليس مثل حمار الحكيم طويل الذيل واللسان!

وهناك حمار آخر وأخير وله علاقة بتوفيق الحكيم أيضًا. فقد صدرت مسرحية لتوفيق الحكيم اسمها (السلطان الحائر) وهى من أروع إبداعات الحكيم. وجاء صدورها فى أسوأ أيام الصحافة المصرية بعد قرار التأميم وبعد تعذيب وإذلال الصحفيين وبهدلتهم وخصوصًا فى (أخبار اليوم) التى لم يكن يحبها الرئيس عبدالناصر. ولذلك نكل بها.. وسلط عليها عددا من الجهلة والطغاة من رجاله واحدًا بعد واحد.. وأيامها اقترحت أنا على السادات وكان نائب الرئيس وأحد المشرفين على (أخبار اليوم) أن نعلق آية قرآنية على مدخل أخبار اليوم تقول: ﴿**كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ**﴾ (النساء: ٥٦).. وقد صدرت هذه المسرحية وقد لزم الأخوان مصطفى أمين وعلى أمين البيت يلعبان

الطاولة ليلاً ونهاراً مع عبد الحليم حافظ وكمال الطويل وشادية ومجدى العمروسى ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم وكامل الشناوى. هذه المسرحية قائمة على عقدة، والعقدة كما جاءت فى كتاب (بدائع الزهور) لابن إياس.. فقد حدث أن كان فى مصر قاضى قضاة اسمه: العز بن عبد السلام وهو سورى.

وقد اكتشف هذا القاضى أن فى الشريعة الإسلامية نصًا يقول: لا يحق للعبد أن يحكم الأحرار. وكل الملوك عبيد بما فيهم السلطان ولابد من بيعهم جميعًا. والذين يشترونهم يعتقونهم ليعودوا بعد ذلك حكامًا على مصر.. أما ثمنهم فلابد أن يدخل خزانة المسلمين. وحاول السلطان منع الشيخ عبد السلام. ولكن الشيخ أصر على البيع.

وقرر توفيق الحكيم أن التى تشترى السلطان هى إحدى الغانيات ـ فكانت المسرحية تحفة أدبية!

وقرأت المسرحية وحالتى النفسية سيئة جدًا حزنًا على (أخبار اليوم) وآسفًا على ما أصاب مصطفى أمين وعلى أمين ولا حيلة لنا أمام تلذذ الرئيس عبد الناصر بتعذيبنا فكتبت مقالاً عن المسرحية جعلت عنوانه: حمار الشيخ عبد السلام وتلقف المقال على صبرى مدير مكتب الرئيس. ودخل على الرئيس يخبره بهذه الكارثة. والتفت الرئيس إليه وقال له: فيه إيه يا على.. فقال له على: فيه أنيس منصور بتاع مصطفى وعلى كاتب كلام فظيع.. وطلب إليه أن يقرأ. ثم أشار عبد الناصر بيده قرفًا مما سمع وترجم على صبرى هذه الإشارة بضرورة فصلى من عملى لكى ألعب الطاولة مع مصطفى وعلى وغيرهما..

وصدر القرار فاستدعانى مدير مكتب كمال رفعت المشرف على (أخبار اليوم) وأجلسنى طويلاً ليتمكن رجال المباحث من تفتيش مكتبى وتشميعه بالشمع الأحمر لأخرج إلى الشارع سنتين مفصولاً من عملى رئيساً لتحرير مجلة (الجيل) ومدرسًا للفلسفة بكلية الآداب.

أما العبارة التى أدت إلى فصلى وقد قرأها على صبرى وهو يتغنى بها فهى آخر

ما جاء فى مقالى وهى أن العز بن عبد السلام قد ركب حماره ووقف على حدود مصر . . هو بالنيابة عن العلماء وحماره بالنيابة عن الشعب المصرى!

ولما سألنى الرئيس السادات بعد سنوات طويلة عن حقيقة ما حدث فقلت له . فقال: ياباى يا أنيس دى عبارة تستحق عليها الشنق .

فقلت له : هذا شىء عجيب ياريس . . جمال عبد الناصر إللى بيشنق الناس اكتفى بفصلى . . وأنت الذى لا تفصل الناس تريد شنقى؟!

وسكت السادات ثم قال : يا أخى

أنت لسانك طويل! طويل يا أنيس . .

هاها . .

عندما دعانى الرئيس إلى الغداء فى بيت بطرس غالى

اتصل بى الرئيس حسنى مبارك وقال لى : أنا عازمك على الغدا . .

ـ شكرا ياريس . .

ـ طيب أنت عارف فين؟

ـ أى مكان ياريس . .

ـ عند بطرس . .

ـ بطرس مين يا ريس؟

ـ بطرس غالى هو قاعد قدامى وسامعنى . .

ـ بطرس غالى ماعندوش أكل ياريس . . ده كانت عنده فرخة ومقسمها مربعات زى استاد القاهرة . وبقى له دلوقت سنتين فى منطقة الجزاء . .

وكان الرئيس مبارك يضحك ويردد ما أقول . وسمعت بطرس غالى يقول للرئيس : يا أفندم أنيس أكل عندى فى البيت خمس مرات .

وكان الرئيس يردد ما يسمعه من بطرس غالى . .

ـ قلت ياريس بطرس غالى كان عنده طباخ بياخد مرتب زى مرتب الوكيل الأول للخارجية . .

فقال الرئيس مبارك : أسامة الباز قاعد قدامى أهوه . .

ـ آه كان بياخد مرتب أسامة الباز . . ولما لم يجد لا أكل ولا شرب عند بطرس ترك البيت . .

ـ يعنى مفيش أكل؟

ـ أبدا ياريس . .

طيب يا أخى اعزمه أنت . .

ـ طول عمرى باعزمه ياريس

وبعد دقائق اتصلت بى السيدة «ليا» حرم بطرس غالى تعاتبنى :

يا أنيس أنت عاوز الرئيس يفصل بطرس؟

ـ الريس ما بيفصلش حد . .

ـ عاوزه يوديه فى داهية؟

ـ يا ست الريس ده ما بيوديش حد فى داهية ما تخفيش . .

وبعد بدقائق اتصل بى الدكتور فؤاد محيى الدين رئيس الوزراء عاتباً يقول : إيه ياسى أنيس حتروح تتغدى عند بطرس وأنا رئيس الجهاز التنفيذى مش لاقى حاجة أكلها . .

ـ يا دكتور بيت بطرس مفيش فيه أكل . . الأكل اللى فيه يدوبك يغدى طفل مريض . . لا بطرس بياكل ولا مراته . . الاثنان ضربوا الرقم القياسى فى الجوع حتى الموت!

* * *

ويوم أقامت مصر حفلة تكريم لبطرس غالى وهو من أذكى وأخف الناس دما . . وبعد أن صافحنا الرئيس مبارك اتجه إلى أحد الأركان ليجلس ومعه الإمام الأكبر طنطاوى والأنبا شنودة وعاطف صدقى رئيس الوزراء وعصمت عبد المجيد أمين عام الجامعة العربية وبطرس غالى والسفير الأمريكى كرتسنر، فقلت

للرئيس: ياريس عاوز أحكى لك عن غراميات بطرس غالى: كنت أنشر مذكراتى فى مجلة (آخر ساعة). وفوجئت ببطرس غالى يطلبنى من باريس صارخًا: يا أنيس أنت تعرف البنت ميشلين إزاى.. تعرفها منين؟

وقلت: وميشلين ياريس دى كانت مذيعة فى القسم الفرنسى بالإذاعة المصرية.. جميلة جداً.. وقد فوجئت أنا بأن ثلاثة يحبونها والثلاثة لا يعرفون بعضهم البعض.. بطرس غالى وسليم رزق الله وأنا. وكنت انتظر ميشلين على باب الإذاعة فى شارع الشريفين.. وكانت ميشلين شقراء طويلة زرقاء العينين موسيقية الصوت والصورة والحركة..

وتساءل الرئيس: إزاى يعنى؟

ـ حاقول لك ياريس.. حلوة جدا جدا..

ـ طيب وبعدين؟..

ـ وفى ذلك الوقت من سنة ١٩٤٩ ياريس كنت مؤمنا بنظرية تقول: إن الطريق إلى قلب المرأة كلبها. وكان عند ميشلين كلب طويل رشيق.. جمال ودلال وحلاوة..

ـ هوه كمان؟

ـ كل شىء له علاقة بها كان جميلاً جدًا..

ـ فيما عدا بطرس طبعًا!!

ـ طبعًا يا ريس.. وكنت أرافقها وفى يدى كلبها إلى الأستوديو وأنتظر حتى تفرغ من قراءة النشرة.. وعندما تنزل إلى الشارع نجد شابا أبيض أحمر أصلع يعمل فى شركة شل اسمه سليم رزق الله وقد حمل قرطاسا به عضم للكلب.. آخذ القرطاس ونتركه واقفًا على الباب يتحسر على المنظر الذى يراه كل يوم: أنا وميشلين معا.. أحياناً تضع يدها على كتفى، أنا أيضاً، ويجرنا الكلب إلى سيارة واقفة أمام محلات الصالون الأخضر.. إنها سيارة بطرس غالى الذى لا أعرفه ولا رأيته حتى ذلك الوقت.

ولما وجدت الرئيس يريد أن يضحك مضيت أقول : وتضايقت جداً من أن بطرس غالى قد توهم أنه هو وحده الذى كان يعرف ميشلين وأنها كانت تحبه ويحبها . . حتى ذهبنا إلى إسرائيل ـ أسامة الباز وأنا وطلبت من وكيل وزارة الخارجية أن يساعدنى فى معرفة أين ميشلين بريتداى ـ وهذا اسمها ـ وهى نمساوية الأصل يهودية وأبوها طبيب أسنان الملك فاروق . . وبعد الغداء جاءتنى ورقة طويلة فيها أن ميشلين بريتداى تزوجت ثم مات زوجها وأنها تعيش الآن فى مدينة لوفان ببلجيكا . . وأنها . . وأنها . . وكلمتها فى التليفون لأول مرة منذ أربعين سنة وكان قلبى يكاد يخرج مع روحى من حلقى وقلت : ميشلين . . أنا أنيس منصور .

ـ أوه . . إزيك . . انت كويس . وحشتنى

ـ ميشلين وأنت كمان . . قولى لى يا ميشلين هل عرفت واحدا اسمه بيير جالى؟

ـ لا!

ـ ولا بيتر جالى

ـ لا!

ـ ولا بطرس غالى؟

ـ لا!

ـ ولا تعرفين أنه سكرتير عام الأمم المتحدة . . وقبل كده كان وزير خارجية مصر؟ .

ـ لا!

ـ إنه يقول أنك وإنه . .

ـ هاها . . كثير زيه فى حياتى!

ـ أشكرك يا ميشلين بس أنا عاوز اسمع منك الكلام ده بوضوح مرة أخرى . . وأنا سعيد لسماع صوتك . . ولازم أشوفك عندما أجىء إلى بلجيكا . .

وكلما سمع الرئيس مبارك جانباً من هذه الحكاية يسأل بطرس غالى الذى أحنى رأسه ولم تنطفئ ابتسامته الماكرة : الكلام ده صحيح يا بطرس!

ويجيب مستسلمًا : صحيح يا أفندم . .

وأعادت ميشلين كل ما قالت . . وأسمعت كلامها لعدد من الحاضرين . .

وعلى الفور طلبنا بطرس غالى وقلنا له : لا تعرفك ولا عمرها شافتك ولا سمعت عنك !

فيصرخ بطرس غالى وقال : يا كدابين يا أولاد الـ . . . . .

* * *

ثم سافرنا فى وفد سياحى إلى الأردن وإسرائيل برياسة الدكتور ممدوح البلتاجى وزير السياحة وقابلنا الرئيس عيزرا فايتسمان فى بيت الرياسة فى القدس فسألنى : إزى حال صديقك بطرس . .

فأجاب رءوف بطرس غالى عضو الوفد السياحى وأخو بطرس غالى وعضو مجلس الشورى : ياريس ولا صاحبه ولا حاجة . . طول الوقت بيشنعوا على بعض . .

ـ لكن صاحبه؟

ـ أيوه بيموتوا فى بعض . . لكن أنيس بيحكى حكايات تشيب عن بطرس . .

ـ زى إيه؟

وحكيت نفس القصة التى حكيتها قبل ذلك للرئيس مبارك . .

وكان تعليق الرئيس فايتسمان : إن بطرس غالى من زمان بيحب اليهود !

وفى القدس تلقيت مكالمة من بطرس غالى يقول لى : يا أنيس أنت بهدلتنى عند الرئيس مبارك والأنبا شنودة والرئيس فايتسمان . فاضل مين؟

ـ فاضل مراتك؟

ـ يوه . . عارفة كل حاجة !

ـ إذن اخترع لها قصصا جديدة . .

ـ . . . وأنا اخترعت لها قصصا كثيرة . . حتى زهقت . . وآخر مرة قالت لى : اسمع يا بطرس أنت تجمع كل هذه الأكاذيب وتطبعها فى كتاب عنوانه : عبيط كل من يصدقنى !

* * *

وسافرت مع بطرس غالى فى مهمة سرية إلى السودان وأوغندا وكينيا والصومال وأثيوبيا . . وفى سماء أديس أبابا رفض الرئيس هيلا مريام أن تهبط الطائرة . . وكان سفيرنا ينتظرنا فى المطار ومعه سندوتشات . وقال لنا : إنهم لم يعثروا بعد على رئيس الدولة لكى يعطى لنا الإذن بالهبوط !

وظللنا ندور فى سماء أديس أبابا حتى نفد الوقود وهبطنا اضطراريًا وقال لى بطرس : قل للرئيس السادات عن شجاعتى . لأنه دائمًا يتهمنى بأننى جبان وخواف . .

وفى إحدى الدول قال لى بطرس غالى : خد بالك أنا سوف أحدث الرئيس الذى سوف نقابله دلوقت بالضبط كما يتحدث السفير الأمريكى لزعماء دول العالم الثالث . .

دخلنا . وانفجر بطرس غالى يقول : يا سيادة الرئيس نحن ننهل من بحر حكمتك ونمشى على هدى نظرتك ونرى فى خطبك الأخيرة نموذجًا لما يجب أن يكون عليه فن الحكم فى العالم الأول والثانى . . أما خطبتك الأخيرة بالذات وكذلك قراراتك الأخيرة بالذات فهى نموذج لما يجب على كل الوزراء أن يتعلموه . . لقد وزعنا خطبك على الوزراء والمحافظين وكليات الاقتصاد والعلوم السياسية !

دعنى أصف لك هذا الرئيس . . وماذا يفعل مع كل عبارة يقولها بطرس غالى : كانت فى يده عصا من الذهب ومطعمة بالزمرد والمرجان والألماس وكان ينقلها من يده اليمنى إلى اليسرى . . ثم يضعها على الأرض لكى ينشر ذراعيه ويوسع ما بين ساقيه ويملأ مقعدًا كأنه كرسى العرش . . وانتهت الزيارة . وسألت بطرس : وهل قرأت خطب هذا الرجل ؟

ـ أبدًا . .

ـ ولا قراراته . .

ـ أبدًا . .

ـ إذن كيف تقول كل هذا الذى قلت؟ . .

ـ يا سيدى هذا النوع من الرؤساء لا يكفون عن الخطب ولا عن القرارات، ويصدقون كل ما يقوله السفير الأمريكى!

ـ وتعتقد أن هذا الرجل صدقك؟

ـ طبعًا . . بل كان يتمنى أن أظل أقول وأقول حتى يسقط ميتًا . . ولولا خوفى من أنك تضحك فى أية لحظة لكنت قد حدثته عن غرامياته والبنات الحلوة التى يختارها بما يدل على ذوقه البديع . .

ـ وأنت تعرف غرامياته؟

ـ أبدا، ولكن الرؤساء الأفارقة عندهم حريم من كل الجنسيات . .

ـ افرض أن هذا الرئيس أهداك بنتا جميلة فماذا تصنع بها؟!!

ـ ولا حاجة . . أسيبها لك علشان تسكت وترحمنى!

ـ هاها . . هاها . .

* * *

وفى كل رحلة مع بطرس غالى يشكو من أن زوجته تطلب إليه أن يستريح وأن يسترخى ولا داعى لوجع القلب . . وتقول له: يا بطرس احنا مش عاوزين فلوس . . احنا ما عندناش أولاد . . عندنا فى التوراة: أن حمارا حيا خير من أسد ميت . . وأنا أريدك حيًا!

وكان يضيق بهذه النصائح التى لا تملها زوجته . وفى مطار ألماظة وجدنا زوجته قادمة نحوه فإذا به يسرع الخطى وينحنى على يدها يقبلها . . فزغدته أقول له: أيه ده يا دكتور . .

ـ أيه؟ حمار حى يا أخى!

آه منه.. وآه عليه..
أكلنى نيًا.. ودفننى حيًا!

من أذكى وأظرف الشخصيات العربية الزعيم اليمنى محمد أحمد النعمان . . فهو رجل نحيف القوام لامع العينين . . له تعبيرات ساخرة موجعة . ولكنه خفيف الظل . وعنده أبيات من الشعر لكل مناسبة . . وهى دائماً لشاعر اسمه محمود الزبيرى . وظللت مدة طويلة أعتقد أن الزبيرى هذا شاعر وهمى . وأن الشعر من نظم الأستاذ النعمان . وفى يوم جاءنى الأستاذ النعمان ومعه رجل معمم مثله ويضع خنجرا تحت حزامه ، وقدمه لى : وهذا هو الشاعر الزبيرى!

وفى يوم طلبنى الأستاذ النعمان فى ساعة مبكرة جدا غاضبًا فسألته : إيه يا أستاذ؟

فقال : الصحف المصرية اليوم تشيد بما فعله الروس وتهمل ما فعله الإمام أحمد ملك اليمن . . فالروس قد أرسلوا (قمرًا) يدور حول الأرض وفى داخله (كلبة) . . بينما الإمام أحمد أرسل ابنه (البدر) ومعه (حصان) لملكة بريطانيا فلم تنشر خبراً يليق بهذه المناسبة العظمى! هاها . .

وفى مؤتمر الأدباء فى سوريا وقف الأستاذ النعمان يخطب فى دمشق أمام الرئيس شكرى القوتلى . . وهاجم الإمام أحمد والظلم والقهر مما أدهشنا وأضحكنا أيضًا . . طلب منه يوسف السباعى رئيس الوفد المصرى أنه يكف عن

مهاجمة الإمام أحمد، حتى لا يحرجنا مع اليمن . . ووعد الأستاذ النعمان . ولكنه لم يف بهذا الوعد . ففى إحدى الليالى فى (الزبدانى) بالقرب من دمشق . وكان الشعراء يتبارون فى إلقاء قصائدهم الغنائية الرومانسية وقف الأستاذ النعمان يقول : قال شاعرنا الزبيرى :

مشانق علقت .

فاستوقفه يوسف السباعى وقال : يا أستاذ نعمان فى عرضك لا داعى للهجوم على الإمام . .

وكان رد النعمان : يا سيدى هذه عادة عندنا فى اليمن أن نبدأ القصيدة بوصف المشانق . .

وسكت النعمان ليقول : كان فى اليمن خمسة من القراء . قتل الإمام أربعة ولم يبق سواى!

وصرخ يوسف السباعى : يا أستاذ أرجوك بلاش كده!

وسكت النعمان على مضض ليقول عبارته الباقية البليغة : هناك نوعان من الشعر فى اليمن : شعر فى مدح الإمام وشعر فى رجاء عفوه!

الله يا أستاذ فهى لا تنطبق على الإمام فقط وإنما على كل حاكم مطلق!

وكان الأستاذ النعمان فى ذلك الوقت يرتدى الجبة والقفطان . . وكان مفتونا بشاعرة سوريا، اسمها عزيزة هارون . حلوة مشرقة وألقت قصيدة جميلة فى ليلة مقمرة لا أذكر من كل قصيدتها إلا نصف بيت عجيب الشأن . تقول : تفوحين عطرا وشيئاً حرام!!

يا بنت الإيه . ما هذا الذى تقولين؟! وكيف اهتديت إلى هذا المعنى المثير . وكان الأستاذ النعمان يقول لها : الله يا سيدتى والله إن حرامك حلال!

فكنت أقول له : يا أستاذ نعمان . إنك ترتدى الجبة والقفطان والعمامة، إن هذا

المظهر وحده يجعل الجميلات يهربن منك. فقال: يا سيدى إن البراغيث فى لحيتى من الإناث فقط!

ـ هاها

* * *

وأذكر أننى سافرت بعد ذلك إلى فرنسا من بورسعيد على ظهر الباخرة (ماريشال جوفر) وكان معى الزميل عبد السلام داود نائب رئيس تحرير الأخبار عندما فوجئت بعدد من الشبان الصغار وقد خرجوا من أحشاء السفينة وسألونى: أنت أنيس منصور؟

ـ نعم

ـ ما كتبته عن الأستاذ النعمان لا يصح يا أستاذ. إنه رجل عظيم فى بلادنا. ووطنى. واحترامه واجب.

ـ ولكنى احترمه وأحبه ومعجب به.

ـ الذى قلته عنه فيه إهانة له وللشعب اليمنى..

ـ إننى لم أقصد ذلك، إننى أداعبه.

ـ هل يصح مداعبة الأمل الوحيد للشعب اليمنى فى الخلاص من حكم الأئمة الطغاة.

ـ ولكن الأستاذ النعمان لم يغضب مما كتبت. وقد تقابلنا كثيراً.

ـ ولكننا غضبنا. وقررنا أن نكتب لك..

واستأذنوا. واختفوا فى بطن السفينة. وبعد ساعة عادوا ومعهم خطاب طويل احتجاجًا على مجرد مداعبة مثل هذه الشخصية العظيمة..

وتصادف أن ذهبت إلى موسكو بعد ذلك وفوجئت بعدد من طلبة الجامعات الروسية. وكلهم من اليمنيين. ولهم مطلب واحد: أن أعتذر للشعب اليمنى عن مداعباتى غير اللائقة مع الزعيم محمد أحمد النعمان.

وقد كان الأستاذ النعمان سعيداً بما قاله الشبان اليمنيون وسألته إن كانت هذه المداعبات قد أغضبته فقال: لا . .

ولم يتوقف الأستاذ النعمان عن مهاجمة الإمام أحمد . . ثم مهاجمة الرئيس السلال . ومهاجمة السياسة المصرية فى التأييد الأعمى للرئيس السلال . . وألقى القبض على الأستاذ النعمان ودخل السجن شهورا . وخرج

ليعرف أن الزنزانة المجاورة كان يسكنها الشاعر الزبيرى . . والنعمان لم ينظم الشعر فى حياته ولكنه فى السجن نظم قصيدة فى هجاء الرئيس عبد الناصر فى غاية الروعة سمعتها منه ولم أسجلها مع الأسف . وقد سألت كثيرين ولكن أحدا لم يعرفها . . وسألت ابنه الذى كان سفيرا لبلاده فى ألمانيا فأبدى أسفه أنه لا يحفظها كاملة . وبعد خروج الأستاذ نعمان من السجن استدعاه الرئيس عبد الناصر . وقدم له الرئيس عبد الناصر علبة شيكولاته . . وقال له: يا أستاذ نعمان خد لك واحدة واقرأ فيها بختك . ومد الأستاذ النعمان يده وفتح الشيكولاته لينهار من الضحك . وقدم للرئيس عبد الناصر الحكمة الموجودة مع الشيكولاتة . وكانت تقول: عدو عاقل خير من صديق جاهل .

وأشار الأستاذ النعمان للرئيس عبد الناصر أن يجرب حظه أيضًا . وأخذ الرئيس عبد الناصر الشيكولاته وبدأ يضحك هو أيضًا فقد كانت الحكمة التى بداخلها تقول: اتق شر من أحسنت إليه!

* * *

وإذا كان الأستاذ نعمان ظريفا ساخرا لا يكف عن الضحك، فإن يمنيا آخر يبعث على الضحك ولا يعرف كيف يضحك . إنه الشاعر عبد الله بن يحيى العلوى . وهو أول مندوب يمنى فى الجامعة العربية . وقد اختاره الإمام أحمد لأنه شاعر . ولأن تقاريره عن الجامعة العربية يجب أن تكون شعرا . وكان الشاعر العلوى يضطهدنى بخطاباته اليومية . وفى هذه الخطابات رصد لكل الأخطاء النحوية والإملائية فى كل الصحف ـ ومعه حق! ولكن ليس معه حق

فى أن يتصور أننى وحدى يجب أن أصلح كل هذه الأخطاء . وأفهمته أكثر من مرة أنه ولا أى واحد غيرى يستطيع ذلك . فليس لأحد السلطة اللغوية أو النحوية أو الإصلاحية على الصحف! ولكنه لم يتوقف عن إرسال خطاباته اليومية وتسجيله الذى لا يكل ولا يمل لكل ما وقعت فيه الصحف والمجلات من أخطاء شنيعة .

وبدأت خطاباته تتخذ شكلا هجوميًا عنيفًا . يتهمنى فيها بالكسل والسكوت عن إصلاح الخطأ والساكت عن ذلك شيطان أخرس . وأنا هذا الشيطان الذى يتكلم فى كل شيء، إلا فى الأخطاء الفادحة الصبيانية للصحف ولكبار الكتاب!

وفى ذلك الوقت كان لى برنامج فى صوت العرب اسمه (شيء من الفكر) . . وفى هذا البرنامج الذى تقدمه السيدة سهام صبرى اصطحبت معى الشاعر العلوى . وكانت البرامج تذاع (على الهواء) وفى البرنامج نعيت إلى الأمة العربية وفاة الشاعر عبد الله بن يحيى العلوى . وقرأت أبياتًا من قصائد له عن (الصراصير) وعن (دورات المياه) وعن (الفول والطعمية) وكانت السيدة سهام صبرى تشير من وراء الحائط الزجاجى إلى الشاعر العلوى وتسأل: متى يتكلم لأنه لم يبق إلا لحظات وينتهى البرنامج . وانتهى البرنامج . وسألتنى: من هذا؟ فقلت لها: إنه الفقيد . .

قالت منزعجة: يعنى إيه؟

قلت: أنا زهقت منه فأعلنت وفاته!

ونزلت مع الفقيد إلى الشارع وودعته وهو لا ينطلق بكلمة واحدة . توالت برقيات العزاء من العالم العربى ومن أقاربه فى حضرموت وانقطعت رسائله . فقد انشغل هو وأولاده يؤكدون للناس أنه لا يزال حيا . وأن الذى فعلته كان دعابة من الوزن الثقيل .

* * *

وفجأة جاءنى مظروف ثقيل به عشر نسخ من كتاب يضم كل رسائل الشاعر عبدالله بن يحيى العلوى التى لم أنشرها، وقصائد أخرى كلها هجوم عنيف على شخصى وعلى أننى قادر على كل شىء وعاجز عن فعل أى شىء!

أما عنوان الكتاب فهو :

أنيس منصور

آه منه وآه عليه

أكلنى نيًا ودفننى حيًا!

الله يخرب بيتك...
بقلم يوسف السباعى!

لا محبة ليوسف السباعى إلا بعد عداوة. يبدو أن هذا المثل الشعبى صحيح. فقد صار يوسف السباعى أعز الأصدقاء وأجدعهم وأشجعهم. ولم أكن أعرفه. وهو رجل وسيم ظريف ابن نكتة ورجل متسامح جداً ولذلك تجد حوله كل نوعيات المفكرين. وعلى مسافات واحدة من عقله وقلبه. ولما أنشأ (المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون) أطلقت أنا عليه اسما تضايق منه يوسف السباعى. ولكنها نكتة جعلت اسمه (المجلس الأعلى لرعاع الآداب والفنون)!

وفى يوم كتبت مقالا عن أحسن القصص القصيرة فى ذلك العام، ولم أذكر قصة ليوسف السباعى، فهاجمنى بعنف، ورددت عليه بمقال أعنف كان عنوانه: عرايا ومرايا وقصص. وقلت فى نهايته: أنت أديب عريان ملط وأنا أنصحك بأن تتغطى بورقتين من التوت: إحداهما على فمك!

ثم أصبحنا أصدقاء.. وبعدها سافرنا إلى مؤتمر الأدباء فى سوريا وذهبنا معًا إلى لبنان، وفى طريق العودة اتفقنا على مشروعات أدبية وفكرية. وبعدها بيوم وجدت فى الصفحة الأولى فى كل صحف مصر إعلانًا عن العدد الجديد من مجلة (التحرير).. وفى الإعلان جاءت هذه العبارة: الله يخرب بيتك يا أنيس منصور بقلم يوسف السباعى؟!

واندهشت، فبيتنا لا يقوى على مثل هذه الدعوة الفظيعة وفى كل الصحف، فليس بيتنا هو بيت عبود باشا أو سراج الدين باشا . . إنه بيت بسيط تنفخه يطير . وقرأت مقال يوسف السباعى، ففيه يتحدث عن أيام كان فى «بلودان» أثناء انعقاد مؤتمر الأدباء . وكنا ننام فى غرفة واحدة، وكلانا يصحو مبكرا! وقد سبقته إلى الحمام وأخذت دشا وعدت إلى فراشى، وسألنى يوسف السباعى :

ـ مية الدش سخنة؟ . . فقلت : نارجهنم . . وقفز يوسف السباعى إلى البانيو . . وما هى إلا لحظات حتى بدأ يصرخ ويقول : الله يخرب بيتك . . الله يخرب بيتك!

ومعه حق، فلا توجد مياه ساخنة فى الفندق، فنحن على قمة جبل!

ويبدو أن هناك إصرارا منه على خراب بيتنا، وكان بيتنا مقابلاً لمسجد السلطان أبو العلا . وفى يوم جمعة بعد أن سمعت اسمى فى خطبة إمام المسجد وقفت أتأكد من ذلك .

فأعاد ذكر اسمى ونزلت بسرعة وجلست بين المصلين على الرصيف، وسألت جارى : إيه الحكاية الرجل ده بيدعى على مين؟ قال : على واحد اسمه أنيس منصور . .

ـ ليه؟

ـ والله مش عارف .

وقال جار آخر : أصله وجودى كافر . .

ـ وحضرتك تعرفه؟

ـ لا

ـ وهل قرأت ما كتب؟

ـ لا والله . .

ـ طيب لا تعرفه ولا قرأت ما كتب وتردد وراءه دعاءه إلى الله أن يخرب بيته . . وتقول آمين . . .

ـ آه حصل

ـ طيب ليه؟ . .

ـ أمال حاعمل إيه . . هو بيقول الله يخرب بيته . . ولابد أنه يستحق ذلك!

أما السبب فهو أنه قبل ذلك بأيام صدر عدد خاص من مجلة (الرسالة الجديدة) التى يرأسها يوسف السباعى عن (الوجودية) وأنا الذى كتبت هذا العدد من أوله لآخره . . ثم نشرت كل ذلك فى كتاب وهو أول كتاب باللغة العربية السهلة عن هذه الفلسفة . والغريب أننى لم أتعرض للدين . .

ثم إن هناك وجودية مسلمة ومسيحية ويهودية وملحدة . . ومن المؤكد أننى أنتسب إلى الفلسفة الوجودية المؤمنة . . ولكن الوجودية لأنها لم تكن واضحة عند معظم الناس، فليس أسهل من سوء فهمها واتهامها بالخروج عن الدين والكفر وخراب بيوت دعاتها وأدعيائها!

* * *

وعندما أنشئ المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون كنت سكرتيراً للجنة (العلاقات العامة) أما أعضاؤها فهم: الصحفيان الكبيران فكرى أباظة وأحمد قاسم جودة والأديب يحيى حقى ورئيس الإذاعة.

وفى أول نصف ساعة من أول جلسة تساءل يحيى حقى: هل إذا حول المجلس إلينا قراراته وبعثنا بها إلى الصحف هل هى ملزمة بنشرها؟!

فأجاب فكرى أباظة: لا . . طبعًا!

فاقترح يحيى حقى حل هذه اللجنة. وقررت اللجنة بالإجماع حل نفسها!

وذهبت إلى يوسف السباعى أزف إليه الخبر: فانتفض واقفًا قائلا: الله يخرب بيتك إيه اللى حصل؟

ـ وبيتى أنا وحدى ليه؟!

ـ مش عارف غيره

* * *

وسافرنا إلى كوبا سنة ١٩٦٤ مروراً بموسكو، وكنا فى رمضان ودعينا إلى الإفطار فى الكرملين، وكان الوفد المصرى إلى مؤتمر (القارات الثلاث) يضم عدداً من الشيوعيين من مصر، وجلسنا إلى المائدة.. أمامنا الطعام والمشروبات ومن بينها العصير والفودكا (؟!) وانتظرنا ونحن ننظر فى ساعتنا. ولكن الروس لا يردون ولا يشرحون لنا سبب الانتظار. وأخيراً عرفنا أن الأستاذ خالد محيى الدين يصلى المغرب؟!

وانتظرناه حتى فرغ من صلاته!، وبعضنا بدلا من أن يقول له: حرما قال له: كرملين!!

ولم تعجبه هذه القفشة.. ولكنى قلت له: يا أستاذ خالد.. رحلتنا هذه مقلوبة.. فكان الواجب أن نذهب إلى كوبا وبعدها إلى موسكو فهناك عمرة وهنا: حج!

وكان من ضمن الوفد واحد سعودى منشق اسمه: أحمد الفاسى، ومعنا واحد يمنى هو عبد الله بن يحيى العلوى. وكنا نركب الأتوبيس، أما هذان فيركب كل منهما سيارة فخمة باعتبارهما رئيسى وفد.. مع أنه لا وفد فكل منهما هو الوفد والرئيس معًا.

أما الرجل اليمنى فقد خصص له الروس أستاذا بجامعة موسكو ليساعده، وكان هذا الأستاذ متخصصًا فى الجيولوجيا ويتكلم العربية.. وقد وزع علينا الروس كوبونات للإفطار والغداء والعشاء، وكان الشاعر اليمنى ينادى الأستاذ الجامعى قائلاً: ياجريجورى هات لى الشنطة من فوق..

يقصد أن يذهب الدكتور جريجورى إلى غرفته ويأتى بالشنطة وبعد دقائق جاء جريجورى بشنطة حقيرة جداً.. مفتوحة البطن.. جاء بها بما عليها من ملابس، وشعرنا بالخجل من هذا التصرف الغريب.

ولكن الشاعر اليمنى لم يعبأ بضيقنا منه، وقال له: يا جريجورى اقفل الشنطة.. ورتب لى الفرش، وسوف أفرغ من الطعام، فانتظرنى هناك!

حاولنا أن نقنع الشاعر اليمنى: يا أخى عيب.. إنه أستاذ جامعى محترم،

والسوفييت خصصوا لك هذا الأستاذ احتراما لك . . فهل ترد على ذلك بامتهان الرجل . . عيب يا أخى عيب . .

وكان رد الأستاذ العلوى : أنت حاقد . . . أنت حسود . . إن قلبك بيأكلك . . لأن هذه هى المرة الأولى فى تاريخ الأمة العربية التى يستعمر فيها اليمن دولة مثل روسيا . . ولكنكم فى بلادكم تنظرون إلى الروس على أنهم أسياد . . أما نحن فنراهم عبيدا!

قلت له : يا أستاذ علوى . . الوضع غير كده . . أنت رجل قليل الأدب وهو رجل مؤدب . . هو متواضع وأنت جلف . . الذى فعلته فضيحة . . وأنا أقترح عليك أن تعود إلى بلادك . . لأنه إذا كانت هذه بداية الرحلة إلى كوبا . . فالله يعلم حجم الفضائح التى سوف نرتكبها . .

ـ فضائح . . أنت الذى فضحتنى فلم يكن أحد يدرى بما فعلت . .

ـ ولكن الأستاذ جريجورى يدرى وسوف يكتب تقريراً للسوفييت . . والسوفييت سوف يكلمون يوسف السباعى .

ـ تقترح إيه؟

ـ تحمل شنطتك الحقيرة هذه وتعود إلى اليمن . .

وسكت الرجل لأجد بعد لحظات انفجاراً فى التليفون : الله يخرب بيتك يا أنيس!

ـ لقد بكى الأستاذ العلوى وهدد بالانتحار ، وقلت ليوسف السباعى : لا تصدقه . . لو رأيت كيف يأكل وكيف يشرب ويستمتع بحياته ويرتب ملابسه . . كل ذلك يدل على هدوء أعصابه وموته على الدنيا . . الله يخرب بيته!

فضحك يوسف السباعى وقال : وبيتك أنت كمان!

* * *

وفى هافانا عاصمة كوبا وجدت الكثير مما يبعث على الضحك . . . فقد كان هناك منشق سعودى اسمه أحمد الفاسى ، وكان يعمل لحساب المخابرات السوفييتية

وقال لى: إن الروس يعطونه منشورات يبعث بها لعمال البترول، والمنشورات صغيرة جداً يضعها تحت طابع البريد فى خطاب عادى، وفى السعودية عندما يجدون المنشور يكبرونه ويعرفون التعليمات.

وفى إحدى الليالى قلت له: اسمع يا أحمد أنت عاوز تعمل زعيم شيوعى فى بلدك؟ أنا عندى فكرة. أنا سوف أكتب لك (بيان الحزب الشيوعى الشريف). ثم تختصر اسم هذا الحزب إلى الحروف التالية(ح. ش. ش)..

فقال: ممكن...

قلت: طبعا وسوف أرضى كل الاتجاهات الدينية والسياسية والاقتصادية..

ـ كيف؟

ـ هات ورقة وقلما

وكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم..

حزب شيوعى شريف..

سؤال ما هى أحب الأديان إليك؟

جواب: الإسلام.

سؤال: ما هى أحب السيارات؟

جواب: الكاديلاك.

سؤال: ما هى أحب العطور؟

جواب: الفرنسية.

سؤال: ما هى أحسن الجزم؟

جواب: الإنجليزية.

سؤال: ما هى أحب الأطعمة؟

جواب: الإيطالية.

سؤال: ما هى أحب الأدوية؟

جواب: الألمانية.

سؤال: ما هى أحب النساء؟

جواب : السعودية .

وعشرات من الأسئلة والأجوبة وأعطيته الورقة ، وحكيت ليوسف السباعى فقال لى : الله يخرب بيتك . . أنت عارف الفاسى بيشتغل مع مين . . مع صلاح نصر . . مخابرات يعنى . . إن شاء الله حتروح فى ستين داهية !

ولم أكن أعرف ذلك ، وذهبت إليه ليلاً أدق بابه : افتح يا أحمد .

ـ ليه؟

ـ ضرورى جدا!

وفتح الباب وسألنى : الحرب قامت؟

ـ لا . .

ـ هات (البيان الشيوعى) لأننى أريد أن أضيف إليه أفكارا جديدة .

ـ مش عارف فين فى الشنطة .

ودفعته إلى الوراء وقلبت الشنطة على الأرض ووجدت المنشور الشيوعى ، وكانت المدفأة مشتعلة فى غرفتى . . وألقيته فى النار وسحبت الغطاء على وجهى ، ولم تفارقنى الكوابيس حتى عدنا إلى مصر وبعدها فقد انتشرت القصة فى مصر ولكن لا دليل ماديا على وجود (البيان الشيوعى) . . .

وفى إحدى الليالى جاءنى الساعى يقول لى : هدية من واحد اسمه الأستاذ أحمد الفاسى .

وانشغلت طويلا ، دون أن أعرف ما هى هذه الهدية ، وبعد منتصف الليل جاءنى الساعى يقول لى : إنه كسكسى . . ولحمة وحلويات . . فقلت له : بالهنا والشفا خليها لك !

وفى الصباح جاءنى الساعى فى حالة من الرعب .

فعندما ذهب إلى بيته وجد أن الطعام رائحته قد تغيرت ، فلم يشأ أن يأكله هو وأولاده . . وألقى به لكلب صغير عنده . . وفى الصباح وجد الكلب ميتاً .

إذن قد أراد أحمد الفاسى أن يقتلنى بعد أن أصبح مفضوحا فى مصر وفى بلاد أخرى!

* * *

مرة سألنى الرئيس السادات هكذا:

ـ يا أنيس!

ـ نعم يا ريس . .

ـ يوسف السباعى صاحبك؟

ـ أيوه يا ريس.

ـ وأيه رأيك فيه؟

ـ من ناحية إيه يا ريس؟

ـ كإنسان.

ـ والله إنسان لطيف ظريف وابن بلد.

ـ لا مش ده قصدى . . يعنى جدع حليوة . . وبيكتب فى الحب، مش كده؟

ـ أيوه.

ـ طبعا حواليه بنات الدنيا أشكال وألوان . . مش كده؟

ـ أيوه يا ريس.

ـ وأنت برضه بتكتب فى الحب؟

ـ أيوه يا ريس.

ـ يعنى الحال من بعضه؟

ـ . . . .

ـ طيب . . . .

ـ . . . .

وقلت ليوسف السباعى ما قاله السادات فقال لى : الله يخرب بيتك يا أخى هو ربنا قطع لسانك . . كنت قل له أى حاجة .

ـ يعنى أقول له أيه . . إنك مش حليوة . . وإن الناس أشكال وألوان تمشى وراءك أينما ذهبت . . وتفتكر السادات ما يقدرش يعرف . . هو بالفعل يعرف كل حاجة .

ـ . . . أمال هو بيسألك ليه؟!

ـ اسأله أنت!

ـ الله يخرب بيتنا احنا الاثنين!

ـ إن شاء الله بيتك لوحدك!

كذب المنجمون.. إلا هذه المرة!

القلق على المستقبل هو الذى اخترع فن التنجيم . . أو الفنون الأخرى مثل : قراءة الفنجان والكوتشينة والطاروط والظلط وشكل السحب والغروب وحركة الطيور . . فالتنجيم ليس علما ولكنهم يحاولون أن يجعلوه كذلك .

ولا توجد صحيفة أو مجلة فى العالم ليس فيها باب عن البخت والحظ . . ولا شبكة تليفزيونية أيضاً . ولم يفلح أحد فى القضاء على قلق الناس على حياتهم . حتى الصحف التى تهاجم هذه الفنون القائمة على التخمين والفراسة لم تستطع إلغاء هذه الأبواب . . ومعظم السيدات يشربن القهوة ويقلبن الفنجان ثم يعدلنه ويقرأن ويقلن .

ومن العجيب أن يتحقق بعض ما يقال . وعند ملايين الرجال والنساء أضعاف عددهم : حكايات وروايات جاءت فى فنجان القهوة!

* * *

فى أوائل ١٩٥٩ جلست مع الصديقين إبراهيم سعدة ومصطفى شردى فى مطعم (جانولا) ببورسعيد عندما جاء ماسح للأحذية سحب يدى ليقرأ كفى وراح يضغط على باطن الكف والأصابع ويسألنى : هو ده سيادتك بحار؟

قلت : لا .

ـ طيار؟

ـ لا . . .

ـ ولا فى نيتك؟

ـ لا . .

ـ بس أنا شايف أن سيادتك سوف تعبر البحار والأنهار والأشجار والله العظيم . وأنا متأكد تماماً كما أراك الآن . .

ولا أخذ أجرًا ولا مسح حذائى . . كأنه كان موفدًا لهذه المهمة! وقال لى كلامًا دخل من هنا وخرج من هنا! وبعدها بشهور قمت بأطول رحلة قام بها أديب حول العالم لمدة ٢٢٨ يومًا . . وعبرت البحار والجبال ولمست القطبين الجنوبى والشمالى وعبرت خط الاستواء مرتين .

مرة ذهابًا إلى أستراليا . . ومرة من أستراليا إلى اليابان .

ونسيت ما قاله هذا الرجل معظم الوقت ولم أنس أنه قبل أن ينهض هارباً همس فى أذنى قائلاً : خذ بالك من صحتك!! هذه العبارة كلما تذكرتها أفسدت لى متعة السفر . فظللت أدخل المستشفيات فى كل بلد . . لسبب . . ولغير سبب معظم الوقت!

* * *

وعرفت عن الموسيقار محمد عبد الوهاب زياراته السرية التى يقوم بها من حين إلى حين . وأقسمت على الكتمان ، ففى العمارة التى كان بها مكتب محمد عبدالوهاب كانت تعيش فوق السطوح سيدة أرمنية اسمها مدام كركور . كان يتسلل إليها لتقرأ له الفنجان . . حريصا على أن يكون بمفرده . وأن يأتى بالفنجان . . ولم يحدث أن أفصح عبد الوهاب عما قالته له وكان يؤكد أنها أعجوبة . . أى أنها تعرف كثيراً . ودون أن يعرف عبد الوهاب ذهبت إلى مدام كركور وأصرت هى أن تقدم لى القهوة ولم أكن قلقا على أى شىء . . فقط صحة والدتى .

وفى كل مرة تقول لى : لا تخف ، إنها زى البمب!

ولم أكن أرى هذا البمب الذى تتحدث عنه فأمى تزداد نحافة وضعفًا. وفى إحدى المرات قلت لها: شوفى كويس يا كيكى - اسم الدلع لكاترينا.

ويا ليتنى ما قلت. فقد أدارت الفنجان بعصبية شمالا ويمينًا كأنه طبق الرادار ونظرت إلى قاع الفنجان.. ووضعته على الترابيزة وقالت لى: ماما مريضة خالص.. لازم تدخل المستشفى. وخلاص!

وسألتها: وخلاص يعنى إيه؟!

قالت: كل شىء لازم ينتهى..

لا أعرف كيف نزلت من فوق السطوح. واتجهت إلى البيت. لأجد طبيبا قد استدعاه أحد إخوتى.. وانتقلت أمى إلى المستشفى وخلاص.. يرحمها الله.

* * *

أول مرة أسمع عن قارئ الكرة الكريستال (فردى) كان من نجيب محفوظ.

قال لى نجيب محفوظ إنه ذهب إليه عندما كان طالبًا فى قسم الفلسفة بآداب القاهرة.

ومن عادة (فردى) هذا أن يضع الكرة الكريستال بينه وبين زواره ويقول: إحنا عندنا مشكلة فى البيت... إحنا سوف نقبض أموالاً كثيرة بعد يومين أو ثلاثة... إحنا إن شاء الله حنروح فى ستين داهية!

وهو بيتكلم بصيغة الجمع مثل الأطباء الذين يتحدثون عن أنفسهم وعن مرضاهم ومثل المحامين الذين يتحدثون باسمهم واسم موكليهم.. فقال لنجيب محفوظ: إحنا أعظم واحد فى البلدى دى... أنت تلميذ؟ قال له: أيوه..

- مضبوط علشان إحنا شايفين كتب كثيرة. وإحنا كنا عاوزين ننتحر.. امشى اخرج من هنا يا ولد.

فقد كان نجيب محوظ قد ذهب إلى كوبرى الزمالك ليلقى بنفسه فى النيل.

عندما فوجئ بأحد أصدقائه الذى عرض عليه أن يذهب إلى العراف الإيطالى فردى الذى يمر من عليه.

وعندما نشرت هذه الحكاية غضب نجيب محفوظ.. وقال لى: إن له ابنتين وأنه ما كان يجب أن تعرفا عنه شيئًا من كل ذلك!

والحمد لله لم تقرأ ابنتاه ما كتبت.. بل ولا تقرآن كل ما يكتبه نجيب محفوظ!!

وأصبح الراهب الإيطالى (فردى) صديقى. وترددت عليه كثيراً وقدمته فى برنامج تليفزيونى كنت أعده، اسمه (نجمك المفضل) وقال وتنبأ لكل من كان فى الأستوديو أثناء التسجيل.

وفى ليلة سوداء ذهبت إحدى الزميلات ومعها زوجها بتوجيه منى إلى (فردى) ودخل الاثنان معًا. ووضع فردى الكرة الكريستال بينه وبينها وقال لها: إحنا حامل.. إحنا فى بطننا طفل بس مش من الجوز بتاعنا!!.. دى من واحد خواجة!!

يا خبر أسود.. والباقى يمكنك أن تتخيله. وكان الذى قاله فردى صحيحًا!

أما فردى فهو راهب كاثوليكى وفرنسيسكانى أيضاً. وتربطنى بالفرنسيسكان صلات قوية. فقد كنت أتردد على الدير الدومنيكى بشارع مصنع الطرابيش فى العباسية لدراسة الفلسفة المسيحية.. وفى هذا الدير كان لى أصدقاء أعزاء من بينهم الأب قنواتى والأب بولا نجيه.. وكنت عضواً معهما فى جمعية (إخوان الصفاء)..

وقد تنبأ فردى ـ لا أعرف كيف ـ بأحداث رهيبة وبمنتهى الدقة. وبدأت أخاف أن ألقاه حتى لا يتطوع ويقول مثلاً: سوف يحدث لك كذا وكذا.

وفى ليلة جاءنى صوت (فردى) فى التليفون باكيًا صارخًا متوسلاً يا سنيور أنيس.. الحقنى!

فقد ألقى القبض على رقبته بتهمة إدارة بيته للدعارة!!

أعوذ بالله إنه راهب زاهد فى الدنيا مشلول، ويعطى أمواله للفقراء المسلمين، وأقسم لى (فردى) فى التليفون أنه لن يبقى فى مصر دقيقة واحد، وأقسم. . واتصلت برئيس الوزراء الصديق النبيل ممدوح سالم وانزعج ممدوح سالم وأطلق سراحه فوراً. . . وفى تلك الليلة قرر فردى مغادرة بيته فى شارع ٢٦ يوليو! وظل فى مطار القاهرة يومين فى انتظار الطائرة. . وترك البيت لخادمه.

. . إيه الحكاية؟ إحدى السيدات ذهبت إليه تسأله عن حالها فوضع الكرة الكريستال بينه وبينها وقال لها: إحنا مغفلين. . إحنا حمار. .

ـ ليه؟

قال لها: إحنا مش بنفهم حاجة. . علشان جوزنا متجوز علينا. . فى نفس الشارع إللى إحنا ساكنين فيه. . وإحنا نايمين على ودنا زى الحمار. .

وكانت عند هذه السيدة شكوك. . فقد لاحظت أن زوجها ضابط البوليس يتردد على عمارة فى نهاية الشارع. وذهبت إلى العمارة وسألت البواب، فأشار إلى شقة رقم كذا. وذهبت. فوجئت بزوجها بالبيجامة فشدها من شعرها إلى داخل الشقة وهات ياضرب حتى سال دمها. وانتزع منها كيف عرفت مكانه!

* * *

وجاءنى قارئ الكف (محمد جعفر) الذى لم أر له مثيلا فى كل البلاد التى زرتها ومددت فيها يدى أسأل وأنتظر وأتسلى. . ومحمد جعفر والعياذ بالله كلامه قاطع ونهائى، قال لى: إن شاء الله ومن غير مقاطعة وبعد ستة شهور بالتمام والكمال سوف تجد نفسك فى الشارع. . مطروداً من (أخبار اليوم). . . بإذن الله تعالى!

وبعد ستة أشهر أصدر الرئيس عبد الناصر قراراً بفصلى وكنت أيامها رئيساً لتحرير مجلة (الجيل) ومدرساً للفلسفة بآداب عين شمس. . سنتين فى الشارع!

ومن دهشتى لما قاله محمد جعفر ذهبت به إلى الأستاذ مصطفى أمين. . وبسرعة فتح مصطفى أمين أجندة أمامه وراح يكتب ويقول بصوت عال: جاءنى

أنيس منصور ومعه قارئ الكف محمد جعفر الذى قال لى : ربنا يلطف بيك أنت وأخوك على أمين . . سوف تعيشان بإذن الله حتى الموت متباعدين . . فى قارتين ولن يجمع بينكما إلا القبر !

وقد حدث، فدخل مصطفى أمين السجن تسع سنوات ظلمًا . وبقى على أمين حائرًا بين لندن وبيروت كلما تذكر أخاه فى السجن ترك السرير ونام على الأرض . . وعندما خرج مصطفى أمين من السجن أعددت له عشاء فى بيتنا ، وجاء على أمين من الخارج ليدخل مستشفى الجمعية الخيرية فى العجوزة ، ومنه إلى رحمة الله !

وفى إحدى المرات زارنى محمد جعفر وكان عندى الزميل مصطفى سنان ، فقلت له : اقرأ له كفه يا جعفر !

ومد مصطفى سنان يده وإذا بمحمد جعفر ينتفض واقفًا صارخًا : يا ابنى أنت عايش إزاى؟ عايش إزاى؟ يا ابنى عمرك انتهى! أنت كان لازم تموت من شهور أنت عايش إزاى . خط ا العمر انتهى . . إزاى الحكاية دى!

أعوذ بالله . ومات مصطفى سنان بعدها بشهرين ! !

وفى يوم كنا نمشى فى جنازة والد الموسيقار كمال الطويل ، حين اقترب محمد جعفر من مصطفى أمين : إدينى إيدك يا مصطفى .

وقال له جعفر : الله؟ أنت قابلت جمال عبد الناصر . . أو حتقابله . . وسوف تعودون جميعًا إلى العمل فى أخبار اليوم!

وكنا ـ مصطفى أمين وعلى أمين وأنا جميعًا قابعين فى بيوتنا . لقد فصلنا الرئيس عبد الناصر ، وبعد أن تركنا العمل فى (أخبار اليوم) ذهبنا إلى العمل فى (دار الهلال) . . ولكننا نحاول أن نعود إلى مواقعنا القديمة ، وكان مصطفى أمين قد قابل فعلا الرئيس عبد الناصر ، ووعده بالعودة ، وظهر مصطفى أمين فى التليفزيون يتكلم عن محمد جعفر كأول من عرف بعودتنا إلى (أخبار اليوم) ، وتصادف أن رأى الرئيس عبد الناصر هذا البرنامج فتضايق من إذاعة هذا السر . فأجل عودتنا إلى أخبار اليوم ستة أشهر ! !

بصراحة تضايقت من محمد جعفر الذى أشاع الرعب واليأس فى نفوس كل الذين تصادف وجودهم فى مكتبى، ومنعنى الحياء أن أقول له: يا أخى ما دامت كل تنبؤاتك فظيعة فلا داعى لأن تجيء فيلعننى الناس بدلاً من أن يلعنوك!

ولم أعرف ما الذى أفعله.. ثم جاءتنى الفرصة، لقد قرر محمد جعفر السفر إلى السعودية وأوصانى أن أكتب مقدمة لكتاب له عن (علم النفس) وأن أجعل الإهداء إلى حماته صاحبة الفضل عليه، والتى مولت إصدار هذا الكتاب.. ولم أكتب المقدمة، وإنما اكتفيت بهذا الإهداء:

(إهداء)

إلى حماتى وحيوانات أخرى!!

محمد جعفر

وكان هذا كافيًا لقطيعة استغرقت سنوات....

* * *

وعندما رأست تحرير مجلة (آخر ساعة) سنة ١٩٧٠ كنت فى حاجة إلى مين يكتب الطالع بهذه العناوين: نجوم السماء أقرب لك.. أو حظك من السماء.. ووجدت (العبقرى الفلكى) وقدمته فى الإذاعات والتليفزيون.. حتى صار مشهوراً، وجعلت (آخر ساعة) تنفرد بنبوءاته فاتجهت العيون إليها بحثًا عنه، ولكن العبقرى الفلكى (زودها شويتين).. فلم يكن يبعث بالطالع فى المواعيد المحددة.. فقررت أن أكتب الطالع المتفائل دائمًا، ونشر هو فى الصحف أنه لم يعد يكتب هذا الطالع وتناوبت مع آخر كتابة هذا الطالع مترجمًا من مجلات عالمية..

وكنت قد مارست صناعة التفاؤل قبل ذلك بوقت طويل عندما رأست تحرير مجلة (الجيل) ١٩٦٠ وكذلك فى مجلة (هى) التى رأست تحريرها مع الأستاذ على أمين..

وكان كاتبنا الساخر أحمد رجب نائبًا لى فى مجلة (الجيل) وعندما قام بإجازته تفضل مشكوراً بكتابة البخت، وأحمد رجب له خط واضح وأنيق، وشكرته على

ذلك، وكان يبعث بالبخت من الإسكندرية، وفى إحدى المرات قرأت ما كتبه فلاحظت أن كلامه فى أحد الأبراج يكاد يكون شخصيًا . . أى يتوجه به إلى واحدة معينة!!

وانتظرت ما بعث به فى الأسابيع التالية . . وتأكد ظنى من أنه يتوجه بالنصح إلى واحدة ويقول لها: ولا يهمك كلام الناس . . صدقيه هو مفيش غيره . . لأنه يعبدك .

فشطبت كل ما كتبه أحمد رجب وكتبت بدلاً منه: لا تصدقيه ولا تتزوجى شخصًا اسمه أحمد يرتدى قميصًا أحمر ويمشى فاتحًا صدره على بلاج المعمورة!

وفى اليوم التالى جاءنى أحمد رجب صارخًا:

خربت بيتى . . هدمت كل اللى بنيته فى سنة . . حرام عليك أقول لها أيه دلوقت!

* * *

ولما أصدرنا مجلة (هى) كانت بعد تأميم الصحافة سنة ١٩٦١ وكان الشيوعيون الذين سلطهم الرئيس عبد الناصر على (أخبار اليوم) قد أغلقوا مجلة (الجيل) فاتجهت آمالنا إلى أن ننقل المجلة الفرنسية (أل) إلى العربية وسميناها: هى . . أما البخت فقد نقلناه إلى مجلتنا الجديدة، وكان للبرج الواحد عدة أبواب: الصحة والحب والحياة الزوجية والفلوس والرحلات، وشاءت الصدفة وحدها أن أقرأ الطالع الذى تترجمه محررة مبتدئة، فوجدت فى باب (الحياة الزوجية) هذه العبارة: لا تسرفى فى العلاقات الجنسية خارج نطاق الأسرة؟!

ياخبر زى بعضه لو ظهرت هذه العبارة لأرجعنا عبد الناصر إلى الشارع مرة أخرى، وفى هذه الحالة معه حق!

وكانت لنا زميلة أخرى بنت باشا تترجم هى أيضًا عن مجلة (أل) الفرنسية، وقد ترجمت لنا حرفيًا (طبق اليوم) . . أما طبق اليوم فهو: الديك الرومى والأرز

بالخلطة، ومفردات الخلطة وكيف يزدان الطبق بالورود مع أكواب النبيذ الأحمر الذى اسمه كذا أو الكونياك الذى اسمه كذا؟!

وحذفت الموضوع كله عندما انفتح الباب ودخل على أمين . . وقبل أن ينفجر بكلمة واحدة أشرت إلى سلة المهملات . . فضحك وعاد إلى مكتبه وضحك أكثر عندما نقلها إلى مصطفى أمين الذى نقلها إلى جمال عبد الناصر . . وصاروا كلهم يضحكون!

* * *

وفى مدينة أسوان قابلت (حاييم هرتسوج) الذى صار رئيسًا لإسرائيل مع زوجته المصرية . . وقد كان مديرًا للمخابرات، ومندوبًا لبلاده فى الأمم المتحدة، وهو مؤلف لكتاب عن (الحروب العربية الإسرائيلية) . . ولما سألته ما الذى تعمله الآن قال: وكيل سيارات ولى مكتب محام وعضو مجلس إدارة أحد البنوك ومؤرخ و . . و . .

وأبديت دهشتى لكثرة أعماله وبسرعة وجدت أصابع زوجته فى وجهى - أى خمسة وخميسة وكنت نسيت أنها مصرية!

قالت لى: كفك!

وأعطيتها كفى وقالت لى: أنت سوف تفوز بأكبر جائزة فى بلدك . . وبعدها بشهور سوف تفوز بجائزة أخرى لا تخطر على بالك!

ولم يكن أحد يعلم أننى مرشح لجائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٨٠، ثم فزت بها . . وبعدها بشهور فوجئت بمستشارنا الإعلامى فى الهند حمدى الكنيسى وهو الآن عضو مجلس الشعب. يقول لى فى التليفون: مبروك أنت فزت بجائزة الإبداع الفكرى لدول العالم الثالث وأنت أول واحد يفوز بها . .

ثم سألنى سفيرنا فى الهند، وكان عمرو موسى قائلاً:

هل تحضر الاحتفال بمنحك هذه الجائزة أو أنوب عنك!

وناب عنى عمرو موسى وتسلم الجائزة التى لم أكن أعرف أن لها وجودًا.

ثم طلبت منى السيدة حاييم هرتسوج أن تقرأ كف الرئيس السادات، ورفض الرئيس قائلاً: لا . . لا . . خليها تروح لجيهان هى اللى بتحب الحاجات دى!

* * *

وفوجئت بعد ذلك بالصحف الإسرائيلية وقد نشرت نبوءة لواحدة عرافة تقول: إن السادات سوف يقتلونه قبل نهاية العام!!

وقررت أن أنقل للرئيس السادات هذه النبوءة الشنيعة. . ولم أعرف كيف، ولكن لأبد أن أقول تحذيراً له، واتصلت بوزير الداخلية النبوى إسماعيل وقلت له. قال: والله أنا غلبت مع الرئيس. . لقد تعبت من تحذيره، مفيش فايدة!

وقابلت هذه العرافة فى حيفا بعد استشهاد الرئيس السادات، وسألتها: وكيف عرفت؟

قالت: الرئيس السادات يفتح كفيه عند تحيته للجماهير!

ثم جاءت إلى القاهرة وقابلتها، ووجدتها تعرف الطالع عن طريق الفنجان وقراءة الكف وكوتشينة كبيرة الأوراق اسمها (الطاروط)، وسمع بها سيد مرعى رئيس مجلس الشعب الأسبق، وقدمته لها على أنه طبيب يعيش فى كندا، وشرب القهوة وأعطاها كفيه، ونشرت أمامه أوراق الطاروط.

وقالت له: على كل حال أنت عندك أو سوف يكون عندك حصان فى رأسه علامة بيضاء. . ليس حصانًا وإنما مهرة. . سوف تمرض أو سوف تموت. .

ونزل الرجل من فندق هيلتون النيل حزينًا، ولم يذهب إلى بيته واتجه مباشرة إلى الإسكندرية منتحلاً أعذاراً كثيرة لسفره المفاجئ.

وقابلته فى إحدى الجنازات، ومددت له يدى: البقية فى حياتك.

فبادرنى قائلاً: أنت عرفت؟ هيه قالت لك بنت الـ. . .

ـ هيه مين؟

ـ مريام

ـ مريام مين؟

ـ العرافة اليهودية . .

ـ لا . . عن أيه؟

ـ المهرة مش ماتت!!

وطلبت منى مريام أن تقرأ كف السيدة جيهان السادات فقلت لها: كفى ما أصابها . . الله يلعنك ويرزقك بمن يقرأ لك كفك!

وطلبت منها أن تعطينى كفها لكى أقرؤه . . فقالت: الله أنت تعرف؟

ـ طبعًا . . تعرفى بقى إن ربنا حيقصف عمرك!

فضحكت ساخرة: أمتى إن شاء الله؟

ونظرت إلى كفها كأننى أفهم وقلت لها: إن شاء الله ودون أسف عليك من أى أحد . . السنة الجاية!

. . وماتت بعدها بسنة!

سوف أنتظركم فى جهنم مع العقاد وطه حسين

أعرف عدداً كبيراً من الذين يروون النكت مثل المهندس إسماعيل عثمان والوزير عبد الحميد رضوان، ومن الذين يخترعون النكت مثل كامل الشناوى، والذين يخترعون المقالب مثل حفنى باشا محمود، والذين لا يعترضون على أن يكونوا نكتة وأن يسمعوا التنكيت ولا يضيقون بذلك فى مقدمتهم توفيق الحكيم.

فليس كل ما قيل عن توفيق الحكيم قد حدث فعلا. وإنما هويسمع بأذنيه تشنيعات وحكايات لم تقع ويضحك ولا يعترض. ويرى أن النكتة هى حياة أدبية ولكن بصورة أخرى.. سألت طه حسين:

هل صحيح أن الحكيم بخيل؟

فأجاب: ليس تماماً ولكن لا يضايقه أن يقال عنه ذلك!

سألت إحسان عبد القدوس قال: المهم عند توفيق الحكيم أن يكون على كل لسان.

وقال كامل الشناوى: توفيق الحكيم يغريك بأن تجعل منه نكتة.. بل إنه يطالبك بأن تحكى ما الذى قال عنه الناس.

* * *

اتفقت مع السيدة صفية المهندس أن نسجل لتوفيق الحكيم حديثًا تليفونيًا بينه وبينى. موضوع الحديث أننى أحاول إقناعه بأن يكتب فى (آخر ساعة) وكنت رئيس تحريرها فى ذلك الوقت.

ووافقت وبعثت بمن يركب جهاز تسجيل على التليفون. وقال توفيق الحكيم كلامًا يموت من الضحك. ولكن لا يمكن إذاعته لأن فيه ألفاظًا غير لائقة مضحكة.. ثم إننا كنا سنذيع الحديث بإذن منه.. وحاولت مرة أخرى أن أستدرجه إلى موضوع آخر.. فقد افتعلت قصة بينه وبين العقاد وطه حسين.. وجاء التسجيل مخيبًا لآمالنا.. ولم نستطع إذاعته. ولا أعرف أين هذان التسجيلان الآن.

وهل لا يزالان عند صفية المهندس؟ ومما قاله فى التسجيل ويمكن إذاعته: إنه الآن يعمل فى الأهرام وأنا أريده أن يعود إلى الكتابة فى (آخر ساعة).. فقال: أصلى أنا متزوج الأهرام والكتابة فى مكان آخر خيانة زوجية.. وإذا كان لابد فيجب أن يكون الأجر أكبر.. إن هذه الخيانة يجب أن يكون لها ثمن.. فكل شيء له ثمن!

وعدت أقترح عليه بعد ست سنوات أن يكتب فى مجلة (أكتوبر).. وسألنى: كم تدفع؟ قلت: ضعف الذى تأخذه من الأهرام..

وقال: مقدمًا؟

قلت: نعم

قال: الآن؟

ومددت يدى فى جيبى فوجدت ثلاثين جنيهًا وأنا أحتاج إلى مائة.. وكانت تجلس إلى جوارى الفنانة سميحة أيوب. ودفعت سميحة سبعين جنيهًا. ووضعها الحكيم فى جيبه. وفى الغد جاء المقال الأول وهو عبارة عن رسائل للقراء والرد عليها.. وكان شيئًا جميلاً. ومضى الأستاذ الحكيم يكتب فى مجلة (أكتوبر) حتى بدأت أنا أكتب سلسلة (فى صالون العقاد كانت لنا أيام).. وبعد أول مقال من هذه السلسلة امتنع عن الكتابة نهائيًا.

وسألته فقال : لا . . خلاص ، أنت مطلع العقاد فى السماء . . وأنا عامل من نفسى أراجوز بمائة جنيه!

فقلت له : نضاعف المبلغ . .

ـ ولا بألف جنيه . .

وتوقف نهائيًا عن الكتابة فى مجلة (أكتوبر) وقال : المقال الواحد الذى تكتبه عن العقاد يساوى كل ما كتبت عنه فى أى وقت . . وليس لى تلاميذ مثلك يقيمون للعقاد عرشًا فى دنيا الأدب . .

وبدا عليه الحزن عندما قلت له : هل أقترح عليك موضوعًا آخر . .

قال : عارف الموضوع . . أن أكتب وصيتى بأن تكتب عنى مثل هذه السلسلة وأن أقرأها قبل أن أموت .

قلت : أتمنى . .

فأجاب بسرعة : وأنا لا أصدق!

* * *

وكان الحكيم ـ مثل كل الأدباء ـ مجهولاً لدى أولاده ، فابنتا نجيب محفوظ لا تقرآن إلا الترجمة الإنجليزية لأعماله أو إلا إذا ظهرت على المسرح والشاشة ، وابن طه حسين لا يعرف العربية . . وابن أحمد حسن الزيات رجل أعمال ـ يملك مصنعًا للبيرة . . وابن أمير الشعراء شوقى كانت له أغنية واحدة وفى كل مرة تذاع ينسبونها إلى أبيه . . والعقاد ليس له أولاد . . وإبراهيم ناجى له ابنة ، ويحيى حقى له ابنة ، وعبد الحليم عبد الله له ابنة ، وأمين يوسف غراب له ولد . .

ويوسف السباعى له ابنة وابن ، وإحسان عبد القدوس له ولدان أحدهما صحفى ، وحسين مؤنس له ابن انتحر وابنة ، وأكثر هؤلاء الأبناء ليست لهم اهتمامات أدبية . . وتوفيق الحكيم له ابن اسمه إسماعيل مات . وابنة اسمها فاطمة . . وكلاهما لا اهتمام له بالأدب . .

أما إسماعيل الحكيم فكان عازفًا للجيتار وكانت له فرقة موسيقية. وفى إحدى المرات حطم الجيتار فى نوبة حماس واندماج.. وكان ثمن الجيتار فى ذلك الوقت ثلاثة آلاف جنيه طلبها إسماعيل من والدته فطلبتها من أبيه ـ فاشترط أبوه أن يكتب مقابل ذلك كمبيالات. الواحدة بمائتى جنيه تدفع عند نهاية كل شهر.. يجلس توفيق الحكيم بمقعده أمام غرفة إسماعيل حتى ينهض من نومه متأخرًا جدا. وفى هذا اليوم لا يخرج توفيق الحكيم من البيت إلا إذا دفع إسماعيل ما عليه. فكان يعطى لوالده المبلغ ويأخذ الكمبيالة. سألت توفيق الحكيم يومًا. فقال: إن إسماعيل قد علمته الأدب والانضباط. فهو يدفع بانتظام.. هوه كده!

وسألت إسماعيل فقال: فعلاً أدفع المبلغ وهو يعطى المبلغ لأمى وأمى تعود فتعطى لى نفس المبلغ.. وهذا المبلغ يدور بيننا بانتظام.. ولو نظر والدى إلى الأرقام لوجد أنه مبلغ واحد دائخ بيننا.. ولكنه سعيد ونحن أيضًا!

سألنى توفيق الحكيم: هل اتغديت عند العقاد؟

قلت: لا.

قال: ولا اتعشيت؟

قلت: لا..

ـ ولا عند طه حسين؟

ـ لا..

ـ الله أمال ماحدش بيقول عليهم إنهم بخلاء ليه.. طيب أيه رأيك إن فيه ناس كثير اتغدوا عندى.. أنور أحمد.. وكامل الشناوى.. ومحمد عبد الوهاب!

وسألت الثلاثة فقالوا: الحكيم وعدنا ولكن لم يحدث. وعدت إلى الحكيم أقول له: إنك وعدتهم بالغداء ولكن أحدًا لم يدخل بيتك..

فأجاب: طيب هل وعدك العقاد؟

قلت: لا..

قال: هل وعدك طه حسين؟

قلت: لا . .

قال: أنا وعدت وهذه مرحلة . . والمرحلة القادمة سيكون الغداء . . ولم تأت هذه المرحلة . .

* * *

وعندما كنا نعمل فى جريدة (الأهرام) فى الخمسينيات دعانا كامل الشناوى إلى عشاء فى مكتبه على حساب توفيق الحكيم . سمان وبسبوسة وأرز وسلطات . . وجاء الحكيم وتلقى الشكر وحاولنا أن نعرف الأسباب التى ورطت الحكيم فى هذه الوليمة الفخمة، وكان يقول ضاحكًا: قلة عقل . . ولن أعود إليها أبدا مهما كانت تشنيعات كامل الشناوى .

وشكرنا الحكيم على هذه المأدبة ثم عرفنا بعد ذلك أن الفاعل الحقيقى هو الأستاذ محمد التابعى نيابه عن توفيق الحكيم!

ولما مرض توفيق الحكيم زرته كثيراً . وفى إحدى الزيارات أعطانى النص الأدبى العجيب(فاوست الثالث) من تأليف كاتب مصرى من الفيوم مجهول . . ولكنه الحفيد غير الشرعى للشاعر الألمانى جيته . وكانت لدى الحكيم ثلاث نسخ . واحدة أعطاها لى أمام ابنته فاطمة . والنسخة الثانية لفاطمة . . وقال لى: أمانة فى عنقك . ونشرت الصحف الفرنسية هذا العمل على أنه من تأليف الحكيم؟!

ومن المعروف أن هناك مسرحية (فاوست) للشاعر الألمانى جيته ومسرحية فاوست الثانى والأكثر غموضًا من تأليف الشاعر جيته وشيلر . . وهذه هى (فاوست الثالث) . .

* * *

وفى مرة زرته مع الفنان الكبير صلاح طاهر . والله قد أمتعنا توفيق الحكيم رغم حالته المرضية . وكان يقول لنا: لا تتركانى وحدى سأكون فى انتظاركم فى جهنم مع طه حسين والعقاد . . لا تغيبا عنى!

ـ مع العقاد وطه حسين . .

ونقول : حاضر يا توفيق بيه .

ويعود يقول : سأختار لكما مكاناً بحريًا . . يكون هواؤه جهنميًا . . ولكن أقل حرارة . أنا فى انتظاركما . . وهاتوا معاكم كل أصحابكم . . سوف نقضى وقتًا مهيبًا نبيلاً فى جهنم إن شاء الله !

ونقلت هذه الحكاية إلى الدكتور أسامة الباز الذى نقلها للرئيس حسنى مبارك .

وطلبنى الرئيس وسألنى عن حقيقة ما قال توفيق الحكيم . . فقلت ما حدث وأشياء أخرى كثيرة لا يمكن نشرها . فتأكد لدى الرئيس أن بعض الأدباء الكبار مجانين !

* * *

وعاد الرئيس عبد الناصر من روسيا عندما وجد حملة عنيفة على توفيق الحكيم فى الصحف ، وفى صحيفة الجمهورية بصفة خاصة . هذه الحملة خلاصتها أن توفيق الحكيم اقتبس روايته عن أفكار الكثير فى مصر وفى الدنيا . . يعنى توفيق الحكيم مقتبس أو سارق . ويقال إن الرئيس عبد الناصر قد تضايق . . وقيل ـ إن كان قد قال ـ إنه وجدهم فى روسيا ينسبون كل الاختراعات إليهم . . فهم الذين اخترعوا التليفون وليس الأمريكى «بل» وهم الذين اخترعوا الراديو وليس الإيطالى ماركونى وهم الذين اخترعوا القطار وليس الإنجليزى ستيفنسون ، وإنهم الذين اكتشفوا الميكروبات وليس الفرنسى باستير . . وأن الروس يجردون العلماء الأجانب من كل اختراعاتهم وينسبونها إلى علمائهم . . بينما نحن نجرد أديبنا الكبير توفيق الحكيم من كل إبداعاته وننسبها للآخرين ! . وتوقفت الحملة على توفيق الحكيم . .

وكان الحكيم سعيداً بهذه النهاية لولا أن شيئًا واحداً ضايقه جداً ، ولا يعرف ماذا يفعل . فهو يرى أن الذين هاجموه فى شهور قد تقاضوا أجرًا على ذلك . . فلماذا لا يتقاضى تعويضًا عن هذه البهدلة وهو ما يعادل مرتبات كل الذين هاجموه . .

ولما قال له كامل الشناوى : إنهم لم يتقاضوا مرتباتهم من شهور . .

قال الحكيم: علشان كده بيهاجمونى؟ طيب ما تقولوا للرئيس يدفع لهم أية حاجة كده.

وقال له مصطفى أمين: إن الرئيس أمر لك بمكافأة عشرة آلاف جنيه..

ـ شهريًا؟

ـ لا.. سنويًا.

ـ كل البهدلة دى بعشرة آلاف جنيه بس؟

ـ أحسن من مفيش.

ـ لا مفيش أحسن.. فقد كنت أستمتع بالشتيمة.. لأنهم كانوا يتناولون جوانب غريبة من مؤلفاتى. وأشياء لا تخطر على بالى.. حتى فكرت فى أن أكتب مسرحية بعنوان(مدرسة الفضائح الجديدة).. بشرط أن يقررها الرئيس على المدارس.. فإذا فعلت كسبت من ورائها عشرات الألوف..

وقال مصطفى أمين لتوفيق الحكيم: إن الرئيس عبد الناصر قد أعجبته الفكرة..

وكان رد توفيق الحكيم متشككًا: تقول أعجبته الفكرة.. إذن هذا مقلب منك أنت.. وبدلا من أن أتخانق مع النقاد أتخانق مع الرئيس.. فتكون النهاية.. النقاد أرحم..

وقال له مصطفى أمين: يعنى هو ده ردك على اقتراح الرئيس؟

ـ ....

ـ خايف ترد؟

ـ ....

ـ أنت يا توفيق جبان لهذه الدرجة.

ـ ....

ـ إنهم نقلوا للرئيس صورا كثيرة من شجاعتك وبطولتك..

ـ ....

ـ طيب نقول للرئيس أيه؟

ـ قل له اللى يعجبك زى أنت ما قلت لى اللى يعجبنى!

* * *

ولكن ألطف عمل مسرحى جماعى اشترك الحكيم فى تأليفه مع الرئيس السادات ومع المشير الجمسى هو أن توفيق الحكيم طلبنى لأمر مهم وعاجل وفورى. ذهبت. أشار إلى أن أقفل الباب بالمفتاح. وقال لى: هذا كل ما حدث وأنا عاوزك تبلغ الرئيس. وأنا راض بحكمه.. جيب (الولد) ويأخذه قلمين أو يقلع الجزمة ويضربه.. وبس!

أما (الواد) الذى يتكلم عنه فهو ضابط عظيم فى بعثة دراسية فى أمريكا. دخل السوبر ماركت وأعجبه بول أوفر فخلع القديم وارتدى الجديد ودقت الأجراس بما معناه: حرامى.. امسكوا الحرامى.. وأمسكته القوات الأمريكية وسلموه للملحق الحربى فى واشنطن.. وكان لابد أن يعود إلى مصر ليواجه مجلسًا عسكريًا. والعقوبات معروفة فى كل جيوش العالم.

ونقلت حكاية الواد إلى الرئيس السادات. وتضايق وقال لى: تروح للمشير الجمسى وتقول له إن الرئيس يريد أن يعاقبه طبعًا ولكن اجعل العقاب أخف علشان خاطر توفيق الحكيم.

وذهبت إلى المشير الجمسى. واستمع إلى القصة من البداية إلى النهاية. وطبعًا كانت عنده القصة كاملة. ولم يبد على المشير الجمسى أنه تأثر لكل ما قلت فالجمسى منضبط جدا. وملامحه تؤكد أن هذا الضابط سوف يلقى عقابا عادلاً. وعدت إلى الرئيس أقول له إن (شكل) الجمسى معناه: تطبيق القانون. وقد لا يكون هناك تخفيف للعقوبة. فطلب الرئيس منى أن أعود للمشير الجمسى وأقول له: عقاب نعم.. ولكن الرئيس يرى تخفيف العقوبة.

وقال الجمسى: هذا أمر من الرئيس..

يعنى سوف يعاقبه لا محالة، وسوف يكون العقاب أخف. وجاءنى هذا

الضابط باكيًا وفى يده ساعة ذهبية وخاتم من الألماس ويقول: أسرق وعندى كل هذه الألوف فى يدى، وبيت وأرض وأسرة محترمة وزوجة وأولاد!

وناداني توفيق الحكيم لأمر مهم وعاجل وقال لى: أنا لقيتها.. الرئيس ينده الواد ده، ويوقف وراءه عدداً من الضباط الأقوياء يكتفونه ويقف الرئيس وياخده عشرين قلم، ويقلع الجزمة ويلطش بها صداغه!

ولما أبلغت الرئيس راح يتساقط من الضحك على اقتراح توفيق الحكيم ويقول: الكلام ده عنده فى المسرحيات بتاعته، يضرب بالجزمة والشلوت ويرمى الناس من الشباك هو حر.. لكن مفيش فى الجيش حاجة كده، فيه قانون، هاها.. هاها.. والله يا أنيس الجماعة الأدباء رايقين.. ومش هنا.. وفى الجيش.. قانون وعقاب وقدوة.

ولكى أنهى تساؤلات توفيق الحكيم اليومية قلت له:

لقد حدث يا أستاذ.

ـ هه.. ضربه بالقلم والجزمة طبعًا برضه أرحم من الفصل وتجريده من رتبته العسكرية، والبنى آدم لا مانع عنده أن نبهدله سرًا لكن لا تلمسه علنًا.. أهو كده.. وهوه الجمسى ده شكله أيه؟

ـ قائد صارم.

ـ خشن شوية.. لكن طبعًا لازم يسمع كلام الرئيس ولا همه كمان بيصهينوا.

ـ لا. لابد أن ينفذ كلام الرئيس.

ـ طيب نفرض أن الجمسى لم ينفذ قرار الرئيس ورأى أنه مخالف للقانون..

ـ لا أعرف.

ـ فرض يعنى..

ـ مش عارف دى حكاية أخرى..

ـ هذه هى الحكاية التى يجب أن أفكر فيها.. طيب أيه رأيك إنك تقول للرئيس إن توفيق الحكيم رجع فى كلامه وبيقول لك اشنقوه أحسن.

ـ مفيش شنق إلا للخيانة والهرب من الميدان .

ـ طيب ما هو خان الأمانة وهرب بها وفضحنا عند الأمريكان . .

ـ الله يا توفيق بيه أنت عاوز الرئيس يخفف عنه العقوبة والا يغلظ العقوبة ويشنق الواد الضابط .

ـ شنق الواد ده من الناحية المسرحية أجمل ليه . . أقول لك ليه . .

والحكاية طويلة ولا أعرف كم عدد الذين استمعوا إلى حكاية توفيق الحكيم كما يرويها الرئيس السادات لضيوفه، ولم يسكت توفيق الحكيم عن السؤال عن مصير الواد إلا لما قلت له إن الرئيس والمشير قد اتفقا معًا على تجريده من كل رتبه العسكرية ونقله إلى حدود مصر والسودان .

وسكت الحكيم وراح يفكر عميقًا وطويلاً : تعرف إن الطريقة دى أحسن من الشنق، وإلا أيه رأيك؟

* * *

قلت لتوفيق الحكيم : انصحنى . . قال : أن تكون بخيلاً أفضل من أن تمد يدك إلى البخلاء!

قلت له : أعجبتنى هذه الجملة . .

فقال : هناك جملة أعجبتنى أنا جاءت فى كتاب (البخلاء) للجاحظ . . كان يتحدث عن رجل بخيل إذا أكل بيضة واحدة فى السنة يقول هذه فرخة بلا عظام . .

وقلت له : آخر نصيحة يا أستاذ؟

قال : شوف النوم أرخص حاجة فى الدنيا . . وأنت نائم لا تأكل ولا تشرب ولا تعزم أحدًا على الأكل ولا يعزمك أحد!

يا أولاد الـ ...
الله يسامحك يا عمو فؤاد!

لم أعـمل فى الإذاعـة، ولكـن امتـلأت بهـا حيـاتى سنوات طويلة . . أخبـارها ونجومها ومقالبهم ومصائب الآخرين . .

١

فبعد تخرجى فى الجامعة عملت فى جريدة اسمها (الأساس) لسان حال حزب السعديين برياسة محمد فهمى النقراشى باشا . . وكان مدير التحرير محمد صبيح، وهو كـاتب ومـؤرخ وصاحب عبارة سهلة . . ولـم أجد له مثيلاً فى الصحافة إلا نجيب كنعان مدير تحرير (الأهرام) ولطفى حسونة مدير تحرير (الأخبار) . . فهم يلتزمون مكاتبهم من الصبح وطوال الظهيرة ومعظم الليل يقرءون كل ورقة ويوقعون عليها ولا يأكلون ولا يشربون . كيف؟ هذا ما حدث .

هل لأننا كنا فى شارع الشواربى القريب من مبنى الإذاعة كان كل نجوم الميكروفون يعملون معنا : عبد الحميد الحديدى وحسنى الحديدى وتماضر توفيق وعلى الراعى وصلاح زكى وعباس أحمد وأنور المشرى ومحمد شرف . هل لهذه العلاقة القوية كنت أذهب إلى الإذاعة وأتحدث فى الميكروفون وأقرأ قصصًا قصيرة . . ولا أعرف الآن كيف أقنعنى هؤلاء الزملاء أن أكون مذيعًا مثلهم .

وجاء يوم الامتحان، وكانت اللجنة مكونة من محمود حسن إسماعيل الشاعر والمشرف على الأغانى وعلى الراعى كبير المذيعين والشاعر صلاح جودت . وطلبوا منى أن أقرأ وقرأت . وجاءنى أنور المشرى وقال لى : اجعل صوتك منخفضًا جدًا، لأن الميكروفون حساس جدًا . . اهمس فقط . .

وسمعت كلامه . وهمست وأشاروا لى أن أرفع صوتى فلم أفعل . فرسبت فى الامتحان . أما هذا المقلب فكان الغرض منه أن أفسح الطريق أمام الزميل محمد عبدالجواد الذى صار رئيسًا لوكالة أنباء الشرق الأوسط . وهو مثلهم خريج قسم اللغة الإنجليزية بآداب القاهرة وكانوا يريدونه أن ينجح . ورسب هو أيضًا لأنه لا يعرف لا النحو ولا الصرف .

. . على كل حال فإننى أشكر الزملاء على سقوطى . وأحمد الله أننى لم أقل : هنا القاهرة إلا مرة واحدة، هى هذه المرة!

٢

حدث بعد اغتيال محمود فهمى النقراشى باشا رئيس وزراء مصر أن كانت لأستاذنا عباس العقاد سلسلة من الأحاديث عنوانها (نفسية المجرم الإرهابى) يحلل فيها الجريمة ودوافعها وكذلك الجريمة السياسية وكانت هذه الأحاديث تذاع على الهواء . وكان التسجيل فى مبنى (ماركونى) المواجه لمبنى الإذاعة بشارع الشريفين . فلابد أن يصعد الأستاذ العقاد سلمًا طويلاً رأسيًا . وأن يجلس على دكة حتى يجىء المذيع يدعوه إلى الحديث . فى ذلك اليوم جلس الأستاذ العقاد بطربوشه الأحمر القاتم مكفهرا غاضبا فقد اقترب موعد الحديث ولكن أحدًا لم يدعه إلى التسجيل ولم يظهر المذيع المكلف بذلك . وجاء المذيع سعيد أبو السعد يستقبل بحرارة شديدة زميلته تماضر توفيق العائدة من الإجازة : أهلا يا تومى . . وحشتينى يا تومى . . فراغ كبير تركتيه وراءك . . أهلاً يا قمر أنت . . يا عسل . .

والعقاد جالس لا يكلمه أحد . فما كان من الأستاذ إلا أن نزل إلى الشارع

عندما ظهر سعيد أبو السعد ولم يجد الأستاذ وهو لا يستطيع أن يترك الأستديو ويلحق به فى الشارع . . ولا يستطيع أن يملأ فراغ الحديث فراح يذيع الأغنيات والمارشات العسكرية . . كارثة!

وانقلبت الإذاعة ووزارة الداخلية فوق دماغ سعيد أبو السعد . والذى حدث هو أن الأستاذ قد تضايق من هذا الإهمال الذى ظنه متعمداً وعاد إلى بيته . وطلبوا إلى سعيد أبو السعد أن يعتذر للأستاذ العقاد حتى لا تعاقبه الإذاعة . . وكان سعيد أبو السعد شابًا مرحًا دائم الضحك . وبعد أن اعتذر للأستاذ سأله : خلاص يا أستاذنا صافية كاللبن؟

ولم يجب الأستاذ . فعاد سعيد أبو السعد يسأله : طيب إيه رأيك يا أستاذ؟
فرد عليه العقاد : رأيى فى إيه يا جدع أنت؟
ـ رأيك فى شخصى المتواضع؟

وأجاب العقاد بعبارة قاتلة : رأيى فيك أنت . . أنت إنسان مقبل على الحياة بلا مبرر!

٣

كنت أكتب القصة وأقرؤها فى برنامج (إلى ربات البيوت) الذى تشرف عليه صفية المهندس . وفى يوم وفجأة قال لى الشاعر كامل الشناوى أمام عشرين من الباشوات والصحفيين : أنتم تعرفون أن أنيس منصور له قصة يقرؤها بنفسه فى ساعة مبكرة من الصباح حتى لا يسمعه أحد! هاها . . هاها .

ولم أعد إلى كتابة أو قراءة القصة فى الإذاعة لا صباحًا ولا مساء!

٤

ويوم حريق القاهرة كنت أعمل فى (الأهرام) وكان التجول ممنوعًا . فكنت

أذهب إلى مبنى ماركونى لكى أترجم البرقيات المرسلة للأهرام وأمليها فى التليفون . . وكانت للآلات الكاتبة (التيكرز) دوى فظيع لا يمكن مقارنته بصوتها الهامس الآن . ووسط هذه الضوضاء والزحام والتوتر الرهيب ينادينى أحد الزملاء صارخًا : تليفون . . ويكون المتحدث عمو فؤاد!

ـ نعم يا عمو فؤاد . . حاضر يا عمو فؤاد . . أنا قلت له والله . . يظهر مفيش فايدة يا عمو فؤاد . . الله يسامحك يا عمو فؤاد . . طبعًا أنت زى والدى . . حاضر يا عمو فؤاد!

أما عمو فؤاد هذا فهو المستشار فؤاد مقار والد الزميل حمدى فؤاد . وفى ذلك الوقت كان حمدى فؤاد مقبلاً على الزواج من الزميلة هدى توفيق ـ هو كاثوليكى وهى أرثوذكسية . ولابد أن يتحول إلى المذهب الأرثوذكسى . . وعمو فؤاد غاضب جداً ومستنكر ورافض هذ الزواج . ثم هناك مشكلة أخرى غير الاختلاف فى المذهب يشرحها كل ليلة عمو فؤاد وأنا لا أسمع بوضوح ما يقول فصوت عمو فؤاد مسرسع تطغى عليه شوشرة الماكينات . . وكان يقول :

أنت عارف يا أنيس . .

ـ نعم يا عمو فؤاد .

ـ أنا قصير القامة وزوجتى طويلة . . والمهم الأم . . لأنها هى (القالب) ولذلك جاء حمدى ـ واسمه الأصلى أوزوريس ولكن الذى غير اسمه هو الأستاذ محمد صبيح ـ طويلاً . . أما دلوقت فهو طويل وهدى قصيرة . القالب قصير يا أنيس . . الله يلعنه ويلعنك . . سامع يا ولد .

ـ أيوه يا عمو فؤاد . .

وفى يوم تعالت الصرخات :

تليفون!

وكان عمو فؤاد : نعم يا عمو فؤاد (يشتم حمدى ويشتم كل الصحفيين)

الله يسامحك يا عمو فؤاد . . أنت زى والدى طبعًا . . لم أفلح يا عمو فؤاد . . شكرًا يا عمو فؤاد . . الله يسامحك .

. . تحت أمرك . . مفيش حيوانات أخرى غير الحمار والكلب والثعبان يا عمو فؤاد . .

ـ . . . .

لقد تزوج حمدى فؤاد من هدى توفيق وكان عمو فؤاد يعتقد أننا جميعًا أولاد (واختار أنواعًا مختلفة من الحيوانات والزواحف) لأننا لم نقنع حمدى بالعدول عن الزواج من القالب الصغير!

وبالمناسبة حدث شيء مثل ذلك تمامًا وفى مبنى (ماركونى) مرة أخرى . . فقد كان والد الفنان جلال الشرقاوى يعرف العلاقة التى تربطنى بابنه جلال الذى أخرج لى أول مسرحياتى واسمها (الأحياء المجاورة)، بطولة حمدى غيث وسناء جميل فقط . بطلان فى ثلاثة فصول كوميدية بوليسية . وكان والده يطلبنى وسط ساعات الذروة فى العمل ويقول فى التليفون صارخا مستنكرًا : أمال أصحاب إيه؟ . . إذا كنت أنت مش قادر تقنعه .

ـ يا سيدى ده راجل عاقل وعارف هو بيعمل إيه . . ليس صغيرًا لدرجة أن يقبل نصيحتى فيعدل عن الزواج من الفنانة فلانة زميلته . .

ولكن والد جلال الشرقاوى يعتقد أننى قادر على ذلك وأن جلال لن يرد لى طلبًا .

وحاولت إقناعه بأننى لن أطلب منه أى شيء . . فهذا شأنه وهو عاقل بما فيه الكفاية . . ويسألنى : يعنى أنا كنت بهبهب طول الوقت وأنت بتاخدنى على قدر عقلى . .

ـ لا . . العفو .

ـ يخص عليك وعليه . . شباب بايظ . . إلخ .

ـ الله يسامحك .

ـ يسامحنى إيه وينيلنى إيه . . خلاص اتجوزوها انتو الاثنين سوا . .

ـ الله يسامحك .

ـ أدى اللى باخده منك و منه .

ـ عاوز منك يا ابنى خدمة أخيرة . .

ـ حضرتك تأمر .

ـ تبصق لى على وجهه وعلى وجهها ولا تنس أن تنظر فى المرآة وتبصق على العرض الذى تراه ! !

ـ الله يسامحك !

ـ . . . .

٥

ماتت فايزة أحمد. ومازلت من أشد الناس إعجابًا بصوتها . . وطاردتنى الإذاعات المصرية والعربية لكى أرثيها لأنها تعرف علاقتى بها . . ووجدت من الأفضل أن أطلب إلى الموسيقار محمد عبد الوهاب أسأله وكان فى باريس . واتصلت به وتحدثت إلى السيدة نهلة القدسى حرم عبد الوهاب :

ـ إزيك يا نهلة . .

ـ أهلا إزيك يا أنيس . . جاى امتى باريس ده محمد حاجز لك الغرفة المجاورة وعنده كلام كثير يهمك جداً . .

ـ أعرف هل وجد علاجًا جديدا للزكام؟

ـ أيوه . . متى تجىء . .

ـ بأقول لك إيه يا نهلة . . أنت عارفه إن فايزة أحمد ماتت . . عاوز أكلم عبدالوهاب . .

وجاء صوت عبد الوهاب: هالو . . إزيك يا حبيبى . .

ـ إزيك يا أستاذ . .

ـ جاى امتى؟ . . أنا حاجز لك الأوضه اللى جنبى . . ولقيت لك دوا يقطع دابر الزكام . . حقن جديدة ما حصلتش . . امتى جاى؟ . .

ـ يا أستاذ . . تعرف أن فايزة أحمد ماتت . .

ـ . . . (تغير صوت عبد الوهاب وهو يعلم أن أى كلام سوف يقوله سأنشره على لسانه) خسارة . . فايزة صوتها يجمع بين الجمال والقوة (وكأنه يلقى محاضرة) وهى بالنسبة لمحمد سلطان كمسرح الأوبرا . . لقد ضاع منه أكبر مسرح غنائى . . وفايزة زى كامل الشناوى ما وصف صوتها بأنه متوحش . . لها صوت مثل عصا موسى يبتلع كل الأصوات الأخرى إذا ظهرت على المسرح تغنى قبلها أو بعدها . .

ولما أحس محمد عبد الوهاب أنه انتهى من كلامه تغيرت نبرة صوته وكأن شيئًا لم يحدث وقال: جاى امتى يا حبيبى . . . إلخ .

وفجأة ظهرت فى مكتبى فى مجلة (أكتوبر) الإذاعية الكبيرة نادية صالح .

وقالت لى: أنت عارف أنا جايه ليه .

قلت لها: عارف . . حظك من نار . . عندى (خبطة) صحفية إذاعية . . عندى سبق صحفى . . هذا شريط مسجل عليه الحديث الذى دار بينى وبين عبد الوهاب عن وفاة فايزة أحمد . . وفى لحظات لم أجد نادية صالح . . وبعدها بلحظات أخرى سمعتها تحكى فى الميكروفون عن هذا (الانفراد) الإذاعى الذى حصلت عليه!

وفى اليوم التالى قرأت مقالاً ظريفًا يتهمنى ومحمد عبد الوهاب بالتواطؤ على قتل فايزة أحمد لصالح وردة الجزائرية ونجاة لأننا كنا نعرف أنها سوف تموت . . فدار هذا الحديث بيننا قبل وفاتها؟!

وسألنى عبد الوهاب : إيه التخريف ده؟

ـ وأنت مالك . . صاحب المقال يعرف إنك فى باريس . .

يبقى أنا اللى قتلت فايزة أحمد .

ـ وحتعمل إيه؟

ـ حاقول إنك أنت اللى قتلتها . .

ـ ها . . ها . .

ـ . . . . . .

... ولكن الملك فاروق دفع لنا الحساب!

عندما زرنا كامل الشناوى فى (مستشفى الكاتب) قال لنا : فيه حاجة حتحصل فى مصر . .

ولكن كنا مشغولين بأن نأخذ إجازتنا ونسافر إلى الخارج .

فنحن تركنا العمل فى (جريدة الأهرام) لنساهم فى صدورة جريدة (الأخبار) الجديدة . وكان لابد أن نعمل فى (الأخبار) ولو شهراً . وبعد ذلك نسافر . . .

وقبل أن نترك (الأهرام) كانت عندنا مشكلة : كيف نواجه الأصدقاء وكنا مدللين فى (الأهرام) ـ كمال الملاخ وأنا . ولا نعرف ماذا نقول . وحاول كامل الشناوى أن يفهم ترددى فقال بيت الشعر الذى صار قصيدة بعد ذلك . ارتجله :

أنت فى صمتك مرغم　　　أنت فى حبك مكـــره

ولم أكن مكرها ولا مرغمًا . وتركنا أصدقاءنا فى (الأهرام) : نجيب كنعان وجورج عزيز وعادل يوسف وألبير عمون وتوفيق الشمالى وكمال نجيب . . فقد كنا شلة نلتف حول نجيب كنعان الذى هو الكل فى الكل فى (الأهرام)، تركنا (الأهرام) إلى (أخبار اليوم) دون أن نقول شيئًا ونسينا أن نقدم استقالتنا؟!

١

وسافرنا بحرًا. وفى إحدى الليالى سمعنا الإذاعة تقول: ثورة فى مصر. . الجنرال نجيب قال. . الجنرال سوف يعمل. .

ولم نفهم معنى ثورة ولا من هو الجنرال نجيب ولا معنى طرد الملك من مصر. . شىء عجيب. هل هذا الذى كان يقصده كامل الشناوى عندما قال إن قوات الجيش تتحرك فى منقباد. ونزلنا إلى الشاطئ الإيطالى لنشترى الصحف وفى الصفحة الأولى رجل أسمر اسمه الجنرال نجيب. لا أحد يعرفه، وكنا مجموعة تضم الدكتور عبد العزيز حجازى رئيس الوزراء الأسبق والدكتور مراد كامل أستاذ اللغات الشرقية والدكتور حسن عثمان أستاذ الجغرافيا والذى ترجم ملحمة (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالى دانتى والدكتور عبد المنعم البنا والأستاذ طيفور المدير المالى للإذاعة والمقدم حسنى نجيب مدير البوليس الدولى (الإنتربول) الذى صار مديرًا لأمن البحيرة ثم محافظًا للمنيا. . وكنا نقدمه للناس على أنه أخو الجنرال نجيب. .

وكان حسنى نجيب أبيض أحمر. ولكن الناس لا يعرفونه. وكنا نلقى حفاوة شديدة فى كل مكان وأحيانًا يرفضون أن يتقاضوا أجرًا عن الشراب. . لأنه أخو الجنرال نجيب قائد الثورة المصرية!

٢

ذهبت مع الزميل ألفريد عبد السيد إلى أحد المطاعم الليلية فى منطقة فيللا بورجيزة بروما. المطعم صغير محندق اسمه (فيللا فرانكا). . ولم يكن هناك أحد من الزبائن. . وبسرعة قفزت بنتان إحداهما إيطالية والأخرى ألمانية وقالت إحداهما: أنا تراهنت مع صديقتى عليكما. وقلنا إن واحدًا منكما يونانى والثانى مصرى.

فقلت لها: ٥٠٪ صح

ـ كيف؟

أنا مصرى والآخر مصرى أيضًا، وإن كانت ملامحه يونانية.

وفجأة وجدنا شيئًا مخيفًا.. إنه الملك فاروق ومعه حارس ضخم.

وجلس فى أحد الأركان. الملك الذى خلعوه. الملك وصل إلى روما ويجلس فى نفس المطعم. ولا أعرف سبب الخوف.. فهذه أول مرة نكون على هذه المسافة من الملك. وقد يعرف الحارس أو سكرتيره أننا مصريان.. وأننا جئنا لاغتياله.. لأننا عرفنا أنه سوف يجىء إلى هذا المكان وسبقناه وأنه.. وأنه.. ولم نشعر بالارتياح وقررنا مغادرة المكان. هل سمعناه يقول: خليكم قاعدين مفيش داعى للخوف.

أنا لا أذكر أننى سمعت ولكن الزميل ألفريد عبد السيد يؤكد أن صوت الملك كان واضحًا.

وكان المطر غزيرًا باردًا. ونحن فى قلب حديقة أضواؤها خافتة ولا أمل فى أن نجد أى تاكسى.. وفجأة اكتشف ألفريد أنه نسى الجاكتة وعندما دخل فوجئ بإحدى الفتاتين قد أحضرتها وهى تقول: أليس هو الملك الذى طردتموه.. طردتموه وتخافون منه؟

ـ لا نخاف منه.. ولكن نخاف من الحارس الرهيب الذى يحلق فى الداخل والخارج.. وهو كما ترين مسلح تسليحًا ثقيلا!

وشكرناها وبسبب الارتباك اكتشفنا أننا لم ندفع ثمن المشروبات. وليس من الشهامة فى شىء أن تدفع الفتاتان بدلاً منا. وترددنا أينّا يذهب.. وقررت أن أذهب لأدفع. ولما دخلت رأتنى إحدى الفتاتين وقالت: جئت لتدفع؟..

ـ نعم.

ـ خلاص.. لقد قرر الملك أنكما ضيفان عليه... دفع!!

٣

وذهبنا إلى فيينا . . وفى فيينا فوجئنا فى الصحف بمناشتات حمراء تقول : هكذا قال دكتور عصفور . .

من هو الدكتور عصفور؟

شخص معروف كان يعمل عند الأمير عباس حليم . . وقد ضحك على الأمير عباس حليم وأفهمه أن يكون اشتراكيًا لأنه لا علاج للفساد الملكى إلا بالاشتراكية . وعقد مؤتمرًا صحفيًا فى سطح سميراميس . وقدمه لنا الدكتور عصفور وتكلم الأمير عباس حليم الذى كان يركب الترام ويترك سيارته الفخمة . قال : إن الله قال فى كتابه . . إن الناس لازم يمسكوا ببعض . . فى حبل جامد خالص وبالشكل ده يبقوا قوة . . طبعًا يقصد قوله تعالى : ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ (آل عمران : ١٠٣) وقبل قيام الثورة سافر الدكتور عصفور إلى أوروبا . وفتح مطعم فول وطعمية فى فيينا يديره هو وزوجته النمساوية التى مكنته من أن يحصل على الدكتوراه من إحدى الجامعات السويسرية . وكان من أهم مراجع هذه الرسالة ما كتبته صحيفة (الجمهور المصرى) فى نقدها للأوضاع فى مصر . يعنى دكتوراه والسلام!

ودعا الدكتور عصفور إلى مؤتمر صحفى وأعلن فيه أنه صديق الجنرال نجيب . وأن الجنرال نجيب قد تحدث إليه شخصيًا وطلب منه أن ينقل للشعب النمساوى تحياته وحبه . . وأنه يريد عشرة آلاف مدرس لتعليم اللغة الألمانية فى مصر!

أرجو أن تعيد قراءة السطور السابقة من وجهة نظر نمساوية : ثورة فى مصر وقائدها يطلب عشرة آلاف مدرس للغة الألمانية . . يطلبها من النمسا ولا يطلبها من ألمانيا . . وقائد الثورة يعجل بتعليم اللغة الألمانية . ثم إن عشرة آلاف مدرس من بلد صغير مثل النمسا يشعل خيال الملايين!!

وانقلبت الدنيا فى النمسا على ما جاء على لسان الدكتور عصفور .

وأرسلت بالصحف إلى مصطفى أمين فى (أخبار اليوم)، وصدر تكذيب

رسمى من حكومة الثورة. فلا أحد يعرف الدكتور عصفور ولا أحد كلفه بشىء.. وجاء التكذيب بعد يومين.. وفى هذين اليومين كانت للدكتور عصفور مواد غذائية قادمة من مصر من أجل المطعم.. وبسرعة أفرج عنها وانتقلت إلى المطعم عندما هرب د. عصفور إلى الدانمارك!

٤

وفى ذلك الوقت كانت مدينة فيينا مقسمة إلى خمسة أقسام: بريطانية وفرنسية وأمريكية وروسية والمنطقة الخامسة دولية. ونزلنا فى أحد فنادق المنطقة الدولية. وقبل الفجر جاء البوليس يفتح علينا الغرف بعنف.. وتتقدم فتاة يسألها البوليس: هل هذا؟

فتقول: لا..

وأخرجونا من الغرف ووقفنا أمام الباب. حتى قالت الفتاة: هو هذا!

وبمنتهى الرفق والأدب تقدم رجل البوليس يقول لصاحبنا د. عبد المنعم البنا يا الدفع يا الحبس..

لقد كنا قبلها سهرانين فى كازينو (مولان روج) ـ أى (الطاحونة الحمراء) وتقدم صاحبنا وراقص فتاة طوال الليل وأكل وشرب وهمس فى أذنها وأعطاها ورقة مالية قائلا: هذه ورقة بمائة دولار علشان عينيك الحلوة دى!

وبعد خروجنا من الكازينو وعودتنا إلى الفندق قيل لها: إنها ليست ورقة بمائة دولار.. وإنما ورقة بمائة قرش!

وأصبح الموقف هكذا: إن صاحبنا كذب وخدعها وجعلها تترك عملها وتتفرغ له طوال الليل. وأنها لا تكذب. والبوليس يصدقها تماما. وإن صاحبنا كذاب ولا بد أن يدفع لها الآن وفورا.. فإذا لم يكن معه فلوس فعلى كل أصحابه أن يتعاونوا فى ذلك.. وإلا الحبس. ولا مناقشة فى ذلك؟

وامتدت أيدينا إلى جيوبنا نجمع هذا المبلغ الكبير جدا جدا فى ذلك الوقت!

وأذكر أن د. عبد العزيز حجازى قال لى: افرض أن الفلوس التى معنا لا تكفى هل نتقدم جميعا بالساعات التى فى أيدينا.. أما صاحبنا فقد كان قادما من أمريكا.. وأمامه مستقبل عظيم فى مصر.. ومصيبة سوداء وزرقاء إذا دخل السجن!

أما المفاجأة فهى أن البنت عندما رأتنا أشفقت علينا وقالت بعد أن تجمع فى يدها ما يعادل المبلغ المطلوب: نصف هذا المبلغ يكفى.. ثم التفتت إلى صاحبنا وقالت له: أنت رائع فى الرقص الذى تعلمته فى أمريكا!

وقال لها باللغة العربية: امشى يا بنت الـ... والـ...

٥

ولسبب ليس واضحًا عندى تمامًا: كنت أقدم نفسى على أننى الدكتور كفراوى.

وكان أصحابى يندهشون لاختيار هذا الاسم وكنت أقول: غريبة.. ولكن دعونى أفكر فيما بعد عن السبب الحقيقى لهذا الاختيار ولم أجد سببًا واضحًا حتى الآن...

وكدت أنام فى الشارع فى إحدى الليالى عندما حجزت غرفة فى نفس الفندق. وانتظرت أن يعطونى المفتاح. ولكن أحدًا لم يفعل. وانتظرت ساعة.. ساعتين.. ثلاث ساعات.. وذهبت أشكو فقد تقدمت وكتبت اسمى ورقم جواز سفرى.. وذهب الزملاء.. وغيروا ملابسهم وأنا ما أزال جالسًا أنتظر. واكتشفت أننى لم أكتب اسمى وإنما كتبت اسم: الدكتور حسب الله!

وعلى ذلك فلا غرفة لى!

٦

مرة أخرى.. عندما دعانا الدكتور كيسنجر إلى الغداء فى وزارة الخارجية بواشنطن. وكان يسبقنى فى الطابور لمصافحته يوسف السباعى رئيس مجلس إدارة «الأهرام» وعلى حمدى الجمال رئيس التحرير.. وكان رجل البروتوكول

يسأل كل واحد عن اسمه ليقدمه إلى الدكتور كيسنجر . . وجاء دورى فقلت : دكتور حسب الله . .

وضحك الرئيس السادات وقال لى : لكن ليه يا أنيس . .

ـ ياريس ده رجل يحكم الكرة الأرضية . . ولا يهمه أن يكون اسمى أنيس منصور أو الدكتور حسب الله عبد الله . . هاها . .

ـ هاها . . يا أخى أنت عليك حاجات . . هاها .

٧

أما المرة الثالثة فهى أننى جلست أحكى للرئيس السادات عن الذى حدث يوم ١٥ مايو يوم ثورة التصحيح . . فى هذا اليوم دون أن أعرف أنه يوم ثورة التصحيح اتفقت مع زميلى فى الدراسة وبلدياتى محمد المصرى مدير مكتب على صبرى وزوج بنت مؤرخنا العظيم سليم حسن أن أذهب للقاء سامى شرف مدير مكتب الرئيس عبد الناصر . . وهو أيضًا بلدياتى . ولم أره فى حياتى لا فى مصر ولا فى المنصورة . وذهبت إلى مكتبه ولم أجده ، وسألونى : وسيادتك مين؟

قلت : الدكتور حسب الله!

ولما سمع الرئيس هذه الحكاية انفجر ضاحكًا فأشار إلى أحد السكرتارية وقال له : أطلب الفريق الماحى . .

وكان الفريق الماحى فى ذلك الوقت مديرًا للمخابرات .

وقال للماحى على التليفون : يا ماحى . . أنت فاكر الجدع اللى اسمه الدكتور حسب الله اللى أنتم كنتم بتدوروا عليه . . هوه فين دلوقت .

(كان الرئيس يكرر ما يقوله للماحى) . . آه عربية مرسيدس حمراء . . واتجه إلى ليبيا . . ومنها إلى فرنسا . . وطار إلى الأرجنتين .

ودى آخر أخباره يعنى المهم أنكم لسة بتدوروا عليه . . طيب يا ماحى . . إيه رأيك أن الدكتور حسب الله موجود قدامى دلوقت وأنا عاوزك تيجى تشوفه . . وبرضه إجراء اللازم فى الحالات اللى زى دى!

والتفت الرئيس يقول لى : أنت دوختنا . وأديك سمعت أنهم بيدوروا عليك فى كل مكان . . تعرف أن الواجب يحتم على أن ألقى القبض عليك بتهمة تضليل السلطات وإقلاق الأمن . . هاها .

وبعد أن سكت الرئيس لحظات واستمر هادئا تمامًا . . وبدا عليه أنه يريد أن يستأنف ما كنا نتحدث فيه ولكنه بادرنى بقوله جادًا جدًا : بأقول لك إيه يا دكتور حسب الله .

ـ نعم يا ريس . . .

ـ نعم فى عينك . . هاها . . هاها . . يا حسب الله يا مدوخ أمن الدولة؟

ـ . . . .

ـ هاها . .

وفى مجلس الشورى..
وقفت أعتذر للإمام أحمد!!

١

وقفت فى مجلس الشورى المصرى أعتذر للإمام أحمد ملك اليمن فاندهش الأعضاء وتلفتوا ليروا ويسمعوا تفسيراً لهذا الموقف الغريب العجيب. والحقيقة أنه لم يكن كذلك، فقد دارت فى المجلس مناقشات عن عدد المصريين العاملين فى الخارج، فقال وزير القوى العاملة: خمسة ملايين، ووزير الداخلية قال: مليون ونصف المليون، وقال بعض الأعضاء بل ستة ملايين!

أى أن عدد العاملين فى الخارج يتراوح ما بين مليون وستة ملايين!

وقبل ذلك بخمسين عاماً عقد الإمام أحمد ملك اليمن مؤتمراً صحفياً. وسألته: يا جلالة الإمام كم يبلغ عدد سكان اليمن؟ فأجاب بسرعة: ما شاء الله مابين خمسة ملايين وأربعين مليونا.

وضحكت ولم يضحك الإمام.

ووجدت أننا لم نختلف الآن كثيراً عن الإمام، وانتهزت الفرصة لأعتذر له، فموقف وزرائنا مضحك مثل موقفه!

٢

في روما انعقد مؤتمر صحفي في فندق (الاشليسور) للأزياء الحديثة من تصميم بيت اسكباريللي، دخلت وبطاقة الدعوة في يدي.. ووجدت عيونًا غير مرحبة، وأيه يعني؟ وكنت الرجل الوحيد، ولم أفهم وجاءتني سيدة تسألني عن سبب وجودي.

فقلت: لقد تلقيت هذه الدعوة.

وهنا أدركت أن (أنيس) منصور قد ظنوه اسم سيدة، وبسرعة قلت لها: نحن توءمان، وأختي لم تتمكن من الحضور، وأنا أنوب عنها، ونحن معًا نعمل في تصميم الأزياء.. أنا في القاهرة وهي في الإسكندرية.

وطلبت مني أن أكتب عنواني: فكتبت لها عنوان صديقي كمال الملاخ!

٣

بعد تأميم الصحافة في مصر عقد الرئيس عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًا لكل رؤساء التحرير ـ وكنت أيامها رئيس تحرير مجلة (الجيل)، وتصورنا وتوهمنا وقيل لنا إن الرئيس سوف يناقش موضوعات كثيرة في مقدمتها تحضير الأرواح بالسلة، وهو الموضوع الذي أتيت به من أندونيسيا وانتشر في مصر كلها سنة ١٩٦٠م. ولم يناقش الرئيس موضوع السلة التي قيل إن (أخبار اليوم) قد اخترعته لتشغل الناس عن الاتحاد القومي ـ قالها أنور السادات نقلا عن الرئيس عبد الناصر!

وإنما تحدث عن الكاريكاتير في (روز اليوسف) واستنكر وجود عشاق في الدواليب أو تحت السرير، وقال: ماعندناش في مصر حاجات بالشكل ده.. دي حاجات مقرفة!

وفجأة سألنا الرئيس عبد الناصر: دلوقت.. أنتم أحرار. تحبوا أشيل الرقابة عن الصحف أو أترك الرقابة..

وارتفعت أيدينا جميعًا: عاوزين الرقابة يا ريس!

طلب غريب ولكنه معقول! ومن المؤكد أن ٨٠٪ من القراء لا يعرفون يعنى أيه: رقيب على الصحف، فالرقيب هو أى واحد من بنى آدم تبعث به الحكومة لأية صحيفة، يتلقى التعليمات بالتليفون هكذا:

ممنوع نشر كلمة واحدة عن شاه إيران.. ممنوع كتابة أى شىء عن ارتفاع أسعار الخيار والطماطم.

وتعرض الصحيفة كل ما لديها من موضوعات وإعلانات على السيد الرقيب فيحذف ما يراه دون مناقشة من أحد... يحذف ما يشاء.. لأنه ينفذ التعليمات، ونحن حريصون على أن يقوم الرقيب بعمله حتى نتمكن من طبع الصحيفة.. أما إذا لم يكن الرقيب موجودًا، فإننا لا نعرف ماذا تريد وماذا لا تريد الحكومة، فنطبع الصحيفة وفجأة يهجم البوليس على المطبعة يوقفونها ويمنعون الصحيفة من الخروج إلى الشارع!

وأذكر أن رقيبًا جديدًا عينوه فى (أخبار اليوم) وكان مضحكًا، فاتصلت به تليفونيًا وقلت له: التعليمات الجديدة منع نشر اسم أنيس منصور.

فقال بسرعة: كويس يا أفندم.. ده إنسان مشاكس.. أيوه يا أفندم..

وبعد ساعة تذكرت أننى داعبت الرقيب فنزلت إلى المطبعة أراجع ما كتبته فى باب (أخبار الأدب) فوجدت الرقيب قد حذف اسمى من إشرافى على الباب.. وحذف اسمى فى نهاية المقال، ولم أفلح فى أن أقول له إننى أنا الذى كنت أداعبه!

٤

يوم افتتاح المعرض الصناعى الألمانى فى القاهرة ١٩٥٧ وكان لابد أن نجلس أمام ساحر الاقتصاد الألمانى: لودفيك أو هارد الذى صار مستشارًا لألمانيا بعد ذلك.

فقد وجهت الحكومة الألمانية الدعوة إلى الصحف لتوفد مندوبيها، وذهبنا إلى ألمانيا باعتبارنا محررين للشئون الاقتصادية: محمد صبيح وسعيد سنبل وهدى توفيق وزكريا الشربيني ومصطفى محمود ورائد العطار وأنا، وكان المستشار الألماني قد احتاط لهذا اللقاء الخطير فجلس وراءه عدد من الخبراء وقد تراصت أمامهم دوسيهات ووثائق قد يحتاج إليها المستشار إذا واجهناه بأسئلة محرجة.. ولم يحتج المستشار إلا لبضع دقائق ليكتشف أننا على الحديدة.. لا عندنا معلومات اقتصادية لا عن مصر ولا عن أوروبا، ومنعه الحياء أن يطلب إلى الخبراء مغادرة القاعة، فالموقف لا يستاهل، وفجأة وقف وزير الاقتصاد الألماني رافعًا كأس الشمبانيا، فى صحة الصداقة المصرية الألمانية عندما انسحب الخبراء وتلاشى المؤتمر الصحفى.

وفى اليوم التالى نشرت صحيفة (دى فلت) حديثًا تكلمت فيه عن الفلسفة الألمانية التى أعرفها جيدًا، وكتب المحرر الاقتصادى يقول: إلى جانب خبرته الاقتصادية فإنه يعرف دقائق الفلسفة الألمانية أكثر من معظم الألمان!

شكرًا..

٥

وفى المؤتمر الصحفى الذى عقده الرئيس فيدل كاسترو لكل وفود الدول المشاركة فى مؤتمر القارات الثلاث ١٩٦٤ أفريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية استغرقت خطبته ست ساعات، وكان الناس يقفون ويصفقون كلما هزتهم عبارة قوية مثل: إننى هنا لنصرة شعوب أفريقيا (وقوف) وآسيا (وقوف) وأمريكا اللاتينية (وقوف وتصفيق)، جئنا بكامل وعينا (وقوف) وإرادتنا (وقوف) وإيماننا بعدالة قضيتنا (وقوف وتصفيق)..

وفى نهاية المؤتمر تسللت البنات الجميلات ووزعن علينا أكياسًا من البلاستيك بها مادة بيضاء لاهى سكر ولاهى دقيق وإنما رمال من أرض كوبا المحررة!

وفى الليل ذهبنا تحت الأمطار الغزيرة جداً، وقد تشابكت أيدينا نغنى ونرقص على إيقاع مقطوعة موسيقية اسمها (الموزمبقية) من تأليف الموسيقار بابيلو الأفريكانو وهذه الموسيقى هى المقابل الكوبى للروك أندرول الأمريكى!

وجاءت الفتيات الجميلات تقبل وتعانق أعضاءالوفود قبلات عميقة وانتظرنا دورنا!

هنا فقط أدركنا لماذا وزعت الفتيات الورد على بعضنا، حتى لا تقبل إلا الذين يحملون الورد ـ رؤساء الوفود فقط!

٦

احتفل شاه إيران بمرور ٢٥ قرنًا على حياة الملك (قورش العظيم) فى مدينة برسبوليس، وحضر كل رؤساء الدول، أما الرئيس السادات فقد أوفد نائبه حسين الشافعى وزوجته، وأقاموا فى خيام فخمة صنعتها شركة (ميشلان) الفرنسية، وكان الطعام يجىء ساخنًا من مطعم (ماكسيم) فى باريس، وكان هناك (صالون ألكسندر) الكوافير الشهير، وكان كل رئيس دولة يجد صورته مرسومة على سجادة عجمية يدوية طبعًا.

أما المؤتمر الصحفى فكان فى القصر الإمبراطورى، ورأينا شاه إيران رشيقًا مشدودًا صارمًا، وكانت ألوان القاعة والجدران والمقاعد موسيقية الظلال، وتحدث الإمبراطور، ووزعوا علينا الحلوى فى أطباق مذهبة، أما الملاعق والشوك والسكاكين فهى من الذهب الخالص، ونظرنا بعضنا إلى بعض وتلاقت أفكارنا وأسعدنا ذلك. فطبيعى جدًا أن يتركوا لنا هذه الأدوات الذهبية ذكرى هذا الاحتفال العظيم. فهذه الأدوات الذهبية ليست شيئًا فادحًا إذا ما قورنت بالمليارات التى انفقتها الدولة على الاحتفال والطرق المؤدية إلى مدينة الخيام وعشرة ملايين دولار فقط كانت للقضاء على الثعابين والعقارب فى الطريق إلى مدينة برسبوليس.

وبسرعة غريبة جداً وجدنا عدداً من الحرس الإمبراطورى قد اقتحموا الصفوف وامتدت أيديهم إلى الشوك و السكاكين والملاعق وجمعوها فى وعاء ذهبى.

وانتظروا أمام دورات المياه عدداً من الصحفيين ثم استخرجوا الشوك والملاعق والسكاكين من جيوبهم!

ووجدت صحفياً أمريكياً قد أخرج سكيناً ذهبياً من جيبه، فسألته: كيف؟

فقال: عندما نهض الإمبراطور سارعت لسؤاله ثم وضعت قدمى فوق سكينة قد سقطت منه، ولما خرج الإمبراطور اتجه الحرس الإمبراطورى وراءه.. فالتقطت السكين ووضعتها فى جيبى!

٧

فى باريس عقد الرئيس السادات لقاء مع المبعوثين، جلست فى الصف الثانى وإلى جوارى الأستاذ محمد توفيق عويضة الذى سبق الرئيس إلى فرنسا لترتيب هذا اللقاء ـ أى اختيار الطلبة وتلقينهم ماذا يقولون وماذا يسألون، ثم همس فى أذنى: تعرف أنا بهدلت لك العيال دول.. الواد اللى قاعد قدام أنا سويته ضرب على الجنبين، والواد الثانى، ده أنا عارف ثمنه إديته قرشين.. أنا صرفت هنا يمكن مليون فرنك!

يا خبر أسود!! هؤلاء طلبة متفوقون يدرسون القانون واحترام القانون.. ثم نضربهم لكى يتحدثوا أمام الرئيس وهم يؤمنون بأن ضربهم كان بتعليمات من الرئيس السادات؟!

وغضب الرئيس غضباً شديداً عندما نقلت إليه ما سمعت، وطلب مندوبين عن هؤلاء الطلبة، وجاءوا إلى (ميت أبو الكوم) وأبدى الرئيس أسفه الشديد لما حدث، وأسمعهم كلاماً جميلا جداً.

أما الطالب الذى تولاه الأستاذ توفيق عويضة بالتأديب فأكمل دراسته فى

السوربون، وطلب مقابلة الرئيس عند وصوله إلى القاهرة وأعرب عن امتنانه هو وزملاؤه!

وطلب إليه الرئيس إذا عاد زملاؤه من باريس سوف يكون سعيداً بلقائهم!

وجاءوا سبعة، وفوجئ الرئيس بواحد منهم دون استئذان خلع جاكتته وساعده زملاؤه على ذلك وكشف عن كتفه اليسرى، فانزعج الرئيس وتساءل: أيه ده يا بنى؟

ـ أحد زبانية توفيق عويضة يا ريس!

٨

أما أسوأ مؤتمر صحفى عقده الرئيس السادات وكان نقطة تحول فى موقف وسائل الإعلام العالمية منه فكان فى (ميت أبو الكوم) عندما ضبطت أجهزة الأمن شريط فيديو سجله الصحفى الإنجليزى الصهيونى دافيد هرست، وفى هذا الشريط يتهم السادات بأنه نازى. . وأنه كان على صلة بالألمان، وأنه أرسل خطاباً إلى هتلر، مع أن هذا الخطاب لم يبعث به، وإنما هى رسالة صحفية موجهة إليه، وفى الوقت نفسه كان السادات يرى: أن عدو عدوى صديقى. . والألمان أعداء للإنجليز الذين هم أعداؤنا!

ومما قاله دافيد هرست فى الشريط أن السادات له مستشار سياسى نازى ومتحمس للفلسفة الألمانية هو أنيس منصور وأن وأن. . .

ولم أكن قد رأيت الشريط، وأعطانى الأستاذ الشافعى عبد الحميد رئيس هيئة الاستعلامات نسخة من الشريط، وشاهدته. . إنه مادة مسمومة لصحفى يهودى متعصب!

وفى هذا المؤتمر هاجم السادات وسائل الإعلام العالمية ـ ناسيا أن الإعلام العالمى هو الذى جعل صورته عالمية، وجعله بديهية فى السياسة ونموذجاً رفيعاً فى الدعوة إلى السلام فى الشرق الأوسط وفى العالم!

وبعد المؤتمر الصحفى جلست إلى الرئيس السادات بعد أن هدأت نفسه قليلا ونام ساعة، وجلسنا صامتين دقائق . . وبادرنى الرئيس: إيه رأيك فى المؤتمر يا أنيس؟

ـ والله ياريس كنت عنيفًا جدا، لم يتوقع منك الصحفيون ذلك . . فأنت قد دللتهم كثيراً، وهم أيضًا . لقد كان المؤتمر صدمة!

وسكت الرئيس السادات وأحنى رأسه ثم هزها ومط شفتيه وقال: معك حق . .

وكدت أقول له: يمكن دعوتهم مرة أخرى والتخفيف من الذى قيل ولكن الصحفيين كانوا أسرع من الإذاعة والتليفزيون فى الدنيا . . إن السادات قد تعب، قد فقد أعصابه فتغيرت اللهجة والصورة والصوت والصدى .

وفى أول حديث مع الرئيس الجديد حسنى مبارك سألته: يا ريس لعلك لاحظت أن الرئيس السادات فى مؤتمره الأخير قد عاد يتصبب عرقًا . .

فقال: أنت عارف . . لقد كانت الأحداث صعبة ومفاجئة فغضب، ولو كانت الظروف أهدأ وأحسن ما احتاج السادات إلى أن يكون عنيفًا ولأصبح موضوع دافيد هرست شيئًا تافهًا!

وبعد يومين قال لى الرئيس السادات: إن دافيد هرست طلب مقابلتى .

فقلت: لا أصدق ذلك ياريس!

فقال: إن (. . . . . .) هو الذى نقل لى ذلك .

ـ ولاتصدق (. . . . .) وأنا أعتقد يا ريس إذا أنت وافقت فسوف ينشر دافيد هرست الخبر هكذا: طلبنى السادات وأنا اعتذرت!

ـ . . . .

وبعدها بيوم قال لى الرئيس السادات: تعرف أن استنتاجك صح . . فقد علمت من سفيرنا أن دافيد هرست لم يطلب وأنه لا يزال يشن حملة عنيفة على مصر!

٩

فى طوكيو انعقد مؤتمر صحفى للوزير الدكتور وجيه شندى، ووقف يلقى كلمة مكتوبة شكر فيها وزير المالية اليابانى لأنه وافق على بناء دار الأوبرا المصرية ـ ورفضت اليابان أن يكون اسمها (أوبرا) لأن القانون يمنع أن تساعد اليابان على بناء المسارح أو المطاعم أو الكازينوهات التى دمرتها الحرب فى الشرق الأقصى ـ وهى بالألوف ـ ولذلك كان اسم الأوبرا: معهد الفنون المسرحية، وشكر الوزير اليابانى وأعطاه حقه فى الامتنان.

وعند نهاية المؤتمر قلت له: يا سيادة الوزير ولكنك لم تذكر اسم الوزير بينما الرجل ذكر اسمك عدة مرات!

واقترب منى الوزير وهمس فى أذنى:

إن اسم الوزير مكون من كلمتين كل منهما فى غاية البذاءة!

ولم يفلح الوزير المصرى فى أن يشرح للوزير اليابانى عن سبب إغفال اسمه، فقد تولى السفير المصرى هذه المهمة.

ولأن الوزير اليابانى ابن نكتة فقد استخرج من خطاب الوزير المصرى باللغة العربية تسع كلمات إذا سمعتها المرأة اليابانية رقعت بالصوت!

الأهرام من ٥٠ عامًا :

١ ـ لولا العدس ما رأيت صاحب الأهرام!

١

دخل رئيس التحرير غرفته فوجدنى أنفض المقاعد وأمسح زجاج المكتب، فلما رأيته تنحيت جانبًا وأشار دون أن ينظر لى بأنه سوف يأتى بعدين. . وبعد دقيقة خرج الأستاذ عزيز ميرزا لكى أكمل تنفيض المكتب.

وبعدها بيوم وجدنى فى مكتب العضو المنتدب الأستاذ «شميل» وهو يشرح كتابًا سوف أقوم بترجمته، ونظر رئيس التحرير كأنه رآنى قبل ذلك، ثم لم يصدق عينيه وخرج كأنه لم يرنى!

تفسير ذلك: فالأستاذ عزيز ميزرا رئيس تحرير الأهرام طويل القامة، نحيف مهموم، مكفهر لا ينظر لوجه أحد، وإنما يمشى بسرعة ذهابًا وإيابًا كأنه فى مهمة عاجلة. . و الحقيقة أنه ليس له أى دور فى أى شىء (الأهرم). . وإنما الشىء وكل شىء فلمدير التحرير الأستاذ نجيب كنعان. . ولكن يحدث لسبب لا أفهمه أن يذهب موضوع أو مقال إلى الأستاذ عزيز ميرزا وينساه، ولا نعرف ما الذى يمكن عمله.

فنعترض طريقه ونسأله فيرد بالفرنسية وهو يدب فى الأرض بسرعة دون أن يراك فتفهم أو لا تفهم، ثم تعدل تمامًا عن البحث عن الموضوع وتستعوض ربنا، وقد لاحظت أن ثلاثة موضوعات بقلمى دخلت مكتبه ولم تخرج، ولاحس ولاخبر، واعترضته ذهابًا وإيابًا وسألته وأجاب ولم أفهم، فلجأت إلى حيلة أن أدخل مكتبه كأحد السعاة وأن أفتش فى الأوراق على مكتبه، وجدت الموضوعات الثلاثة!

وحكيت ما حدث . . وضحكنا . .

٢

كنا فى شتاء سنة ١٩٥٠ وكان بوفيه الأهرام فى الدور الثانى.

ووقف عم بولس الجرسون الوحيد فى الأهرام يزعق من النافذة بالطلبات قائلاً: سبعة عدس للأستاذ أنيس منصور . . وواحد عدس للأستاذ زكريا الشربينى اللى كان طلبه الأستاذ الصاوى فى مكتب الأستاذ كنعان أول امبارح، وواحد عدس للأستاذ جورج عزيز على حساب الأستاذ فايق . . و . . و . .

وفجأة وجدنا شابًا أبيض وسيمًا دخل غرفتنا . . غرفة الترجمة وكان فى طريقه إلى دورة المياه الخاصة برئيس التحرير ومدير التحرير والعضو المنتدب، هذا الشاب هو صاحب الأهرام الأستاذ بشارة تقلا.

والذين عرفوه قد وقفوا على حيلهم فى احترام عظيم، واتجه إلينا: أين أنيس منصور؟

فقلت: أنا

ـ أنت طلبت سبعة عدس؟

ـ أيوه.

ـ هاها . . هاها . . سبعة!!

وكانت هذه هى المرة الأولى والأخيرة التى رأيت فيها صاحب جريدة الأهرام!

٣

خسرت الصحافة فى كل زمان ومكان شخصية فريدة مثل كامل الشناوى . . إنه الأب والأخ والراعى . . فهو الذى يختار لنا الصحيفة ويناقش المرتب والعلاوة والمكافأة . كنا نعمل معه فى (الجريدة المسائية) التى كان يملكها أحمد باشا حمزة وسيد بك ياسين ورئيس التحرير كامل الشناوى، وكان سكرتيرا التحرير عبد المنعم الصاوى ومأمون الشناوى . . وأغلقتها الحكومة السعدية بعد ٤٤ عدداً، ولم نفكر لحظة واحدة فى مصيرنا بعد ذلك . . ولم أكن قلقًا فقد كنت أعمل فى نفس الوقت فى جريدة (الأساس) لسان حال الهيئة السعدية وفى (روز اليوسف) . .

ووجدت نفسى فى جريدة (الأهرام) كيف؟ إنه كامل الشناوى، الذى بعث الحياة فى صحيفة الأهرام والحيوية فى لياليها، فلم يكن مسموحًا قبل كامل الشناوى أن يأكل أحد فى مكتبه أو يشرب البيرة .

ولم يكن مسموحًا لأحد قبل كامل الشناوى أن يضحك بصوت مرتفع . . أو يدفع باب أى أحد بيده أو برجله ويدخل دون إذن ليلقى الطعام والشراب والفاكهة والفكاهة ـ فقط مكتب كامل الشناوى . .

أما الأبواب المغلقة بالضبة والمفتاح فهى مكتب نجيب كنعان الرجل الأول . . مدير التحرير . . ومدير أى شىء فى الأهرام . . إنه رجل جاد من النادر أن يضحك، وليس فى استطاعة أحد أن يجعله يضحك حتى لو أراد . وإلى جواره مكتب الأستاذ زكى عبد القادر . . أما مكتب الأستاذ أحمد الصاوى محمد ففى الدور الثانى . .

وكان رئيس التحرير عزيز ميرزا طويل القامة نحيفًا، جافًا صامتًا . يحمل فى يده شنطة من الجلد . . أو كانت شنطة من الجلد ثم تكورت حتى صارت كيسًا منفوخًا من الخيار والجبنة والخس، وكان الرجل مثل الرهبان، وكان مكفهرا . معزولا عن الدنيا لدرجة أنه عندما سافر إلى هولندا وقدمت له الملكة سيجاراً اعتذر

بأنه لا يدخن مع أن أبسط التقاليد تقول: حتى لو قدمت لك الملكة سما يجب أن تبلعه سعيدًا بنهايتك على يديها!

أما الحياة السياسية والاجتماعية والغذائية فكلها فى مكتب كامل الشناوى الذى قلب كيان جريدة الأهرام فملأ الدنيا ضحكًا.. وجاءه كل رجال السياسة والوزراء والأدباء والشعراء والفنانين.. ففى مكتب كامل الشناوى رأينا توفيق الحكيم ويوسف وهبى ومحمد التابعى وتوفيق دياب وأحمد الألفى عطية وزكى دياب.. ونور الهدى ومحمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومحمد أبو الفتح صاحب جريدة (المصرى)..

وكانت صوانى اللحوم والسمان والأرز والحلويات والفول والطعمية والسمك تملأ مكتب كامل الشناوى وتفيض على الباب ومدخل الأهرام..

وأنت تدخل مبنى الأهرام فعلى يسارك غرفة العضو المنتدب الأستاذ شميل، ولا أحد قد رآه ولا داعى لذلك. أنا رأيته مرتين فى ثلاث سنوات.

أما الممر الضيق الذى على يسار الداخل فينتهى بغرفة قسم الترجمة وكنا ستة جورج عزيز رئيسًا وزكريا الشربينى وأحمد عزمى وفايق والدكتور محمد رياض وأنا..

أما الدور الثانى.. فالغرفة التى على اليسار كانت لواحد لم أراه ولم أسأل من هو. ولكن يبدو أنه شخص مهم فى الإدارة؟

وعلى اليمين مكتب الأستاذ أحمد الصاوى محمد الذى ينشر الأهرام مقاله فى الصفحة الأولى على الشمال بعنوان (ما قل ودل) ثم ظهر له باب فى الصفحة الثالثة اسمه «زكيبة البريد» أى رسائل القراء وكان كمال الملاخ يضع فيها رسومات صغيرة.. وبعد ذلك انتقلت إلى الغرفة التى بجوار الأستاذ الصاوى مع كمال الملاخ وتلازمنا منذ ذلك الحين، وتركنا الأهرام معًا لنعمل فى (أخبار اليوم) ثم عاد كمال الملاخ إلى الأهرام سنة ١٩٥٨ وعدت أنا سنة ١٩٧٦ حين أصدرت مجلة (أكتوبر) ورأست مجلس إدارة (دار المعارف).

والغرفة المجاورة لنا كان فيها الناقد الرياضى الكبير جهينة. أما بقية الغرف ففيها المحررون القدامى والمراجعون.

عدد المحررين فى ذلك الوقت ١٩.

وقد سألت صديقى وبلدياتى على غنيم نائب رئيس الأهرام عن عدد المحررين فى جريدة الأهرام الآن فقال لى ٧٩٠ أما عدد العاملين فتسعة آلاف، أما عدد العاملين فى الأهرام فى ذلك الوقت فكانوا ٣٠٠.

٤

وكانت الحياة فى جريدة (الأهرام) صارمة جامدة باردة. وكل واحد فى ثلاجة ندخلها أحياء ونخرج منها موتى من الخوف واللامبالاة.. ثم كانت لنا رحلات أسبوعية إلى القناطر الخيرية.. أى والله!

وكانت هى النزهة الوحيدة فى ذلك الوقت.. وكنا سعداء ونشعر بأننا مدللون على الآخر.. فقد كانت مناسبة سعيدة جدًا أن نجد أنفسنا مع الأستاذ نجيب كنعان ضاحكًا وكان من أفراد هذه النزهة الأسبوعية: جورج عزيز وألبير عمون وتوفيق حنا الشمالى وكمال الملاخ وأنا وبعض الزوجات. وكان كمال الملاخ يتولى إعداد نوع من اللحوم بالفرن تجىء ملفوفة فى أوراق الصحف. ولا أعرف ما هى. ولكنهم كانوا ينتظرون طعام الملاخ الذى يقدمه بحفاوة فرعونية.. أما الزوجات فكن يتفنن فى ورق العنب والحلويات الشامية.. وكان الأستاذ أحمد الصاوى محمد يسخر من هذه الرحلات العيالى.. ولم يقدم لنا بديلا. فلم أقابل أحدًا قد دعاه الصاوى إلى ولائمه الفاخرة.. فقط صاحب الأهرام والعضو المنتدب وكامل الشناوى!

٥

وتمضى الشهور ونحن نعمل فى جريدة (الأهرام) لا رأينا أحدًا يصافحنا ولا أحدًا يتخانق ولا أحدًا يرفع صوته.. ولا أحدا يعترض.

وإنما كل شيء هادئ منضبط تمامًا. وكان كامل الشناوى هو الزلزال الذى أصاب الأهرام.. فقد ظهرت المناشيتات فى الصفحة الأول لأول مرة. بسبب أحاديث كامل الشناوى التى كانت حديث المدينة والصحافة.

وكان الحديث الذى أجراه كامل الشناوى مع طه حسين نقطة تحول فى التربية والتعليم وفى الصحافة أيضًا. وكانت مقالات كامل الشناوى عن طلاق الملك فاروق للملكة فريدة: هوس الدنيا لجمال العبارة والصدمة العنيفة فى أساليب الكتابة الصحفية التقليدية فى الأهرام.. وكان كامل الشناوى بأسلوبه والشخصيات التى يعرفها ويقدمها أكبر من احتمال الأهرام وكل موروثات الأهرام..

٦

أما عملى الأساسى فى الأهرام فهو أن أكتب القصة القصيرة كل يوم.. وكان المطلوب أن أترجمها ترجمت كثيرًا والباقى من تأليفى.. وكنت أجعل الأسماء أجنبية فى القصة حتى لا يظن أحد أنها من تأليفى.. كل يوم قصة حتى اكتملت ٦٥٠ قصة قصيرة اخترت بعضها ونشرتها فى كتابى (عزيزى فلان) وفى كتاب آخر هو (بقايا كل شيء). ولم يكن مسموحًا لنا فى ذلك الوقت بأن نوقع على أى شيء نكتبه. وإنما كانت القصة تنتهى بكلمة (تمت) أى كملت. وكان زملائى يسخرون منى وينادوننى: الأستاذ تمت!

وللأمانة فقد ظهر اسمى مرتين فى ثلاث سنوات. مرة خطأ عندما كتبت مقالا عن البالية الهندى فى الأوبرا.. ونسيت ووقعت، ونسى المراجع والمصحح ومدير التحرير فتركوا الإمضاء!

ومرة أخرى ظهر اسمى عن قصد عندما سافرنا كمال الملاخ وأنا إلى أوروبا، فظهر الخبر هكذا: يسافر اليوم على ظهر الباخرة أسبيريا الزميلان كمال الملاخ وأنيس منصور.

وتلقينا التهانى على هذا الإنجاز الكبير!!

٧

وفى ذلك الوقت رأيت لأول مرة الأستاذ شميل : قصير القامة أصلع في غاية الحيوية والذكاء . أما السبب فهو أنه يريدنى أن أترجم (مذكرات روميل) . وترجمتها ثم طلب منى أن أترجم (ثلاثة ضد روميل) وكان هذا الكتاب قد أرسلته السفارة البريطانية ثم ترجمت كتاب (الإله الذى هوى) والمقصود بالإله هو الشيوعية عند عدد من كبار المفكرين الذين كفروا بالشيوعية مثل الكاتب الفرنسى أندريه جيد والكاتب الإنجليزى أرثر كيسنلر والكاتب الإيطالى أنياتسيو سيلونه . .

ثم جاءت اللحظات الحاسمه ونقطة التحول فقد طلب كامل الشناوى نيابة عنى مكافأة عن الترجمة . . وكانت المكافأة ١٥٠ جنيهًا ، وهو مبلغ يكفى جداً فى ذلك الوقت لأن تسافر بالطائرة إلى أوروبا ذهابًا وإيابًا وتبقى شهراً تأكل وتشرب وتشترى هدايا ، وهى أول رحلة إلى أوروبا بطريق الجو . وكانت رحلتى بالطائرة مع شركة (شل) . . أما الطائرة فتابعة لشركة طيران جيبوتى . . وكانت مخصصة لنقل المواشى من السودان والحبشة إلى جيبوتى ، ومقاعد الطائرة مثل الأتوبيس بالعرض ، وكنا نمسك فى حبل واحد حتى لا نسقط على أرضية الطائرة وهى أول وأسوأ رحلة فى حياتى . فقد فوجئنا ببعض موظفى شركة شل يدخنون الحشيش . وفوجئ الطيار بأن المضيفة الوحيدة قد حزموها لترقص على واحدة ونص! فما كان من الطيار إلا أن راح يعلو بنا ويهبط ويعلو ويهبط . فلما توقفت الطائرة فى مطار أثينا لم يستطع أى واحد منا أن ينهض من مقعده فقد دوخنا الكابتن .

وبعضنا سقط على الأرض من الإعياء وأكثرنا أخرج ما فى أحشائه ـ خصوصًا الذين قد ركبوا الطائرة لأول مرة!

❊ ❊ ❊

وكانت عندى مشكلة فى ترجمة مذكرات روميل . لم أعترف بها لأحد . . فقد اعترضتنى كلمة فى هذه المذكرات لا أكاد أراها حتى أقفز من فوقها . . ومن فوق السطر وربما الصفحة . فلم أعرف لها معنى . . وربما كانت هذه الكلمة مسئولة عن

بعض الغموض فى الحكايات وسردها وربطها . . وكانت هذه الكلمة عفريتا يظهر لى فى كل مكان ولا أعرف كيف أصرفه : أشتاتًا . . أشتوت . . وبعد سنوات من التستر على هذه الكلمة عرفت معناها بمحض الصدفة . أما الكلمة فهى (جرايز) .

أما المعنى فهى نوع من السجائر كانت تدخنها القوات البريطانية ! !

٨

وكانت عندى مشكلة كل شهر . فكنت إذا ذهبت لكى أقبض مرتبى من الأستاذ ثلجى فى العمارة الثانية ـ فالأهرام عمارتان واحدة للتحرير والثانية للإدارة والإعلانات .

ولا أكاد أقف أمام الأستاذ ثلجى حتى يهز رأسه يمينًا وشمالا ويقول لى : باردون مسيو منصور

ـ باردون أيه؟

ـ أنت عارف .

ـ عارف أيه؟

ـ مسيو الملاخ قبض مرتبك !

وأبحث عن كمال الملاخ فأجده قد سافر إلى الإسكندرية يصرف مرتبه ومرتبى على حب فاشل . والحل كل شهر هو أن أذهب إلى يوسف بك . . ويوسف بك هذا أخو كمال الملاخ . . رجل أنيق شيك مثل اللوردات .

ـ يا يوسف بك . .

ـ نعم .

ـ كمال؟

ـ ما له؟

ـ فلوسى!

ـ عملها ثانى؟

ـ وسافر إلى الإسكندرية . .

ويفتح المحفظة ويعطينى مرتبى ـ كل شهر . ولا يجرؤ كمال أن يطلب من يوسف بك جنيهًا واحدًا!

٩

وفى يوم استدعانى الأستاذ الصاوى الذى تذوقنا من قلمه طعم الأدب الفرنسى وجمال الحياة الباريسية . . وكنا نحلم بالأماكن التى يذكرها : مقهى دلابيى . . والفولى برجير . . وآرش دى تريومف واللوفر وغابة بولونيا . . وبلزاك وزولا وهيجو ودى ميسيه . . وما لانهاية له من أسماء الطعام والشراب . . فالحياة كلمة فرنسية والذوق والأناقة والحضارة وعشيقات الملوك والأمراء والأدباء . . قرأت للصاوى قبل أن أقرأ لرفاعة الطهطاوى كتابه (تلخيص الإبريز فى تلخيص باريز) . . لقد كان الصاوى أجمل وأمتع وأروع .

وليس فى شكل الأستاذ الصاوى تلك الرقة والحيوية التى فى أسلوبه، فهو قصير القامة أحدب الظهر أصلع رفيع الشفتين كبير الأنف سريع الكلام ولا تفارق أصابعه السيجار، وكان ينظر إليك فى عينيك .

فما الموضوع؟ لقد قرر أن يصدر مجلة اسمها (الشهر) يرأس هو تحريرها وأكون سكرتير التحرير مع اثنين من الفنانين هما عبد السلام الشريف وحسن فؤاد، وكان مقر المجلة فى شقة الفرفشة التى كان يملكها بشارة تقلا فى عمارة إيموبليا، والشقة غرفتان، غرفة خاصة بالأميرة وهى السيدة لطيفة العبد، ويجلس فيها الأستاذ الصاوى فى غيابها . . والغرفة الثانية هى التى نجلس فيها . . . وهى أقرب إلى غرف التعذيب فى المخابرات . . لأجد جدران الغرفة كلها لمبات قوية جدًا، ولذلك كنا ندير لها ظهورنا . وليس هذا هو المهم . المهم أننا كنا نذهب بالقميص

والبنطلون، فأصدر الأستاذ الصاوى فرمانا بأن نرتدى بدلا ومن لون خاص، رمادى نحن الثلاثة، وسوف يهدينا الكرافتات والجزم. وهذه البدل لا نرتديها إلا إذا جاءت الأميرة. . البدل فصلناها فى محل يفصل بدل الملك فى ميدان الأوبرا. ولابد أن نصافح الأميرة وأن ننحنى. . لابد يا فلاحين.

ـ هكذا كان يقول لنا. .

وقد اعتدنا على أن نكوى البدل ونلفها فى ورق ونضعها عند نهاية كل شهر على مكاتبنا احتجاجًا على أننا لم نتقاض مرتبنا. . ومعها بدلة رابعة هى بدلة الساعى!

وحرضنا الفنان حسن فؤاد على ألا نرتدى البدل ولو مرة واحدة إذا جاءت الأميرة. . وجاءت ولم تستنكر الأميرة أن يخرج القميص من بنطلون عبد السلام الشريف وأن يكشف حسن فؤاد عن الشعر فى صدره وذراعيه. . وعن سقوط زرار من قميصى. . أما الذى ظهر عليه الضيق والقرف فهو الأستاذ الصاوى، وخرجت الأميرة وسألنا الصاوى. إيه يا غجر اللى انتو عملتوه ده؟!

وكان رد حسن فؤاد: على قد فلوسك يا أستاذ! وهذه استقالتنا الجماعية!

قرأها الصاوى وضحك وقال: قطعوا الاستقالة حالا. . فيه فلوس. . فيه أموال سوف أدفعها لكم الآن. . انتو بقى لكم شهرين لم تقبضوا. . أدى أربعة شهور. . وأريد أن أعرف من الذى كتب هذه الاستقالة البديعة!

فقلت: دى فولكلور يا أستاذ!

وضحك الصاوى حتى سقطت الفلوس من جيبه. . ونادى الساعى المستقيل لكى يجمعها ويأخذها!

١٠

وفى يوم وجدت كل من قابلته يقول لى: أنت فين، الأستاذ الصاوى يبحث عنك!

ذهبت إلى كامل الشناوى أسأله . فكان لا يعرف . وأنا فى مكتب كامل الشناوى جاء الساعى يقول لى : الصاوى بك عاوزك ضرورى!

وصعدت إلى الدور الثانى ، فوجدت الأستاذ الصاوى يتمشى فى مكتبه وينفخ فى سيجاره ويقول لى : اقعد . . أنت فين؟

لا أرد . لأننى لا أعرف ما الذى يريده ، وقال لى اسمع : أنها مسألة خطيرة . قضية عمرك . . اسمع . . تعرف الأميرة هان زاده؟

ـ لا

ـ لا تعرفها . . الأميرة الجميلة جداً . . لاتعرفها ولا رأيت صورها . .

ـ لا . .

ـ على كل حال هذه فرصة نادرة لكى تراها وتتحدث إليها . . غداً سوف تجىء سيارة رولزرويس . . هذه السيارة سوف تأخذك لمقابلة الأميرة . آه . . تكون لابس بدلة غامقة . . عندك؟

ـ لا . .

ـ طيب بدلة وكرافتة . . خد بالك من اللى حاقوله . . الأميرة هان زاده . . عندها قصة قصيرة بالإيطالية . . أنت تعرف إيطالى؟

ـ أيوه . .

ـ سوف تقول لك ما الذى تريده . . بكرة تقف على باب الأهرام وفى الساعة العاشرة صباحاً سوف تجىء السيارة تركبها وسوف يقولون لك أين تذهب!

لم أنم تلك الليلة ولا أعرف الأميرة رغم أن الأستاذ الصاوى قد عرض أمامى صورها ، إنها جميلة جداً . . الأميرة هان زاده زوجة الأمير محمد على إبراهيم وأخت الأميرة نسل شاه . . وهى واحدة من راعيات المستشفيات ومبرة محمد على .

وفى ذلك اليوم كانت فيه مباراة كرة قدم بين الأهلى والمصرى . .

ومباراة فى لعبة البولو لأحد الأمراء وسوف تكون الأميرة فى المباراتين ولا أعرف أين ولا كيف أذهب إليها؟ وأخذتنى السيارة إلى طنطا لكى أقابلها هناك! وهناك زحام نسائى. والسائق ومعه واحد آخر جلس إلى جواره ارتدى ملابس سوداء. فتح لى الباب. وتركنى لكى أقابل الأميرة.. ولا أعرف كيف ولا ماذا أقول لها لو قابلتها.. ورأيتها من بعيد ووراءها زحام وأمامها ولم أجد وسيلة ولا حاولت..

وعدت بالقطار إلى القاهرة..

وسأل عنى الأستاذ الصاوى وقابلته، وكأنه كان يتوقع ذلك فقال لى: دعنى أبحث عن طريقة أخرى!

وبعد أيام قال لى إن الأميرة سوف تنتظرك غداً فى قصرها وسوف تجىء لك السيارة فانتظرها أمام الأهرام.. وجاءت السيارة. وركبت ونزلت. ولا أعرف حتى الآن بالضبط ماذا حدث.. لقد وجدت أناسًا كثيرين فى ملابس قاتمة، وانفتح باب ومن ورائه باب، وتعثرت فى السجاجيد. وانفتح باب.. وأشار من لا أعرف شكله إلى أن أجلس.. وجلست.. وأشار واحد إلى أن أقف لأن الأميرة قادمة.. وغرقت فى أمطار غزيرة من العرق.. ورأيت من خلال السحاب وجهًا كالقمر.. وسمعت صوتًا موسيقيًا يقول بالإيطالية: صباح الخير.. اتفضل..

هل رأيت أحداً. هل سمعت شيئًا.. لا أعرف.. ووجدتنى فى السيارة التى انفتح بابها ونزلت أمام مبنى الأهرام.. وعلى باب الأهرام خلعت الجاكتة والكرافتة. وبدلاً من أن أذهب للقاء الأستاذ الصاوى اتجهت إلى أحد المطاعم وتناولت طعامًا.. لا هو إفطار ولا هو غداء ولكنه اضطراب نفسى وجعلت آكل أى شىء وأشرب ثم رجعت إلى البيت ونمت!

وذهبت إلى الأهرام متأخراً لأجد كل من رآنى يقول لى الأستاذ الصاوى سأل عنك.. ضرورى!

لقد كانت للأميرة خواطر عن زيارة لأحد مستشفيات طنطا. ورأت فيها طفلة صغيرة تأكل الشيكولاته ووقعت منها على الأرض وامتدت يدها ووضعتها فى

فمها أمام الناس فلم يعترض أحد على ما أصاب الشيكولاته من تراب وذباب . . تأثرت الأميرة وبكت ، وأقسمت ألا يتكرر هذا المشهد مرة أخرى لأى طفل فى مصر !

انتهت الخواطر الإيطالية المكتوبة على ورق فخم تعلقت بها رائحة أصابع الأميرة الجميلة جداً ، والمطلوب منى أن أجعلها قصة باللغة العربية !

أما تعليمات الأستاذ الصاوى فهى : أكتبها قصة كما تريد أنت وفى إمكانك أن تضيف إليها كل ما يجعلها عملاً أدبيًا !

وبعد أيام كتبت القصة . . وبعد أيام أعطانى الأستاذ الصاوى شيكًا من الأميرة . . ذهبت إلى البنك فقالوا لى : هات حد يضمنك !

فعدت إلى الأهرام ومعى عبد الله بشير رئيس السعاة . وكان هو الضامن وقبضت شيكًا بمائة جنيه . . وكان مبلغًا كبيراً فى ذلك الوقت . وهو أول مكافأة على أى عمل أدبى .

ثم طبعوا القصة فى إيطاليا على ورق ذهبى اللون . ولقد رأيت نسخة منها فى مكتب الأستاذ الصاوى . . ولم أتمكن من اقتنائها ، وقال لى الأستاذ الصاوى إن اسم الأميرة هو المكتوب على القصة وليس اسمك فهى من إبداعها يا أستاذ . . هاها . . هاها . .

٢ ـ تعودنا أن نراه عاريًا تمامًا فوق مكتبه!

١١

كانوا مختلفين تمامًا . . يرتدون بدلا كاملة وكرافتة . . والقميص أبيض والجزمة لامعة والخطوة واسعة ولا يكلمون أحدًا . . فقد كنا صغاراً لا نلفت العين والأذن وكثيراً ما اصطدموا بنا كأننا لا نشغل حيزاً فى الطريق . أو أنهم يفكرون فيما هو أهم . . وهذا يفسر لنا لماذا يمشون بسرعة ويتجهون إلى مكاتبهم ويغلقون الباب . . هكذا كنا نراهم ، وكانوا لا يروننا . فهم صاحب الأهرام والعضو المنتدب ومدير التحرير ورئيس التحرير .

الأستاذ أحمد الصاوى محمد هو الذى نعرفه أكثر . فقد قدم لنا أحدث الكتب فى جريدة «المصرى» . وكان يبهرنا بقصصه وملخصاته . إنه يطل علينا من عالم أوروبى غريب . . ولم نعرف الدنيا الحديثة بعبارة سهلة إلا من الذى كتبه الأستاذ الصاوى . وبعضنا كان يتابع قراءة مجلته التى اسمها «مجلتى» . ولا أدعى أننى عرفت ذلك إلا متأخراً . .

وكان الخيال يصور لنا الأستاذ الصاوى كأنه طيار يحط كل يوم فى عاصمة . . ويذهب بعيدا ولكن محطته الرئيسية باريس . . كيف هذا المسافر دائمًا صاحب الحكايات والروايات . . وكيف بهذه السرعة يدخل باريس ويخرج منها ويعود إلينا

بقصص وصور . . وكانت حكاياته تشعل النار فى الخيال والأحلام وخيبة الأمل . . خيبة الأمل فى أننا لن نكون مثله يومًا ما . .

ولما رأيته فى الأهرام لم أقل أبدًا : هوه ده؟!

بل وجدت الأستاذ الصاوى كأنه ساحر ، عنده ما ليس عندى من العلم والمعرفة والقدرة على التعبير . كيف؟ لم أسأل . لأن السؤال كبير جدًا . والإجابة عنه لم تخطر على بالى . . إنه الأستاذ الصاوى!

ثم اعتدت أن أراه . فقد كان مكتبه الكبير ـ لابد أن يكون كبيرًا ـ فى الغرفة المجاورة لنا ـ كمال الملاخ وأنا . وأحيانًا كنا نلاحظ أنه يبتسم . . إلا أنه رجل بشوش . . ولو وقف فى مكاننا حمار لابتسم له . فهى ابتسامة عامة وليست ابتسامة خاصة . فكأنه صورة أو تمثال اعترضناه فاخترقتنا ابتسامته . . وبس!

وفجأة وجدته فى مكتب كامل الشناوى ، وفجأة وجدت كامل الشناوى يقدمنى له :

الجيل الجيد . . دارس فلسفة وأديب ومن تلاميذ العقاد وطه حسين وسارتر . . ويعرف عددًا من اللغات . . ولكنه على عكسك تمامًا بينكسف من خياله . . لكن أنا عندى أمل فى أن يصبح وجهه مكشوفًا ويبقى من تلامذتك . . هاها . . هاها . .

والتفت الأستاذ الصاوى وقال لى : لن يطول بك الكسوف ، فكامل الشناوى قادر على أن يجرك من الحياء والأدب . . هاها . . هاها . . وفى لحظة اختفى الأستاذ الصاوى . .

وكامل الشناوى أخفى وجهه فى الورق وبصوته الغليظ قال وكأنه يحدث أحدًا غيرى : الصاوى أستاذ أساتذة العلاقات العامة . . فرأسماله هو معرفة الناس . . فاهم . .

قلت : لا . .

ـ سوف أرسلك فى بعثة دراسية لمكتب الصاوى فى الأوضة اللى جنبك . . هاها . .

١٢

الأستاذ محمد زكى عبد القادر له باب يومى اسمه (نحو النور). ولم أعرف أحدًا قد رآه أو قابله أو جلس إليه. . ولا أعرف حتى ملامحه. لم أره إلا عندما ذهبت إلى (أخبار اليوم). .

ولكن الكلام عنه يتخذ شكل الاحترام. ولم أجد أحدًا يعترض على أن أقابله باعتباره من علامات الأهرام. . ولم أجد أحدًا يقارن بينه وبين الأستاذ الصاوى أو رآهما معًا. . ولم أجد أحدًا لم يره ولم يدخل مكتبه فإنه موجود. وظل كذلك حتى تركت (الأهرام) لأعمل فى (أخبار اليوم). . وفى (أخبار اليوم) لم أقابله فى ٢٥ عامًا إلا مرتين!

١٣

أما رئيس التحرير الأستاذ عزيز ميرزا فهو يعترضك عندما يمشى بسرعة. وله طريق واحد لا يغيره. إما إلى الأستاذ نجيب كنعان مدير التحرير ومركز القوة. وإما إلى العضو المنتدب الأستاذ ريمون شميل. ولم أسأل نفسى ولا سألت أحدًا عن معنى أن يكون الإنسان عضوًا منتدبًا، وإذا تحدث أحد عنه قال: متر شميل ـ أى الأستاذ المحامى. لكن ما الذى يعمله فى الأهرام كل يوم؟ فهذا من الأسرار.

١٤

والظاهرة الواضحة فى الأهرام أنه لا صوت ولا حركة. فعددنا قليل. وأكثر المحررين يعملون فى الوزارات ويجيئون إلى مكاتبهم عند الظهيرة. أما نحن فى قسم الترجمة فأكثرنا يجيئون ليلا. والغرف متباعدة، وكل النوافذ مثل كل الأبواب مغلقة. والطرقات خالية من المحررين. وشىء عجيب إذا أحد تكلم حتى بصوت مرتفع فالمكان يأكل الصوت. . و«الأهرام» هو المبنى الوحيد الذى رأيته فى حياتى

الذى تفقد فيه الأصوات صداها؟! حتى إننى فى إحدى المرات رحت أتحسس الجدران لأرى إن كانت مثل أستوديوهات الإذاعة من الفلين . . وكانت هذه الملحوظة رسالة لنا نحن الصغار: مهما ارتفعت أصواتنا فلن يكون لها ولنا صدى. فإذا كان من حقنا أن نكتب فليس من حقنا أن نوقع على الذى نكتبه. فنحن فى حاجة إلى وقت طويل حتى نجد أن الإمضاء قد انكتبت من نفسها . . يجب أن نعمل طويلا ونجرب كثيراً حتى يحق لنا أن نوقع . . فإذا تكرر ذلك قفزت الإمضاء وحدها . . كما يحدث لكبار الكتاب فإذا نسى الصاوى أو زكى عبد القادر أن يوقعا فإن أى واحد من عمال المطبعة يفعل ذلك ويستحق الشكر!

ولم أشأ أن أقول هذا الذى لاحظته لأى أحد . . وفى يوم تصادف خروج كامل الشناوى من مكتبه حين زعقت قائلاً: يا أنيس منصور! فاندهش كامل الشناوى قائلاً: ده بدلا من أن تقول يا ليل يا عين . . هاها . .

وهذه هى المرة الأولى التى يكون فيها الصدى أسبق من الصوت! فقد كنت أظن قبل ذلك أن الصوت يبتلع الصدى!

١٥

أما صديق العمر كمال الملاخ فهو ظاهرة . . أو استطاع أن يجعل نفسه كذلك . . فهو خليط من الكبرياء والغرور والشعور بالاضطهاد والإصرار على أن يلفت العين ويخرم الأذن. فله عادات غريبة. وهو حريص على ذلك . . ولكنه طيب برىء . . وكل هذه الصفات تتجمع بقدرة قادر فى صفة واحدة إذا غضب وهى: الشراسة وخلق رأى عام له وضد الذى أغضبه . . وقد حدث ذلك مئات المرات بواقع مرة كل أسبوع . . وعند كمال الملاخ خاصية الاختراق والتسلل والنفاذ إلى أعماقك فلا يكاد يعرفك حتى يكون أو تكون صديقه. فبسرعة يجعلك طرفًا فى مشاكله وهى كثيرة وفى حياته . . وبسرعة تجد نفسك مشغولا به وغارقًا معه فى متاعبه . . ولا أمل فى نجاتك منه . . وهو إذا ألقى بهمومه على دماغك فليس معنى ذلك أنه

تخلص منها . . وإنما هو مشغول بإعداد هموم جديدة أخرى . . تماما كأنه أم لها عدد من الأطفال فإذا ألقت واحدا منهم على صدرك فليس معنى ذلك أنها تخلصت من بقية الأطفال وإنما هى تغير لهم ملابسهم لكى تلقى بهم فى حضنك . . وقدرة كمال الملاخ على إدراك الفارق بينه وبين الناس هائلة . . وتكون النتيجة أن الناس عندهم الكثير، والذى عنده قليل . . وهو رجل كريم ومن مظاهر كرمه أنه يدعوك إلى الغداء عنده فى البيت . . إما لأنه كريم، وإما لأنه لم يكمل مغامراته وحكاياته . . والذهاب إلى بيته والبقاء فيه أثناء الأكل وبعد الأكل فرصة لكى يكمل ما بدأ من عنتريات . . فهل بعد أن أكلت معه مرة واثنتين وثلاثًا تستطيع أن تفلت منه . طبعًا لا تستطيع .

وفجأة لابد أن يحدثك عن واحدة يحبها . . أو هى التى تحبه، ولكنه مشغول عنها . . وقد عرفت فى عشرين عامًا من الصداقة عشرين واحدة من هذه الفتيات والسيدات . ويكون الحب من طرف واحد، طرفه هو، لا يهم، ولكنه إذا أحب غرق، وأغرق من معه من الأصدقاء . . فالحب عنده فردى والهموم جماعية!

فلانة الفلانية باع من أجلها كل ما يملك ثم هاجرت من مصر إلى بريطانيا وتزوجت غيره . . وفلانة تركت زوجها وأولادها وماتت فيه ثم طفشت إلى البرازيل . . والممثلة والراقصة وقارئة الفنجان والرسامة والتى لا هى هنا ولا هى هناك . . وكمال الملاخ دائمًا مشغول على الآخر . . وكل غراميات الملاخ لها مذاق المستحيل . . ولذلك لم يتحقق له نجاح مع أية واحدة!

وكمال الملاخ صورة كاريكاتورية لرجل لطيف لحوح . . ولذلك اختاره الساخر الأكبر كامل الشناوى مادة للنكت والحكايات والشائعات . . يقول كامل الشناوى إن كمال الملاخ عنده شقة جدرانها مغطاة بالمرايا ليرى نفسه فى كل الأوضاع فإذا انحنى لواحدة من هذه الصور التى يراها ردت عليه التحية ألوف من كمال الملاخ!

وكان يقول : إن كمال تراه من بعيد كأن له شعرا طويلا فإذا اقتربت منه وجدته أصلع . . ويخيل إليك أن الملاخ طويل فإذا اقتربت منه وجدته قصيراً . . وكان كمال الملاخ (وهو أول من أدخل (د .) يعنى طبيب و(م .) يعنى مهندس) يحتفظ

فى جيبه ببطاقة تهنئة من الرئيس جمال عبد الناصر، ليس منه شخصياً ولكن من أحد فى مكتبه. البطاقة تهنئ كمال الملاخ بالعيد الأضحى المبارك بينما تهنئنى بعيد الفصح ـ مع أن اسمه الأول كمال وليم الملاخ واسمى أنيس محمد منصور ـ وكانت له تفسيرات عجيبة لهذه البطاقة. وقد حدث ذلك مرة واحدة ثم انقطعت التهانى فى أية مناسبة!

أذكر أننا ذهبنا معًا إلى مطعم (لاباس) الجديد فى شارع قصر النيل. وطلب منى أن أدعوه إلى الغداء فوافقت بشرط ألا يزيد الغداء على جنيه واحد. وكان ذلك ممكنًا أيامنا. وأثناء الغداء قال معاك ٣٥ قرشًا. .

قلت: أيوه ليه؟

قال: هات بس. .

وأعطيته المبلغ ونادى الجرسون وبإشارة متعالية قال: هات زبدة وهات سلطة. . ثم أعطاه المبلغ.

ونهضت بسرعة. وذهبت إلى الجرسون وقلت له: الأستاذ سكران هات المبلغ.

وأعطانى الجرسون المبلغ مندهشًا. .

وعلى حس البقشيش كان الملاخ يطلب المزيد من الزبدة والخبز والسلطة. . لم أطق صبرًا. فقلت له: اسمع يا كمال. أنت تعرف أننى أخذت البقشيش من الجرسون!

فتضايق جدا. وفجأة جاء الجرسون وقال:

أنتم معزومين على حساب الأستاذ. .

ـ أستاذ مين؟

ـ محمد عبد الوهاب.

الملاخ: هات الجنيه!

ـ ٢٥ قرشًا فقط. .

ـ هات الجنيه . .

ـ خذ الجنيه . .

ـ وهات الخمسة وعشرين قرش حالا . . وإلا . .

ـ إيه .

ـ هات أولا . .

ـ لا . .

ـ اسمع كلامى .

ـ لا . .

وتنبهت إلى أننا فى آخر الشهر ولابد أن يكون قد قبض مرتبى نيابة عنى وسوف يهرب ككل شهر إلى الإسكندرية . وسألته : هل قبضت مرتبى؟

ـ لا . .

ـ على كل حال ما يهمش . فأنا قبضت المرتب من يوسف بك!

ويوسف بك هو الأخ الأكبر لكمال الملاخ!

وبقية نوادر الملاخ استمرت فى حياتنا نحن الاثنين سواء فى (أخبار اليوم) أو فى (الأهرام) التى عاد إليها ونقل إليها الصفحة الأخيرة ـ لقد نقلها باسمها وصورتها من (أخبار اليوم) .

وأذكر أن الملاخ عندما سافر إلى أمريكا يتحدث عن اكتشافه لمراكب الشمس كنت أكتب باب (من غير عنوان) بدلا منه . وأوقعها باسمه . وفى يوم هاجمت الأستاذ محمد التابعى الذى كان يهاجم محمد عبد الوهاب فى سلسلة مقالات عنيفة جداً بعنوان (فن حرامية) . ولم يكن الحق مع الأستاذ التابعى . واكتشف الأستاذ على أمين أننى الذى أكتب صفحة (من غير عنوان) وأضع اسم كمال الملاخ عليها ، فأوقف نشرها وطلب منى أن أكتبها وأن أوقع باسمى عليها . فاعتذرت فقد كانت صداقتى للملاخ أقوى . . ثم إننى لم تكن لى مشكلة : فأنا أكتب فى كل صحف أخبار اليوم!

١٦

وأغرب شخصية صادفتها فى حياتى هى الأستاذ زكريا الشربينى الزميل فى قسم الترجمة ومندوب الأهرام فى وزارة الخارجية . . شكله إسبانى أو يونانى وهو نحيف أميل إلى السمرة أصلع وإذا مشى فإنه يقفز مثل أبو فصادة . وهو يتكلم عدة لغات : الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية والألمانية . ولكن ينطقها بطرق مختلفة تبعدها تمامًا عن نطق أصحابها . .

وهو أول من ترجم الطائرة (النفاثة) . وقبل زكريا الشربينى كانوا يسمونها طائرة بلا محركات . .

وهو غريب السلوكيات . . إذا نحن أكلنا سندوتشات الفول فإنه يذهب إلى حيث لا نعرف ليشترى سندوتشات كافيار . . وإذا أتينا بسندوتشات الطعمية اشترى الفطائر . المهم أن يبدو مختلفًا غريبًا . وهو دائم الشكوى من كل شيء فى الدنيا . . فهو شكاء بكاء ساخط قانط قرفان زهقان كفران . .

ويحدث كثيراً أن نجده يدق مكتبه ويقول : لا مؤاخدة ومش مهم إذا واحد منكم نظر ناحيتى فلن يرى إلا جسمًا حقيراً .

وفجأة يخلع ملابسه ويقف عاريًا تمامًا ويفتح دولابًا وراءه ويستخرج منه بدلة «سموكنج» لأنه سوف يحضر حفلة فى إحدى السفارات . ويقف عاريًا ويبدأ فى ارتداء ملابسه على أقل من مهله وكأنه لا يقوم بشيء شاذ . وإذا حاول واحد أن ينتقده شرح له مأساة حياته . . فهو على خلاف مع زوجته اليهودية التى تزوجها فى تل أبيب . . فهى لا تريد إلا الفلوس فقط . وأنه لا يذهب إلى البيت إلا لكى ينام . ويقول : وحياة (عايدة) لولاها ما ذهبت إلى البيت . . وعايدة هذه هى ابنته الوحيدة .

وفى يوم ذهبنا معًا إلى فندق سميراميس لنتفرج على (ريتا هيوارث) وزوجها على خان . أما زكريا فطلب إليها أن توقع على ورقة بخمسة وعشرين قرشًا . واحتفظ بهذه الورقة تحت زجاج مكتبه . أما أنا فوقفت أتفرج . . وفجأة طلب منى

على خان أن أعطيه ٢٥ قرشًا أجرة التاكسى إلى السفارة الإسبانية ـ فليست معه فلوس مصرية ـ وأعطيته وفاتنى أن أطلب إليه أن يوقع على ورقة أخرى. واكتفيت بأن كتبت أن الأغا خان مدين لى بربع جنيه أمام عدد من الشهود وسوف أطالبه بسداد هذا المبلغ يومًا ما!

وكانت دهشة زكريا الشربينى عظيمة جدًا عندما فوجئ فى اليوم التالى باختفاء الـ ٢٥ قرشًا من تحت زجاج مكتبه! ووقف يقول بمنتهى الوضوح والحزن: طبعًا هذه الورقة سرقت. ولا أستطيع أن أتهم أحدًا. ولكن اختفاءها دليل على وجود واحد من اللصوص هنا.. إن لم يكن فى هذه الغرفة ففى هذا المبنى كله!

وفى سنة ١٩٥٧ ذهب وفد صحفى اقتصادى إلى ألمانيا الغربية. وكان زكريا الشربينى مندوبًا عن (الأهرام) وكنت عن (أخبار اليوم)، ونزلنا فى فندق اسمه كمبنسكى فى برلين. وسألنى: ألا تريد أن تحلق رأسك؟

فقلت: ممكن..

ـ ممكن جدًا وعلى حساب الحكومة أنا فعلت ذلك.. وليس عليك ألا أن تدخل هذا الصالون وتعطيهم رقم الغرفة. وإذا أردت أن تمسح حذاءك اذهب إلى هذا الصالون وأعطيهم رقم الغرفة. أنا فعلت ذلك. الحياة هنا أبسط جدًا..

وعندما غادرنا الفندق كانوا ينادون عليه: هر الشربينى.

وذهب إليهم. واقتربت أسمع وأرى. وكان زكريا يقول: يعنى أعمل إيه دلوقت.. شعرى وقد أزاله الحلاق.. أنا مستعد أدفع أى مبلغ إذا شعرى رجع لرأسى.. وسوف أذهب إلى المستشار الألمانى وسوف تكون فضيحة فى كل صحف العالم!

واعتذت له إدارة الفندق قائلين: لست أنت المقصود يا سيدى.. غلطة! نرجو المعذرة!

سألته: إيه يا زكريا؟

ـ ولا حاجة أنا أعطيت الألمان درسًا فى الأدب . . ومن هذه اللحظة يصبح من حق أى ضيف أن يمسح جزمته ويحلق ذقنه وشعره على حساب الدولة! ليس صدفة أن يظهر منهم هتلر . . لأنه شعب ما يجيش إلا بالضرب والعين الحمراء؟!

ـ . . . .

١٧

أما المحررون الأكبر مقامًا وسنًا فهم الأستاذ الغمراوى . . وهو رجل كبير أبيض أحمر يرتدى ملابس سوداء صيفًا شتاء وكرافتة سوداء، فقد أقسم أن تظل سوداء ما دام الإنجليز يحتلون مصر . ولما انسحبوا تغيرت ألوانها فورًا . . وكان يرتدى الطربوش على طريقة على باشا ماهر . وكان على ماهر يجعل زر الطربوش على جانب من الرأس وأميل إلى الأمام .

والأستاذ البهنساوى قصير القامة ضيق العينين كثير الحركة . ولا أعرف عدد الوزارات التى كان يمثلها . .

ثم المصور يوسف حيالى . لا أعرف للأهرام مصورًا غيره . وكان يرتدى الطربوش أحيانًا . . وكان على طريقة زمان، يطلب إلى الوزراء أو الضيوف أن يقفوا صفًا واحدًا وألا يتحركوا حتى لا تبوظ الصورة . . ولا يهمه إن كان الذين أمامه هم كل مجلس الوزراء . . وكان يشخط فيهم ويقول : ولا حركة!

فإذا تحرك رئيس الوزراء أو الوزراء أعاد التصوير وكان يذهب إليهم ويرتبهم ثم يحذرهم من أن يهتز أحد . . ولأن ذلك هو التصوير زمان فكانوا يمسكون أنفاسهم ولا يتنفسون بارتياح إلا عندما يقول لهم يوسف حيالى : خلاص انصراف . . .

وهم يضحكون وهو لا يضحك! كأنهم تلامذة صغار!

وفى إحدى المرات ـ وهذا طبيعى جدًا ـ حدث أن أستوقف عددًا من الوزراء وحذرهم من الحركة . فسكنوا وسكتوا . ولكنه لاحظ أن واحدًا منهم قد وضع يده

فى جيبه. وإذا بيوسف حيالى يقول له: الله.. معاليك بتعاكسنى طلع إيد معاليك من جيب معاليك.

وأخرج صاحب المعالى يده من جيبه.

وإذا بيوسف حيالى يقول له: معاليك بوظت الصورة.. ثانى مرة من فضل معاليك. لا حركة ولا تضع يدك فى جيب معاليك يا صاحب المعالى!

* * *

وفى يوم جاءنى شابان أحدهما قدم لى نفسه: أنا نجيب المستكاوى. وهذا زوج أختى ونريد أن نقدم لك ترجمتنا لكتاب فرنسى عن (أزمة الضمير الأخلاقى)..

أما الغرض من هذه الزيارة فلأننى متخصص فى الفلسفة وهو يريدنى أن أعلق على هذا الكتاب. طبعًا ليس فى (الأهرام) فنحن لا نكتب فى الأهرام ولا يعرفنا أحد. ولكنى أكتب فى جريدة (الأساس) وفى (روزاليوسف) وفى مجلة (النداء).

ونجيب المستكاوى هو الذى أصبح الناقد الرياضى الكبير والذى أدخل على القاموس الرياضى كثيرًا من المصطلحات والمسميات الموجعة والقفشات الباقية.

أما جارنا فكان الناقد الرياضى الكبير جهينة.. وهو رجل قصير القامة كبير الرأس ممتلئ تمامًا.. بطىء الحركة أو واثق الخطوة وهو يتجه إلى مكتبه فى صمت.. وقد تشجعت وذهبت إليه. وقبل أن تتحول نظراته الثاقبة إلى نظرة وكيل نيابة فيها اتهام بالاقتحام قلت: ولا حاجة يا أستاذ فأنا لا أفهم فى الرياضة.. وإنما أردت أن أتعرف عليك..

ولم أتلق ردًا أو جوابًا أو ترحيبًا. وواجهت بروده هذا فقلت ـ كاذبا ـ إن فكرة هذه الزيارة لزميلى كمال الملاخ.. والآن عرفت أنه غلطان فما كان ينبغى أن نتسلل إلى برجك العالى. وكان الرجل لا يرد. كأنه مرمى لكرة القدم.. وكأنه الشبكة منبعجة إلى الأمام ومصنوعة من الحديد. فمهما وجهت إليه من ركلات فإنها تصدك وتردك.. تكسفك.. تطردك من الغرفة!

وفجأة قال لى : اقعد . . تفضل . .

قلت له : هل ممكن أن أدعو كمال الملاخ؟

ـ ممكن . .

وناديت الملاخ سعيداً بأن الأستاذ الكبير جهينة قد نطق ورحب بنا . . وجاء الملاخ ودخل فى موضوع استغرقهما الاثنين ووجدتها مناسبة وهربت من كلام سمعته ألف مرة عن الرياضة عند الفراعنة . . وأن جهينة اسمه باللغة الهيروغليفية هو جهينة ـ رع ـ حتب . .

ولابد أن يكون الأستاذ جهينة قد غلبه النوم وهو يستمع إلى الملاخ فى صوته الرتيب وحماسه الزائد . .

وعاد الملاخ وقال لى : ما عرفتش إيه اللى حصل . . أنت تعرف أن فلانة لم تكذب عندما قالت لى إن صوتك موسيقى . . فعلا لقد نام الأستاذ جهينة . . والله ما حدش عارف قيمتى فى البلد دى!!

ـ . . . .

٣ ـ يوم امتلأ الأهرام بكتاكيت النقطة الرابعة!

١٨

الشاعر الساخر كامل الشناوى اقترح على الأستاذ محمود أبو الفتح صاحب جريدة (المصرى) أن يضع تمثالا لأنطون باشا الجميل فى كل ركن من أركان جريدة (المصرى). . فلولا تشدد أنطون باشا رئيس تحرير الأهرام، ما انتشرت جريدة المصرى ومن بعدها (أخبار اليوم). .

أما أن الأهرام كان متشدداً محافظًا منضبطًا فلاشك فى ذلك. وليس الأهرام فقط ولكن كل المؤسسات اللبنانية الأخرى مثل (دار الهلال) و(دار المعارف) و(المقطم). . وقد رأست مجلس إدارة دار المعارف، وظل الأستاذ مترى صاحب (دار المعارف) يحضر كل يوم فى مواعيد ثابتة ـ تمامًا كما : كان يفعل قبل تأميم دور الصحف والنشر. .

وأبناء الأهرام اليوم لا يعرفون كيف كانت (الأهرام) زمان: لا صوت ولا همس وكل شىء يمشى فى كل الاتجاهات دون توقف. وجريدة الأهرام التزمت الحياد والموضوعية فى كل ما تنشر، وبسبب هذا التشدد كان من الصعب علينا أن نخترق الصفوف أو أن نخرج عن الصف، كما فعلنا يوم قررنا أن نطلب من مدير التحرير نجيب كنعان شيئًا من الإنصاف. وهذا التعبير من عندى أنا الآن. ولا أظن أننا قلنا

شيئًا قريبًا من هذا المعنى . فلم نطلب الإنصاف لأن أحدًا ظلمنا . ولا طلبنا المساواة فى التوقيع على ما نكتب مثل أحمد الصاوى محمد وزكى عبد القادر وكامل الشناوى أو القراء الذين يبعثون برسائلهم . وإنما وقفنا الواحد وراء الآخر ـ عدلى جلال وكمال الملاخ وأنا . .

أما كمال الملاخ فهو مندفع ومن السهل جدًا أن يخسر أية قضية يتصدى للدفاع عنها أو ضدها . أما عدلى جلال فهو رجل لطيف ظريف ابن نكتة محبوب . وأسلوبه فى التعامل ناعم لا يجرح أحدًا . وإنما يفرفشه . فهو لا يكاد يلتقى بأحد حتى يقول له : آخر نكتة . وقد وقفنا نحن الثلاثة . ونحن نعرف بالضبط ما الذى نريد . . كمال الملاخ يريد أن يكون له إمضاء ، عدلى جلال لا يريد وأنا أنشر مقالات وقصصًا ومسرحيات فى (روزاليوسف) وفى جريدة (الأساس) التى أشرف على صفحتها الأخيرة بعد أن تركها الأستاذ موسى صبرى ليعمل مع الأستاذ جلال الدين الحمامصى فى إصدار جريدة (الزمان) المسائية . . إذن هو كمال الملاخ الذى حشدنا وراءه لنساعده . وبعد أن ضحك نجيب كنعان لنكت عدلى جلال وافق على رغبة الملاخ وفى قلب (الأهرام) وفى منتصف الصفحة الرابعة إلى الشمال عشرة سطور فى برواز والإمضاء : القناع الأبيض . . هذا هو كل ما استطعنا أن نحصل عليه لكمال الملاخ !

أما عدلى جلال فقد عملنا معًا فى جريدة (الأساس) وفى (الجريدة المسائية) . وفوجئت بصورة نادرة ونحن نؤدى العمرة . . وكنت قد نسيت أن عدلى جلال قد أسلم . وكان الشاعر الغنائى مأمون الشناوى يسخر من عدلى جلال ورقته ولطفه وله فى ذلك زجل مشهور :

عدلى جلال : ضربه حلال

عدلى جلال توفيق : مخه ضيق ضيق

عدلى جلال توفيق جرجس

واقف فى العتبة بيرقص .

وكان يقول إن عدلى جلال عندما رأى البدر من نافذة سيارته . فنزل بسرعة وتطلع إلى القمر وقال له : يا قمر نورك زاهى مرسى والله!

وقال مأمون الشناوى إن عدلى جلال ذهب إلى الحلاق يقص أظافره فجرحه الحلاق . فقال له عدلى : يا أسطى تسمح لى أتألم؟

ـ اتفضل يا بيه؟

ـ أى!

ولم يكن عدلى جلال هذا الرقيق المايص بل كان رجلا جدعًا شهمًا رياضيًا فى غاية الشياكة فى مظهره وفى سلوكه . وعدلى جلال هو الذى علمنا كيف نأكل وكيف نلبس وكيف نجامل . وكنا ثلاثة لم ننفصل : عدلى جلال وكمال الملاخ وأنا . .

١٩

ولذلك كانت دهشتنا عظيمة عندما يقع (الأهرام) فى خطأ إملائى أو مطبعى فى الترجمة . كان هذا غير طبيعى . مع أن الطبيعى أن الصحفى يتعب ويغلط . ولكن لأن الأهرام التزم الأداء والسلوك الرزين فكان الخطأ شيئًا عجيبًا . . والأخطاء كثيرة .

مثلا نشر الأهرام فى صفحته الأولى على عمودين شمال صورة وتحتها هذه العبارة : ولم تسلم الانتخابات الإيطالية من مظاهرات يتقدمها شبان صغار يقضمون السندوتش!

وتنظر فى الصورة فلا تجد أحدا يأكل السندوتش . أما الغلطة التى وقعت فيها الزميلة جاكلين خورى ـ حماة الشاعر صلاح جاهين . . فهى أنها ترجمت SANWDISH BOYS بأنهم شبان يأكلون السندوتش . . والحقيقة أنهم يحملون لافتات على صدورهم وعلى ظهورهم فهم كالسندوتش!

فهى عندما ترجمت كلام الصورة كان كلامها منزوعًا منها فهى لم ترها . . وغلطة أخرى جاءت من (و . ف) أى وكالة الأنباء الفرنسية . . والخبر يقول : إن القوات الأمريكية فى اليابان قد احتفلت بقدوم دبابات جديدة من طراز (جيفنج داى) . والغلطة أنهم احتفلوا (بعيد الشكر) Thanks Glvlng Day فالذى ترجم الخبر ظن أن المقطع الأول من الكلمة معناه دبابة .

وغلطة مطبعية مضحكة فى الصفحة الأولى أيضًا أيام مفاوضات بيفن بشأن الجلاء . الخبر يقول : بيفن يفقس دجاجًا ملونًا . والغلطة فى الشكل بين كلمتى بيفن وبيض !

ثم هذه الغلطة : فعندما زار الدكتور طه حسين مدريد اهتمت به كل الصحف فى مصر . ونشر (الأهرام) فى صفحته الأولى تغطية وحفاوة بالغة للأستاذ العميد . وجاء فى الخبر أن رئيس جامعة مدريد (أونو ريس كاوزا) قد قابله فى المطار .

وبعد أيام تلقى (الأهرام) خطابا من أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى يصحح الغلطة التى وقع فيها الأهرام .

فالكلمتان (أنوريس كاوزا) معناهما باللاتينية الدكتوراه الفخرية Honoris Causa التى منحتها جامعة مدريد للدكتور طه حسين !

وفى سنة ١٩٦٣ عندما سجلت الندوة مع طه حسين وهى الندوة الشهيرة مع عشرة من أدباء مصر قال لى طه حسين قبل التسجيل : أنا عندى ست دكتوراهات وأستاذك العقاد ليس عنده غير الشهادة الابتدائية . وتضايقت جداً . . وغضبت وكتبت نقداً له فأغضبه . مع أن طه حسين هو الذى قدمنى وهو الذى لفت الأنظار إلى ما أكتبه وقدم لى كتابى (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) . . أما الأستاذ العقاد فلا قرأ لى ولا اهتم . . ورحم الله مفكرنا الكبير زكى نجيب محمود فقد كان يقول لى : مات العقاد ولم يقرأ لى ولم يقرأ لك ! مع أننا من أشد الناس حبًا له وإعجابًا به .

بل إن الزميلة مديحة عزت بروزاليوسف عندما سألت العقاد عنى قال : من هذا الأنيس منصور !

مع أننى أتردد على صالونه الأدبى عشرين عامًا!!

ونفى لى فى التليفون ما فعلته مديحة عزت. فنشرت أنا مقالا فى روزاليوسف بعنوان(عباس محمود العضاض) واعتذرت له فى التليفون عن الذى نشرته روز اليوسف!

وكلانا كذاب!

ولكن لما عرفت طه حسين متأخرا أيقنت مدى الخسارة الفادحة لسنوات ذهبت دون أعرف فيها طه حسين: الأستاذ العظيم والأب الحنون والصديق الودود باسم الثغر، مفتوح الذراعين والقلب والعقل..

وفى يوم قرأت للأستاذ العقاد هجومه العنيف على مسرح العبث.. وكان طه حسين أيضًا لا يقل سخرية عن العقاد عندما يتكلم عن توفيق الحكيم ومسرحيته (يا طالع الشجرة). وجاء فى مقال العقاد تعبير اعتقدت أول الأمر أنه خطأ. ثم تأكدت أنه خطأ. وكتبت خطابًا بإمضاء مستعار للأهرام لكى ينشر هذا التصحيح لهذه الغلطة الشنيعة.. فكما أن الأهرام يغلط فالصحف الأخرى أيضًا.

أما التعبير فهو pata Physic أى ضد قوانين الطبيعة. أى ليس منطقيًا. وأغلب الظن أن العقاد قد أخطأ مرة واثنتين وثلاثا عندما استخدم هذا التعبير.. ثم إن العقاد لا يعرف لا اليونانية ولا اللاتينية.. والذى أعرفه أن PARA وليس PATA وطلبت سكرتير الأستاذ العقاد وابن أخيه عامر العقاد وقلت له: يا عامر.. أنا قفشت للأستاذ غلطة كبيرة!

وحكيت له عن الغلطة. ولكن أردت أن أفتعل رأيًا عامًا فاضحًا للأستاذ! واتصل بى الأستاذ العقاد قائلا: يا مولانا. التعبير صحيح. تستطيع أن تعود إلى كتاب أسلين عن (مسرح العبث) فى الفصل السابع.. وبسرعة عدت إلى البيت وقلبت فى الكتاب. وكان الأستاذ على حق!

وذهبت إلى الأستاذ توفيق حنا الشمالى سكرتير تحرير الأهرام أحاول استرداد خطابى الذى لم يكن موقعًا بإمضائى.. ولكن الخطاب قد استقر فى الزبالة ساعة وصوله!

٢٠

خطاب واحد نشره الأهرام إعجابًا بترجمتى لمذكرات روميل. ولكن أحدًا لم يعرف من الذى ترجمها. أما الإعجاب فهو أن أستاذًا جامعيًا كتب يقول: أعجبنى جدًا ما قاله الجنرال الإنجليزى أو خنلك لجنوده وهم يحاربون روميل.. فقد قال لهم كلمة موجزة بليغة جدًا وهى: لا تترملوا! إنه يدعوهم ألا يموتوا فتكون زوجاتهم أرامل.. أو يدعو زوجاتهم ألا يمتن فيصبح رجالهم أرامل أيضًا.

ولكن حدث خطأ إملائى فى هذا التعبير فالذى قاله الجنرال أو خنلك أبلغ وأعظم كثيرًا. فهو قد اتجه إلى جنوده يحذرهم بألا يستسلموا لأسطورة المارشال روميل ثعلب الصحراء والقائد الذى لا يغلبه أحد. فمثل هذا الإيمان بقوته وسحره يجعلهم سعداء بانهزامهم أمامه... لأنهم جعلوه أسطورة قاهرة. ونسوا أن هذا الإيمان بخرافة روميل شىء غير وطنى: استسلام وهزيمة قبل دخول الحرب. والمطلوب أن يحاربوه ويهزموه من أجل بريطانيا العظمى.

أما التعبير الذى استخدمه الجنرال أو خنلك فهو: Do not be Rommellised.. أى: لا تتروملوا!

٢١

وكانت الزميلة (أليس باخوس) مندوبة للأهرام فى باريس. ولسوء حظى كنت أنا الذى أترجم رسائلها عن الموضات. ولا أدعى العلم. ولكن أدعى أننى حاولت. وبسبب محاولاتى الناجحة كنت أكتب موضوعات الأزياء فى كل المجلات التى رأست تحريرها وهى: (الجيل) و(هى) و(آخر ساعة) و(أكتوبر) و(مايو) وكنت أوقع بإمضاءات نسائية كثيرة: أحلام شريف.. هناء أحمد.. منى جعفر وسليفانا ماريللى.

وفى يوم سمعت صوتًا فى التليفون وكانت: أليس باخوس تتكلم من باريس قالت

لى ما معناه أو ما استطعت فهمه أن موضوعها الأخير قد شوهته لأننى لم أفهم المعنى. ولذلك قيل لها إن الموضوع أضحوكة إذا أحد ترجمه إلى اللغة الفرنسية!

وقلت لها: أنا لم أقرأ الموضوع بعد نشره ولا أستبعد أن يكون الأستاذ أحمد العسكرى هو الذى حذف وأضاف!

لم تفهم ولم تقتنع.. ولجأت إلى الشخص الوحيد القادر على إقناعها: نجيب كنعان. واعتذرت لى!

أما الأستاذ العسكرى فهو الشيخ أحمد العسكرى معمم وإذا صحت تحليلات كامل الشناوى له فهو رجل دمه خفيف ومكار. ولكن يبدو أنهم اختاروه ليراجع النحو والصرف فى مقالات المحررين أو القراء.. ولكن الذى حدث فى موضوع (أليس باخوس) لا علاقة له بالنحو والصرف. فأنا لا أخطئ فى هذه المبادئ اليسيرة.

وإنما الغلط جاء فى تغيير بعض العبارات التى لها علاقة بخط الطول.. طول الذيل والعنق والرقبة وخط الوسط والكشكشة والخصر والردفين والنهدين ـ فقد حذف الشيخ العسكرى كل هذه الكلمات باعتبارها بذيئة ولا يصح أن يتردى الأهرام إلى مثل هذا الانحطاط اللغوى!

وإذا كان الموضوع عن الموضة وحذفنا منه الذيل والصدر والظهر والكتفين والنهدين والردفين، فعلى أى شىء يتحدث الموضوع وصاحب الموضوع!

هل امتنعت أليس باخوس عن إرسال أية موضوعات للأهرام لا أعرف. فقد تركت الأهرام إلى (أخبار اليوم).. ولم يستوقفنى اسم أليس باخوس بعد ذلك..

٢٢

فى يوم كتب الأستاذ أحمد الصاوى فى مقاله (ما قل ودل) هجومًا عنيفًا على نجيب الهلالى باشا..

وفى الليل جاء الأستاذ الصاوى يصحح غلطته تحت ضغط رسمى ، أما التغييرات التى أدخلها فهى إضافة كلمة واحدة فى المقال كله . . المقال يتحدث أن هذا الباشا الذى ليس له نظير فى مصر والعالم . ولكن الأصل هو أن هذا الباشا له نظير فى مصر والعالم؟!

ومرة أخرى هاجم الأستاذ الصاوى (كتاكيت النقطة الرابعة) وهى كتاكيت المعونة الأمريكية . وكان الهجوم عنيفًا جدًا . وبعد أيام ظهرت الصفحة الأخيرة فى الأهرام وقد امتلأت بصور كتاكيت ودجاج وديوك (النقطة الرابعة) وأطلق الشاعر الغنائى الساخر مأمون الشناوى هذه القفشة : أن باعة الصحف كانوا ينادون على الأهرام هكذا : الأهرام . . البدارى السمان!

فأين الغلطة؟ إنها غلطة المستشار الصحفى بالسفارة الأمريكية وكان اسمه أوليكس . كان طويلا ضخمًا عملاقًا فعندما هاجم الأستاذ الصاوى هذه الكتاكيت نوعها ولونها وحجمها فما كان من المستشار الصحفى الأمريكى إلا أن أرسل للأستاذ أقفاصًا من هذه الكتاكيت إلى مكتبه فى الأهرام . وكأن زلزالا وقع فى الأهرام فقد صحونا على (صوصوة) الكتاكيت وهى فى طريقها إلى مكتب الأستاذ الصاوى ونازلة من مكتبه . فتضايق الأستاذ الصاوى وهاجم الكتاكيت والأمريكان معًا . . ثم تم الصلح بين الجميع!

٢٣

وكان يتردد على مكتب كامل الشناوى الوزير حفنى باشا محمود أخو رئيس الوزراء محمد باشا محمود . وكان رجلاً نحيلا ولا تعرف من النظر إليه إن كان صاحيًا أم نائمًا . ولا تعرف إن كان يتحدث إليك أم إلى أى أحد غيرك . فهو لا ينظر إليك . . ومن الحكايات والمقالب الكثيرة التى يرويها عنه كامل الشناوى كنا نخاف منه . أو نتهيبه خائفين . ولا نعرف إن كان الذى يحكيه كامل الشناوى قد حدث أو أنه من اختراعه . .

وفى يوم طلب أن يوصلنى إلى بيتى . وظننت أنه يمزح . ولكنه أصر . وعند كوبرى أبو العلا نادى أحد رجال الأمن وقال : ده اللى قتل البنت فى العتبة . . تعال اقبض عليه .

إنه كان يقصدنى ولكن الجندى لم يفهم . وحاول إقناعه بأن يتعجل بالقبض على القاتل . .

ولكن العسكرى خاف ولم أفهم ما الذى يقصده الباشا . ثم التفت ناحيتى يقول لى : ولكنك لم تخف . .

لم أعرف ما الذى أقوله . . وهى دعابة ثقيلة . ولكن الدعابة الأثقل يوم حريق القاهرة . ووقف أمام قصر العينى . . والبوليس يمنع المارة فإذا بالباشا يقول للجنود : أنتم تبحثون عن أحمد حسين الذى أحرق القاهرة . . هذا هو أحمد حسين . . أمسكوه فوراً . .

وكان يشير بيده ناحيتى ويشدنى من الجاكته يريدنى أن أقع فى أيديهم . ولحسن الحظ لم يتحرك الجنود لأنهم لا يعرفون أحمد حسين . ولأنهم يرون الباشا وهو يهتز فى حركته فظنوه سكران . وأمام جمودى أيقنوا أننى لست الرجل الذى أحرق القاهرة . . وإنما هذا الرجل لا يدرى ما يقول .

وكان من عادة كامل الشناوى فى ذلك الوقت أن يلعب القمار مع حارس حفنى باشا محمود واسمه حنفى حجازى . وكان حنفى حجازى لا يتكلم أثناء اللعب . وكان هو الذى يكسب . أما كامل الشناوى فيضحك ويقول شعرا وحكايات وهو الذى يخسر كل ليلة . .

وفى إحدى المرات قال كامل الشناوى لحنفى حجازى : تعرف يا حنفى أن هناك حديثًا قدسيًا قد قاله الله وهو يقصدك : قال الله فى حديث قدسى : وعزتى وجلالى لأرزقن من لا حيلة له ، حتى يتعجب أصحاب الحيل ! هاها . . هاها

طبعًا كامل الشناوى هو صاحب الحيل والذكاء . أما حنفى حجازى فلا حيلة له مع كامل الشناوى !

علامة زرقاء وأشياء أخرى :
أغضبت الرئيس عبد الناصر!!

أدبينا الكبير ثروت أباظة بليغ فصيح . فى تعامله مع الناس : ابن باشا . . فى تعامله مع الواقع : فلاح . . وقلمه سيف قاطع قاتل أحيانًا ومقشة لكنس زبالة الناس أو الناس الزبالة . وقد منعه الحياء أن يقول بوضوح إنه عاش فى زمن إذا هاجم فيه كاتب كبير باروكة مذيعة فصلوه . . أو ظهرت للرئيس صورة فى مقال عن الحمير أو صورة لحمار مع مقال عن الرئيس فصلوه وشردوه . .

ولا يهم من الذى وضع الرسم بريشة كمال الملاخ فى جريدة (الأخبار) مرة وفى (أخبار اليوم) مرة أخرى . . ولأننى كنت طرفًا فى عشرين حالة أخرى ، فسوف أذكر ما ألمح وغمز ولمز وهمس به ثروت أباظة : باشا الفلاحين ، وفلاح الباشوات والأديب فى كل الأحوال . .

١

أول ما نبتدى القول استدعانى أستاذنا الكبير مصطفى أمين إلى مكتبه وكان حاضرًا إبراهيم بغدادى المحافظ الأسبق فى القاهرة واللواء أو العقيد ووكيل المخابرات العامة . . سألنى مصطفى أمين فى غضب واضح : من الذى كتب هذا الخبر .

وأشار إلى الصفحة الأول من مجلة (الجيل). فقلت: ممكن أى أحد.. ربما يوسف عبد الحليم سكرتير التحرير.

دق الجرس قال: هات يوسف عبد الحليم.. جاء يوسف عبد الحليم. عصبى ناصرى متشنج قال: أنت؟

قال: نعم.

سأله مصطفى أمين: على أى أساس قلت إن بيت الرئيس عبد الناصر متواضع؟

قال: أنا لم أره.. ومادام لم يقم الحفلة فى أحد الفنادق الكبرى فهى حفلة متواضعة أيضًا..

وأشار إليه أن يخرج.. وخرجت أنا من هذه المشكلة بريئًا..

فما هو الموضوع الذى أثار الرئيس عبد الناصر ودفع بإبراهيم بغدادى إلى أن يحضر التحقيق والتحقق من هذا الكلام. طبعًا كان الهدف أن يكون مصطفى أمين الخبيث هو الذى كتب الخبر أو أنا.. أما الخبر فهو: أقام الرئيس جمال عبد الناصر حفلة بمناسبة زواج أو كتب كتاب ابنته فى بيته (المتواضع) فى منشية البكرى! والذى أغضبه هو كلمة (متواضع) لأن البيت لم يعد متواضعًا بعد حمام للسباحة أو ملاعب للتنس وأضيف إليه حدائق وترسانة من سلاح الحرس الجمهورى. والظن كل الظن أن كاتب الخبر يهمز ويلمز ويغمز. مع أن أحدًا لم يدخل بيت الرئيس ـ لا هو ولا أنا ولا مصطفى أمين؟

٢

بسرعة كان لابد أن أذهب إلى مكتب مصطفى أمين لأمر عاجل.. ووجدت إبراهيم بغدادى. وسألنى مصطفى أمين فى غضب: من الذى وضع هذه الصورة؟

وأشار إلى صفحتين تتوسطهما صورة.

قلت: لعله سكرتير التحرير.

ـ من هو؟

ـ صلاح صادق .

ضرب الجرس : هات صلاح صادق من أى مكان . فوراً . .

جاء صلاح صادق سأله : أنت؟

قال : نعم .

سأله : تعرف يوسف رشاد .

ـ لا . .

ـ عمرك ما سمعت عنه؟

ـ لا . .

ـ هل سمعت عن ناهد رشاد؟

ـ لا . .

ـ إذن لماذا وضعت هذه الصورة؟

ـ أنا وجدت موضوعًا بلا صور فوضعت صورة حتى لا تبدو الصفحتان عاريتين .

ـ بس كده؟

ـ نعم . . طيب خلاص!

إيه الحكاية . لقد أرسل مصطفى شردى مراسل أخبار اليوم وأحسن مراسل صحفى فى تاريخ الصحافة المصرية ـ موضوعًا عن (السردين) فى بورسعيد . وإنه منذ توقف الصيادين (بسبب السد العالى) لم يعد السردين يتوالد عندما يلتقى ماء النيل وماء البحر . ونسى أن يبعث بصورة اعتمادا على أن لدينا فى الأرشيف صوراً لذلك . فلم يجد سكرتير التحرير إلا صورة مناسبة لرجل وامرأة يقفان متجاورين ينظران إلى البحر . . وهو لا يعرف أنهما ليوسف رشاد طبيب الملك فاروق ولزوجته ناهد رشاد إحدى سيدات المجتمع . أما لماذا التحقيق فى ذلك؟ فهناك ألف

سبب عند الرئيس، لابد أن يكون من بينها أن (أخبار اليوم) تتآمر على الثورة وأنها تريد أن تعيد الملكية. وليس من الضرورى أن يكون هناك سبب لاتهام أخبار اليوم والعاملين فيها.. فلم يكن عند الرئيس عبد الناصر سبب لسجن مصطفى أمين تسع سنوات ـ ظلمًا له وعدوانًا علينا ـ وإنما هى دسيسة قذرة حقيرة لأحد الحاقدين على مصطفى أمين ومع الأسف فإن أحدًا لم يحاسبه على ما ارتكب فى حق مصر وشعب مصر وتاريخ مصر وقواتها المسلحة ومن تزييف لكل ما يسمع ويصبه فى أذن الرئيس عبد الناصر الذى أثبتت الوثائق الأمريكية السرية التى نشرت أخيرًا فى المجلات العربية: أن هناك من كان يكذب على الرئيس ويقوم بتضليله ويغرق الشعب فى نشوة كاذبة.. وبطولات وهمية وانتصارات خرافية..

براءة لرئيس التحرير وبراءة لمصطفى أمين وأخبار اليوم والمؤسسة الصحفية الكبرى التى أقسم الرئيس صادقًا على أن يمسح بها الأرض.

وحدث أكثر من مرة!

٣

إنها حكاية كلب..

وليس أى كلب وإنما هو كلب السيد محافظ بورسعيد فقد أرسل مصطفى شردى «ريبورتاج» عن الصيف فى بورسعيد. وجاء فى مقاله أن أهل بورسعيد يتعجبون لمنظر يتكرر كل ليلة من المساء إلى الصباح: أن كلبًا رابضًا يقاوم النوم ثم ينام أمام أحد الشاليهات ـ إذا رأوا الكلب هزوا أكتافهم قائلين: كلب المحافظ. محافظ الكلاب.. كلب أهل الكهف.. حامى حمى الرذيلة!

وأنا فى القاهرة لا أعرف حكاية هذا الكلب.

وفجأة فصل مصطفى شردى من عمله فى أخبار اليوم. والسبب: كلب! وكلب المحافظ يقف ويقعد وينام ويسهر أمام فيللا محبوبة السيد المحافظ. ولا نزال

حائرين حتى اليوم : هل كان فصل مصطفى شردى بسبب السيدة أو بسبب المحافظ أو الكلب؟ !

٤

ثم أوقف عن العمل الأستاذ موسى صبرى رئيس تحرير الأخبار بسبب ما كتبه فى الصفحة الأولى من مجلة (الجيل) وكنت رئيسًا لتحريرها . ما كتبه موسى صبرى لم يلفت الأنظار . فهو قد عبر بالضبط عما تقوله سيدات وسادة مصر . كلهم لا تعجبهم (الباروكة) التى تضعها السيدة همت مصطفى . . إما لأنها لم تحسن تثبيتها على رأسها ، وإما لأن صناعة الباروكة لم تتطور فى ذلك الوقت كما هى الآن من كل طول ولون ومن الصعب أن تفرزها العين من بين الشعر الطبيعى . . وموسى صبرى معه حق . .

والسيدة همت مصطفى مذيعة جيدة وزوجها ضابط كبير . . ولابد أن الضابط قد انتقم لها من موسى صبرى دفاعًا عن حقها وحريتها فى أن تضع على رأسها ما تشاء إن شاءت إن تضع بلاصًا فهى حرة . ما كتبه موسى صبرى هو قلة أدب ودخول فى الممنوع . . ومن هو ومن هو أبوه حتى يهاجم وينتقد منظراً يراه الملايين ولا يعجبهم !

ولكن الرئيس تضايق ، وتطوع مترجمو الرياسة واتفقوا على إرضاء الرئيس وهمت وزوجها وأوقفوا موسى صبرى عن العمل حتى يعتذر لها . ولم يعتذر . . ومعه حق !

٥

أرجو أن تحشد عددًا إضافيًا من علامات الاستفهام والتعجب فالكلام هنا عجب فى عجب . . ولكنه حدث .

استدعانى مصطفى أمين مكفهر الوجه غاضبًا ولم يقل : اقعد . . ولكنى قعدت

وصافحت إبراهيم بغدادى العضو المشترك فى كل التحقيقات على المستوى الرفيع فى أخبار اليوم. وإبراهيم بغدادى له وجه رجال المخابرات ولاعب البوكر، مصفح ليس فيه علامة واحدة ولا معنى واحد. وعيناه نافذتان محايدتان أحيانًا ومتهمتان لك أحيانًا أخرى. وهو يتابع بعينين كأنهما خرزتان فى عينى ثعلب ابن صقر. قال مصطفى أمين: إيه الحكادية دى.. الرئيس عبد الناصر متضايق جداً من هذا الذى نشرته اليوم.

ـ ما هو يا مصطفى بك.

ـ الكلام عن عارضة الأزياء (رجاء الجداوى) من الذى كتب هذا الموضوع..

ـ أنا.

ـ ولكن اللى كتبت الموضوع اسمها أحلام شريف..

ـ أنا أحلام شريف.. أنا أكتب موضوعات نسائية كثيرة بإمضاءات مختلفة.. أحلام شريف.. ومنى جعفر.. وهالة أحمد.. وسليفانا ماريللى..

ـ الرئيس متضايق. وهذا لا يصح.

ـ ما فيش فيها حاجة يا مصطفى بك.. لم أقل إلا أنها خبطة أو ضربة فى ساقها..

ـ لا.. الرئيس فهم هذاالتعبير على أن أحداً (قرصها) أو عضها.. وهذا تعبير قبيح..

ـ ولكن المكتوب ليس فيه كل هذه المعانى.

ـ اسمع يا أنيس الرئيس زعلان جداً..

ـ أعمل إيه يا مصطفى بك.. تعتذر لها وتقول ماذا؟

ـ لا اعتذار. ولكن ما كان يجب أن يقال..

ـ خلاص يا مصطفى بك.. المرة اللى الجايه أبعث كاميليا إبراهيم.

ـ من هى.

ـ أنا أيضًا.

ولم يضحك مصطفى أمين ولا إبراهيم بغدادى . . أرجو أن تعاود قراءة هذه الحكاية، هكذا: نشرت مجلة (الجيل) موضوعًا عن عرض الأزياء. والعارضة الأولى (. . . .) ولاحظ كل الحاضرين علامة زرقاء وتهامسوا ونظروا إلى بعض وضحكوا والتفتوا إلى فستانها ومشيتها الرشيقة. ونسى الناس كل ما رأوا ولم يذكروا إلا هذا الذى رأيت ونشرته . . أين يوجد الرئيس عبد الناصر فى هذا الموضوع . . وما الذى جعله يقرأ موضوعًا عن الأزياء وعن مشية وشخلعة وطول وقصر الفساتين . . هل هم الذين حوله يرون ويقررون ويتهمون ويحكمون ويتحكمون باسمه . . وفى أى موضوع؟

٦

فى سطور سابقة حكيت حكاية (كلب المحافظ) هذه المرة حكاية (حمار الشيخ عبد السلام) وهى حكايتى مع الشيخ عبد السلام والحمار وعلى صبرى والرئيس عبد الناصر. وهى حكاية معروفة ولكن لأنها وقعت من أربعين عاما. فإن نصف سكان مصر لا يعرفون عنها شيئًا. فى ذلك الوقت بعد تأميم الصحافة سنة ١٩٦١ بهدلة (أخبار اليوم) بوضع من لا علاقة لهم بالصحافة على رأسها ليخلعوا أحذيتهم ويضربونا صغيراً وكبيراً استجابة لمزاج الرئيس عبد الناصر ومستشاره فى التزييف والتزوير والتشفى والانتقام . . وفى ذلك الوقت أصدر أستاذنا الكبير توفيق الحكيم مسرحية اسمها (السلطان الحائر) عقدة هذه المسرحية أخذها توفيق الحكيم من كتاب المؤرخ ابن إياس (بدائع الزهور) . . وفى هذا الكتاب أن القاضى السورى العز بن عبد السلام وجد أن هناك نصًا فى الشريعة الإسلامية يقول: إنه لا يحق للعبيد أن يحكموا الأحرار.

أما العبيد فى ذلك الوقت فهم المماليك، وعلى رأسهم السلطان . . كلهم عبيد يحكمون الأحرار الأذلاء المصريين. وكان لابد من بيع المماليك فى السوق. على أن يدخل ثمنهم خزانة المسلمين ومن يشترى عبداً يعتقه بعد ذلك . . ويصبح العبد حرًا ومن اشتراه يعود عبدًا!!

أما توفيق الحكيم فقد تناول هذه الحقيقة التاريخية بمنتهى البراعة والذكاء والجمال . . وبلغ قمة الفن عندما جعل إحدى الغانيات تشترى السلطان . . انتهت التحفة الأدبية لتوفيق الحكيم .

وتناولت هذه المسرحية وكتبت وقلت واستخرجت وصفقت ودعوت الناس أن تقرأ (عجائب الدهور وبدائع الزهور) لتوفيق الحكيم .

وفى آخر المقال جاء هذان السطران : وقد وقف العز بن عبد السلام على حدود مصر راكبًا حماره . . هو بالنيابة عن العلماء ، والحمار بالنيابة عن الشعب المصرى .

وقبلها بيوم كتبت (يوميات الأخبار) وظهر فى المقال عن الطغيان رسمان لا علاقة بهما بالمقال بريشة كمال الملاخ . . رسم لحمار ورسم آخر للرئيس عبد الناصر . .

هذا كل ما حدث والقصة طويلة ومثيرة . ولكن استدعانى على إسماعيل الإمبابى ، أحد ضباط المخابرات ومدير مكتب كمال رفعت الوزير والمشرف على سحق وإذلال (أخبار اليوم) . . وقال لى ما معناه : من هنا على بيتكم ـ فهذا قرار الرئيس . . إلخ .

وذهبت إلى مكتبى فوجدت أنهم فتشوه وأقفلوه بالشمع الأحمر . . وجلست فى البيت إلى جانب مصطفى أمين وعلى أمين . . إلخ .

٧

لن تنسى (أخبار اليوم) ولا الصحافة المصرية (حكم العسكر) فى هذه الفترة الشنيعة من تاريخ الهوان الفكرى فى ذلك الوقت . فإليك بعض الأسماء : على إسماعيل الإمبابى . . نحيف أصفر مليء بالمرارة . . ولا نعرف لماذا . ويجلس على مقعد مصطفى أمين . وليس فى ذلك جديد . فقد جلس على هذا الكرسى كثيرون . ولكن على إسماعيل الإمبابى أدخل تعديلات على نظام التجسس فى (أخبار اليوم) ولم يسبقه أحد إلى ذلك .

فقد وضع (دكتافون) فى كل مكان لا لكى يتصل بأحد، دون أن يرى خلقته، وإنما ليسمع كل ما يقال . . وهذا الجهاز فيه خاصية أنه لا يضىء إذا فتحه الإمبابى فى مكتبه. وإنما ينفتح وينغلق دون أن يدرى بذلك أحد . . وطبيعى ألا يتكلم المحررون فى أى موضوع خاص . . لا يضحكون ولا يقولون. وقد تضايق بسلامته من ذلك وتساءل: ما لهم لا يتكلمون؟!

وعندما عدت إلى عملى فى (أخبار اليوم) بعد سنتين فى الشارع رافقنى إلى مكتبى الإمبابى ولم أكد أقترب من مكتبى حتى خلعت الدكتافون وألقيت به من النافذة. وتكاد عيناه تقفزان من وجهه!!

الصول أحمد زكى: شاب طويل يقف بباب الإمبابى . . بالضبط ماذا يعمل . . لا نعرف. ولكن كل المقالات تذهب إليه. وهو الذى يقلب فيها ويحذف ويضيف . . وعلى الإمبابى لا يفعل ذلك تعاليًا على الصحافة والصحفيين وانشغالاً بما هو أهم من ذلك من تقارير عن الذى لا جرى ولا حدث فى أخبار اليوم. وإذا تأخر مقال لأى سبب كان فكنا بسرعة نذهب إلى مكتب الصول أحمد زكى نسأل . . ويكون الرد: حالا بس أخلص اللى فى إيدى.

أما اللى فى إيده فهو مقال غير مفهوم للأستاذ الكبير محمد التابعى أو مقال (معقرب) أو مقال فيه (غلوشة) . . أو مقال فيه (تحشيش) أو مقال (والنبى شخلعنى يا فطوطة) ـ نسيت أن أقول إن هذه تعبيرات الصول أحمد زكى تعليقًا على المقالات . .

إسماعيل النقيب صحفى شاب فى غاية الحيوية والذكاء لطيف متحدث يخترق طرقات أخبار اليوم مائة مرة فى اليوم صحة وعافية وفرحان بشبابه . .

وفى الأسانسير إلى مكتب الصول أحمد زكى التقى الأستاذ التابعى بإسماعيل النقيب . . ومن عادة إسماعيل النقيب أن يرفع يده بالتحية العسكرية . . فقد كان حديث الانتهاء من الخدمة العسكرية فلما رأى الأستاذ التابعى حياه عسكريًا . وقال: أنا إسماعيل النقيب . أحد المعجبين بك . .

وانحنى الأستاذ التابعى فصافح إسماعيل النقيب . . أما سبب الانحناء فهو أن الأستاذ التابعى سمع الاسم هكذا : النقيب إسماعيل . . يعنى أحد الضباط الذين يحكمون ويتحكمون . وفى تلك الليلة بكى إسماعيل النقيب على انحناء أكبر تمثال للصحافة المصرية لمجرد أنه تصور أنه ضابط بكى إسماعيل النقيب على خيبة أمله وانهيار أحد المثل العليا فى الصحافة الحديثة . . بل على انهيار الصحافة كلها ! !

ولا أعاد الله علينا ولا حوالينا مثل هذا الزمان !

وسوف يدخل إسماعيل النقيب تاريخ الصحافة على أنه أول صحفى ناشئ ينحنى أمامه ملك الصحافة .

وبالمناسبة أذكر أن إسماعيل النقيب سوف يدخل التاريخ العسكرى لأنه أول من أسقط طائرة حربية مصرية ، فقد كان إسماعيل النقيب يعمل فى الدفاع الجوى وفجأة وجد أمامه نقطة بيضاء تتحرك على شاشة الرادار ولم يخطره أحد بهذا الجسم المتحرك ، والتعليمات العسكرية فى هذه الحالة هو إخطار القيادات المسئولة فأخطرها وعلى الفور أطلقوا المدافع وأسقطوا الطائرة وكانت المفاجأة أنها مصرية وانعقد مجلس عسكرى لمحاكمة الجندى إسماعيل النقيب وحكموا ببراءته . . وأذكر أيضًا أن زارنى أحد الضباط فقدمت له إسماعيل النقيب وظهرت الفرحة على وجه هذا الضابط قائلاً إننا ندرسك فى الكلية الحربية وأنا سعيد برؤيتك .

٨

كتبت سلسلة من المقالات فى (أخبار اليوم) بعنوان : وكانت الصحة هى الثمن فليس هناك عظيم لا يشكو من بطنه من قلبه من عينه من أصحابه من أهله ومن الخونة . . وكتبت ووصفت أمراض عظماء السياسة والأدب والفن . .

وأنا أول من كتب أن الرئيس عبد الناصر مصاب بمرض اسمه (مرض بيرجر) وأن علاج الرئيس عبد الناصر فى مصحة (اسخالطوبو) لم يكن صحيحًا . حتى أن الرئيس الصينى رأى أنهم قتلوه فى روسيا ـ وهذه قصة أخرى .

واستدعانى يومها السيد حسين الشافعى نائب رئيس الجمهورية وقال لى: إنهم فهموا مقالك على أنك تشير إلى مرض الرئيس عبد الناصر فحاول أن تصلح هذا الظن بسرعة!

وأذكر أننى كتبت مقالاً آخر أوضح فيه الثمن الذى يدفعه الرجل العظيم المهموم المغموم من صحته وعافيته وراحته.. وأشرت إلى عدد كبير من رؤساء الدول فى أمريكا وأوروبا لم أستثن منهم أحدًا!

وذكرت أن فى الأساطير الألمانية أن هناك كهفًا اسمه (كهف العبقرية) من حق كل إنسان أن يدخل بشرط والشرط أن يعطيهم رسم الدخول: رأسه أو قلبه أو معدته أو عقله.. لابد من دفع الثمن. والثمن فادح تمامًا. ولم يتأخر من يريد العظمة عن الدفع. مهما كان الثمن!!

أى ليس غريبًا ولا عجيبًا أن يصاب الرئيس عبد الناصر بأى مرض.. أما مرضه فهو (بيرجر) أى أن المريض المصاب بالسكر المسرف فى التدخين يصاب بنوع من تجلط شعيرات الدم فى ساقيه مما يجعله عاجزًا عن السير.. وهذا ما أصاب الرئيس.

وجاءنى العقيد (ف. ل.) يقول لى: بينى وبينك مقالك كويس بس مفيش حاجة اسمها (بيرجر)..

وقلت له هات أية دائرة معارف طبية وسوف تجد أن هذا المرض معروف بأنه مرض اليهود. فقد ظهر لأول مرة على المتضاربين فى البورصة الذين فى حالة غليان عصبى ويسرفون فى التدخين والاحتراق.

وقرأ بعينيه المراجع الطبية التى استعنت بها وقال: لولا أننى رأيت..

ولم يكمل.. وسألت أهل الذكر فأكملوا العبارة هكذا: لأدخلناك السجن وقل على روحك يا رحمن يا رحيم!

* * *

عزيزى أديبنا الكبير ثروت أباظة لعلك ترضى والأنام غضاب!!

ويومها هربت من البوليس والمراسم الملكية!!

الفرق بين دار الأوبرا اليوم والأوبرا القديمة كالفرق بين القرى السياحية والقصور الملكية. إنه التاريخ لكل منهما وذكرياتنا فى عشرات السنين. ومن الذى كان يقف أمام ووراء الكواليس، ثم هذه الكائنات العجيبة التى تلتوى لها أعناقنا وتنكسر ظهورنا لكى نلحق بها ونتملى جمالها وبهاءها وعطورها وأناقتها، وكيف أنها عندما تمشى تصبح الأرض سحابًا لا صوت له شىء غريب حتى عندما ننظر إلى (مولانا) الملك والملكة والأميرات فإنك تكسب أى رهان إذا وجدت أحدا يتنفس أو عرفت ملامحهم مهما أطلت النظر إليهم. وقد جربت ذلك كثيرًا. . كان الملك إذا جلس فهو أحيانًا يلتفت إلى ناحية وبسرعة تنحنى الرءوس تحية وامتنانًا له لأنه قد اهتم بالنظر إليها. . أما نحن فى الصالة فقد أعفينا من أن نفعل ذلك لأن نظرة مولانا إلينا ليست مركزة على أحد. . وإنما نحن (ترانزيت) هو يمر بعينه علينا ذهابًا وإيابًا ولا يقصد أحدًا منا.

وإذا لم يشرف مولانا هذه العروض الفنية الرائعة فإن عددا من الأمراء لا يفوتهم ذلك. ولابد أننا كنا نتساءل عن علاقة هؤلاء الناس بنا. . لا شكلنا ولا لغتنا ولا لماذا هم فوق. . ولماذا نحن تحت. . ولماذا هم هناك أى سبب. أى حق. . أى قانون. . ولماذا لا أحد يناقش أو ناقش كل ذلك. . المهم أنهم هناك. . جاءوا من

حيث لا ندرى وسوف ينصرفون إلى حيث لا نعرف. ولا تبقى إلا آثارهم فينا وعلينا.. إننا رأيناهم لحما ودما وأناقة وتعاليًا.. وبس!

ولا أظن أننى كنت أو غيرى يذهب إلى أبعد من ذلك.. وبسرعة تخفت الأضواء ويخفت الهمس واللمس وتنفتح الستارة الحمراء الذهبية وتمتلئ أنوفنا بالروائح التقليدية التى هى البودرة المعطرة أو هى التاريخ..

١

كان مدير الأوبرا الفنان الكبير سليمان نجيب. وهو فى حديثة إلينا لا يختلف عما يفعله على الشاشة.. فهو دائم الزعيق والشتيمة.. والشتيمة لا تعنى أنه غضبان أو مختلف معك. هكذا: تعال يا ولد..

يقصدنى أنا: نعم يا سليمان بك..

ـ أنت كنت فين يا خلبوص؟

ـ إمتى؟

ـ الأسبوع الماضى..

ـ لقد رأيت كل العروض!

ـ من الذى أعطاك التذاكر؟

ـ عبد الرحمن صدقى.

ـ آه.. من ورايا.. آه يا كلاب يا أولاد.. (أنا وعبد الرحمن صدقى وكل العاملين والواقفين والقاعدين)..

ولا أرد. فأنا وعبد الرحمن صدقى وأى واحد آخر من فصيلة الكلاب.. وهو لا يقصد هذه الإهانة أو هذه الحقيقة العلمية.. إنما هذه هى مفرداته اللغوية التى يدخرها لأحب الناس لديه.

وكانت العادة أن أذهب إليه ومعى كمال الملاخ ونطلب أى عدد من التذاكر وكان

لا يتـردد. ومـعظم المقـاعـد هى المقـاعـد (بيس) أى التى تضـاف إلى المقـاعـد فى الصـالة.. والجالس على هذه المقـاعد لا هو جالس ولا هو واقف ولكنه موجود .. لا يهم!

وكان الشاعر الكبير عبد الرحمن صدقى وكيل الأوبرا. وكل شىء فيه لطيف وجميل إلا ضحكته فهى قبيحة جدا وعالية جدا ـ وقد سبقه إلى ذلك الفيزيائى الكبير أينشتين فقد كانت ضحكته مثل نباح كلب البحر.. ولا علاقة لها بعبقريته وخفة دمه وجاذبيته الجنسية!

وسكرتير الأوبرا كان الأديب صلاح ذهنى. وكنت أندهش كيف أمكن لصلاح ذهنى أن يكون لديه كل هذه الكرافتات الزرقاء والرمادية. فلأننى لا أضع الكرافتة مطلقًا فقد كنت أتصور أنها حمراء دائمًا لكى تلفت العين.. ولكن صلاح ذهنى كان رقيقًا متحضر المزاج، وكان يختار اللون البنفسجى وهو أعقد الألوان التى اكتشفها الإنسان، واللون المفضل عند فيلسوف الحضارة الألمانى اشبنجلر. ويوم زرت أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى فى بيته بشارع همدان بالجيزة وهو الذى قدم لنا هذا الفيلسوف كانت غرفة الاستقبال بنفسجية اللون يتصدرها تمثال هذا الفيلسوف العظيم.

وكان من رأى عبد الرحمن صدقى هاها.. هاها.. كان يضحك قبل أن يقول النكتة كأنه يمهد لها أو يلفت سمعك إلى أن تستعد لنكتة عليك. كان يقول: تعرف إنك لو كل يوم ابتلعت قطعة من كرافتة سوف تصحو من النوم لتجدها قد التفت حول عنقك وتدلت على صدرك.. هاها.. هاها!

وكان مدير المسرح شكرى راغب.. وهو رجل لطيف ودمه خفيف ولا يكف عن الضحك رغم أن مسرح الأوبرا يخلو من الضحك.. لأنه تعب فى تعب.. عند نهاية أى عرض مسرحى كان شكرى راغب يفرض علينا أن نسهر معه.. ولأنه شبع من الصحافة والأبهة والأضواء والضوضاء فكان يستدرجنا إلى مطعم صغير جدا فى إحدى حوارى القاهرة. ولم يحدث أن وجدنا فيه فى أى وقت أكثر من ثلاثة زبائن. أحدهم صاحب المطعم والآخران من أقاربه. فلا يكادان

يريان الزبائن حتى يبرحا المكان. فكأنهما قد حضرا فقط حتى لا يقال إن المطعم بلا زبائن . .

وفى يوم سألت شكرى راغب: أيه المطعم ده؟

ـ ماله؟ هادئ لا موسيقى ولا ستارة ولا جمهور ولا مولانا . . ما له المطعم؟

ـ ليس مطعمًا!

ـ بتسأل عن الأكل؟

ويشير إلى صاحب المطعم ويعطيه مفتاح السيارة . . لقد أحضر شكرى راغب الأكل معه . .

وبسرعة ينهض صاحب المطعم ويأتى بعلبة ورق كبيرة بها: الجزر والطماطم والخيار والجبنة والفاكهة ويضعها أمامنا. ويختفى. ولا يظهر بعد ذلك. ثم يشير شكرى راغب إلينا، كمال الملاخ وجورج واصف من إعلانات «الأهرام» أن ننقل الأطباق والشوك والسكاكين والأكواب إلى داخل المطعم ونقفل الأنوار والأبواب ويضع المفتاح فى جيبه . .

وأعود أسأل: إيه المطعم ده؟

ـ الله يا أخى أنت مالك . . مش أكلت وشربت ببلاش. خلاص . .

ـ لا بالذمة أيه المطعم ده؟

ـ صاحبه كان يعمل معنا فى الأوبرا . . ومات ابنه فى حادثة: فكان رد الفعل أن فقد النطق. فأنا أجىء إلى هنا ومعى طعامى وأترك له البقشيش ونحن خمسة من زملائه نفعل ذلك كل أسبوع منذ عشر سنوات!

٢

فى يوم قال لى عبد الرحمن صدقى إنه من الضرورى أن نلتقى ظهرا. والقتين

وبسرعة ترك مكتبه واتجهنا إلى سور الأزبكية. وعلى السور كانت توجدة كتب قديمة. وبعضها سمعنا عنها ولم نرها. وكانت هذه هى المتعة الكبرى.. ونصحنى أن أشترى فوراً دائرة المعارف الفرنسية (لا روس) فى عشرين مجلدا بعشرة جنيهات! ولم أتردد. ومددت يدى إلى كتاب وجدته كنزاً. وتنازعناه ولكنى فزت به.. إنه مذكرات نعمت علوى المصرية التركية التى أحبها الشاعر الألمانى «ريلكه» والذى كانت تنشر له مجلة (الثقافة) فصولا من ترجمة الدكتور عبد الهادى أبوريدة أستاذنا فى الفلسفة الإسلامية. والكتاب اسمه (رسائل مالته برجه) وكان الدكتور عبد الرحمن بدوى قد ترجم للشاعر (كتاب الساعات).. وفى سنة ١٩٥٢ كتبت مقالا فى مجلة (آخر ساعة) عن وفاة الشاعر ريلكه.. وفى المقال وصفت كيف مات. وكان صلاح ذهنى مريضاً فى ذلك الوقت وفى طريقه إلى لندن للعلاج.. وكانت حالة الشاعر الألمانى مثل حالة الأديب المصرى.. وأجلت نشر المقال حتى لا يقرؤه صلاح ذهنى. والتقينا فى كازينو بديعة ـ حيث يوجد الآن فندق شيراتون القاهرة ـ وفوجئت بأن صلاح ذهنى قد أجل سفره. ثم قرأ المقال.

وقال لى: إن حالتى مثل حالة هذا الشاعر.

وكانت نفس النهاية مع الأسف!

٣

وفى مكتب عبد الرحمن صدقى وجدت بنتا حلوة.. أعرفها أنها بطلة مسرحية (جيجى) من تأليف الأديبة الفرنسية كوليت والتى كانت تعرضها فرقة (موريس اسكاند) وكانت صغيرة تمشى كالعصفورة تقفز وتتلفت حولها كأنها تحيى الجماهير مع أنه لم يكن هناك أحد.. وإنما هى اعتادت على ذلك.. ثم هجمت على عبد الرحمن صدقى فقبلته وقبلها هو أيضًا.. هنا وهنا وقال لها: أقدم لك أديبًا شابًا اسمه منصور.. إنه رجل لطيف ولكنه رجل هاها.. هاها.. لا تنسى.. أما هو فلن ينسى! هاها.. هاها..

واقترح عبد الرحمن صدقى أن نذهب إلى خان الخليلى وألا أجيبها إلى رغبتها فى أن تذهب إلى مطاعم اللحم المشوى هناك تحت إغراء الروائح القوية النفاذة . . لأنها (عهدة) وإذا ماتت أو أصابها مكروه فإن العرض المسرحى سوف ينهار لأنها البطلة المطلقة . .

ولاحظت الفتاة واسمها (آنى فيليه) أنه يحذرنى ويتوعدنى فظنت أنها زيارة خطيرة . . والتفتت تسأل، فتعالت ضحكات عبد الرحمن صدقى وقال: ليس خوفًا منه وإنما خوف عليك أن تدخلى أحد المطاعم فطعامها ملىء بالدهون والشطة!

فصرخت: أموت فى الشطة!

فضحك عبد الرحمن صدقى: يا حبيبتى موتى زى ما أنت عاوزة بس فى باريس! هاها . . هاها . . هاها!

٤

وجدت رسالة على مكتبى: ضرورى الاتصال بسليمان بك نجيب. واتصلت به وقبل أن أسأله قال: انتو فين يا كلاب يا أولاد . . . . .

ـ تحت أمرك يا سليمان بك.

ـ تعالوا فورا.

ـ مين إحنا؟

ـ أنت والكلب الملاخ والكلب الصحفى ده اللى اسمه.

ـ عدلى جلال.

ـ والرابع الأقرع الأحمر ده!

ـ حاضر . .

ـ فورا!

ـ حاضر . .

وفى الطريق إلى شقته فى شارع قصر العينى حاولنا أن نعرف السبب وكل واحد حاول.

الملاخ قال: سلفة. . أنا اللى استلف مش هو. . وعدلى جلال: حفلة من الشتائم لأنه لم يجد أحدا يشتمه اليوم. .

وضربنا الجرس وفتح الباب سليمان نجيب. وأشار أن ندخل بسرعة. وقال اقعدوا على السفرة. . تعال يا واد أنت. .

وأشار إلى عدلى جلال. . هات الأكل اللى فى المطبخ وهات الأطباق والشوك والسكاكين. . وكلوا وسوف أرتدى ملابسى وأجى لكم حالا. .

ووضعنا الأكل على المائدة وامتدت أيدينا وأكلنا ونحن لا نناقش ما المعنى وما الحكمة. ولكننا اعتدنا على هذه السلوكيات المضحكة لسليمان بك. . وأكلنا وشربنا وشبعنا.

وجاء سليمان بك أنيقًا مرحًا وقال: خلصتم الأكل. .

وأنا بقى اللى حاغسل لكم الأطباق. كل واحد يغسل الطبق والشوكة والسكين ويضعها فى مكانها. .

ثم نظر إلينا. وطلب إلينا أن نخرج وشكرنا. .

يعنى كان عنده أكل ولا يريد أن يتركه فيفسد أثناء سفره إلى باريس. . لم يشأ أن يذكر لنا ذلك. .

وكان من عادتنا فى ذلك الوقت أن نقف أمام (محل البن البرازيلى) فى شارع سليمان باشا. . وجاء تليفون من عبد الرحمن صدقى قال لى:

والنبى يا أنيس أنا عندى شوية غسيل ومراتى سافرت إلى إيطاليا تعالوا. . هاها. . هاها. . وسيبوا لى الكلاب. . هاها. .

٥

وكان شكرى راغب مدير المسرح يطلعنى على البرقيات التى يتلقاها الممثلون الإيطاليون من المحبوبات والعشيقات . . وكنت أنشر بعضها وكان الممثلون ينزعجون من أن هذه البرقيات الشخصية قد وصلت إلى الصحافة، من بينها برقية كانت تقول : أقبلك أطول من المسافة التى بيننا والتى نقطعها سيرا على الأقدام، يعنى قبلة طولها شهر هو المسافة بين مدينة فيرونا التى شهدت ميلاد ومصرع روميو وجولييت إلى مدينة القاهرة!

وبرقية أخرى تقول لواحدة مطربة إيطالية : أعطنى أذنيك أملأها بالشمع حتى لا تسمعى كلمة أحبك من أى إنسان سواى . . ولكنها سمعتها ألف مرة رغم هذا الشمع!

وكانت إحدى جميلات القاهرة فى ذلك الوقت اسمها أمينة البارودى .

وكان مفتونًا بها مطرب إيطالى أو كانت هى . المهم أننا ننتظرها حتى تجيء إلى الأوبرا ولا نتركها تتلفت يمينا أو شمالاً هل هو الاستطلاع أو هو الحقد أو هى الغيرة . مع أنه لاحق لأحد منا فى ذلك .

وفى يوم قال لى شكرى راغب : سوف أجمعك أنت والملاخ بها فى مكتبى . . وأنتم وشطارتكم فى معرفة آخر أخبارها .

وأتى بها . جميلة جدًا . لامعة البشرة رائعة العينين وصوتها حلو . . وكلها على بعضها حلو . ولكنها ليست معنا، ولن تكون .

وسألناها ولم تقل . وسألناها أقرب وأكثر وكان ردها أقل وأبعد . . ووقفنا أمام دار الأوبرا ننتظرها . وحاولت هى أن تدير سيارتها فلم تقم فتطوعنا وأخذناها هى وحبيبها إلى أى مكان . وذهبت إلى المكان الذى تريد . . إلى بيتها وشكرتنى . وبس!

وكأنها صفعتنى على قفاى . ولما لم يكن ذلك كافيًا وجدته هو الآخر يقول بالإيطالية : كان دورك أكثر من رائع!

أما دورى فهو توصيل العاشقين . . إنه دور ولكن بلا مسرحية ولا بطولة ولا لازمة!

وحكيت لشكرى راغب . فقال غاضبًا : الليلة سوف يكون لك دور وأنا معك!

وجاءت أمينة البارودى وتركت لها المكان . وغمز لى شكرى راغب .

فقلت له : لست وحدى . . قال : هاته . .

يقصد كمال الملاخ .

وفى سيارة فخمة جديدة . ركبنا معا : شكرى راغب يقود السيارة وإلى جواره أمينه البارودى وفى المقعد الخلفى جلسنا :

الملاخ وأنا وحبيب القلب الإيطالى . حاول أن يجرى معى حوارا ولكن نفسى كانت مسدودة . ونزلنا . وكانت سهرة جميلة وذكريات حلوة وأحلى ما فى الذكريات أن أمينة البارودى كانت فى متناول الأيدى والشفاة . . أما حبيب القلب فقد شرب حتى سكر ونام فى جانب من القاعة . وتركناه هناك . . وطلع النهار وأدرك شهر زاد الصباح وسكت عن الكلام المباح وغير المباح . .

وفى الظهيرة قابلنا سليمان نجيب وعبد الرحمن صدقى وصلاح ذهنى والمخرج أحمد كامل مرسى وكان المتكلم الأول سليمان نجيب : عمل فيكم أيه شكرى راغب؟

- ولا حاجة . .

- إزاى . . بيقول إنه ضحك عليكم .

- . . . .

- بيقول إنه أخدكم لبيت أمينة البارودى وقفل عليكم الباب بالمفتاح ثم ذهبوا لسهرة صباحى فى الأوبرج . . هاها .

ولكن هذا لم يحدث . . وإنما هو الذى تحدثت عنه الأوساط الفنية والصحفية . ولم نستطع أن نكذب كل هذا الذى انتشر . فلم نجد إلا أن نقول : إنه حدث ولكن ليس بالضبط!

٦

أقام عبد الرحمن صدقى حفلة استقبال لفرقة الأوبرا الزنجية (بورجى وبس) . . وبعد الغداء فى فندق مينا هاوس طلب منا ـ كمال الملاخ وأنا ـ أن نقوم بمرافقة البطلتين إلى حديقة الحيوان وخان الخليلى . . والمهم أننا نتناول طعامًا شرقيًا محترمًا وعلى حساب الأوبرا!

وكان عندنا خياران إما أن نتناول الغداء مع المطرب محمد فوزى وإما فى بيت كمال الملاخ . واستقر الرأى على بيت كمال الملاخ واعتذر محمد فوزى لأسباب طارئة . وفى بيت كمال الملاخ بالزمالك كان الطعام لذيذًا . ولم يفسد هذا الطعام إلا إصرار كمال الملاخ على تلخيص التاريخ الفرعونى كله . دون أن يشرح لهما : ماهى مكونات الملوخية أو المسقعة . . وإنما ترك الفتاتين تغوصان وتخوضان فى هذه الأطعمة الغريبة والتاريخ الفرعونى لهذه الأطعمة وغيرها . ومن المؤكد أنه كان غداء مقرفًا وهذه عادة مزعجة عند كمال الملاخ : (فرعنة) كل شىء حتى يوجع العقول والبطون أيضًا . .

وجاءت القهوة والشاى . . ولسبب لا نعرفه حتى اليوم نهضت البطلة واسمها مارتا فلورز وخلعت الجزمة وانهالت بها ضربا على زميلتها . ولم نعرف ما الذى يمكن عمله أمام الدماء التى بدأت تسيل من الوجهين . . كأنهما نمرتان متوحشتان خرجتا من القفص لتصفية حسابات قديمة .

أما السلوك الشائن بعد ذلك فهو أننا هربنا من البيت . أنا اتجهت إلى المنصورة والملاخ إلى الفيوم . ولا نعرف ماذا حدث بعد ذلك .

فالمصيبة أن كان الافتتاح فى ذلك اليوم . وأن مولانا الملك والأميرات والأمراء سوف يشهدون العرض الأول وبدون البطلتين .

ومن حين إلى حين اتصل بالبيت لأسمع أمى تقول لى : يا ابنى أنت فين . . عبد الرحمن صدقى . . وسليمان بك . . فيه أيه يا ابنى . . دول سألوا يمكن عشر مرات .

ـ ولا حاجه يا ماما وأنت قلت لهم أيه؟

ـ والله يا ابنى ما انى عارفة . . قلت لهم إنك مسافر . . هوه أنت مسافر يا ابنى .

ـ أيوه . .

ـ وحترجع أمتى بالسلامة؟

ـ كمان كام يوم . .

ـ طيب يا ابنى بالسلامة!

لقد تأخرت البطلتان عن البروفات . وانقلبت الدنيا . . والأوبرا والداخلية والمراسم الملكية . كلهم يبحثون عنهما . .

و طلبت أمى فقالت لى : فيليب سأل عنك . .

إنه صديقى الدكتور فيليب المنقبادى طبيب شركة شل . طلبته . سألته وجدته يضحك : إيه يا فيليب؟

ـ الله يخرب عقلك . . إيه اللى حصل . .

ـ إيه اللى حصل؟

ـ البنات الزنوج دول . .

ـ ما لهم؟

ـ ما أنت عارف . . أنا بالصدفة كنت واقف أمام بيت كمال الملاخ لقيت اثنين حلوين غرقانين دم . . اقتربت منهما وقلت أنا طبيب أى خدمة!

وأخذتهما إلى (قصر العينى) . . الاثنين مشلفطين تماما . ورفضت أية واحدة أن تقول إيه السبب أو تتهم أحدا . . واتصلت بشكرى راغب وأنت فين دلوقت؟

ـ فى المنصورة . .

ـ خليك زى ما أنت لأنهم بيدوروا عليك أنت وكمال . . وهو فين؟

ـ ما أعرفش .

ـ الله يخرب عقولكم . . هوه إيه اللى حصل؟
ـ والله ما أعرف .
ـ معقول؟
ـ هو ده المعقول!
ـ مش معقول أيه اللى حصل؟
ـ هو ده اللى حصل .
ـ مش معقول!
معقول مش معقول: نحن لا نعرف حتى اليوم .

وحضر مولانا الملك حفلة الافتتاح . ولم يدر أحد اختفاء البطلة الأولى والبطلة الثانية . . ولم تظهرا إلا فى آخر يوم!

٧

من المؤكد أن سليمان نجيب قد تعب، وتقدر تقول قرف ويريد أن يجد لنا حلا . . حاول وفشل فى كل الأحوال . لأنه رجل لطيف ولأننا نحبه . ثم إننا نكتب عن نشاط الأوبرا وعنه هو .

صحيح أنه يشتم ويلعن ونحن نفعل ذلك . والفرق بيننا أنه يجاهر بالشتيمة ولكننا نخفيها عنه . فلم تظهر مسرحية أو أوبرا أو باليه إلا كان لنا عشرة مقاعد على الأقل، لنا وللأصدقاء والصديقات الأجنبيات .

وفى إحدى المرات أراد أن يعرف إلى من تذهب التذاكر فأرسل أحد السعاة ليطلب إلينا أن نذهب إليه جميعًا وفوراً . . وذهبنا . . ورفع رأسه عن الأوراق وقال باللغة الفرنسية: خنازير ولكن ذوقكم غزلانى! يا الله قبل الستار ما يرفع!

ولكن لابد أن يكون قد زهق ولم يعد قادرا على أن يتحمل رؤية هذه الوجوه: أحمد الألفى عطية وعبد الحميد الحديدى وإميل لبيب وكمال الملاخ ولوسى وكيكى وفيكى ومارشيلا . .

هل قال لى أى شىء؟ لم يقل. هل توعدنى وحدى؟ لم يفعل. وجاء اليوم.. كانت ليلة الافتتاح لأوبرا (كارمن) وهى القصة التى لخبطت حياتى. فقد رأيتها لأول مرة بعد تخرجى فى الجامعة وكانت فيلمًا اسمه (غراميات كارمن) لريتا هيوارث وجلين فورد ـ أرجو أن تكون هذه المعلومة صحيحة ـ وهذه القصة الرومانسية للشاعر الفرنسى مريميه.. رأيت الفيلم وكتبت عنه حتى بدأ الناس يضحكون من سذاجة هذا الكاتب لسبب بسيط أن هناك أفلامًا أخرى كثيرة. ولكن لأنه كان أول فيلم أشاهده فى حياتى فقد هزنى بعنف ووجدت فيه عبارات كثيرة جاءت على لسان البطلة هى من صميم (الفلسفة الوجودية) التى كنت أبشربها فى الخمسينيات حين أصدرت أول كتاب عن الوجودية فى عبارة سهلة. وكتب المقدمة لهذا الكتاب الصديق والمفكر اليسارى أحمد حمروش.. وفى المقدمة قال: من الممكن أن تختلف مع المؤلف فى كل شىء إلا أنك لا تملك إلا الإعجاب به وبفكره وبأسلوبه.. إلخ.. وقد فاتنى أن أشكره فى ذلك الوقت سنة ١٩٥١ وأتقدم له اليوم بخالص الشكر مضاعفا..

وبعد عشرين عامًا من رؤيتى الأولى لهذا الفيلم قررت أن أشاهده مرة أخرى وكانت صدمة! فكل العبارات الحلوة التى حفظتها ووجدت فيها فتحًا فلسفيًا وجوديًا لا وجود لها.. فهذه العبارات خرجت من عقلى أنا وطبعتها على لسان البطلة ـ شىء عجيب أن أسمع البطلة تقول ما لم تقل ـ هل هو خداع الذاكرة أو هو الفكر المغرض حين أتوهم أن الدنيا كلها تردد ما أقول!

ولكن ظل لكارمن مكان رفيع عميق فى نفسى.. وتشاء الصدفة أن يحضر الملك فاروق والملكة فريدة والأميرات ومن لا أعرف من باشوات وبكوات مليونيرات مصر.

وبرغم كل ذلك الحشد الرائع المروع منحنى سليمان نجيب مقعداً متقدمًا.. يابختى يا سعادتى يا بركة دعاء الوالدين. وعندما أعطانى التذكرة قالى لى: مولانا جاى الليلة عندك بدله سموكنج..

ـ لا!

والتفت إلى شكرى راغب مدير المسرح: يا شكرى مفيش وقت شوف بدلة من بتوع الممثلين بسرعة.. أمامك خمس دقائق وانطلقت إلى غرفة الملابس.. وخلعت ملابسى وعلقتها مكان البدلة السموكنج التى جاءت على مقاسى تماما. وبسرعة خرج شكرى راغب وخرجت متجهًا إلى القاعة قبل حضور جلالة الملك والعائلة المالكة.

.. وكان المكان متقدمًا. وبسرعة خفتت الأضواء مع موجات من الهمس.. إنه الملك قد جاء ولم ينفتح الستار إلا بعد أن استقر الملك على مقعده وابتسم لكل الناس. وانفتح الستار. وانفتح ألف باب لجهنم فى البدلة.. فهى مليانة بالبراغيث والأكلان.. وكلها فى حالة جوع وعطش شرس.. وعندما بدأت أتململ كان الذين ورائى يستنكرون حركاتى الغريبة وأنا أسحق البراغيث فى مقعدى.. والاستنكار بالفرنسية والإيطالية والتركية.. ولكن البراغيث لا تسمع وأنا أسمع ولا أعرف كيف تحولت البدلة كلها بقدرة قادر إلى ملايين البراغيث فى كل مكان.. نعم فى كل مكان.. أيوه هنا.. وهنا.. وخصوصًا هنا. وأكتم فى نفسى.. وأكتم نفسى وأحاول تطبيق كل نصائح علماء النفس فى أن الإنسان لا يستطيع أن يحول انتباهه إلى ناحية أخرى، وذلك بالتركيز الشديد فى شىء آخر.. تمنيت لو خلعت هذه البدلة الجهنمية دفعة واحدة وألبستها أساتذتى فى علم النفس الدكتور مصطفى زيور تلميذ فرويد والدكتور يوسف مراد أستاذ علم النفس التكاملى.. إذن لوجدوا أن نظريات الاتجاه بالذاكرة ناحية أخرى مستحيل.. لو كان لسع البراغيث يتحول إلى نار وأحرقت البدلة. وتمنيت لو حدث فسوف يصرخ الناس وأهرب فى الزحام.. والحمد لله لقد سكتت البراغيث.. شبعت من دمى وهدأ اللسع داخلى.. وخرجت مع نهاية الفصل الأول حتى باب الأوبرا.. وهربت بكل قوتى.. ولا أعرف كيف تذكرت فى هذه اللحظة أن لى زميلا يعمل بفندق قديم يواجه الأوبرا اسمه الكونتنتال. ولحسن حظى مرة أخرى وجدت صديقى وقلت له: فى عرضك.. فى طولك وحياة والدتك.. آخد دش!

وحكيت له . . وفى التليفون قلت له : لا أعرف كيف أشكرك . بس أنا محتاج لبدلة أخرى . . لأن هذا مقلب . ولابد أن سليمان نجيب قد أمر بإغلاق غرفة الملابس!

ولم أفكر وأنا فى الطريق إلى البيت أن أشترى بودرة . وإنما فضلت أن أذهب إلى البيت فورا . ولا أعرف ما الذى سوف أفعله بعد ذلك . .

وانفتح باب البيت وسقطت أمى مغمى عليها!

تفسير ذلك : فقد لاحظت أمى أننى أتأخر كل ليلة فقد كنت أعمل فى عدة صحف . الأهرام والأساس وروزاليوسف والنداء . . ولكن لم أذكر هذه الأسماء . وإنما قلت لها إننى أؤدى عملاً إضافيًا . . ولكن أمى لم تتصور لحظه واحدة أننى أعمل «سفرجى» . . وإلا فلماذا قد ارتديت هذا القفطان!

وصالحنى سليمان نجيب وشكرى راغب . . ودعانى إلى عشاء مع بطلة أوبرا كارمن . . وكانت صحبتها وحديثها وجمالها ودلالها اعتذارا كافيًا!

كيف كان الفراعنة يحتفلون بذكرى دنشواى؟

١

هاها هاها . . يامولانا أنت فعلتها وكل الذى ينقصهم أن يجعلوا اسمه ج . ب . ج تماما مثل م . ج . م (متروجلدن ماير) هاها!

كان ذلك صوت الأستاذ العقاد مجلجلا فى التليفون قبل أن أكمل تحيتى: صباح الخير يا أستاذ . .

فما الحكاية؟ لقد قرأ الأستاذ العقاد رأيًا للأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ويساريين آخرين عن (أبو ذر الغفارى) الصحابى المعروف الذى نقلوا عنه أكثر من ٣٠٠ حديث نبوى، لم يصح منها إلا ثلاثون . . وقد حاول اليساريون أن يجعلوا أبا ذر أول شيوعى فى الإسلام مثل الحاج خالد محيى الدين والحاج عمر ماسكافيم عضو البرلمان الأندونيسى . . وعابو على أبى ذر أنه لم يحسن قراءة المفكر الألمانى لاسال والفيلسوف الألمانى كارل ماركس وتابعه إنجلز . . يعنى أن الشيوعيين المصريين يحاسبون أبا ذر على مخالفته لأفكار جاءت بعده بمئات السنين!

ولأن اسمه الأصلى هو (جندب بن جنادة) فالأستاذ العقاد يسخر منهم ويقول كان الأحسن بأبى ذر أن يسمى نفسه (جن جن) . . أو ج . ب . ج اتباعًا لما سوف يجىء فى مستقبل الأيام!!

وطلب منى الأستاذ العقاد أن أكتب ردًا على هؤلاء الشيوعيين . . أى مطلوب أن أكشف عن أنيابى ومخالبى . . أو أحاول أن يكون لى مثل هذه الأسلحة . .

وحاولت . ورضى العقاد فكتبت مقالاً بعنوان : كيف كان الفراعنة يحتفلون بذكرى دنشواى ؟ !

أى يحتفلون بما حدث بعد خمسة آلاف سنة من وفاة الملك مينا . . وكيف أن احتفالاتهم جاءت مخالفة تمامًا لما اعتدنا عليه فى مصر الحديثة . . تمامًا كما اختلف أبو ذر الغفارى عن تعاليم ماركس وإنجلز وغيرهم من الشيوعيين فى القرون ١٨ و١٩ و ٢٠ من ميلاد السيد المسيح . . أى بعد ١٣ قرنًا من وفاة أبى ذر !

وقد كافأنى الأستاذ على ذلك بـ هاها . . من أعماق الحلق والقلب !

٢

سمعت من الأستاذ الكبير على خليل الأب الروحى للإذاعة أن فى تلك الأيام اتصلت به أم كلثوم وسألته عن رقم تليفون الأستاذ العقاد . . وفى اليوم التالى عرف منها أنها تحدثت إلى الأستاذ العقاد ساعة ونصف ساعة . وسألها : بتقولوا أيه يا ثومة !

ـ بنقول أيه . . وحياتك نكتة منى ونكتة منه !

ـ ساعة ونصف ؟ !

ـ وكان من الممكن أن تكون المكالمة أطول لولا أنه صعب علىّ أن أضيع وقته فى الكلام الفارغ !

وقال لى الأستاذ على خليل : إنه نسى أن يسأل أم كلثوم عن هذه النكت التى أضحكت أكبر نجمين من نجوم الفن والأدب فى العالم العربى . ولكن العقاد قال له : إنها سيدة نزيهة القصد !

ولم يسأله على خليل عن معنى هذا التعبير بالضبط ولما نقل هذا التعبير إلى أم كلثوم . .

قالت : آهى دى النكتة اللى ماسمعتهاش من العقاد!

وبقى هذا التعبير لغزاً!

٣

أذكر أن الإذاعى الكبير وجدى الحكيم سجل لى مع الفنانة شادية شريطًا . . تركنا نحن الاثنين نقول ونعيد . . ولما سمعنا الشريط وجدنا أننا لم نقل كثيراً ولكننا ضحكنا كثيراً جداً . . كنا نضحك على ماذا؟ أنا لا أعرف . .

قالت لى شادية : فى الثلاثين عاما الماضية إذا وجدت نفسها متضايقة فإنها تستمع إلى هذا الشريط وتبكى على أيامنا الحلوة التى كنا نضحك فيها كثيراً من أى شىء ولأى سبب . . والغريب أن مستمعى (صوت العرب) قد طلبوا هذا التسجيل أكثر من عشرين مرة!

وطلب منى وجدى الحكيم أن أستمع إلى هذا التسجيل عندما يذاع للمرة الثانية والعشرين . . وسمعت وأدهشنى ما كنت أقول وما كانت شادية تقول . الشىء المؤكد أننا نضحك على الفاضية والمليانة . . عندنا رغبة فى أن نفرفش أنفسنا . . ولا أعتقد أننى وأنها نستطيع ذلك الآن!

٤

عندما اكتشف العالم الأثرى كمال الملاخ مراكب الشمس ، انقلبت الدنيا إذاعة وتليفزيونا وسينما وصحافة حول أهرامات الجيزة . ولم يكن فى استطاعة الملاخ أن يستجيب لكل ما تطلبه إذاعات العالم . فكنت مع الصديق حمدى فؤاد نتحدث فى الإذاعات العالمية نيابة عن الملاخ . . وجاء دورى لأن أتحدث فى الإذاعة الألمانية . . ورحت أحكى أقول كيف اكتشفت المراكب . وكيف كان شعورى . . إلخ .

سألنى المذيع وكان مستشاراً ثقافيًا فى السفارة الألمانية اسمه كارل يونج: هر (ملاخ) هل كنت تتوقع أن تجد هذه المراكب فى هذا المكان؟

ـ كنت أعرف أن هناك مراكب لكن لا أعرف بالضبط أين أجدها.

ـ هر (ملاخ) قلت لى إنك زرت ألمانيا؟

ـ عشر مرات . .

ـ لابد أنك تعرف الألمانية؟

ـ أستطيع أن أقرأ وأترجم وأتفاهم . .

ـ هل أحببت فتاة ألمانية؟ . أنت قلت لى قبل التسجيل أنك أحببت أكثر من واحدة . .

ـ نعم . .

ـ وعدتها بالزواج؟

ـ نعم .

ـ هل من الممكن أن أعرف اسمها إذا لم يكن فى ذلك حرج لك . .

ـ اسمها إيما ميتلهوبر فى مدينة هيدلبرج شارع بيتهوفن رقم ١٢٩ . .

ـ هذا شرف لها وسعادة لكما . . أهنئك يا هر (ملاخ) . . قلت لى إنك كنت تتردد كثيراً على حانات البيرة فى مدينة ميونخ . .

ـ نعم . .

ـ هل تذكر أغانى السكرانين؟

ـ نعم . . كنا نقف على الترابيزات وأكواب البيرة الضخمة ومعها اللفت والخبز الجاف ونرقص ونقول: واحد وعشرين اثنين وعشرين ٢٣ . . ٢٤ . . ثلاثون وهكذا يمضى السلام البافارى . .

فى هذه اللحظة وأنا أغنى بصوت مرتفع جاء كمال الملاخ وقاطعنى: إيه المسخرة دى أنت بتقول أيه؟

ـ ولا حاجة إنه بيسألنى عن أحب الأغنيات الألمانية . . وأنا أردد أغانى الأفراح والليالى الملاح . .

وبعد شهرين جاءت الفتاة الألمانية إلى القاهرة مع والديها بعد أن سمعت أن الملاخ يحبها ويريد أن يتزوجها . . وكانت مشكلة . وحاولت أن أقنعه بأن يتزوجها فقد كانت شقراء جميلة جداً . . ولكن الملاخ غرقان لشوشته فى حب واحدة ثانية تزوجت غيره ثلاث مرات !

ثم طلب منى المذيع الألمانى أن أقول كلمة باللغة العربية وبعد ذلك أترجمها إلى الألمانية . . فقلت : حمار حصاوى من لا يتزوج هذا البدر المنير !

٥

مرت ٢٥ عامًا على سؤال كنت قد وجهته للفنانة القديرة سميحة أيوب والسؤال هو : لو كانت عندى ثقة فيك لقلت لك حكاية غريبة؟ وكان المرحوم الكاتب الكبير سعد الدين وهبة يقول لى : لا تقل لها . . رغم أنه لا يعرف ما هو السؤال ولا هى . ومن أيام قابلتها وسألتنى : لا تزال تتردد فى سؤالى .

قلت : عملاً بنصيحة زوجك سعد الدين وهبة . تفتكرى لو قلت لك : إن السؤال كان هو كم حاصل ٢×٢ . . هل يكون سؤالا غريبًا؟ لا أظن . فليس صحيحًا أن الناتج أربعة . . وإنما فى كتب الأطفال فقط . . فلا يمكن أن تكون بطيخة فى حجم الخروف وبطيخة أخرى فى حجم الأوزة وثالثة فى حجم الدجاجة ورابعة فى حجم العصفور . . لا يمكن أن يكون عددها أربعة وإنما يكون عددها أربعة فقط إذا هى تساوت فى كل الصفات : اللون والحجم والوزن والطعم وعدد البذور .

ولا يمكن أن يكون حاصل جمع : أينشتين والعقاد وطه حسين ويوسف وهبى وشعبان عبد الرحيم خمسة . . فليس بينهم جميعًا تطابق فى أى شىء . ولا يصح الجمع إلا بين المتطابقين تمامًا . . ولا حتى بين الفناجين والأكواب والسكاكين . . فلا تشابه تمامًا بين كوبين وفنجانين وطبقين مهما كانت صناعتها دقيقة .

ولذلك فليس صحيحًا مطلقًا أن ٢+٢=٤ . وإنما هذه مسألة نظرية فقط . كلام على الورق . . ولا يوجد خط مستقيم فى أى مكان فى العالم وإنما بالتقريب . . ولا يوجد شعاع ضوء مستقيم، كما تقول نظرية النسبية لأينشتين . .

ولا أنا حريص اليوم كما كنت حريصًا من ربع قرن على أن أسألها ولم أعد مهتمًا بالإجابة. فالذى أردت أن أعرفه من السيدة سميحة أيوب، عرفته من غيرها . . ووجدت أن السؤال بلا إجابة كان أهم وأمتع . فالإجابة عن السؤال كانت تافهة وهايفة . . ولو كنت أعرف من البداية ما سألتها . .

٦

كنت مع الزميل كمال عبد الرءوف نمشى فى شارع جنزا بطوكيو . نتفرج ونتكلم ونعلق على ما نرى . ثم نتوقف لنقول نكتة ونضحك ونعاود السير معًا متجاورين حتى نفسح مكانًا للمشاة الآخرين . وفجأة توقفت سيارة . وكان لوقوفها صوت صارخ . . ونزل سائق السيارة واتجه ناحيتنا . وأدهشنا ذلك . . إنه السكرتير الأول فى سفارتنا بطوكيو . وقال لنا بشكل تهديد قاطع : أرجو ألا تمشيا وقد تأبط كل منكما ذراع الآخر . . لأن هذا دليل على الشذوذ الجنسى!

وعاودنا التفكير فى الذى فعلناه من أول الطريق . واكتشفنا السر العجيب فى ابتسام الناس لنا ذهابًا وإيابًا . . وكنا نرد على التحية اليابانية بتحية يابانية أعمق وذلك بأن ننحنى جدا ولمدة طويلة!

تصور ما الذى كان يقال عنا!

ومرة قبل ذلك قابلت الزميل إسماعيل الحكيم وكان قادمًا من موسكو . التقينا فى فيينا وهات يا أحضان ويا قبلات :

وحشتنى . . والله أنت أكثر . . أشوفك فين يا إسماعيل ومتى . .

قال إسماعيل وكان رجلا لطيفًا وكانت ضحكته عريضة ومواعيده كذلك فهو

عندما يقول لك: سوف نلتقى الساعة العاشرة صباحًا يجيء فى الواحدة مساء. . وإذا قال لك:

أعطنى عشر دقائق ـ فيجب أن تضربها فى عشر أخرى.

وكان إسماعيل الحكيم دائم الاعتذار هكذا: والله أنا فاكر الموعد ولكن حصل كذا وكذا. . ولأنه اعتاد على ذلك فإنه يعتذر لكل من يقابله. . مع أنه ليس بينهما موعد!

واتفقنا على أن نلتقى فى روما. واخترت مكانًا أحبه هو مقهى محطة سكك حديد روما. فأنا أجد لذة ومتعة لا نهاية لها فى محطات السكك الحديدية، فى باريس وموسكو وبرلين وروما. أحب شكل القطار سلطانًا على القضبان الحديدية. . فخم ضخم ويخرج منه بخار وله دوى كأنه حيوان كبير يتهيأ لرحلة طويلة. . وأحب اتجاه الناس واهتمامها وصعودها وهبوطها. . فالقطار كالدنيا. . كالحياة. . هذا طالع وهذا نازل. . وكل واحد له عمر. . له محطة يتوقف عندها ليصعد غيره والقطار يمضى ولا ينتظر أحدًا.

وذهبت قبل الموعد وانتظرت إسماعيل الحكيم يوم الأحد فى الموعد نفسه ويوم الاثنين فى الموعد نفسه. . وكان الثلاثاء هو أقصى ما أستطيع. وقابلته فى القاهرة بعد ذلك: إيه اللى حصل يا إسماعيل؟

وقال مندهشًا: إيه اللى حصل. .

ـ مش كان فيه موعد بيننا مع فلان. .

ـ أظن. .

ـ وبعدين. .

ـ ولا حاجة اعتذرت وقلت له: إن أمى ماتت. .

ـ وهيه ماتت؟

ـ أبدًا

ـ وأنت اعتذرت لمين؟

ـ لفريد الأطرش . .

ـ فريد الأطرش؟ الموعد كان معى أنا فى محطة روما يوم الأحد الساعة ١١ . .

ـ بالذمة؟!

ـ . . . .

ـ ما أنت عارف أمى ماتت!

ـ هاها . . هاها . .

ثم التقينا مصادفة فى أحد مطاعم مدينة ميونيخ .

وقال : بالحضن يا جدع . .

وكمان حضن . . واللى يحب النبى كمان حضن . .

ـ كفاية . .

ـ أبدا لازم العالم ده كله يعرف . .

ـ يعرف أيه؟

ـ يعرف أن هذا هو أسلوبنا فى الإعراب عن الشوق والصداقة . .

وجلسنا . ثم قلت له : ولا دقيقة واحدة يا إسماعيل . .

ـ ليه . .

بعدين أقول لك . .

ـ فيه حد هنا مش عاوز تشوفه؟

ـ أيوه . .

ـ من؟

ـ كل الناس . .

ـ ليه؟

ـ علشان اللى أنت عملته ده له معنى واحد عندهم . . إننا شواذ جنسيًا . .

ـ يا نهار أسود . . أتارى الراجل اللى ورايا ده قدم لى كوب البيرة بعد أن شرب منه وأنا اعتذرت . . يا نهار أسود . . نعمل أيه؟

وأشرت إلى الباب واختفينا فى الزحام!

٧

كان الأستاذ موسى صبرى دقيقًا جدًا فى الحسابات . فلم يحدث أن قدم له الجرسون فاتورة إلا جلس يقرأها بعناية شديدة ويخرج القلم ويحسبها مع أنه لن يدفع . . فقد كنا ضيوفًا على حكومة اليابان . ولكنها عادة . وبعد أن يضرب ويجمع يبدو الارتياح على وجهه ويوقع على الفاتورة .

وفى يوم كنا فى صحبة الرئيس مبارك وطال بقاؤنا فى طوكيو . وجاء يوم الرحيل وأعطونا الفواتير لكى نوقع عليها . وكلنا وقعنا دون نظر إلى ما جاء فيها . فلا داعى ما دمنا لن ندفع . . إلا موسى صبرى . .

فقد أزاح منظاره إلى الوراء فوق دماغه وأمسك قلمًا وراح يجمع . . ثم يعود فيراجع ويجمع . . ووقف سعيدًا منتصراً على أجهزة الكمبيوتر فقد اكتشف خطأ فى الجمع . الخطأ مؤكد . والخطأ هو عشرون ينا . . أى أنه مبلغ تافه جدًا . وضحكنا ولكنه أصر على أن يذهب للإدارة وذهب . . والتفوا حوله . . اثنان . . ثلاثة . . خمسة عشر . . وانحنوا حوله يتكلمون باليابانية وهو راسخ فى موقعه . لا يتحرك . .

وفجأة أعلنوا أن رئيس مجلس إدارة الشركة ورئيس الحسابات والمدير والعضو المنتدب وكبير مندوبى شركة الكمبيوتر يتوجهون له بالشكر العميق والاعتذار الأعمق . وصدر قرار بتغيير أجهزة الكمبيوتر التى تغلط فى كل فاتورة ولا أحد يعرف منذ متى هذا الخطأ . مصيبة . . كارثة كبرى .

وتزاحم الورد فى غرفة موسى صبرى . وتذاكر الدعوات إلى العشاء والغداء .

ثم دعوة رسمية من الفندق أن ينزل ضيفًا عليهم فى أى وقت ولمدة أسبوع مع تذكرة الدرجة الأولى ذهابًا وإيابًا فى أية شركة طيران وخطاب شكر وامتنان للرجل الذى أوقف نزيف الين بغير حق . . ووعد بتسجيل اسمه فى كشف كبار الزوار أصدقاء شركة الفنادق والكمبيوتر اليابانية .

ثم هدية عقد من اللؤلؤ . . وهدية كاميرا يابانية حديثة . . وهدية قمصان حريرية . . وساعة يد وساعة مكتب وساعة حائط . . وأجسلوا موسى صبرى على مقعد وسط الفندق وجاءت جميع الجميلات العاملات فى الفندق يقبلنه فى خده الأيمن والأيسر . .

ثم كانت له سيارة خاصة ذهبت به إلى المطار وجاء من يحمل حقائبه وعند الخروج إلى ركوب طائرة الرئيس انشقت الأرض عن فتاة جميلة جدًا يابانية طبعًا وفى يدها وردة ووضعت على خده قبلة طويلة . . وتظاهر بأنه سقط من النشوة فأسندته الفتاة إلى ذراعيها لكى يقبلها !

خناقة بين السادات والقذافى في قلب الكعبة!!

١

اتجه الرئيسان السادات والقذافى إلى قصر الضيافة بجدة . . وقد ودعهما مؤقتًا الأمير فواز أمير مكة . . واتجه الرئيس السادات إلى القذافى وقال له : يا معمر ما تتأخرش يا معمر . . ما تكسفناش مع الناس دول . . إنهم أناس مؤدبون ومهذبون . . وما يصحش تلطعهم هنا . .

ورد الرئيس القذافى قائلاً : أنا مش حغيب . . حاضر ومش . . مش حغيب يا ريس . .

وعاد الرئيس يقول له : يا معمر أنا بأقول لك ما يصحش . فقال الرئيس القذافى : إذا أنا أتأخرت . . إن شاء الله تضربنى بالعصا يا ريس .

وبسرعة قال السادات : أعملها يا معمر !

واتجه كل منهما إلى جناحه الخاص .

وبعد نصف الساعة نزل الرئيس السادات بملابس الإحرام . . وبعدها بنصف ساعة أخرى نزل الرئيس القذافى . وظهر الضيق على وجه الرئيس السادات . وتقدم الأمير فواز إلى الرئيسين يدعوهما ليركبا معًا سيارة واحدة إلى مكة لأداء العمرة فى الساعة الثانية صباحًا . . ومن ورائهما عدد كبير من السيارات .

وفى اليوم التالى قال لى الأمير فواز: ولا كلمة بين الرئيسين طوال الطريق، وكنت أحاول أن أقول شيئًا ولكن وجدت الصمت الرهيب عند الرجلين فابتلعت لسانى ولم أفتح فمى بكلمة . . وأما الرئيس السادات فراح يدعو أحيانا بصوت مسموع وأحيانًا فى سره . . لقد أخفى ضيقه من القذافى بالنظر من النافذة أو إلى سقف السيارة . حتى لا تلتقى عيناه بعينى القذافى . . وانتابتنى الحيرة ولم أعرف كيف تنتهى الليلة التى بدأت بما يشبه القطيعة بين الرئيسين .

وأمام باب الكعبة كان الرئيس السادات هو الذى بدأ بالكلام وكأنه أب غاضب على ابنه الصغير : انزل يا معمر . .

ونزل، وسار الاثنان جنبًا إلى جنب وبدأنا الطواف حول الكعبة . .

٢

شىء عظيم أن تجد نفسك صاعداً إلى الكعبة وكأنك صاعد إلى السماء . . فأنت لا تشعر بوزنك ولا بخطوتك وكأنك مشدود إلى فوق . . وعند مدخل الكعبة تجد دلواً من البلاستيك أخضر اللون به ماء الورد . . أما داخل الكعبة فمظلم وأنت تتجه إلى أية ناحية فأنت فى الكعبة وتستطيع أن تصلى فى أى اتجاه . . أو أنت تقف وتتعلق بالستائر السوداء بها . . كأنك فى مصعد معطر يطير بلا أجنحة إلى حيث لا تدرى ولكنك أنت أيضًا خفيف ولست فى حاجة لا إلى مصعد ولا أجنحة . ولا أحد يعرف ما الذى يجب أن تقوله فى داخل الكعبة . . ولكن تنفجر بالدعاء لأمك وأبيك ولنفسك وتطلب وتطلب . . ولا أعرف ما الذى كنت أطلبه . . واكتشفت أننى لم أقل شيئًا وإنما اتجهت بقلبى إلى قلب الكعبة . .

وفجأة سمعت الرئيس السادات يزعق فى غضب! شىء غريب عجيب! وفى داخل الكعبة؟ يا ساتر ما هذا؟ ما الذى يمكن أن يكون قد حدث فأغضب الرئيس السادات وأخرجه عن حالة الصفاء والنقاء والبهاء والرواء والشفافية فى حضرة الله . .

شىء عـجيب ومـريب . . ولا أعـرف كم مـضى من الـوقت . . ولكنى بادرت بالنزول من الكعبة فى انتظار الرئيس لأعرف منه ماذا حدث . .

وبعد لحظات وجدت الرئيس السادات قد نزل واقتربت منه :

خير يا ريس . . إيه اللى حصل؟!

وكنا متجهين من الكعبة إلى بئر زمزم . ولم يشأ الرئيس أن يقول شيئًا . لكنه قرر أن يقول فيما بعد . . ولما حاولت أن أتركه على أن ألتقى به أثناء السعى بين الصفا والمروة . .

أشار إلى أن أرافقه إلى بئر زمزم . . وكان الماء باردًا . . توضأ الرئيس وشرب ومسح على وجهه كثيرًا .

وخرجنا إلى ساحة المسجد الحرام . واقتربت أسأله : فيه إيه ياريس؟

والتفت الرئيس غاضبًا يقول : الجدع ده اللى اسمه القذافى مسك ذراعى واحنا جوه وقال لى : عاوز نعاهد ربنا ونعمل حاجة للقضية الفلسطينية . . أنا اتجننت . . حانعمل أكثر من كده إيه؟ بينما هو لم يدفع مليمًا واحدًا ولا قدم لهم سلاحًا . . وأنت فاكر الطائرات اللى كان أعطاها لنا استردها قبل حرب أكتوبر . وهو رجل بخيل جدا . . كلام وبس . . فأنا قلت له : إيه اللى بتقوله ده . . ولما تنبهت إلى أننى فى داخل الكعبة لم أكمل كلامى معه . . لكنى تضايقت جدًا . .

وفوجئنا ونحن نسعى بين الصفا والمروة . . أن الرئيس القذافى ومرافقيه قد انفصلوا عن الرئيس السادات والسكرتارية والحراس . . وكان الرئيس مرهقًا ولذلك كان لا يهرول عند أماكن الهرولة . .

بينما الرئيس القذافى كان يجرى هو ومرافقوه كأنهم فى سباق الحواجز أو اختراق الضاحية ولما انتهى السعى . . فوجئنا بالرئيس القذافى يقف عند المروة وينادى بأعلى صوته : فين المرة (المرأة) وينها المرة (المرأة) هاتوا المرة . .

ولم نكن نعرف أن السيدة حرمه موجودة معه . . وأنه يبحث عنها!

٣

وفى طريق العودة من المسجد الحرام إلى قصر الضيافة فى جدة . . كانت الساعة الرابعة صباحًا . . وكان الطريق بين مكة وجدة مظلمًا فى معظمه . . والسيارات عددها عشرون وأضواؤها الحمراء تبدو فى الظلام كأنها عيون عفاريت انشقت عنها الأرض . . وفجأة توقف الركب كله مرة واحدة . ونحن لا نعرف ماذا حدث . . ولا أحد يستطيع أن يعرف . . ولا أن يسأل أحدًا . فنحن فى ركب طويل والمسافة بيننا وبين سيارة الرئيسين والأمير بعيدة . .

ثم سافر الرئيسان السادات والقذافى إلى باكستان .

والتقيت بالأمير فواز أمير مكة وسألته : ماذا حدث يا طويل العمر؟

قال : ولا حاجة فجأة الرئيس القذافى طلب أن يشرب كوكاكولا لأنه عطشان جدًا . . ولم يكن فى السيارة كوكا . . وطبيعى وقفت وطلبت أن تجىء الكوكا من القصر . .

وحاول الرئيس السادات أن يقنعه بأن يصبر دقائق حتى نصل إلى قصر الضيافة . . ولكن الرئيس القذافى عطشان وأصر على أن يشرب الآن . .

وجاءت الكوكا وشرب وكان سعيدًا . وبعدها بربع ساعة كنا فى قصر الضيافة . وقد لاحظت أن الرئيس السادات كان متضايقًا تمامًا . . وفيه حاجة تهمك أنت . لقد سألنى الرئيس إن كان فى جدة أحد من المهمين فقلت له : أنيس منصور . . إنه يتعبد فى غار حراء . وهذا ممنوع عندنا تمامًا!

فقال الرئيس دون تردد لحظة واحدة : أحبس أنيس منصور . .

ولم يرد الأمير فواز . .

ولكن الرئيس والأمير لا يعرفان أن غار حراء مسدود تمامًا . وأننى قد صعدت إليه وكتبت تحقيقًا مصورًا عن الغار والطريق الوعر ذى الأحجار المدببة . . ونشرت هذا التحقيق فى مجلة (آخر ساعة) التى كنت رئيس تحريرها فى ذلك الوقت . .

ونشرت رحلتى ومشاعرى ومراجعاتى النفسية والفلسفية والصوفية فى كتاب فى اسمه (طلع البدر علينا). وقد أقفل السعوديون غار حراء حتى لا يتزاحم عليه الناس وينشغلوا به عن الكعبة.

والسعوديون أحسن حالا منا.. فهم لا يقدسون المكان.

فالقداسة لله فقط.. ولا يقولون (مسجد الرسول) فى المدينة لأن المساجد والسجود لله وإنما يقولون مسجد المدينة الذى دفن فيه الرسول.. حتى البيت الذى ولد فيه الرسول بمكة يشغله محل يبيع الكتب. والسعوديون يضيقون بوصف بلادهم بالأراضى المقدسة.. فليست الأرض كلها مقدسة ففيها مطاعم وفيها دورات مياه ومحطات بنزين. وإنما هناك بقع فى السعودية لها عظيم الاحترام:

المسجد الحرام ومسجد المدينة وبقية المساجد..

ولما قابلت الرئيس السادات سألته عن حكاية أنه طلب من الأمير فواز أن يسجننى فقال: جرى لك إيه يا أنيس يا أخى حبس كده وكده.. وأنت الكسبان لأنك سوف تكتب لنا حكاية من حكاياتك العجيبة.. فرصة لكى تكتب شيئًا جديدًا..

ثم سكت الرئيس وقال لى وكأنه يفاصلنى: بذمتك أنت مش زعلان أن الأمير فواز لم يسجنك ظلمًا وعدوانًا.. هاها.

ثم عاد يقول: هوه حد طايل يتحبس فى غار حراء؟! هاها.. هاها.. يا أخى أنت ملكش فى الطيب نصيب!

٤

فى يوم سافر الرئيس السادات إلى غرب أفريقيا.. وكانت الأمطار غزيرة فغرزت الطائرة فى الأرض. ولم يستطع أحد تحريكها فالمطار بسيط وليس مستعدًا

لاستقبال هذا العدد الكبير من طائرات الرؤساء الأفارقة . . ولا عندهم فنادق . . ولذلك نمنا فى إحدى البواخر . .

وجاءت طائرة أخرى وليست مزودة بجناح خاص للرئيس ومقاعد وثيرة للوزراء .

وأعطى الرئيس تعليماته أن نأخذ راحتنا فى الطائرة وألا نتحرج إذا وجدنا الرئيس نائمًا على الأرض ونحن ذاهبون وعائدون من دورة المياه . . واندهشنا ، وفوجئنا بأن الرئيس نائم على الأرض فعلا . . وكنا نمشى إلى جواره حريصين طبعًا على ألا نصطدم به وكانت الطائرة مظلمة . وكان الرئيس نائمًا بعمق كأنه طفل صغير . .

وطلع النهار واقتربت من الرئيس وقلت له : هل نمت جيدًا يا ريس؟

ـ آه الحمد لله . . أرحم من النوم فى السجن . . هاها أنت مادخلتش السجن يا أنيس . .

ـ لا والله . . لسه . .

ـ إذا كنت عاوز ندخلك . . هاها . .

وكان الرئيس يريد فعلاً أن أدخل السجن وأن أجرب الحياة الأليمة هناك . وكأننى صعبت عليه فلم أمر بهذه التجربة التى مر بها كثير من الزعماء والمفكرين والصحفيين فى كل الدنيا . .

ومرة أخرى وفى حضور الدكتورة عائشة راتب وزيرة الشئون الاجتماعية قلت للرئيس السادات : يا ريس أنت ما تقدرش تسجنى . . لأنك لا تسجن أحدا!

فقال : الله! وهو أنت مش عارف أننى أنا رد سجون . . يعنى أحط لك (طربة حشيش) فى جيبك وأدخلك السجن!

ـ طيب ليه يا ريس؟

ـ يا أخى جرب . .

ـ هل هى تجربة ضرورية؟

ـ آه . . أيوه أنا أشوفها ضرورية . . إنها التجربة الوحيدة التى تجعل للحرية

والكرامة والعزة مذاقًا خاصًا . . وهى أكبر امتحان لوطنيتك وصلابتك . . إيه رأيك؟! . .

ـ لامش عاوز . .

ـ هاها . . وهوه على كيفك يا أنيس . .

ـ الله أنت يا ريس مصمم أنك تدخلنى السجن .

ـ آه . . بس ابقى فكرنى يا أنيس!! هاها . . هاها . .

٥

وبمناسبة (طربة الحشيش) هذه فقد حدث فى طريق عودتنا بطائرة الرئيس السادات من السودان أن ظهرت حركات غير عادية . . للسكرتارية الخاصة والحراسة . . ولكن أحدًا لا يقول أى شىء . . وحاولت مثل كل الزملاء رؤساء التحرير أن نفعل شيئًا غير الكلام وغير النظر من النافذة إلى أرض مصر .

وأخذ بعضنا يعتصر النوم من المصابيح المضاءة فى الطائرة . كيف؟ إنها قدرة فريدة . . ثم ينامون ويكون لهم صوت . . إنهم على راحتهم كأنهم فى بيوتهم . . وفجأة لاحظنا العلامات المضيئة تطلب منا ربط الأحزمة . لأننا نازلون . إنها ليست القاهرة . .

وتساءلنا : أين؟ قالوا : أسوان . .

وفى طائرة الرئيس لاتجد إجابات كثيرة . وهبطت الطائرة فى مطار أسوان . ولم نجد شيئًا غير عادى فى المطار ولا كان هناك أى سبب . . ثم عرفنا السبب . .

لقد وجد الأستاذ موسى صبرى عندما فتح حقيبته قطعة حديدة مربعة . . فأمسكها فى يده مندهشًا لوجودها . . ثم أعادها إلى الحقيبة وراح يكتب . . ولكن الحراسة المرافقة للرئيس اتصلت بالحراسات الخاصة وخبراء المتفجرات . . وقبل أن نصل إلى أسوان كان عدد من رجال الأمن والمباحث والمخابرات وخبراء الحرائق قد انتظرونا فى المطار . .

وبفحص (الحديدة) التى فوجئ بها موسى صبرى وجدوها من ذلك النوع الذى يوضع على الورق حتى لا يطير وكانت هذه (الحديدة) فى قاعة المؤتمر الصحفى بالخرطوم. فوضعها موسى صبرى فى شنطته بحركة لاشعورية . .

والغريب أن موسى صبرى بعد أن فرغ من كتابة ملاحظاته نام نومًا عميقًا بينما عيون الحراسة الخاصة تكاد تخرج من محاجرها وفى قلق جنونى على الرئيس والطائرة والركاب . .

ولما عرف الأستاذ موسى صبرى سبب هبوط الطائرة المفاجئ أصيب بحالة من الرعب. ولم يستطع أن يجلس فى مقعده وظل واقفًا فى ذهول حتى هبطت طائرة الرئيس فى مطار القاهرة.

ودارت هذه المناقشة بين موسى صبرى ورجال أمن الرئيس :

ـ الله. هو ماكانش ممكن ترموا الحتة الحديدة من نافذة الطائرة؟

ـ هاها . . إذا انكسرت أية نافذة سقطت الطائرة كلها!

ـ أمال بترموا القنابل والصواريخ إزاى؟

ـ مش من النافذة . .

ـ أمال؟

ـ من تحت الطائرة وبطريقة خاصة . .

ولما علم الرئيس السادات بهذه المناقشة نادى موسى صبرى وقال له : جرى لك إيه يا موسى؟ المصيبة اللى أنت بليتنا بيها . . أنت كنت فاكرها طربة حشيش . . قلت إيه؟

ـ فى إيه ياريس؟

ـ يا أنت يا الحديدة؟

ـ تحت أمرك يا ريس!

ـ خلاص هوه موافق أنكم ترموه من الشباك!

ـ بس الشباك صغير يا ريس.

ـ يا سلام. تتقطع حتت . . يفرموك يا موسى . . هاها . .

من غير حذاء جريا وراء عبد السلام عارف!

١

فى جانب مظلم من مطار القاهرة الدولى اقترب منا أحد ضباط المخابرات الحربية المصرية وسألنا: أين الحكمدار؟

لم نفهم. فأعاد السؤال ولم نفهم مرة أخرى. فاقترب أكثر وقال: من أقدمكم؟ فلم نفهم. فقال: من أكبركم رتبة؟ قلت: أنا رئيس تحرير.

وظهرت الصرامة على وجهه وقال: مطلوب منكم أن توقعوا على هذه الورقة، والورقة تقول: إن الدولة غير مسئولة عنكم.. أى إذا سافرنا فى ستين داهية ذهابًا وإيابًا. ولا يحق لأحد من أهالينا أن يطالب الحكومة المصرية بتعويض!

أما المهمة التى هى ستون داهية ذهابًا ومثلها إيابًا فهى أن مصر تحت علم الأمم المتحدة قد أرسلت قواتها إلى الكونغو لمساندة الرئيس لومبومبا. والقوات بقيادة اللواء سعد الشاذلى. ورفضت أن أوقع لأننى مش فاهم ولأننا لم نفكر فى الداهية التى سوف نذهب إليها أو سوف تأخذنا وتعيدنا أو لا تعيدنا إلى مصر..

وفى ظلام وهباب المطار وقفت طائرات كئيبة الشكل جربانة.. وأشار لنا الطيارون الأمريكان أن ندخل.. ودخلنا الطائرة من الخلف فليس لها سلالم..

ولكن لها بطن مفتوحة وفى هذه البطن دخل الجنود المصريون بأسلحتهم وأشياء كثيرة يحملونها على أكتافهم . . ودخلت سيارة جيب . . وفى هذه السيارة جلست مع الزميل فوميل لبيب . . أما بقية الزملاء : محمد عبد الجواد وحمدى فؤاد وأحمد يوسف فلا أعرف أين . . فهم طبعًا فى نفس الداهية أو مكان متقدم منها . .

نحن فى داخل الطائرة . فوميل لبيب وأنا نجلس فى السيارة الجيب . . الطائرة اتجهت إلى الجنوب والسيارة اتجهت إلى الشمال . . وخبط ورقع وزعيق وصوت كلاب وصراصير وصواميل وعدد لا نهائى من العفاريت يحاولون تفكيك الطائرة من الداخل . . والشواكيش والمسامير كلها فى زمجرة واحدة . وقامت الطائرة وارتفعت ونحن لا نرى أى شىء لا فى داخلها ولا فى خارجها . وإنما نحن مثل أطعمة استحال هضمها فاستقرت فى أحشاء حيوان ضخم . . وحولنا الجنود المصريون . . ناموا والسلاح (صاحى) . . ثم نام السلاح وصحا الجنود المساكين وفى أحضانهم الديناميت والقنابل . . وارتفعت درجة الحرارة فى الطائرة خانقة كريهة . . وجاء أحد الجنود الأمريكان أبيض أحمر عرقان غرقان وقال : سنعود إلى القاهرة لأن جهاز التكييف قد تعطل ! !

واترزعت الطائرة فى المطار وانفتح بطنها ودخل هواء أبرد ولكنه مليان بالهباب والتراب والقرف . . القرف عندى أنا .

ومبروك مبروك . . ترددت هذه الكلمة بالإنجليزية . وفهمنا أن التكييف تم إصلاحه . وارتفع الحيوان القبيح ووصلنا حتى سماء أسيوط . . وجاء نفس الطيار الأمريكى يقول لنا : سوف نعود إلى القاهرة فجهاز التكييف البارد قد ارتبك ونخشى أن نتجمد !

إذن كان من الممكن أن نروح فى ستين داهية دون أن نبرح مصر . . ووسط الضوضاء ارتفعت الطائرة واستسلمنا للنوم على الحديد البارد للسيارة الجيب . . وبعد لا أعرف كم من الوقت مضى علينا ونحن فى جب يوسف عليه السلام هبطنا أرضًا خضراء وجوا منعشا . . إنها الخرطوم . . وأهم ما فى المطار . . وأهم من المطار عدة

أكواب من الشاى. واعتدل المزاج وأنعشنا الهواء النقى. والكروسان ومزيد من الشاى.. وارتفع هذا الطائر البشع.. فقد رأينا طائرتنا فى ضوء النهار..

ودون كلمة ركبنا الطائرة واكتشفنا أن الطائرة لها نوافذ صغيرة.. ويا ولداه العساكر المصريون لا أكلوا ولا شربوا ولا ناموا ولا ماتوا ولا هم يعرفون من أين وإلى أين.. وطبعًا لم يوقعوا على ورقة تحدد لهم خريطة الستين داهية التى هم فيها أو إليها. فالمفروض أنهم فى ستين داهية يوم التحقوا بالجيش ويوم يموتون ويوم يبعثون!

وتحتنا أرض خضراء ما لها أول ولا آخر.. خضراء جدًا.. نوع من الألوان لا نعرفها فى بلادنا. والأمطار تغسلها أولا بأول. وقالوا: انزلوا.. ونزلنا. وقالوا: اركبوا طائرة أخرى.. إنها طائرة للبشر وليست للعفاريت أو الأشباح.. أو المحكوم عليهم بالحياة التى هى أسوأ من الموت. وفى الطائرة الثانية مقاعد بالعرض. وكانوا قد بعثوا معنا بصور الرئيس عبد الناصر لتوزيعها على أهل الكونغو. وجلس إلى جوارى طبيب دنماركى وانتهزتها فرصة وحدثته عن الفيلسوف الدنماركى الوجودى كيركجور.. وأسعده ذلك.. ثم كافأنى على اهتمامى بفلاسفة بلده بأن قال لى: اسمع سوف نجد فى مطار مدينة كوكيا تفيل عددا من قبائل الكونغو عراة تمامًا.. تمامًا.. ويمكن ملاحظة أنهم مصابون بالزهرى والسيلان. وهو من النوع الذى لا علاج له. حاول ألا تصافح أحدًا!

ثم اقترب منى ليقول: تظاهر بأنك مقطوع الذراعين.. البس الجاكتة بالمقلوب!

فقلت له: ليس عندى جاكتة!

قال: ادخل ذراعيك تحت القميص.. المهم ألا تصافح أحدًا!

وفعلا كما قال وجدتهم: واقفين عراة حفاة تمامًا.. وأحنيت رأسى ولم يخرج من تحت القميص لا ذراع ولا يد..

وجاء من يسلمنا طعامنا: علب من الصفيح فيها فاصوليا وفاكهة. وقالوا لنا أن ننام الليلة فى أى مكان وأن نسافر غدًا فى أية طائرة.

أما الأى مكان فهو غرفة ملحقة بإحدى الكنائس. ونحن محظوظون جداً لوجود هذه الغرفة المضاءة ليلا ونهاراً. ولم نفهم حدود الحظ والسعادة التى نحن فيها.. نحن وغيرنا من حشرات المنطقة الاستوائية وكلها تزحف على الجدران من صراصير وبعوض وبراغيث.. وأشياء كثيرة تدور وتلف حول المصابيح. ويبدو أن هذه الحشرات جاءت فى النور.. وكلما أرهقها اللف والدوران حول المصابيح هبطت على أجسامنا: تلسع وتكوى وتمتص وتشوى. وكلما تقلبنا من الألم فهمت الحشرات خطأ أننا نعرض عليها أماكن خفية لم تتمكن من لسعها وحرقها!

وكان من نصيبى أن أنام على الأرض وأن يقفز الزملاء على السرير الوحيد.. ولم يكن النوم على الأرض مريحًا. لا الأرض ولا الحشرات ولا الضوء المسلط على العيون. وقد أغاظنى أن أحد الزملاء نام بعمق ولم يكتف بهذا بل كان له صوت يوقظ أى واحد تسول له نفسه أن ينام. ومن أعماق اللسع والكى والحريق والضيق تولدت عندى فكرة فسألت الزملاء إن كان أحد أدرك أننا أكلنا لحم قرد فى الغداء عندما دعانا مندوب الأمم المتحدة. ثم أعدت السؤال وجلست ورحت أهرش كالقرد فى جنبى وأطلق أصواتًا وأقفز فوق الأرض. لقد فزعوا من منظرى وظنوا أنهم سوف يفعلون مثلى. ورحت أهرش وأصرخ وأقفز.. وهربوا فأغلقت الباب وقلعت الجزمة وضربت بها المصابيح وأظلمت الغرفة تمامًا.. ومن شدة التعب نمت. ولما صحوت وجدت جسمى منقوشًا بالنار وأعواد الكبريت والإبر. وقال لى أحد رجال الأمم المتحدة. عندك حل من اثنين.. إما أن تبقى كما أنت حتى تعود إلى مصر.. وإما أن تلقى بنفسك فى نهر الكونغو وبذلك تنتقل من بطن طائرة فظيعة إلى بطن أحد التماسيح..

وهذه ـ إذن ـ هى الستون داهية التى لم تخطر على بال المخابرات الحربية المصرية!

وأمام الطائرة قال قائدها: آسفون لما حدث؟

فسألت: وماذا حدث؟ قال: ألا تعرف أن قبائل ماو ماو أكلت اثنين من القوات المصرية؟!

٢

رافقت الدكتور عبد العزيز حجازى رئيس وزراء مصر الأسبق فى رحلة إلى الخليج . . وكان من المفروض أن أكون وزيراً للثقافة فى وزارته، ولكنى اعتذرت تليفونيًا من السعودية واعتذر نيابة عنى آخرون، ولما سألنى الرئيس السادات بعد ذلك قلت له: ما انفعش يا ريس . . أنا بالكتير أقرأ وأكتب . وبس!

وقالت له زوجتى إننى لم أستشرها!

وتنقلت مع الدكتور عبد العزيز حجازى فى زيارته . ولما زار أحد المستشفيات ووجد الأطباء مصريين سألهم: مش عاوزين حاجة يا اولاد؟

فضحكوا قائلين: عاوزين؟

ـ أيه؟ تحت أمركم . .

ـ عيانين يا ريس!

فهم يظلون جالسين فى التكييف إلى أن تجىء البشرى بظهور الإيرانيين الغرقى الهاربين من بلادهم . . جاءوا عائمين أو ألقت بهم إحدى السفن بالقرب من شواطئ الخليج . فإذا جاء هذا الهارب سليما كانت طاقة القدر قد انفتحت لهم!

وتركت زيارات الدكتور عبد العزيز حجازى . . ووجدت أمير البلاد جالسًا تحت صورة كبيرة له . واستأذنت وجلست، وقد عرفنى الرجل وقرأ لى . وكان لطيفًا . فقلت له: يا طويل العمر إن شاء الله سموك سوف تدخل النار!!

فانزعج: يا أخى ليه؟

قلت له: مش معقول يا طويل العمر تعيش فى الجنة فى الدنيا ثم مرة ثانية تدخل الجنة فى الآخرة . . فالنار مثواك يا سمو الأمير . . إن شاء الله!

واعتدل الرجل مندهشًا ضاحكًا وقال: يا أخى ربنا رحمته واسعة . قلت: لابد أن تدخل النار إن شاء الله . ولذلك اقترح على سموك أن تجعل دخولك للنار بجدارة تستحقها . . مثلا بدلا من هذا الشبشب الذى فى قدميك اطلب من المصانع

اليابانية أن تجعل لك فى الشبشب راديو تحركه بأصابع قدميك . . أو تضع فيه تليفونًا . . وأن يجعلوا جلبابك مكيف الهواء والضغط كملابس رواد الفضاء وبدلا من المسواك الذى تضعه فى فمك وتسلك به أسنانك أطلب من السيرك القومى الأمريكى فى سان فرانسيسكو أن يبعثوا لك بعدد من عصافير الجنة المدربة فتأكل اللحم المحشور بين أسنانك . . تمامًا كما تفعل الطيور مع التماسيح!

والرجل راح يضحك ويحاول أن يتمالك نفسه أو يستوقفنى حتى لا يموت من الضحك!

ولم يعرف كيف يروى حرفيًا كل ما قلت له فطلب منى أن أروى كل ذلك للدكتور عبد العزيز حجازى .

وفى الليل رجانى قائد الطائرة واسمه مجدى عبد السيد أن أتناول عشائى معهم . . وسيبك من الأمير والوزير لأن طاقم الطائرة سوف يفرفشوننى : ضحكًا ورقصًا وغناء وفاكهة وكافيار .

وفى الصباح اتجهنا إلى القاهرة . وقبل هبوطنا جاءت إحدى المضيفات ظريفة حلوة رشيقة الرقص والغناء وقالت لى : كابتن مجدى عاوز سيادتك ضرورى لكى تتفرج على الطائرة وهى تهبط ناعمة فى مطار القاهرة . .

وشكرت كابتن مجدى على الليلة الجميلة اللذيذة . . التى تمزقت فيها جوانبنا من الضحك . .

وقاطعنى قائلا : بل إننا جميعًا يجب أن نشكرك . . وأنا بالنيابة عن طاقم الطائرة أشكرك على أنك سهرت معنا وأمتعتنا أنت أيضًا وحكاياتك التى لا أول لها ولا آخر . . وفى نفس الوقت يجب أن نعتذر لك . . وأرجو أن تقبل هذه المداعبة . .

فلم أفهم . ولكنه قال لى : أنت طبعًا عارف أنك ضيف على الدولة أما نحن فلا . .

فلم أفهم . . ومضى يقول ضاحكًا جدًا : عارف سيادتك كل الأكل والمشروبات والجوز واللوز والفستق والشمبانيا . . كلها كتبناها على غرفة سيادتك ! !

يا أولاد الإيه ! !

٣

كنا نتلقى التعليمات ـ كلنا صغارا وكبارا ـ من السيد عبد المجيد فريد . . فقد كان رجل الاتصال الوحيد بين مصر وثورة العراق . . عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف . ومن نصائح عبد المجيد فريد التى لايمل تكرارها : الكلام مع الناس دول بذوق واحترام شديد . ولابد من مصافحتهم . . ودق الباب قبل الدخول وإغلاقه برفق عند الخروج مما جعلنا نشعر كأننا طلبة فى كلية السياحة والفنادق . . وأن مستقبلنا الزاهر أن نكون سفرجية أو طهاة فى القصر الجمهورى فى بغداد!

وفى يوم عرفت أن عبد السلام عارف مسافر إلى الموصل وكركوك وسألت عبد المجيد فريد إن كان من الممكن السفر معه . .

فقال : طبعًا . . أهلاً وسهلا .

وقال العراقيون : والله زين . . اكوا فرصة سعيدة نتكلم . .

وذهبنا إلى المطار ووجدتنى أمام طائرة كأنها أوزة راقدة على بطنها . . إنها الطائرة التى سوف يركبها الزعيم ـ أو نصف الزعيم ـ عبد السلام عارف . . والطائرة تتسع لأربعة فقط من الركاب . . وكنت آخر الراكبين والمكان ضيق جدًا . . والطائرة تعلو وتهبط وعبد السلام عارف لا يتوقف عن الكلام وأنا لا أتوقف عن عدم الفهم . . فهو يقول وأنا لا أسمع . . ولابد أنه أحس ـ ولا أعرف كيف ـ أننى أتابع كل كلمة وكل همسة وكل إشارة ولذلك ظل مصرا على أن يقول ويقول . . فأنا المصرى الوحيد والباقون حرس شداد غلاظ الأجسام والأصوات والحواجب والشوارب . .

وهبطت الطائرة بعد ساعة . . وكان لهبوطها صوت مكتوم مؤلم . . وبسرعة خرجوا من الطائرة ولم أعرف كيف . فجاء من حملنى وانتزعنى . . ولم أفلح فى أن استخرج جزمتى التى كنت قد خلعتها لضيق المكان . وحاولت أن أقول للمارد الذى شدنى ورفعنى وأسقطنى إننى بلا حذاء فأشار بما معناه :

بعدين نشوف لك جزمة؟!

ومشيت وراء الزعيم حافيًا ولكن أحدا لم يرنى . . وإنما كل العيون فوق . . رحت أعرج على أرض مليئة بالطوب والزلط . والجماهير فى انتظار عبد السلام عارف . . والجماهير العراقية لاتهتف نثرًا وإنما شعرا . . وأكثرهم من الشعراء وكلهم يرتجلون . وواضح ذلك . . فهم عمال ولكن عندهم ذوق فنى . فالشعر المرتجل موزون ولكن فيه أخطاء نحوية صارخة . . قصيدة وراء عشرين قصيدة . . مائة . . ساعة بعد ساعة . . وعشرات من فناجين الشاى ثم تصايح الحرس : العودة فورًا . .

وعدنا إلى الطائرة . . ولم أجد حذائى! ولم أتكلم . . وهبطت الطائرة فى بغداد .

ووقف عبد السلام عارف يشكرنا ويصافحنا . . وفجأة التفت إلى أحد الضباط . . وقال له . . ولا أعرف ماذا قال . . وإذا بالضابط يخلع حذاءه ويضع قدمى فيه . . والحذاء أصغر . . وكما حشرت نفسى فى الطائرة حشرت قدمى فى الجزمة وسار ورائى حافيًا . . إنه يوم الحشر . . وأركبنى إحدى السيارات . . ونسيت أن أشكره على الآلام الشديدة فى قدمى وفى ظهرى وفى دماغى . .

ولما حكيت لعبد المجيد فريد كانت ابتسامة عريضة ولم ينس أن يقول لى : طبعًا ولا كلمة عن هذا فى مقالاتك!!

أما الآن فلا أجد مانعًا فى أن أحكى ما قد حدث من خمسين عامًا!

سؤال: أنت تعلمهم الشيوعية والإلحاد؟!
جواب: نعم.. ولكن..

١

يوم ذهبت إلى كلية الآداب لأول مرة، لألقى أول محاضرة، لم يكن هو اليوم الأول. . وإنما سبقته أيام طويلة كثيرة استعدادا لهذا اليوم. . فقد كنت أعمل محرراً فى (آخر ساعة) و(الجيل) و(الأخبار). . ولأننى كنت الأول فى ليسانس الفلسفة مع مرتبة الشرف الأولى، فقد طلب منى أستاذى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن أقوم بتدريس الفلسفة فى كلية الآداب جامعة عين شمس، وكان هو رئيس القسم، فوافقت، وأدخلنى فى الموضوع مباشرة: أنت سوف تدرس لطلبة الفلسفة مادة (تاريخ الحضارة الغربية).

ويمكن الاعتماد على عدد من المراجع الفرنسية والإنجليزية والإيطالية. . ولم يشأ أن يذكر أكثر من ذلك. . أما كيف أبدأ؟! وما هى مادة هذه الحضارة وكم محاضرة فى الأسبوع؟! وهل هى المادة الوحيدة التى سوف أدرسها للطلبة؟!. . ووعدنى بتدريس موضوعات أخرى حديثة فيما بعد. . أما هذه الموضوعات الحديثة والتى أتممناها فهى (الفلسفة الوجودية). انتهت كل توجيهات الدكتور عبد الرحمن بدوى.

كأنه ألقانى فى البحر لكى أتعلم السباحة فى مواجهة الموج والخوف من الموت،

وأن يكون هذا أمام مئات الطلبة الذين لا أعرفهم ولا يعرفوننى، ولكن لابد أن أسبح مع وضد التيار تيارالدهشة والأسئلة الكثيرة من الطلبة، وأن أملأ هدومى وأن أقف وأرد وأصد وأسدد نظرات وإجابات دون خوف، فالفلسفة هى البحر الذى ولدت فيه وسبحت وتفوقت فلا شىء يخيفنى. . فمن المؤكد أننى أعرف أغزر وأكثر وأننى أقدر على التعبير أوضح وأجمل، فلا خوف. وإنما مخاوف المرة الأولى، وبعد ذلك كل شىء يتكرر، وأتذكر فيلم (ترابيز) بطولة الممثلة الإيطالية جينا لولو بريجيدا. . عندما صعدت إلى أعلى السيرك ونظرت من فوق فى خوف فقال لها زميلها: هذه المرة فقط وبعدها لا خوف والآن هذه فرصتك لأن تكونى بطلة أو لا تكونى.

وكانت هذه فرصتى. . اللحظة الأولى فى المحاضرة الأولى فى اليوم الأول وفى السنة الأولى قسم الفلسفة.

وقبل ذلك كنت قد اشتريت سيارة (بيبى فورد) نصف عمر وكان ثمنها سنة ١٩٥٥ مائة وعشرين جنيهًا. سوداء نحيفة رشيقة، وتناوب على تعليمى: الزميل عدلى جلال والصديق عدلى يواقيم صاحب سينما الجزيرة، وكان يتدرب على ركوبها فى خوف الزميلان كمال الملاخ وفتحى أبو الفضل، وكانا يجدان فى ذلك تضحية كبيرة، ولولا صداقتنا ما ارتكبا هذه الحماقة!

وكان التدريب على القيادة فى شارع الجبلاية بالزمالك. . أو كما كتبت عنه كثيراً وسميته (شارع التنهدات) الذى يبدأ من بيت أم كلثوم مرورًا ببيت فاتن حمامة ولبنى عبد العزيز وعلى أمين وانتهاء بكوبرى الجلاء (بديعة سابقًا). . وقد تشجعت وانطلقت بالسيارة وقد امتلأت بالأصدقاء فى شارع الهرم ذهابًا وإيابًا ثم تهورت فانطلقت وحدى إلى الطريق الصحراوى. . وقرر أساتذتى فى قيادة السيارة أن حالتى لا بأس بها وأننى قادر على أن أقود سيارتى وحدى وأذهب بها إلى كلية الآداب بشارع شبرا. . وفى أول يوم ذهبت وحدى، وفوجئت بأن الشارع ملىء بالناس والعربات والسيارات وإنها لا تلتزم الجانب الصحيح وبعضها يقف فجأة، وكان أساتذتى فى قيادة السيارة قد طلبوا منى أن أعلق هذه النصيحة فى إذنى:

يجب أن تنظر إلى المشاة على أنهم حيوانات. . فأنت لا تعرف ماذا يدور فى رءوسهم فقد ينحرفون شمالا فجأة أو يمينًا لماذا؟ عندهم أسباب لا أعرفها. . ولذلك يجب الإحتراس. . فالذى أمامك قد يقف والذى على يسارك قد يكسر عليك. . وفى هذه الدوخة يجب ألا تنظر إلى المرآة حتى لا يزداد اضطرابك. وإنما أجلس أمام الدركسيون كأنك إنسان آلى يقود سيارة فى قلب حديقة الحيوانات. . والحيوانات تمشى على كيفها. . وفى نفس الوقت يجب أن تمشى وفقًا للقواعد والأصول لأنك لست حيوانًا.

وعندما وجدتنى وحدى فى شارع شبرا تذكرت هذه النصائح، ولكن لم أعرف معناها أو كيف أستفيد منها، ثم إننى لم أكن واعيًا تمامًا لما أفعله بيدى ورجلى. . وأحيانًا كنت أشعر بأن السيارة تمشى وحدها، فلست قائدها وإنما أحد ركابها مع أنه لم يكن معى أحد. هل كنت صاحيا داريا تماما لما يجرى حولى لا أدعى ذلك ولكن فجأة وجدت أمامى أتوبيسًا. . من أين جاء كيف انشقت عنه الأرض كيف أنه بهذا الحجم. . وخيل لى أنه ليس أتوبيسًا وإنما هو الشارع قد وقف على حيله وظهرت له عجلات وسبقنى.

ونظرت على يسارى واكتشفت أننى أمام كلية الآداب. . هى على اليسار وأنا على اليمين. . وبسرعة انحرفت بالسيارة متجهًا إلى الكلية عندما اصطدمت بالأتوبيس فتحطمت سيارتى، وعندما حاولت أن أتجه مباشرة إلى الجانب الأيسر من الشارع كانت سيارات كثيرة قد سدت الطريق أمامى، وبسرعة وجدت اثنين قد ركبا على رفرف السيارة يمينًا وشمالا وراحا يصرخان ويفسحان لى الطريق لكى أدخل الكلية وسط الطلبة، أول يوم ووقفت وخرجت من السيارة غارقا فى عرقى وكسوفى. . من هما؟ إنهما سائق الأتوبيس والكمسارى. . ما مطالبهما؟ أن أدفع لإصلاح الخدوش التى أصابت الأتوبيس وأطارت البوية. . هل كنت فى حالة إغماء هل فى ذهول. . أخرجت ما معى من فلوس، وامتدت يد وأخذت كفايتها. . وشكرا.

لقد بالغت فى مخاوفى. . فإن أحدا من الطلبة والطالبات قد أعارنى اهتمامًا.

فهم رأونى طالبًا تهشمت سيارته وانصرفوا عنى إلى كلامهم والضحك والهيصة التى نعرفها فى اليوم الأول للدراسة .

ولم أذهب إلى غرفة المدرسين . . وإنما رحت أبحث عن قاعة المحاضرات ، دون أن آخذ نفسًا . . أو أشرب كوب ماء ، وعرفت القاعة . . ووجدتها قد امتلأت بالطلبة ، فدخلت ووقفت إلى جوار السبورة ليعرف الطلبة أننى المدرس الذى لايمكن التفرقة بينه وبين الطلبة فى السن والحجم وإن كنت أقل مرحًا . . ورغم أننى كنت صحفيًا مشهوراً فى ذلك الوقت لم يلتفت الطلبة ناحيتى فرحت أدق السبورة بيدى ، واصطنع الجدية ونفاد الصبر ، وبدأ بعض الطلبة يتنبهون إلى وجودى ، وجلسوا متكاسلين ، وبعضهم مضى يتكلم كأننى لست موجوداً أو أن وجودى ليس دليلا كافيًا على أهميتى . . أما هذه الأهمية فقد بادرت أنا بتأكيدها عندما رحت أضع الكتب التى أحضرتها معى بعضها فوق بعض .

مع أن هذه الكتب لا ضرورة لها . . ولكنها حيلة لجأت إليها لأبدو مهما ومختلفًا ، وعلى الرغم من أن هذه الكتب كانت على الترابيزة فقد أحسست كأنها تحت قدمى وأننى وقفت فوقها لكى أبدو أطول . أو أنها أطواق نجاة فى بحر العرق واللامبالاة . . أو أنها كتل من الصلب الواقى من نظرات كالرصاص .

ولما تأكدت من أن الجميع قد اتخذوا أماكنهم قلت لهم : إن موضوعنا هذا العام هو تاريخ الحضارة الغربية . والموضوع طويل جداً . وشاق . وهو يحتاج إلى يقظة وإلى حضور . وهى قضية جادة وخطيرة . ولكن لا خوف فإنى قادر على أن أجعلها أسهل وأبسط تمامًا كما أكتب فى الصحف . أى أننى صحفى أكتب وظننت أنهم يقرءون لى . وكلها صفات أو انتحال صفات تدل على مدى اضطرابى وإحساسى بأنى صغير . وأننى فى حاجة إلى أوراق اعتماد وشهادات تجعلنى مهما وكبيرا أمام هؤلاء الطلبة فى أول يوم فى أول محاضرة .

أما كيف انتهت المحاضرة فإننى لا أعرف . هل كنت على وعى بما حولى وبما قالوا بعد خروجى . أو ما رأيته وسمعته من الطالبات والطلبة لا أدرى ولكن حملت كتبى الأربعة بالفرنسية والإنجليزية واللاتينية والألمانية . . وكلها لم

ـ أبدا . .

ـ وبعدين ؟

ـ كلك نظر . .

ـ لابد من الامتحان فى شىء . . تحبوا تمتحنوا فى أيه؟

ـ أى حاجة !

قال محمد عوض : أى حاجة سيادتك تختارها .

وقالت أمانى ناشد : لم أذاكر . .

واقترحت عليهما أن يقرأ كل منهما فصلا فى كتاب على أن يعودا بعد ساعة ، وبعد ساعة عاد الاثنان :

ـ هه ذاكرتم ؟

قالا : يعنى . .

ـ إذن اجلسا . .

ولم تكن عندهما فكرة عن أى شىء فلم أجد بدا من إنهاء الامتحان بنجاحهما !

أما الطالب الثالث فله حكاية . هذا الطالب تربطنى به قرابة وهو خال الزميلة نجوى السيد . هذا الطالب أكبر منى سنًا وهو الذى كان يعلمنى وأنا صغير : زرع . . درس . . كتب . . وقد فوجئت به طالبًا فى قسم الفلسفة وموظفًا بالنيابة . . سألته : مذاكر ؟

قال : أبدا .

ـ إذن . اقرأ فصلا فى هذا الكتاب وتعال بعد ساعة !

ونجح بنفس الطريقة !

أما الضابط . فلم أره من قبل وقد كان أحد أبطال الشيش فى القوات المسلحة انتظرت وفجأة وقفت سيارة جيب وقفز منها اثنان من الجنود . ونزل الضابط الكبير أحمر أنيقًا وعلى صدره علامات وعلى كتفيه أيضًا وأعجبنى سلوكى أنا ، فعندما جاء هذا الضابط حيانى ولكنى لم أنهض لتحيته ، فهو طالب وأنا أستاذه وكنت

وأمام إحدى الورش وقفت. ونزلت الطالبة وأغلقت الباب وقالت لى: مع السلامة يا دكتور! شكرا على التوصيلة الحلوة!!

واعتدت بعد ذلك على شقاوة الطالبات والطلبة!

ولم أتذكر ما حدث فى أول يوم فى أول محاضرة إلا هذه الأيام!

٢

كان من تلامذتى فى قسم الفلسفة الزملاء: مها عبد الفتاح وعبد الملك خليل وعادل البلك وعائشة مصطفى وعبد الوهاب مرسى وكثير من أساتذة الفلسفة الحاليين.. وكان من بينهم الفنان محمد عوض وزوجته ونجوم التليفزيون أمانى ناشد وكاميليا الشنوانى وكان فى السنة الأولى فى قسم الاجتماع الزميلان: أنور عبد الملك وفيليب جلاب. وفى أول امتحان شفوى كان لابد أن أجلس إلى جوار الدكتور عبد الرحمن بدوى وامتحن الطلبة وكان الوضع هكذا إذا دخل طالب ليجلس أمام الدكتور بدوى فهذا الطالب محكوم عليه بالموت فالأسئلة صعبة والدكتور بدوى شاق ومخيف فإذا جلس الطالب أمامى فلا خوف من الأسئلة ولا خوف منى. فلا أكاد أفرغ من امتحان طالب حتى يتزاحم على مقعده كثيرون، أما إذا خرج طالب من تحت يدى الدكتور بدوى هرب الباقون مما كان يجعله يخرج وينادى الطلبة وياويله وسواد ليله كل من يجلس ليسأله الدكتور بدوى وانتهى الامتحان بنجاح كل الذين سألتهم ورسوب كل الذين عصرهم الدكتور بدوى!

ولم يبق إلا أربعة طلبة. قال لى الدكتور بدوى امتحنهم أنت. وهناك طالب ضابط اسمه (....) سوف يجىء متأخراً، امتحنه هنا أو خذه إلى دار الكتب وامتحنه هناك..

أما الطالبان الأولان فهما: محمد عوض الفنان الكوميدى وأمانى ناشد أحد الوجوه والأصوات الجميلة فى التليفزيون وقد تشجع الاثنان واقتربا منى.. سألتهما: مذاكرين؟

ـ أبدا . .

ـ وبعدين؟

ـ كلك نظر . .

ـ لابد من الامتحان فى شىء . . تحبوا تمتحنوا فى أيه؟

ـ أى حاجة!

قال محمد عوض : أى حاجة سيادتك تختارها .

وقالت أمانى ناشد : لم أذاكر . .

واقترحت عليهما أن يقرأ كل منهما فصلا فى كتاب على أن يعودا بعد ساعة، وبعد ساعة عاد الاثنان :

ـ هه ذاكرتم؟

قالا : يعنى . .

ـ إذن اجلسا . .

ولم تكن عندهما فكرة عن أى شىء فلم أجد بدا من إنهاء الامتحان بنجاحهما!

أما الطالب الثالث فله حكاية . هذا الطالب تربطنى به قرابة وهو خال الزميلة نجوى السيد . هذا الطالب أكبر منى سنًا وهو الذى كان يعلمنى وأنا صغير : زرع . . درس . . كتب . . وقد فوجئت به طالبًا فى قسم الفلسفة وموظفًا بالنيابة . . سألته : مذاكر؟

قال : أبدا .

ـ إذن . اقرأ فصلا فى هذا الكتاب وتعال بعد ساعة!

ونجح بنفس الطريقة!

أما الضابط . فلم أره من قبل وقد كان أحد أبطال الشيش فى القوات المسلحة انتظرت وفجأة وقفت سيارة جيب وقفز منها اثنان من الجنود . ونزل الضابط الكبير أحمر أنيقًا وعلى صدره علامات وعلى كتفيه أيضًا وأعجبنى سلوكى أنا، فعندما جاء هذا الضابط حيانى ولكنى لم أنهض لتحيته، فهو طالب وأنا أستاذه وكانت

مفاجأة له . ولكنه العلم هو الذى أوقفنى فوق وأنزله تحت ليستأذننى فى أن يجلس وأسعدنى أننى أذنت له .

وسألته : مذاكر؟

ـ مش قوى . .

ـ إلى أى حد؟

ـ سيادتك سوف ترى . .

ـ اختر موضوعًا امتحنك فيه!

ـ مع الأسف لم يتسع وقتى لشىء . .

ـ إذن نذهب إلى دار الكتب كما أمر الدكتور بدوى وهناك امتحنك .

وذهبنا فى سيارته إلى دار الكتب ـ وكان الناس يقفون له ويضربون السلام وكان يقدمنى عليه وأمامه بما يدل على أننى أنا الأهم . وفى دار الكتب قلت له : اختر لك أى مرجع فلسفى ، واقرأ أى فصل . وسوف أعود إليك بعد ساعة .

ووجدتها فرصة أن أستعير كتابا واقرأ أنا أيضًا ، وجلست واستغرقت فى القراءة ولم أشعر أنه قد مضت ساعتان وأنه لم يتبق إلا دقائق وبعدها تغلق دار الكتب أبوابها .

وجلس الضابط الكبير يبلع ريقه . ويمسح عرقًا على جبينه .

وسألته : جاهز؟

ـ نعم يا دكتور .

ـ ماذا قرأت؟

قال : كتابك عن (الوجودية) . .

وشعرت بالحرج وبالسعادة أيضا . ولكن الوجودية ليست مقررة عليه . . ولكن عندما أدركت أن الدكتور بدوى كان حريصًا على امتحانه شكليًا . . أى على أن ينجح والسلام ، رحت أسأله . فوجدته قد عرف الكثير . .

وسألته: هل قرأت عن الوجودية قبل ذلك؟

ـ أبدا. .

ـ إذن كيف؟

ـ سهولة العبارة ووضوح الفكرة. .

إذن كان لابد أن ينجح لو أن الوجودية هى موضوع الامتحان.

. . وأن ينجح لأن المفروض كذلك. ونجح!

٣

وفى يوم استدعانى مكتب مكافحة الشيوعية. شىء عجيب. ذهبت ولم أكن مقدراً تماماً لخطورة هذا الاستدعاء. وجلست وحدى. وانهالت فوق دماغى أفكار كالغربان السوداء. . يا خبر أسود. . صحيح أننى أدرس المذهب الشيوعى للطلبة. . والفرق بين الشيوعية والماركسية العلمية والاشتراكية. . والبيان الشيوعى والتفسير الديالكتيلى للتاريخ. . إذن هم استدعونى لهذا السبب. . وتذكرت وأنا جالس وحدى أن أحد تلاميذى قد طلب منى ـ ولو فيها رذالة ـ أن أوصله إلى محطة مصر. . وسألته عن الرذالة فى هذه التوصيلة فقال: معى منشورات شيوعية سوف أسافر بها إلى طنطا.

فقلت: لا مانع. .

طبعًا. . غلطة!! ولم أعرف أنهم أمسكوا اثنين من الطلبة ومعهم كراريس المحاضرات ـ محاضراتى ـ وفيها: البيان الشيوعى. . مبادئ الماركسية. . كيف تثير الشعوب. . كيف تأتى لهم بالثورة وكيف تدفعهم إلى الثورة. . وعرفت فيما بعد أن الطلبة قالوا: إنها ليست منشورات شيوعية. . وإنما هى محاضرات. . وإننى هذا المحاضر.

ولذلك استدعونى. . وجاء واحد لطيف ـ وكل ضباط المباحث ومكافحة

المخدرات والشيوعية من ألطف الناس ـ إنهم فى نعومة الحرير وأمواس الحلاقة والسيوف والسموم أيضًا . . وجلس معى كأنه متهم مثلى . . وقال لى : إيه حكاية الشيوعية؟

ـ مالها؟

ـ سمعت أنك بتدرسها للطلبة فى الجامعة . .

ـ نعم . . إنها مقررة على الطلبة ضمن «نظريات الحضارة الغربية» فى القرن التاسع عشر . . ولابد أنهم يدرسونها فى كليات التجارة والحقوق . . فالطلبة يجب أن يعرفوا .

ـ دعاية؟

ـ ليست دعاية . . ولكن أنا أعرضها وأعترض عليها . . وألقى الضوء عليها وأمامها ووراءها . . فالطالب يجب أن يعرف، وأن يفهم . . وألا يخاف من أية فلسفة فى السياسة أو الدين أو الاقتصاد . .

فى بعض الأحيان أناقش قضية دينية حساسة . . مثل نظريات الملحدين الذين يهاجمون الأديان . . كل الأديان . .

ـ إيه لازمة ده كله؟

ـ إنه علم . . وطالب الفلسفة يجب أن يتدرب على التفكير والمناقشة والاعتراض دون خوف .

ـ يعنى أنت بتدرس لهم الإلحاد . .

ـ نعم . .

ـ كيف؟

ـ أصحاب النظريات الإلحادية فى تاريخ كل الأديان لهم نظرات ونظريات تستحق الدراسة وعظيم الاهتمام تمهيدًا لرفضها والرد عليها وتفنيدها . . ففى كليات الطب مثلا يدرسون الزهرى والسيلان ولا يرون فى ذلك قلة أدب . . لابد

أن يدرسوا كل الأمراض لكى يعالجوها . ومن المستحيل أن يتخرج الطالب فى كلية الطب ولا يدرس كل ما يصيب الجسم الإنسانى .

وخرج الرجل اللطيف ووجدتنى مرة أخرى وحدى . . وندمت على أننى تسرعت فى الحديث إليه . . فأنا لا أعرف من هو . ثم جاء واحد جاد صارم ووراءه واحد معه دفتر . . إذن هذا هو وكيل النيابة أو أحد ضباط مكافحة الشيوعية . . وقلت كثيراً وطويلا . . وانتهى كلامى بأن هذا مقرر على الطلبة . . وأن الذى قرره أستاذى الدكتور عبد الرحمن بدوى . . ولابد أنهم سألوه . . ورغم أننى قابلت الدكتور بدوى كثيراً فلم يخطر ببالى أن أسأله . . ونسيت .

ولم أنس ما قاله لى المحقق فى النهاية : يعنى أنت كده بمنتهى الوضوح بتعلم الطلبة الشيوعية والإلحاد . . على عينك يا تاجر . . وبموافقة الجامعة وعلمها . . يا نهار أسود على البلد واللى حاصل فيه!

طيب بالذمة أقول له إيه بعد الذى شرحت وأطلت وكررت حتى زهقت ثلاث ساعات . . وأمام هذا الطوفان من علامات الاستفهام والتعجب قلت : نعم!! اسألوا الدكتور بدوى!!

طعمية بالسمن البلدى عند السفيرة مشيرة خطاب!

لم أجد (الطعمية) فى أى كتاب من كتب التاريخ. ولذلك لا أعرف أين ظهرت.. فكتاب (وصف مصر) الذى كتبه شباب الحملة الفرنسية والذى أحصى كل شىء فى مصر.. فى معابدها وبيوتها وأرضها وناسها.. إلا الطعمية.. وفى كتاب (سلوك وعادات المصريين المحدثين) للمستشرق إدوارد لين لم أجد الطعمية. سألت صديقى الدكتور زاهى حواس قال لى إن الفول عند الفراعنة اسمه (بيسى) بالباء الثقيلة. وكلمتا: (بيسى ايرى) يعنى بيسارة!

وقد غسل الفراعنة أيديهم من دمنا. فهم قد حرموا أكل الفول ورأوه طعامًا شريرًا ـ كما قال لنا هيرودوت ـ لأنه يجعل الإنسان بليدًا ويوقف تفكيره. ولم نأخذ بهذه الفكرة. بل إن بعض المفكرين الشيوعيين رأوا أن الفول هو المسئول عن الخمول والخنوع والرضا بما نحن فيه.. ولو ربنا أراحنا من هذا الفول لكان حالنا أحسن ولكننا لم نحترم رأى أجدادنا وبعد نظرهم.. بل إن بعض الأطباء يخافون من الفول المدمس على الأطفال فقد يصيبهم بسرطان الدم!

وأنا متغاظ جدًا لأننى لا أجد الطعمية أو الفلافل فى أى كتاب. وإنما أجدها فى أماكن مختلفة من العالم. وقد حاولت أن أعرف من صديقى الأنبا بسنتى إن كانت الطعمية صناعة قبطية. ولكن الأنبا بسنتى رجل نشيط ومشغول جدًا. وكلما

سألت عنه ترك لى أرقامًا سوف يبقى فيها نصف ساعة أو خمس دقائق. ولم أستطع ملاحقته. ولذلك سوف أمضى فى مطاردته حتى يستقر فى أى مكان فى مصر أوخارجها . .

. . أخيراً وجدت الأنبا بسنتى فقال: الفلافل كلمة فرعونية وقبطية ومعناها: كثير الفول . .

١

فى آخر الدنيا وعند القطب الشمالى ذهبت لزيارة شاعر روسى خارج مدينة ليننجراد وكانت درجة الحرارة ٣٠ تحت الصفر. والجو غريب عجيب . . أبيض فى أبيض. ولا أعرف كيف يهتدى السائق ويتسلل بين الأشجار ويمضى كأنه سهم. ولكن لا أعرف كم من الوقت مضى حتى وقفنا أمام داتشا (فيللا) الشاعر الروسى إيفان سرجيف. . وانفتح الباب عن رجل بالقميص والبنطلون. شكله ليس فيه ترحيب. . كأننا كنا عنده وخرجنا نشترى علبة سجائر وعدنا. وكذلك كانت زوجته الجميلة. كئيبة كأنها قامت من نومها أو تريد أن تكمل نومها لولانا . . وتلفت إلى السائق إن كان عنوان البيت صحيحًا فأكد لى ذلك. وامتدت يد الشاعر وفعصت يدى. فأيقنت أنه ليس نائمًا . وأشار إلى غرفة صغيرة دافئة. وفيها ترابيزة صغيرة وعلى الترابيزة شفشق فودكا وبها قرون من الشطة الحمراء. وأشار. قلت: لا أشرب. ثم أشار إلى طبق به كرات من اللحم قلت: ولا آكل اللحم. .

فقال: ليس لحمًا . .

وأخرج ورقة من جيبه وقال: تاميا . . طعمية!

ولم أجد ذلك مغريًا. ثم أراد إغرائى قال: هذه أرسلها أمس زميلك عبد الملك خليل من موسكو. . وهى هدية من الشاعر الفلسطينى محمود درويش. .

هدية من محمود درويش لعبد الملك خليل الذى أهداها للشاعر لعلى أجد شيئًا أتذوقه. وكان عدد الطعميات ستة أقراص: اثنان له واثنان لى واثنان لزوجته. .

ومددت يدى وأدنيت الطعمية من أنفى فوجدت لها رائحة تؤكد أنها قد فسدت منذ أيام. وبسرعة رددتها قائلا: أنا نباتى لا أكل اللحم.

وبسرعة التفت إلى زوجته أن كان لديهم أى شىء آخر يقدمونه.. ولا أعرف ماذا قالت. وغابت وجاءت بطبق به كرنب مسلوق.. أعوذ بالله.. إنهم يقولون إن الكرنب أحسن علاج للبشرة ولكنه فى نفس الوقت أحسن شىء للإصابة بالمغص والتقلصات المعدية..

فقلت: كان فى نيتى أن ألتهم كل ذلك لولا أن أطباءكم فى موسكو منعونى من الكرنب لأنه ينفخ. والنفخة توجع مصرانى الغليظ العصبى!

وكان ذلك كافيًا فلا يحاول أن يقدم لى أى طعام. فقد أوجدت لهم مشكلة ماذا آكل. وفتحت باب المناقشة عن الشعر الحديث فى روسيا. وعن الشاعر الروسى يفتشنكو الذى جاء إلى مصر. ولم يرحب بالكلام عن هذا الشاعر كأننى قدمت له طعمية معفنة. ظهر على وجهه القرف ورأى فى الكلام عن هذا الشاعر المتأمرك بداية سيئة للحوار.. إذن لقد كان كل شىء سيئًا من البداية. ولابد أن أبحث عن نهاية. فوضعت يدى على بطنى: آه.. مصرانى.. تقلص.. انقلونى إلى المستشفى أو اللوكاندة..

ولم يعترض الرجل ولا حاول أن يقول: يا راجل اقعد إحنا لم نشبع منك.. مش معقول تقطع ثلاثة آلاف كيلو متر بالقطار لتبقى عندنا نصف ساعة.. والله لا أنت قاعد يا شيخ.

ولا زوجته حاولت. وإنما ظهر الارتياح على الوجوه كأننى كابوس. مع أن هذا اللقاء كان محددًا من أسبوع.. فكل شىء بارد قاتل للمودة والمحبة والصداقة ويسد الشهية عن الطعام والكلام والسلام..

ونهضت أصافحه عندما وجدت شيئًا غريبًا على الجدران. ووقفت مندهشًا واقتربت من الحائط وقلت: إيه ده؟

قال مندهشًا مستنكرًا: كيف لا تعرف؟

قلت: هذه قباقيب مصرية

ـ طبعًا أنت عارف!

ـ أعرف أنها قباقيب مصرية ملونة . .

ـ ليس هذا فقط . . إنها صورة طبق الأصل من القباقيب التى استخدمتها شجرة الدر فى قتل زوجها فى الحمام. كيف لا تعرف . . إن زوجها الرأسمالى المنحل قد مات بهذه الأسلحة البدائية.

وكتمت الضحك . . فهذه قباقيب عادية جدًا ولكن شيوعيًا مصريًا نصب عليه، وأعطاها هذه الدلالة التاريخية؟

تمامًا كما أرسلوا طعمية فاسدة!

٢

وفى آخر الدنيا عند القطب الجنوبى كنت فى أستراليا مرتين . . مرة سنة ١٩٥٩ ومرة سنة ١٩٨١ . فى المرة الأولى لم يكن فى هذه القارة إلا ثلاثة من المصريين . . واحدة تزوجت لاعب هوكى، وواحد ثان دخل السجن، وأنا . . ولما حاولت هذه السيدة الحفاوة بى، أخذتنى إلى مطعم لبنانى فى شارع جورج الأنيق بمدينة سيدنى. وهناك وجدت طبق الطعمية مع حاشية من السلاطات اللبنانية . .

وفى المرة الثانية زاد عدد المصريين فصاروا بالألوف. وفى يوم أجازه دعونى لأن أذهب معهم إلى إحدى الحدائق العامة . . الجو جميل . . والناس فى صحة جيدة، إلا المصريين، وأكثر المصريات قد طلقن أزواجهن. وكان ذلك أول قرار اتخذنه فليس أسهل من الطلاق: فهى تذهب إلى البوليس وتقول له: ضربنى . . شتمنى أمام صديقاتى . . أمام الأولاد!

ويكون ذلك سببًا كافيًا لحصولها على حريتها!

وفى الحديقة العامة تكوم المصريون . . وأنزلت كل واحدة حلة أو طشتًا من فوق دماغها . . وانفتحت الحلل عن أقراص الطعمية . . الصغيرة والكبيرة والمربعة وبالبيض وبالسمسم . شيء عجيب . ما حرص المصريين على الطعمية مع أن هناك أطعمة أخرى أجمل وألطف وألذ؟ وأينما تلفت حولى لم أجد إلا الحلل والصوانى والعيش البلدى والبصل . مع أنه لم يكن شم النسيم .

وسألونى : تأكل؟

قلت : مريض!

ولم يكن المصريون قد أحضروا معهم شيئًا آخر إلا الطعمية والفول والبسارة والبصل والكرات والليمون . أعوذ بالله! وكان من رأيهم : أن يبعثوا بنصيبى إلى الفندق لكى أتناولها على مهلى فى أى وقت آخر!

سألت : إيه حكاية الطعمية؟

ـ ولا حاجة . إنه الحنين إلى الوطن . .

ـ والوطن ليس به إلا الطعمية . . وهل الحنين أكل؟

ـ إنها أرحم من الملوخية . . لقد زرعناها فى بيوتنا . . أتينا بها من إندونيسيا!!

إنهم لا يريدون أن يبعدوا ولا أن يتقدموا ولا أن يتطوروا . . جاءوا مصريين عبر ألوف الأميال ليبقوا كما كانوا يعيشون فى شبرا وبنها والشخلوبة بكفر الشيخ!

٣

فى يوم جلسنا نتناول العشاء فى السفارة المصرية فى بون بدعوة من السفيرة الدكتورة عائشة راتب . . جلس قبالتى الزميلان إبراهيم نافع وإبراهيم سعدة . . وبرقت عيونهما . وسألت : فيه أيه؟

وبسرعة وجدت كل واحد منهما قد دفع بالطبق الذى أمامه ليستقر أمامى . . إنه طبق جمبرى . وسألته : ما له؟

قالا : ضع الطبق قريبًا من أنفك . .

لم أجد شيئًا . ولكن لأنهما من أبناء السواحل فهما على دراية بالجمبرى أكثر منى . . إبراهيم نافع من السويس وإبراهيم سعدة من بورسعيد . . وكانت أضواء السفارة خافتة جدًا . ولم نتبين بالضبط ما الذى أمامنا . ولكن يجب أن نجامل وأن نأكل أو نتظاهر بذلك . .

ولاحظ أحد الدبلوماسيين حوارنا الصامت فقال لى : ولا يهمك أنا أعرف مكانًا عجيبًا . .

وركبنا السيارة إلى منطقة اسمها (الجبال السبعة) وهى التى تزوج إحدى بناتها الزميل سلامة أحمد سلامة . . وفى هذه المنطقة وقفنا أمام بيت . . واتجهنا إلى المصعد . وتوقف المصعد عند الدور السادس . . دق الجرس . انفتح الباب من بيت . وليس مطعمًا . وبادرنا صاحب البيت مرحبًا : أنتم جئتم فى الوقت المناسب . . فأنا فرغت حالا من إعداد الطعام . . اتفضلوا دقيقة واحدة !

ومن وراء الباب : اتفضلوا . .

وانفتح الباب : عن ثلاثة أطباق . . فول وطعمية وملوخية . . فالرجل قادم لتوه من القاهرة التى كنت فيها منذ يومين ولم أشعر بوحشة ولا بأى حنين لأى شىء أو أى أحد فى مصر !

٤

وعلى خط الاستواء . . فقد كنا فى جاكارتا فى العيد الوطنى لإندونيسيا . . وقد دعانا إلى الغداء مستشارنا الثقافى الدكتور محمد رضوان ، الذى أصبح نقيبًا للمعلمين . ذهبت برفقة أحمد والى ثم الأخضر الإبراهيمى الذى هو الآن وسيط الأمم المتحدة ، وكان أيامها مديرًا لمكتب حركة التحرير الجزائرية .

وكانت للبيت الرائحة التى لا أحبها أبدًا: رائحة الطبيخ.. زيت على سمن على بصل على طماطم على بوتاجاز على ثانى أوكسيد الكربون ورائحة غرف النوم التى لم تنفتح نوافذها ولا أبوابها.. وتفضلوا وتفضلنا.. وتلقائيًا صرخت: يا نهار أسود!

فسألنى الدكتور رضوان. قلت: لقد تمنيت أن أجد عندك الفول والطعمية والحمد لله أننى وجدت هذه الكميات الكبيرة!

فقال: من صنع يدى وحياة عينى وليس زوجتى.. أما هى فأستاذة فى صناعة البسارة أما الطعمية وحشوها بالبقدونس والبصل وتدويرها ووضع السمسم على وجهها فهذا اختصاصى.. لقد عشت وحدى طويلا. بالهنا والشفا تفضل!

وتظاهرت بأننى ألتهم الطعمية والحقيقة كنت ألتهم الخبز المصنوع من الجمبرى. وبعد الشاى والكلام فى السياسة والأدب قال لى الدكتور رضوان: إن زوجتى لاحظت أنك لم تذق الطعمية ولذلك أرسلت لك نصيبك.. سوف تجده مع السائق!

وكان هديتى إلى السائق!

٥

كان لنا مستشار ثقافى فى ألمانيا اسمه الدكتور موسى.. وأظن أنه والد السيدة نيلى موسى زوجة الفنان الشاعر أحمد خميس ـ هذه معلومات قديمة. وقد جمع لنا عددًا من الصحفيين الألمان ليقابلونا. وكان الغداء فى بيته. ذهبت فى الموعد المحدد تمامًا. ولكن الذى كان مخالفًا للأصول هم الألمان فقد جاءوا متأخرين بعض الوقت. وقد اندهش الدكتور أحمد موسى كيف أن كل واحد منهم قد اتصل تليفونيًا ليتأكد من العنوان. مع أن العنوان واضح وأن بعضهم قد زاره قبل ذلك!

ثم عرفت السبب..

لقد كانت السيدة المصرية حرم الدكتور موسى تطبخ بنفسها . . الملوخية والتقلية . وتطش الثوم . وكانت تتفنن فى صنع الطعمية أيضًا . . أما الأبخرة فكانت تتصاعد وتخرج من النافذة ومن تحت الباب حتى تلوثت العمارة كلها . وقد ظن الألمان أنهم أخطئوا العنوان وأن شقة الدكتور موسى ليست إلا أحد المعامل . . معامل بترول أو أى شيء آخر . واندهشوا كيف أنه لا يراعى القواعد الصحية فيمنع هذه الغازات والروائح الغريبة عن سكان العمارة ثم كيف سكت سكان العمارة عن هذا التلوث الشرس للبيئة؟!

وجاءوا الواحد وراء الآخر والدهشة على وجوههم . . وجلسنا . . أما الملوخية فيشربونها بالملعقة . وبعضهم سأل إن كانت لها أية مضاعفات على المصارين . . وأما الفول فبالشوكة وأما الطعمية فبالشوكة والسكين معًا . وأما الأرغفة البلدية المنفوخة فكانوا ينظرون ليروا كيف نأكلها . وأكلناها بأيدينا .

واقتربت منى صحفية ألمانية دمها خفيف وسألتنى : ما هذا البرفان الذى تضعه السيدات المصريات . . إنه مختلف عن العطور والبهارات الهندية .

ولم ألاحظ . . ولكن لأنها عانقت وقبلت ذهابًا وإيابًا فقد امتلأ أنفها بشيء لا تعرف ما هو ولم يكن سوى رائحة الزيت ، فالطعمية قد اشترك فى صنعها وتدويرها وفلفلتها كل سيدات السلك الدبلوماسى !

٦

عندما قامت ثورة يوليو كنت على ظهر الباخرة أسبيريا فى طريقى إلى إيطاليا . . ولما وصلت إلى الشاطئ ورأيت صور أبطالها لم أعرف منهم واحدا . . ولا من هو هذا القائد الأسمر الذى اسمه محمد نجيب . . ووصلنا إلى فيينا عندما نشرت الصحف هذه العناوين الحمراء الضخمة : هكذا قال الدكتور عصفور . . تصريحات خطيرة للدكتور عصفور . . لقد كلفته الثورة بالتعاقد مع عشرة آلاف مدرس لتعليم الألمانية فى مصر !

وبعثت بالخبر والعناوين إلى (أخبار اليوم). وكان أحمد عصفور صديقًا للأمير عباس حليم الذى ادعى الاشتراكية.. وكان يركب الترام وهو بذلك يغيظ الملك فاروق والأسرة المالكة وهرب أحمد عصفور إلى النمسا مع زوجته النمساوية التى كانت تشكوه لكل الناس.. فقد كان يضربها. ثم إنه أخذ منها جواز سفرها فهى لا تعرف كيف تهرب من مصر. وكانت آثار الضرب المبرح على ذراعيها وظهرها. والمثل يقول: كل ذى عاهة جبار، فقد كان أعرج!

وبسرعة تم الإفراج عن كميات كبيرة من الفول والبصل والكرات من مطار فيينا التى طلبها من مصر الدكتور عصفور. فقد كان له مطعم فى شارع الدوران بالقرب من دار الأوبرا. وعلق الدكتور عصفور الصحف التى تحدثت عنه وعن المؤتمر الصحفى الذى عقده على مدخل المطعم الذى اسمه (الطعمية الملكية). وأقام افتتاحًا ضخمًا للمطعم بعد التحسينات وازدحم المطعم بالناس جلوسًا ووقوفًا ومتفرجين.. عندما أصدرت الثورة فى مصر تكذيبًا بكل ما قاله الدكتور عصفور.. فلا هو صديق محمد نجيب.. ولا أحد كلفه بأن يتعاقد مع مدرسين من النمسا.. وانتهز الدكتور عصفور الزحام على الطعمية وهرب إلى الدانمارك وجاء البوليس يبحث عنه.. وسألنا واحدا واحدا.. وقد أسعدنى أن جاء البوليس وأنقذنى من الطعمية التى لا أذوقها إلا مرة واحدة فى رمضان.. وخرجنا.. وجاءت عربات الزبالة وألقوا فيها بكل ما فى المطعم من طعمية وبسارة وعجائن لمزيد من الطعمية!

٧

إلى أقصى الجنوب من قارة أفريقيا..

وفى أربع ساعات من الطيران الهادئ سافر من القاهرة إلى جوهانسبرج ـ وفد سياحى برياسة الدكتور ممدوح البلتاجى وبيننا المهندس فهيم ريان رئيس مصر للطيران وللفرفشة كان الفنان سمير صبرى ورسام الكاريكاتير رمسيس.

وحاولنا أن نقابل الرئيس مانديلا . . فقالوا لنا إن سيادته غرقان فى مشاكل الطلاق من زوجته التى فضحها وفضحته . وقابلنا نائبه دكلرك الذى قال لنا إننا حققنا أملا غاليًا عند أهل جنوب أفريقيا هو أن يكون هناك خط جوى من ك إلى ك . . أى من كايرو إلى كيبتاون . .

وانطلقت أتفرج على جنوب أفريقيا . . ووقفت عند حافتها الجنوبية فى المكان الذى وقف عنده الرحالة ماجلان وغيره من المكتشفين . . وهناك وجدت عبارات باللغة العربية على الجدران . . كل واحد يخاطب فيه حبيبته تاركًا اسم المحبوبة . .

وذهبت إلى مزارع النعام . . ووجدت الأطفال يركبون النعامة كما لو كانت حصانًا أو حمارًا . وأشاروا إلى أننى أستطيع أن أركبها فهى قوية جدًا . وركبتها فهى متينة العظام متينة الجلد الذى يصنعون منه شنط اليد والأحذية . ولكنها صناعة رديئة !

وفى الليل كان موعد العشاء فى بيت السفيرة مشيرة خطاب . وتجددت مشكلتى فى كل عشاء . . فكل الطعام باللحم . وأنا لا آكل اللحم . فسألت إن كانت هناك جبنة . قالوا : مفيش . . قلت : طيب فول . . قالوا : مفيش . . قلت : طيب طعمية . .

وتلفتوا بعضهم إلى بعض وقالوا : موجود عند فلان الفلانى عجينة طعمية قد أتى بها من مصر . . وهى محفوظة فى الثلاجة . هذا هو الحل !

وفلان هذا يبعد عن بيت السفيرة ذهابا وإيابا ساعة . وليس شيئًا ثقيلا أن أنتظر حتى يفرغ كل الناس من الطعام وأنزوى فى ركن وأمرى إلى الله . .

ثم ظهرت بعد ساعة الفرحة على وجه الطباخ والحراس : لقد جاءت العجينة . .
ثم عاد الاكتئاب إلى الوجوه : ولكن لا يوجد زيت . . عندنا سمنة فقط !
وسألونى : إيه رأيك؟

ولم يكن لى رأى . فأنا لا أعرف إن كان يمكن طبخ الطعمية فى السمن . بعضهم قال : ممكن . وبعضهم قال : مستحيل . لابد من الزيت !

وتلفتوا وتناقشوا وتهامسوا واختفوا وغابوا . . وجاء الفرج فقد ظهرت أربعة أقراص طعمية فى طبق . وامتدت الأيدى : ياه . . طعمية . . يا خبر . .

وفى لحظة واحدة اختفت الأقراص الأربعة . . فقد ظنوا أن هذه هى الدفعة الأولى من الطعمية . . والحقيقة أنها الأولى والأخيرة المصنوعة من السمن البلدى !

ولم تسألنى السفيرة مشيرة خطاب إن كنت قد وجدت طعامًا . . فهى تؤمن بحرية الضيوف . . أكلوا أو لم يأكلوا . . فكل إنسان حر فى اختيار الوجع المناسب لبطنه . سواء كان بسبب الطعام أو بسبب الجوع !

نلف وندور حول السيارة ونبكى!

١

شاعرنا الرقيق وكاتبنا الساخر الكبير كامل الشناوى كان يحكى لنا أنه كيف وهو صغير كان يتشاجر مع الأكبر سنا، هل كان التحدى من صفاته . . أو فقط ليقول هذه العبارة التى سمعها وأعجب بها فكان يكررها (عمال على بطال). فإذا أمسكه أحد من عنقه يريد خنقه قال له : إذا لم تتركنى فى ظرف ٢٤ ساعة فسوف أقتلك!

ولم نعرف متى سمع هذا التعبير، ولم يدرك معناه، وإنما قال ويقوله كما سمعه، ولابد أنه يضحك الناس!

تذكرت أننى وبعض الزملاء الصغار كانت لنا جمعية اسمها (جمعية المفكرين الأحرار). اسم كبير جدا. أو هو تعبير ضخم. مع أننا فى ذلك الوقت طلبة صغار لا نحن مفكرون ولا نحن أحرار. . بل ولا نعرف ما معنى أن يكون الإنسان متحدياً كل المفكرين حوله وكذلك السلطة ليكون فعلا حراً.

ولكن لابد أننا أو أن أحدا منا قد صادف هذا التعبير أو قد سمعه من الذين أكبر سنًا. ولا أعرف حتى الآن من هو الذى بادر باكتشاف هذا التعبير. وفورا وافقنا عليه. وعندما أسترجع أيامنا ونحن فى مدينة المنصورة صغارا كانت كل حريتنا هى أن نمشى على الكورنيش ذهابا وإيابا.

وكل واحد يحكى أو يلخص ماذا قرأ، وبس. لعلنا فى ذلك الوقت رأينا فى حرية الحركة مع الكلام بصوت مرتفع هى حرية التعبير والتفكير. .

وكنا نردد أننا مفكرون أحرار، ولم يسألنا أحد من زملائنا بالضبط ما هذا الذى نقول، وما هو الخلاف بيننا وبين بقية التلامذة. حتى جاء يوم سألنا المدرس عن الثورة الفرنسية. فقام واحد منا وقال أنا أرى أن الثورة الفرنسية كلام فارغ.

فما كان من المدرس إلا أن لطشه قلمًا له دوى فى آذاننا ـ نحن أعضاء الجمعية. ولم يكتف المدرس بذلك بل قال: وأنت مين لكى تصدر حكمًا كهذا؟ أنت مين؟

ولم يسكت زميلنا بل استرد عافيته وشجاعته وقال: أنا عضو جمعية المفكرين الأحرار.

ـ الـ (أيه).. مفكرين.. وأحرار.. جتكم خيبة. فالحين قوى.. مفكرين.. وأيه يا خويا.. بتقول أحرار.. وهو أنتم مين؟

فأشار بيده إلينا نحن الأربعة.

ونظر إلينا المدرس وطلب إلينا أن نخرج من الحصة.. وأن نفكر على حريتنا فى الحوش!

هنا فقط حلت الجمعية نفسها.. لأننا فعلا لا نعرف ما معنى الجمعية ولا لماذا اخترناها. ودون أن نناقش ما حدث لنا من استخدام هذا التعبير الذى دشدشه المدرس على دماغنا.. فلم يحطم رءوسنا ولكنه حطم آمالنا فى أن تكون لنا صفة مشتركة وأن يكون لهذه الصفة هذا الاسم الضخم!

ومن اليأس والقرف والشعور بالإهانة اقترح أحد الزملاء أن نعدل عن اسم الجمعية ونختار لها اسما آخر مثل: لله يا زمرى.. أو سبع سواقى بتنعى وهى أغنية عبد الوهاب المعروفة.. أو ضربوا الأعور على عينه!

وكان لنا زميل يونانى الأصل ودمه خفيف، وكان غنيا مدللا.. وفوجئنا بهذا الزميل يدعونا لافتتاح محل والده الجديد، وكان أبوه من أشهر البقالين فى المنصورة، وذهبنا ووجدنا عند مدخل العمارة لافتة كبيرة مكتوبًا عليها: أولاد الكلب!

وضحكنا وتضايقنا . فقد ظننا لأول وهلة أنه يسخر منا . وبعضنا تردد فى الدخول، وكانت المفاجأة أنه يبيع الكلاب الصغيرة، وأى كلب هو ابن كلب! هاها!

٢

كان سفيرنا فى مانيلا عاصمة الفلبين اسمه أحمد الظواهرى، وأنا أرى أنه رجل لطيف. وكما هى العادة فإن كل موظفى السفارة يرونه غير ذلك (على فكرة مانيلا ليست عاصمة الفلبين وإنما هى أشهر المدن. أما العاصمة فهى أقل شهرة واسمها كيزون سيتى) زرته لكى أعرف وأفهم كل الذى بدا لى غريبًا فى هذه البلاد (سبعة آلاف جزيرة).

وهى الدولة الكاثوليكية الوحيدة فى قارة آسيا، وأكثر الناس اسمهم كروس ـ أى صليب، كما أن أكثر المسلمين اسمهم محمد، ولكن هناك سببًا آخر، وهو أن الإسبان عندما احتلوا هذه البلاد. وبدأوا يغيرون ويبدلون فيها. كان معظم الناس أميين، وكانوا يطلبون من كل واحد أن يختار له اسما إسبانيًا . .

فكان يمسك القلم ويرسم الصليب. أى أنه يختار الاسم الذى وضع أمامه هذه العلامة، ولكن الإسبان ظنوا أنهم يريدون أن يكون الصليب هو الاسم: كروس . . كروث!

وأدهشنى أنهم فى اللوكاندة يطلبون، من النزلاء إذا خرج منهم أحد إلى الشارع ألا يعلم أحدا، وألا يحمل معه فلوسا، وإذا ركب التاكسى أن يعطى اسم السائق ورقم السيارة للفندق. . وإنه إذا اقترب منه أى إنسان وعرض عليه قائمة بأسماء البنات وأعمارهن فلا يكلمه أو يناقشه، وإلا فالمسئولية عليه وحده، ولا يسأل إن كانت هذه الأسماء لطالبات أو عاملات أو زوجات.

ولا كلمة. . لأن هذه القائمة بالأسماء هى المصيدة الشهيرة لاستدراجه وتجريده من فلوسه ومن ملابسه أيضًا ـ بما فى ذلك الداخلية والجزمة!

وحكى لى السفير أنه فوجئ فى يوم من الأيام بمواطن مصرى والشارع كله يمشى وراءه. فقد سرقه اللصوص وجردوه من كل ملابسه، وحاول الحرس أن يمنعوه من الدخول، وكان لابد أن نفعل شيئًا. فتوارى كل موظف وخلع جزءا من ملابسه: كيلوت وقميص وبنطلون وجزمة والسفير أعطاه الجاكتة!

وعلى الرغم من أن ملابسه الداخلية والخارجية يستحيل أن تلتقى فى جسم واحد: أزرق وأحمر وأخضر وأصفر، فإن الضرورة لها أحكام، ومن أحكام الضرورة أن تكون هذه الصورة للسيد المستشار الذى نزل من بيته محترمًا فى صباح ذلك اليوم ليعود كما ولدته أمه وليرجع إلى بيته مثل أحد أراجوزات السيرك، سعيدا بذلك.. لأنها أهون كثيراً من الفضيحة التى أصابته بمرض السكر فى ذلك اليوم.

وراح السفير يحكى قصصًا وغرائب وعجائب عندما انفتح باب المكتب ودخلت السكرتيرة منزعجة واقتربت من السفير. وتغير لونه. وأشار إليها أن تخرج فخرجت، والتفت يقول: اتفضل يا سيد آدى حكاية ثانية.

ـ خيرا..

ـ واحد بحار أمريكانى يريد مقابلتى على وجه السرعة لأمر مهم.. تفتكر على وجه السرعة ليه.. وما هو الأمر المهم الذى يحتاجه أمريكانى عنده أسطول هنا فيه كل ما لذ وطاب.. ثم إنهم أسياد هذه البلاد. وهم الذين كانوا سببًا فى ظهور كباريهات تعمل ليلا وكباريهات تعمل نهارا.. فلا يكاد تصل سفينة من الأسطول الأمريكى حتى تنفتح الكباريهات نهاراً، ونجد السيارات تجرى من أول المدينة لآخرها توقظ الغانيات ليخلعن ملابسهن ويتجملن ويتعرين فى انتظار البحارة الأمريكان.

قلت: يمكن عاوز ياخد رأيك فى عروسة من مصر..

ـ هاها.. عنده هنا يا أخويا ألف، والبنات هنا مطقطقة وحلوة..

ـ تفتكر ليه . .

ووجدناها فزورة . . وكل واحد من الجالسين الخمسة قال فكرة . . وبدت هذه الأفكار غريبة وغير منطقية . ثم أشار السفير الظواهرى إلى أن يجىء البحار الأمريكى ، واستقبله القنصل الذى على ما أظن كان زوج أخت الفنان عبد الغنى أبوالعينين أستاذ كل فنانى (روزاليوسف) هو وفنان آخر هو حسن فؤاد .

ودخل البحار أبيض الزى أحمر الوجه وخلع الكاب من فوق دماغه . . أو لم يخلعه تحية للسفير . . المهم أن السفير أشار إليه أن يجلس ، وتركزت كل مشاعرنا فى آذاننا .

وقال البحار : إنى أريد مساعدة السفير ، فأنا عندى مشكلة صغيرة .

أمريكانى عنده مشكلة يحلها سفير مصر هل هذا معقول !

فعلا كان شيئًا غير معقول .

وأخذ البحار يحكى مشكلته التى رآها مهمة جدًا . قال إن سفينته الحربية قد توقفت فى بورسعيد ، وأنه نزل إلى الشاطئ وطلب من أحد أبناء بورسعيد أن يدله على دكان يشترى منه كلبًا مصريًا . . وأجسلوه أولاد البلد فى مطعم (جانولا) وبعد دقائق أتوا له بكلب أبيض فى أحمر . وقالوا له : إن هذا الكلب من سلالة نقية ترجع إلى أيام الملك توت عنخ آمون ، فقد كان من عادة توت عنخ آمون إذا جلس يأكل الفراخ أن يلقى بنصفها لواحد من أجداد أجداد هذا الكلب ، ولذلك فهذا النوع من الكلاب اسمه توت . . وأمام صدق وحزن هذا البحار الأمريكى لم يجرؤ واحد منا على أن يبتسم لغرابة هذا الذى يسمع . . وللمصيدة التى وقع فيها هذا الشاب المسكين .

ولابد أنه ترجم ابتسامتنا المخنوقة بأنها نوع من الامتنان له لأنه قد ترك كل كلاب آسيا الجميلة وأوروبا الأجمل واختار كلبًا مصريًا .

فما هو المطلوب ، قال : أريد أن أجد كتابًا . . أو أن أتصل بأحد أسأله . عن معدل نمو هذا الكلب . . أريد أن أعرف إذا كبر فكم يكون ارتفاعه ، وكم يكون

طوله ووزنه وسرعة انطلاقه، وكم سوف يكون عمره، وهل من الممكن أن أجد له أنثى، وأين وكيف؟

وكان حرجنا عظيمًا وخجلنا أعظم، فلا عندنا كتب ولا نعرف أحدا يمكن الرجوع إليه، وظهرت الحيرة والإحباط على وجه السفير، وباقى طاقم السفارة.

وتقدمت أنا وقلت له: أنا سوف أكتب لك عناوين متخصصين فى مصر وسوف يساعدونك فورا، وأمسكت ورقة وقلما وكتبت أسماء عدد من الأصدقاء فى مقدمتهم كمال الملاخ وعدلى جلال وفتحى أبوالفضل وحمدى فؤاد ويوسف السباعى وإحسان عبد القدوس.

وخرج البحار وظللنا نحكى ونضحك أياما على هذا الذى حدث.

وأشفقنا على هذا الشاب الجاد.. وخجلنا من الذين نصبوا عليه فى بورسعيد.

وكان ذلك سنة ١٩٥٩ أثناء رحلتى حول العالم، ولما عدت إلى القاهرة سألت وعرفت وقالوا لى، واكتشفوا أننى أنا السبب، وقد غضب بعضهم، ولكن الوحيد الذى كان جادا، وحاول أن يؤكد لى أن معلومات هذا البحار الأمريكى صحيحة، وأن الملك توت غنخ آمون كان عنده كلب، والغلطة التى وقع فيها البحار هو أن الملك لم يكن يلقى له بعظام الدجاجة وإنما بلحمها، أما العظام فكان يلقى بها لبعض الكهنة لأن توت عنخ أمون كان نباتيًا، ثم إنه أخرج خطاب هذا البحار من درج مكتبه وقال لى: لم أفهم هذه العبارة التى بدأ بها خطابه، وقلت له وغضب شهوراً.

فقد كانت كل الخطابات تبدأ بعبارة بالحروف اللاتينية: تخدش حياء كمال الملاخ؟!

٣

فى شارع (غروب الشمس) فى مدينة هوليوود لأن الشارع شرقى غربى.. فالشمس لا تغيب عنه، ولكن المنظر الأجمل هو أن ترى الشمس غاربة وتكون

جالسًا وقد أعطيت الشمس ظهرك لتنسج خيوطها الذهبية الدامية على وجه المحبوبة الجالسة أمامك . . هذه نصيحة!

ولابد أن يكون صاحب هذه الحكمة شخصًا من آسيا أو أفريقيا . أما بقية خلق الله فى أوروبا وأمريكا فليسوا فى حاجة إلى غروب الشمس فالمحبوبة لونها أحمر وردى أو دموى .

المهم جلست واقترحت على الزميل أحمد يوسف أن يقوم بدور المحبوبة ، وتدخل الشمس فى عينيه وأذنيه ثم يطلب من الله شيئًا ، وطلب ، وقد استجيب له فورًا ، فعندما وضع يده فى جيبه لم يجد المحفظة ، وقفز واقفًا قائلا : حرامى . . قالها باللغة العربية . فقلت له : اقعد . اقعد . . بلاش فضائح . . الحرامى هنا مليونير! فما الذى تأخذه الريح من بلاط جيبك؟ اقعد!

فضحكنا عندما قال : يا أخى أنا لم أكمل العبارة .

- ماذا قلت؟

- قلت فى سرى يا رب مش عاوز .

- بس . . لقد انقفل باب السماء على كلمتى (مش عاوز) .

وأنت كنت مش عاوز أيه؟

- قلت مش عاوز أقل من مليون دولار!

وفى هذه اللحظة فوجئنا بكاميرا تفرقع أمام عينى وواحد يقول لى : أنت من أين؟

قلت : من مصر . .

قال : يا سلام من بلاد الفراعنة إلى هوليوود مباشرة . . لا لشىء إلا لكى تشرب أنت وصاحبك هذا البن الطازج . . (بن العمدة) . . بن العمدة هو أهم وأول شىء يتناوله القادمون من هاواى إلى أمريكا! بن العمدة الذى ضبط دماغ توت عنخ آمون ونفرتيتى . . بن العمدة!

وانطفأت الكاميرا . . ووضع لنا على الترابيزة عشرة دولارات . . إنه إعلان تليفزيونى!

وكنا نذهب إلى أستديوهات مترو والقرن العشرين وبارا مونت كل يوم بالسيارة. مشوار من هوليوود إلى خارجها. وقد اعتدنا على الإهانة المتكررة. فكنا ـ ولا أعرف لماذا ـ نعطى سائق التاكسى بقشيشا دولارا. وكان يترك الدولار يسقط عند قدميه فى (دواسة) السيارة دون أن يلمسه.

وفى أحد المطاعم اللبنانية قابلنا شابًا سوريًا قال لنا:

الإخوة من أين؟

ـ من مصر..

ـ أهلا وسهلا.. والله عندى حل..

وكان الحل مفزعًا: أن نشترى سيارة.. إن شاء الله كاديلاك!

وجدنا فى حالة ذهول ننظر إلى بعضنا البعض ثم إليه فتساءل: فيه أيه.. تعالوا معى!

وركبنا سيارته كاديلاك.. شيء عجيب.. إنه جرسون وعنده كاديلاك كيف؟ طبعًا هذا سؤال سوف نكتشف أنه ساذج. وأن المسافة بيننا وبين الكاديلاك دقائق. ووجدنا أرضًا واسعة شاسعة تغطت بالسيارات من كل لون وحجم وماركة وموديل.

وتقدم هو ودخل إحدى السيارات وأدارها. لقد دارت، وتوقفت عند مدخل الموقف الكبير، ودار حوار خاطف بينه وبين شخص ليست له ملامح الثراء.. ثم أخرج من جيبه بضعة دولارات ووضعها فى يده ومضينا إلى المطعم، وجلس وكأنه لم يفعل شيئًا غير عادى، وسأل:

أيكما يعرف قيادة السيارة.

فقلنا: نحن الاثنان ـ أحمد يوسف وأنا..

وطلب أن نصحبه إلى حيث وقفت سيارته، ونزل وترك لنا السيارة وقال: من منكما سوف يدفع الثلاثين دولارا؟

هذه السيارة القديمة الكاديلاك ثمنها ثلاثون دولارا؟

إنها أرخص جدًا من ركوب التاكسيات إلى الأستديوهات صباح مساء!

ولحسن الحظ فقد كانت إقامتنا قصيرة فى هوليوود سنة ١٩٥٩.

وكان لابد أن نبيع السيارة ـ وإن كنا طبعًا نتمنى أن نعود بها إلى مصر وندخل فيها السجن: فمن أين لنا هذا؟ أو كثير علينا هذا؟!

وجاء الجرسون السورى وقال لنا: أنتوا منين جبتو السيارة.. أنتوا جبتوها من الزبالة.. فإلى الزبالة تعود!

ـ يعنى أيه؟

ـ شو.. يعنى أيه.. خلاص بعد ما ركبتم السيارة اتركوها فى مقبرة السيارات بجوار المطار.. وسوف تجىء عربات الزبالة وتنقل السيارة أوتعجنها وتحولها إلى كتلة من الحديد.. ها القد.. (وأشار بيديه إلى حجم كرة القدم)..

ووقفنا ثم رحنا ندور حول ضريح السيارة قبل سفرنا.. ونلتقط لها الصور التذكارية، وخطرت لى فكرة أن نذير الموتور وأن نتركها هكذا حتى ينفد البنزين لتسكن إلى الأبد!

بمنتهى الصراحة كان حزنى حقيقيًا، ونظرت إلى أحمد يوسف وقلت له:

ما تقول حاجة يا أخى بدل ما إحنا قاعدين نلف وندور حولها! ونبكى على شبابنا وعلى بختنا.. وعلى بلاد تركب الكاديلاك!

ـ أقول أيه؟

ـ يا أخى قول حاجة!

ـ لا إله إلا الله ولا دايم إلا الله!

ـ يا كادى.. يا سبعى!

ـ مين كادى؟

ـ يا أخى (بندلع) الكاديلاك!

ـ . . . .

تعال قابلنى
فى بنت السلطان!

١

قال أمير الشعراء شوقى :

قد يهون العمر إلا ساعة   وتهون الأرض إلا موضعًا

أما هذا الموضع الذى لم يهن علينا عشر سنوات فمساحته ستة أمتار وأحيانًا تسعة . . وفى هذا الموضع ظللنا نلتقى صباح ومساء كل يوم . وهذا الموضع أمام محل (البن البرازيلى) شارع سليمان باشا . .

نقف أمام هذا المحل . . وليس فى داخله ولا فى خارجه . . وإنما نحن نتحرك داخلين خارجين مربوطين بخيوط شفافة هى أبخرة البن الذى نشربه ويشربه الآخرون . وكل أفكارى وبنات أفكارى توالدت فى هذا (الموضوع) . . إنها حضانة أفكارى . . وكانوا يسموننى الرادار . . فأنا أدور حول نفسى داخلا خارجا ناظرا إلى الشارع والمشاة ولا أدرى بأحد . . أو أننى (برج الحمام) يخرج منه الحمام يرفرف بعيدا ثم يعود أكثر عددا . .

إنها الجمعية الواقفة ، فى الشارع : عبد الحميد الحديدى رئيس الإذاعة . . وموريس جندى بوكالة الصحافة المتحدة الأمريكية ودفعتى فى كلية الآداب هو قسم

اللغة الإنجليزية وأنا قسم الفلسفة. ثم إنه عاشق أم كلثوم الذى لا تفوته حفلة وحافظ كل أغانيها . . وكمال الملاخ عالمنا الأثرى . . وجورج واصف من إعلانات الأهرام . . وعدلى يواقيم صاحب سينما الجزيرة . . وفتحى أبو الفضل الروائى الخيالى إذا تحدث والواقعى جدًا إذا كتب . . وعدلى المولد المحامى ذو الملامح الغليظة ولكنه أقدرنا على تقليد صوت المرأة الرومانسية الحالمة ساعات ويتحداك إذا تحدث إليك فى التليفون أن تتصور أن هذا رجل يقلد المرأة . . وكانت لعبته وشبكته المفضلة : فتحى أبو الفضل . . وممدوح طه الذى كان يعمل فى قسم النشر بالسفارة البريطانية ثم صار صحفيًا فى جريدة (الأساس) وبعد ذلك فى «الأهرام» وقد أدخل تعبيراً دوخنا هو (رجيع الكون) فقد كان يعمل مندوبًا فى وزارة التموين، وكان الوزير مهتمًا برجيع الكون، أى الردة التى تتخلف عن (الكون) الذى هو مخروطى الشكل والذى يحول القمح إلى دقيق يستخرج منه (الرجيع) أى الردة . . والاسم شكله فلسفى أما الواقع فغير ذلك تمامًا . . والحقيقة أننا نحن (رجيع) هذا الكون بنجومه وكواكبه ولكننا نمشى على الأرض كأننا نجوم وكواكب وبقية الناس هم الرجيع ! !

وأميل لبيب الموظف بالسفارة البريطانية وصاحب الفضيحة المشهورة التى أدت إلى فصله من السفارة البريطانية . . فقد كتب الأستاذ التابعى مقالا هاجم فيه السفارة ونقل أميل لبيب المقال مترجمًا وتعليق السفارة عليه . وقدمها للأستاذ التابعى الذى نشرها . . وفتحت السفارة البريطانية أبوابها كلها ليخرج أميل لبيب دون عودة!

ومصطفى (قميص) اسمه الحقيقى مصطفى أمين .

ولأنه كان يرتدى قميصًا على اللحم صيفًا وشتاء ولأننا نريد أن نميزه عن أستاذنا مصطفى أمين جعلنا له هذا الاسم وهو مترجم من الفرنسية، وكان قد ذهب يدرس الطب فى باريس فأتقن فنون الرقص . وكان يعمل مترجما مع عبد الحميد الحديدى فى مجلس الأمة . . وكان الذى ينقل لنا أخبار الدنيا مثل اغتيال غاندى ووفاة محمد على ومذابح اليهود ضد الفلسطينيين .

والمهندس أنيس إسكندر وهو يعمل بشركة مسطرد وهو من ألطفنا وأجملنا صورة وهو مركز جذب للبنات الحلوين ذهابا وإيابا .

٢

وأبو السعود الإبيارى مؤلف الأغانى والمنولوجات ومئات الأفلام والمسرحيات لإسماعيل ياسين، وكان مسرح ميامى يعرض مسرحيات إسماعيل ياسين وكان يدعونا دائمًا للمشاهدة. وكنا نذهب، ومعظم الوقت لا نستجيب اكتفاء به هو يحكى لنا أهم المشاهد والنكت. . أو لأن المسرح قريب جدًا وببلاش، فلم نجد فى الذهاب إليه عملا مثيراً. .

وكان أبو السعود الإبيارى دائم البحث عن (فكرة) وكان يطلب منا أن نجد له فكرة. . أو قصة قرأناها. .

أو فيلمًا شاهدناه ولم يره. . فهو يتابع كل ما يظهر على الشاشة ويقرأ كل المترجمات من اللغات الأوروبية، وهو صياد لطيف. . يمد أذنيه إلى كل ما يقال. . وتكون أذناه مثل الشبكة تلتقط وتحتضن ولا ندرى ماذا يبنى عليها حتى تظهر له فكرة أو أغنية أو مونولوج. .

وهو إذا تحدث فعنده حكايات كثيرة، ولا ينافسه فى ذلك إلا يوسف وهبى الذى يستطيع أن يبدأ الكلام عند الغروب فلا ينتهى إلا عند شروق اليوم التالى.

وكانت لأبو السعود الإبيارى عادة غريبة فهو يفتح علب السجائر لا من ناحية الفلتر، وإنما من الناحية الأخرى.

وله فلسفة: فهو يقول إنه عندما يعزم عليك بسيجارة فإنك تظل تبحث عنها بأصابعك. . وهو يخاف من عدوى أصابعك إذا أنت لامست الفلتر الذى سوف يضعه بين شفتيه ولذلك يقدم لك الجانب الآخر الذى سوف يحرقه بالكبريت!

٣

ولطف الله سليمان بلدياتى ومفكر شيوعى من نوع خاص. فهو شيوعى من أنصار تروتسكى أعدى أعداء ستالين. أما الفارق بين الاثنين فى الشيوعية،

فهو وحده الذى يستطيع أن يقوله فى ساعات إذا كان عندك صبر . . ودون أن تسأله .

وهو يمشى كما يفكر بسرعة . وعيناه خضراوان لامعتان . وابتسامته هى سخرية من (لطعتنا) أمام محل البن البرازيلى ، ونحن نفضل ذلك على أن نحشر أنفسنا فى المكتبة الضيقة جدا التى يديرها فى شارع قصر النيل واسمها (الغليون) . . أو دار سميث فى شارع سكة الفضلى وراء جريدة «الأساس» أو فى شارع ثروت واسمها ابن النديم . . ويتردد عليها كل الشيوعيين .

٤

وكنا نلتقى بأصحابنا وتلامذتنا فى هذا الموضع من محل البن البرازيلى المواجه لمطعم اكسلسيور وسينما مترو ومطعم كان يسمى (العشى) واختفى . . وإلى جوار البن البرازيلى محل التسالى ومطعم صغير يونانى نأكل فيه الطعام المسلوق .

٥

وفى يوم جاءنى فى البن البرازيلى الممثل الكبير الآن محمود مرسى ، كان وافدا جديدا من باريس . . أبيض أحمر . . أزرق العينين . . ملىء الصوت . وقف ونظر إلينا قائلا : وبعدين ؟

قلت : فى أيه ؟

قال : فى آخرة الوقفة دى . . بس كده . . أنتو كل واحد فيكم عنده شغلانة وأنا حاعمل أيه ؟

واشترى قرطاسًا من اللب وسرنا معًا حتى ميدان سليمان باشا . . فهو أيضًا خريج فلسفة ، ويريد أن يجد عملا ، ولم يكن واضحًا ماذا يريد . ولكنه يستطيع الكثير .

وانتهى مشوار قزقزة اللب وقزقزة المشاكل وبعد أن لوثنا الشارع بقشر اللب . .

كان يستوقفنى محمود مرسى وكأنه على مسرح ثم راح يدور حول نفسه ويقول بصوت عال : أرفض . . لا . . أنا أرفض .

يرفض أن يكون صعلوكا هكذا .

وكتبت فى مجلة (الكواكب) مقالا بعنوان محمود مرسى : ست شخصيات تبحث عن مؤلف!

ولم أقابله شخصيًا منذ ذلك الحين ـ ولكن على الشاشة رأيته وأغضبنى قيامه بدور الأستاذ العقاد فى مسلسل (العملاق) مع صفاء أبو السعود . وضايقنى أن تكون هذه هى صورة أستاذنا العظيم عباس العقاد فى هذا المسلسل ، ولم أعرف أن (عملقة) العقاد هى أن يكون رجل بتاع ستات . . غرقان فى الغراميات .

مع أنه أعظم المفكرين الإسلاميين : فلسفة ونقدًا وتاريخًا وشعرًا وسياسة .

وكنت أتمشى مع الرئيس السادات فى القناطر الخيرية . وجاءت سيرة المسلسل . ولم أنتظر رأى الرئيس السادات وإنما بادرت بالقول : لقد أغاظنى المسلسل فهو لا يذكر من حياة العقاد إلا أنه روميو أحب (سارة) اليهودية ، ولم تكن سارة يهودية وإنما هى لبنانية من عائلة داغر . . والعقاد هو المفكر العظيم الوحيد فى تاريخنا الحديث الذى جاهر بحبه . . كثيرون أحبوا ولم يقولوا : طه حسين أحب فى باريس وكان يذهب معه توفيق الحكيم . . وكان يبتسم له بما معناه : اتركنا وحدنا يا توفيق . .

وكان يفعل ويغمض عينيه ولكنه يلتقط كل ما يقوله العاشقان .

وتوفيق الحكيم رمز فى (الكراسة الحمراء) إلى التى كان يحبها . . وأنا أعرف اسمها وعنوانها . وقد وعدته بألا أفشى هذا السر .

ولا نعرف من التى أحبها شوقى . .

ونعرف من التى أحبها الشاعر الرقيق بلدياتى إبراهيم ناجى . . لقد أحب الفنانة زوزو حمدى الحكيم ، وهى أديبة بليغة العبارة فى رسائلها التى تبعث بها تعليقًا على ما يتناوله الأدباء .

كما أحب أستاذنا العقاد الفنانة مديحة يسرى وقال فيها شعرا رائعًا ومروعا أيضًا ـ وهذه حكاية أخرى طويلة . .

وأحمد رامى أحب كثيرات . وليست أم كلثوم وحدها . . وإنما له فى كل عاصمة واحدة . أذكر أننا ذهبنا معا إلى مؤتمر الأدباء فى دمشق . وفى الصباح الباكر جدا دق أحمد رامى على بابى . ثم ذهب يدق باب الروائى أمين يوسف غراب . وقال له : عاوزكم فى مسأله مهمة جدًا . .

ونزلنا معه . وقبل أن نصل إلى باب (المعرض الدولى) أمام فندق سميراميس الجديد قال :

هنا . . عندك . . تقفوا أنتوا الاثنين هنا مثل أسدى قصر النيل . . ولا سمعتم ولا رأيتم ولا كلمة واحدة بعد ذلك .

ولف أحمد رامى كوفية حول رقبته . . وتقدم وتقدم . . وتقدمت ناحيته فتاة شقراء كالبدر . . أو هى البدر . . ثم أضاء وجهها عندما انحنى أحمد رامى يقبل يدها . . ومر بها أمامنا وكأننا فعلا أسدا كوبرى قصر النيل من الرخام الذى ازداد برودا من الكسوف .

وانتظرنا أن يقول لنا ما الذى نفعله بعد ذلك .

ـ بس كده!

وفى بيروت دق أحمد رامى باب أمين يوسف غراب وقال : روح خبط على أنيس . .

فسأله : أنيس منصور قاعد بيحب عقبال عندك . . معه بنات من الجامعة الأمريكية .

قال رامى : هذا النوع من النساء هو بالضبط ما لا أحب . . نسوان ما تعرف . . رجالة ما تعرف . . إننى أحب الأنثى الخجول الرقيقة التى تتدفق فيها الأنوثة تجتاح رجولتى وتكنسنى وتغسلنى وتعصرنى وتنشرنى . . ومع ذلك قل له : رامى عاوزك ضرورى دلوقت . .

جاءنى أمين يوسف غراب

قال لى : مصيبة!

ـ أيه؟

ـ عاوزك .

ـ يوسف السباعى؟

ـ لا . .

ـ إحسان عبد القدوس؟

ـ لا . .

ـ ليلى عسيران؟

ـ أبدا . .

ـ ليلى بعلبكى؟

ـ مفيش غير صباح؟

ـ يا أخى لا . .

ـ ما تنطق . .

ـ عمك!

ـ عمى مين؟

ـ أحمد رامى!

ـ تانى نقوم بدور الحراسة . . حتى يفوز بعصافير الجنة ونحن نتلمظ وهو سعيد بإغاظتنا كل يوم . .

ـ قوم أحسن يزعل!

ـ . . . .

ولكن العقاد هو الذى انفرد بالفضيحة . . لأنه ليس عاشقًا فقط . . وإنما مفكر حر ومتسامح وناقد عظيم وشاعر أيضًا . .

فقال لى الرئيس السادات : يا أخى مادام العقاد أستاذك اكتب عنه الحقيقة . .

وهو أنت ناقصك أيه . . عندك الأسلوب والفكرة والرغبة الصادقة فلا يبقى إلا العزيمة!

وكان ذلك هو السبب المباشرة لكتابى (فى صالون العقاد كانت لنا أيام)، وكان الرئيس السادات يقرأ هذا الصالون عندما كنت أنشره فى مجلة (أكتوبر)، وكان يناقشنى مندهشًا مبهورا بحوارات العقاد وكان السادات يقول: أنا غير موجود معكم فى هذا الجو . . أنا كنت فى الناحية الأخرى غرقان فى السياسة . . وبينى وبينك أنا لا أحب الفلسفة . . لا أحب قضاياها. أنا أريدها أن تجد لى حلا لا أن تبنى لى قصورا جميلة فارغة . . قصورا ذهبية على الرمال . . أنا عاوز حل . . قل لى أحل المشكلة دى إزاى . . ماتقولشى أعبر عنها إزاى . .

وسجل الرئيس السادات رأيه فى (صالون العقاد) على شريط سمعه الدكتور لويس عوض وثروت أباظة وعدد كبير من الأدباء، وفى التسجيل رأى السادات يخالف رأى العقاد فى هروبه من وجه الألمان إلى الخرطوم.

ووعدنى صديقى الناشر إبراهيم المعلم بأن يجعل هذا الشريط ملحقًا لطبعة جديدة من (صالون العقاد) ـ ولا يزال وعده قائمًا . . أقصد نائمًا!

٦

والمخرج كامل التلمسانى وكان رجلا لطيفًا ظريفًا . . وكان مشغولا أيامها بكتاب له عنوانه (عزيزى شارلو) يقصد شارلى شابلن، وأصدر هذا الكتاب البديع . . وكامل التلمسانى كان يحدثنا عن روسيا وحرية الفنان المبدع ـ إذ كان موسيقيًا أو رياضيًا ـ أى الفنون التى ليس فيها كلام يختلف عليه الرقيب السياسى. وفى يوم جاءنى فى حالة فزع فقد اتهم الرفيق ستالين عددا من كبار الموسيقيين بالانحلال والبورجوازية . . أما أسماء هؤلاء الموسيقيين العظام فهى تعمق عندك الشعور بالحزن على مصرع الحرية الشخصية والرأى فى روسيا الشيوعية: ششنوفتش وخاتشدوريان وبروكفيف وقال وعاد وزاد . . ثم ترك مصر وهرب إلى بيروت ولم يعد!

وعثمان العنتبلى الناقد السينمائى لجريدة (المصرى).

وعثمان قصير القامة منتفخ الخدين والبطن. وإذا تحدث امتلأ فمه بالكلام وغابت عنك نظرته إليك أو إلى غيرك من المشاة.. وهو يبدأ كلام بقوله فى أى موضوع: مش طلع فلان حمار.. أولا.. وثانيا.. وثالثا.. وانتقل عثمان العنتبلى غاضبًا من جريدة المصرى إلى العمل فى (الأهرام) وكانت له غرفة صغيرة جعلها معتمة. وكان إذا راح يفكر انبطح على الأرض.. على بطنه ويتقلب.. هذا إذا كان مشغولا بنظم أغنية.. وكانت له أغنية وحيدة.. جاءنا مرة يقول: عندى فكرة إيه رأيكم نركب زورقا فى النيل.. وأقوم بعمل ثقب فى قاع الزورق ونموت معا بالتدريج.. وقبل أن يغرق الزورق بكم جميعًا أقفز منه لأكتب هذه المأساة الرائعة!

ويسكت لا ليرى رأينا فى هذه الفكرة المجنونة وإنما ليقول: يخص أننى لا أعرف السباحة!!

٧

وفى يوم دعانا كمال الملاخ إلى تناول الفول فى مطعم (ايسا فيتش) اليوجوسلافى فى ميدان التحرير المحل نظيف ورخيص جدًا.. وأمامك طبق كبير يفرغ ويمتلئ بالطرشى.. وربما كان هذا هو السبب الحقيقى لأن نذهب إليه ونأكل واقفين أيضًا.. وبسذاجة كمال الملاخ وعنجهيته قال: تفتكروا أنا عازمكم ليه؟

ودون أن يفكر أحد فى الإجابة.. قال: لأن عندى مناسبة سعيدة..

ولم يستوضحه أحد فقد اعتدنا على قصصه الناقصة والتى تدور كلها حوله هو: الفراعنة وجمال عينيه السوداوين وابتسامته الطفولية الجذابة وصوته الموسيقى وهيام السيدات العواجيز به ـ الأوروبيات خصوصًا.

وقال: إنها أمريكية دعوتها إلى العشاء فوق..

فوق . . فى فندق إلى جوار (البن البرازيلى) وسوف تظلون واقفين أمام المحل كالشحاذين الذين لا يمدون أيديهم صحيح لا تمدونها ولكن عيونكم تتسول هنا وهناك . . وأنا فوق . . فوق . . هاها . .

واستعدنا هدوءنا وصمتنا ومضى كل واحد إلى أفكاره . . ووقفنا (مرصوفين) . . وهى كلمة عربية فصيحة صحيحة . فالرصف معناه وضع الحجارة بعضها إلى جوار بعض . . فنحن ـ إذن ـ رصيف يقف على الرصيف . . ويقال هذا رجل رصيف أى حصيف أى عاقل ثابت كأنه حجر .

وفجأة وجدنا جاكتة قد وقعت أمامنا فى الشارع وعرفنا أنها جاكتة كمال الملاخ ، واندهشنا . . وتسابقنا على التقاطها ولم نفكر كيف هبطت من الدور التاسع فوقعت أمامنا بالضبط وليس فى الشارع ولا فى أى مكان آخر . وجاء كمال الملاخ منكوش الشعر غاضبًا . . وأخذ الجاكتة دون أن نسأله أو أن يقول لنا شيئًا . . ولم نعرف إلا فى اليوم التالى إنها السيدة الأمريكية التى كان قد استضافها . فتضايقت منه لأنه تركها ليرد على التليفون . . وكان كمال الملاخ أيامها غارقًا فى حب طالبة فى الجامعة الأمريكية . وكان يطلب إليها بعد نهاية كل مكالمة أن تطلبه . . ضرورى أن تطلبه . وكان يحدثها طويلا ويترك السيدة الأمريكية كأنها مومياء جلست على أحد المقاعد فى انتظار دفنها . . ولما كانت السيدة الأمريكية راقصة باليه فمشت إلى جواره برشاقة ونزعت جاكتته وهو يتحدث فى التليفون واستسلم لها . . وانتظر أن تجيء إليه تلاطفه أو تهنئه على أنه غارق فى الحب وهى غارقة فى الغيظ . . وبسرعة القطة ورشاقتها اتجهت إلى البلكونة وكومت الجاكتة وببراعة لاعبة كرة السلة أسقطتها تمامًا أمامنا . . وتركت المطعم وظل كمال الملاخ يتكلم فى التليفون حتى جاء الجرسون وقال له :

يا سعادة البيه الست خرجت وسابت لك الورقة دى . . وفى الورقة تقول له : إذا تطورت وانتقلت من (اسم حيوان) إلى (اسم حيوان) آخر وزحفت على بطنك كالأفاعى لتعتذر لى كأى بنى آدم قبل عودتى إلى أمريكا . . اليوم مساء . . وداعًا يا حانوطى مصر الفرعونية !

٨

ثم دخل بيننا يوسف إدريس . . ولم أكن أعرفه وإنما لفت نظرى إليه الشاعر مأمون الشناوى، كما لفت أذنى إلى المطرب هانى شاكر وقد أتى إلى مكتبى يغنى . . وكذلك عفاف راضى أتى بها إلى مكتبى لأسمع صوتها وقال لى مأمون الشناوى : أنا عاوزك تقرأ أول كتاب ليوسف إدريس اسمه (أرخص ليالى) وسوف تجده موهبة أدبية فريدة!

وقرأت الكتاب وأعجبنى جداً . . ووجدتنى أمام كاتب قصة بديع . . جديد . . رائع . . مقدرة فذة وجرأة، وكتبت عنه، وكلمنى يوسف إدريس وقال لى : أنا عاوز أشكرك شخصيًا . فأنت كتبت عنى، وأنت لا تعرفنى ـ أحسن ما ظهر فى الصحف . ولابد أن أقابلك .

فقلت له : فى البن البرازيلى .

ـ أنا عارف . . أنك بتقف هناك . .

ـ وكيف نتعارف . .

ـ أنا أعرفك . . ولكن أنا سوف أقف أمام البن البرازيلى وأمسك منديلا ألوح به . . فتعرفنى . . هاها . .

وفعلا ذهبت إلى البن البرازيلى ووجدته يلوح بالمنديل فتوقفت بسيارتى وطلبت إليه أن يركب . . وبدأنا صداقة طويلة ولكنها متشنجة . فيوسف إدريس لاصبر له على الصبر والعلاقات الطويلة إنه يزهق . . يمل . . ولذلك هاجم كل أصدقائه علنا واعتذر لهم سرًا . . وقد تمادى فى الهجوم على يوسف السباعى . ثم اعتذر له فى خطاب طويل نشره يوسف السباعى . وكان درسًا مؤلمًا ليوسف إدريس . .

أذكر أن الرئيس حسنى مبارك قد هاجم فى اجتماع الهيئة البرلمانية للحزب المحاولات الساذجة التى قام بها يوسف إدريس للإصلاح ما بين ليبيا ومصر ـ كأنه رودلف هس ـ وهى حكاية طويلة .

وفى الليل اتصلت بالرئيس حسنى مبارك لأعرف التفاصيل، وليست للنشر .

وقال لى الرئيس مبارك : إن يوسف إدريس إنسان طيب ولكنه مندفع وليست له رؤية سياسية واضحة . . ولولا خوفى على إصابته بالجنون لأعطيتك الخطاب الذى بعث به لى . . ففيه كلمات وعبارات لا يصح أن يوجهها أحد إلا إلى الله سبحانه وتعالى . وقد أحزننى أن يكون هذا حال كاتب كبير مثله حين يبعث بخطاب إلى رئيس الدولة الذى هو بشر مثله!

ولكن هذا هو يوسف إدريس .

فقد حاول يوسف إدريس أن يكتب عمودًا يوميًا فى الصفحة الأخيرة من (الأهرام) مثل الأستاذ أحمد بهاء الدين ومثلى . . ولم يستطع ثم راح يكتب مرتين فى الأسبوع . . ثم مرة واحدة . وهاجم كل الذين يكتبون الأعمدة اليومية . وهاجمنى دون ذكر اسمى . ثم اعتذر لى فى الأسانسير . وعاد يهاجمنى واعتذر لى فى الأسانسير ، وكتبت مقالا ردا عليه مستشهدا بالزملاء الذين كانوا فى الأسانسير فكتب لى خطابا طويلا يحدثنى فيه عن فضلى عليه ويثنى كثيرًا على أدبى وفلسفتى وخلقى . ونشرت الخطاب فضايقه ذلك كثيرا . وقال أنا سوف أقول إننى لم أبعث لك بهذا الخطاب .

فقلت وأنا سوف أنشره بخطك .

ـ بلاش الله يخليك . أنا مش عارف أنا بأكتب الكلام ده إزاى . أنت عارف رأيى فيك .

ـ كل يوم لك رأى يا يوسف .
ـ أنا كده .
ـ وأنا مش كده!!

٩

وانتهت (جمعية الوقوف) أمام البن البرازيلى من خمسين عاما إلى (جمعية القعود) فى مطعم «بنت السلطان» لصاحبه الفنان مصطفى حسين . وقد وجدنا أنفسنا

فى جمعية اسمها (الصفصافة) هل هى شجرة الصفصاف . . هل هو تدليل لاسم الفنان الكبير (مصطفى) حسين أو للوزير مصطفى عبد القادر - عضو الجمعية - لاعرفت ولا أحد قال لنا تفسيرا للاسم أو لأن يجد الإنسان نفسه عضوا عاملا . أو عاملا عضوا . .

والنصاب القانونى لهذه الجمعية : هو الكاتب الساخر أحمد رجب . وهو أقلنا كلاما وسخرية ومسخرة ، فعمله اليومى يمتص طاقته ويسد شهيته عن الكلام . .

وهو لا يجىء عادة إلا إذا رجوناه . فإذا وافق استغرق وقتا طويلا فى الاستعداد لهذا اللقاء : الاستحمام والتدليك والأناقة كأنه عريس والمطعم هو (الكوشة) ونحن الفرقة التى سوف تزفه إلى الكلام أو الامتناع عنه .

وفى هذه الجمعية محافظ القليوبية المستشار عدلى حسين . . طويل عريض عنده إحساس أن كل جلسة هى محكمة . ولذلك يتلفت إلى المتهمين والشهود ثم لا يقول شيئا لأنها ليست محكمة .

وأخيرا انضم إلينا المستشار فتحى نجيب رئيس المحكمة الدستورية . وهو ابن الصحفى القديم بالأهرام محمد نجيب رغم الاسم المخيف الجبار الذى يحمله المستشار نجيب ، فهو رجل لطيف وهو فنان . وكتابه الأخير عن القضاء المصرى به لمحات ذكية . . ومن بين هذه اللمحات قوله : إن الحرية هى الماء . . ماء النيل . . فحيث وجدوا الماء كانت الحياة وحيث وجدوا الماء موزعًا بالعدل على الناس كانت الديمقراطية .

ويغلب عليه الإنصات الطويل والكلام القليل .

وأكثرنا لا يوجه إليه كلاما احتراما له . . أو سعادة بوجوده بيننا .

ولكن مرة واحدة صدر قرار . فقد حصلت على (جائزة مبارك) للآداب وقررت الجمعية تقديم هدية تذكارية من النحاس على شكل صينية مكتوب عليها هدية من جمعية الصفصافة ولا مكتوب عليها اسمى ولا كتبوا المناسبة ولا حتى رئيس الجمعية . . ولذلك أتاحوا لى فرصة أن أهدى هذه الهدية لأى أحد فى أية مناسبة !

وقررت أن أعيدها إلى جمعية الصفصافة ـ امتنانا لها واعترافا بفضلها وسماحتها فى أن تعطى بالشمال وتأخذ باليمين . . فالهدية منها وإليها . . وبذلك تظل هذه الهدية التذكارية حائرة بين كل الأعضاء . ولما أصبح المستشار فتحى نجيب رئيسا للمحكمة الدستورية لم تجد الجمعية خيرا من هديتها لى ، فأهدتها لسيادة المستشار الذى يضعها فى البيت الآن لتكون جاهزة إذا استدعاها أحمد رجب ومصطفى حسين . . وأغلب الظن أنها سوف تذهب إلى الفنانة ، عضو الجمعية ، السيدة سميرة أحمد إذا هى فازت بالحكم لصالحها فى قضيتها المعروضة أمام المحاكم . أما إذا لم تفز فمن حق الجمعية أن تعيدها إلى أول من فاز بها ـ أى إلىّ أنا . .

ولم نجد أحدا في استقبالنا في موسكو!

ومن رحلة الأدباء إلى بغداد لم أعرف إلا اثنين. أحدهما عراقى هو الشاعر حافظ جميل صاحب القصيدة الطريفة الرمزية: يا تين يا توت يا رمان يا عنب. . وأعتقد أنها جاءت قبل أغنية عبد الغنى السيد: يا بتاع الرمان. . يا بتاع الفل. . بص علينا وطل. .

وكان حافظ جميل خفيض الصوت يهمس مع أنه يتخانق سياسيا. . وكان الشاعر المصرى صالح جودت لطيف الحديث ومشاكسا وهو الذى يدفعه إلى الخناقات والنكت. وكان حافظ جميل يفضل أن تجيء إحدى السيدات العراقيات تقرأ علينا شعره. وأذكر أن إحدى قريباته جاءت وأنشدت شعراً جميلا. وكان شعرها هى. . فهى حلوة الوجه وفى صوتها بحة تزيد صوتها إثارة، ولما طلب إليها أن تقرأ بعضا من شعره قالت: صعب!

فتساءلنا: لماذا؟

قالت: بعض قصائده لابد أن أقرأها فى البانيو. . وبعضها يجب أن أقرأها عارية. . وبعضها يجب أن أمسك سكيناً لأغتال الشاعر. فماذا تختارون!

فقلنا: اقتليه!

وتدخلت زوجة الشاعر وقالت: لقد جربنا ذلك كثيراً ولكنه كما ترون لم يمت!

أما الشاعر الثاني فهو الشاعر اليمنى الحضرمى على أحمد باكثير.. قصيرالقامة شكله أندونيسى. لا يلفت العين.. ولا الأذن إذا تكلم ولكنه موهبة عظيمة عاش ومات دون أن نقدره حق قدره.. فهو أول من كتب الشعر غير العمودى. وهو من أحسن الذين كتبوا المسرحيات السياسية والشعر المسرحى. ومسرحياته عن دكتاتورية العراق بعد ذلك من روائع الأدب السياسى الحديث. وله مسرحية قام ببطولتها الفنان محمد عوض هى (جلفدان هانم).. وقبل عرض هذه المسرحية كان من المفروض أن تشاهدها لجنة خاصة ـ كنت عضوا فيها. وتغيب أعضاء اللجنة إلا أنا. وأمام جمهور محدود معظمهم من طلبة الفنون وبعض الممثلين ظهرت المسرحية وكانت لى بعض الاعتراضات على جمل وبعض الإيماءات. ولم يشاهدها على أحمد باكثير.

وركبنا القطار من بغداد إلى البصرة. المشوار طويل. وطلب على أحمد باكثير أن أسمح له بأن ينام بعض الوقت. ونام فى مقعده. وصحا فى غاية الحيوية. وشهيته مفتوحة للكلام وقال عاوز اتكلم معاك.

ـ يسعدنى

ـ الحمار؟

ـ من؟ (وذكر اسم أحد الزملاء)

ـ ما له؟

ـ عرض علىّ أن أتزوج أخته.

ـ كيف؟

ـ هذا ما حدث!

ـ وهل تعرفها؟

ـ أبدًا..

ـ ويعلم أنك متزوج؟

ـ أظن .

ـ فماذا فعلت؟

قلت له : عيب . . لا أنا جميل الصورة ولا أنا غنى ولا أنا معروف فى بلدكم ولا فى بلدى . . فكيف تتحدث فى موضوع لا يخصك . قال لى : إنها معجبة بك . . فقلت : معجبة بماذا : لا شكل ولا مركز . .

ـ لعله يداعبك . .

ـ أبدا . . لقد أخرج صورتها من جيبه .

ـ وبعدين؟

ـ هى لا تعرفنى وأنا لا أعرفها . .

ـ وماذا فعلت؟

ـ كتبت لها خطابا قلت لها إننى شعرت بالعار عندما حدثنى أخوك . . وأنت مسكينة حقًا إذا كان لك أخ بهذا المنظر . اضربيه بالحذاء . فإن لم تستطيعى فسوف أجد من يفعل ذلك نيابة عنك وعنى !

ـ وأين الخطاب؟

ـ أعطيته له . .

ـ مغلقًا؟

ـ لا . . مفتوحًا . وطلبها فى التليفون وقرأه لها . .

ـ وبعدين؟

ـ جاء الرد أن رجلا مثلى يقول كلاما جميلا كهذا يستحق أن أتزوجه .

ـ فماذا فعلت؟

ـ إن فتاة تتصرف مثلها لا تستحق أن يتزوجها أحد . . إنها تبيع نفسها للمجهول ولها أخ يبيعها كأنها جاموسة أو بقرة . . إن كليهما يستحق عظيم الاحتقار !

سألت يوسف السباعى عن رأيه فى هذه الحكاية الغريبة . فضحك يوسف السباعى وهو كثير الضحك والخفة والمرح وقال : يا أخى . وهل صدقت؟

ـ يعنى إيه؟

ـ إنها واحدة مصرية موجودة فى بغداد، والذى لم يقله لك باكثير إنها كلمته فى التليفون. وباكثير يبدو ساذجا ولكنه ماكر وعفريت.. لقد ضحك عليكم جميعا وقد تخانق الاثنان فى أول ساعة!

ـ وهل تقابلا؟

ـ طبعًا. وهى افتعلت خناقة وقالت له إن شكلك وحش جدًا وملابسك مؤلمة.. ولن أتزوجك إلا إذا تغير مظهرك العام..

ـ وهل طلب منها الزواج؟

ـ أيوه.. وهى التى رفضت. وقال لها اختارى أى واحد أنيق من الوفد المصرى وأنا سوف ارتدى ملابس أجمل.. فاختارتنى أنا. فقال لها: الملابس أقدر عليها.. ولكن اللون الأبيض الوردى وزرقة العينين مثل يوسف السباعى.. هذا صعب جدًا. هذا يحتاج إلى أن يعيد الله خلقى من أول وجديد.

فقالت له: هذا شرطى.. فما كان منه إلا أن خلع الجزمة وراح يجرى وراءها فى شوارع بغداد...

ـ ولكنه لم يقل لى شيئًا من ذلك!

ـ هاها.. أنا تضايقت من هذه التمثيلية.. ولكن زميلنا كان قاسيًا مع باكثير.. ولا أعرف لماذا.. أغلب الظن أن صاحب هذا المقلب هو صالح جودت أو أحمد رامى.. فكلاهما لا يحب باكثير.. بعد أن قال باكثير رأيه بصراحة فى شعر صالح جودت.. وهاجمه.. ألم تلاحظ أن باكثير لم يعد يرتدى القميص.. وإنما البلوفر فقط حتى فى الحفلات الرسمية.. لأن الفتاة عندما قابلت باكثير افتعلت الوقوع عليه وقبلته فى قميصه الأبيض.. فظهرت شفتاها فاقعتين على قميصه الوحيد!

ـ مسكين..

ـ ليس مسكينًا إلى هذه الدرجة . . فقد نظم قصيدة هجاء عنيفة جدًا فى صالح جودت . . قصيدة موجعة ونارية ووزعها على أعضاء الوفود قبل أن يعرف بها صالح جودت لدرجة أنه قرر العودة إلى القاهرة . . وضغطت عليه أن يبقى وسوف أحاول الليلة أن أصلح بينهما . . أنت حاول مع باكثير وسوف أحاول أنا مع صالح جودت .

وفشلت المحاولة فقد تسلل باكثير إلى الكويت وعاد صالح جودت إلى مصر !

١

قبل أن نسافر إلى موسكو أكدوا لنا أنه من الضرورى أن نكون هناك فى ليلة رأس السنة . . فقد أعدوا لنا برنامجًا حافلاً فى موسكو وستالننجراد ومدن أخرى . لابد أن يكون السفر واللقاء يوم رأس السنة . أما الوفد فكنا ثلاثة : الدكتور عبد القادر القط وحمدى الكنيسى وأنا . . وكانت الطائرة الروسية مقبضة لا فيها أكل ولا شرب ولا المقاعد مريحة ولا صوت محركاتها ناعمًا . ويبدو أن الرحلة من أولها مقلب .

ووصلنا إلى موسكو . ووقفنا ننظر يمينا وشمالا . . واحد من هنا وواحد من هناك . نعرض ونستعرض لعل أحدًا يهتدى إلينا . لا أحد . . ثم إننا لسنا مزودين بأية معلومات . وما حاجتنا إلى أرقام تليفونات السفارة واتحاد الأدباء . . مادام رئيس اتحاد الأدباء الروس سوف يكون فى انتظارنا بالمعلومات والورود والسيارات والأحضان والقبلات . . وخلا المطار إلا منا نحن الثلاثة . وبدأنا نسأل إن كان أحد يعرف الإنجليزية . لم نجد إلا القليل من الكلمات عند القليل من الناس . وكلمة من هنا وإشارة من هناك وفهمنا أن فى المطار فندقًا . لابد أن نبيت حتى الصباح . . وفى الصباح اتصلنا بالسفارة المصرية . وجاءنا الوزير وفاء حجازى . وأضاءت موسكو وظهرت ملامحها . وعرفنا من الوزير المفوض أن كل الأدباء خارج موسكو . . وأنه حاول أن يكلم منهم أحدًا . وانتقلنا إلى فندق

أكبر . . وفى الفندق جاءنا الزميل عبد الملك خليل . وعرفنا أنه سوف يجد طريقة ليعوضنا عن سوء الفهم الذى حدث ـ وجاءت مترجمة روسية مسلمة اسمها : تانيا بدر الدينوفا . صغيرة محندقة . وبدأت الرحلة بشعورنا بخجل لا نهائى حتى بعد أن انتهت الرحلة . فقد قال لنا عبد الملك خليل إن المترجمة معها مبلغ من المال لكل واحد منا لينفق على طعامه وشرابه . . ومن الأفضل أن نطالبها بفلوسنا . ولا أعرف من الذى فاتحها فى ذلك . وأدرت ظهرى وفتحت هى حقيبتها واستخرجت الفلوس ونظرت إلى الأرض حتى لا أرى عينيها عندما توزع علينا الفلوس . .

ولم يظهر حتى الآن أديب روسى واحد . وسافرنا بالقطار إلى ستالننجراد . المشوار طويل ـ والقطار طويل مظلم . والليل أسود بارد . واشتهينا كوبًا من الشاى . فقالت لنا المترجمة إن الكمسارية تنام فى العربة الأولى من القطار الملصقة للقاطرة نفسها . . والمسافة بيننا وبينها أكثر من أربعين عربة ، والقطار يترجرج ويتخلع . وعندى إحساس طول الوقت أن إحدى العربات سوف تنفلت وسوف نجد أنفسنا وحدنا مع الجليد الدامس . . ووصلنا حيث تنام الكمسارية وأيقظناها . وأخرجت حافظة نقودها وفى أعماقها استقر كيس صغير من الشاى أبو فتلة . . والشاى مفعوص لأنه استقر فى هذا المكان زمنا طويلا . . ويبدو أيضًا أنه تجاوز عمره الافتراضى . . فقد كان الشاى بعد الغليان أصفر اللون ــ وكل شىء فى روسيا أحمر إلا الشاى !

وعدنا لننام فى عربتنا . وطلع النهار علينا فى ستالننجراد وذهبنا إلى الفندق . والدنيا شديدة البرودة . أما الفتاة المرافقة لنا فقد استعدت للبرودة فعلى دماغها (تشبكا) أى طاقية من جلد الثعلب وبالطو ثقيل وبوت طويل ، أما ملابسنا فخفيفة وأحذيتنا أيضًا . وقدرتنا على تحمل درجات الحرارة القريبة من الصفر محدودة . . ولم تكن الحرارة قريبة من الصفر وإنما بعيدة جداً . . فهى تحت الصفر بثلاثين درجة !

وشكوت فى الفندق أن الشاى قليل . وأن الذى يقدمونه لنا فى الصباح يعادل ثلث ما اعتدنا عليه .

وسألونى : يعنى عاوز أيه؟

ـ عاوز مزيدا من الشاى أو باللغة الروسية (أوتش كريبكى) . . أى ثقيل جداً .

قيل لنا : لابد من انعقاد اللجنة . .

ـ لجنة أيه؟

ـ لجنة الإدارة الفندقية . .

ـ يعنى أيه؟

ـ الفندق له قوميسارة . وهذه القوميسارة لابد أن تدعو إلى انعقاد اللجنة لتعرض عليها الطلب المقدم من الوفد المصرى بزيادة حصته من الشاى . .

ـ ولا يمكن من غير لجنة؟

ـ مستحيل . .

وانعقدت اللجنة ووافقت . وكان علينا أن نوقع على ورقة بتسلم كمية أكبر من الحصة المقررة!

وأجمل ما فى ستالننجراد متحف (أرميتاج)ـ فلا أروع ولا أعظم فى الدنيا كلها . . أكثر من أربعة ملايين لوحة أصلية لكبار فنانى العالم . . وعندما حاصر الألمان مدينة ستالننجراد لم يقترب أحد من المتحف وكذلك من مدرسة الباليه . ففى ستالننجراد أكبر مدرسة للباليه فى العالم . هذه المدرسة لم تتوقف أثناء الحرب . فهى تراث عالمى . وكان الحلفاء يبعثون لتلاميذها باللبن والزبدة والبطاطين والفيتامين لتوزيعها على التلامذة والتلميذات فى مدرسة الباليه . .

وعدنا إلى موسكو . وسافرت إلى سمرقند فى أوزبكستان . . وهناك كان لنا مترجم ظريف جداً . أبوه من مشايخ الإسلام ، ثم كان هذا الحوار بيننا : أنتم تصلون كل يوم؟

ـ نعم .

ـ كل يوم؟ !

ـ نعم . وخمس مرات فى اليوم؟

ـ خمس مرات؟!

ـ نعم . .

ـ ومتى تعملون إذن؟

ـ نعمل طبعا لابد أن نعمل . . لأن الصلاة تستغرق وقتا قصيراً . .

وكانت لغته الإنجليزية مضحكة . فهو لا يعرف إلا الأفعال فهو يقول مثلا : نأكل . . نخرج . . ننام . نلتقى غدا . .

ـ أوكى!

وفى الصباح يقول : نخرج . . نمشى . . نتفرج . . نأكل . . ننام نعود إلى البيت (هو الذى يعود) .

أما يوم العودة إلى مصر فكان من أسوأ الأيام . فكل من طلب منى شيئًا فى مصر فقد اشتريته له . . أتيت بطاقم من الخزف الرخيص للصديق كمال الملاخ . . ولعبة عبارة عن دب من القماش لمصطفى أمين . . أما الكتب التى وزعوها علينا فكثيرة جداً . .

وفى المطار جاء يوسف السباعى بتاع الإتحاد السوفيتى ـ لا أعرف اسمه الآن ـ واعتذر لنا عن الذى حدث والذى لم يحدث ، وكان لطيفًا .

فقلت له إن معنا أوزانا كثيرة ثقيلة! فضحك ووقفت أمام الميزان وتوالت الكيلو جرامات أزيد من المسموح به . وكنت معتمدا على أن رئيس اتحاد الكتاب بما لديه من سلطة سوف يحذف كل ذلك كما يفعل يوسف السباعى مع الروس فى مصر . وطلبت منى موظفة مؤسسة الطيران أن أدفع قيمة الوزن الزائد وقدره مائتا دولار . فنظرت إلى رئيس الاتحاد وانتظرت أن يتقدم نحو الموظفة ويشير بيده فتحذف كل ذلك . . وكيف لا تفعل من تلقاء نفسها؟ ألا تعرف أننا بلد السد العالى . . وإنما الرجل ابتعد كثيرا لدرجة أننى عندما استغثت به لم يسمعنى واكتفيت ببعض

الهدايا وتركت النشرات السياسية والأسطوانات التي وزعوها علينا. ودفعت. . أما الحيرة فكانت على وجه الدكتور عبد القادر القط. ويبدو أنه حرص على أن يحتفظ ببعض ما اشترى وأن يدفع الوزن الزائد. . أما حمدى الكنيسى فلم يشتر إلا القليل. .

وكانت المترجمة بدر الدينوفا قد استنكرت كثيراً أن نشترى من روسيا أى شيء وتقول لنا: السلع هنا رديئة. ومادمنا قادرين على زيارة باريس ولندن وواشنطن فلماذا ننفق فلوسنا هنا؟ وكانت جريئة. ولكنها جرأة اليأس والقرف من الحياة فى روسيا.

قالت لى وصدقتها إن ستالين أصدر قراراً بتفريغ القرية التى كان يعيش فيها أبواها. . وشرد الناس جميعًا فى كل روسيا. فأبوها وأمها لم يلتقيا إلا بالمصادفة فى محطة موسكو. . أمها سافرت إلى أوكرانيا وأبوها إلى سيبيريا. . وهى لا تعرف أين هما الآن وهى لم تسمع بهذا اللقاء بينهما إلا من صديقة لها تعمل فى محطة موسكو. .

ما الذى يمكن أن أبعث به هدية إلى المترجمة المسكينة. قال لى الزميل عبد الملك خليل: شنطة من الجلد المصرى. . وأرسلت لها الشنطة مع خطاب امتنان لها. .

وفى زيارة أخرى لروسيا قال لى عبد الملك خليل إنه زار الفتاة فى المستشفى. وأعطاها الشنطة. فبكت. فلم تتوقع ذلك. ولم يرحمها البوليس الروسى فقد جاءوا يسألونها: ولماذا هذه الهدية؟ وماذا قدمت لهم من المعلومات؟

ـ لا معلومات!

ـ كيف؟ وهل يقدمون لك هذه الشنطة بلا مقابل؟

ـ إنها تقاليدهم الشرقية. اسألوا عبد الملك خليل!

ـ إنه مصرى مثلهم. .

ـ بل هو روسى مثلنا وزوجته روسية!

وفى اليوم التالى جاءت لها لجنة من الأمن القومى: رجلان وسيدة وأعادوا

استجوابها . وقالت نفس الكلام ـ وراحوا يقلبون فى الشنطة ويفتشونها ويعجبون بصناعتها الدقيقة . .

فقالت : أنا لا أريدها . خذوها .

وأخذوها . وجاءت لجنة ثالثة تسألها : ولماذا تنازلت عن هذه الشنطة؟

ـ لا أريدها . .

ـ ولماذا احتفظت بها قبل ذلك؟

وأغمى عليها من الإرهاق . . ولما أفاقت . وجدتهم صامتين يقلبون فى أوراق لهم . وسألوها : من الذى بعث بهذه الشنطة وماذا يعمل؟ إلخ . .

ويبدو أنها صعبت عليهم . فعرضوا عليها أن يشتروا الشنطة . فشكرتهم . وأخذوها وباعوها فى السوق السوداء واقتسموا ثمنها؟!

وكان المصحف هدية من جيش الدفاع الإسرائيلى!!

١

إذا دعاك ممدوح الليثى كبير الفنانين إلى الإفطار فلا تتردد.

فكثيرون لم يندموا على ذلك. فهو رجل كريم وموائده عامرة كأنها إعلان مدفوع عن مطاعم العجاتى والركيب وسميراميس والسبيلجى. انضرب المدفع. فانطلقنا. وفرقعت الشوك والسكاكين والأطباق.. ومن هنا.. لا من هنا أحسن.. على كيفك.. وأفسحت لى مكانًا. وعلى يمينى كانت البامية باللحمة وعلى شمالى الملوخية بالأرانب وأمامى كشك وهناك حمام بالفريك يواجهه ديك رومى.

ووجدت الموقف يحتاج إلى أن أضع يدى على خدى وأقول:

وحطيت أيدى على خدى وعديت باللحظة غيابك ولاجيت يا ريتنى ما جيت.. كما تقول الست. أمام الذى غاب ولم يأت فهو أى طعام مناسب لى.

واقترب منى ممدوح الليثى يقول لى: إيه مالك؟

ـ مفيش.

ـ مفيش إيه؟

ـ مفيش أكل!

ـ أمال ده إيه . . ياخبر أنا نسيت أنك نباتى . .

وينادى ابنه عمرو : هات جبنة يا عمرو !

ومن بعيد يقول عمرو : مفيش !

ـ طيب هات فول !

ـ مفيش !

ـ الله وبعدين . . وبسرعة انطلق أحد السفرجية وبعد لحظات عاد ومعه طبق ملىء بكل أنواع الجبن . . الأبيض والأصفر والأحمر والمملوحة . . وعيش مفقع . . ودق الجرس بإلحاح وكنت الأقرب إلى الباب . . وفتحت وجاء البواب ومعه طبق فول غرقان فى الزيت وحاشية من البصل الأخضر . . ووراءه ثلاثة من الأطفال تعلقوا بملابسه . . وكل واحد معه بقايا رغيف . .

طيب بالذمة إذا كان هذا هو كل أكل البواب وأولاده كيف يمكن أن أذوق أى طعام . .

لحسن حظى أن العمارة التى يسكنها ممدوح الليثى كانت تحت الإنشاء والتشطيب . . ولذلك احتشد فى الدور الأرضى عدد كبير من العمال يتناولون إفطارهم . . وجاء السفرجى ومد يده إلى رغيف من هناك وبصلة من هنا . . ووجدت أمامى طعامًا كثيرا . . وأكلت مع أنه كان فى الإمكان أن أبدأ بالحلو على أن أتناول الإفطار فى بيتنا . . ولكن إصرار ممدوح الليثى ووجود السيد صفوت الشريف وأسرته بربطة المعلم جعلنى آكل وأكتفى بالنظر إلى بقية أصناف الطعام ذات اللون والرائحة الفاتحة للشهية !

ومن يومها جاء رمضان وبعده رمضان . . لا دعانى ممدوح الليثى إلى إفطار أو غداء أو عشاء . . ليس بخلا ولكن العمارة اكتملت تمامًا ولم يعد هناك عمال !

٢

يظهر أن الرئيس الفلبينى ماركوس قد تعب . وأنا زهقت . فقد جاء دورى فى

مقابلته الساعة الخامسة مساء. وكانت هناك محاولات مستمرة لكى أصبر على ما أنا فيه.. هذا يأتى بالشاى وذاك بالكوكا وأخيراً جاءت السندوتشات فأدركت أن الحكاية طويلة. ولم أستبعد أن يكون الرئيس قد تركنى وذهب لينام. ممكن. هذا حقه. وإيش نكون إحنا.. فأنا سائح عابر وكل ما أردت هو أن أقابل الرئيس وأجلس إليه وأسأله كام سؤال لكى أكتب عن هذا اللقاء. وبس.. وتصادف أن وقعت أحداث تستحق أن أسأله عنها.

وجاء دورى فإن لم يكن الرئيس قد نام فمن المؤكد أنه فى حاجة إلى ذلك. فعيناه حمراوان ويتثاءب وكلها إشارات إلى أنه يجب ألا أطيل الجلوس. سألنى: وبلادكم صحراوية؟

قلت: نعم.. وإذا سقطت الأمطار عندنا تظهر الصحف فى اليوم التالى بالخط الأحمر تقول: لقد أمطرت السماء أمس!!

وضحك الرئيس وانتعش واقترب من مكتبه لكى أمده بمزيد من النكت.

لأن بلاده (سبعة آلاف جزيرة) لا تكف السماء بكاء عليهم طوال العام!

وسألنى عن الرئيس القذافى: وكيف بلاده؟

ـ صحراوية غنية بالبترول.

ـ ولذلك يدفع فلوسا وسلاحا إلى المسلمين المتمردين فى بلادنا.

وأعطانى بداية الخيط فقلت له: يا سيادة الرئيس أنتم البلد الكاثوليكى الوحيد فى قارة آسيا وأنتم تضطهدون المسلمين الأقلية!

ـ أبدا.. ويمكنك أن تذهب بنفسك لترى. متى تحب أن تذهب إلى هناك؟

ـ أى وقت.

ـ ليكن غدا!

ـ شكراً يا سيادة الرئيس..

وفى الصباح الباكر جاء من يقول لى: يمكنك السفر إلى جزيرة مندناو وبعد ساعة!

قلت: طبعا هذا أملى.. منتهى أملى أن أذهب وأتفرج!

الطائرة صغيرة. لقد وجدوا لى مقعدا بالقوة، ويبدو أننى أجلس مكان الرجل الواقف إلى جوارى ويحمل فوق دماغه قفص ديوك. . وهذه الديوك خاصة بمسابقات الديوك الشعبية. . فهم يحولون أصابع الديوك إلى سكاكين حادة. . أو يضعون على جانبيها أمواس حلاقة صلبة. ولذلك تبدأ (مصارعة الديوك) وتنتهى بعد لحظات. . فأحد الديوك قد قطع رقبة الديك الآخر بين تصفيق الجماهير والمراهنات التى تخرب بيوت هؤلاء الفقراء.

ولا أظن أن هناك اتفاقًا بين هذا الرجل وبين الديوك التى فى القفص، إنه كلما اهتزت الطائرة أسقطت الديوك مخلفاتها فوق دماغى. وبعد ساعات من مخلفات الديوك والعواصف التى كانت تكركب الناس الواقفين من أول الطائرة إلى آخرها بعضهم فوق بعض، وصلنا. .

وفى المطار الصغير وجدت من ينتظرنى. إنه موفد من قبل عضو مجلس الشيوخ عن الجزيرة: السناتور أللونطو.

قدم لى نفسه على أنه طالب أزهرى. يتكلم اللغة العربية كما نتكلم نحن اليابانية بلهجة صينية غير مفهومة لا فى اليابان ولا فى الصين. ولكنه ظريف ويحسن استخدام الثلاثين كلمة عربية التى يعرفها. . وأخذنى إلى المسجد مباشرة. وفى المسجد وجدت دولابا وفى الدولاب كتب وعلى الدولاب هذه العبارة: كتب مقدسة!

وأدركت من اللحظة الأولى أنهم أناس طيبون لا فكرة عندهم عن الإسلام. ففى الإسلام كتاب واحد مقدس. أما هذه الكتب فى الدولاب فهى: كليلة ودمنة وجزء من ألف ليلة. وكتاب (أدب الدنيا والدين) وبقايا كتب عربية منزوعة الأغلفة. ولم أكن فى حاجة إلى مقابلة أحد من رجال الدين الإسلامى. .

وجاء موعد الغداء أو العشاء.

ورأيت طعامًا غريبًا. أطباق صغيرة. بها سوائل لاحمراء ولا صفراء. . والأرز عبارة عن عجينة متماسكة يقطعونها بالسكين. وسمك لا هو مسلوق ولا هو

مشوى . . وأطباق أصغر كثيرة . وثمار المانجو والأناناس . وجلس حول التربيزة كثيرون من الرجال . وكان الأطفال الصغار أسبقنا إلى اللعب بأصابعهم فى الطعام . وأشاروا أن آكل . فقلت : أنا صائم!

وتباحثوا . وقال الطالب الأزهرى : كيف؟ فقلت : عادة قديمة أن أصوم كل يوم اثنين وخميس . .

ونقل كلامى إليهم . ثم عاد يقول : ولكن اليوم هو الثلاثاء . .

فقلت : لقد فاتنى أن أصوم أمس . ولذلك يمكننى أن أصوم اليوم فترجم لهم . ودار بينهم كلام طويل فعاد يقول لى : لكن اليوم هو الجمعة . .

فقلت : لأننى لم أتمكن من صيام الخميس الماضى فمن الواجب أن أصوم اليوم!

وبسرعة سحبوا التربيزة بما عليها من طعام . واختفى الأطفال . وجلسنا كل واحد قد أسند ظهره للحائط . ولا كلمة كأننا فى مأتم .

ومضت ساعة من الصمت كأنها ساعات . ولم أستطع أن أفهم ولا وجدت الأخ الأزهرى لكى أشرح له أنه يمكننى أن أكتفى بالفاكهة . ولكنى لم أجده .

ثم جاء الأخ الأزهرى ليؤكد لى أنه سأل أحد العلماء فقال له : إننا بالفعل فى أول شهر رمضان المبارك ـ وأنه يحاول . .

فقلت : يحاول ماذا؟

قال : أن يتصل بالسفير المصرى أو السفير السعودى . .

ـ لماذا؟

ـ ليتأكد من موعد الإفطار . .

ـ لا داعى لذلك . . يكفى أن الشمس قد غربت . فغروبها هو نهاية يوم الصائم!

ـ ولكن العادة هنا ألا نفطر دون موافقة أحد السفيرين!

ـ فماذا حدث؟

ـ يبدو أن كليهما يفطران فى مكان يصعب الاتصال بهما .

ـ إذن؟

ـ ننتظر وربنا يفرجها !

ـ إذن هل من الممكن أن أنام قليلا حتى يمكن الاتصال بأحد السفيرين . .

وأغلقوا الباب . . ولسعادتى وجدت الترابيزة فى غرفتى وعليها المانجو والأناناس والبابايا . . إنه ألذ إفطار وسحور . .

وفى اليوم التالى تظاهرت بالمرض . وأعفيت نفسى من الصيام .

وسافرت إلى العاصمة ولما طلبوا منى أن أقابل الرئيس قلت : إننى مضطر أن أسافر إلى هونج كونج .

وفى المطار جاءنى مندوب من وزارة الخارجية وسألنى عن اضطهاد المسيحيين للمسلمين . فقلت : بل المسلمون هنا هم الذين يضطهدون أنفسهم . . وهم فى حاجة إلى سنوات ليكونوا مسلمين !

٣

طلبت الأديبة يا عيل ديان ابنة موشى ديان أسألها عن برنامج زيارة السيد كمال حسن على وكذلك د . بطرس غالى فقالت :

لا شىء . . كوكتيل فقط . .

ـ كوكتيل؟ يا نهار أسود ده احنا فى رمضان !

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى مفيش كوكتيل !

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى لاخمور فى شهر رمضان !

ـ أمال أيه!

ـ لا كحول فى رمضان . . وإنما إفطار بعد أذان المغرب . .

ـ يعنى أيه؟

ـ يعنى نحن صائمون: كمال حسن على رئيس الوزراء وأنا وآخرون . . بطرس غالى ليس صائمًا طبعًا!

ـ مش فاهمة . . فأنتم أول وفد إسلامى يزور إسرائيل فى شهر الصيام . . إذن لابد أن نسأل أحد الشيوخ!

ونقلت الحكاية للسيد كمال حسن على وظللنا نضحك . ووصلنا إلى إسرائيل . . وتأخر الإفطار ساعتين فقد كان عليهم أن يزيلوا كل آثار الكوكتيل وقد سألوا أحد الشيوخ ويبدوا أنهم بذلوا مجهودًا كبيرًا لإعداد طعام رمضانى . . فقد أسرفوا فى تقديم الفول والطعمية والحلويات الشامية ، وتساءلوا كثيرا إن كانت الكوكا مما يمكن تقديمه فى رمضان . وسألوا عن اللحوم والأسماك والأرز وفتة الكوارع . لخبطة واضحة جدًا . وبعد أن أفطر الناس فى مصر بساعتين تقدمنا نتناول طعام الإفطار . أما بقية الضيوف فلم يكن قد مضى على غدائهم إلا ساعات قليلة . وهم يتظاهرون بالمشاركة فى الطعام . .

وقد سمعنا من وزير الدفاع عيزرا فايتسمان كيف أنهم حاولوا المستحيل فى هذا الوقت القصير أن يقدموا طعامًا رمضانيًا لم يسمعوا به إلا أخيرًا .

ونكتة من هنا ونكتة من هناك . . وكانت أكثر النكت من الجانب الإسرائيلى . . وأمضينا وقتًا مضحكًا لنا وعلينا . .

وعلى الرغم من وجود الفلسطينيين بينهم فلم يخطر على بال اليهود كيف يأكل المسلمون فى رمضان . ولا متى ولا ماذا . . . ولم يفكروا فى دعوة عدد من أعيان المسلمين أو حتى المصريين اليهود . .

وكان عليهم أن يجاملونا فيأكلوا . . أى يتناولون غداءهم مرتين!

وفى الساعة العاشرة والنصف مساء جاء من يدق باب غرفتى فى فندق الملك داود ويسألنى : ماذا تحب أن تأكل ؟

ـ ولا حاجة !

ونظر فى ورقة طويلة . وقال : ولكن مكتوب فى هذه الورقة إنه لابد أن تأكل ليلا قبل الفجر . .

ـ سحور يعنى؟ ليس من الضرورى !

ونظر فى الورقة . وقال : بل ضرورى جدًا . فماذا تحب أن تأكل؟

ـ ولا حاجة !

وعاد ينظر إلى الورقة ويهز رأسه . إنه لا يفهم . فقلت :

أنا لا أحب أن آكل ليلا . وسوف أنام بعد نصف ساعة تقريبًا . شكرا !

ولم يفهم . ففى الورقة التى فى يده كلام كثير . .

وفى الساعة الحادية عشرة دق الباب . ودفع بتربيزة لها عجلات إلى داخل الغرفة . ولما اعترضت دفعنى أنا أيضا .

وقال : أنت حر فى اختيار اللى على كيفك . . هذه تعليمات !

وأغلق الباب . واختفى . .

وعلى التربيزة : لحوم مشوية . . أشكال وألوان وأحجام . ومعها أرز ومكرونة . . وأسماك أحجام وأشكال . . وسلاطات . . وحلويات . . وخبز . . وتربيزة صغيرة عليها خبز وجبن . فالديانة اليهودية تحرم أن يجتمع اللحم واللبن ومشتقاته فى مكان واحد . ولذلك وضعوا الجبنة على منضدة أخرى . . ومعها فاكهة . وكثير من عصير الليمون . طبعًا لم يتسع وقتهم إلى الإتيان بقمر الدين . . ولكن ظهرت الغريبة والكعك والبسكوت والكنافة والبسبوسة .

وتضايقت جدًا . . فأنا لا أحب رائحة الطعام فى غرفة النوم . . ولابد أن هذه الروائح قد علقت بالملابس . . وفتحت الباب وزجاجة كولونيا ودفعت الطعام إلى

الخارج . ولم أجد أحدا أقول له بأن يبعد عنى رائحة الطعام وهى رائحة فاقعة قوية . وعلقت ورقة على الباب : أرجو عدم الإزعاج . .

ولم يزعجنى أحد . وجاء النوم بسرعة . وخطرت لى فكرة . ولكن استبعدت أن تحدث . فتساءلت : ماذا أفعل لو جاء أحد وفى يده ورقة طويلة وأيقظنى للوضوء وصلاة الفجر فى المسجد الأقصى . . الفكرة جيدة . ولكن لا أظن أنهم سيفعلون ذلك بعد أن وضعت ورقة على الباب أناشدهم ألا يوقظونى لأى سبب . وسوف يجدون فى هذا التحذير عذراً قوياً للامتناع عن التطوع لعمل أى شىء إسلامى أو غير إسلامى !

وفى الرابعة صباحًا صحوت . ولم أجد شيئًا أقرؤه ولا عندى رغبة فى أن أكتب .

ولا أستطيع أن أوقظ السيد كمال حسن على رغم أنه قال لى : يا ريت . .

أى يا ريت أن توقظنى فى ساعة مبكرة لكى نتكلم سويا . . أما الدكتور بطرس غالى فقال : إياك أنا تعبان وأريد أن أنام . . أما أنت وكمال حسن على فلكما مهام أخرى فأنتما مثل أسدى قصر النيل تحرسان السرير . . أما أنا ففى حاجة إلى من يحرسنى ويقلب السرير فوقى لكى أنام نومًا عميقًا . إياك أن توقظنى !

وقلبت فى جميع الأدراج . . فالعادة أن تجد فى الفنادق الأوروبية نسخة من الكتاب المقدس . . ولكن لمحت نسخة من القرآن الكريم . . غريبة ! إنها تكملة للطقوس الرمضانية .

واندهشت أن تكون هذه الطبعة للمصحف نسخة طبق الأصل من طبعة المطبعة الأميرية المصرية . . إنها مزورة فى لبنان فقد أعادوا طبعها وباعوها لإسرائيل . . وإسرائيل وضعت نسخة منها إلى جوار كل سرير :

كمال حسن على وبطرس غالى وأنا !

ولم أكد أفتح المصحف على سورة الفاتحة حتى وجدت ما أذهلنى ! فعلى

الصـفـحـة الأولى خـتم كـبير باللون الأسـود يقـول : هدية من جـيش الدفـاع الإسرائيلى !

الله يخرب بيوتكم ! الختم ليس على الصفحة البيضاء وإنما فوق الآيات القرآنية الكريمة !!

ولما أعطيت النسخة للرئيس السادات قال لى : هكذا يفهمون الإسلام . . مصحف إلى جانب السرير . . ولكن لا يدركون كم أساءوا إلى القرآن والشعور الدينى عندما وصموه بهذا الختم الأسود . .

ولما روى هذه الحكاية لموشى ديان فى جزيرة الفرسان فى الإسماعيلية كان التفسير الفكاهى لديان : حتى لا تتصوروا لحظة واحدة أنه هدية من ياسر عرفات !!

ـ هاها . .

ـ . . . .

فى البدء كانت ألمانيا!

قلت له : أنا (١٢ سنة) عاوز بنت!

نظر الخواجة «هرش» حوله وأمامه لم يجد سواى، وحاول أن يقرأ وجهى فوجدنى جادا جدا ـ وساذجا. ومن المؤكد أننى لا أعرف ما أقول. . ولا أعرف كيف أعبر عن الذى أريد. . قلتها وأنا أرتجف. فقد كانت تعليمات أمى : ألا تكلم بنتا. وإذا نظرت إلى أحد فيجب أن أنظر فى الأرض. خجلا! من أى شىء؟! لا أعرف ولكن هذا هو الأدب عند أمى. وقد تعلمت وأنا أنظر إلى الأرض أنواع أحذية الناس وألوانها ومقاساتها ولما تعمقت عرفت مكان ومكانة أصحابها . .

ولا أعرف هل الكاتب الإنجليزى هـ.ج ولز كان يفعل مثلى فى نفس الوقت. فقد قرأت فيما بعد أن هذا الكاتب كان يعمل فى أحد محال الأحذية. وكان المحل فى البدروم، ومن شباك البدروم كان يعرف أقدار الناس من أحجام وأشكال وألوان أحذيتهم. . كما فهمت من كوكو شانل صاحبة دار الأزياء الشهيرة أنها تعرف الناس من أظافر أصابعهم إن كانوا عمالا أو فلاحين أو أغنياء . .

ولم يطل نظرى إلى الأرض، فقد أشار الخواجة هرش صاحب محل الساعات فى شارع السكة الجديدة بالمنصورة إلى الآنسة هيلجا هرش ـ ابنته ـ وكنا فى ذلك الوقت لسبب غير معروف نتعلم اللغة الألمانية فى غرفة صغيرة فى بيته. وقد حفظت النشيد القومى الألمانى : ألمانيا . . ألمانيا فوق الجميع فى العالم. ولم أكن أعرف النشيد الوطنى المصرى . . هل هو اسلمى يا مصر أو بلادى بلادى. وحفظت

قصيدة قصيرة للشاعر جيته مطلعها يقول: يا قلب لا تحزن . . احمل مصيرك وامض! ويومها لم أكن أعرف إن كان قلبى على اليمين أو على الشمال . . وذهب معى أحد أقاربى لمقابلة بنت الخواجة هرش وهو الذى أتى بى لكى أتعلم اللغة الألمانية مجانًا . ولما رأيت الآنسة هرش قلت لها : عاوز بنت . . بابا قال لى عندك الآنسة هيلجا . .

وفى ذلك الوقت لم أكن أعرف ما الفرق بين ولد وبنت . . هى بنت كبيرة وأنا ولد صغير . . وبس . ولم أر وقع هذه العبارة عليها فأنا أنظر إلى الأرض أمامى . ولم تجد الآنسة تفسيراً لكلامى . ولابد أن دهشتها أكثر حين وجدت معى طفلا آخر ينظر . كأن البنت هى جزء من المقرر . أو هى إحدى الكراريس التى يوزعونها علينا . والذى دعانى إلى هذا الموقف أننى لاحظت أننى أجلس وحدى فى الصف الأول . بينما يجلس بقية الطلبة اثنين اثنين . ومن الغريب أنهم يتكلمون ويضحكون ، وأنا الوحيد الذى لا أتكلم ولا أجد ما يضحكنى ، وقالت لى جادة جدا : تتجوزنى! وأنا أنظر إلى الأرض ولا أدرك أنها فى العشرين وأنا فى الثانية عشرة فقلت : أيوه . . ولابد أنها نظرت وأطالت النظر ولم تضحك رفقًا بهذه السذاجة الريفية التى تواجهها لأول مرة . والغريب أن زميلى الواقف معى لم تظهر عليه لا الدهشة ولا الاستنكار . وفى ذلك الوقت كان معنى الزواج عندى هو أن يتلازم ولد وبنت . . ولد كبير وبنت كبيرة فى الخروج والدخول . ولم أذهب فى تفكيرى ـ إن كنت قد فكرت ـ إلى أبعد من ذلك!

ويظهر أننى تأخرت عن العودة إلى البيت بعض الوقت فسألتنى أمى : أين كنت :

ـ فى المدرسة

ـ ولماذا تأخرت . .

ـ أصل أنا قابلت الآنسة هرش . . وقلت لها إننى سوف أتزوجها .

ـ قلت أيه؟!

وكررت لها ما حدث . . وصدر فرمان نهائى من أمى ألا أذهب إلى المدرسة. وحكت لى قصصا كثيرة لم أستوعب منها شيئًا عن سقوط كثير من التلامذة وعن خراب كثير من البيوت بسبب البنات. وآخر قرار: إوع تجيب الكلمة دى على لسانك!

تقصد كلمة (الزواج) ولم تظهر هذه الكلمة على لسانى إلا بعد ٢٧ عاما بعد ذلك! وبعد أيام جاء الخواجة هرش وابنته وقابلا والدتى ليحدثاها عن هذه النكتة التى أضحكت الجالية الألمانية فى المنصورة. ولكن أمى لم تضحك، وودعت الرجل وابنته وقالت لهما: روحى يا بنتى ربنا يرزقك بابن الحلال!

ودارت القصة فى المنصورة كلها . . وسمعتها بعد ذلك بأربعين عاما فى ألمانيا من أحد أحفاد الخواجة هرش!!

٢

كانت تجىء إلينا مرة كل أسبوع سيارة جميلة لامعة وتخرج منها الموسيقى. ولم نكن نعرف من أين تخرج ولا كيف ولا معنى الميكروفون. والغريب أننا إذا وضعنا أيدينا على السيارة نحسس عليها كما يفعل الأطفال، كانت تصيبنا برعشة مخيفة. فكنا نقترب منها ولا نلمسها. وكان السائق أشقر ذهبى الشعر أزرق العينين يختار إحدى الخرابات ويضع عليها شاشة بيضاء. وعلى الشاشة تظهر رسومات تتحدث عن الصداع وكيف أن أسبرين باير يزيلها. . فقد كانت هذه السيارة تقوم بالدعاية لشركة باير . . أول عربة وأول دواء وأول مستشفى وأول شاشة سينما فى حياتى . . وكانت هناك أغنية تخيلت أنها تقول: هاتوا براد شاى . . هاتوا براد شاى.

وبعد ذلك بعشرين عاما كنت أحكى هذه القصة فى مصانع باير بمدينة ليفركوزن بألمانيا . . والناس سعداء بهذه الذكريات ويضحكون على سذاجة أبناء الريف المصرى . . ولكنهم أكثر سعادة عندما سمعوا ذلك من كاتب يضع هذه الذكريات

فى مكان عميق من نفسه . . ثم إنهم أسمعونى أغنية : كوكا راتشى التى كانت تذاع فى ذلك الوقت . . ولم أجد أنها مثل (هاتوا براد شاى) ولكن صوتها فى أذنى كان أقرب إلى صوت هذه العبارة وإن لم يكن المعنى واحدا!

وفى إحدى المرات حاول سائق السيارة أن يطمئننا فكان يضع يده على السيارة من الخارج دون أن يصاب برعشة، وطلب إلينا أن نفعل مثله ولكن أحدا لم يستطع . . لقد خفنا ولابد أنه خشى أن يكون هذا إعلانا سيئًا عن إسبرين باير . . فأمسكنا واحدا واحدا ووضع يده مع أيدينا . . وذهب الخوف وازداد إقبال الصغار والكبار على أول فيلم سينمائى فى حياتنا . ولما عرض صور هتلر . ولم نعرف من هو . ولا أحد فينا عرف أنه قد استولى على السلطة . ولا معنى (استولى) ولا معنى (السلطة) ولا أين هى ألمانيا ولا بالضبط ماذا حدث . . ولكن آباءنا كانوا يرددون ليل نهار هتلر وألمانيا والنازية وباير وكلها كلمات ليس لها معنى عندنا!

وكان والدى يسألنى : تحب هتلر ولا ألمانيا ولا باير . . فقلت : باير . .

ويضحكون . ولا أعرف ما الذى يبعث على الضحك!

٣

وأول كتاب قرأته مترجما إلى اللغة العربية كان قصة من ترجمة عادل صادق اسمها (الحب والدسيسة) للشاعر الألمانى شيلر . . قرأت . ولم أستوعب معنى الحكاية ونسيت القصة كلها، وبالضبط ماذا يحدث فيها . وكل ما أذكره ثلاث عبارات . العبارة الأولى تقول : إذا باض الشيطان بيضة أفرخت بنتا جميلة!

ومن المؤكد أننى لم أفهم المعنى . وإنما الذى أخذنى هو غرابة تركيب الجملة . وإن الشيطان يبيض، وإن البيضة تخرج منها بنت جميلة . . فى ذلك الوقت لم أفهم . ولكن خروج البنت الجميلة من بيضة للشيطان . وما علاقة الشيطان بالبنت والجمال . ولم أذهب إلى أبعد من ذلك .

وجملة أخرى وهى أن بطل هذه القصة ذهب إلى والد فتاة يخطبها. فما كان من الأب إلا أن رفض طلب هذا الشاب وقال له: إن الشاب الذى يجىء يطلب منى الزواج من ابنتى لا يستحق الثقة به. شىء غريب. يعنى أيه؟ يعنى أن هذا الشاب يحاول إقناع الأب ويستعين بإقناعه على إقناع ابنته. يعنى أيه؟ يعنى أن هذا الشاب كان يجب أن يقنع ابنته أولا.. فإذا اقتنعت فإن الأب سوف يبارك هذا الزواج. يعنى أيه؟ لا أظن أننى تخطيت هذا الفهم البسيط. أو الإعجاب بهذا المنطق إلى مفهوم الحرية عند الرجل والمرأة. فهذه معان كبيرة.. ولكن حفظت هذا الموقف كما هو..

وأخيراً جملة ثالثة فى هذه القصة وهى أن المرأة التى لها تجارب مثل التى ليس لها تجارب: فكلها أنواع من النساء.. تماماً كالعملة الفضية الجديدة والعملة القديمة.. كلتاهما لها نفس السعر. شىء غريب! يعنى أيه؟ حفظتها دون أن أستوعب المعنى. ولكن لم أنس أن هذه أول رواية مترجمة قرأتها فى حياتى!

ونسيت كل أحداث الرواية. وإنما هذه الجمل هى التى بقيت لغرابتها ولتركيبها غير المألوف.

٤

أول أستاذ ألمانى هو باول كراوس. وكنت معجباً به.

بحماسه وانطلاقه بسرعة فى جوانب كلية الآداب جامعة القاهرة.. رأيته يحمل حقيبة كبيرة. وكتبا ويمشى بسرعة. ويتجه إلى المدرج ٧٤.. ودون تفكير دخلت وراءه وجلست فى الصف الأول. ونظر يمينا وشمالا فلم يجد سواى فبدأ الشرح مباشرة وكان يتحدث عن الترجمة عند جابر بن حيان. وكان ينطق جابر بالجيم المعطشة الفخمة الضخمة. محاضرة بعد محاضرة. وكان أيامها يكتب قاموساً عن المفردات المستخدمة فى عصر جابر بن حيان وترجمتها إلى اليونانية واللاتينية والألمانية.. ولم أتخلف عن محاضرة له أنا واثنان وأحياناً ثلاثة من

الطلبة . وفى نهاية العام حدثنا عن الامتحان وحدد الأماكن التى سوف تجىء منها الأسئلة . ولاحظ أننى لست مهتمًا تمامًا . فاندهش . وقال لى : مالك؟

قلت : أنا لست تلميذًا عندك .

ـ ماذا تقول؟

ـ أنا طالب فى قسم الفلسفة . وأحضر فقط لإعجابى بك!

وكان رجلاً عصبيا ، فحمل كتبه غاضبا وخرج . ولم يعد . . ولم أعد! . .

٥

أما أول أستاذة ألمانية فهى فراو برج ـ أى السيدة برج .

وكانت تدرس لى اللغة الألمانية ـ باعتبارى طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة . ونظام الامتياز هو أن يحصل الطالب فى كل المواد على درجة جيد جدا على الأقل عند انتقاله من السنة الثانية إلى الثالثة .

وكان يدرس لى وحدى مادة علم الاجتماع الفرنسى أستاذ يونانى اسمه بريستياتى .

وكان يدرس لى وحدى الدكتور منصور باشا فهمى مادة (علم الجمال) . .

أما السيدة برج فكانت تسكن فى منيل الروضة . ولها سيارة صغيرة . . وكانت سيدة عجوزا . وكانت تطلب منى أن أذهب إليها فى البيت مبكرا لأن محاضرتها فى الساعة الثامنة صباحًا .

أما لماذا أذهب إليها فلأن هناك احتمالا أن تتوقف سيارتها القديمة . فلذلك كنت أمشى وراءها فإذا توقفت السيارة رحت أدفعها من الوراء . وتنطلق السيارة وبعد ذلك تتوقف فأجرى لكى أدفعها من الخلف . . وتنطلق السيارة . . فإذا تأخرت أنا عن المحاضرة بعض دقائق . فإنها تنظر إلى ساعتها فى غضب . . مع أنها هى السبب . وكانت هذه مشكلة تتكرر ثلاث مرات فى الأسبوع .

كيف أجرى وراءها لأصل فى الساعة الثامنة بالضبط لا أستطيع ذلك لأننى أتعب من الجرى وراءها لأصل فى الموعد . . وفى إحدى المرات اقترحت عليها أن أزق وأن أركب بسرعة إلى جوارها . وكان اقتراحًا أسود . فالباب الذى إلى جوارى إذا أغلق فإنه لا ينفتح . وكنت لا أستطيع أن أقفز من النافذة الصغيرة لكى أدفع السيارة من الخلف . وفى إحدى المرات توقفت السيارة وسقط الباب . . وكان علىّ أن أحمل الباب من منيل الروضة إلى الكلية . ولما ذهبت إلى الكلية كانت قد عادت إلى بيتها فقد تأخرت أنا عن المحاضرة ثلث ساعة . وكان لابد أن أعود مرة أخرى بالباب على كتفى إلى بيتها . ومن يومها لم أذهب إلى منيل الروضة . . وكنت أسبقها إلى المحاضرة . فتدخل غاضبة وتخرج أكثر غضبا . ولم أفهم كيف كانت تصل فى موعدها . وعرفت فيما بعد أنها استأجرت حمارًا يجر سيارتها كل يوم!

٦

وأول مصرى عرفته قد أتقن اللغة الألمانية وترجم كتبا هو الأستاذ محمود الدسوقى . وكان يعمل فى سفارتنا فى برلين على أيام هتلر . وفى يوم كنت ضمن رحلة قد أعدها الدكتور مراد كامل أستاذ اللغات الشرقية وكانت تضم الدكتور حسن عثمان أستاذ الجغرافيا الذى ترجم (الكوميديا الإلهية) للشاعر الإيطالى دانتى ، والدكتور عبد العزيز حجازى المدرس بكلية التجارة والذى أصبح بعد ذلك رئيسا للوزارة . ونزلنا فى أحد بيوت الشباب . . وفى يوم جاءتنى الخادمة الشقراء الجميلة تقول لى : هر منصور أرجو مساعدتى . فالأستاذ فى الغرفة رقم ٧ يتكلم الألمانية ولكن لا أعرف ماذا يريد بالضبط .

قلت : رقم ٧؟ . . الأستاذ الدسوقى؟! . . حاضر . . هل معقول أنك لا تفهمين ما يقول . . إنه يجيد الألمانية وقد ترجم عنها كتبا صعبة . . معقول؟!

ـ لا أفهم . .

وذهبت للأستاذ الدسوقى وقلت له: البنت لم تفهم ماذا تقول . . ماذا تريد منها؟

قال: كوب ماء . .

قلت: بس؟

قال: نعم . .

فقلت لها: يريد كوبا من الماء!

وسألت الأستاذ الدسوقى: كيف لم تفهم البنت ماذا قلت لها بالضبط.

قال: إنها جاهلة ساذجة وقد حاولت أن أداعبها . .

قلت: كيف!

فأجاب: قلت لها يا ابنة الراين الجميلة العينين والعنق واليدين يا ذات القوام الممشوق بالله عليك ألا تفضلت وأسعدتنى وأتيت لى بكوب شفاف به ماء . . شفاف كعينيك الزرقاوين الصافيتين وابتسامتك النقية . . لو فعلت لأسعدت رجلا عجوزا لم ير أحدا فى مثل جمالك فقد ترك بلادكم الجميلة من عشرين عاما . . بالله عجلى فإننى فى عطش شديد لأشياء كثيرة ليس أقلها الماء، بارك الله فى شبابك وجمالك ياسليلة الفلاسفة هيجل ونيتشه والشعراء جيتى وشيلر وهينى . . أسرعى!

قلت: يا نهار أسود وأنت عاوزها تفهم هذه القصيدة الرنانة الطنانة مع أن المطلوب هو كوب ماء؟! معذورة يا أستاذ دسوقى أنت فى حاجة إلى فيلسوف لكى يعمل خادما هنا ويأتى لك بالماء أو لا يأتى!

٧

ولأول مرة أرى بيت شاعر فى حياتى . . لا رأيت فى مصر بيت شوقى ولا حافظ ولا إبراهيم ناجى ولا على طه ولا البارودى ولكن هنا فى مدينة تيبنجن

الألمانيـة زرت بيت الشاعر الألمانى هيلدلرن. البيت فى الدور الأرضى على نـهر السالزاخ. فى هذا البيت أمضى الشاعر أربعين عـاما كـاملا وغادره ليقيم فى مستشفى الأمراض العصبية أربعين عاما أخرى مجنونا. . تماما كما حدث للفيلسوف الألمانى نيتشه، وللأديبة العربية مى زيادة!

البيت صغير. ولا شىء يدل على عبقرية الشاعر العظيم. ولا شىء يدعو إلى الجنون. وإنما الزائر يستحضر المعانى والمأساة. ولا نعرف ما الذى أصابه ولماذا. . فالجنون كالموت قدر. والشاعر الألمانى اصطدم بقضايا فلسفية صعبة. تخطاها وهى متوهجة فاحترق. سألت السيدة المشرفة على البيت: ماذا جرى؟

ـ لمن؟

ـ للشاعر. .

ـ لابد أنك تعرف.

ـ القليل الذى جاء فى الكتب.

ـ هذا القليل يكفى لأن تعرف. . ألا تعرف العبارة الشهيرة التى قالها فولتير. . قال: أعطنى ثلاثة أسطر لأكثر المفكرين حرصا وأنا أستخرج لك منها معنى يستحق عليه الشنق! وفى شعر هيلدرلن عشرات السطور تدفع إلى الجنون!

ثم سكتت وقالت وقد اكتسحت وجهها ابتسامة عابرة: عاوز تتجنن؟

قلت: عندى الكثير مما يدفعنى إلى ذلك!

٨

وفى مدينة تيبنجن هذه توجد حديقة اسمها (حديقة التنهدات) وقد رأيتها قبل أن أرى (جسر التنهدات) فى مدينة البندقية. الحديقة صغيرة جميلة وسألت: هل الذى يتأوه هنا الشجر عندما تهب الرياح. . أو هم الزوار. . الذى يجلسون تحت

الأشجار أو الذين يجلسون ثم يجدون أنفسهم مضطرين إلى مغادرتها؟! . قالوا : الحديقة لها حكاية أخرى .

فمدينة تيبنجن هى مدينة جامعية . . أى أنها فى الأصل جامعة . أقيمت حولها ولخدمتها مدينة . . يسكنها الأساتذة والطلبة . ولذلك ليست فى المدينة مواصلات . . لا سيارات ولا دراجات ولا عربات ولا قطارات . إنها مدينة هادئة تماما والطلبة كانوا يجلسون فى الحديقة اثنين اثنين . وهات يا آه . . وهات ياحب ويا قبلات . . فلا محاضرات ولا دوشه . وكان الأساتذة يشكون من انصراف الطلبة والطالبات إلى الحب ، بعيداً عن الدراسة العلمية والفلسفية الجادة وكان بعض الأساتذة يفعل ما كان يفعله الفيلسوف الإغريقى أرسطو ، يجمع الطلبة ويمشى بهم فى الشوارع يتكلم . . وأحيانا يفعل كما يفعل أستاذه سقراط يقف بهم ويجلس بينهم على الأرض فى أى مكان ، المهم أن يلتقى الأستاذ والطلبة بالشكل الذى يريح الجميع . ولكن الطلبة كانوا يتسللون من وراء الأستاذ إلى الحديقة . حتى اكتشف أحد الأساتذة أنه يكلم نفسه من ساعتين !

وغضب الشاعر الألمانى أولمان ونظم قصائد عديدة فى هجاء الطلبة وطالب بنزع أشجار الحديقة . . كأنه يريد أن ينزع التنهدات والقلوب معا . فلما مات الشاعر قرر الطلبة أن يخلدوا ذكرى الرجل الذى نكد عليهم حياتهم وأضحك عليهم الجامعات الألمانية الأخرى . فأقاموا له تمثالا . وملأوا التمثال بكل الأخطاء الفنية : فالتمثال ليس متناسب الأعضاء . . الرأس والعنق والعينان والشفتان والقدمان . وقال النقاد : إنه بهذا الشكل لا يصح إقامة أى تمثال . . فالتمثال قد تكامل نقصا !

ذهبت إلى الحديقة ورحت أتنهد . فلم يكن هناك أحد سواى . فالطلبة كلهم فى المحاضرات . وقد عدلوا عن هذه العادة السيئة ومحاولاتى إحياء هذه العادة قد فشلت تماماً . فقد جاءت متأخرة مائتى سنة !

وبعد ٥٠ عاما وقفنا

يصورناد. ممدوح البلتاجى!

٩

أول قصة كتبتها فى حياتى كان اسمها (سوزى). ولم أعرف واحدة بهذا الاسم، لا قبل كتابة القصة ولا بعدها. فقد كنت أتردد على جريدة (الأساس) قبل أن أعمل فيها. وكان يشرف على الصفحة الأخيرة الأدبية الزميل موسى صبرى. قابلنى، سألنى، شجعنى أن أكتب قصة. كتبت القصة.. طويلة جدا. قال سوف تظهر غدا. قلت لكل أصحابى: انتظروا. وجاء الغد وما بعد الغد وبعده غد ولم تظهر القصة. وذهبت أسأل. فقال غدا!

ولم أقل لأحد إنها سوف تظهر. وظهرت القصة صفحة كاملة أما الإمضاء فهو (بنط ٩ أبيض) أى حروف لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة. فأنت تحتاج إلى عينى صقر وصبر أيوب!

والقصة موضوعها أننى أحب فتاة ألمانية اسمها (سوزى) فى القصة أسماء مدن وأبيات من الشعر. كلها حشرتها حشرا، محاولا إقناع سوزى والقارئ أننى على علم وعلى خبرة وأن هذه الأبيات هى أوراق اعتماد لدى قلبها. ولكن كل الذى قلت وكتبت ذهب إلى لا شىء. أحببتها ولكنها لم تبادلنى هذا الحب. وأنهيت القصة نهاية حزينة. والقصة من أولها لآخرها ليس لها

أصل. فلا سوزى ولا حب من طرف واحد. فقد كنت زاهد النفس في ذلك الوقت حديث التخرج في الفلسفة ولم أجد عملا بعد. ولا أعرف بالضبط ما الذي سوف أكون. . أما اسم هذا المزاج فهو أسود أو سوداوي. . أو رمادي كالح حزين!

وفي يوم تلقيت خطابا صغيرا بخط نمنم بإمضاء سوزى تقول: أشكرك فقد كنت في غاية الأدب واللطف!

ولم أكن أعرف أنه في الدور الأخير من عمارة جريدة (الأساس) بشارع شواربي تسكن أسرة يونانية مصرية إحدى بناتها اسمها سوزى. . ولا أذكر أنني قابلتها على السلم وهي في طريقها إلى العمل في بنك باركليز. . وأنه دار بيننا أي كلام. واحتفظت بالخطاب طويلا أطلع عليه الزملاء. . محاولا إيهام الجميع أنها قصة حب. فاشل طبعا. المهم أنها قصة حب والسلام!

١٠

أول سبق صحفي في حياتي تلقيت عنه مكافأة قدرها مائة جنيه من مصطفى أمين. . أيام كان الجنيه يساوي عشرين اليوم. فقد أوفدني مصطفى أمين لحضور طلاق الإمبراطورة ثريا من شاه إيران. . والزميلة خيرية خيري التي صارت زوجة لعلي أمين سافرت إلى طهران وأنا سافرت إلى كولونيا. . وكان والد الإمبراطورة ثريا سفيراً لبلاده في ألمانيا. . ذهبنا إلى السفارة أطلقوا علينا الكلاب وخراطيم المياه. . إذن لا معلومات. . وتشاء الصدفة فقط أن أسكن في بنسيون. وكانت الغرفة المواجهة تسكن فيها بنت حلوة. عرفت أثناء الإفطار معا أنها تعمل في صالون حلاقة تتردد عليه الإمبراطورة ثريا إسنفدياري. وإنها في ذلك اليوم - يوم طلاقها - سوف تذهب ولها رغبات خاصة جدا لتسريحتها وأظافرها وأصابع قدميها ويديها. وإن هذه الفتاة مضطرة أن تتركني بسرعة. وفي العشاء التقينا وقالت: بأقول لك إيه عندي لك قصة بمليون مارك!

وحكت لي بالضبط ما الذي دار بين الإمبراطورة وزوجها الإمبراطور. . هو

الذى طلبها . . وقال وقالت له . وليس من الصعب إذا عرفنا ردودها أن نعرف أسئلة الإمبراطور التى كانت طويلة . . أما الألوان التى تظهر وتختفى على وجه الإمبراطورة فهى رد فعل للكلمات الحلوة المؤثرة التى قالها الإمبراطور . . آخر الكلمات الحزينة لرجل يحب زوجته الجميلة ولكنه يريد وريثا وهى محرومة من نعمة أن يكون لها طفل يرث عرش أبيه!

ونقلت الحوار وبعثت به إلى (أخبار اليوم). ليشيد به مصطفى أمين فى اجتماع التحرير وتكون المكافأة هذا المبلغ الكبير!

وعندما قابلت الإمبراطورة فرح ديبا فى القاهرة بعد وفاة زوجها الإمبراطور، رويت لها هذه الحكاية . . وعلقت على ذلك . وقالت إن الصحف الإيرانية قد ترجمت هذه القصة عن الصحف المصرية . . وعرفت من الإمبراطورة بالضبط ماذا قال الإمبراطور تعليقا على ذلك . . ثم قالت هى وحكت وأطالت . وأنا أتخيل ما سوف أكتب وأنشر . . وكانت السيدة جيهان السادات هى التى جمعت بينى وبين الإمبراطورة فرح ديبا . . وكانت الإمبراطورة فى غاية الرقة واللطف والحزن أيضا . وصافحتها وشكرتها . وقالت : وأنا أيضا أريد أن أشكرك . .

ـ وعلى ماذا يا صاحبة الجلالة!

ـ على أن تفى بالوعد . .

ـ أى وعد . .

ـ ألا تنشر كلمة واحدة مما قلت لك!

ـ . . . .

١١

لم أر حتى الآن البيت الذى كان يعيش فيه بلدياتى على باشا مبارك ولطفى السيد باشا وهيكل باشا . . ولا بيت سعد زغلول باشا ولا عرابى باشا ولا البارودى باشا . . ولا النحاس باشا . .

ولكن ذهبت مع الدكتور حاتم أبو راس عمدة الجالية المصرية فى فيينا لنرى البيت الذى ولد فيه هتلر فى بلدة نمساوية صغيرة اسمها براوناو - بين هذه البلدة وألمانيا جسر صغير . . وعبر هذا الجسر انتقل هتلر من النمسا ليقود ألمانيا . . كما انتقل نابليون من جزيرة كورسكا ليقود فرنسا . . ومحمد على من مدينة قوله ليقود مصر . . وفى هذه المدينة الصغيرة وجدنا حرجا شديدا فى أن نسأل الناس أين بيت هتلر . . فذكر اسم هتلر يصيب الناس بالرعب فقد أفلح اليهود فى تخويف الألمان من ماضيهم . . وتخويف العالم كله منهم . . كما أفلحت الأفلام الأمريكية والكتب فى تصوير هتلر وحشا مصاصا للدماء قد خرب ألمانيا وتسبب فى انهيار ودمار أوروبا، وقتل وأحرق وأغرق الملايين . . ولكننا نريد أن نرى البيت . والبلدة صغيرة . وفيها صيدلية يديرها واحد مصرى . . وسألناه وكان مشغولا فأشار بيده إلى الشارع وقال عند منتصفه . . وذهبنا إلى الشارع من أوله لآخره ولم نجد شيئا عليه لافتة تقول : هنا ولد أدولف هتلر سنة ١٨٨٩ وهى نفس السنة التى ولد فيها نهرو والعقاد وطه حسين والمازنى وعبد الرحمن الرافعى ومكرم عبيد والفلاسفة هيدجر ومارسيل وفتجنشتين والممثل الشهير شارلى شابلن وعميد المؤرخين الإنجليز توينبى . . .

وسألنا سيدة ونحن فى حرج شديد . فأشارت بيدها إلى حيث توجد كتلتان من الحجر الأسود فى الشارع . الحجران يشيران إلى المحارق التى أقامها هتلر لليهود ولخصومه السياسيين من المسيحيين أيضا . وعلى الحجرين عبارات تتحدث عن تحرير الإنسان من الخوف والقهر . . أما البيت فلإحدى المصالح الحكومية . ولكن أحدا لا يقول ولا يجرؤ . . والبيت عادى تماما . ولكنه نظيف . . وهتلر أبوه كان عاملا بالسكك الحديدية . . فكأن البلدة لا قالت إنه هناك كان يعيش هتلر ولا قالت إنه لم يعش . . وإنما أشارت من بعيد مع كام كلمة فيها غمز ولمز وللشعب النمساوى الذى أنجبه وللشعب الألمانى الذى سار وراءه إلى قمة العظمة والمجد والقوة والسقوط بحديد ونار الروس والأمريكان والإنجليز والفرنسيين والصهيونية العالمية!

وأيقنت بعد ذلك أن هذه البيوت التى يسكنها العظماء لا علاقة لها بالعظمة . .

فلا بيت العقاد المتواضع جدا ولا مكتب طه حسين الخانق ولا شقة الفيلسوف سارتر ولا قصر الشاعر الألمانى جيته ولا بيت الموسيقار القصير موتسارت فلا الحلل النحاسية ولا المخدة التى كانت تفصل بينه وبين زوجته فى السرير لها علاقة بعبقريته . .

داعبت سيدة جلست إلى جوارى فى مطعم المدينة :

وأين كان يسكن هتلر؟

فأشارت إلى رأسها وقالت : كان هنا . . ثم أشارت إلى قلبها وقالت : والآن هنا . .

قلت : ألا تخافين؟

قالت : لم يعد أحد يخاف .

قلت : ولكن لا أحد يجرؤ أن يذكر اسم هتلر إلا إذا شتمه . .

قالت : صحيح . . وأنا سوف أشتمه على مسمع منك أيضا . . ولكنى كاذبة!

١٢

أما أعجب وأصدق صداقة فهى التى كانت ولا تزال بينى وبين شاب ألمانى . التقينا صغارا فى مدينة البندقية ونسيت اسمه . . ونسيت اللقاء . .

ولكن من عشر سنوات تلقيت خطابا من القاهرة . الخطاب به صورة له ولى تحت جسر التنهدات سنة ١٩٥٠ بمدينة البندقية . وفى الخطاب صورة لمقالى (مواقف) الذى نشر يوم مجيئه إلى القاهرة . وقال إنه سأل عنى وعرف أننى كاتب مشهور . . ثم ترك لى عنوانه فى برلين ، وقال إنه أب لابنتين . وترك رقم تليفونه . وكلمته فى التليفون . وكم كانت سعادتنا . وأرسلت له خطابا أقدم له نفسى وأبدى دهشتى من احتفاظه بهذه الصورة . فقال لى : إنه كان على يقين أننا سوف نلتقى .

وحكيت الحكاية لصديقى رجل الأعمال وزميلى فى مجلس الشورى محمد

فريد خميس فأرسل له سجادة هدية تمثل أحد مشاهد فيلم (دكتور زيفاجو) بطولة عمر الشريف ومعها لوحة ذهبية لاسم عمر الشريف .

وكانت سعادته بالغة . وعندما سافرت إلى برلين طلبت من صديقى محمود مبارك سفيرنا فى برلين أن يدلنا على بيته ولم أجده . وتركت له رسالة فى التليفون ، والغريب أنه كان فى القاهرة ! . هو أراد أن يفاجئنى بالزيارة . وأنا أيضا . ولم نلتق .

وفى معرض السياحة الدولى فى برلين قررت أن أتصل به . وطلبت من صديقى الدكتور عصام شلتوت أن يدبر لى هذا اللقاء . وجاء موعد اللقاء . وقلبى يدق فلم أره من خمسين عاما . ولا أعرف كيف يكون ولا هو يعرف كيف أكون . وماذا فعل الزمن بنا . . إن صورتنا معا كانت لشابين صغيرين نحيفين . . ولم تكن الصورة دقيقة . فالذى التقطها لنا شاب مصرى .

وجاء فولفجانج هيهلزه متوسط القامة أبيض الشعر أحمر الوجه ـ شديد الإحمرار . . وتعانقنا كما يفعل الشرقيون ولم أكن أتصور ذلك . . قبلنى وقبلته . ولم أكن أتصور أن الألمان يفعلون مثلنا . وفوجئت بأنه شرب من كوبى وشربت من كوبه ـ رمزا للحب وسألته : هل هذه عادة ألمانية؟

فأجاب : إننا نحن سكان الجبال نفعل ذلك . .

ثم فاجأنى بهدية ملفوفة فى ورق مفضض وقدمها بحفاوة شديدة وفتحتها : إنها قطعة من الحجر الملون . . جزء من حائط برلين الذى أسقطوه رمزا لتمزيق الشعب الألمانى والقهر السوفيتى وخطوة أولى نحو الوحدة الوطنية بين ألمانيا الشرقية والغربية !

فصورتنا فى البندقية التقطها شاب صار وزيرا للعدل . . ثم صورتنا معا لثانى مرة التقطها د. ممدوح البلتاجى وزير السياحة ! وتحدثت الصحف الألمانية عن قصة الصداقة العجيبة بين اثنين من الشبان انفصلا نصف قرن . واستأنفا الصداقة كأن الزمن لم يفعل بمشاعرهما ما فعله فى الرأس والوجه والساقين !

وأرسلت له هدية كنت قد وعدته بها: جلد نمر . . فقد قيل لى إن هذه أعظم هدية عند الألمان!

وبعد يومين تلقيت خطاب شكر من المستشفى العام فى برلين . . وأدهشني ذلك. إذن أنا قد أخطأت فى عنوان صديقى . . واتصلت بصديقى الدكتور عصام شلتوت أستاذ الطب النووى فى جامعة برلين . . وكانت المفاجأة: فالرجل بعد لقائنا مباشرة دخل المستشفى . ولا يزال . وجلد النمر أرسلته مصلحة البريد إلى حيث يرقد هناك فلا أحد فى بيته!

ومن شهرين تلقيت منه خطابا رقيقًا جميلا أسعدنى . وحمدت الله أن صحته تحسنت وأننى سوف أرى زوجته وابنتيه . وأعددت لهم برنامجا لرؤية مصر شمالا وجنوبا . وأخذت معى باقة من الورد . وذهبت إلى فندق ميرديان ودققت باب الجناح . ولم يرد أحد . فألححت فخرجت سيدة بملابس النوم، فاعتذرت لها وأبديت أسفى العميق . . وعدت أقرأ الخطاب . . فوجدت أن رقم الجناح مضبوط . . وعدت أقرأ الخطاب مرة أخرى . وفوجئت بتاريخ الخطاب . إنه من خمس سنوات، وقد احتفظت به صناديق البريد فى القاهرة كل هذه الفترة!

عبد الوهاب وأنا
نزف العروس نهلة القدسي!

جلسنا فى انتظار السيد كمال الدين حسين فى النادى الثقافى بجاردن سيتى . . وتساءل أمين يوسف غراب إن كان من الممكن أن يوزعوا علينا بنات جميلات من حلب أو من حمص . وتساءلنا : ولكن لماذا؟

فأجاب : على سبيل المقايضة . . فنعطيهم فلانة وفلانة ــ وذكر عدداً من الأديبات المصريات !

وضحكنا عندما فوجئنا بالسيد كمال الدين حسين وزير التعليم . ولم يكن يضحك ولا من السهل إضحاكه . ولا داعى لأن ندفعه إلى ذلك . وجلس أكثر اكتئاباً . وسكت . وكان لابد أن يفعل يوسف السباعى شيئاً . لكن الوزير فى حالة مزاجية لا تسمح له بمناقشة الأدباء المرحين : كامل الشناوى وعبد الرحمن الشرقاوى وأمين يوسف غراب وعبد الحليم عبد الله وإسماعيل الحبروك .

ولا أعرف كيف تدحرج الحوار إلى الكلام عن الترجمة إلى العربية . وكان من رأى كمال الدين حسين أن بعض الأطباء يرى أنه لا داعى لتدريس الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء بالعربية . فالأساتذة يتكلمون نصف الوقت باللغة الإنجليزية . لأن المصطلحات لم تجد لها مرادفاً باللغة العربية بينما وجد السوريون كلمة عربية لكل كلمة أجنبية . والتفت إلينا كمال الدين حسين وقال : إن كلمة (جنتلمان) الإنجليزية يكتبها الأوروبيون فى كل اللغات كما هى . لأنهم لم يجدوا لها مرادفاً .

وتحمس عبد الحليم عبد الله وانتفض واقفًا وقال : بل لها ترجمة يا سيادة الوزير فكلمة جنتلمان ترجمتها العربية الصحيحة هى : بهلول!

ولم يملك كمال الدين حسين نفسه من الضحك . ولا نحن . ولكن عبد الحليم عبد الله قد استعار كآبة كمال الدين حسين . فأضحكنا أكثر!!

وقال إحسان عبد القدوس : إنه يفضل كلمة (جنتلمان) لأنها ألطف من كلمة (بهلول) التى تعطى انطباعا بمعنى أراجوز . . ثم إننا فى حياتنا العادية نستخدم كلمات أجنبية ولا نستخدم مرادفات المجمع اللغوى الذى وضع كلمات مضحكة . . فنحن نقول التليفون ولا نقول : (المسرة) . . ونقول التليفزيون ولا نقول (المرناه) ونقول (البيجاما) ولا نقول (المنامة) . . ونقول (السندوتش) ولا نقول : شاطر ومشطور وبينهما طازج! وقلت : المجمع لم يقل الشاطر والمشطور . . فهذا التعبير من اختراع كامل الشناوى . وأنا سألت أستاذى فى الفلسفة الإسلامية رئيس المجمع اللغوى الدكتور إبراهيم بيومى مدكور فنفى أن يكون الشاطر والمشطور من عنديات المجمع .

وتوقف الحديث لحظة ليؤكد كامل الشناوى بنفسه أنه هو الذى أطلق هذا التعبير ومفردات أخرى كثيرة . هاها . . هاها . .

وكأننا تلامذة صغار ضاق بنا كمال الدين حسين وواجهنا بكل ما لديه من كآبة وقال لنا محذرًا أو كأنه يقول : إذا كنتم هكذا مسخرة فلا داعى لأن تذهبوا إلى دمشق!

ووجدنا أنه فعلا لا داعى لأى كلام وأى حوار . . ولكن كمال الدين حسين قال لنا فى نهاية اللقاء الذى استغرق ساعة : إن الرئيس عبد الناصر يتمنى لنا التوفيق . .

الرئيس هو الذى يتمنى . . أما كمال الدين حسين فواضح أنه لا يهمه ذلك . . أو إنه خاب أمله فينا . . ولأن هذه هى أول مرة يلتقى فيها بالأدباء فقد حرصنا على أن نقلب له الصورة التى كان يتوقعها . أما الصورة التى أمامه الآن فلم يتوقعها . ومن المؤكد أنها مخيبة للآمال ـ أمله هو . وخرج الوزير . ونظرنا بعضنا إلى بعض . ولم يستطع أمين يوسف غراب أن يسكت . وقال موجهًا كلامه ليوسف السباعى :

والله يا يوسف بيه أنا من رأيى أن نأخذ معنا كمال الدين حسين إلى دمشق . . وأن نتركه هناك!

ولم نكافئ يوسف غراب على اقتراحه بالضحك أو حتى بالابتسام فهو لا يعرف ما الذى يمكن أن يحدث له لو علم كمال الدين حسين أنه يسخر منه . . وجاء خروج أمين يوسف غراب واعتذاره عن عدم السفر إلى دمشق دليلا على خوفه . ولكن يوسف السباعى قام وأعاده واقنعه بالسفر معنا على أن نتركه هو هناك . وكان يقول : يا ريت . . وبالشروط التى سبق أن ذكرتها هنا . . هاها . .

❊ ❊ ❊

واستعرضت زملاء الدراسة فى قسم الفلسفة الذين سوف التقى بهم فى دمشق وأقنعهم . . أو بعضهم بالتحدث إلينا فى ندواتنا أو جلساتنا : عبد الكريم زهور وسامى الدروبى وعبد الله عبد الدايم وبديع الكسم وزوجته المصرية زميلتنا درية فؤاد ووفيق العظمة .

وتمنيت لو التقينا بأستاذهم جميعًا : جميل صليبا الذى يحفظون كتبه ويتغنون بقدرته الفذة على الترجمة ونحت المصطلحات الفلسفية والنفسية . .

ولم نتنبه إلا ونحن فى دمشق إلى أن الوفد المصرى لا يضم إلا أديبة واحدة هى السيدة أمينة السعيد بينما أديبات دمشق شابات جريئات :

كوليت خورى وغادة السمان وعزيزة هارون وواحدة (. . . . . . .) كنت أنشر مقالاتها وقصصها فى مجلة (الجيل) . ولكن عرفت فيما بعد أن الوزير سامى الجندى هو الذى يكتب لها . . أما هى فلا علاقة لها بالأدب بكل معانيه!

وقد تحدد لنا موعد اللقاء مع رئيس الجمهورية شكرى القوتلى . . وحذرنا يوسف السباعى من الضحك مع الرئيس أو اقتراح قضايا بايخة أو استدراجه إلى ذلك . وقيل لنا إنه يحب مجالس الأدباء . وحذر يوسف السباعى أمين يوسف غراب أن يتكلم لأى سبب . ولكن أمين يوسف غراب سأل : ولا حتى أطلب منه عروسة من حلب!

وكان رد يوسف السباعى قاطعا وإلا منعه من حضور هذا اللقاء.

والتفت أمين يوسف غراب وقال لى: أطلب أنت من رئيس الجمهورية!

ومر اللقاء مع الرئيس قصيراً. فهو الذى تكلم طوال الوقت. وكان كلامه خليطًا من العسل والسمن والفستق الحلبى.. وصافحناه وشكرناه وتمنى لنا طيب الإقامة. وأبدى حبه للأدباء وكراهيته للساسة الذين كلامهم مأخوذ من الحقد مغموس فى الكراهية ملفوف بالكذب. وحملنا تحياته هو إلى الرئيس عبد الناصر. وبسرعة نظر يوسف السباعى إلى أمين غراب. الذى كتم ضحكته ولكنه لم يسكت وهمس قائلاً: وهوه إحنا بنشوفه ولا حنشوفه فهذا واحد اسمه شكرى (القوتلى) والثانى اسمه: جمال (القوتله)!

وفى فندق (سميراميس الجديد) وجدنا الشاعر نزار قبانى.. لطيف.. ظريف.. حليوه.. يختار كلامه وينطقه كنص أدبى.. كأنه توا قد كتبه وحفظه.. وقد أعد لكل واحد منا تعبيراً جميلا مناسبًا.. وذكر لنا عدداً من الشعراء يحبون أن يلتقوا بنا. ثم حدثنا عن ليالى دمشق وعن سهرات الغوطة وعن الليل والقمر وأحاديث الأدباء والأديبات.. وأن هذا الجو الدمشقى الذى لا نظير له فى العالم العربى وأن وأن.. ولم نكن فى حاجة إلى إغراء أو استدراج، فمن أجل ذلك جئنا.

وفى الليل ذهبنا إلى أحد المطاعم.. وكان فى المطعم منحدر مائى.. فالماء ينزل من فوق وله هدير يجعل الجو ألطف.. هم يقولون: ألطف.. وأنا أقول: أبرد.. هم يقولون: خرير هامس وأنا أقول: هدير صاخب.

وفى الميكروفون أعلنوا عن أن مطربة جديدة اسمها فايزة أحمد سوف تغنى وأن الموسيقار عبد الوهاب قد جاء للاستماع إليها. ولم نكن نعرف أن محمد عبدالوهاب قد جاء من بيروت ليستمع إليها. وتأخر ظهور المطربة الجديدة.. حتى جاء عبد الوهاب. وكان قد لف رأسه ورقبته ووضع منديلا على أنفه.. إذن فالدنيا برد شديد وليس الجو بديعا كما أكدوا لنا. بل هو برد وازداد برودة بظهور

محمد عبد الوهاب على هذه الصورة. . وأعلنوا عن ظهور فايزة أحمد. . وظهرت وغنت ولكن لم يوقفوا شلالات المياه. . وأدهشنى أن أحدا لم يعترض على هذه الشلالات. . ولا حتى عبد الوهاب. . ولم أتبين جمال صوت فايزة. . ومن بعد فايزة ظهر مطربان رجل وزوجته هما: جمال وطروب. وهما من لبنان. ثم الراقصة المصرية قطوطة. . وتركت مكانى وذهبت لأجلس مع محمد عبد الوهاب وسألته فقال: أنا سمعت فايزة قبل كده. . صوت حلو سليم. . ولابد أن أسمعها مرة أخرى قبل سفرى إلى عمان. .

ولما سألت صاحب المطعم لماذا لم توقف الماء المتدفق من فوق حتى نسمع فايزة أوضح. . قال ما معناه: هيه فاكرة نفسها أم كلثوم؟!

ـ يعنى أيه؟

ـ يعنى طالبة مبلغ كبير من المال. .

ـ يعنى أيه؟

ـ يعنى جبت لها محمد عبد الوهاب ولم يستمع إليها كما يجب. . وأخبرتها أن عبد الوهاب لم ينبهر بها. . وكان من نتيجة ذلك أن خفضت أجرها. . وغيرت العقد. . وأنا قد طلبت إلى الأستاذ أن يجيء غدا ويستمع إليها بلا مياه منحدرة. .

وذهبنا فى اليوم التالى مع محمد عبد الوهاب ويوسف السباعى. وجاءت فايزة وغنت. وكان صوتها جميلا. وصفق لها عبد الوهاب. ولما رآه مئات الحاضرين صفقوا لها وقوفا. . لقد ولدت فايزة أحمد فى ذلك اليوم وجاء تصفيق عبد الوهاب دعوة إلى القاهرة والبقاء فيها ليلحن لها كل الملحنين فى مصر: الموجى وكمال الطويل وعبد الوهاب وبليغ وينفرد بها محمد سلطان ويتزوجها وتأتى له بتوءمين طبيبين يعملان فى باريس!

ولما قلت لصاحب المحل إن فايزة سوف تمزق العقد وتطلب رفع أجرها بعد ذلك. قال كلام كلمة شامية لا يمكن نشرها ـ ومعناها أن فسخ العقد مستحيل ويحتم عليها أن تغنى عارية تحت المطر. . وحتى الموت!!

واقترحت الأديبة كوليت خورى أن نزور شاعراً فريداً فى نوعه ـ وكانت الدعوة مفاجأة. فلم يكن معنا ذهابا وإياباً محبوبها نزار قبانى. وقيل لنا إنهما على خلاف طويل.. وذهبنا إلى شاعر اسمه الكريتلى. الشاعر رشيق طويل وسيم وشعره يتهدل على كتفيه.. البيت صغير مظلم.. ثم إنه ليس بيتا وإنما هو مدخل إلى شجرة كبيرة. والشجرة عليها سلم والسلم يصعد بك إلى فوق. وفوق توجد غرفة صغيرة هى بيت الشاعر. وحول الشجرة بستان صغير به عدد من المقاعد والمناضد.. عليها فستق وتفاح وزجاجات العرق وأكواب كريستال. ومصابيح من الغاز.. ولابد أن تمسح عينيك لتتأكد مما ترى.. فعلا هذه الطيور ببغاوات والأقفاص المعلقة بها طيور الكنارى.. والمكان لا يتسع إلا لسبعة. وكنا سبعة.

وطلبت منه كوليت خورى أن يقرأ لنا بعضاً من شعره. وتردد فقالت: أنا أعرف أنه لن يفعل.

وراحت كوليت خورى تنتقل بنا من قصيدة إلى قصيدة.. وكان هو يصحح لها بعض الكلمات والأبيات.. أما الشعر فجميل وأما إلقاؤها فأجمل.. وتشجع الشاعر وراح ينشد شعره البديع.. وكان يفرغ لنفسه الشراب ويمد يده إلى الفستق الأخضر.. يشرب ويأكل ويتغنى.. وفجأة توقف.. واتجه إلى السلم وصعد إلى غرفته.. وأقفل الباب.. ونظرت لنا كوليت وقالت: تفضلوا!

وسبقتنا إلى الخروج. ولا أوضحت لنا هذه المسرحية الخاطفة، ولا الشاعر قال لنا تصبحوا على خير أو إلى اللقاء أو حتى فى ستين داهية!

* * *

ووقفنا فى فندق سميراميس ننتظر الأتوبيس ليحملنا إلى فندق بلودان والدروب الطويلة والجبال العالية التى لا نعرفها فى مصر. ووجدنا زحاماً على الباب. طبعاً إنهم يعرفون الأدباء المصريين ولاحظت أن صالح جودت قد ذهب وغير ملابسه. وهو شاعر أنيق الكلام متألق الهندام.. وأخذنا نروح يمينا وشمالا.

واقتربت من يوسف السباعى وقلت له : تفتكر الناس دى واقفة هنا ليه؟

ـ يمكن عرفونا .

ـ ولكنى ألاحظ أنهم لا ينظرون إلينا مهما اقتربنا من الباب . .

ـ آمال أيه؟

وجاء صالح جودت . وخرج من الباب واقترب من الناس وانتظر من أحد أن يطلب إليه توقيعًا . فلم يفعل أحد . وخرج يوسف السباعى أبيض أحمر العينين . ووقف أمام الفندق ولكن أحدا لم يتقدم منه .

وذهبت أنا وسألت الناس : فيه إيه؟

فقال لى واحد : إسماعيل .

قلت له : إسماعيل مين؟

قال : إسماعيل ياسين!

ولم نكن نعرف أن إسماعيل ياسين موجود فى الفندق وأن هذه الجماهير وقفت فى انتظاره لتراه وتصافحه وتضحك معه وعليه . .

وسألت عن غرفة إسماعيل ياسين . وانفتح باب غرفته . . بالأحضان : أهلا يا إسماعيل . . من إمتى هنا؟!

ووجدت أن غرفته مثل دكان الفاكهانى . . أقفاص التفاح وصناديق الفستق واللوز والجوز . . كلها من المعجبين . وقال لى : بالهنا والشفا . . يا راجل اكبش وحط فى جيبك . . أو قل لى أوضتك نمرة كام وأنا أخليهم يبعتوا لك قفص ولا اثنين . . والله الناس هنا حلوين قوى . . بتعمل إيه هنا؟

قلت : ضمن وفد الأدباء . .

ـ يا اخويا أنا ما أعرفش أدباء ، أنا أعرف أدباتيه بس!

* * *

وكنت مكلفًا بالبحث عن الأدباء الشوام وزملاء الدراسة. ومن العجيب أننى لم أجد منهم واحداً. كلهم فى باريس أو بيروت. وأدهشنى أنهم جميعًا ليسوا فى دمشق رغم علمهم بأن وفداً مصريًا فى طريقه إلى بلادهم. وأكثرهم زملاء الدراسة فى جامعة القاهرة. حتى غادة السمان الأديبة الصاعدة لم تكن فى دمشق.

وعرفت فيما بعد أن أحداً من المسئولين لم يدعهم إلى اللقاء بنا. وإنما تجاهلوهم. لماذا؟ لم أعرف.. ولما سألت عن الأستاذ جميل صليبا قيل إنه فى باريس وقيل فى البرازيل. كأنه لما علم بحضورنا ترك لنا البلاد ومن عليها. لابد أن لديه أسبابا تدعوه إلى أن يطفش من بلده..

وقررت البقاء يومًا آخر فى بلودان. ولم أقل لأحد عن السبب. وادعيت بأننى سوف أسافر إلى بيروت.. أو أننى سوف أسافر إلى باريس.. واختفيت حتى لا يسألنى أحد. أما السبب الحقيقى فهو أننى علمت أن محمد عبد الوهاب وعروسه نهلة القدسى سوف يحضران بعد أيام.

وكان (صوت إسرائيل) قد أذاع حديثا خاصا بين محمد عبد الوهاب ونهلة.. وكان الحديث فكاهيًا وفيه كام كلمة لا تقال.. ولا أحد يعرف كيف التقطت إسرائيل هذا الحديث.. الذى صار حديث العالم العربى كله.

وفى يوم دعانى محمد عبد الوهاب إلى جناحه. شربنا الشاى. ورأيت مشهداً غريبًا. فعبد الوهاب راح ينقل الأكواب والفناجين والشوك والسكاكين إلى منضدة أخرى.. وأمسك صينية ومسحها جيداً ووضعها على صدره وفرح وقال: يا الله..

وخرجت نهلة ومشيت وراءها ومن ورائنا عبد الوهاب وأخذ ينقر على الصينية الصاج ويقول: واتمخطرى يا حلوة يا زينة.

وقال: تعال معايا.. قول.. واتمخطرى يا حلوة يا زينة.. كلنا بنحبك نهلة.. كلنا بنحبك نهلة..

وعرفت فيما بعد أن عبد الوهاب كان مشغولا بأغنية للرئيس عبد الناصر . . وكان اللحن جاهزا فى دماغه وينقصه الكلام . . وجاء الكلام الذى عرفناه فيما بعد : كلنا بنحبك ناصر . . كلنا بنحبك ناصر . .

ونزلنا سلم فندق بلودان وعبد الوهاب ماض فى التلحين الذى يردده مؤقتًا :

كلنا بنحبك . .

وأنا أقول : نهلة . .

وضحك عبد الوهاب وقال : هنا كلنا بنحبك نهلة . . ولكن فى مصر : كلنا بنحبك ناصر . . هاها . .

عزيزى أنيس.
أنت تجلس على أكبر
خازوق فى مصر!

كانت رحلتى حول العالم فى ٢٢٨ يوما قد انتهت عند مدينة بورتوفينو الإيطالية. فى ضوء الشموع مثل كل أصحاب الملايين.

وانطفأ النور ولم أعبأ بذلك، فالليل أجمل ونجوم السماء أروع من الشموع عندما جاء الجرسون ينادى: سنيور منصور. وأدهشنى أن يعرف أى إنسان مكانى. وأغلب الظن أن هناك خطأ ما. وذهبت ورفعت السماعة ليجىء صوت على أمين كالمدفع الرشاش: أنيس.. والدتك فى صحة جيدة.. أنا كلمتها اليوم.. نسيت أقول لك حمدا لله على السلامة، الناس كلها مبسوطة من كل ما كتبت. الرئيس عبد الناصر أعجبه مقالك عن الصين. وقد أرسلت لك خطابا مع أحمد يوسف لكى يسلمه لك فى اليابان.. يا أنيس لا تقفل السكة وتعمل أنك مش سامع.. لقد اختارك زملاؤك رئيسا لتحرير مجلة الجيل.. تعال فورا!

وأقفل السكة قبل أن أقول كلمة واحدة. غلطتى أننى أطلعت صديقى صلاح يوسف كامل مدير الأكاديمية فى روما على عنوانى. ومنه عرف على أمين أين أستريح من هذه الرحلة الطويلة!

وعدت إلى القاهرة، ونشر مصطفى أمين مقالا فى الأخبار وأخبار اليوم وآخر ساعة والجيل يهنئنى برياسة تحرير مجلة (الجيل) ويقول فى مقاله اعزف ونحن نعزف معك . . أو ارفع صوتك بالغناء ونحن نردد وراءك . . أنيس مبروك أنت الآن تجلس على أعظم خازوق فى مصر!

وجلست على هذا الخازوق عشر مرات رئيسا لتحرير الجيل وهى وآخر ساعة وأكتوبر ووادى النيل والعروة الوثقى ومايو وكاريكاتير: وطلب منى الرئيس مبارك أن أصدر مجلة عن (الشباب) . . وصدر قرار بتعيينى رئيسا لتحرير مجلة (القاهرة) التى لم أعرف مكانها ولا ذهبت إليها ولا فكرت فى أن أرأس تحريرها . . ثم صدر قرار بأن أكون رئيسًا لتحرير مجلة (الكاتب المصرى) التى كان يرأسها طه حسين وتوقفت عن الصدور سنة ١٩٤٨ .

ورؤساء التحرير أنواع: أناس يجلسون على الخازوق وأناس يجلسون إلى جواره . . وأناس صنعوا عشرات الخوازيق لأنفسهم وتمرغوا عليها كما يفعل فقراء الهنود. ولم يكن مصطفى أمين مازحا . وإنما رئاسة التحرير فى ظل الرقابة والحكم الشمولى خازوق مختلف الألوان والأشكال والأحجام . . ولابد أننى استفدت أو عارضت رؤساء التحرير الذين عملت معهم ـ وهذه حكاية أخرى . ربما عدت إليها .

* * *

أول رئيس تحرير رأيته وعرفته ولم أجده (رئيسًا) للتحرير . . أو حتى رئيسا لأى شىء . . هو الدكتور على الرجال رئيس تحرير جريدة (الأساس) لسان حزب السعديين وكان أيامها محمود النقراشى باشا رئيسا للوزراء . وكان المشرف على جريدة (الأساس) حامد جودة رئيس مجلس النواب . .

وكنا نلتقى بالدكتور الرجال ذاهبا إلى أين لا نعرف قادما من أين لا ندرى . ولكننا نجده فى الطرقات يضحك . أو يروى لنا حكايته وبطولاته فى المحاكم، فهو محام ومدرس فى كلية الحقوق . أما الكل فى الكل فهو الأستاذ محمد صبيح وكان سكرتيرا للتحرير . فلم تكن مثل هذه الوظائف قد اخترعت بعد: نائب رئيس

التحرير ومساعد نائب رئيس التحرير ومدير التحرير ونائب مساعد رئيس التحرير أو نائب النائب أو مساعد المساعد. فقد جمع محمد صبيح كل هذه الصفات وكان رئيس التحرير الحقيقى..

وربما كان المنصب الذى لا يشغله الدكتور على الرجال هو الذى شجع المحررين عليه ومن بين الذين تشجعوا عليه زميل جديد هو محمد المعلم الذى صار ناشرا كبيرا بعد ذلك. لا أحد يعرف بالضبط ماذا حدث فى ذلك اليوم ولكن قالوا لنا ونحن فى فزع أن محمد المعلم ضرب رئيس التحرير. ضربه؟! وقيل إنه ضربه بأشياء كثيرة.. بيده.. بشيء فى يده.. أين؟ قيل فى وجهه.. وقيل فى بطنه.. وقيل من الخلف.. وقيل ألقى عليه شيئا.. جافا.. سائلا.. الحادث فى ذاته أخافنا. أفزعنا. وقد صادقت محمد المعلم طوال حياته. ولم أسأله كيف حدث ما حدث.. نسيت أن أسأله.. أو كان من الواجب ألا أفعل..

وانقلبت وزارة الداخلية وجاء عبد الرحمن عمار وكيل وزارة الداخلية. وامتلأت الجريدة برجال الأمن.. إن محررا لا هنا ولا هناك قد ضرب رئيس التحرير الذى هو هنا وهناك.. عضو مجلس الأمة وأستاذ فى الجامعة ورئيس تحرير جريدة الحزب.. ولم نجد أحدا نسأله. وأذكر أن محمد المعلم وقف بالقميص والبنطلون وظهره للحائط ولونه أصفر. وفى الغرفة أناس كثيرون. هل كانوا يسألونه هل يستعطفون رئيس التحرير هل يكدرون المحرر..

وفى ذلك الوقت كان محمد المعلم ناشرا متواضعا أصدر كتابا للدكتور على مصطفى مشرفة على (انشطار الذرة). وكان ذلك حدثا علميا عظيما وكان الكتاب الصغير يتحدث عن اثنين من العلماء الألمان هما: هان واشتراسمان قد شطرا الذرة والخطوة التالية بعد ذلك هى تعظيم الطاقة التى خرجت من انشطار ذرة واحدة لتكون فى خدمة الإنسان، ومن أهم الأحداث فى ذلك الوقت أن الزميل الشاعر محمد التهامى كان يتحدث إلى السيدة أم كلثوم بالساعات. وكنا لا نصدق. فكان يطلب إلينا أن ندخل فى الخط. وكانت سيدة الغناء مفتونة بصوت محمد التهامى الغليظ الملىء. وكانت تدعوه لحفلاتها وتختار مكانا واضحا لكى ترى هذا الصوت

الذى عزلها عن نشاطها اليومى ساعات كل يوم. وكان هو الذى يطلبها. ولم تطلبه قط. ولم يعطها اسمه الحقيقى.

وبعد سنوات أنا سألت أم كلثوم عن محمد التهامى. فاندهشت أننى عرفت، قالت لى: ده جدع غلباوى.. وخايف أن أراه.. هوه شكله أيه؟

لم تره ولم يحاول أن يجعلها تراه!!

* * *

كامل الشناوى هو ثانى رئيس تحرير أعمل معه سنة ١٩٥٠ فى (الجريدة المسائية) الوفدية ويملكها أحمد باشا حمزة وسيد بك ياسين.. وكان من الزملاء مرسى الشافعى رئيسا لقسم الترجمة وبعد ذلك أصبح رئيسا لروزاليوسف. والشاعر الغنائى مأمون الشناوى وكان عبد المنعم الصاوى سكرتيرا للتحرير وصار بعد ذلك وزيرا للإعلام.. وكان مصطفى محمود وصلاح حافظ. وكانت مقر (الجريدة المسائية) فى نفس المبنى الذى شغلته جريدة الوفد فى جاردن سيتى، أما المطابع فهى فى شركة الإعلانات الشرقية ـ الجمهورية الآن.. وكانت المواد تنتقل من هنا إلى هناك على ظهور البسكليات وكثيرا فى مفارق الطرق ما طارت المواد فى الشارع وحاول الناس أن يجمعوها. وراحت صفحات كثيرة. وكانت الرقابة شديدة فى ذلك الوقت. وكان الرقيب ـ من باب الرأفة بنا ـ يعكف على كتابة ما يراه لملء الفراغ الذى تخلف عن الصفحات التى ضاعت فى الطريق..

ويوم صدور العدد الأول ظهر الملحق قبل صدور العدد. وكان الباعة ينادون على الملحق مستخدمين الكلمة الإيطالية: سوبلمنتو.. السوبلمنتو.. لماذا؟ لقد اصطدم العامل الذى يحمل المواد بإحدى السيارات فسقط على الأرض.. وكان اهتمام الناس به أكثر من اهتمامهم بالورق الذى طار.. وظل الساعى يبكى فى الشارع حتى أدركناه عند موعد الصدور.. وحملناه فى تاكسى إلى المطبعة لنجلس جميعًا نكتب أى شىء لنملأ الفراغ. فقد كان ممنوعا فى ذلك الوقت أن يظهر أى فراغ فى الصحيفة ليدل على أن هناك رقابة حذفت أو تدخلت فى حرية النشر!!

وبعد ٤٤ عدداً أغلقت (الجريدة المسائية). . وانتقلنا مع كامل الشناوى إلى العمل فى جريدة الأهرام . . وبعضنا نقله كامل الشناوى إلى مجلة (النداء) التى يملكها ياسين سراج الدين . .

* * *

وكان ياسين سراج الدين مثل الحب والعفاريت : سمعنا عنها ولم نرها . ولم تكن هناك ضرورة لرؤيته . فقد كنا نسمع عنه دائمًا من مدير التحرير صلاح عبدالجيد وهو سمير وجليس ياسين بك . فالكلمة كلمته . والرأى رأيه . ولا راد لقضائه . فكل شيء ينسبه لياسين بك . . فلا مناقشة بعد ذلك . .

وفى يوم صدر قرار بعدم ظهور الإمضاءات . فكل مقالات : سلامة موسى وحلمى مراد ومصطفى محمود وصلاح حافظ وأنا . لماذا؟ لا معنى للسؤال . . ولا ضرورة له .

وفى يوم صدر قرار بعدم نشر بقايا المقالات . وكنا نتناوب الإشراف على الصفحة الأخيرة . وبقية المقالات تجيء فى الصفحة السابقة . والقرار لا بقايا . . وعلى ذلك يجب أن تكون المقالات قصيرة بعد ذلك . أى أننا نكتب على حريتنا وهو يحذف على حريته . وهذا درس لنا جميعا! بما فينا الأستاذ سلامة موسى . . ولما وجدنا سلامة موسى لا يعترض فكيف نعترض نحن الصغار؟!

وفى يوم صدر قرار بخفض المرتبات . جميعا . لماذا؟ ياسين بك عاوز كده . وفى يوم تشجعنا فى اجتماع عام وتساءلنا عن ذلك . ولم ينطق ياسين بك بكلمة وإنما صلاح عبد الجيد هو الذى قال : انتو فاكرين نفسكم إيه طه حسين . . وأيه يعنى لما يتحذف نصف المقال أو المقال كله . . كله كلام فارغ . . ثم إن ياسين بك يتعب فى الإتيان لكم بالفلوس . . ولولا أن له صديقة غنية تموت فيه . . ما قبضتم مرتباتكم الشهر ده!!

ولا أحد يرد ـ لا نحن ولا ياسين بك!

فإذا جاء موعد القبض . . سمعنا من ينادى فى الطرقات : ياسين بك جه . ادخل

يا جدع أنت وهو . . ويدخل الجدعان الغرف ويغلقون الأبواب . . لأن ياسين لا يحب أن يرى أحدا . ويتهامس المحررون والسعاة عن الجرادل التى ضاعت وعن الحنفيات التى انكسرت والأكواب ، ويتعالى أصوات السعاة . ثم صمت تام . لقد خرج ياسين بك والقبض غدا . ويجىء الغد . ولا صوت ولا خبر . . مفيش قبض لأن ياسين بك قد اصطدمت سيارته بسيارة أخرى ومزاجه قد تعكر . والأمل عظيم فى أن يتعدل المزاج غدا أو بعد غد . .

أما رئيس التحرير فيقال إنه إما الأستاذ على عبد العظيم المحامى أو الأستاذ أحمد قاسم جوده نقيب الصحفيين . لقد دخلنا هذه المجلة ولم نعرف أيهما رئيس التحرير . . وأيهما خرج وأيهما بقى فى مكانه .

وكان سكرتير التحرير سعد لبيب (مكاوى) الذى صار رئيسا للتليفزيون بعد ذلك !

وكان مأمون الشناوى يفسر عدم حضور ياسين بك للجريدة بأن ياسين لا يجىء يوم الخميس لأن صبحيته الجمعة . . والجمعة أجازة المسلمين والسبت أجازة اليهود والأحد أجازة المسيحيين والاثنين أجازة الحلاقين والثلاثاء صبحيته الأربعاء الذى هو أجازة البهائيين !

وكان يقول : بلغ من (قلاطة) ياسين بك أنه كان ينزل السلم وقد وضع ساقا على ساق !

وكان مأمون الشناوى يقول إن زميلنا محمد الليثى وكانت له عين زجاجية قد تأثر بخفض مرتبه لدرجة أنها دمعت !

وكانت مجلة (النداء) تشغل نفس الشقة فى ميدان مصطفى كامل التى كانت تشغلها (أخبار اليوم) . . وقد حاول ياسين بك أن يجعل للنداء نفس شكل وحجم أخبار اليوم ـ فجاءت فى الشكل فقط !

* * *

وعندما اشتغلت فى النداء وفى الجريدة المسائية وفى الأهرام كنت حريصا على أن أعمل فى (روزاليوسف). وقد كان رئيس التحرير إحسان عبد القدوس شخصية باهرة: أديب ومحلل سياسى وفاتن جميلات مصر. وكان رقيقا أنيقا. إحسان عبدالقدوس هو أول من قدمنى لقراء روزاليوسف وقراء مجلة (الاثنين) عندما كان يكتب فيها الصفحة الثانية بإمضاء (سان).. ففى روزاليوسف قدم للمسرحية الوجودية التى كتبتها بعنوان (هروب الملائكة): ترقبوا هذا الشاب الذى هو كوكتيل من العقاد وطه حسين والحكيم والفيلسوف الوجودى سارتر.. إنه قادم وسوف يكون حدثا مهما..

وأعاد هذا المعنى بصورة أجمل مرة أخرى..

وكان إحسان عبد القدوس رئيس التحرير.. كانت والدته السيدة روزاليوسف رئيسة رئيس التحرير. وكان لا يرد لها طلبا. ولا يناقشها. ولا يختلف معها لأن دماغها ناشفة وشخصيتها قوية. صحيح أن إحسان عبد القدوس هو ابنها الحبيب ولكن إحسان ليست عنده موهبة إدارية ولا مالية كالتى كانت عند (روزاليوسف). وكان إحسان إذا جلس للكتابة فكأنه راهب فى صومعة.. أو كأنه وثنى يدور حول تمثال من الرخام البارد.. هو الرخام البارد الذى يتدفق منه الكلام حاراً جميلا. وكنا نحترم هذه العزلة. فإذا أردنا شيئًا ذهبنا إلى والدته. وقفت أمامها مع حمدى فؤاد وطلعت يونان نطلب زيادة المكافأة. فقد كنا نتقاضى ١٢ جنيها شهريا. وكنت أقول: أنا الذى انفرد بأخبار الملك فاروق. لأن صديقتى سيلفانا ماريللى تبعث لى ما تنشره الصحف الفرنسية. وحمدى فؤاد قال وطلعت يونان. ولكنها وقفت ووضعت يدها فى وسطها وقالت: الواد بس ـ أنا. وقررت زيادة مكافأتى إلى ١٦ جنيها.

وكان يجلس أمام مكتب إحسان عبد القدوس ضابط برتبة عقيد وقد خلع الجاكتة وراح يرد على القراء فى باب اسمه (جراح قلب) هذا الضابط هو عبد المنعم السباعى مؤلف أغنية: أنا والعذاب وهواك..

رآنى عبد المنعم السباعى مفرفشا قال لى: عملت إيه مع الست..

قلت: علاوة ٤ جنيهات . .

ـ إيه ياخويا . . أربعة جنيهات . . أنت سحرت لها . . أربعة جنيهات . . يانهار أسود . . رقصني ياجدع . .

وقفز فوق التربيزة ورحنا ننقر له ويرقص: أربعة جنيه . . يا أبا دلعني . . أربعة جنيه يا أبا جوزني . .

عندما خرجت السيدة (روزاليوسف) من الباب ووجدته مندمجا في الرقص: إيه ياواد أنت وهوه المسخرة دي . .

وقال لها عبد المنعم السباعي: مسخرة . . هوه ده حصل في تاريخ روزاليوسف . . واحد يزيد أربعة جنيه حته واحده ومش عاوزانا نسجل هذا اليوم التاريخي يا ست . .

ولم تضحك روزاليوسف وقالت: انزل ياواد اقعد اشتغل . .

ـ فيه أمل في علاوة يا ست . .

ـ لما تموت .

ـ زي بعضه . . يعني لما أموت تديها لعيالي . .

ـ أيوه . . بس موت!

في ذلك الوقت كان صلاح حافظ يراجع الموضوعات والأخبار ويعيد صياغتها .

وكان في روزاليوسف محرر اسمه إسماعيل سري عمه حسين باشا سري . وكان إسماعيل مثل كل أولاد الذوات يأتي بأخبار الطبقة الأرستقراطية في نادي الجزيرة . وكان إسماعيل يثور كل أسبوع ويشكو صلاح حافظ لطوب الأرض . وطوب الأرض هم المحررون الذين لا حيلة لهم . فصلاح حافظ لا يتبع التعليمات التي يكتبها إسماعيل على هامش كل خبر يكتبه . أما التعليمات فهي هكذا: في الهامش يكتب (دوس بنزين) . . أي أن يهتم بالخبر . . أو يكتب (دوس شوية) أي بعض الاهتمام . ثم يكتب هذه التعليمات: كلك نظر يا أبو صلاح البنت حلوة

ولبسها شيك أوع تغلط فى الألوان وإلا أصبحت فضيحة أرجوك يا صلاح ولك الحلاوة!

ويصدر عدد روزاليوسف فنجد إسماعيل على ريق النوم فى روزاليوسف بالقميص والبنطلون - أى أنه نزل غاضبا لدرجة أنه نسى الكرافتة والجاكتة ونسى يحلق ذقنه وبدلا من أن يضع كولونيا فاخرة وضع كولونيا (٥٥٥). . وفى اجتماع التحرير يكون إسماعيل سرى أول المتكلمين: أنا قلت يا أستاذ إحسان يدوس جامد، داس شويه . . وقلت له خد بالك من الألوان . . أوَدِّى وشى النهارده فين . . هل معقول توتو ترتدى بلوزة زرقاء وجيب خضراء هل هذا معقول . . ليه هيه خدامة . . وبعدين هل معقول أن تلبس جزمة كعب عالى فى نادى الجزيرة صباحا وهى رايحة تاخد حمام . . أنا حا أقدر أدخل النادى تأنى . . شوفوا حد غيرى يغطى أخبار نادى الجزيرة!

وفى يوم كنا معا: مأمون الشناوى وكمال الطويل وصلاح حافظ وأنا. عندما دق الباب . . ودخل رجال المباحث واختطفوا صلاح حافظ المفكر الشيوعى المهذب الفنان المضىء العقل الجميل الروح . . وذهب إلى غياهب السجون تسع سنوات!

ويوم خرج جاءنى فى أخبار اليوم . . بالأحضان والقبلات . . فهو من أحب وألطف المفكرين فى مصر . . تختلف معه . ولكن تبقى محبا له . وجلس صلاح حافظ على المقعد . . ورفع قدميه فى الهواء . . ونشر ذراعيه وقال: ٩ سنوات وأنا أحلم بأن يجىء يوم أرفع قدمى عن الأرض . . لم يحدث تسع سنوات فلا مقاعد فى السجن . . ولا مكان فى الزنزانة تستطيع أن تنشر فيه ذراعيك دون أن ترتطم بالحائط . .

وكلما انفتح باب مكتبى ارتعد صلاح حافظ . .

قلت: فى السجن داسوا عليك جامد . .

- داسوا؟ . . فعصونى . . فأنا البقية الباقية من صلاح حافظ!

* * *

أما أخبار اليوم فهى منتهى الأمل . . ونهاية الأدب . . وقمة جبال الصحافة كلها . . فقد أسكرتنا كلمات : أخبار اليوم ومصطفى أمين وعلى أمين . . ولذلك كانت سعادتى لا حدود لها عندما انتقلنا من الأهرام إلى أخبار اليوم مع كامل الشناوى . . أنا أولا وبعد ذلك كمال الملاخ . فقد بهرتنا الصناعة الصحفية . . والحرفية فى كتابة العناوين والأخبار . . والمقالات . . وكنت فى دهشة من أن يكون زميلى فى مدرسة المنصورة الثانوية عبد السلام داود محررا فى (أخبار اليوم) . . كيف عملها . . كيف وصل إلى هناك . . كيف سبقنى . . كيف اهتدى . .

مع كامل الشناوى دخلنا القصر المسحور فى الصحافة الحديثة . . لنرى كيف يكتب مصطفى أمين وعلى أمين . . وكيف ينفردان بكل هذه الأخبار . . ومن أين يأتيان بهذه المعلومات والخبطات والفضائح والتنبؤات السياسية . . وكنا نظن أنه بمجرد دخول باب (أخبار اليوم) سوف نصبح قادرين على كل شىء . .

وكانت لنا غرفة صغيرة جدا . . كمال الملاخ وأنا . لا يهم . . المهم أننا أصبحنا فى أخبار اليوم . أنا انتقلت إلى آخر ساعة . . ثم أصبحت ، بدلا من الأستاذ زكى عبد القادر ، مسئولا عن (أخبار الأدب) ثم كتابة (اليوميات) بدلا من كامل الشناوى الذى تركنا وذهب إلى الجمهورية . ثم كتبت الصفحة الأخيرة بدلا من الأستاذ التابعى . . ورأست تحرير (الجيل) بدلا من الأستاذ موسى صبرى . . ورأست تحرير (هى) مع الأستاذ على أمين . . ثم رأست تحرير آخر ساعة بدلا من الأستاذ يوسف السباعى . .

ولم نكن نعرف كيف نفرق بين التوءمين مصطفى أمين وعلى أمين . . وكان على أمين يربط رقبته فنعرف أن هذا هو على أمين . . ثم ذهب الرباط وعدنا إلى الحيرة بينهما . . وعرفنا أن الذى يصافحك بحرارة ولا يعرفك هو مصطفى أمين . . والذى لا يصافحك رغم أنه يعرفك هو على أمين . . ثم اكتشفنا أن صاحب الصوت الخفيض هو على أمين . . وإن الذى لا تفارق السيجارة شفتيه هو على أمين . . ولكن كثيرا ما وجدنا سيجارة مصطفى لا تفارقه . .

ثم عرفنا أن مشينا وراء بنت حلوة فسوف نجد أنفسنا فى مكتب مصطفى أمين . .

أما إذا كانت مكسحة وتسوق أمامها عددا من أطفالها العراة فهى فى طريقها إلى على أمين . .

وكانت لى تجربة مبكرة . فلم أكن أعرف أن أسوأ وقت للحديث أو للخناق أو التظلم عندما يكون مصطفى وعلى معا . فقد حدث أن قدمت استقالتى . ونظر مصطفى إلى على وعرف أن هناك شكوى . وبسرعة قرر دون أن يعرف أية تفاصيل : استقالتك مقبولة . ومن الممكن أن نبقى أصدقاء!

وخرجت وعدت إلى البيت دون أن أقول لكامل الشناوى . وبعد ساعة وجدت على أمين يصعد سلما ستة أدوار أمام مسجد السلطان أبو العلا حيث كنت أقيم . ويدعونى أن أنزل معه الآن . وسوف يعتذر لى مصطفى . واعتذر مصطفى . وكان المقلب الموجع عادة أن ننصح أى محرر إذا كانت له شكوى أن ينتهز فرصة وجود مصطفى وعلى معا . والنتيجة مضمونة فبعد دقائق يخرج المحرر باكيا ويجفف دموعه وهو يكتب استقالته!

وكان أمل كل محرر أن يحظى بإعجاب مصطفى أمين وليس بإعجاب على أمين . فالصحافة هى مصطفى أمين . والإخراج والفن الصحفى هو على أمين . .

وإذا أردت أن تعرف أخبار مصطفى أمين، وهى كل أخبار الدولة فاسأل على أمين . أما مصطفى فلا يقول . ولا يفشى سراً . ومن الغريب أنه من الممكن أن يستمع إليك ساعات ولا يبدى رأيا . . وأذكر أننى كنت أجلس إليه عندما دخل أربعة من المحررين ينقلون لمصطفى أمين خبرا واحدا . وكان يستمع بمنتهى الاهتمام كأنه يسمعه لأول مرة . سألته قال : إذا أنا قلت لأى محرر إن هذا الخبر قديم، فلن يجىء مرة أخرى . . ولكن إذا أفهمته أنه خبر جديد وأننى لم أكن أعرفه فإن هذا يشجعه على أن يحاول أن يأتى بجديد!

وهذه الحادثة تدل على الفرق بين هذين العملاقين . كنت أجلس عند مصطفى أمين عندما أعلن سكرتيره : أن الأستاذ محمود شكرى المحرر بجريدة المصرى والذى أبلغ رجال الثورة أن الأخوين مصطفى أمين وعلى أمين قد اتصلا بالسفارة

الأمريكية يوم قامت ثورة يوليو . وكان من نتيجة ذلك أن جاء الضابط جمال القاضى واعتقلهما وضربهما بالشلوت!

وقبل أن يذهب الأخوان معه، كتبا موضوع اعتقالهما فى الصفحة الأولى من الأخبار . . ونهض مصطفى أمين يقول للسكرتير : قل له يتفضل .

وجاء محمود شكرى ووقف مصطفى واحتضنه : أهلا أزيك يا محمود . . وحشتنا . . تشرب إيه يا محمود . .

وأنا فى ذهول من هذا اللقاء الحار لرجل أدخل التوءمين السجن . ولكن مصطفى أمين قادر على مثل هذا الأسلوب فى مواجهة ومقابلة أكثر الناس عداوة له . ولم أطق هذا المنظر فذهبت إلى على أمين . .

وقبل أن أخبر على أمين بما رأيت جاءت سكرتيرة على أمين تقول : الأستاذ محمود شكرى يا أفندم . .

ـ إيه؟ مين؟

ـ محمود شكرى

واشتعلت النار فى على أمين . . ووقف وراح يتحرك فى مكانه كأسد فى قفص . وانفتح الباب عن محمود شكرى ليقابله على أمين بصوت مخنوق : أنت هنا يا كلب يا ابن . . يا أنيس افتح الشباك . . لابد أن نلقيه من النافذة . . افتح يا أنيس . . فورا . . . افتح .

وانزعج محمود شكرى وخرج فى حالة من الرعب . . وعلى أمين فى حالة غيظ جنونى . . ثم جلس وخرجت لأجد مصطفى أمين فى وداع محمود شكرى عند باب الأسانسير!

وبعد ذلك عاتبنى على أمين كيف أننى لم أسارع بفتح النافذة ودفع محمود شكرى من الدور التاسع إلى الشارع . . كيف؟

وأخبار اليوم هى مدرسة الأبواب المفتوحة والسماوات المفتوحة أيضًا . .

لا فاصل بين رئيس التحرير وكل المحررين والعمال . . والسماوات المفتوحة لكل النجوم تعلو وتتألق بلا حدود!

وظهرت مدارس صحيفة أخرى هى مدرسة الأبواب المغلقة والسقوف المنخفضة . . فالمسافة كبيرة بين رئيس التحرير والمحررين . . ولا أمل فى صعود السلالم المزدحمة والسقف القريب . . والقاعات الخانقة والأفكار الجامدة . .

وصدقت نبوءة مصطفى أمين . فهو الآخر كان يجلس على الخازوق . . حتى دخل السجن تسع سنوات . . يجلس على البلاط . أو على البورش بديلا عن الخازوق . . وحتى عندما استلقى على أمين على سرير فى مستشفى الجمعية الخيرية محروما من الكتابة . . استعاض عنها يعمل ماكيتات لصحف ومجلات جديدة يحلم بإصدارها . .

وخرج على أمين من الدنيا ، ولم تخرج هذه الصحف . .

ويوم مات على أمين أحس مصطفى أمين أن نصفه قد مات . . فعاش بالنصف الثانى شجاعا ، وكانت شجاعته ظاهرة صحفية . . تطبيقا لحكمة اتخذها الأخوان أن يموتا واقفين لا أن يعيشا راكعين!

يا سمو الأمير قل للمؤتمر : ما سر هذه الفحولة ؟ !

من نصائح الأديب الفرنسى أندريه جيدا : ابعد عن الذى يشبهك . أى الذى يتشابه معك فى اهتماماتك وهمومك . فإذا كنت صحفيا فلا تجلس إلى الصحفيين . وإذا كنت طبيبا فابعد عن الأطباء . وجهة نظر !

ولكن لاحظت أن فى كل رحلاتى مع الأدباء نتحول جميعا إلى مجموعة من الأولاد الأشقياء . نضحك ونلعب .

هل هو البعد عن القاهرة؟ هل هو البعد عن الناس الذين يعرفونك فتتحرر من قيود النظرة إليك ومحاسبتك على الذى تفعل وتقول؟ . .

فى سنة ١٩٦٣ قال لى يوسف السباعى : اعمل حسابك بعد يومين سوف نسافر إلى اليمن .

ـ أعمل حسابى يعنى أيه؟

ـ يعنى إذا كان عندك كام مليون توصى بها لأهلك والباقى علشانى . .

ـ هاها . . كم يوم؟

ـ ربما أسبوع . .

دارت رأسى فأنا لا أعرف الكثير عن الحياة فى اليمن لمثل هذه المدة

الطويلة . . سألت أحد أصدقائى من الأطباء العلماء . . وما هى الأمراض المتوطنة فى اليمن؟

ـ هات ورقة وقلما . .

ـ لماذا؟

ـ ألست تريد أن تكتب عن اليمن؟

ـ أنا مسافر اليمن فى وفد من الأدباء لزيارة قواتنا المسلحة والكتابة عن المعارك والبطولات .

وذكر لى عددا من الأمراض . أمراض عادية كالموجودة فى مصر . . والحقيقة أنه بالغ كثيرا جدا!! .

ولكن المشكلة هى العقاقير اللازمة لذلك . وبسرعة ذهبت إلى الأديبة الدكتورة نوال السعداوى وكانت مديرة العلاقات العامة فى وزارة الصحة .

وعرضت عليها المشكلة . . أو الأزمة أو المأساة . . وأعدت لى صندوقا فيه كل ما أحتاج إليه من أدوية لعلاج الحميات والإمساك والإسهال والصداع والأرق، ومعها ورقة طويلة لكيفية الاستعمال .

وقبل السفر إلى السويس بساعات لنستقل الباخرة (مصر) إلى اليمن اتصل بى صديقى الدكتور عدلى الشيخ وقال لى : نسيت أقول لك إنه توجد فى اليمن (دودة مدينا) . وهى دودة تنمو تحت الجلد ويلتقطونها بالمقص كما نلتقط المكرونة الإسباجتى بالشوكة!

فسقطت السماعة من يدى . ولم أفلح فى الاتصال بعدلى الشيخ ولا بنوال السعداوى . ولم أجرؤ على أن أصارح أحدا من أعضاء الوفد، ولم أخبر أحدا أننى أتيت بشنطة قد امتلأت ببسكو مصر وزجاجات الكحول والكولونيا . فقد قررت ألا أذوق طعاما فى اليمن .

وطلبت من قبطان الباخرة أن يمدنى بزجاجات الكوكا ـ من أجل الوفد كله! وكذلك بكمية من الخبز وعلب الجبنة .

وفى أول يوم فى البحر اصطدم رأسى بالباب الحديدى فسال دمى . . وبسرعة اتجهت إلى الحقيبة الطبية والورقة فلم أجد فيها شيئا يتعلق بالجروح وعلاجها . وانطلقت إلى القبطان . وبسرعة فتح دولابا وراءه . . وأفرغ البن فى كفه وضغط به على جبهتى !

قلت له : إيه ده؟

- لا يوجد علاج أحسن ولا أسرع من كده . . وسوف ترى . وجفت الدماء .

وبلغنا مدينة الحديدة . . وكان لابد أن نبقى فى السفينة حتى الصباح .

واقترح علينا القبطان أن ننزل إلى البحر وأن نستحم . وأعد لنا المايوهات . ولم أشأ أن أقول لأحد أننى لا أعرف السباحة . . فهذه هى المرة الأولى فى حياتى التى أنزل فيها الماء . .

فقد رأيت أجمل بلاجات الدنيا وظللت على البر . . بلاجات هاواى وسان فرانسيسكو وكاليفورنيا والريفيرا الفرنسية والإيطالية . . وأوقفنى الخوف من الماء قريبًا من الشاطىء أتظاهر بالقرف من السباحة فى هذه المياه العكرة .

وسبقنى إلى الماء : نجيب محفوظ وصالح جودت ويوسف السباعى ومحمود حسن إسماعيل وإسماعيل الحبروك . . وذهبوا بعيدا . . أما أنا فظللت واقفا أنظر يمينا وشمالا ، والحقيقة أننى خائف . وفجأة دفعنى صالح جودت إلى الماء بقوة . ووجدتنى تحت سطح البحر ، أصرخ : الحقونى . . ما أعرفش أعوم .

ولا أعرف كم بقيت فى هذه الحالة من الفزع ، ولم يهتم أحد بصرخاتى فقد ظنوا أننى سعيد بما فعل صالح جودت وأننى أتظاهر بالخوف . وانسحبت إلى السفينة لكى أستحم . وأفتح الصندوق أبتلع قرصا مهدئا وواصلنا الضحك على جهلى بالسباحة .

أما كيف مضت الليلة الأولى فى صنعاء فلا أعرف ، وكل ما أذكره هو أننى ادعيت المرض . وأننى غير قادر على الأكل والشرب ، وأننى أتيت معى بطعام

خاص لا أستطيع أن أغيره . أما الاستحمام فكان باستخدام السفنجة والكولونيا . ولم أحلق لحيتى . فأنا لا أعرف ولا أحد قال لى ولا أنا سألت أحدا من أين تدخل (دودة مدينا) إلى الجسم!

وفى يوم دعانا الرئيس السلال إلى عشاء وكانت ليلة سوداء . فالموائد قد التفت حول حمام للسباحة . . وهناك موسيقى . . ورائحة شواء . . وبسرعة أفلح يوسف السباعى فى أن يخترع حلفا مضادا لى وذلك عندما رأونى قد ربطت يدى اليمنى إلى عنقى . وأشار الرئيس السلال أن أجلس إلى جواره وقال لى : سلامتك . .

ـ يا فخامة الرئيس سقطت من المركب على يدى . فأنا لا أستطيع أن أحركها!

ونظرت إلى الطعام وقلت له : ثم إننى نباتى . .

ـ يعنى لا تأكل لحما . . كل اللحوم؟ . .

ـ كلها . .

ـ والسمك؟

ـ أيضًا .

ـ إذن ماذا تأكل؟

ـ أكلت وأخذت الدواء قبل أن أجىء إلى هنا . .

ورفع أمامى كوبا من الكوكا فقلت : وشربت الكوكا بالدواء منذ لحظات . شكرا يا فخامة الرئيس . .

والتفت يوسف السباعى ضاحكا وقال : أنت كنت زى العفريت فى المركب . . أمتى حدثت كل هذه المصائب؟

فلم أرد . .

فقال صالح جودت : إيه حكاية ذراعك . أنت ساعدتنى على إنزال الشنطة بتاعتى من فوق السرير . .

قلت : وهذا المجهود هو الذى أوجعنى أكثر . .

وسألنى الرئيس السلال : تحب نشوف دكتور؟

ـ يا ريت أين؟

ـ عند قوات الأمم المتحدة.

وتركت الطعام وذهبت إلى مكتب الأمم المتحدة وهناك عرفت أنه من الممكن أن آكل وأشرب وأجد الدواء. ولم أشأ أن أذكر شيئا من ذلك للتحالف الذى انعقد بسرعة لإحراجى والضحك بعد ذلك!

وفى الليل سمعت دقا على الباب وكان أحد المواطنين اليمنيين، سألنى: الأخ أنيس.

ـ أيوه يا أفندم..

ـ قالوا لى إنك تريد عروسا؟

ـ أريد ماذا؟

ـ عروس.. وهذه الفتاة من قبيلة بنى مش عارف إيه..

ونظرت إلى الفتاة الصغيرة وإلى الساعة فى يدى.

قلت له: الساعة الآن الثانية صباحا تعال نهارا.

طبعا لابد أن يكون مقلبا من يوسف السباعى أو صالح جودت، وبعد ساعة توالى الدق على الباب. إنه نفس الرجل: الأخ أنيس؟

ـ نعم؟

ـ لم تعجبك الصغيرة. هذه أكبر منها!

ـ يا سيدى أنا لم أطلب عروسا... لا صغيرة ولا كبيرة. من الذى قال لك؟!

وانصرف الرجل دون أن يرد.

وبسرعة فتحت غرف الزملاء واحدة واحدة. وكانوا فى أحلى نومه.

ولم أنم. وسمعت طرقا على الباب إنه نفس الرجل معه فتاة أكبر. وسألنى نفس السؤال كأنه يرانى لأول مرة.. أو كأنه (روبوت) يتكلم وبس: الأخ أنيس؟

ـ نعم ياسيدى؟ إيه كمان!

ـ لم تعجبك الصغيرة والتى أكبر منها . . هذه من نفس القبيلة تقرأ وتكتب . ومستعدة للسفر معك إلى مصر . وتعيش معك على الحلوة والمرة .

ـ أنت مش مسلم؟

ـ آمنت بالله . .

ـ هل ممكن لأى مسلم أن يتزوج أكثر من أربع؟ عندى أربع فى القاهرة!

ـ الحق معك . . سلام عليكم !

ولما طلع النهار سمعت ضحكات عالية . . وعرفت أنه مقلب . وعلى مائدة الغداء سمعتهم يحكون للرئيس السلال تفاصيل هذه المؤامرة!

وانفردت بيوسف السباعى : بأقول لك يا يوسف . . دلوقت لما جمال عبدالناصر يعرف أننا فى حالة ضحك وفرفشة بينما جنودنا يموتون برصاص القناصة اليمنيين تفتكر حيعمل أيه؟ ثم أننى كنت مفصولا وأنا الآن حديث العهد بالعمل . .

ما رأيك فى أن نكف عن التهريج حتى نعود إلى مصر .

ـ معك حق . . ولكن أنا أموت إذا لم أضحك . .

ـ اضحك لوحدك!

على مين؟

ـ انظر فى المرأة وهات يا ضحك . .

ـ كلما أتذكر ماذا حدث لك والرجل يعرض عليك العرايس لا أستطيع أن أمسك نفسى من الضحك . . على كل حال إحنا غلطنا كان لازم نقول إنك لست متزوجا . . هاها . . المرة الجاية!

وانتهت الرحلة وبعثنا ببرقية تأييد للرئيس عبد الناصر والمشير عامر باسم وفد المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون وبذلك تكون مهمتنا قد انتهت رسميا . ولم يكن مطلوبا أن نفعل أكثر من ذلك . .

وعلى ظهر الباخرة ونحن عائدون إلى مصر أمضينا ليالى هادئة جميلة . وقد

أعد لنا القبطان أطعمة فاخرة. وفى يوم ونحن نتسلى بما حدث وجدنا عددا من الضباط المصريين العائدين وقد غسلوا ملابسهم وجلسوا تحتها فاقترحت أن نلتقى بهم وأن نسألهم عن سير القتال فى اليمن ومتى وكيف تنتهى المعارك؟!

وجلسوا بيننا وحولنا ولخبطوا لنا أفكارنا تماما. وقالوا لنا: إنها حرب لا ضرورة لها.. فما دخلنا نحن بما يحدث فى اليمن. وما حدث فى اليمن لا هو انقلاب ولا هو ثورة. وإنما الإمام أحمد قد انطلقت على قصره النيران خطأ. هذا كل ما حدث.. أما القوات المصرية فلا ضرورة لها. ولا أحد طلب منا أن نذهب إلى هناك. ولا أمل فى النصر.. لأننا نحارب عوامل الطبيعة. الجبال والدروب.. ولا نتقدم خطوة واحدة فى أى ميدان.. فالعسكرى اليمنى يكفيه القليل جدا من الطعام وبندقية أو مدفع وهو لا يخطئ التصويب.. والشىء الوحيد الذى تحقق لنا فى اليمن: هو أننا خسرنا اليمن والسعودية.. والحرب! وأن هذه الحرب قد دخلناها لرفع معنوياتنا بعد مأساة الانفصال عن سوريا.. تماما كرجل خانته زوجته لعجزه الجنسى فقرر أن يتزوج أية واحدة غيرها ليثبت لنفسه وللناس وللزوجة الخائنة أنه جدع!!

وأحسسنا أن هؤلاء الضباط الشبان قد جردونا من ملابسنا وربطوا أحجارا فى أعناقنا، وألقوا بنا فى البحر!

وكنا قد اشترينا بعض السلع من أسواق اليمن. وفى الجمارك بميناء السويس وقفنا أمام مفتش الجمرك. ووقف يوسف السباعى أمامه وقدم له الوفد:

نجيب محفوظ..

ـ أهلا يابيه..

ـ صالح جودت..

ـ أهلا يا أفندى..

ـ محمود حسن إسماعيل..

ـ مرحبا.

ـ تعرف أنيس منصور..

قال الجواهرى : نريد أن نعرف ـ ولا تؤاخذنى ـ سبب قوتك الجنسية . سبب هذه الفحولة التى ليس لها نظير لا عند العرب ولا عند العجم؟

وكانت دهشتنا عظيمة . ولكن لا شىء من ذلك قد ظهر على وجه الجواهرى . . ولا على وجه الأمير وكأنه أمر طبيعى جدا أن يتعرض إلى هذه القضية الخاصة جدا وطبيعى جدا، وأن يتوقع الأمير مثل هذا السؤال . ووقف الطعام فى أفواهنا . وألقينا السلاح : الشوك والسكاكين والملاعق . .

وتوقفنا ولم يتوقف الأمير عن الأكل ولا تغير لونه ولا جف ريقه . وتقدم الجواهرى برأسه وأذنيه ليسمع ما سوف يقوله الأمير . وانتظرنا حتى يبتلع الأمير طعامه . . وكان يملأ يده بالأرز ثم يكوره ويسدده برشاقة إلى أعماق الفم . . وعلى مهل يأكل ويمضغ . . ثم يمسح يديه وفمه . . ولم يظهر على وجهه أى حرج ولا أى استعجال ثم قال : تريدون أن تعرفوا؟

ـ نعم يا طويل العمر . .

ـ السبب بسيط جدا . .

ـ ما هو طال عمرك؟

ـ أننى لا آكل بين الوجبات . . ثم إننى أنام مبكرا . .

ـ بس؟!

ـ بس . .

ـ هل هذا يجعلك قويا لدرجة أن تتزوج أجمل الجميلات وأن . . ولا تتناول أية عقاقير!

ـ أبدا . .

هل أستطيع أن أفعل مثلك؟

ـ ممكن . .

ـ إذن سوف أبدا من اليوم . .

وفى اليوم التالى تقابلنا وكان الأمير هو أول المتحدثين فسأل الجواهرى : ماذا فعلت؟

ماذا عسانى أن أفعل يا سمو الأمير . . إنك قلت شيئًا أطار النوم من عينى . . وسوف يطير كلما تذكرت هذا الذى قلت يا سمو الأمير . . أريد نصيحتك يا طويل العمر . .

ـ تحت أمرك . .

ـ إذا أصابنى الأرق فماذا أفعل؟ . .

وانتظرنا حتى يبلع الأمير الأرز واللحم وتستقر فى باطن الكف كرة صغيرة يطلقها إلى فمه وكان يمضغ على مهل . ويبلع على مهل . . ثم التفت إلينا جميعا وقال : العلاج الوحيد هو أن تتزوج كلما استطعت!

ـ وإن لم أستطع؟

ـ فمرضك هذا لا علاج له عندى!

ثم وضع الشيخ الباقورى ورقة بين أحجار حائط المبكى!

قبل سفرنا إلى القدس كان لابد أن يلتقى بنا الرئيس جمال عبد الناصر . . والتقى . وقال . وسمعنا . وملأنا طائرة . فقد كنا نشارك فى (مؤتمر الخريجين) الذى ألفه ويرأسه رجل الأعمال اللبنانى إميل البستانى . وكانت التعليمات واضحة : اخلعوا إميل البستانى واستولوا على المؤتمر!

وكان الوفد برياسة محمد فؤاد جلال ويضم الشيخ حسن الباقورى وكثيرين من بينهم عزيز صدقى المدرس بكلية الهندسة وحسين مؤنس المدرس بكلية الآداب والصحفى محمد العزب موسى . . والمذيع الشهير الجهير أحمد سعيد . وكان العبء الأكبر على صلعة أحمد سعيد . فهو وحده قادر على أن يحول التيار مع وضد أى واحد . . والهدف واضح أن نسقط إميل البستانى؟! ولماذا؟ لم أعرف . ولا أعرف . .

وكانت القدس الشرقية تقع فى الأردن . وكان لقاؤنا الأول فى (سينما الحمرا) . وتحدث الملك حسين . كان فصيحًا ولم يقع فى غلطة واحدة لا فى اللغة ولا فى النحو ولا الصرف . . بينما المصريون فيما عدا الشيخ الباقورى قد مسحوا بالنحو والصرف واللغة والنطق الأرض والجدران والسقف!

وأحسسنا بالعار الذى أغرقنا فى عرق بارد . . فالمصريون يتكلمون العربية كلغة أجنبية . . مع ذلك فإن أحدا لا يتكلم لا الفرعونية ولا القبطية التى هى لغتنا الأصلية!

وكانت هذه السنة سنة ١٩٥٥ هى المرة الأولى التى أصلى فيها بالمسجد الأقصى . . لم أر المسجد بوضوح ولا أطلت النظر إليه فلم يكن المسجد قضية فى ذلك الوقت . . ولا مسجد الصخرة . . وجاء الشيخ الباقورى وألقى خطبة الجمعة . وكان فصيحًا بليغًا . .

وخرجت من المسجد أبحث عن حذائى فلم أجده . ولم أفكر كما يفعل الناس عادة . إنهم يختارون أية جزمة أو أى شبشب . وإنما سرت حافيا ومعى صديقى قدرى طوقان صاحب كلية النجاح فى مدينة نابلس وأخوه حسن طوقان صاحب (نابلس حسن) الشهير . . وقدرى طوقان صار وزيراً للخارجية بعد ذلك . ويوم استدعته مصر ليحصل على جائزة الدولة التقديرية سنة ١٩٦٣ حصلت أنا على الجائزة التشجيعية!

ونظم الباقورى قصيدة طريفة فى ضياع حذائى وفى أننى سرت حافيا حتى فندق إمبسادور . تحت الأمطار الغزيرة وعلى الأرض الباردة!

* * *

وكان اليوم التالى مثيراً . فقد كان لابد أن نتفرج على حائط المبكى . وكان فى حارة ضيقة جداً . ولما استولى اليهود على القدس سنة ١٩٦٧ أزالوا كل المبانى أمام حائط المبكى . . وجعلوها ميدانا واسعًا . ولم نجد فى الحائط لافنا ولا جمالا . ولكن اليهود جعلوه بقايا هيكل سليمان . وكانت له هذه القداسة ، فهم يقفون أمامه وينوحون على المعبد الذى زال . . مع أنهم يملكون دولة أكبر وأهم من المعبد . . وأنهم قوة قاهرة لأمريكا وغيرها فى هذه الدنيا . . بفلوسهم وحيلهم وتماسكهم . .

ويوم ذهبنا إلى القدس مع الرئيس السادات لنصلى فى المسجد الأقصى للمرة الثانية . سألتنى مذيعة التليفزيون همت مصطفى أن أحدثها عن حائط المبكى . فوقفت وإلى جوارى السيد حسن التهامى الذى حدثها عن المسجد الأقصى . . قلت لها عن تاريخ الحائط . . ولماذا سموه حائط المبكى؟ هل لأنهم يبكون عنده أو لأن الأعشاب تخرج من بين أحجاره وينزل عليها الندى فكأنها تبكى؟ . . ثم قلت

هذه النكتة: إن أمريكيا زار القدس ونسى اسم الحائط . . فقال لسائق التاكسى: خذنى إلى المكان الذى يبكى عنده اليهود ليلا ونهاراً . .

فذهب به إلى مصلحة الضرائب!

ومن عادة اليهود إذا ذهبوا إلى حائط المبكى وبعد لمس الحائط والبكاء عنده يضع كل واحد يده فى جيبه ليستخرج ورقة كتب عليها شكواه ثم يضعها بين الأحجار ـ وهى عادة قديمة . . فقد رأيت مسلمى باكستان يضعون أوراقًا ملفوفة فى الأشجار فى الطريق إلى غار حراء . .

وبعض المصريين لا يزالون يلقون بشكاياتهم فى ضريح سيدنا الحسين ـ مع أنه لم يثبت تاريخيًا أنه جاء إلى مصر لا هو ولا رأسه ولا خصلة من لحيته، وأنه مدفون فى دمشق. ولكنها عادة. وبدراسة هذه الحكايات وجد الباحثون أنها شكاوى إلى الله من ظلم الإنسان . . وهم يتركونها عند سيدنا الحسين. ومع أنه لا يملك من أمره وأمرهم شيئًا . . وليس بين الناس والله حجاب. ففى استطاعتنا أن نتوجه إليه مباشرة وبلا واسطة من أحد . . أى أحد!

وقد طلب منى الأستاذ الباقورى: أنزع ورقة لكى نقرأ ماذا يقول أولاد الـ . . وماذا يطلبون من ربهم.

ثم أخرج ورقة وقلمًا وكتب ولف الورقة وقال لى: ضعها بين الأحجار. وسألناه: ماذا قلت يا أستاذ . .

قال: ولا حاجة أننى رجوت الله ألا يصدق أولاد الـ . .

ـ هاها . .

* * *

وكان اللقاء فى فندق أسبلنديد . . فى إحدى قاعات الدور الأرضى . . ومن أجل هذا اللقاء كانت رحلتنا إلى القدس. وكان عدد الوفد المصرى ضعف عدد الوفود

الأخرى . وفى هذا اليوم استهل اللقاء المذيع الشهير الجهير أحمد سعيد ـ كما يسمونه ـ وقال وعاد وخطب وشخط ونطر . . وهاج وماج وزعق ونعق وقال وكال . .

ثم طلب الكلمة السيد إميل البستانى مؤسس (الخريجين) وتكلم وكان فصيحًا . قال نثرًا وشعرًا وأحاديث نبوية وآيات من القرآن الكريم . . ولم يخطئ فى النحو والصرف . . ولاغلطة واحدة . مع أنه رجل أعمال . . فلا هو أديب ولا قسيس . وإنما مليونير مستنير . .

وهيص المصريون عليه . . ثم أجريت انتخابات مزورة .

وخرج إميل البستانى واخترنا فؤاد جلال . .

وبسرعة تحدث أحمد سعيد وقدم برنامجًا اسمه (ما يطلبه المؤتمرون) من الأغانى العاطفية والوطنية .

وبسرعة ألقيت بورقة ضمن الأوراق أطلب فيها أغنية (ياعواذل فلفلوا) . ووقعتها بإمضاء محمد فؤاد جلال . . ولما قرأ أحمد سعيد هذه الورقة هلل وطبل وأثار وقال : مفاجأة . . قنبلة . . والآن أذيع عليكم ما طلبه الدكتور محمد فؤاد جلال . الأغنية مناسبة لواقع الحال .

وانطلق صوت فريد الأطرش : ما قالى لى وقلت له ياعواذل فلفلوا !

وحاول فؤاد جلال أن يسكت الأغنية . . فهو لم يخترها . ولكن أحمد سعيد مضى فى إذاعة الأغنية والكل يضحك عندما تسللت خارجًا من القاعة !

وهاجت القاعة وأعلن الدكتور فؤاد جلال أنه لم يطلب ، ولم يكتب ورقة ولكن أحدًا شريرًا فعلها . . ووقف الأستاذ الباقورى وبذكائه العجيب قال : أنا أعرف من الذى أضحكنا . . إنه ابننا وأخونا الأديب المشاغب أنيس منصور . . ولكى أغيظه هو فإننى أطلب من الأستاذ أحمد سعيد أن يذيع نفس الأغنية بناء على طلبى وللسبب الذى ذكرته ! هاها . .

* * *

وكنت أقتسم غرفتى مع الدكتور حسين مؤنس ولم أكن أعرف أن الدكتور مؤنس يحتاج إلى كل هذه الأغطية. فقد كنت أظن أننى أكثر الناس إحساسًا بالبرد وأشدهم احتياجًا إلى بطانية تحتى ولحاف فوقى وفوقه بطانية.. ولكن عندما رأيت الدكتور مؤنس وجدته مثلى. وقبل أن أهنىء نفسى على ذلك وجدته يقول لى: وحياتك إذا وجدت بطانية زيادة فألقها فوقى أو أطلب لى من الفندق أكبر عدد ممكن من البطاطين..

وطلبت فأتوا باثنتين. وأشار الدكتور مؤنس أن أضعهما فوقه. وأصبح منظره هكذا: بطانية تحته ثم لحاف وثلاث بطاطين فوقه وقد لف رأسه بفوطة من شدة البرد..

ثم أخرج رأسه من تحت هذه الأغطية وقال: طبعًا لو طلبت أكثر فسوف يظنون أننى مجنون!

قلت: وهذا الموجود فعلا!

* * *

وكان الوفد يضم ثلاثة من إخوة الرئيس عبد الناصر. وقد سمعت أحدهم يقول: إن الرئيس عبد الناصر ألقى قنبلة عالمية أمس. فقد قرر تنويع مصادر السلاح.. أى نشتريه من أى بلد آخر. وإنهم تلقوا تعليمات بالعودة فورًا إلى مصر.. وعادوا.

وكان من ألطف الشخصيات وأرقها الدكتور راشد البراوى المفكر السياسى. فهو خفيض الصوت يرى ويسمع ويلاحظ ويستنتج. وكان بارعًا فى ذلك. قال لى: ماذا أخذنا من طرد إميل البستانى.. ولا حاجة.. لم نكسب شيئًا ولكن عادينا لبنان.. وانتصرنا على رجل ناجح. وسوف يفشل هذا المؤتمر على أيدينا!

وهذا ما حدث. فقد أغضبنا رجلاً واستعرضنا معه وعليه قوتنا العددية.. ولا أحد سمع بعد ذلك عن (الخريجين) ولا حتى عرف ولا سأل عن معنى الخريجين.. خريجو أية جامعات أو أية سجون!

ودخل المؤتمر التاريخ على أنه انتصار إذاعى فى إحدى المعارك الصوتية التى يقودها ماريشال الهوا: أحمد سعيد!

* * *

ولما سافرنا إلى بيروت.. كان لابد أن ننفصل وأن نتفكك. فليست لنا حاجة فى لبنان.. ولا عندنا أوامر بالاستيلاء على العاصمة أو إفساد الذوق الجميل للشعب اللبنانى وأدبه ولطفه. ولا نستطيع أن ندخل معه فى آية معركة ونكسبها. ففنادقهم ومطاعمهم عجب: أحسن طعام وأجمل كلام وأدفأ حفاوة. وإذا أردنا أن نأكل طعامًا مصريًا من أى نوع ففى مطاعم لبنان: فهم يقدمونه أحسن ويعرضونه أفضل.. لا فى لبنان ولكن فى كل مطاعمهم فى عواصم الدنيا. وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن تمامًا إننى لم أجد مطعمًا مصريًا جميلا أو محترما فى أى مكان خارج مصر وإنما تقوم المطاعم اللبنانية بهذه المهمة فتقدم كل ما تشتاق إليه مع الحفاوة والأناقة!

جلسنا أربعة فى مدينة زحلة: يوسف السباعى وإحسان عبد القدوس. والصحفى السورى نشأت التغلبى وأنا. طبعًا كنا مسحورين بالجو البديع والكلام الحلو كأنه فراشات تدور حولنا ويزداد عددها كلما جلس إلى جوارنا أحد نعرفه أو لا نعرفه.. فالكلام الحلو: لغة لبنان.. والحياة: صناعة لبنانية.. كما أن الموت: صناعة مصرية!

استوقفنا صاحب المطعم الصغير وسألناه بعد أن عانقنا وقبلنا بحرارة إن كان يعرف أحدًا منا..

قال: لا والله.. ولكن بدنا نتشرف.

ـ يعنى لاتعرف أحدًا؟

ـ ولكن أريد أن أعرف كل أحد. عرفت أنكم مصريون ياهلا فيكن وفى مصر..

ـ هل تريد أن تعرف من نحن؟

ـ والله يا سيدى هذا بيكفى وبيزيد.. أهلا وسهلا..

وقدمنا يوسف السباعى اسما اسمًا . . وزادت بهجة الرجل . وطلب من أحد العاملين أن يكتب أسماءنا فورًا فى دفتر كبير . . وعاد يوسف السباعى يسأله : هل عرفت من نحن؟

ـ والله بنتشرف .

فقال له : نحن عشاق لبلادكم . . الجميلة . . أنا عاشق . . وهذا هيمان . . وهذا مجنون . . وهذا قتيل . .

وزادت فرحة الرجل وسعادته وسعادتنا . فعاد يوسف السباعى يسأله : إن كان يريد أن يعرفنا .

فقال : والله شرف . . يكفى هذه الوجوه الحلوة . ها الزلمة المهضومة .

ولم يشأ الرجل أن يعرف من نحن . . ولا ظهر على وجهه أنه يريد . . وإنما يكتفى بأنه رآنا . . وأننا جئنا . . وسوف نعود أو سوف نحدث أحدًا فى مصر بما لقيناه فى هذا المكان الجميل . .

وفى عودتنا من جبال الأرز توقفنا عنده . . فنهض الرجل وقال : أهلا وسهلا بأرباب السيف والقلم . . أهلا وسهلا بالكاتب العظيم والصحفى العظيم . . وسألناه كيف عرف مع أنه لم يظهر عليه شىء عندما جلسنا عنده قبل ساعات . .

قال : إن عددًا من المصريين جاءوا وأطلعتهم على أسمائكم فقالوا لى من أنتم . .

وزادت حفاوة الرجل بنا . .

وقدم لنا زوجته وابنته وكان كلام الزوجة لا يقل جمالا عن شكلها . . ولا حلاوة صوتها . . وكانت ابنتهما فاتنة . . وأتت بالورود وعلقتها فى ملابسنا . .

وقالت : أنتم ضيوفنا . . وهذا شرف إلنا . .

ولم يكن فى نيتنا أن نتناول عشاءنا ولكن أمام هذا اللطف قررنا أن نتعشى وبدلا من أن نجلس ساعة جلسنا حتى منتصف الليل . . وإذا كان الرجل قد دعانا لشرب القهوة على حسابه ، فقد تناولنا عشاء فخمًا ودفعنا غاليًا . أما السبب فهو

حسن اللقاء وحلو الكلام ونظافة وأناقة المحل والمقاعد والمناضد والأطباق وصوت فيروز ومحمد عبد الوهاب وهو يغنى : يا جارة الوادى . . وقال لنا الرجل إن الوادى الذى قصده عبد الوهاب هو الذى وراءنا . . وإن عبد الوهاب جاء هنا وهذه صورته . . وغنى هنا وهذه صورته .

ثم فتح مظروفًا وأخرج منه صورة لعبد الوهاب يقبل فتاة جميلة وقال : وهذه صورته . . والله هذه القبلة مختلسة لقد فوجئت بها خطيبتى التى هى زوجتى الآن . . هاها !

ـ هاها

* * *

ولما عدنا إلى مصر نشرت الصحف أن الدكتور عزيز صدقى صار وزيراً للصناعة . فانتظرت أياما . ثم ذهبت أهنئه . وكان لقاء فاتراً ندمت عليه . وكلما أتيحت لى فرصة لكى أغمزه لا أتردد منذ ذلك اليوم . . حتى اتصلت بى السيدة والدته وقالت لى : لماذا تنشر صوراً لابنى وهو مكشر . . فقلت لها : يا سيدتى إنه مكشر على طول . . لا يضحك . وكل صورة فى الصحف هكذا . . قولى له يضحك قولى له أنت ، ونحن ننشر له صوراً تبعث الأمل فى نفوس الناس الذين أفسد عليهم حياتهم بأخباره الكاذبة حتى أطلقوا عليه (أبو لمعة) لأنه كثير الفشر . فغضبت أمه ووضعت سماعة التليفون . .

ولم أنس يوم كنا فى القدس وقبل المغادرة كان لابد أن نوقع على ورقة بما أكلنا وشربنا على حساب الدولة . . وفوجئت بأن الورقة قد امتلأت بما لم آكل ولم أشرب . واندهشت ! وقال لى راشد البراوى وحسين مؤنس ومحمد العزب موسى :

هو الذى كان يضع رقم غرفتك على كل ما يطلبه .

وأشاروا إلى عزيز صدقى . ولم أصدق ذلك ورفضت أن أقابله وقد حاول ذلك

كثيراً صديقى عثمان العبد مدير إعلانات (أخبار اليوم) . . ولما قابلت عزيز صدقى أخيراً جداً ذكرته بكل ذلك . . وربما يكون قد نسى أو تظاهر بذلك . ولكنى لم أنس ما حدث من خمسين عاماً!

إنه شيء يضايقنا نحن الاثنين!

ولما دعتنا فاتن حمامة إلى غداء فى قصرها فى القطامية ، جعلت أذكّر عزيز صدقى بما كان . والحقيقة لم يتوقف عزيز صدقى عن الكلام وكنت سعيداً جداً بسرحانى تماماً . . فلم أعرف بالضبط ماذا قال فى ١٥٠ دقيقة!

لو عرفت حكاية البط والأوز ما ألقيت محاضرة فى جامعة جراتس !!

قبل أن أسافر إلى مدينة جراتس لإلقاء محاضرة فى الجامعة عن (أثر الفكر الألمانى فى الأدب المصرى المعاصر) رأيت من الواجب أن أتصل بصديقى وبلدياتى الدكتور عبد الرحمن نور الدين. وفى كل المرات لم أجده. ولكن أسمع تسجيلاً بالألمانية يقول: نحن غير موجودين ويسعدنا أن نعرف من أنت وأن نتصل بك عندما نعود

وكنت أرد وأقول: أردت أن أعرف إن كنت تريد شيئًا آخر من مصر قبل حضورى يوم الأربعاء المقبل لأنزل فى فندق «هوتل بارك».

وكان قد طلب منى أن أحضر له أبريقًا وطشتًا من النحاس الأحمر. من دكان فلان الفلانى بخان الخليلى. وأن يكون الطشت والأبريق ومخرطة الملوخية وأسياخ الكباب متوسطة الحجم. ثم بعض الكتب.

وعبد الرحمن نور الدين من ألطف وأعجب الشخصيات التى قابلتها فى حياتى. فقد كانت له محاولات فى الصحافة والأدب والترجمة. ولكنه كان حريصًا على أن يمارس مهنة أجداده: إصلاح الساعات. رغم أنه تخرج فى كلية الصيدلة. وكان يحتقر العمل الصحفى. ويرى أن الصحافة نشاط طفيلى. وأن الصحافة لم تساعد على تقدم الإنسانية. ولذلك كان يهواها فقط. وكان يركن

سيارته الكبيرة بعيدا عن دار (روزاليوسف) حتى لا يتهمه أحد بأنه صحافى! وقد حاول يوسف السباعى أن يقنعه بالعمل فى (روزاليوسف) أو فى اتحاد الكتاب أو فى المؤتمر الأفروآسيوى. ولكنه رفض. ومرة حاولنا، ولم نكن جادين أن نجعله يتحول إلى الإسلام. فذهبنا به إلى فضيلة الشيخ محمد أبوزهرة وجلس أمامه صامتا هادئًا طويلا. وخرجنا وسألناه: ما رأيك؟!

قال: أنا؟ بكامل قواى العقلية أدخل دينا فيه أناس من هذا الطراز؟! حاول يوسف السباعى كثيراً فكان رده: أنا أهلى يأتون بى من شمال أوروبا لكى أعمل فى خدمة الفلاحين؟!

وعبد الرحمن نور الدين أمه يهودية غنية. وهو من اليهود (القرائين) أى الذين يؤمنون بالكتب الخمسة الأولى من التوراة وليس بالتلمود.. ولذلك فاليهود المتطرفون يعتبرون اليهود المصريين يهودا إلا قليلا.. أو ليسو يهودا على الإطلاق!

وفجأة اختفى عبد الرحمن نور الدين من مصر.. وقيل هاجر إلى أمريكا وقيل البرازيل وقيل إسرائيل. وفجأة ظهر فى النمسا سعيداً مع زوجته ووالدته وبعض إخوته. وأنه يعمل فى إحدى شركات التأمين. وهؤلاء اليهود القراءون لهم أسماء: عبد الرحمن وعبد العزيز وعبد الفتاح..

وعندما وصلت إلى جراتس حاولت أن ألتقى به فلم أجد إلا الصوت النسائى المسجل على التليفون.

وأمضيت اليوم الأول فى إصلاح وتعديل كلمتى التى سوف ألقيها.. وكذلك فعل المستشار محمد سعيد العشماوى. ونقلت صورة من كلمتى بخط واضح جداً حتى تقرأه المترجمة. أما النسخة التى كان من المفروض أن أقرأها فلم أستطع قراءتها فخطى سريع ردىء وبالقلم الرصاص، ويوم المحاضرة وقفت واعتذرت للسادة الحاضرين لأننى غير قادر على قراءة كلمتى بسبب أننى نسيت نظارة القراءة. ورجوتهم أن يقبلوا عذرى لمحاولة ارتجالى البحث الذى أعددته والموجود الآن عند المترجمة من الإنجليزية إلى الألمانية.

وتناولت فى محاضرتى المحاولات الكثيرة الجادة إلى نقل الأدب والفلسفة الألمانية إلى الفكر العربى . ومن «محاسن الصدف» أن معظم الذين حاولوا ذلك كلهم بلدياتى : الدكتور محمد عوض محمد أستاذ أساتذة الجغرافيا ووزير التربية والتعليم قد ترجم مسرحية (فاوست) للشاعر الألمانى جيته وترجم له رواية (هرمان ودروتيه) . . وأحمد حسن الزيات ترجم (آلام فرتر) . . وأحمد خاكى ترجم المقدمة البديعة لكتاب (انحلال الغرب) للفيلسوف الألمانى أشبنلجر . أما الدكتور عبد الرحمن بدوى فهو قد نقل إلينا الأدب الألمانى والفلسفة الألمانية والفلسفة الوجودية بصفة خاصة وهو الذى فتح لنا باب الفلسفة الألمانية و أدخلنا وتركنا وأسعدنا ذلك . .

وأنا ترجمت مسرحيات الأديب السويسرى الألمانى فريد ريش ديرنمات : (رومولوس العظيم) وظهرت على المسرح وفى التليفزيون بطولة صلاح منصور وزوزو نبيل وإخراج سميرالعصفورى ومسرحية (هبط الملاك فى بابل) بطولة عبد الله غيث ومشيرة إسماعيل وتغير اسمها إلى (سلطان زمانه) ومسرحية (زواج السيد مسيسبى) ومسرحية (الشهاب) بطولة الدكتور إبراهيم سكر . ومسرحية (فرانك الخامس) ورواية (يونانى يتزوج يونانية) . وترجمت للأديب السويسرى الألمانى ماكس فريش مسرحية (أمير الأراضى البور) و(آندورا) . . و(مشعلو النيران) . .

وترجم عبد الرحمن بدوى مسرحية (علماء الطبيعة) لديرنمات . وترجم (دائرة الطباشير القوقازية) لبرخت . .

وأذكر أننى قابلت ديرنمات أول مرة فى بيته فى سويسرا . وقال لى : إنهم فى مصر ترجموا وعرضوا مسرحية (علماء الطبيعة) دون إذن منه ودون أن يحصل على حق الأداء العلنى . فطلبت إليه أن يكتب خطابا إلى وزير الثقافة . وجاء الخطاب عن طريق السفارة السويسرية . ولم يستطع أحد أن يرد عليه . فلم تحقق هذه المسرحية المزعة أية أرباح . . أى أنها وقفت على الدولة بخسارة فادحة!

ولكن ديرنمات لم يقتنع لأن المسرحية لقيت رواجًا عظيمًا فى لندن! ولم أفلح فى إقناعه بمراعاة فروق التوقيت والمكان بين القاهرة ولندن!

وأرسل خطابًا ثانيًا . . ولقى خطابه الثانى ما لقيه خطابه الأول : الصمت الرهيب!

ولمحت أثناء محاضرتى : الدكتور عبد الرحمن نور الدين فى الصف الثانى جالسا وراء الزميلتين آمال بكير ونعم الباز . وكان فى صحة جيدة وقد أطلق لحية صغيرة، والسعادة على وجهه . فقلت : ومن حسن الحظ أن يكون بيننا صديق قديم يهوى الأدب وقد ترجم روايتين للأديب الألمانى هرمان هسه وبعض قصائد الشاعر الألمانى هينريش هينه . ووعدنا بترجمة (ديوانه) كاملا مع بعض أصدقائه . . ولما حاولت أن أشير إليه رفع يده راجيًا ألا أفعل . .

ومما قلته وصفق له الحاضرون أننى نشأت فى بيئة متسامحة . فقد كانت عندنا فى المنصورة جاليات أجنبية كثيرة : من اليونانيين والفرنسيين والأتراك والألمان وعشرات من روسيا البيضاء . . ولم يمض يوم فى طفولتى لم أنطق هذه الأسماء : جرجس وكوهين وخريستو . . ولم أعرف إلا فى سن متأخرة جدًا أن هذه الأسماء المختلفة لها أية دلالات دينية . . ولم يخطر على بالى مرة واحدة أن أعرف الفرق بين المسيحى واليهودى والمسلم فنحن نلتقى ونتمشى فى شارع الكورنيش ثم نذهب إلى المكتبة الفاروقية فى المنصورة . وكنا قد اتفقنا . ولا أعرف لماذا ـ على أن نكون من رجال الدين؟! ثم عدلنا عن الفكرة واتجهنا إلى أحلام أخرى!

واقترح علينا عبد الرحمن نور الدين أن ننشئ شركة صغيرة ـ ولم أكن أعرف معنى كلمة (شركة) تقوم بإيصال الدجاج والخضراوات والبيض والخبز واللبن إلى البيوت . وأنه سوف يدبر لنا فلوسا من والدته لشراء عربات يد صغيرة . . وهذه العربات الصغيرة سوف يدبرها لنا أحد أقاربه الذين يعملون فى صناعة الزجاج والموبيليا فى حى الحسينية . وكانت أفكارا غريبة أخجلت آباءنا وأمهاتنا!

ولكنه لم يتوقف عن تنفيذ هذه الفكرة فقد ذهب إلى كثير من البيوت فسألها إن

كانت تريد أن يشترى لها احتياجاتها يوما بيوم. وكان الناس يضحكون ولا يقولون شيئًا. ومات المشروع بعد ولادته بأيام!

وكان يسخر منا ويقول: إننا ولدنا لنعيش ونموت فلاحين شحاذين!

* * *

وكنت قد اتفقت مع عبد الرحمن نور الدين على أن نتجول فى مدينة جراتس الجميلة وأن نلتقى بعدد من الأدباء والشعراء ـ هو الذى يعرفهم. وبعض دور النشر لترجمة كتب من الأدب المصرى الحديث.. والاشتراك فى دراسات عن الفكر الألمانى المعاصر. وقد طلبت من عبد الرحمن نور الدين أن يدلنى على الذين أعرفهم: محمد الحليبى والدكتور فوزى أبوزيد وبلدياتى وقريبى الدكتور محمد المنير.. وغيرهم. وقد التقيت بهم بعد ذلك فى مصحة لويبرزدورف التى ترددت عليها كثيراً للتنشيط والراحة..

وفى يوم سألت عبد الرحمن نور الدين عن الورد وعلب الشيكولاته التى تجىء لى بانتظام وقد ترددت فى قبولها لأننى لا أعرف الاسم الغريب الذى يبعث بها..

ضحك وقال لى: كان لابد أن أقول لك عن سر هذا الاسم الذى هو يصور إحدى مراحل جنونى. فأنا غيرت اسمى: من عبد الرحمن نور الدين إلى (رامان نورداو).. لأننى لا أريد أن أبدو كالبطة السوداء فى هذه البلاد.. فلا أحد يعرف عبد الرحمن نور الدين إلا أنت.. فأنا اسمى رامان نورداو.. ونحن الذين بعثنا إليك أنا وزوجتى وابنتى بهذه الهدايا الرمزية!

ـ الله يخيبك يا عبد الرحمن ألم تجد اسما إلا نورداو.. إنه من غلاة الصهيونية. وأنت تعرف من هو أول من قدم لنا ماكس نورداو.. إنه الأستاذ العقاد. وهو أول من عرض لنا كتابه الشهير (الأكاذيب التقليدية فى حضارتنا).. وهو قد مات سنة ميلادك أنت.. مات سنة ١٩٢٣.. صح؟

ـ تمام.. ولكن ليس هذا هو السبب. فأنا ضد الصهيونية.. وأنا لا أحب هذا الرجل بالذات. ولا أحب التعصب لأى دين أو مذهب سياسى.. وإنما أحب

حريتي وأحب جاري وأن أعيش في سلام . . وقد حرصت طوال عمري على ذلك . وأمي هي التي اختارت لي هذا الاسم . . وإن كنت لا أحب أن يعرف لي الناس اسما أو دينا أوبلدا . فأنا أعيش حرا مجرداً من قيد الاسم أو الدين . ولكن في مصر كنت أقول إنني : نور وسعد ونصر ومدحت وأحياناً فيليب . . فاسمي هو جسمي وأنا حر في أن أنام على الاسم والجسم الذي يريحني!

ثم سكت ليقول لي إنه عندما جاء إلى النمسا كان يعيش قبلها في لتوانيا . وكان اسمه : زفت الطين ـ وأنه أرغم أهل هذه البلاد على أن ينطقوا اسمه مرة واحدة . وادعى أن هذا اسمه هو وليس اسم والده . فكانوا ينطقونه هكذا : تسفتلتين . لأن اسمه الأصلي ليس له معنى ولا دلالة ولا موسيقى . . ولا يهم أحدا!!

أما بيته فجميل . وأما زوجته فهي إيطالية أجمل وابنتهما مريم تحفة في التكوين والذكاء . لها عينان زرقاوان كعيني والدها ووجه مستدير مضيء كوجه والدتها . ولها اهتمامات بالموسيقى مثل جدتها . . وتحب العزف على البيانو وتعمل في معمل للتحليل الكيميائي في إحدى شركات التجميل . أما ابنه الصغير ـ وكانت المفاجأة ـ فاسمه : أنيس ولكنهم ينطقونه : آنيش!!

ونحن نشرب الشاي قالت لي زوجته ماجدة إنها استمعت إلى محاضرتي . . وفيها أشياء كثيرة لم تكن تعرفها . . فلم تعرف غرامي بالفلسفة الألمانية إلى هذه الدرجة ثم قالت : ولكني لاحظت أنك تناولت موضوعا بعيدا عن صلب المحاضرة وغريبا أيضاً وإن كان من الناحية العلمية صحيحا تماما .

فسألتها : أي موضوع؟

قالت : موضوع البط ونظرية العالم النمساوي كونراد لورنتس .

قلت : لم يكن في نيتي أن أتحدث عن نظرية لورنتس عن سلوكيات الحيوانات والطيور في الغابات وسلوكها في الأقفاص في حدائق الحيوان أو البيوت . . والفرق بين السلوك بالوراثة والسلوك بالدراسة . . أو بين الغريزة والفعل المكتسب . . وأهم من ذلك رأي لورنتس في العدوان الموجود عند كل الناس .

فالإنسان حيوان عدوانى بغريزته ولكنه ينتظر الفرصة المتاحة لذلك . ثم إن الزحام يؤدى إلى تنشيط الغريزة العدوانية عند الحيوان . . والإنسان هووحده الذى قام بتطوير العدوان وجعله نشاطا رياضيًا مثل كرة القدم واللعب بالسيف وبالنار . وكلها صور مهذبة حضارية لغرائز حيوانية عدوانية .

وقالت : إن العالم الكبير لورنتس قد عاش هنا فى مدينة جراتس بعض الوقت . وقد حصل على جائزة نوبل التى تقدم لها أبوه الجراح الكبير ولم يفز بها . . ومن أجمل الصور التى عندى هنا فى البيت صورة للعالم لورنتس ماشيا ووراءه سرب من البط والأوز .

قلت : هذه نظريته فهو يرى أن الأوزة عندما تخرج من البيضة فإنها تتخذ أول كائن يتحرك أمامها بديلا عن أمها . . وتمشى وراءه . . سواء كان إنسانا أو حيوانًا . ولذلك كان الأوز يمشى وراء لورنتس فى البيت والشارع والجامعة!

ـ ولكن السؤال الذى حيرنى هو : ما الذى جعلك تتحدث فى هذا الموضوع فقد كان بعيدًا تمامًا عن قضيتك التى عرضتها . . وانتظرت أن تقول لنا إن كان لهذه النظرية أثر عند علماء السلوك الاجتماعى فى مصر . . أو أن أحدًا قد ترجم مؤلفات لورنتس مثل كتابه (خاتم سليمان) أو (كلب التقى إنسانا) . . ولكنك لم تفعل!

وقلت لها . .

ولم يحدث أن رأيت فى حياتى قبل ذلك أحدا يضحك حتى كاد يموت . . فقفزت أجرى فى البيت أسأل عن كوب من الماء . . أو أى شىء لإنعاش هذه السيدة التى أسقطها الضحك هى وزوجها وحماتها والدموع فى عيونهم جميعًا . . وتعاونت مع زوجها على نقلها إلى السرير . ثم إلى المستشفى!

أما السبب فقد قلت لهم : إننى تلقيت فى الفندق عددًا من الأسئلة قبل بدء المحاضرة بساعات . وكانت الأسئلة بلا توقيع . من بينها سؤال يقول : أرجوك ألا تنسى أن تحدث الناس هنا عن حكاية البطة وعن سلوك بعض الأقليات فى جراتس .

ولم أفهم السؤال. ولكن كان الأقرب إلى ذهنى أن أحدا يريدنى أن أتكلم عن (سلوكيات الطيور) ذلك العلم الذى ابتدعه أحد العلماء النمساويين وهو كونراد لورنتس.. ولم تكن لدى مراجع علمية ولا عندى وقت.. ولكن وجدتها فرصة لكى استعرض ثقافتى العامة رغم أنها بعيدة تماما عن تخصصى فى الفلسفة الألمانية المعاصرة.. فذكرت هذه النظرية فى سياق حديثى عن السلام والتسامح والعدوان وأن تطوير السلوك هو الحضارة. فالذئب مثلا: إذا جاع فإنه يقتل. والكلب إذا جاع يخطف.. أما الإنسان فإنه يكبح جماح جوعه ويمسك بمعدته حتى يشترى ما يحتاج إليه مهما كان جائعا..

وعرفت من حرم عبد الرحمن نور الدين السبب الحقيقى وراء هذا السؤال. فقد حدث قبل قدومى إلى جراتس أن اختفت بطة من البحيرة. وعرف البوليس ذلك. وهذه جريمة فظيعة! فلا أحد يعتدى على البط فى البحيرات تماما كالحمام فى الميادين فى كل دول العالم!

وراح البوليس يفتش بيوت الشرقيين الذين يأكلون الأوز والبط والحمام رمز السلام. فوجد ريشة من جناح بطة فى بيت أحد الطلبة المصريين. إذن هو الذى خنقها ووضعها تحت البالطو وعاد بها إلى البيت. ولما هاجمه البوليس وجده طالبا ووجده يغسل قدمى أمه المريضة. واعتذر البوليس ولكنه قاده إلى مقر الشرطة وسألوه.. وقدموه للمحاكمة. وحكم عليه القاضى بالحبس والغرامة مع وقف التنفيذ.. لأن أمه كانت مريضة وهو عاجز عن شراء لحم لها فى عيد ميلادها!

ثم قالت لى حرم عبد الرحمن نور الدين: إن الكثيرين قد أعجبهم كلامى عن سلوكيات البط وربطوا بين سلوك البط فى البحيرة وسلوكه فى الغابة وبين سلوك الأقليات الخبيسة فى الخوف والغربة ورأوا أنك بررت وفسرت الأخطاء التى يرتكبونها بحكم الضغط عليهم.. وأن هذا ابالضبط ما فعله أحد الطلبة المصريين!

قلت لها: ولا خطر على بالى أى شيء من ذلك.

- لقد صفقوا لك مرتين مرة عندما تكلمت عن التسامح الدينى فى بلدك..

ومرة عندما قارنت بين السلوك المنحرف للأقليات . . وأنه يشبه سلوك الطيور في الأقفاص وفى الغربة!

ـ هاها . .

ـ هاها . . !

* * *

وكان من بين الذين استمعوا لمحاضرتى (م . ع . ن) الذى جعلته بعد ذلك بطلا لمسلسل تليفزيونى: من الذى لا يحب فاطمة؟ والذى قامت ببطولته على الشاشة الفنانة شيرين سيف النصر وأحمد عبد العزيز وأحمد السقا وغيرهم من الشبان. أما هذا الشاب فأنا الذى اصطحبته من مطار فيينا حتى سلمته إلى المصريين العاملين فى شواع فيينا وفى محطات المترو . . ثم كتبت حكايته. وهى حكاية عادية وقعت لعشرات من المصريين . . فالواحد منهم يجىء وحده خائفًا ولكنه يستقر هنا بتشجيع المصريين الذين سبقوه بتجاربهم. ثم يتزوج مثلهم من واحدة نمساوية بحثًا عن الأمان والحصول على الجنسية. وبعد ذلك يحاول أن يتخلص من ارتباطاته المصرية. كأن يكون زوجًا أو فى نيته أن يفعل ذلك . . فإذا وصل إلى بلاد الغربة راح يبحث عن الأمان فى أحضان جديدة. وتقع المشاكل فى بلاد الغربة وفى مصر أيضا . . والقضية التى كتبتها لا علاقة لها بالدين . . فليست دعوة إلى أى دين ضد دين . . ولكن أنا رويت ما حدث وسوف يحدث كثيراً.

وقد استمتع الملايين بهذا المسلسل الذى عرضته جميع قنوات التليفزيون المصرى والعربى عشر مرات فى وقت واحد ثم أعيد عرضه مرات عديدة بعد ذلك. ولا يزال . . لأنها قصة شاب فى بلاد غريبة وظروف صعبة . . وفيها قلق وحيرة ومرح أيضًا.

ووقع هجوم على المسلسل. فقيل إن اسم (فاطمة) مأخوذ من قصة نشرت عن واحدة مهاجرة . . مع أن فاطمة اسم عادى جدًا . . وقد كانت لى قصة طويلة اسمها (عريس فاطمة) نشرتها سنة ١٩٦١ وظهرت على الشاشة . . وظهر فيلم

اسمه (ليلة القبض على فاطمة) بطولة . . فالاسم ليس اختراعا يحق لأى واحد أن يسجله حتى لا يدعيه أحد غيره!

❊ ❊ ❊

أنتهز هذه المناسبة وأتقدم باعتذارى العميق لصديقى وبلدياتى الدكتور عبد الرحمن نور الدين . . فقد ظننت خطأ أنه ما دام لم يعمل بالأدب أو الصحافة أو بهما معا فلن يكون زوجا سعيدا ولا مليونيرا محبا لمصر وكارها لإسرائيل التى قامت خازوقا بين شعوب لا هى تحبهم ولا هم يحبونها . . ثم يظل طوال عمره يضحك ويقول: مرة واحد صعيدى . .

وعندما تتكرر النكت يطلب أصدقاءه فى القاهرة والإسكندرية والمنصورة يسألهم: الحقونى! قولوا لى آخر حاجة عملوها الصعايدة . .

آسف يانور فكل حساباتى غلط وكما أن هناك كائنات تعيش فى الليل ومثلها فى النهار . . فنحن الفقراء أولاد النهار وأنت وأهلك والذين خلفوك وراءهم لكم الليل . . وأنتم ورثة الستة أو السبعة أصفار من الدولار والمارك والفرنك . . بلا أدب . . بلا صحافة بلا . . تسفتلتين!

كتبت على صورتها هذا الإهداء :
أنا وقطعة منى إلى من كان قطعة منى!

ماذا لو حذف سعد زغلول من مذكراته : أسعار البامية والملوخية . . وأنه حاول أن يكف عن لعب القمار فلم يستطع . . أقسم على المصحف ألا يعود ثم عاد وندم، وأخيرا قرر أنه لاداعى لأن يقاوم هذه الرغبة العنيفة . . ثم إن القمار ليس خيانة وطنية .

فلماذا لا يأخذ سعد زغلول حريته ويلعب رغم أنه وعد زوجته وغيرها؟ ولماذا لا يكون إنسانا له عيوب وله نقط ضعف . . وأنه ضعيف جدا أمام القمار . . ماذا لو حذف سعد زغلول من مذكراته أنه حزين لأن السلطان عندما سلم عليه سحب يده بسرعة حتى يحرمه من شرف تقبيلها . . وكيف أنه أمضى ليلة تعيسة . . وأنه لم ينم . وأنه طلب إلى باشوات آخرين أن يصلحوا ما بينه وبين السلطان فيعطيه يده لكى يقبلها ويستريح . . وحاولوا . ورفض السلطان . ثم وافق السلطان فكتب سعد زغلول فى مذكراته : وأعطانى يده فأوسعتها تقبيلا؟! ونام قرير العين هانيها . . كما قال شاعرنا حافظ إبراهيم فى وصف الخليفة عمر بن الخطاب!

ماذا لو حذف أستاذنا الدكتور لويس عوض من اعترافاته أنه لا ينجب ولا أخوه . . وأن أخته ماتت عذراء فى مستشفى الأمراض العقلية؟!

ماذا لو حذف مصطفى أمين من مذكراته السرية التى استولت عليها المخابرات

المصرية أسماء كل النساء اللاتى عرفهن . . وأرقام تليفوناتهن . . وكم من الوقت أمضى مع كل واحدة . . وكيف كان ما كان وكم استغرق من الوقت؟!

مفتاح ذلك عند الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو الذى كلما سألوه: ولماذا لم تتزوج؟ قال: إن أولادى أرسلتهم إلى بيوت اللقطاء ـ أى أنه كانت له علاقات وأنها أثمرت أطفالا سفاحا . . والحقيقة غير ذلك .

أما الحقيقة فقد جاءت فى (اعترافاته) التى نشرها بعد وفاته وهو أنه كان شاذا جنسيًا . . وكانت متعته هى أنه إذا رأى الفتيات قادمات فتح لهن البنطلون فيصرخن . وهذه الصرخة هى التى تحقق له المتعة الجنسية ـ لقد كان مريضًا وكان استعراضيًا تعرضيا . فهو أراد أن يغطى عجزه الجنسى بأكذوبة أولاده فى الملاجئ! . .

ولكن لماذا يفضح الكاتب نفسه . . لماذا يتعذب بالفضيحة عند كتابتها . . فيتخيل الناس بعد موته وما سوف يقولون . . فلماذا يتخيل ما سوف يقولون ويضاعف عذابه وهوانه؟ إنه ـ إذن ـ يجد لذة فى تعذيب نفسه . .

إن الأستاذ محمد التابعى أمير الصحافة أو أحد ملوك الصحافة وأحد ذئاب مصر أيضًا قد كتب عن غرامياته . ولكن ترك وراءه مذكرات يقول فيها ما لا يقال . أو ما لا يصح أن يقال . . أو ما لاضرورة له .

ولكنه قال . وذكر أنه قابل فلانة وذكر اسمها وتم اللقاء فى مكان ما . . واستغرق ساعات من القبلات إلخ . . ولكن لماذا؟

ولماذا لو لم يقل كل ذلك . . فما المعنى أنه قال . . وأنه ترك مذكراته . فإلى من تركها . وماذا يريد أن يقول . . وماذا لووقعت فى أيدى من لا يرحمونه حيا وميتا . . إن مصطفى أمين والتابعى قد كتبا فى المذكرات كلامًا بالتفصيل . . وكان مصطفى أمين موجزا كأنه يكتب فى صحيفة سرية . . والمعلومات كثيرة وخاطفة . ولكن التابعى قد كتب ووصف استعدادا لأن يعيد كتابتها فيما بعد .

ولا أظن إن كان فى نيته شىء من ذلك . .

ويبقى السؤال: ولكن لماذا؟

كلها دقائق وأقول لك السبب!

* * *

إن معرفتى بالأستاذ محمد التابعى لا ترقى إلى درجة الصداقة. . فهو جيل قبلنا وأنا من جيل آخر. . فعندما كان التابعى نجم النجوم كتب وغامر وقامر ونحن نتطلع إليه نتمنى ونندهش. وبس! ففى زحمة أصدقائه والمحبين له كنت أتسرب بين محمد عبد الوهاب وأم كلثوم ومصطفى أمين وكامل الشناوى وأحمد الألفى عطية والدكتور سعيد عبده. وكان التابعى يصافحنى وينظر إلى الآخرين ويستمع إليهم.

ويقول وهم ينصتون إليه. . ثم مضت الأيام وتناقص الذين حوله وبرزت أنا وغيرى إلى الصف الأول فى بيته وصالونه ومائدة الطعام. وانفردنا به وكان له كلام معنا وكلام معه. . وقال وكتبنا. وحكينا. وضحكنا. ومازلنا نتقدم حتى كانت لنا الصفوف الأولى من حوله وأمامه ولم نعد وراءه. . وغاب وحضرنا. . وكتبت بدلا منه فى الصفحة الأخيرة من (الأخبار) و(أخبار اليوم). .

والأستاذ التابعى فى الحب لاعقل له. . وفى السياسة لاقلب له. . وفى السياسة كما فى الحب، فأنت تتعامل مع أشكال وألوان من الكذب والخداع، ولابد أن الأستاذ التابعى كان عواما فى محيط السياسة وبحر الحب وله روايات وبطولات ولكن ليس من الضرورى أن تصدقه! وفى السياسة أنت تكذب لتتجمل وفى الحب أنت تتجمل لتكذب. . وكان التابعى سياسيا فى الحب، عاشقا فى السياسية، موسوعة فى كل هذه الفنون. يحب أن يروى مغامراته وأن يستمع إليه الناس ففى السياسة كانوا يطلبون إليه أن يقرأ لهم الكف. . وكان يرسم لهم الخطوط على أكفهم ويقول. . وكانوا يصدقونه. فقد كان مصدرا للتغيرات السياسية ولم يكن عالمًا ببواطن الأمور والصدور فقط، وإنما كان طرفا فى التغيير والتبديل. .

وكان التابعى ذئبًا يطارد ويعاشر النساء كأنه يموت غداً، ويطارده الساسة

والوزراء كأنه يعيش أبدًا . . وكانت زوجته السيدة هدى التابعى تنافسه فى قوة الذاكرة . . فويل لرجل ينسى من امرأة لاتنسى . وكانت السيدة هدى تتصل بأصدقاء التابعى فى أنصاف الليالى وتسأل مصطفى أمين : يا مصطفى هل صحيح أن محمد التابعى كان يعرف فلانة؟

ويكون رد مصطفى أمين : أبدا .

ويكون رد هدى : أنت تكذب!

ثم تتصل بالموسيقار محمد عبد الوهاب : هل صحيح؟

وعبد الوهاب يقول لها : لا أبدا يا أفندم . . لم أسمع شيئا من ذلك!

وتتصل بإحسان عبد القدوس ويؤكد لها إحسان أن هذه القصة بالذات لم يسمعها فتسأله السيدة هدى : إذن ما هى القصة بالذات التى سمعتها؟

ويكون رد إحسان : نحن الآن الساعة الثانية صباحًا . . وكان يومى مليئًا . . غدا أتصل بك وسوف أحاول أن أتذكر . . وفى الغد صباحا وإحسان لم يفتح عينيه بعد تطلب زوجة التابعى زوجة إحسان عبد القدوس السيدة لولا : قولى لى يا لولا طبعا إحسان قال لك حكاية محمد التابعى مع فلانة . . أنت تعرفينها . . والدنيا كلها تعرف ولكنه يقسم أنه لم يعرفها مع أننى وجدت خطاباتها فى مكتبه وحروفها الأولى على مناديله وأنها فى ليلة رأس السنة من عشر سنوات أرسلت له باقة من الورد يحملها اثنان وكلها ورود قادمة فورا من هولندا . . ومع الورد خطاب به وردة صغيرة وفيه قلب ذهبى . وعلى القلب حرفان الأول من اسمه والأول من اسمها وبين الحرفين نقطة . هذه النقطة من الألماس!

وتفاجأ أم كلثوم بالسيدة هدى التابعى صباحا وعلى غير موعد تزورها فى بيتها وتسألها : يا ثومة أنا لم أنم ليلة امبارح واللى أنت حتقوليه حيكون هو القول الفصل بيننا . . أنا ومحمد فما رأيك؟

وتقول لها أم كلثوم : أيوه حصل . . ومن عشرين سنة . أو من عشر سنوات . . وأيه يعنى؟ . . أنت متجوزة أحد ملوك الصحافة والطريق أمامه مفروش بالبنات

الحلوة. يا شيخة بلا قرف ياريتنا كنا رجالة! وأنت عاوزة جوزك مايشوفش فى الدنيا غيرك.. ده حتى يبقى أعمى.. يا أختى أنا أفضل أن أتزوج رجلا له عيون العنكبوت يبص يمينا وشمالا وفوق وتحت.. ثم يعود إلى البيت ليضعنى فوق دماغه.. ليه ما قلتيش للتابعى لما أنت اتجوزتيه إنه يقلع عينيه الاثنين مقدم صداق لك.. هاها.. والنبى أنت عبيطة.. يا شيخة أنا كنت فكراك جاى تقولى لى رأيك فى الأغنية الأخيرة.. تشربى إيه ياهدى أكثر من اللى أنت شارباه..

ـ أشرب زفت..

ـ مفيش أكتر منه قدامك الشارع اقطعى واعصرى واشربى لوحدك.. الله يكون فى عون زوجك.. أنا سوف أنصحه بأن يتزوج واحدة غيرك..

ـ ....

* * *

وفى مذكرات السيدة هدى التابعى التى نشرت أخيرا فى (آخر ساعة) قالت إن الأستاذ التابعى كان (زعلان) منى أنا (أنيس منصور). ولكن بعد ذلك تم الصلح بيننا. وأنها كانت زعلانة جدا ولكن الآن صافية كاللبن..

ولا أذكر أننى أغضبت الأستاذ التابعى. وإذا أغضبته فلابد أن أكون قد قلت أو كتبت. ولا أذكر أننى قلت، أو وجدت مناسبة لكى أقول. فماذا أقول عن رجل مريض فى مستشفى الأنجلو. لقد زرته مرتين وأشفقت عليه. وتأملت رأسه الذى لا يزال كبيرا. وعينيه اللامعتين اللتين تقولان وتندهشان لما يجرى حوله وحولنا.. سألنى الأستاذ التابعى: وأنت عامل أيه؟

ـ فى إيه يا أستاذ؟

ـ فى الدنيا؟

ـ لا أستطيع أن أعمل زيك يا أستاذ؟

ـ ولكن الذى أقرؤه لك يذكرنى بأيام شبابى.. الحيوية والبريق والدهشة والإثارة والقلق وراء كل ذلك.. إن القلق عندك يهز ويهد الجبال. ليه؟

ـ لا أعرف يا أستاذ . . ربما كانت دراستى الفلسفية أكثرها علامات استفهام وتعجب . . وأقلها إجابات مريحة!

ـ سوف تتعب كثيراً . فلابد أن يكون للإنسان نقط ثابتة . . ركائز . . قوالب طوب فى وحل الشوارع . . سدود . . أرض يمشى فوقها . . ولكنك تمشى على أرض مزحلقة . . وتعبر النهر على كبارى مهتزة . إذن راحتك الوحيدة غير ذلك . .

ـ ولكن كيف تكون لى هذه الجيوش الناعمة الجميلة من بنات أوروبا ومصر؟

وضحك الأستاذ التابعى وأشرق وجهه لحظات ثم عاد اللون الأصفر الأخضر يستبد بوجهه . . وانطفأ بريق العينين وصدرت آهة طويلة . . أطول من آهات أمى فى أيامها الأخيرة .

وأيقنت أن الأستاذ التابعى قد أخرج الآهة الطويلة النهائية قبل ذلك بسنوات عندما أصدر كتبه السياسية بعد أن توقف عن الكتابة عشر سنوات . . فالأستاذ التابعى مثل كثير من الأساتذة والمفكرين يطلقون الآهة الأخيرة ويكون ذلك إعلانا عن اقتراب النهاية . تماما مثل (طائر الشوك) . . فهذا الطائر قبل وفاته يطير بين الأشجار ذات الأشواك . ويطوف حولها وينتقى أطول الأشواك ويلقى بنفسه عليها فتنفذ الشوكة إلى قلبه ويصرخ آخر صرخاته ويموت فوق . . فى أعلى الشجرة وتمنيت ألا تكون هذه نهاية الأستاذ التابعى . فأنا أريد أن أجلس إليه وأسمع منه عنه . وعندى مئات الأسئلة عن زمانه وزماننا وكيف كان الطريق الصاعد . . ثم كيف أن الطريق الصاعد بدأ ينحدر بسرعة . قلت له : قل لى يا أستاذ لو عاد بك الزمن؟ . .

فبادرنى بسرعة : أحب ألف ألف امرأة وأموت فداء الجميع . .

ولم تكن هذه الإجابة هى التى أريدها . فقد كان فى نيتى أن أسأله : لو عادت بك الأيام هل كنت تختار مهنة الصحافة . . التى جعلتك تصدر صحيفة تعيش يوما واحدا . . ومجلة تصادرها الدولة بعد شهر . . ثم تدخل السجن . . وعاد التابعى

يقول كأنه لم يرنى ولم يلاحظ أننى أريد أن أعرف شيئًا آخر : أنا بعثت إليك . . لأضع بين يديك سرا . وأنا على يقين من أنك أمين على ذلك . .

وراح عقلى يتحرك يمينا وشمالا مثل مساحات زجاج السيارات . . ثم يدور مثل شبكات الرادار . ومن شدة قلقى قلت له : سرك فى بير يا أستاذ!

وضحك الأستاذ التابعى للمرة الثانية : هاها . . بير الصحافة عمقها ملليمترات . . هاها . . وهل يأتمن صحفى صحفيًا آخر . . هاها . . الله يضحكك يا أنيس . . لا أنا استطعت أن أحتفظ بسر . . وأنت لن تحتفظ . فأنا أعرف وأنت تعرف . . ولذلك أنا بعثت فى طلبك . . ألم يقل لك عبد العزيز عبد العليم مدير (أخبار اليوم) . .

ـ لم أره . . أنا جئت من نفسى . .

ـ هذا أفضل .

وسكت الأستاذ التابعى . ورأيت عجبا . لقد اعتدل الأستاذ فى سريره . وسحب مخدة ووضعها وراءه وشد اللحاف حتى صدره . ثم أشار أن أقفل الباب . وأشار أن أغلق النافذة . وأشار أن أرفع سماعة التليفون . وأن أقترب أكثر . ووضع يده على يدى وقال : هذا لك وحدك . هذا لك!

وسكت وظهر التردد الشديد على وجهه . . وارتجفت يده . . كأنها هى الأخرى ترددت فى أن تمتد . . ثم سحبها . كأنها لم تطاوعه . وكنت أنظر إلى حيث تتحرك يداه . . وعيناه . . وكأنه يرى شيئًا لا أراه . ويخافه . ويريدنى أن أرى ما يراه . فازددت قلقا . وحاول أن ينهض . ونهض . وأغلق الباب بإحكام والنافذة أيضًا . وذهب إلى مقعد بعيد فى الغرفة . وانحنى ليسحب مظروفا كبيرا . لابد أنها مذكرات أو رسائله . . أو وثائق فى السياسة أو فى الحب . ولم يكن المظروف مليئًا كله بالورق . وإنما بأشياء جافة من خشب . . براويز . صور فى براويز . . وكنت أمر بأصابعى بسرعة على المظروف وأتابعه بعينى وقلت له : طبعا دى مش فلوس يا أستاذ؟ هاها .

وضحك التابعى كأننى قلت نكتة ماحصلتش : فلوس . . هذه كلمة انقطعت

صلتى بهـا من زمـان. . فلوس؟ لو كـانت عندى فلوس هل كنت ترانى هنا فى القـاهرة. . كنت زمـانى فى سـويسـرا. . أمـرض فى سـويسـرا وأمـوت فى باريس وجنازتى فى لندن. . ويحـرقـون جـثتى فى أمـريكا وينثـرون رمـادى فى رومـا. . فلوس؟ . . فلوس. . لم يستـخدمها أحد كما فعلت. . لم أجعل فلوسى تاجًا على رأسى. . وإنما جعلتها حذاء لقدمى. . وفرشتها وردا لكعوب عـالية. . آه يا أنيس. . هذه الآهة ليـست من أحشائى ولكن من قلب قلبى. . آه. . تعرف أنت لـوجئت لى كل يوم وذكـرتنى بالذى مـضى أسـترجع مـا فـات. . أؤكـد لك أننى سـوف أكـون أفضل. . وفـجأة انقطع الكلام وقد انزلق الأستاذ تحت اللحاف واستدار عن الباب وانسحبت كل الألوان من وجهه والأضواء من عينيه والكلام من فمه. . وتجمعت كل الحروف والأصـوات فى آهه عـالية قـوية عندمـا سـمعنا صـوتا يقـترب يدق الأرض والباب معا. لقد كانت السيدة هدى زوجته. . دخلت ونظرت هنا وهناك. وبسرعة قالت: فيه إيه يا أنيس؟

ـ مفيش يا مدام. .

ـ قافلين الباب ليه؟ فيه إيه تانى يا محمد؟!

لم يرد.

نظرت لى وحـملقت بعينى وكـيل نيابة وضـابط مكافـحة المخدرات: فيه إيه. . المرضة بتقول إنكم قافلين الباب بقى لكم ساعتين. . فيه أيه؟!

ـ يا مـدام الأسـتـاذ بيـتكلم وأنا اللى قـفلت البـاب حـتى لا يقـاطعـه أحـد من الممرضات. .

ـ والدكاتره حاولوا يدخلوا. .

ـ لم أسـمع أحدا قـد دق البـاب ولو كـان أحد الـدكاترة لدفع البـاب وطلب منى أن أفتح له. . ولكن أحدا لم يفعل. .

ـ بل حـاول أكثر من دكتـور ولكن الكلام والحكايات والـغراميات والشكاوى قـد سدت آذانكم فلم تسمعوا أحدًا. . أنا عارفة. .

ـ فعلا لم أسمع ولا الأستاذ . .

ـ طيب فيه إيه؟

ونظرت إلى الأستاذ الذى غطى رأسه وسمعنا تنفسا عاليا كأنه نام . . !

* * *

وعرفت أن الأستاذ التابعى قد استدعى كاتبنا الساخر أحمد رجب وأعطاه مظروفا . ولا أعرف ماذا قال له . .

وعدت إلى مكتبى وأغلقت الباب وجعلت أتأمل الصور الجميلة والبراويز الأنيقة . . جميلات فرنسا وإيطاليا وسويسرا وربما مصر . .

وعلى الصور إهداءات بالفرنسية . للأستاذ التابعى . أين كانت هذه الصور طوال الثلاثين والأربعين سنة الماضية وأين احتفظ بها ، ولماذا لم يمزقها خوفا من المشاكل الزوجية؟ . . وأعطانى عددا كبيرا منها ، ولا أعرف من كانت كل هذه الجميلات ولا ماذا أفعل بصورها . . فأنا أيضا لا أستطيع أن أمزق هذه الصورة احتراما للأستاذ وذكراه . . وهو أيضا لم يفعل بها لنفس السبب . وعرفت من ابنة الأستاذ التابعى السيدة شريفة التابعى أن شركة هرمس قد اشترت حق طبع كتب الأستاذ التابعى ، وعددا كبيرا من الصور . . واشترت مذكراته الشخصية إياها ولا أعرف لماذا باعوا هذه المذكرات التى مثل ملابسه الداخلية وما تحتها . إنها كالصور التى عندى فإذا نشرتها لا أعرف ما الذى أقوله حولها وتحتها . ولكن نشر هذه الصور تأكيد للذوق الرفيع للأستاذ وفى نفس الوقت حفلة تكريم له ولمجهولات فاتنات وغراميات غامضات . . وليس من الضرورى أن تكون هناك قصص كاملة الأوصاف . . وإنما هى لحظات طويلة عابرة . . أو تكون قصصا غرامية وعلاقات عميقة بعيدة المدى . . لا أعرف . . لا هو قال ولا أنا أستطيع أن أتخيل . ولكن من بين الصور واحدة تقول كل شىء وبالدليل العملى : إنها سيدة تحمل طفلا وعلى الصورة هذه العبارة باللغة العربية :

«أنا وقطعة منى إلى من كان قطعة منى ! »

والتاريخ : ٢٠ ـ ٩ ـ ١٩٣٦

والذين عندهم القدرة على قراءة الملامح ومعرفة الأنساب أرجوهم أن يقولوا لنا ما المعنى؟

* * *

بعض علماء النفس يقولون ولا داعى لذكر أسمائهم بناء على طلبهم لأن لهم صلات شخصية وعائلية بالأستاذ التابعى . . إن الذى فعله الأستاذ التابعى . . بأن ترك مذكراته صريحة واضحة ثم أغفل ذكر أسماء الحبيبات والمعشوقات قد حدث كثيرا فى التاريخ . . ولكن الأستاذ التابعى ذهب إلى أبعد من ذلك . . إنه ترك الصور بالكلام عليها أو تحتها . . فقط ليقول ما قاله الشاعر القديم :

فكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيرا ولا تسأل عن السبب!

أما الظن فهو خير، ولكن لابد أن نسأل عن السبب . أما السبب فهو كما ذكرت فى أول المقال . . إنه أراد أن يخفى شيئًا فشغلنا بشيء آخر، رحمه الله فقد عاش كما مات شاغلا للناس محيرا لرجال السياسة معروفا لأهل العشق . وكما أهدانى الأستاذ التابعى هذه الصور وضحك على، فإننى أردها إليه لنضحك نحن الاثنين عليك . . فأنا لا أعرف أكثر منك .

أحد الأصدقاء قال لى : يا عم دى ناس عاشت بالطول والعرض . . شافوا الدنيا ودرسوها ودهسوها . . وكتبوا ووجدوا من يكتب عنهم ويترحم عليهم . . جاتنا نيلة فى حظنا الهباب!

ـ يجوز . . . لكنك تستطيع أن تعيش أحسن منه . . وأنت عندك فلوس وليس عندك ذوق . . هو شجاع وجرىء وأنت جبان! . .

ـ عندى عيال وأم العيال . . جوزونى بدرى . . فكان جوازى هو الموت الأول . . ولكن التابعى عاش ألف مرة ومات مرة واحدة . . استريحت يا خويا . . هاها . .

ـ هاها . .

(أنا الذى علمتكم الكرامة) بالكافيار والأرز بالخلطة!!

كتب مصطفى أمين يقول: المرأة التى أحببتها ليس لها ماض، فقد ولدت يوم أحببتها!

وكتبت أنا أقول: المرأة التى أحببتها ليس لها مستقبل فقد ماتت يوم أحببتها!

وتضايق مصطفى أمين. ومات قبل أن يقرأ ما كتبه التابعى. كتب التابعى فى مذكراته كأنه يرد عليه: المرأة التى يحبها مصطفى أمين لا هى امرأة ولا هى تستحق أن يحبها أحد!

* * *

الأوراق التى تركها لى الأستاذ التابعى فى المظروف الذى تسلمته منه فى المستشفى وهو على فراش الموت، يضم عددا كبيرا من الرسائل الناقصة.. وأوراقا زرقاء فى لون الآسى، وحمراء فى لون الشفايف.. ورسائل فتيات صغيرات يعجبن بالفارس الوسيم.. وبعض هذه الرسائل من أديبات معروفات ومن سيدات شهيرات. بعضهن ترك الاسم كاملا ورقم التليفون.. وبعضهن اكتفين بالحروف الأولى.. أو بالحرف الأول. ولولا أن التابعى يعرفهن جميعا ما احتفظ بهذه الأوراق. أوراق خريف وأوراق ربيع سقطت أو قطعت نفسها من أشجار متنوعة

هنا وفى أوروبا . . من كل شجرة غصن ومن كل زهرة ورقة . . وفى بعضها بقايا عطر . . كأنها دموع سقطت على السطور فأذابت الكلمات . والتابعى خبير لا يرد ولا يصد ولا يستجيب . وقد اعتاد على الصرخات بعد منتصف الليالى . وأن ينقل كل ذلك إلى البيت ويضعها فى طريق الزوجة لتشتعل حرائق الغيرة فى الساعات الصغيرة من الليل . . أما الزوجة فلا تمل نبش الماضى والتابعى لا يرتوى من الخناقات ولا يريدها أن تستمر أو يريدها . والتابعى هو الذى قال : إننى لا أطيق أن أرى الكأس فارغة ولا أطيق أن أراها ملآنة . .

ولا يطيق الحروف الأولى من أية خناقة . إنه يريدها جهنم لكى يطفئها بالبنزين . والبنزين هو ماضيه الذى يشير إليه فى كل مناسبة . ولا يحاول إنكاره . . إنها لذة أن يعذب وأن يتعذب . . وأن يتعذب الاثنان بمرض الابن الوحيد الذى عاش مريضًا طوال حياته حتى انتحر أخيراً . . والقاتل : أبواه!

وفى يوم ـ كما قال لى ـ كاد التابعى أن يلقى بنفسه من النافذة .

فقد وقعت فى يد زوجته رسالة من نار . . وقعت أو أوقعها . والرسالة الناقصة تقول : لو عاد بنا الزمن وخيرونى بين أن أعطيك عمر أبى الذى لا أحبه وعمر أمى لخطفت لك الاثنين معا . . وإذا خيرونى أن أقتل واحدا من اثنين (. . . . .) أو زوجتك ما ترددت لحظة فى أن أبدأ بزوجتك وإذا اتسع وقتى لقتلتك أنت وقتلت نفسى بعد ذلك .

الإمضاء : (. . . . .)

والإمضاء لسيدة معروفة جدا . ومن الممكن ألا تكون هى . وأن يكون مقلبًا من واحدة أخرى . . ومن الممكن أن تكون زوجته هى . ولم يجد التابعى حلا لخناقات لا أولها الليل ولا النهار آخرها ـ وفى اللحظة التى قرر التابعى أن يلقى بنفسه من النافذة وجد ابنه قد صحا على الخناقة فاكتفى بفتح النافذة وعاد إلى الابن يقوده إلى فراشه إلى ما تحت الفراش . . ثم يعود إليه فلا يجده فى الفراش وإنما تحت السرير!

وكاتبة معروفة بعثت إليه تقول: سألت نفسى وأجبت. . تخيلتك تسمعنى ولا ترد. فقلت:

ـ هل لهذا الحب آخر؟

ـ . . . .

ـ هل لهذا العذاب. إننى لا أعرف ما الذى أريده منك: كلمة. . مكالمة. . نظرة. . نظرية. لقد جلست إلى إحسان عبد القدوس وسألته. وقال. . وسألته ولم يقل. . . تماما كما أنك فى أحلامى لا تقول.

ـ . . . .

ـ أعرف أنك عندما لا تجد ما تقوله فإنك تسكت. وسكوتك ليس علامة الرضا وإنما علامة الخوف. . علامة الحيرة. . علامة التردد فى كل الذى قلته لى. . أقول ماذا قلت. . لا داعى. . فالكلام ممل. أنت قلت وأنت لا تدرى فأنت صانع كلام ونحن من عبطنا نصدقك. . أنا أرسلت واحدة من صديقاتى تسأل أسمهان. . وصاحبة أخرى سألت الملكة نازلى. . وواحدة ثالثة سألت أمينة نور الدين. . وواحدة رابعة سألت مرجريت. . وشارلوت. . وراشيل. . ولم يكن لهذه الأسئلة إلا معنى واحد هو أن أرى وجوهك المتعددة وأرى الأزياء المتنوعة التى تقابل بها كل واحدة منا. فهل أنت كذاب. . ممثل بارع. . أو أننى عبيطة موهوبة. . قل لى. .

ـ . . . .

ـ قرأت ما كتبته أمس وضحكت من كل قلبى. كيف أن الرجال كذابون. يقولون ويتصورون أن أحدا يصدقهم. قرأت ما سمعته منك ألف مرة ولم أصدقه ولا مرة. . وأقنعت نفسى بأن معظم الكتاب ممثلون ضلوا طريقهم إلى المسرح واتجهوا إلى جمهور محدود من النساء اللاتى عندهن أحلام وخيال. . إلى النساء المعذبات واللاتى عندما أردن التخلص من العذاب اتجهن إلى الأطباء. . إنهم

الأطباء المرضى المخادعون . ولا ألومك . أنا غلطانة فإن لم تكن هذه آخر رسالة ، فأرجو أن تكون . . قل لى .

- . . . .

* * *

وواحدة أخرى كتبت بالفرنسية رسالة موجزة موجعة . ويبدو أنها ليست مصرية . فهى تذكر أماكن فى باريس . . ومطاعم وبارات ورحلة طويلة بالقطار من فرنسا إلى سويسرا تقول :

لو كان هذا القطار ينطلق بلا توقف ولا يعود . . لو كان هذا القطار يجعل طريقه إلى السماء . . لو كان هذا القطار نعشًا على عجلات أو له أجنحة يطير بها . . ثم يتساقط ريش الأجنحة واحدة واحدة . . وكل ريشة تنزل فى قارة وعلى كل ريشة هذه العبارة : أحببتك حتى لو لم يكن هناك أمل فى أن تبادلنى هذا الحب . .

لقد قالها أديب فرنسا فيكتور هيجو وكأنه يقصدنى وهو العاشق الكبير الذى أحبته فتاة فى العشرين مثلنا . . قال : أنا أكذب عليك فصدقينى . . واكذبى أنت فسوف أصدقك . . ولكنك لا تكذبين . . وهذا قدرنا !

والإمضاء حروف أولى من ثلاثة أسماء !

والتاريخ ٥/ ١١/ ١٩٤١

* * *

وتضايقت جدا من رسالة لشاعرنا الكبير وصديقنا وصاحب الفضل على جيلى من الأدباء والفنانين : كامل الشناوى . حاولت أن أعرف لماذا كتبها كامل الشناوى . وما الذى كان فى استطاعة التابعى أن يحققه له . حاولت طويلا . وسألته . ولكن لم أعرف لماذا يكتب كامل الشناوى ما كتب . فقد كانت رسالة صغيرة يقول فيها :

يا أستاذ . .

أنت تعرف ما لا يعرفه الناس . وأنا أريدك أن تعرف أننى فى حاجة إلى أشياء كثيرة أخفيها عن الناس . فلا تكن كالناس تعرف وتتظاهر كأنك لا تعرف . ويدك أطول ولسانك أقوى وقدرتك أعظم . . فأرجو أن يبقى ما بيننا سرا لا يعرفه الناس . . وأن تنسى أنت أنك عرفت : كامل الشناوى . .

أعوذ بالله . لابد أن كامل الشناوى كان يعانى أزمة مالية .

وهو يعيش بالأزمات . وينطلق بقوة أزمة أو أزمتين كل شهر وكل العمر ، وما كان للتابعى أن يحتفظ بهذه الرسالة الفاضحة الفاجعة . لقد عانى هو أيضًا مثل هذه الأزمات . .

وقد تذكرت خطابا بعث به أستاذنا عباس العقاد إلى المحامى لطفى جمعة فنشره ـ مع الأسف ـ فى مذكراته . ولم يتقطع قلبى لشىء قرأته قدر هذه الرسالة التى يقول فيها الأستاذ العظيم عباس العقاد أكبر مفكرينا : إننى لا أجد قوت يومى . فلا تهرب منى كما هرب كثيرون . أرجوك أن تفعل شيئًا . أرجوك !

يا سلام . هذا العقاد العظيم قد كسره الفقر والاحتياج إلى أن يطلب صراحة مساعدة من أحد . أيا كان هذا الأحد . إن الرسالة فاضحه للأدب وللمشتغلين بالأدب والرأى الحر والشجاعة والجرأة حتى يفقد المفكر أصدقاءه فلا يجد إلا الذين يخيل أنهم قادرون .

فإذا بهم قادرون فقط على فضيحته !

وفى الأدب العربى حكاية أسوأ وأسود وأتعس من حكاية العقاد وكامل الشناوى ، إنها مأساة المفكر الكبير أبو حيان التوحيدى الذى أرسل إلى الوزير يقول له : لا أجد طعام يومى . أعطنى مما عندك . . أذلنى بعطفك امسح الأرض بدموعى ولكن أعطنى . إننى أستحق من دنياى أكثر مما يغترفه السفلة والتافهون والأفاقون والمنافقون . . أكسر ظهرى . . حطم رأسى . . ضع رأسى تحت قدميك ثم أعطنى . أقبل الهوان فليست للجائع كرامة . الكرامات ترف الأغنياء . . أعطنى أرجوك وأنت تضع قدميك على رأسى . . على قلبى . . على قلمى . . أعطنى !

أعوذ بالله . . إنه واحد من أعظم المفكرين . وكتابه (الامتاع والمؤانسة) من أجمل الكتب وكتابه (المقايسات) من أعمقها . . وفى آخر أيامه أحرق كتبه يأسًا من القراءة والكتابة والناس . . وأستاذنا العقاد باع كتبه بالأقة . فلم يجد من يشترى فأحرقها وكان يحتفظ فى دولابه بزجاجة سم . وانتحر فعلا ولم يمت وإنما عاش كأنه مات !

منتهى القسوة على العظماء . .

ومنتهى القسوة أن يحتفظ التابعى بخطاب كامل الشناوى وأن يتركه لأجيال تلعن الجميع !

* * *

ومفاجأة أننى وجدت خطابا أرسلته أنا للأستاذ التابعى ! !

وأدهشنى ذلك . فلا سبب ولا مبرر . وفى الخطاب أشكو إليه مصلحة البريد . ولماذا أشكو وكان فى استطاعتى أن أكتب وأن أهاجم دون تحفظ ودون حساب لأحد . فقد أرسلت لى صديقة من روما أسطوانة للموسيقار دفورجاك اسمها (العصور الحديثة) . . وشكوت شخصيا للدكتور حسين فوزى وكيل وزارة الثقافة وأحد علماء الموسيقى . واندهشت مرة أخرى أننى ذهبت أشكو وأشرك الناس معى كأننى أقوم بتشكيل رأى عام ضد مصلحة البريد ، مع أنى قادر على أن أكتب وأنشر وأن أفضح مصلحة البريد . . ولكن لابد أننى وجدتنى عاجزًا عن الكتابة فذهبت إلى التابعى وحسين فوزى ونسيت فى غمرة الحزن أننى أيضًا كاتب وأننى أستطيع . ونقلت جثة هذه الأسطوانة إلى أستاذى الدكتور لويس عوض . . وإلى طه حسين وإلى العقاد . ولم أتنبه إلى أننى تجاوزت حدود الانفعال إلى السير وحدى فى جنازة من صنعى . . لأننى لم أجد أحدًا يمشى ورائى . فهذه كارثة شخصية . ونسيت . ووجدتنى أكتب مقالا أقول فيه : إننى مثل أم حملت وليدها الذى حاول الأطباء إنقاذه فقتلوه وأنقذوا الأم فليتهم ما فعلوا . .

وبعد أن كتبت وجدت أننى لست الأم ولا هو وحيدى فهذه الأسطوانات مثلها

عشرات الألوف . ويمكن الإتيان بواحدة جديدة . وأن كل الذى حدث هو غلطة عادية من ساعى البريد . . ولكنى جعلتها مأساة . أما السبب فقد كانت الأسطوانة رمزاً لمعنى ليس فى دماغ سعاة مصلحة البريد ولا أحد من الذين ذهبت إليهم . ووجدتنى مضحكا . وفى نهاية رسالتى للأستاذ التابعى قلت : يا أستاذ أنا حكيت لك حكايتى وقد لاحظت أننى أبعث على الضحك . فما موت أسطوانة بالنسبة لك . . وأنت محطم القلوب وقاتل الجميلات . وأنت مصنع أسطوانات . وكان فى نيتى أن أمزق هذا الخطاب ولكن بعد أن أمضيت بعض الوقت فى كتابته بعثت به إليك فى يديك تحت قدميك ليلقى نفس المصير . . مزقه يا أستاذ فقد وجدت ذلك صعبا على نفسى وعلى قلمى . . إنه حزنى الخاص حاولت أن أجعله عاما .

ولم يمزق التابعى هذه الرسالة وإنما أعيدت إلىّ ، ولا أقول إنه أعادها فقد جمع التابعى عددا من الصور والرسائل وهو لا يعرف من هى لا ما هى . . ولكنه لم يشأ أن يمزقها . . فلابد أن رسالتى تستحق أن تبقى . . وبقيت دليلا على أن الحزن جعلنى طفلا صغيراً ونسيت أننى كاتب شاب .

* * *

وفى ليلة دعانا إلى عشاء . . ولا أعرف إن كان دعانى . وإنما ذهبت مع كامل الشناوى ومصطفى أمين وعلى أمين والشاعر الدكتور سعيد عبده ومحمد عبدالوهاب وأم كلثوم وأحمد الألفى عطية . .

وكان العشاء الذى ينفرد به الأستاذ التابعى هو : السمان من دمياط . . والمائدة فخمة وفجأة انطلق صوت جمال عبد الناصر فى ميدان المنشية سنة ١٩٥٤ وهو يقول : أنا الذى علمتكم العزة . (يأكلون) وأنا الذى علمتكم الكرامة (يشربون) أنا الذى والذى . . ولم يتوقف أحد عن أكل السمان والأرز بالخلطة والكشك والكافيار ، وما لا أعرف من الأطباق الصغيرة . . وكان الجميع صامتين كأنهم يسمعون إلى أم كلثوم وعبد الوهاب . . بل رأيت عبد الوهاب يهز رأسه وأم كلثوم أيضًا . . وقال لنا التابعى إن هذا التسجيل قد أرسله إلى الرئيس عبد الناصر . . فلم

تتمكن الإذاعة من تسجيله . وشكره الرئيس على ذلك . . وسمعنا منه شكر الرئيس له عشرين مرة . كأنه كان يدعونا لكى يسمعنا حادث المنشية . . بل يسمعنا امتنان الرئيس عبد الناصر له . . وكان فى ذلك الوقت (فرخة بكشك) ثم صار فرخة . . ثم صار كشكا . . ثم لم يعد لا فرخة ولا هو كشك . . ويجب ألا يكون . ليس وحده فى عهد الرئيس عبد الناصر ، ولكنهم كثيرون كانوا حاجة . . ثم صرنا ولا حاجة !

* * *

ومرة دعانى وقال لى : هات معاك كمال الملاخ . وقلت للملاخ . وكان شكاكا . فسألنى : تفتكر ليه؟

ـ ما اعرفش .

ـ إذا كان فى نيته أن يهزر معى هزاره البايخ . فسوف أترك المائدة فورا .

ـ يجوز عنده بعض الأجانب يريدون أن يعرفوا منك شيئًا عن تاريخ مصر الفرعونية قبل زيارتهم للمتحف أو للهرم . يجوز . .

ـ طيب افرض أن قدم لنا ويسكى . . وبعد أن شربت ودارت رأسى عاد إلى هزاره الثقيل . . تفتكر أعمل أيه؟

ـ يا أخى يجوز ما يحصلش .

ـ افرض .

ـ خلاص أعمل اللى أنت عاوزه بس لا تكن مجنونًا .

ـ لأ . . فى هذه الحالة لن أسكت سوف ألقى بالكأس فى وجهه وألعن أباه وأقول له رأيى فيه . . وإنه تافه وإنه عايش على ماضيه . .

ـ طيب ما أنت عايش على ماضى مصر كلها . .

ـ هو عايش على أمجاده القديمة وليس له قيمة الآن . . إننى لن أقبل وأنت لازم تساعدنى . .

ـ يعنى أعمل أيه؟

ـ تأخذه قلمين !

ـ أنت مجنون؟ أنت تفترض شيئًا بعيد الاحتمال .

ـ افرض . .

ـ يا أخى أنا لا أفرض . . أفرض أنت وتصرف أنت . .

ـ وأنت تقف متفرجا علينا علشان تكتبها أو تحكيها لكامل الشناوى اللى ينشرها فى مصر كلها وأصبح أنا أضحوكة الوزراء ويمكن الرئيس عبد الناصر .

ـ بلاش تيجى معايا . .

ـ يزعل .

ـ الله . وأنت يهمك إيه أنه يزعل . .

ـ يمكن على رأيك لن يحدث شيء من كل هذا الذى أتخيله . . ولكن مرة قبل كده جعلونى أضحوكة الليلة كلها . .

ـ أنا كنت موجودا . . ليس التابعى إنه كامل الشناوى وأم كلثوم!

وفعلا حدث شيء من الذى توقعه كمال الملاخ . ورحت أحكى للموجودين إنه يذهب إلى الخزانة فى جريدة الأهرام ويقبض مرتبى ويذهب به إلى الإسكندرية مع فنانة معروفة كان يحبها . . وأذهب أنا إلى أخيه الأكبر يوسف الملاخ وأتقاضى منه مرتبى . ويعود كمال الملاخ من الإسكندرية لا يشكرنى ولا يعتذر لى!

وقد حكيت هذه النوادر للشاعر الغنائى كمال منصور فكتب زجلاً طويلاً كنت قد وجدته فى مظروف الأستاذ التابعى وكنت قد نسيت أنى أنا الذى أعطيته له . وأسعده ذلك . ويبدو أنه قرأه لكثيرين فى التليفون وفى جلساته .

وفى إحدى المرات أصر التابعى على أن أقرأ هذا الزجل فى حضور كمال الملاخ . ولم أكد أبدأ حتى توارى الملاخ واختفى غاضبا . وكانت قطيعة بيننا شهورا . . مع أننى قرأته كثيراً فى مناسبات أخرى . . ولكن أن يكون ذلك فى بيت التابعى الذى لابد أن يكون قد قرأه لمئات الضيوف . وسمعنا أن التابعى بعث به إلى الرئيس عبد الناصر . . وضحكت مصر كلها!

اكتبوا على قبرى : طظ!

وعندما سافر العالم الأثرى كمال الملاخ إلى أمريكا يتحدث عن اكتشافه لمراكب الشمس طلب منى أن أكتب صفحة (من غير عنوان) فى أخبار اليوم . . وكتبت . ولم يكتشف أحد أننى الذى أكتبها إلى أن هاجمت التابعى لهجومه على الموسيقار محمد عبد الوهاب فى سلسلة من المقالات عنوانها (فن حرامية) يعنى أن عبدالوهاب يسرق موسيقى الآخرين من الأوروبيين والمصريين أيضًا .

ودافعت عن عبد الوهاب وقلت إنه رجل مثقف يقتبس من كنوز الحضارة الإنسانية ويغير ويطور بما يتفق مع ذوقه وذوقنا .

وقد أخذ الكثير جدًا ، وقال الملحنون المصريون إنه سرق موسيقاهم وألحانهم . .

وكان من رأيى أن محمد عبد الوهاب متفتح الأذنين رفيع الذوق ومن الطبيعى أن يفعل ذلك . .

هنا فقط اندهش على أمين كيف أن كمال الملاخ فى أمريكا ويتابع ما ينشر فى مصر بهذه السرعة وبأسلوب مختلف . فسأل على حمدى الجمال نائب رئيس التحرير فقال له الحقيقة ، فاستدعانى على أمين وطلب منى أن أتوقف عن مهاجمة التابعى وإلا سوف يضع اسمى على باب (من غير عنوان) . . وتوقفت عن كتابة الباب . . حتى جاء الملاخ!

ولم يكن سبب الهجوم على عبد الوهاب صديق محمد التابعى لاعتبارات فنية

أو موسيقية أو هى الأمانة التاريخية . . ولكن التابعى طلب من محمد عبد الوهاب شيئًا تافها . . صندوق مياه معدنية (أفيان) فاعتذر عبد الوهاب لأن الذى لديه ليس إلا زجاجة واحدة . .

ولكن أولاد الحلال قالوا للتابعى : بل عنده صناديق ، وهذا يكفى لأن يطلق التابعى النار على الموسيقار .

وسألنى التابعى : أنت اتغديت عند عبد الوهاب؟

ـ أيوه يا أستاذ . .

ـ قدم لك مياه (أفيان)؟

ـ لا يا أستاذ . .

ـ ألم تلاحظ أن عبد الوهاب كان مكسوفا منك؟

ـ لماذا؟

ـ لأنك دافعت عنه ثم دعاك إلى الغداء وقدم لك ماء معدنيا رفض أن يبعث به إلى بيتى . .

ـ ولكنى كتبت عنه كثيرا . وليس الغداء أو العشاء هو الثمن . إنه صديق يا أستاذ . كما كان صديقك !

ـ هل حدثك عنى؟

ـ لا . .

ـ معقول ألا يشكو من قسوة الهجوم عليه . .

ـ ولا كلمة يا أستاذ . .

ـ يعنى عاوز تقول لى إنه غير مهتم بما كتبت . . وإنى فضحته فى الدنيا . . معقول؟

ـ ولكنه لم يذكر شيئا . .

ـ إذن هو لايثق فيك . . ولو كان يثق فيك لوضع رأسه على كتفك وشكا

وبكى . . هو (مكبوس) وفاقد النطق . . أنا سمعت أنه هدد بأن يبعث لى بمن يقتلنى . .

ـ لم أسمع شيئا عن ذلك يا أستاذ، وهذا شيء غير معقول . . فعبد الوهاب هاجمه أناس كثيرون . وهذا طبيعى . .

ـ وهل أنا مثل كل الناس . . إذن أنت من رأيك أننى غلطان . . وأن عبد الوهاب على حق . . أم كلثوم قالت لى إنك لن تهاجم عبد الوهاب وفريد الأطرش أيضًا . . وكمال الطويل . . كلهم قالوا إنك هاجمتنى باسم كمال الملاخ . .

ـ طيب إذن سوف أهاجمك باسمى يا أستاذ . .

ولم أكمل الشاى وخرجت . .

وعندما وصلت إلى البيت كان على أمين على التليفون ضاحكًا يسألنى : ماذا جرى بينك وبين التابعى . . إنه يقول إنك ألقيت فنجان الشاى فى الأرض وأنك . . هاها . .

وحكيت له . ولم يندهش . وحكا لى ما يفعله التابعى بمصطفى أمين! وقال لى :

إن التابعى قد بلغ من العمر مرحلة يجب أن نراعى معه فروق التوقيت . . فهو الأستاذ الكبير والأب . . ولا داعى لأن نهاجمه بقسوة .

أى مطلوب أن أهاجمه برفق . . وهاجمته وانتصرت لمحمد عبد الوهاب .

وكانت أم كلثوم على التليفون تقول لى : يسلم دينك وهو التابعى فاكر نفسه إيه . . لو عبد الوهاب ملأ له عشرين زجاجة من الحنفية فإن التابعى لن يفرق بين مياه الحنفية والمياه الفرنسية . . ولكن عبد الوهاب سخيف . . تقدر تقول كده .

ـ أقول لمين؟

ـ لعبد الوهاب . .

ـ يا ست أنت بتقولى لمئات الملايين قولى أنت لعبد الوهاب!

وقالت لعبد الوهاب إن هذا رأيى أنا!

وقالت للتابعى إن هذا رأى كامل الشناوى. وقالت لكامل الشناوى إن هذا رأى التابعى.. وضحكت القاهرة على مقالب أم كلثوم ومهزلة التابعى ومحمد عبدالوهاب.. وسمعت أنه قيل لهم جميعًا: البلد فى إيه وأنتم فى إيه.. عيب يا اخوانا يا أصحاب الجلالة: الصحافة والغناء والموسيقى!

* * *

وفى أوراق صغيرة يقول التابعى: أغنية عطشان يا صبايا فيها إهانة للمرأة.. كيف يطلب الإنسان من الصبايا أن يدلوه على شىء يرتوى به.. مع أن الصبايا هن النافورة الأبدية للعطشان!

ويقول فى ورقة أخرى: تسأليننى إن كنت أحبك، إذا لم يكن قد وضح ذلك لعينيك وشفتيك ويديك فلا داعى لن أوجع قلبى معك.. وفى ورقة يقول: كلهن زى بعض.. وفى أحيان كثيرة فكرت لماذا لم يخلق الله لنا شكلا آخر من الجميلات غير المرأة أنه قادر على كل شىء!

وفى ورقة يقول: لا أعرف من الذى قال وهو على فراش الموت.. إننى بقايا مغامرات طويلة.. إننى أموت وكل اللاتى أسعدننى وأرهقننى أحياء.. أنا أعطيتها عمرى ولم تعطنى شيئًا.. ملعون أبوها..

* * *

ولابد أن شيئًا من عدم التصديق أو الملل قد ظهر على وجهى والتابعى يتكلم عن أن هناك حكمة لوجود أى إنسان على سطح الأرض. لابد أن له دورا فى هذه الدنيا. أى أن الأستاذ التابعى له دور. ومن غيره لا يكمل العرض المسرحى للتاريخ فى مصر أو فى العالم. فكيف لا أضحك؟.. ولكنى انكتمت! ومضى الأستاذ التابعى يؤكد أنى كدارس للفلسفة لابد أننى أعرف كل ذلك.. ولم أشأ أن أناقشه. فليس مكانه أو زمانه. وطلب منى التابعى أن أبحث عن الذى حدث يوم ميلاده

فى مصر وفى العالم . . من ولد معه ومن مات . وكيف كان موقع الأبراج فى الكواكب . . ووعدته ولم أكن جادا . .

ولكن فى السنة التى توفى فيها التابعى انتشرت فى العالم أغنية تقول : لا تبكى من أجلى يا أرجنتين . . غنتها بطلة مسرحية (إيفا) زوجة الرئيس الأرجنتينى خوان بيرون . وإيفا حبيبة الشعب . وكانت مطربة متواضعة ولكنها أحبت خوان بيرون وكانت الوحيدة التى تزوره فى السجن فلما خرج أجلسها إلى جواره على عرش الأرجنتين . . ولكنها استطاعت أن تتربع فى قلوب الملايين والمساكين . . فقدسوها . .

وفى نفس السنة التى مات فيها التابعى ١٩٧٧ ماتت المطربة اليونانية ماريا كالاس والمطرب الأمريكى بنج كروسبى والفنان شارلى شابلن والأسقف مكاريوس ومخترع الصواريخ فون براون والأديب الروسى نابوكوف مؤلف رواية (لوليتا) التى استعارها منى التابعى وكانت النسخة الوحيدة التى وصلت مصر . فالكتاب صادرته أمريكا وأصدرته بريطانيا . . وهى قصة فتاة صغيرة أحبها رجل كبير فى السن كالفتاة التى أحبها نابليون فى منفاه والتى أحبها فيكتور هيجو . وفى نفس السنة مات بوكاسا إمبراطور أفريقيا الوسطى . ويسمونه نابليون الأسود فقد كان شاويشا فى الجيش الفرنسى وقرر أن يكون نابليون وأقام حفلة تتويج على موسيقى موتسارت وأنفق ضعف عدد سكان بلاده من الدولارات : أربعة ملايين دولار ! !

وكلما حاولت أن أغير الموضوع الكئيب كان التابعى يردنى إليه وبقوة . . فلم يكن يتسلى بالكلام عن الموت أو اللعب بفكرة الموت . وإنما كان يتحدث عنه وكأنه يراه . .

وفجأة اعتدل التابعى فى جلسته المنكسرة . . أو انكساره الجالس . . فقد تكوم على الفراش تماما كما فعل العقاد وطه حسين والحكيم وكامل الشناوى وإحسان عبد القدوس والسادات وقد رأيتهم جميعًا فى ساعاتهم الأخيرة . .

وسألنى وكان حريصًا على أن أجيب . . كأنه يريد أن يعرفه بدقة قبل أن يلقاه قال لى : إيه الموت ده؟

ولم تكن هناك أية جدوى من تغيير الموضوع . . أو محاولة التهوين مما يشعر به التابعى . . وعاد يسألنى : إيه الموت يا أنيس . . قل لى : إيه ده يابتاع الفلسفة؟ فداعبت الأستاذ وقلت : الموت الحقيقى هو أن يموت الإنسان من غير مساعدة الدكاتره ، هو الحالة التى كلما اقتربنا منها أسفنا على الذى فات من عمرنا . . لاداعى يا أستاذ للكلام عن هذا الموضوع . . فليس من الضرورى أن نموت قبل أن نموت . فالشىء المؤكد فى حياتنا هو أننا سوف نتركها . . فلا كان لنا رأى فى أن نجىء ولا حيلة فى أن نذهب! وليست لنا أهمية كما تقول يا أستاذ . . إننا نحن الذين نجعل لوجودنا قيمة ولحياتنا معنى . . ولكن لا قيمة لنا أو لحياتنا أو لكوكب الأرض . وكان من الممكن ألا نكون . . ولكن غرور الإنسان هو الذى يجعله يتوهم أن له دورا وأنه مركز الكون بطل العرض المسرحى . . ليكن عرضا مسرحيا ولكنه هزلى . . فلا حكمة يا أستاذ!

قال : هذا رأيك؟ هل كتبت هذا؟

ـ كثيرا يا أستاذ . .

ـ يعنى نحن ولا شىء!!

ـ نعم .

ـ وكل هذا الذى نراه؟

ـ وكل هذا الذى نراه لا علاقة له بنا . . سوف يكون الكون موجودا بعدنا بألوف ملايين السنين ، كما كان قبلنا بألوف ملايين السنين . .

ـ نمل . . . صراصير . . إحنا؟

ـ تماما يا أستاذ . .

ـ بس كده؟!

ـ نحن حشرات تطورت فكانت عاقلة ولا نعرف كيف حدث ذلك . . ومن عقلنا نسجنا العالم حولنا وأقمنا خيالا وأحلاما وأول وآخر . .

ـ بس كده يعنى!!

ـ ليس لأحد دور . . إننا نلعب على بعضنا البعض . نمثل . . ونتفرج ومن مصلحتنا أن نصدق . . وصدقنا بعضنا البعض . . وبس !

ـ . . . .

ـ دورنا محدود . . كما أننى محدود ، ودورنا مؤقت كما أننى مؤقت .

ـ بس كده؟ !

ـ أيوه يا أستاذ .

ـ وأنت سعيد لهذه النهاية؟

ـ سواء كنت سعيدا أو تعيسا فليس لذلك دخل فى أننى لسبب لا أعرفه جئت ولسبب لا أعرفه سوف أمضى . .

ـ بس كده؟ !

ـ أيوه يا أستاذ . .

ـ معنى فظيع ! !

ـ أسف يا أستاذ . .

وسكت الأستاذ وابتلعت لسانى ، كأننا سقطنا فى بئر وراح التابعى يحرك رأسه يمينًا وشمالا ثم تحامل على نفسه واعتدل فى جلسته وسألنى سؤالا مفاجئنا عجيبا : يا أنيس

ـ نعم يا أستاذ .

ـ أنت كنت قابلت الملكة نازلى فى أمريكا؟

ـ أيوه يا أستاذ أنا كنت فى اليابان وتلقيت برقية من على أمين يطلب منى أن أسافر إلى أمريكا وأن أجرى حديثا معها . .

ـ وبعدين؟

ـ قابلتها هى وبناتها وزوج ابنتها رياض غالى . شربت الشاى وتغديت وتعشيت ولم يتوقفوا جميعا عن الكلام . . وبس .

ـ ونشرت الحديث؟

ـ أنا وعدتها ألا أنشره .

ـ وعدت مين ؟

ـ نازلى . .

ـ ووفيت بهذا الوعد؟

ـ نعم يا أستاذ قابلتها فى ديسمبر سنة ١٩٥٩ قبل نهاية رحلتى حول العالم وشكت مما تنشره الصحف المصرية عنها . وكيف أنها عاجزة عن الرد . . و . . و . .

ـ وسألت عن مصر ؟

ـ أيوه . .

ـ عن الحياة والناس . وكل أصدقائها وصديقاتها . .

ـ سألت عن مصطفى أمين وعلى أمين ؟

ـ لا

ـ عنى ؟

ـ لا . .

ـ ولكن مصطفى أمين قال لى إنها سألتك عنى وأنت حكيت لها حكايات كثيرة . وقلت لها نكتا مصرية وأنها كادت تموت من الضحك .

ـ أيوه . .

ـ لكن إزاى لم تسأل عنى . . ؟

ـ . . . .

وسكتنا . انتهى الكلام . أو كان يجب أن ينتهى . وكل شيء حولنا يريد أن يسقط ليضع نقطة كبيرة فى نهاية سطر حياة الأستاذ التابعى . ولكنه يقاوم . فقال لى : يا أنيس .

ـ نعم يا أستاذ .

ـ لو طلبت منك أن تكتب عبارة عن قبرى تقول أيه؟

ـ مش عارف . .

ـ اكتب : طظ !!!

ـ والمعنى إيه يا أستاذ .

ـ بناء على كلامك . . طظ لكل شيء .

ـ ممكن . .

ـ وطظ فيك وفى كل الناس . . وفى كل شيء . .

ـ صح يا أستاذ . . ولكن بعض الناس كتبوا عبارات فكاهية : واحد كتب على قبره لا تدب على الأرض فأنا نائم . .

وواحد قال : آسف لا أستطيع أن أنهض لتحيتك . . وواحد قال : قولوا لزوجتى وأمها إننى لن أعود إلى البيت . . أو : انتهت المهزلة أنزلوا الستار . .

ـ تعرف أنا فكرت فى يوم من الأيام أن أكتب النعى الذى تنشره الصحف يوم وفاتى . . ولكن مصطفى أمين منعنى من ذلك حتى لا يقال إننى رجل مجنون . .

ـ كنت حتقول إيه يا أستاذ؟

ـ ولا حاجة . . أقول تراب يضاف إلى التراب . . وأنت كنت تقول أيه؟

ـ أقول : يولد الواحد منا وطوله نصف متر ويموت وطوله متر ونصف ـ كل هذا العذاب من أجل متر ؟ !

وجاء الطبيب ينقذنا من أسخف الأفكار والكلام . . واقترب من الأستاذ التابعى . وسأله وحدثه عن الذى نشرته الصحف فى ذلك اليوم . . ولكن الأستاذ التابعى كان قد ذهب بعيدا . . ولم تعد عنده أية رغبة فى أى شيء ولا فى أى أحد . . فإن لم يكن قد مات فى تلك اللحظة فقد ظهرت عليه كل أعراض الذهاب والغياب وتصفية الحساب فى هذه الدنيا . .

وكرهت مثل هذه النهاية التى رأيتها كثيرا . وهززت رأسى ورحت أغنى بينى وبين نفسى : لا تبكى من أجلى يا أرجنتين . . لا تبكى على التابعى يا مصر . .

واندفعت خارجا عندما اصطدمت بسيدة ضخمة بيضاء كنساء دمياط والمنصورة

ووراءها جرسون يحمل حلة وجاءت الممرضات ومنعنها من الدخول لأن الأستاذ نائم . . ويبدو أنها إحدى قريبات التابعى . . وقالت : أيه؟ فيه إيه أنا جايبة له السمان المحشو اللى بيحبه . . وكان يأكل ثلاثة وأحيانا أربعة . . والله لا يزال ساخنا . . وأنا سوف أعطى لكل واحد منكم نصيبه . . بس ادخل . . أشوفه وأبوسه وأعود إلى المنصورة . .

ـ ياست سمان إيه ! !

ـ هو اللى طلبه .

ـ إمتى ؟ !

ـ من شويه كلمنى فى التليفون وقال لى يا عنايات آخر شيء أريد أن أراه أنت . . وأن آكل السمان من صنع يديك . .

وبعد لحظات وخطوات تعالى صوت هذه السيدة وغيرها : يا . . يا . . وبكاء وصراخ وعويل . .

والذين رأوا التابعى قالوا لى : إنه استولت عليه حالة عجيبة من الضحك لنهاية المسرحية التى كان التابعى بطل أبطالها . . وكان المؤلف والممثل والمخرج والجمهور والبداية والنهاية . . لقد عاش كما مات : ضاحكًا !

يرحمه الله فلم يرحمه الناس ولا هو رحمهم !

الصعيدية الجميلة
التى دوخت محمد التابعى!

إنها المرأة الوحيدة التى استعصت على كل ألاعيب الأستاذ التابعى . . قالت له : خـذ خطاباتك التى بلا توقيـع وهات صـورى التى بلا إهداء . وجـاءت صـديقـة للطرفين حملت هذه الودائع الثمينة . أما هى فلا نعرف بالضبط ماذا قالت . أما التابعى فقال وبكى وأقسم أنه يحبها . وأنها حبه الوحيد . وأنه لن ينسى ما كان بينهما . وأنها أيضا مع تمسكها بزوجها وأولادها وبيتها . .

* * *

سألت صديقة الطرفين السيدة (س . . ج) فى المنصورة وهى الآن فى الثمانين من عمرها وقد ملأها الجلوس فى البيت شحما ولحما أبيض . وصوتا عاليا وعيونا قوية جريئة . . وإذا ضحكت ترجرج كيس أبيض ويتضاعف الاهتزاز عندما تشير بيدها اليمنى إلى الخادمة أن تأتى بالقهوة ، وباليسرى أن ترد على التليفون وهى لا تتوقف عن الكلام : كان محمد ـ أى التابعى ـ أعظم ممثل للعاشق الولهان . وكان يندمج فى الدور حتى يخيل إلى أى متفرج أنه غرقان فى الحب إلى أذنيه وفوقهما كمان . ولكن أنت تعرف الكذاب والصادق من النظر إلى عينيه . . وكثير من الرجال لا يحبون النظر إلى عيونهم . ولكن المرأة تعلمت بالغريزة أن تحرص على أن يقول لها الرجل ما يريد بشرط أن ترى عينيه . . وأنا من أول لحظة لم أصدق

محمد. بل ونصحت البنت بألا تصدقه. والمصيبة أنها صدقته. خلاص وقعت الفاس فى الراس.

وقدمت لى فنجان القهوة: اشرب علشان أشوف لك البخت أنت كمان. .

سألتها إن كانت تقرأ الفنجان للأستاذ التابعى. . أجابت: والله مالك علىّ يمين كان يبعث بالفنجان من فرنسا.

ولايقول لى إن كان هذا فنجانه أو فنجانها. .

ـ وكنت تفرقين بينهما. كيف؟

ـ هل نسيت أننى امرأة. . هناك طرق كثيرة لمعرفة ذلك. . من بينها أحمر الشفاه. . من بينها العطور. . من بينها أن المرأة لا تشفط القهوة كما يفعل الرجل، وإنما تشربها قليلا كأنها تكتب بشفتيها. . وهناك علامات أعرفها هنا فى فنجان الرجل غير التى فى فنجان المرأة. .

ـ هل تذكرين ماذا قلت للتابعى بعد قراءة فنجان قادم من فرنسا.

ـ الذى حمل الفنجان واحد صاحب التابعى اسمه همام. . وكانت عينا التابعى على زوجة همام هذا! ولكنها ست عاقلة جدا وتعجبك.

قالت له قدامى: أنت كذاب وأنا كمان. .

فضحك التابعى ولم يعد يعاكسها. . آه جيت لك فى الكلام. قالت له: لا جد يـ أستاذ. أنت تنتقل من كذبة إلى كذبة أجمل. والوحيد الذى يصدقك هو محمد التابعى!

ـ قولى لى من هذه السيدة التى قبلت التابعى صديقا ورفضته عشيقا. .

ـ دى يا سيدى. . أنت يابت يا فاطمة. . أنت يا بنت ياكايداهم. فين القهوة. . لا مؤاخذة. . كنا بنقول إيه. . آه. . هذه السيدة صعيدية جميلة جدا. خليط مصرى تركى فرنسى. . سمراء شعرها فاحم عيونها خضراء. طويلة لها مشية

موسيقية . . مش عارفة اتعلمت إزاى . . هناك موسيقى موزعة بالعدل على جسمها . . صدرها يهتز ونصفها السفلى وصوتها موسيقى وتنظر إليك فى عينيك . . تحاصرك تحرجك . . تخيفك . . وأعتقد أنها أخافت التابعى الذى أخاف عشرات النساء . ربما كان هذا هو السبب . . فالتابعى كرجل كان فى حاجة إلى من يقول له : استوب . . قف عندك ! . . أنا لست كهؤلاء النساء . . وهى قالت له قدامى . . وقالت بلهجة حادة متحدية . . ولكن أقول الحق إنها شجعته كثيرا على أن يحبها ويجرى وراءها ويلتمس رضاها . . هى التى شجعته . . ولكن هى أيضا بعدما وقع على بوزه . . قالت له : بس كده . . انتهت التمثيلية . . ويجب أن ينصرف الجمهور . . وكانت أول المنصرفين . . ولم تعد . وإنما أرسلتنى لكى أجمع وثائق العلاقة بينهما . . والكدب خيبة . . إنها لم تمزق خطابات التابعى . . ولا هو مزق صورها . .

ـ وهى أين الآن؟

ـ ياه . . تعيش أنت . .

* * *

وكان من الممكن ألا تكون هذه الحلقة فى سلسلة (غراميات التابعى) لولا أننى وجدت بعض الرسائل عند الزميل محمود صلاح رئيس تحرير (آخر ساعة) وبعضها عند هذه السيدة (س . ج) وقال الاثنان إن هذه الرسائل بعثت بها (أم كلثوم) للأستاذ التابعى . . وقرأت الرسائل وقارنت الخط بين هذه الرسائل ورسالة وحيدة بإمضاء أم كلثوم . . لا وجه للشبه بين الخط واللهجة وذوبان العشق والغرام والنار الوالعة فى الكلمات والعبارات . . فكلمات الرسائل دموع وعباراتها بخور والهدف ليس نبيلا . . إنها خطابات التابعى وبخطه . فالتابعى مثل مصطفى أمين وعلى أمين يكتبون جميعا على ورق مسطر . والخط دقيق منسق تماما . أما خط أم كلثوم فكبير ولكن كلماتها تمشى على الصراط المستقيم . كلامها جامد جاف رسمى . وأستبعد أن تكون هذه الخطابات التى يرويها التابعى قد وقعت فى يد

أم كلثوم. ولما ذهبت إلى المنصورة وقابلت السيدة (س. ج) وأطلعتها على الخطابات، أكدت لى أنها بخط التابعى. وأن التابعى كان يحتفظ أحيانا بنسخة أخرى من جواباته.. ولكن هذه الجوابات هى بالضبط التى رأتها عند الحسناء الصعيدية!

وفى الخطابات يقول لها التابعى: لا نوم إلا على صورتك ولا يقظة إلا عليها.. ولا راحة ولا وجع قلب إلا على مرأى ومسمع منها أيضا. فأنا أقول لها كلاما كأنى أقوله لك..

ويحاول التابعى أن يستميل قلبها فيقول: أقفلت الباب. وكنت وحدى. وفكرت فيك. واستبعدت ألا تكونى قد فعلت نفس الشىء فأقفلت بابك وجلست وحدك معى.. كما أفعل معك وحدى.. هذا يقينى. ولا أقول دائما وإنما أحيانا. هل نسيت ما كان بيننا.. هل نسيت الكلام فى ذلك اليوم.. إن كنت قد نسيت فأنا لا أستطيع..

ثم يقول لها: أنا لا أستجدى عطفك. أبدا. أنا عندى كبرياء. ولكن لا علم لى أنك قررت فيما بينك وبين نفسك وبقرار منفرد أن تتخلصى منى.. من حبى لك.. أعظم حب وأصدق حب والحب الوحيد فى حياتى. أرجو أن تصدقينى.. فقد أكون قد كذبت على ألف امرأة، ولكنك لست مثل النساء. صدقينى..

ونحن لا نعرف ماذا قالت له وهل كتبت له بالعربية أو بالفرنسية.. وهل قالت له أن يكف عن ملاحقتها ومطاردتها بخطاباته وأفكاره.. من باريس ومن ميلانو.. ومن جنوة.. وعندما كان يحدثها عن الصحفى الكبير محمود أبو الفتح الذى كان ضمن آخرين معه.. هل كان يقصد الكلام عن محمود أبو الفتح؟ أو هو يقصد أنه برغم وجوده هو وأصدقاؤه فقد كان التابعى منصرفا عن الجميع منشغلا بها منفردا بها وحدها فى غرفته وحده. يقول: يا من لا أعرف من التى جاءت من الصعيد فاعترضت حياتى ومزقتها بسكين حريرى ناعم إلى نصفين: ما قبلك وما بعدك.. وأنا الممزق فى الحالتين.. إننى لا أطلب منك الرحمة ولا العطف. فأنا لا أفعل ذلك ولو على رقبتى..

ولكن أذكرك فقط بأن الذى تسمعين منى وتقرئين لم يسمعه ولم أقله لأحد قبلك ولن تكون واحدة بعدك . .

ولابد أنها قالت له فى خطاب لها ما معناه : يا أستاذ أنت بغبغان . وأنت تقول نفس الكلام لأخريات فى نفس الظروف . . ثم لابد أنها ذكرته بما حدث فى فيينا وجنوة . . فقد كانت هناك سيدة مصرية جميلة أنيقة وقدم التابعى لها نفسه هكذا : أحد صرعى جمالك من دقيقة واحدة . . وإلى الأبد! ولابد أنها قالت له : لقد سمعت ذلك بنفسى . . وسمعت السيدة هـ . . ولكن الأهم أننى سمعت ذلك ورأيتك متخاذلا ذليلا تمثل الانهيار أمام جمالها . . لابد أنها قالت كلاما كهذا وإلا ما قال لها فى خطابه إليها بتاريخ ٧ يونيو سنة ١٩٣٦ : ما الذى يقوله أى رجل عنده إحساس بالجمال المفاجئ . ماذا يفعل أى إنسان أمام الروعة التى صدمته وطوحت به إلى ما يشبه النشوة، لقد خرجت الكلمات من تلقاء نفسها تقف طابورا وضربت لها سلاما! وأنا قلت لك هذا فى أول مرة لقيتك . وانحنيت على يدك أقبلها حقيقة وليس تقبيل المجاملات الأوروبية . . ولم أعبأ كثيرا بملاحظة زوجك ذلك وأنا أسحب شفتى من أصابعك بصعوبة . فلا شفتاى قادرتان على البعاد ولا أصابعك . قولى لى كيف كنت أتصرف؟ ثم إننى لم أقل لها : إننى أحبك حتى الموت . . كما قلت لك وسوف أقول . . !

* * *

يقول التابعى فى خطاب بعث به من سان أنطوان دار لبرج صباح الخميس ١٨ يونيو سنة ١٩٣٦ : من أربعة أيام فقط أحسست بالتعب ورد الفعل من المجهود المصطنع وشعرت بأننى زائف من رأسى إلى قدمى . وأننى لست رجلا، إننى أهرب من نفسى وأكذب عليها وعلى الله . . واقترحت على أصحابى أن نتجه إلى قرية نائية أستريح فيها . فوافقوا .

إلا محمود أبو الفتح فقد سبقنا إلى فيينا . أما نحن فقد حضرنا إلى سان أنطوان وهى قرية عدد سكانها ١٢٠٠ نسمة واقعة على قمة أحد جبال التيرول النمساوى .

وحولها الثلوج من كل ناحية ودرجة حرارتها والشمس طالعة ١٢ فوق الصفر. وأنا فى المساء فلابد من الغطاء الثقيل ودفء الموائد والشراب الساخن . .

وهو لا يقصد برودة الجو والجبال وإنما يؤكد لها أنه وحده . .

وأن الأصدقاء تركوه مع ذكراها . وكلها محاولات تثير عطفها . ولكنها قررت وقضى الأمر . .

يعود فى خطاب آخر يقول لها :

لقد أردت أن أعيد إليك كل ما تحت يدى ، لا زهدا فيها ، لأنها كلها تذكارات عزيزة علىّ وأقرب إلى قلبى مما تظنين ، وإنما أردها إليك لأننى أولا لم يعد لى حق فى الاحتفاظ بها . ولأنها ثانيا لم تعط لى فى الحقيقة ، وإنما أنا الذى أخذتها منك وورطتك فى إعطائها إياى بعد إلحاح كثير ، وثالثا لأن فى بقائها تحت يدى ما قد يثير فى نفسك شيئا من القلق وعدم الاطمئنان لا لأن ما فى هذه الصور ما يمكن مؤاخذتك عليه . كلا! فهى خالية من الإهداء وحتى من الإمضاء . وإنما لأنه قد يجوز أن يكون فى وجودها مجتمعة تحت يدى ومنها صورة لا يمكن أن تهدى إلى (معرفة) بسيطة أو إلى عابر طريق . ما يثير الفضول إذا وقعت عليها عين غريبة فى يوم من الأيام . خفت من أن يدور هذا كله فى رأسك وأنا أريدك أن تكونى مطمئنة وألا يقلقك هاجس بأنك تركت وراءك أثرا قد ينم عن كذا أو يكشف عن كيت . .

ولم يحدث أن كتب التابعى أو اعترف بأنه سرق صورا . . وفى نفس الوقت وجد من يلتقط لها صورا فى حالة تلبس . . ولكن هذه الجميلة الصعيدية قد علمت التابعى ألف باء الأدب والذوق . . ليس ألف باء وإنما من ألف إلى ياء . . فجعلته يقر ويعترف وينسحب هذا الانسحاب الذليل . ويتهم نفسه بالنذالة والجبن . . وإنه ليس رجلا إذ كيف يقبل على نفسه أن يسرق الصور ويغتصب العطف ويزيف الحب؟!

* * *

وفى خطابه الأخير والخطير إلى هذه الصعيدية الحسناء يقول فيه : يكفينى جدا أن استخرج خصلة الشعر التى أخذتها منك . ولك الشكر على أنك وافقت على

إهدائها إياى . . أستخرجها من أعمق أعماق الأوراق وأشم رائحتها . . وأدوخ وأتخيل مالا أستطيع . . أو كل ما أستطيعه وحدى ولا أستطيعه معك . . فخصلة الشعر هذه بعدد شعراتها أرق وقلق وعذاب وندم . ولونها هو لون الليالى بعيدا عنك . . ونعومتها هى لمس الحب من قريب . . ثم من بعيد . . إننى أمارس حريتى المطلقة مع خصلة الشعر هذه . . إنها تفعل فى أنفى وفى رأسى مالا يفعل السحر . . وأنا أحتفظ بها حتى لو طلبتها . لقد أصبح من الصعب جدا أن أفصل بينى وبين خصلة من شعرك . . كأنها أنت . . أو كأنها طفلنا . . ثم أنك لا تحتاجين إليها . . فأكثر من هذا الشعر يلقى به مقص الحلاق ولا أعرف أين يذهب؟ . . صحيح أنت لم تطلبى منى أن أعيد إليك هذه الخصلة . ولكن تصورت أنه حتى لو طلبت فلن أفعل . .

وخطابات أخرى كثيرة مليئة بالندم والحزن على هذا الفراق الذى جاء بقرار منفرد من فاتنة الصعيد الجوانى . وآخر ما قاله التابعى فى خطاب صغير جدا . ربما كان أصغر وأقصر خطاب كتبه لأية واحدة من الفاتنات . لعله أراد أن يقول فى عشرة سطور كلمة واحدة هى : لا . .

يقول فى خطابه من ميلانو سنة ١٩٣٦ :

طبعا تذكرين شكل وصوت القطار عندما يدخل إحدى المحطات ويتوقف تماما . . جلجلة . . صلصلة . . ودخان وضجيج . . وصمت مميت . ونشعر بعد كل ذلك ببرودة الجو . . وكانت الضوضاء مصدر الدفء للجميع .

أنا كذلك!

ولو! فهى لم ترد عليه . ولا بعثت برسالة مع إحدى صديقاتها .

وكان لابد من أن أسأل بلدياتى السيدة (س . ج) فقالت لى :

شوف يا حبيبى . الحكاية انتهت من زمان . وهى صدمته أمامى : انتهى يا محمد كل شىء! أنت من هنا . وأنا من هنا . ثم قالت كام كلمة فرنسية وكام كلمة إيطالية ، وحاولت أن أعرف بالضبط ماذا قالت له ولكن لم يساعدنى أحد . . ولما حاول أن

يصافحها وأن يمسك يدها ويقبل أصابعها كما اعتاد، فإنها بسرعة وضعت يدها في جيب البالطو الفورير الأسود الجميل وأعطته ظهرها . .

ـ هل بكى التابعى؟ . .

ـ ليس أمامى . . ولكن لا أستبعد فقد كانت عيناه حمراوين . وأنت عارف التابعى عنده قلاطة وكبرياء زيادة . .

ـ ولا هى بكت؟ . .

ـ هى بكت كثيرا . ولكن عقلها كان أقوى من قلبها . . ومعها حق . .

ـ يعنى أنت من رأيك أن التابعى كذاب؟ .

ـ هوه؟ . . كذاب جميل جدا . . ولا أعرف هل جميل لأنه كذاب، أو هو كذاب لأنه جميل؟!

ـ وهيه؟

ـ هيه؟ . . لا . . لأنها أجدع جميلة شفتها فى حياتى . . تعرف عملت أيه عندما وصلت إلى بيتها فى أسيوط . . أنا أقول لك . . كلمتنى وقالت لى سوف أرسل لك هدية خاصة . .

ـ فماذا أرسلت؟

ـ شوف يا سيدى . . هات يابت قهوة لسعادة البيه . . وفيه حاجة ساقعة . . واقفلى التليفزيون . كنا بنقول أيه . . آه . . بعد أيام جاءنى خطاب منها وفى داخل هذا الخطاب خطاب آخر لونه أزرق من التابعى لها . . فلم تفتح الخطاب وأرسلته لى . فقد كان التابعى قد أعطى هذا الخطاب للسائق وقال له : إديه للهانم فى أسيوط مش هنا .

ـ يعنى لم تقرأ الخطاب؟

ـ ولا فتحته .

ـ ولا أنت؟

ـ أنا أقول لك الحق فتحته . .

ـ فماذا وجدت؟

ـ وجدت فيه ما يفعله أى مراهق لأول مرة يدق فيها قلبه . .

ـ يعنى أيه؟

رسم لقلب أحمر وقد اترشقت فيه عشرات الأسهم . .

ـ ولا كلمة؟

ـ ولا كلمة . . وهوه فيه بعد كده كلام؟ . .

ـ والتابعى عرف أنها لم تفتح الخطاب؟

ـ أنا قلت له .

ـ هى التى طلبت منك ذلك؟

ـ لا . . لا والله . . أنا من نفسى .

ـ وماذا كان رد فعل التابعى؟

ـ الشهادة لله . . هذه أول مرة فى حياتى أشوف دموع التابعى! وأقول لك حاجة تضحك . . عندما حكيت للتابعى عن الجواب الذى لم تفتحه فاتنة الصعيد . . وفتحته أنا . . قال لى . . والنبى يومها كنت حاموت من الضحك لولا البنات لحقونى بالميه . . قال لى: تعرفى يا (. . . .) الجواب ده مش مبعوث لها . . ده مبعوث لك أنت . . فأنت الإخلاص والحب الحقيقى ها . . هاها . . مش قلت لك كذاب جميل!

* * *

هذه حياة التابعى . . أحد (الذئاب الموسيقية) . . يعزف الموسيقى ويغنى ويشيع العطر والكرم والنبل والأبهة . . ثم ينقض على فاتنات مصر وأوروبا .

واستطاع ونجح إلا مع هذه الصعيدية التى دوخته وانتقمت لعشرات من ضحاياه من بنات حواء!

الباقورى يطالب محمد فوزى بحق الأداء!!

شاب خجول قدم يدا وأخر رجلا، ووضع فى يدى ورقة صغيرة كأنها مكتوبة بالرمل ولذلك كرمشها فكومها حتى لا تسقط من يدى. فتحت الورقة، قرأت أجمل وألطف وأصدق وأبسط أغنية، وسألنى إن كان النشر ممكنا. فقلت: بل يسعدنى ذلك!

وكنت وقتها رئيسا لتحرير مجلة (الجيل) وأكتب فى العدد الواحد ثلاث مقالات. واحدة بإمضائى وواحدة بإمضاء (شريف شريف) والثالثة فى الصفحة الأخيرة اسمها (بقلم فلان).

ونشرت الأغنية وكانت شادية أول من أبدى إعجابه الشديد بالأغنية الطبيعية جدا. وسألتنى من يكون عبد الوهاب محمد. فقلت لا أعرفه، ولكنه يتردد على (أخبار اليوم) وأظنه يعمل فى الشهر العقارى. ولكن إذا جاء فسوف أطلب إليه أن يكلمك.. وانشغلت.

وبعد أيام اتصل بى الموسيقار محمد الموجى وقال لى: مين ابن العبقرية اللى كتب الأغنية دى؟ أنا لحنتها لشادية، وطلبت من عبد الحليم حافظ أن يدخل بصوته فيها.

أما الأغنية فهى: مخاصمنى بقى له مدة.. وفى الليلة الشوق نادانى - كلمته

سمعت حسه . . وقفلت السكة تانى . وطلب منى على أمين أن أقنعه ليعمل معنا فى مجلة (الجيل) ووعد ولكنه صرف نظرا عن العمل فى الصحافة . .

وسألت شادية قالت لى : الموجى عمل لحنا جميلا وسوف تكون أغنية كل بيت فى العالم العربى !

وكانت فعلا أغنية كل الشبان والشابات !

واختفى عبد الوهاب محمد وحاولت أن أجده فلم أستطع . . ويبدو أن ملحنين آخرين قد أوقعوه فى شراكهم فراح يؤلف لكثيرين حتى ألف لأم كلثوم : حب أيه اللى أنت جاى تقول عليه !

* * *

أما الأغنية التى تداولناها وأخفيناها بعضنا عن بعض ، وسافرنا بالسيارة نأتى بها من أسيوط ومن الإسكندرية ـ ومن العجيب أن محمد عبد الوهاب لم تكن عنده إلا نسخة واحدة ، وكان فى استطاعته أن يأتى بعشرين . ولكن بذكائه التجارى لاحظ أننا نكتب عن الأسطوانة الخفية فى جميع محافظات مصر وهذا أحسن إعلان عنها . .

وبدأت حكاية الأغنية بأن أعطاها محمد عبد الوهاب لكامل الشناوى ، وعبدالوهاب يعلم أننا عشرون من الأدباء والصحفيين ندور حول كامل الشناوى كل يوم وكل ليلة ، فكامل الشناوى هو صاحب الفضل على جيلى من الأدباء والصحفيين والفنانين : أبونا أخونا الأكبر ولى أمرنا كفيلنا . . هو الذى نجده فى كل وقت . . وهو الذى عنده حب جاهز للجميع ـ وكامل الشناوى حدثنا عن هذه المعجزة الفنية : أغنية خايف أقول اللى فى قلبى لحن عبد الوهاب وصوت فيروز . وأكثر من ذلك أن عبد الوهاب يغنى مع الكورس ـ ولم يتغير فيها إلا جمال صوت فيروز ورقته ولسعته وحلاوته . . وإلا حرفا واحدا ـ فعبد الوهاب : يقول أنا جانى طيفك فى (منامى) ـ وفيروز تقول (بمنامى) قبل ما أحبك !

أخذتها وسمعتها وأعطيتها لمأمون الشناوى الذى أعطاها لصلاح حافظ الذى

أعطاها لحسن فؤاد لكاريوكا التى أعطتها لعماد حمدى . . ونحن لا نتوقف عن البحث عنها ونتساءل : أين؟ فيقول مأمون الشناوى : فى بنها . . كلها خمسين كيلو من القاهرة . .

واتفقت مع عبد الوهاب على سرقتها . . أن آخذها وأضعها فى سيارتى وأذهب بها لأم كلثوم . .

ثم جاءت فيروز إلى مصر سنة ١٩٦٤ وظهرت فى برنامج كنت أعده للتليفزيون اسمه (نجمك المفضل) تقدمه بالتناوب سلوى حجازى وليلى رستم وجاءت فيروز وقدمتها سلوى حجازى وهى تقول : الذى يسمع صوتك يخيل إليه أنك حرير يأكل حريرا ويشرب حريرا . .

فما كان من زوجها إلا أن قال : والله ذهبت بعيدا . . لا حرير ولا شىء . . إنها تأكل الحديد وإذا ما وقفت قدامها تأكلك أنت! وكان جادا خشنا . وتضايق الناس أن يصدمها أحد فى إحساسها بفيروز ذلك اللحن الرقيق . . أو ذلك الوميض الغنائى . . وعادت سلوى حجازى تقول :

إن أحدا لا يعرف من أين يخرج صوت فيروز . فإذا بزوجها ينهض واقفا ويقول : والله يا ست سلوى أنت ما سمعت فيروز وهى بتتخانق . . صوتها يخرج من عينيها ومنخارها وأذنيها . . قنبلة متفجرة فى كل الاتجاهات . .

وأعلن أنه يروض أسدا كاسرا!

وكان تعليقا غليظا خشنا ضاع فى الحفاوة بها والفرحة بوجودها فى مصر . .

قلت له : يا أخى أنت بهدلت الست . .

قال : ما فى حد يقدر يبهدل ست . . أعط أى ست كرباجا وأعطها حصانا من بتوع رعاة البقر وقل لها اضربى . فإنها لا تتردد فى أن تضرب زوجها حتى يتحول من بنى آدم إلى حصان إلى حمار!

قلت : لكن الناس يرونها غير ذلك ويسعدهم ما يرون . .

ـ يا بويا هى من صنعى ـ ما كانت بها الشكل!

ـ كلنا يعرف ذلك . .

ـ طيب ليش كلام عن الحرير والبطيخ!

ثم قال بعض الكلمات النابية وهى كلمات مألوفة فى اللهجة اللبنانية . .

قابلت فيروز قلت لها : زوجك العزيز يحب الهزار .

قالت : والله ما بيهزر إلا معاكم . . ولكنه فى البيت ثم التفتت تشير إلى أحد الأعمدة فى الفندق . . مثل هذه . .

ـ أمال الألحان والموسيقى الجميلة بتيجى منين؟

ـ من دماغه . . من الكاس . . من القرف اللى هو عايش فيه .

ـ يعنى أيه؟

ـ يعنى ما بيضحك كثيرا إلا مع الناس . . ولكن معى ـ هو جنرال وأنا عسكرى صغير وطول الوقت يهددنى بالقتل إذا لم أقل كما يريد بالضبط . .

ـ لهذا كانت الألحان والأشعار من أروع ما فى الغناء العربى . .

سألنى زوجها بعد دقائق : فيروز عما بتشكى؟

ـ لا أنا اللى عما با اشكى .

ـ من أيش؟

ـ منكما

ـ ليش؟

ـ لا أجمل من كلامك وألحانك ولا أجمل من صوتها . .

ـ صحيح . . ولكن المثل المصرى بيقول القط لا يحب إلا خناقه . .

ـ ومن هو الخناق؟

هو قال : هى!

وهى قالت : هو!

ـ هاها . . هاها

قال لى الموسيقار محمد فوزى : إنه يعرض كلمات أغانيه على أناس كثيرين من قبل أن يغنيها . وهو يفضل أن تكون الأغنية كلاما عاديا موسيقيا . .

قال لى : إن أغنية ماله القمر ماله ما جيناش على باله . . غنتها فى بيت أحد الوزراء وكان الشيخ حسن الباقورى من الموجودين . . وهو رجل شاعر . . ولاحظ أن أحد أبيات الأغنية مكسور . . فهو الذى صحح وزن بيتين فى هذه الأغنية ـ ولما أذيعت الأغنية تلقيت جوابا بدون توقيع يقول صاحبه أننى عددت كلمات الأغنية فوجدتها ٣٥٠ كلمة . وأنا غيرت فيها كلمتين فأستحق حق الأداء العلنى وقدره (. . . . .) وأنت وذمتك . وحاولت أن أعرف من هو فلم أستطع . . حتى قابلته فى بيت نفس الوزير وحييته . وكان يتوقع أى تعليق على الخطاب المجهول . ولكنى لم أفعل لأننى نسيت . فإذا بالشيخ الباقورى يقول لى : يجب أن تبرئ ذمتك . .

ـ من أيه يا مولانا؟

ـ إذا كان عليك دين يجب أن تبادر بدفعه . . فالأعمار بيد الله وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت . . فقلت : أمنت بالله يا أستاذ . . ولكن مش فاهم .

ـ الله يكون فى عونك . . لابد أن تنسى فلابد أن يكون عليك فلوس لأناس كثيرين . وطبيعى أن تنسى لأنك تريد أن تنسى فقلت له : ماذا تقصد؟

وضحك الباقورى وقال لى : أنا سألت الموسيقار محمد عبد الوهاب فقال لى إن نصيبى من أغنية ماله القمر ماله لا يقل عن مائة جنيه واجبة السداد!

فضحك محمد فوزى وأخرج من جيبه ورقة بمائة جنيه!

فقال له الباقورى : الموسيقار عبد الوهاب قال لى إن هذا مبلغ مؤقت لأن حسابات حق الأداء العلنى تجىء من باريس عند نهاية العام ومن الممكن أن يكون نصيبى أكثر من مائة جنيه . .

فقال محمد فوزى : نخيلهم مائتين . .

فقال له الباقورى : الموسيقار عبد الوهاب قال إن المبلغ سوف يكون أضعاف ذلك !

وأخرج محمد فوزى ضعف المبلغ وقال له : خالصين يا أستاذ وصافيه كاللبن !

فقال له الباقورى : الموسيقار محمد عبد الوهاب يقول إن المبلغ لا يقل عن ألف جنيه . . وهو يجب أن يتقاضى ٥٠٠ جنيه لأنه هو الذى بصرنى بحقوقى وهى أتعاب متواضعة لأى محام محترم . .

وضحك محمد فوزى وكان ظريفًا : شوف يا أستاذ أنا يسعدنى أن يرضى جميع الأطراف . . أنا سوف أعلن أن كلمات الأغنية من نظم الشيخ الباقورى واللحن للموسيقار محمد عبد الوهاب . واقسموا أنتم نصيبى من الأغنية ـ أيه رأيك؟

قال الباقورى : الموسيقار محمد عبد الوهاب قال له لا يلحن بهذه الطريقة . .

ـ يعنى مش عاجبه اللحن . . وأنت مش عاجبك الكلام . . وحياتك يا أستاذ وحياته هو كمان . ولا مليم . . طيب عندى حل نهائى . . أنا حاقول إننى لقيت الكلام قدام الجامع . . ولقيت واحد بيبيع بطاطا وبيغنى اللحن . . فجمعتهما معا وغنتها وسوف أكتب خطابا للجنة حقوق المؤلفين فى باريس وأقول لهم إننى متنازل عن أجرى كملحن وكمؤلف . .

فقال له الباقورى : الموسيقار عبد الوهاب قال لى . .

فقاطعه محمد فوزى : هوه عبد الوهاب قاعد متفرغ للحكايات دى . . الكلام ده صحيح يا أستاذ؟

ـ أيوه صحيح . وقال لى كمان إذا أنت لم تنفذ ما أطلبه منك فمن حقى أن أطلبك لبيت الطاعة ! !

ـ هاها ـ والبيت يبقى فين يا أستاذ !

ـ فى الإذاعة!

ـ هاها . . هاها

ـ . . . .

* * *

حضرت بروفات أغنيات كثيرة لأم كلثوم وعبد الوهاب وبليغ حمدى . . ولكن فى هذه المرة كان عبد الحليم حافظ مصراً على أن أحضر بروفات أغنية من أجمل أغانى بليغ حمدى : (موعود) . ففى هذه الأغنية جمل موسيقية رائعة فريدة . . وعلى الرغم من أن عبد الوهاب لا يحب بليغ وبليغ أيضا . لكن عبد الوهاب يقول : إن بليغ حمدى هو الملحن الوحيد الذى إذا اهتدى إلى جملة موسيقية فإنه يشكلها ويبدلها ويقلبها بحيث لا يبقى لأى ملحن آخر أن يقترب منها بالحذف والإضافة . . وكان بليغ له رأى فى عبد الوهاب : فهو لا يراه ملحنا كبيرا ولكن يراه مقتبسا كبيرا ولصا عظيما . . وأن موسيقى عبد الوهاب هى تأريخ للموسيقى المعاصرة . . جملة من هنا ـ وجملة من هناك . . وهنا يعنى فى مصر وهناك يعنى فى لبنان وأى بلد آخر ـ وكان بليغ حمدى قاسيا جدا على عبد الوهاب ولم يكن فى حاجة إلى ذلك!

فما شأنى أنا . لا شأن لى . ذهبت إلى بيت عبد الحليم حافظ . . عبد الحليم بالبيجاما . . رقيق نحيف هزيل ـ أبرز ما فيه عيناه اللتان استقرتا فى تجويف عميق بسبب ضعفه . . وكانوا يسعفونه بالماء ولقمة عيش صغيرة جدا عليها فول مهروس . . أى فتافيت من أى شىء . . فهو مريض . وكان عبد الحليم والفرقة الموسيقية يعيدون ويزيدون . . وعبد الحليم فى حيوية وجمال يقول بكامل قوته . . ومضت ساعة واثنتان وثلاث تتخللها لحظات يدخل فيها عبد الحليم أوضة نومه المفتوحة . . ثم يظهر بعد لحظات وهو يتابع الموسيقى وهو يأكل ويشرب وهو فى دورة المياه . وانتهت البروفات التى استغرقت خمس ساعات . وعندما ودعت عبدالحليم طلب منى أن أحضر وأنه حجز لى مكانا فى الصف الأول .

ولم أنم تلك الليلة فقد تخيلت صورا مرعبة. تخيلت أن عبد الحليم في هذا الضعف الشديد، لن يتمكن من الغناء.. وإذا غنى فبعض الوقت.. والباقى ممددا جثة هامدة على المسرح بين عيون الملايين من المحبين والعاشقين.. ورأيت في ذلك اليوم صورة جنازة عبد الحليم لاقدر الله إذا مات ـ فالعيون دامعة والأيدى والعة، والخوف مثل الإعجاب قد جعل مقاعدنا شوكا ومسامير حامية.. خوفا عليه وإشفاقا على صحته. وجلست فى الصف الأول على الشمال. ولكن لم أستمتع كما استمتع به الناس. فالناس لم يروه بالأمس. ولا عرفوا لماذا هو يدخل ويشرب ماء ودواء كل بضع دقائق.. إن الصورة التى يراها الناس هى صورة (مفبركة) فعبد الحليم ليس بهذه الحيوية ولا بهذا المرح ولا ضحكته العريضة حقيقية.. إنها مقتضيات المهنة.. ولكنه هزيل هزيل يا ولدى..

وإذا تثنى أو تمايل عبد الحليم وهو يغنى سعيداً بإعجاب الناس تخيلت أنه سوف يقع..

وكنت قد رأيت عبد الحليم مريضا فى باريس. ذهبت إليه مع المصور فاروق إبراهيم. ولم تعجبنا حالة عبد الحليم ولا حتى حالة بليغ حمدى قال لى فاروق إبراهيم: حليم أيه؟

ـ مريض جدا.

ـ حيموت ولا أيه؟

وانفجر باكيا ـ وكان عبد الحليم كذلك. فهو يقاوم وسوف يقاوم وهو من مدرسة مصطفى أمين وعلى أمين فهما يريان أن يموت الإنسان واقفا لا أن يعيش راكعا!

وحمدت الله أننى رأيت عبد الحليم يغنى وأنه ما زال حيا.. صحيح لم أستمتع بأى شيء. فقد أزال الخوف كل رغبة فى التمتع به. بل كان الخوف «غمامة» على عينى وقطنا فى أذنى وانسدادا فى نفسى وعاش عبد الحليم. ولا يزال برغم موته حيا متفوقا على كل الأحياء والأموات!

وأذني وعيني دائما على المطربين الشبان. وهم أبناء جيلهم: الموهبة القليلة والقدرة على الطرب ضعيفة. ولكن فيهم الحيوية وهوس الرقص أثناء الغناء ولكن ليس من بينهم واحد إذا سمعته تقول له: الله يا . . .

وفجأة سمعت عن المطرب الليبى حميد الشاعرى. وطلبت معظم أغانيه. ولاحظت موهبته على التوزيع الموسيقى. إنها موهبة حقيقية وذوقه رقيق وهو ابن جيله. وسمعت له عدداً كبيراً من الأغنيات. وطلبته وجاءنى ورأيته وناقشته. وجاءنى من زملائه الشبان المطرب فارس. وقد غنى فارس فى مكتبى وفى بيتنا. وأعجبتنى إحدى أغانيه . . تحفة . . قمة . . أغنية اسمها: مرسول الحب ـ أى مرسال أو رسول الحب من تلحين حميد الشاعرى سمعتها كثيرا، وطلبت من حين إلى حين أن يجىء ويغنيها لبعض الضيوف من الفنانين، وكنت أنصح فارس بأن يهتم بصحته ليطول عمره الفنى . .

وفى يوم زارنى المطرب الموسيقار المغربى الكبير عبد الوهاب الدوكالى. والذى جاء إلى مصر وغنى فى نادى الجزيرة. وكان أداؤه على طريقة الأوروبيين يملأ المسرح ذهابا وإيابا. بينما المطرب المصرى، كل المصريين، يقف لوحا خشبيا فى مكان من المسرح يتمايل ولا يتحرك. وإذا تحرك التفت إلى الفرقة الموسيقية كأنه يقول لها شيئا. وقيل الكثير ضد عبد الوهاب الدوكالى حتى لم يعد إلى مصر إلا زائرا. . وقيل إن عبد الحليم حافظ قد حاربه. ولكنى أشك فى ذلك. . فقد ادعى كثيرون من المطربين أن عبد الحليم مرة وأم كلثوم مرة هى التى أوقفت نموهم وعوقت مسيرتهم. ومات عبد الحليم ولم تظهر موهبة هؤلاء الكذابين. وإنما ظلوا فى مكانهم. ففراغ عبد الحليم لا وجود له. لأنه لا يزال وحيدا فريدا فى أدائه الجميل وحزنه العميق وموهبته الفذة.

وقلت لعبد الوهاب الدوكالى: سوف أسمعك أصواتا شابة صاعدة فى مصر. سوف أسمعك لحنا من غناء الفنان فارس وهو ليبى مصرى ومن تلحين حميد الشاعرى وهو ليبى. وجاء الفنان فارس ورأى عبد الوهاب الدوكالى لأول مرة.

ووضعنا الكاسيت واستمعنا معا إلى أغنية (مرسول الحب). . وأعجب بها جدًا عبد الوهاب الدوكالى. وأسعدنى ذلك. .

ومن الرباط تلقيت خطابا من عبد الوهاب الدوكالى يقول: إنه رفع قضية على فارس وحميد الشاعرى. . فالأغنية له. وقد غناها من ثلاثين عاما. وسرقها الاثنان ولابد من القضاء. ثم أرسل لى أغنية(مرسول الحب) طويلة جميلة حزينة تظهر فيها موهبة عبد الوهاب الدوكالى فى الغناء والأداء والموسيقى. صحيح أن حميد الشاعرى قد اختصرها وزخرفها وجعلها زفة عروس. ولكن أغنية عبدالوهاب الدوكالى كانت أصدق وأروع!

وغنيت فى فيينا :
هلت ليالى القمر

أنا هويت وانتهيت . . أول أغنية سمعتها . . وأول ما غنيت أنا فى الحفلات المدرسية . لماذا هذه الأغنية؟! لا أعرف . ولكن لابد أنها كانت منتشرة فى ريف المنصورة . وهى من أكثر الأغنيات حظا فى تاريخ الغناء العربى . فقد غناها ولحنها وألفها سيد درويش . . بصوته الأجش . . وغناها محمد عبد الوهاب وأضاف إليها الكثير من الزخارف اللحنية فى الأداء .

وعبد الوهاب فنان له عقل ولا قلب له ، فهو صنايعى بارع . وغناها أيضا رياض السنباطى وهو رجل عنده قلب . وغنتها سعاد محمد فكانت أجمل الثلاثة . وأنا الذى اقترحت على صديقى وبلدياتى حسن الإمام أن يجعلها فى فيلم (بمبة كشر) . وكان حسن الإمام يعتز بهذا الاختيار . ولأنه دمه خفيف فكان يجعل لها تاريخ غريبا فيقول : أنا وأنيس من المنصورة . . هو من حى الحسينية وأنا من حى الحوار . وبيننا ثأر قديم فكثيرا ما ضربناهم وبهدلناهم!

أما أن هناك معارك بين أطفال الحسينية والحوار فصحيح . ولكن لا أظن أننى شاركت فى الضرب . وإنما الذى كان يحدث هو أن نجد عددا من الأطفال لسبب غير معروف يجيئون إلينا وعندهم استعداد لأن يضربوا أى أحد . وقد حدث كثيرا . ولكن لا أعرف السبب . . وربما من غير سبب . فحسن الإمام يرى أن الأخذ بوجهة نظرى هو نوع من الصلح بين أولاد شارعنا وأولاد شارعهم!

ثم غناها إسماعيل شبانة ـ أخو عبد الحليم حافظ ـ وغنتها فرقة الموسيقى العربية .

وعندما كنت أغنيها وأنا صغير كنت أبدأ : خلى اللى يقول يقول . . أنا هويت وانتهيت . . وليه بقى لوم العزول ـ ولم أفهم فى ذلك الوقت لماذا هذه البداية . ومن تفكيرى الطويل فى سلوكياتى الطفولية عرفت أن هذه الأغنية ظهرت فى أذنى وعلى لسانى فى بداية سن الشاب الصغير . ففى ذلك الوقت امتنعت أمى عن ضربى ـ فقد كنت كثير المشاكل مع الأطفال . وهى امتنعت لأننى حفظت القرآن الكريم . وكانوا يعتقدون فى الريف أنه حرام ضرب الطفل إذا حفظ القرآن . وقد تماديت فى الشقاوة . ولكن أمى لم تعد تصدق الأطفال الذين كانوا يقولون لها : هوه وقع من فوق الشجرة لأنه كان يريد جمع بيض العصافير . . فسقطت على الأرض . ولحسن الحظ كان سقوطى فوق كوم قش . ولكن الأطفال يقولون حكايات أخرى . ولم تكن أمى تصدق ذلك . لأنه ليس معقولا أن أكون قد حفظت كلام ربنا وأكذب ! ! فلم أعد أهتم بما يقوله الأطفال : خلى اللى يقول يقول !) .

وكنت أستخدم هذه الأغنية فى امتحان الأصوات الشابة التى تجىء إلى مكتبى أو إلى بيتنا . وكل الأصوات الشابة قد سمعتها أول الأمر فى بيتنا . وفى كل مرة يجىء شاب ومعه العود لكى يسمعنى صوته أجده يبدأ بأغنية : أنا هويت . . وفى إحدى المرات سألت هؤلاء الشباب : ولماذا هذه الأغنية بالذات ؟ . . فكانوا يقولون : لأن سيادتك بتحبها . وأسأل : كيف عرفتم ؟ . . ويكون الجواب : لأن الأستاذ محمد قابيل الناقد الفنى بمجلة (أكتوبر) هو الذى قال لنا ذلك !

وكنا نردد ـ بالأمر ـ وراء سيدنا صاحب الكتّاب ـ بتشديد التاء ـ أغانى الأفراح والليالى الملاح . ونحن صغار ونحن نغالب النوم فيغلبنا النوم . فيعاقبنا سيدنا على ذلك فى اليوم التالى .

وفى الأغنية كلمات (نابية) كثيرة وكنا نرددها دون أن نفهم معناها . . وكنت أسمع من والدى وأنا صغير أسماء : الست منيرة المهدية . . ورأيت فى بيتنا المطرب عبد اللطيف البنا . . ومطربين كثيرين ليسوا معروفين إلا فى الريف . .

وأول ما رأيت أم كلثوم دون أدرى بقيمتها الكبرى كانت في حفلة صغيرة فى بيت (نعمت هانم يكن) التى كان أبى مشرفا على مزارعها . . والحفلة كانت من عشرة من الباشوات لا أذكر أسماءهم الآن . .

وكانت أم كلثوم تغنى ووراءها محمد القصبجى على العود . . ولم أستمع إلى صوتها وإنما رأيتها من بعيد . وكنت فى السنة الأولى بكلية الآداب قسم الفلسفة . وكنت مهموما غارقا فى الدراسة وكانت الدنيا كلها بما فيها أم كلثوم وعبد الوهاب على الهامش فى حياتى . . بل الدنيا كلها لا وجود لها . فأنا طريقى من البيت إلى المكتبة إلى المدرج إلى البيت . وبس!!

* * *

ولا أعرف كيف انطلقت أنا وزميلى فى المنصورة الثانوية وفى «أخبار اليوم» عبدالسلام داود نغنى (الجندول) لمحمد عبد الوهاب بمجرد أن ركبنا الجندول . . ومن غير اتفاق بيننا . . كانت الأغنية تنطلق من مياه البندقية وظلالها . . وعندما مررنا تحت (جسر التنهدات) . وكنا نظن أن المحبين يجب أن يمروا تحت الجسر ويقولوا : آه . . هذا هو المعنى . ولكن عرفت فيما بعد أن هذا الجسر كان يمر فوقه المحكوم عليهم بالإعدام ويلفظون آخر أنفاسهم : ذهابا بلا إياب . . وكنا نقول : أين من عينى هاتيك المجالى للشاعر الكبير بلدياتى على محمود طه . .

وأول أغنية انطلقت بها كانت فى فيينا . فى مهرجان للشباب . كان الشباب من كل دولة يغنى . وبلغات مختلفة سمعنا أغنيات لا نفهمها . وجاء دورى وسألنى المذيع عن الحياة فى مصر . فأجبت . وعن الحرية التى يتمتع بها الشاب وخصوصا الشابة . وهل من حق الفتاة أن تضع فى جيبها مفتاح الشقة لتعود فى أى وقت؟ وانتهزت الفرصة لكى أشيد بصناعة المفاتيح فى مصر!

وفجأة ومن غير مقدمات طلب منى مذيع المهرجان أن أغنى النشيد القومى . ولم أكن أعرف النشيد القومى ، ولم أجد إلا أغنية أم كلثوم : هلت ليالى القمر . . وغنيت جزءا بحماس شديد . وانتهت الأسئلة وعدت إلى مكانى لأجد المصريين قد

تساقطوا من الضحك بسبب المطب الذى وقعت فيه. وأذكر أنى قلت هذه الحكاية لأم كلثوم. فكان ردها بسرعة: تفتكر هل ألجأ إلى القضاء أطلب معاقبتك لأنك بهدلت المؤلف والملحن والمطربة؟!

* * *

وسمعت المطربة الإيطالية داليدا تغنى (وجدت قلبى فى بورتوفينو) . . وبورتوفينو إحدى المدن الصغيرة الجميلة على شاطئ الريفييرا الإيطالية . . ولجمال الاسم والأسماء الأخرى وموسيقاها وذكرياتها . . أجدنى مضطرا إلى ذكرها كأنها لحن موسيقى جميل: بورتوفينو . . رپالو . . فورتيوزو . . أوروتا . . سورنتو . . وأمالفى . . نابلى - وكلها أسماء لأماكن جميلة. ولما ذهبت إلى بورتوفينو لم أكن فى حاجة إلى البحث عن القلب الذى يجدونه فيها . . ولا سوق الحب . . ولا مهرجان الغرام وإنما كنت أتذكر داليدا السمراء الجميلة الحزينة التى أسعدت الناس ولم تسعد نفسها. وحببت إلينا الدنيا التى كرهتها . . والتى كان نصيبها منها قليلا - إذا كان المقصود هو الحب. أما نصيبها من الفلوس فقد كان كثيرا . . أحبت أول مرة وكان من طرف واحد . . وأحبت لثانى مرة وكان من طرف واحد أيضا . . وفى المرة الثالثة عندما أحبت وكانت محبوبة قتلتها الغيرة فانتحرت . . لقد وجدت قلبها فى بورتوفينو وأضاعت عمرها أيضا . .

وهناك أغنية ألمانية أخرى ترد على هذه الأغنية الإيطالية. الأغنية الألمانية تقول: أضعت قلبى فى هيدلبرج. وهيدلبرج مدينة صغيرة جميلة. ربما كانت المدينة الوحيدة فى ألمانيا التى لم تصبها قنابل الحلفاء فى الحرب. فقد كانت مقرا لقوات الاحتلال الأمريكية. والألمان يعيرون هذه المدينة التى لم يسقط فيها بيت ولا مواطن ألمانى يقاوم الغزاة. وبقيت المدينة الجميلة أكثر جمالا وسط حطام ألمانيا كلها. لقد ذهبت إلى المدينة . . وزرت معهد الاستشراق، وعرفت صديقى الدكتور فيلد المستشرق الألمانى . . وقابلت زوجته التى تعمل فى حفائر بابل وأشور فى العراق والتى تساعد الآن المستشرق سامى الإسرائيلى موريه فى تحقيق كتاب الجبرتى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) وسوف يتكون من مقدمة بالإنجليزية فى ٣٠٠

تساقطوا من الضحك بسبب المطب الذى وقعت فيه . وأذكر أنى قلت هذه الحكاية لأم كلثوم . فكان ردها بسرعة : تفتكر هل ألجأ إلى القضاء أطلب معاقبتك لأنك بهدلت المؤلف والملحن والمطربة؟!

* * *

وسمعت المطربة الإيطالية داليدا تغنى (وجدت قلبى فى بورتوفينو) . . وبورتوفينو إحدى المدن الصغيرة الجميلة على شاطئ الريفييرا الإيطالية . . ولجمال الاسم والأسماء الأخرى وموسيقاها وذكرياتها . . أجدنى مضطرا إلى ذكرها كأنها لحن موسيقى جميل : بورتوفينو . . رپالو . . فورتيوزو . . أوروتا . . سورنتو . . وأمالفى . . نابلى ـ وكلها أسماء لأماكن جميلة . ولما ذهبت إلى بورتوفينو لم أكن فى حاجة إلى البحث عن القلب الذى يجدونه فيها . . ولا سوق الحب . . ولا مهرجان الغرام وإنما كنت أتذكر داليدا السمراء الجميلة الحزينة التى أسعدت الناس ولم تسعد نفسها . وحببت إلينا الدنيا التى كرهتها . . والتى كان نصيبها منها قليلا ـ إذا كان المقصود هو الحب . أما نصيبها من الفلوس فقد كان كثيرا . . أحبت أول مرة وكان من طرف واحد . . وأحبت لثانى مرة وكان من طرف واحد أيضا . . وفى المرة الثالثة عندما أحبت وكانت محبوبة قتلتها الغيرة فانتحرت . . لقد وجدت قلبها فى بورتوفينو وأضاعت عمرها أيضا . .

وهناك أغنية ألمانية أخرى ترد على هذه الأغنية الإيطالية . الأغنية الألمانية تقول : أضعت قلبى فى هيدلبرج . وهيدلبرج مدينة صغيرة جميلة . ربما كانت المدينة الوحيدة فى ألمانيا التى لم تصبها قنابل الحلفاء فى الحرب . فقد كانت مقرا للقوات الاحتلال الأمريكية . والألمان يعيرون هذه المدينة التى لم يسقط فيها بيت ولا مواطن ألمانى يقاوم الغزاة . وبقيت المدينة الجميلة أكثر جمالا وسط حطام ألمانيا كلها . لقد ذهبت إلى المدينة . . وزرت معهد الاستشراق ، وعرفت صديقى الدكتور فيلد المستشرق الألمانى . . وقابلت زوجته التى تعمل فى حفائر بابل وأشور فى العراق والتى تساعد الآن المستشرق سامى الإسرائيلى موريه فى تحقيق كتاب الجبرتى (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) وسوف يتكون من مقدمة بالإنجليزية فى ٣٠٠

صفحة ومن أربعة مجلدات فى ألفى صفحة مع مقارنة لأربعين مخطوطة وكذلك كتاب الموارد: (سلك الدرر) وكتاب الزبيدى (المعجم المختص) وكتاب الدمرداش (الدرة المصونة) أما فهرس كتاب الجبرتى فسوف يكون ٦١٧ صفحة مع شرح للأسماء والكلمات الأجنبية التى وردت فى الكتاب.

وأكثر ما أدهشنى فى مدينة هيدلبرج أن الشوارع معظمها بلا لافتات. فقد سرقها الشبان وعلقوها فى بيوتهم. فقد تمتعت هذه المدينة بالسلام والحرية والفرفشة فى كل سنوات الحرب. كأن الأمريكان يقولون لهم: معنا لا خوف وإنما حياة، ولا دمار وإنما سعادة.. لا استبداد نازى وإنما ديمقراطية.. مع الأمريكان تكسبون دائمًا!

وفى صناديق الليل غنيت: فى هيدلبرج أضعت قلبى.. وفى بورتوفينو وجدت قلبى.. والأغنية الإيطالية أجمل لأن داليدا ألطف وأرق وأصدق وموجعة للقلب حزنا عليها!

والحقيقة أننى لا وجدت قلبى ولا أضعت قلبى لاهنا ولا هناك.. فمن الذى كان له قلب هو لا يزال يصعد درجات السلم أملا فى أن يكون شيئا فى دنيا الفلسفة والأدب!

* * *

أما (ليالى الأنس) فى فيينا فقد غنيناها ساخرين من فيينا. ويوم ذهبنا إلى فيينا لأول مرة كان أكثرنا فنانين: عبد السلام الشريف وحسن فؤاد وجمال كمال وعبدالغنى أبو العينين وأبو صالح الألفى والأخوان أدهم وانلى وسيف وانلى وكمال الملاخ وأنا. وكما قفزت على شفاهنا أغنية «الجندول» فى البندقية، استولت علينا أغنية أسمهان «ليالى الأنس فى فيينا». والحقيقة لم نجد هذا الأنس. وكيف نجده وقد ذهبنا إلى السوق نبيع بالطو عبد السلام الشريف. فقد سرقت فلوسه. ولما سرقت اتجهنا مباشرة إلى السفارة. وكانت صدمة. فقد تخيلنا فى ذلك الوقت أنه عندما تقع لمصرى أية مصيبة فإن السفير على طول يقف شهما جدعا يقول: أنا رقبتى سدادة من جنيه

لألف. فلما ذهبنا إلى السفير لاقام ولا قعد وإنما راح يلف حول مكتبه وينظر إلينا نحن العشرة ويقول: ماكنش يتعز.. الأيد قصيرة والعين بصيرة.. لا يوجد عندنا اعتماد ولا عند أية سفارة.. إلا السفارة الأمريكية. فذهبنا نبيع البالطو فلم نعرف أنسا ولا طربا ولا فرقنا بين الليل والنهار.. فقد نقص عدد البلاطى واحد منهم أسود كان يعتز به عبد السلام الشريف وكنا نطلب إليه أن نخفى ما تبقى من الطعام فى جيوبه.. وكان يفعل. وكان عبد السلام الشريف أسمر ضخما وأستاذا لكل هؤلاء الفنانين خفيف الدم فكان يقول: جيوبى تحت أمركم.. حطوا فيها أى شيء ولو طلبتم أن تختفوا فيها عن عين البوليس.. فلامانع عندى!

وكان حسن فؤاد خفيف الدم أيضا يقول لأستاذه الشريف: والنبى تشوف لنا أى حاجة فى درج البالطو!

وكنا نجد عنده كل شيء من الإبرة للزبادى!

* * *

وكما أن أغنية «أنا هويت وانتهيت» بسيطة الألفاظ أو ركيكة ولكن هذه الركاكة مقبولة لجمال اللحن. وكذلك أغنية محمد عبد المطلب: من السيدة لسيدنا الحسين.. يوماتى أروح له مرتين ـ فالمطرب يستعرض المشقة التى يبذلها بأنه يقطع لها هذه المسافة البسيطة مرتين فى اليوم. ولكن لابد أنه كان يتعب فى قطع هذه المسافة على قدميه كل يوم.. فلم تكن هناك وسائل المواصلات. وفى يوم قلت لمحمد عبد المطلب: يا راجل دى مسافة صغيرة.. تفضح المحبوبة بسبب هذا المشوار الهايف؟ وكان عبد المطلب يقول: ما هو أنت لو تعرف إلى أية درجة هى متعبة لمن يشكو من النقرس. وكان المؤلف مصابا بالنقرس والعجز عن الحركة..

وأيضًا أغنية (تحت السجر يا وهيبة ياما كلنا برتقال) لمحمد رشدى. وكنت أقول لمحمد رشدى: تحت السجر وليس فى محل جروبى.. وتفضح البنت بالشكل ده من المحيط للخليج؟!

أما أغنية محمد عبد الوهاب: الميه تروى العطشان وتطفى نار الحران ـ فكانت فى

لألف. فلما ذهبنا إلى السفير لاقام ولا قعد وإنما راح يلف حول مكتبه وينظر إلينا نحن العشرة ويقول: ماكنش يتعز.. الأيد قصيرة والعين بصيرة.. لا يوجد عندنا اعتماد ولا عند أية سفارة.. إلا السفارة الأمريكية. فذهبنا نبيع البالطو فلم نعرف أنسا ولا طربا ولا فرقنا بين الليل والنهار.. فقد نقص عدد البلاطى واحد منهم أسود كان يعتز به عبد السلام الشريف وكنا نطلب إليه أن نخفى ما تبقى من الطعام فى جيوبه.. وكان يفعل. وكان عبد السلام الشريف أسمر ضخما وأستاذا لكل هؤلاء الفنانين خفيف الدم فكان يقول: جيوبى تحت أمركم.. حطوا فيها أى شىء ولو طلبتم أن تختفوا فيها عن عين البوليس.. فلامانع عندى!

وكان حسن فؤاد خفيف الدم أيضا يقول لأستاذه الشريف: والنبى تشوف لنا أى حاجة فى درج البالطو!

وكنا نجد عنده كل شىء من الإبرة للزبادى!

* * *

وكما أن أغنية «أنا هويت وانتهيت» بسيطة الألفاظ أو ركيكة ولكن هذه الركاكة مقبولة لجمال اللحن. وكذلك أغنية محمد عبد المطلب: من السيدة لسيدنا الحسين.. يوماتى أروح له مرتين ـ فالمطرب يستعرض المشقة التى يبذلها بأنه يقطع لها هذه المسافة البسيطة مرتين فى اليوم. ولكن لابد أنه كان يتعب فى قطع هذه المسافة على قدميه كل يوم.. فلم تكن هناك وسائل المواصلات. وفى يوم قلت لمحمد عبد المطلب: يا راجل دى مسافة صغيرة.. تفضح المحبوبة بسبب هذا المشوار الهايف؟ وكان عبد المطلب يقول: ما هو أنت لو تعرف إلى أية درجة هى متعبة لمن يشكو من النقرس. وكان المؤلف مصابا بالنقرس والعجز عن الحركة..

وأيضًا أغنية (تحت السجر يا وهيبة ياما كلنا برتقال) لمحمد رشدى. وكنت أقول لمحمد رشدى: تحت السجر وليس فى محل جروبى.. وتفضح البنت بالشكل ده من المحيط للخليج؟!

أما أغنية محمد عبد الوهاب: الميه تروى العطشان وتطفى نار الحران ـ فكانت فى

بانيو صغير . . لا فى بحر ولا بحيرة ولا يقاوم الأمواج من أجل المحبوبة . . وإنما فى حوض صغير ويلقى على رأسه بالماء من (كوز) . . ولم يكن لا عطشان ولا حران!!

ومرة قلت لعبد الوهاب فقال : الذى يغنى هو محمد عبد الوهاب الذى يخاف من الماء والهواء وليس عبد اللطيف أبو هيف!

* * *

عندما جاءت إلى مصر المطربة الفرنسية (جولييت جريكو) وكانت تغنى فى (أوبرج الأهرام) فطلبت إلى الصديق محمد عبد النبى صاحب الأوبرج أن يحجز ثلاثة أماكن فى الصف الأول : لأحمد رامى وصالح جودت وأنا . وكانت الصحف الفرنسية تتحدث عنها وتصفها : بالمطربة الوجودية . وكنت فى ذلك الوقت داعية الفلسفة الوجودية فى مصر . وكانت جولييت ترتدى ملابس سوداء : البلوزة المحزقة والبنطلون الخانق وشعرها الأسود الغجرى . . وكلما مضت فى أغنيتها فى مواجهة حماسنا وتصفيقنا تستدير لتواجه الفرقة وتفك زراراً من البلوزة . . عند آخر مقطع أغنية أستاذتها (إديت بياف) كانت البلوزة على لحمها الوردى . ولابد أن يقف الجالسون فى الصف الأول ويقولون : الله ياست!

واستمعت إلى المطرب الجزائرى اليهودى (أنريكو ماسياس) يغنى للرئيس السادات فى جزيرة الفرسان بالإسماعيلية . كان السادات قد عاد من رحلته الخرافية إلى القدس . فجاءنى أنريكو ماسياس وأبوه يطلبان زيارة الرئيس السادات . وذهبنا معهما ـ كمال الملاخ وأنا . وغنى أنريكو ماسياس أغنيته الشهيرة : «إنها زوجة صديقى» غناها جالسا على الأرض عند قدمى السادات . أما أبوه فقد كان يقبل يدى الرئيس قائلا : لا أعرف ما الذى أفعله يا سيادة الرئيس . . . . إنك بالسلام الشامل كتبت الحياة لأبناء شعبى . .

ولما جاء الفنان الأمريكى اليهودى كيرك دوجلاس إلى جزيرة الفرسان قال للرئيس السادات : لو أعرف كيف أغنى لغنيت لك وحدك يا بطل السلام . .

فقال له السادات : كان هنا أنريكو وتقدر تغنى . . نفس الأغنية

فـرد عليـه كـيـرك دوجـلاس بسـرعـة : آه ولكنى لـم أكن مـخلصـا لزوجـات أصدقائى . . هاها . . هاها . .

أمـا المطرب الأسـبـانى خـوليـو أجلسيـاس فـقـد سـمـعـتـه يغنى فى بيت الـرئيس السـادات . . وهو مطرب المطربين ونجم الطرب فى العـالم اللاتينى . وكـان وسيما وله ابتسامة حلوة . وإذا ضحك انتقل الضحك إلى كل شىء فى وجهه فى يديه فى الدنيا حوله . . غنى وقلت له : الله يا خوليو . .

ثم حاول أن يغنى لأم كلثوم فقلت : بلاش يا خوليو !

* * *

وعندمـا جـاء المطرب الفـرنسى الأرمنى أزنافـور وغنى فى (هيلتـون النيل) كـان يرتدى سالوبيت (عفريتة) . وكان صوته مليئا مرتجفا ويغنى فى سهولة دون أن تظهر على وجـهه أية مـحـاولات الغناء وكان أزنافور سائق تاكسى . وشـاء الحظ أن يركب معه أحد المذيعين الفرنسين . سمعه يغنى . فاستوقفه وسأله : أغنية من؟

ـ أغنيتى !

ـ أقصد لحن من؟

ـ لحنى !

ـ أقصد كلام من؟

ـ كلامى !

وأخذه إلى الأستـوديو . . وابتدأت شـهـرة مطرب وشـاعـر ومـوسـيـقـار أرمنى مجهول . . لقد صار أشهر من بلدياته الموسيقار خاتشا دوريان !

سألت أزنافور : ما هو الغناء؟

قال : هو فن تنظيم النفس . . ولذلك ففى المعاهد الموسيقية يعلمون الطلبة كيف يهبطون تحت الماء ويحبسون أنفاسهم مدة طويلة . مهم جدا أن يخرج الهواء من

فرد عليه كيرك دوجلاس بسرعة: آه ولكنى لم أكن مخلصا لزوجات أصدقائى.. هاها.. هاها..

أما المطرب الأسبانى خوليو أجلسياس فقد سمعته يغنى فى بيت الرئيس السادات.. وهو مطرب المطربين ونجم نجوم الطرب فى العالم اللاتينى. وكان وسيما وله ابتسامة حلوة. وإذا ضحك انتقل الضحك إلى كل شيء فى وجهه فى يديه فى الدنيا حوله.. غنى وقلت له: الله يا خوليو..

ثم حاول أن يغنى لأم كلثوم فقلت: بلاش يا خوليو!

* * *

وعندما جاء المطرب الفرنسى الأرمنى أزنافور وغنى فى (هيلتون النيل) كان يرتدى سالوبيت (عفريتة). وكان صوته مليئا مرتجفا ويغنى فى سهولة دون أن تظهر على وجهه أية محاولات الغناء وكان أزنافور سائق تاكسى. وشاء الحظ أن يركب معه أحد المذيعين الفرنسين. سمعه يغنى. فاستوقفه وسأله: أغنية من؟

ـ أغنيتى!

ـ أقصد لحن من؟

ـ لحنى!

ـ أقصد كلام من؟

ـ كلامى!

وأخذه إلى الأستوديو.. وابتدأت شهرة مطرب وشاعر وموسيقار أرمنى مجهول.. لقد صار أشهر من بلدياته الموسيقار خاتشا دوريان!

سألت أزنافور: ما هو الغناء؟

قال: هو فن تنظيم النفس.. ولذلك ففى المعاهد الموسيقية يعلمون الطلبة كيف يهبطون تحت الماء ويحبسون أنفاسهم مدة طويلة. مهم جدا أن يخرج الهواء من

حلق المطرب بحساب . وكثير من المطربين يخرجون الهواء من صدورهم بسرعة ولذلك يلهثون . ولكن المطرب المدرب يخرجه بحساب . .

ـ هل لديك نصائح لأى مطرب شاب؟

ـ أن يكون دائما شابًا فى صحة جيدة وأنه قليل التجربة . ولذلك لابد أن يتواضع وأن يثابر ويصبر طويلا دون غرور . وسوف يكون له ما يريد بعد ذلك . حتى لو لم يكن صوته جميلا . فأكثر الملحنين ليست أصواتهم جميلة ولكنهم قادرون على الأداء . .

ـ من أول واحد نصحك؟

ـ صديق يدخن مائة سيجارة فى اليوم . قال لى : تريد أن تفشل من أول أغنية : اعمل مثلى . . دخن ليلا ونهارا حتى ينقطع نفسك ويهرب منك كل المستمعين!

ـ وماذا فعلت؟

ـ بالضبط كما قال لى . . لم أدخن سيجارة واحدة ولا أرهقت نفسى . وإنما أستعد للغناء فى كل مرة كأننى شاب مبتدئ وفى امتحان صعب . . فليس كل الذين يستمعون إليك يعطفون عليك . . وليسوا كلهم على استعداد لإيجاد عذر لك إذا فشلت ثم إن بينهم أناسا لم يسمعوك من قبل . ويجب أن يحرص المطرب على الجميع .

ـ ولم تخرج عن هذه القاعدة لأى سبب؟

ـ أبدا . . إن جدتى كانت تسألنى ما الذى تأكله أو تتعاطاه من الفيتامينات قبل الغناء . وكنت أقول لها وأداعبها وهى لا تفهم ما أقول : أتعاطى حبوب الجوع والعطش . . أى لا آكل ولا أشرب إلا بعد أن أفرغ من الغناء . . وقد عرفت عن المطربة (إديت بياف) صديقة الأديب كوكتو . . إنها كانت تجوع أياما قبل أن تغنى . فإذا فرغت من الغناء تظل تأكل وتشرب حتى تسقط نائمة أياما!

عندما غنى الأستاذ العقاد:
يا عزيز عينى!

لأسباب خاصة هزتنى هذه الأغنية: أوه كارول. سمعتها فى جزيرة هاواى سنة ١٩٥٩. لا أعرف اسم المطربة ولا الملحن. ولكن جاءت هذه الأغنية فى جو شاعرى سحرى.. فالجو هو الذى جعلنى أحب الأغنية التى تبوس القدم وتبدى الندم على أن كارول سوف يتركها.. وإنه إذا تركها فسوف تموت.. أى إذا ترك هذا الجو الذى تتردد فيه أصداء وأضواء ودموع هذه الأغنية..

دعنى أصف لك الجو: فى مدينة هونولولو.. على المحيط الهادى.. والقمر يصب الفضة أمواجا ناعمة وهمسا ولمسا على الشاطئ الأحمر فى لون المانجو.. وعلى الشاطئ مشاعل كأنها تضىء للصمت الطريق إلى كل مكان.. أما الضوء فقد تولاه القمر.. وأما السحر والشجر والشجن فمتروك لكى تختار وتشرب وتمتلئ كما تريد، فلا خوف من التخمة.. فالقلب لا يمتلئ. أوه كارول.. يا من لا أعرفه ولكن أشعر بعذاب المحبوبة التى تتعلق منك كما تتعلق الأرض بجدائل القمر!

وأغنية أخرى هى: راح.. راح.. خد قلبى وراح.. عقلى وراح.. كل شىء أخذه ولم يرح وإنما استقر على عرش مصر.

فقد كانت أول أغنية سمعتها فى الشارع بعد لحظات من قرار الرئيس عبد الناصر

بفصلى من عملى رئيسا لتحرير مجلة (الجيل) ومدرسا للفلسفة بآداب عين شمس . . الأغنية جميلة اللحن والأداء والكلمات ، ولكن المناسبة تصد الإنسان وتفقده القدرة على أن يتذوق الطعام والكلام ولا يريحك إلا أن تتمنى أن ترى فيه يوما . . كما عجل بيومك وهرب نومك وبدد قوتك!

وذهبت الأحزان . . وكنت أغنى لنفسى : أوه كارول . . راح أخذ قلبى وترك لى عقلى أفكر فى هذه الخسارة . وأقول إن ذهب كارول فهناك ألف كارول فى كل مكان . . وضياع واحد ليس معناه ضياع كل الناس ولا الحياة ولا الكون .

أوه كارول . . الله لا يرجعك يا كارول!

* * *

واكتشفت فيما بعد بوقت طويل أننى لم أكن جادا فى أن أكون مطربا . . مهما غنيت فى المدرسة وأمام زملائى وحتى عندما ذهبت لمحمد عبد الوهاب لعله يسمع صوتى . . والحقيقة أننى معجب بمحمد عبد الوهاب ولكن لا أحبه . . فهو رجل ليست له مشاعر . . لاتنفذ منه المشاعر ذهابا وإيابا . وإنما هو رجل من الصلب . . وكنت أقول لعبد الوهاب : أنت كالعملة الفضية خليط من الفضة والنحاس . . الفضة لتجعل النحاس لامعا ، والنحاس يجعل الفضة لا تتآكل . . فعبد الوهاب التاجر هو الذى أنقذ عبد الوهاب الفنان . . ولكنى أحب عبارته السهلة وانتقاله البارع من جملة إلى جملة ومن طبقة إلى طبقة . . إنه طائر رشيق الحركة . وأجنحته هى مفردات عباراته الجميلة . وكنت أمنى نفسى يوما من الأيام أن تكون لى مثل عبارته السهلة عندما أعرض الفلسفة وأشرح قضاياها المعقدة . .

وقد وجدت أن العقاد لا يحب عبد الوهاب ، ربما لسبب آخر هو أن العقاد صعب العبارة وعبد الوهاب سهل الأداء والتغنى والتثنى .

وكنت حريصا على أدباء كبار عندهم نفس السهولة : طه حسين والحكيم . . وزكى نجيب محمود إذا ترجم . .

وفى اللغة الإيطالية : البرتو مورافيا وكورتسيوا ملبارته . . وفى اللغة

بفصلى من عملى رئيسا لتحرير مجلة (الجيل) ومدرسا للفلسفة بآداب عين شمس . . الأغنية جميلة اللحن والأداء والكلمات ، ولكن المناسبة تصد الإنسان وتفقده القدرة على أن يتذوق الطعام والكلام ولا يريحك إلا أن تتمنى أن ترى فيه يوما . . كما عجل بيومك وهرب نومك وبدد قوتك !

وذهبت الأحزان . . وكنت أغنى لنفسى : أوه كارول . . راح أخذ قلبى وترك لى عقلى أفكر فى هذه الخسارة . وأقول إن ذهب كارول فهناك ألف كارول فى كل مكان . . وضياع واحد ليس معناه ضياع كل الناس ولا الحياة ولا الكون .

أوه كارول . . الله لا يرجعك يا كارول !

❊ ❊ ❊

واكتشفت فيما بعد بوقت طويل أننى لم أكن جادا فى أن أكون مطربا . . مهما غنيت فى المدرسة وأمام زملائى وحتى عندما ذهبت لمحمد عبد الوهاب لعله يسمع صوتى . . والحقيقة أننى معجب بمحمد عبد الوهاب ولكن لا أحبه . . فهو رجل ليست له مشاعر . . لاتنفذ منه المشاعر ذهابا وإيابا . وإنما هو رجل من الصلب . . وكنت أقول لعبد الوهاب : أنت كالعملة الفضية خليط من الفضة والنحاس . . الفضة لتجعل النحاس لامعا ، والنحاس يجعل الفضة لا تتآكل . . فعبد الوهاب التاجر هو الذى أنقذ عبد الوهاب الفنان . . ولكنى أحب عبارته السهلة وانتقاله البارع من جملة إلى جملة ومن طبقة إلى طبقة . . إنه طائر رشيق الحركة . وأجنحته هى مفردات عباراته الجميلة . وكنت أمنى نفسى يوما من الأيام أن تكون لى مثل عبارته السهلة عندما أعرض الفلسفة وأشرح قضاياها المعقدة . .

وقد وجدت أن العقاد لا يحب عبد الوهاب ، ربما لسبب آخر هو أن العقاد صعب العبارة وعبد الوهاب سهل الأداء والتغنى والتثنى .

وكنت حريصا على أدباء كبار عندهم نفس السهولة : طه حسين والحكيم . . وزكى نجيب محمود إذا ترجم . .

وفى اللغة الإيطالية : البرتو مورافيا وكورتسيوا ملبارته . . وفى اللغة

الإنجليزية: أرثر كيستلر.. والمؤرخ الأمريكى العظيم ول ديورانت.. وفى اللغة الألمانية: ديرنمات وماكس فريش والفيلسوفان: نيتشه وشوبنهور.. والفيلسوف الدنماركى: كير كجور.. والفلاسفة الفرنسيون: سارتر وكامى ومارسيل وبرجسون والأديبان الفرنسيان: ألان وأندريه موروا.. وكثيرا ما وصفت نفسى بأن أصابعى مثل ديدان القز التى تفرز حريرا من المعانى والعبارات السهلة.. ووصفت نفسى أيضا بأننى أقوم (بتشييئ) المعانى: أى بجعل المعانى مهما كانت صعبة (شيئا) ملموسا.. وطبيعى جدا أن يبهرنى محمد عبد الوهاب الصنايعى!

ولذلك عندما كنت أدرس الفلسفة فى الجامعة كان أكثر تلامذتى من أقسام أخرى غير قسم الفلسفة لسهولة عبارتى ووضوح فكرتى وحرصى المستمر على ذلك.. فقد أستعين على ذلك بالحكايات والنكت ولا أمل الشرح والتكرار ـ فأنا أريد أن أجعل كل شيء واضحا لى لكى أستطيع التعبير عنه.. فأكون مفهوما لدى أقل الناس ثقافة..

ويوم هاجم الأستاذ العقاد الموسيقار محمد عبد الوهاب دافعت عن ثقافة عبدالوهاب الموسيقية.. وعن السهل الممتنع الذى يكتب به موسيقاه ويشدو به..

وعندما هاجمه الأستاذ العقاد وقال إن عبد الوهاب صنايعى ولكن ليس فنانا عندما ينتقل من الفرح والحزن، فهو يلجأ إلى حيلة ميكانيكية بسيطة، فالأغنية التى يؤديها بسرعة مفرحة، وإذا غناها ببطء جاءت حزينة.. ويومها فوجئنا بالأستاذ العقاد يغنى واقفا ويقول: يا عزيز عينى وأنا بدى أروح بلدى.. سوف أجعلها مفرحة حين أغنيها بسرعة.. ثم غناها.. وقال سوف أجعلها حزينة شجية وغناها ببطء.. وقال: بل إن عبد الوهاب يعجز عن ذلك كثيرا جدا. فأغانيه كلها حزينة وهو غير قادر على الضحك أو الفرحة. ولذلك نجد الموسيقى جنائزية فى زفاف العروسين.. وإذا مشى فى جنازة ميت كانت موسيقاه سريعة مرحة!

وكان تعليق عبد الوهاب على ما قاله الأستاذ العقاد: أنه قد تضايق جدا لأننى لم ألحن قصائده للمطربة نادرة!

وقالت لى أم كلثوم : عبد الوهاب غلطان فالقصيدة حلوة . ولكن عبد الوهاب لا يحب نادرة!

وسألت نادرة فقالت : إن عبد الوهاب كان يريد أن يلحن القصيدة . ولكنه تضايق عندما طلب منه العقاد أن يسمعها أولا قبل أن أسمعها أنا؟!

* * *

والأديب الوحيد الذى سمعته يغنى غناء المحترفين . ويعزف على العود وينظر فى عيون مستمعيه وينتظر ردهم وتجاوبهم معه هو : إبراهيم زكى خورشيد . فقد كان يسكن فى الشقة المواجهة للفنان صلاح طاهر وفى نفس البيت الذى يسكنه أستاذ أساتذة الجغرافيا وبلدياتى الدكتور محمد عوض محمد . وكان إبراهيم خورشيد بصوته الخش الأجش يغنى على القاعدة . أى يغنى بالضبط وفقا للسلم الموسيقى والطبقات . . وكانت تنقلاته وحركاته وصعوده وهبوطه كأنه (روبوت) يتحرك بدقة وشدة وليس بانسياب . . والفرق بين صوت إبراهيم خورشيد وصوت عبد الوهاب . كالفرق بين مشية إحدى مدرسات الألعاب الرياضية وراقصات الباليه . . فالمدرسة تمشى صح وراقصة الباليه تطير ولاتمشى!

وفى بيت صلاح طاهر سمعت صوت إبراهيم الحجار . وكان صوته جميلا . ياسلام عندما يغنى : أنا هويت وانتهيت . . أو يا جارة الوادى لعبد الوهاب . . أو ياللى كان يشجيك أنينى لأم كلثوم . .

وفى يوم طلب منى إبراهيم خورشيد أن أرافقه . وذهبت إلى حيث لا أعلم . فهو أديب وصديق وهو أحد الذين ترجموا (دائرة المعارف الإسلامية) . . مع عبد الحميد يونس والشنتناوى . ونشرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر التى يملكها الأستاذ الكبير أحمد أمين . . ولم أجد سببا لأن أسأله أين . . فالمتعة مضمونة . إذا رأيت أو سمعت أو هو حدثنى عن تاريخ الغناء العربى . ومن ميدان العتبة اتجهنا إلى شارع محمد على . ولا أذكر أن شيئا قد بهرنى وسحرنى واستولى علىّ كالذى رأيته وتمنيته فى شارع محمد على . أى أناس هؤلاء؟ أيه تلقائية أى صدق . . أى

جمال. الله على بساطة الناس. الله على صدقهم. الله على حبهم لأنفسهم وللناس من كل لون وسن ودين وطبقة. إن الفن قد حقق العدل بلطف ورقة بينهم جميعا. فى استطاعتهم ألا يتكلموا وإنما أن يشيروا بالعين إلى أى شىء فيكون حاضرا. إنهم ينظرون بعضهم إلى بعض وهذا يكفى. . وكانت تجلس وسطنا وأمامنا كتلة من اللحم الأشقر وخفة الدم. ونحن حولها. ووجدت إبراهيم خورشيد يقبلها هنا وهنا وهناك. . وكان يوزع قبلاته بالعدل من رأسها وخديها ويديها. ونظرت بعينها فجاءت الترابيزة ونظرت بعينها الأخرى فجاءت الأكواب. . وبيدها فجاء العود. وبيدها الأخرى فالتف حولها عدد من الفتيات والرجال العواجيز: ويا صلاة الزين يا صلاة الزين على (أنيس) يا صلاة الزين. .

ولما ضحكت واندهشت وجدت إبراهيم خورشيد يقول: أنيس شايل هرمين على أكتافه يقفوا جبلين. . يا صلاة الزين. . يا صلاة الزين. لا والنبى يا عبده. وأنا نازلة أدلع أملا القلل. . رق الحبيب وواعدنى يوم. . والنوم يداعب عيون حبيبى. .

كأن إبراهيم خورشيد ألقى بى فى بحيرة من الشمبانيا ولما أخرجت رأسى وجدت سحابا أزرق دوخنى وغبت عن الوجود. . وأيه هذا الوجود. . كلام فارغ وسخيف. وإنما هذا هو الوجود: طرب وبساطة وحماس وجدعنة. . ومساواة. . ولا فوارق بين الناس. وكلنا رعايا دولة سلطانها: الطرب!

* * *

ولم يحدث فى تاريخ الغناء مظاهرة فنية أدبية سياسية أخلاقية دينية كما حدث يوم غنت فايزة أحمد (يا امه القمر ع الباب) من شعر مرسى جميل عزيز ولحن محمد الموجى. . فالأغنية جميلة محترمة الكلام والأداء. وليس فيها أى نوع من الابتذال هى حكاية بنت جاءها عريس واقف على الباب وتسأل تفتح له الباب أو لاتفتح الباب.

وكان من أكثر الناس دفاعا عن أدب الأغنية ولحنها وحلاوتها: أستاذنا

العقاد . . لقد رأى فيها قمة الشعر الشعبى ، وإن كان هو يعترض على كلمة (الشعبى) . فنحن نقول عن أشياء كثيرة غير محترمة إنها (شعبية) . . والعقاد يرى أن الشعبى هو الذى له علاقة بكل الشعب ويحبه كل الشعب . فكل مايهم الناس هو شعبى : شعر فصيح أو شعر شعبى .

ويرى أن كلمة الشعبى ليس معناها الشىء المحبوب فقط . . وإنما كل شىء ليس محبوبا أيضا . فنقول فلان له شعبية لأنه طيب ولكن نقول فلان مجرم شعبى ؛ أى أن الشعب يراه كذلك لأنه يعتدى على الشعب !

وسألت طه حسين عن أغنية «يا امه القمرع الباب» فكان من رأيه أنها جميلة الجميلات . جميلة الصوت واللحن والموسيقى والكلام . وليس فيها ما يخدش الحياء . . وإنما هى تخدش حياء الذين لا يعرفون الحياء ولايتذوقون الجمال والبساطة !

* * *

وفى اجتماع (آخر ساعة) التى كنت رئيسا لتحريرها . قفز أحد الزملاء واقترح موضوعا عن شخصية مهمة جدا وسوف يكون لها مستقبل ، إن لم يكن لها حاضر عظيم . وقال : عدوية . . ولم أكن فى ذلك الوقت من سنة ١٩٧٠ قد سمعت عن مطرب جماهيرى اسمه عدوية . . أحمد عدوية . ولكن الزميل والناقد الفنى ثروت فهمى أصر على أن عدوية هو أكثر المطربين شعبية وجماهيرية . وضحك المحررون الذين يعرفون عدوية . . ولكنى لم أفهم لماذا ضحكوا . وأصر ثروت فهمى على موقفه ورأيه . . ووافقت . وكانت لأحمد عدوية أغنيات تتردد أصداؤها فى كل الكباريهات واللوريات والأتوبيسات : زحمة يادنيا زحمة . . وسلامتها أم حسن . وحبه فوق وحبه تحت . . واستمعت إلى عدوية . وأعجبنى صوته المميز والبحة التى فى صوته وأداؤه السهل . وقلت بعدها : إنه أسلم الأصوات العربية وأقواها . . إذ كيف يستطيع أحمد عدوية أن يغنى فى الكباريهات وسط الدخان الكثيف والحرارة الشديدة والكأس فى يد والسيجارة فى يد وينتقل من المكان الدافئ إلى الشارع

البارد ليدخل مكانا أكثر حرارة ويبقى صوته هكذا سليما قويا وكل يوم ومن سنوات!!

والنساء والرجال يغرقونه بالدولارات والريالات.. طبعا كان يغنى لكبار الملحنين منولوجات مضحكة. وهذا طبيعى. لأنه لا يستطيع أن يغنى فى الكباريهات: ولد الهدى وإنما هو يحاول أن يصرف الناس عن الكلام ودوشة الكاسات والشيشة إلى أغنيات تبعث على الضحك.. وقلت فى التليفزيون: إنه أسلم الأصوات وأقواها.

وقابلنى محمد عبد الوهاب وقال لى: أنا من رأيك. ولكن لا أستطيع أن أقول ذلك فأغضب كل الأصوات. ولكنه صوت متميز لاشك فى ذلك!

وفى ليلة زفاف الزميلة بهية حسن سكرتيرة تحرير (آخر ساعة). جاء أحمد عدوية. وصفق له المحررون طويلا.

ووقف عدوية يسألهم: عاوزين أغنى لكم أيه؟

فطلبوا جميعا أن يغنى لهم إعلان: خضر العطار!

كنا نغنى
وعبد الحليم حافظ يقول لنا :
الله الله!

نحن جميعا مطربون وعراة فى الحمام. وبعضنا يخرج من الحمام ويتغطى بأوراق التوت . . أكثرها على حنجرته . وبعضنا يرتاد بقية غرف البيت وأمام البيت وفى الشارع وفى الحفلات العامة . . وقد شجعنى على الغناء وأنا صغير ، أن صوتى كان جميلا فى الغناء وفى ترتيل القرآن. هكذا قالوا . .

وكذلك كان خالى ـ جميل الصوت والصورة وكنت أتعلق بملابسه ذهابا وإيابا دائما. وكانت لى خالة جميلة الصورة والصوت وكنت أسمعها تغنى لصديقاتها ويطلبن منها أن تعيد وتزيد . .

وكنت أتسلل إلى حظائر الماشية أستمع إلى صوت الفلاحين . . الصوت سليم والشجن عميق . وكنت أجد أحد الصبيان فى مثل سنى يردد كل أنواع الأغانى . . فاطلب إليه أن يغنى . . ومن الغريب أننى كنت أسمعه من البلكونة . لماذا؟ لم أفهم فى ذلك الوقت. وكان أبى يلاحظ ذلك ويضحك . ولما قيل لى لماذا أستمع إليه من فوق ما عرفت أنا السبب . . هل بداية هذه العادة الغريبة إنه عندما كان يغنى أول مرة كان مزكوما؟ . هل لأن صوته يكون أفضل عندما أسمعه من بعيد . . لا هو اعترض ولا أنا فهمت !

وفى المدرسة الثانوية كان يشجعنى زملائى على أن أغنى وحدى . . ثم علنا لكل المدرسة . فهل كان صوتى جميلا حقا؟ أو أننى تورطت . . أو أننى اعتدت على أن أكون فى وضع متميز . . فقد كنت أول المدرسة فى جميع المراحل كما كنت أول قسم الفلسفة بكلية الآداب . ولكننى لست جريئا وإنما خجول جدا . فهل هذا هو السبب فى أننى عندما أغنى أغمض عينى ، حتى لا أرى أحدا كأننى مازلت فى الحمام أغنى لنفسى .

وكان زميلى فى مدرسة المنصورة الثانوية جمال الدين أبورية من أجمل الأصوات التى سمعتها فى حياتى . ولكن جمال أبورية أصبح من المشاركين فى أدب الأطفال . . وقد فوجئت به فى كلية الآداب جامعة القاهرة قسم اللغة العربية . وكنت أطلب إليه أن يغنى فى المدرج ٧٨ أو ٧٤ . . هو يغنى وأنا أجلس على آخر مقعد فى المدرج . . وكان صوته بديعا وكان شجيا قويا . . الله يجمال الله . . وكان جمال أبورية يغنى لمحمد عبد الوهاب فقط ، فلم يكن عبد الحليم حافظ قد ظهر بعد . .

وأول مرة أسمع عن عبد الحليم حافظ كان من الزميلة آمال فهمى فى مكتب السيدة صفية المهندس . فقد سمعتها تتحدث عن أغنيتى : صافينى مرة . . ويا أبو قلب خالى . وسمعت عبد الحليم حافظ وأعجبنى تماما . ولكنى انشغلت بالصحافة عن متابعة ماذا طرأ على هذا المطرب الجديد . .

وآمال فهمى الإذاعية القديمة هى الأخر ى كانت تغنى لأم كلثوم فى حفلات كلية الآداب . . ولابد أنها كانت تغنى فى المدرسة . فقد كانت عندها الشجاعة ـ كما كانت عند جمال أبورية ـ فى مواجهة الناس . ولم آسف على أن أحدا لم يكمل الغناء مثل أسفى على جمال أبورية . لم يلتفت أحد إليه . . أو أن أحدا قد التفت عندما كان جمال أبورية قد قرر أن يكتب للأطفال . ولم يكن فى استطاعة أحد منا ـ فنحن صغار ـ أن يحدد مساره إلى الطرب . . وعندما كنت رئيسا لمجلس إدارة دار المعارف أصدرت له مجلة للأطفال ، ولكن لأسباب نسيتها لم تنجح هذه المجلة . واختفى جمال أبورية ولا أعرف أين . . ثم توفاه الله . .

وانشغلت تماما بمستقبلى الصحفى والأدبى . . وعملت مدرسا للفلسفة فى كلية آداب عين شمس . . ولا أظن أننى كنت أغنى حتى لنفسى . . فقد استغرقنى البحث الطويل أن يكون لى مستقبل ما . .

ولما تركت (الأهرام) سنة ١٩٥٠ للعمل فى (أخبار اليوم) التقيت بعدد من الشبان لهم صوت جميل . ولا أعرف كيف اهتدينا بعضنا إلى بعض . . فمن الأصوات الجميلة كان الزميل صلاح هلال ـ سكرتير تحرير (آخر ساعة) وكان يغنى لأم كلثوم . وكان صوته ناعما وكان يطلب إلينا أن نغلق الباب . . ويغنى لأم كلثوم كثيرا وطويلا ونحن نقول : الله . . الله يا صلاح الله!

وكان صوت الزميل عثمان لطفى سكرتير عام التحرير للأخبار . وكان عثمان جميل الذوق فى الإخراج الصحفى . وكان جميل الصوت إذا غنى لأم كلثوم أيضا . فلا نكاد نلتقى حتى نغلق الأبواب ونستمع إلى آخر أغنيات أم كلثوم . . كيف حفظها وبهذه السرعة وبهذه الدقة . ونقول : الله يا عثمان الله . . تانى وحياتك يا عثمان . . .

ويغنى عثمان لثانى وثالث مرة . .

وكان الصديق الكبير على حمدى الجمال نائب رئيس تحرير (الأخبار) ـ والذى صار بعد ذلك رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير الأهرام ـ ملىء الصوت وكان يغنى لمحمد عبد الوهاب . وكان يقول لعبد الوهاب : لو تعرف ماذا أفعل بصوتك كل ليلة؟

وكان عبد الوهاب يقول : بتعمل أيه يا على بيه؟

ـ باغنى وأبهدل الدنيا . .

ـ سمعنى؟

ـ أنا أسمعك . . أنا لا أستطيع وإنما عندى ضحايا آخرون . . هاها . . هاها . .

وكان على حمدى الجمال صاحب ضحكة مجلجلة . تدل على الصراحة وتأكيد الذات . . ولم يكن كذلك عندما يغنى!

وكـان كـامل الشناوى الشـاعر الكبيـر والصديق النبيل يطلق علينا اسم (فرقـة البلابل الموسيقية). ولا أذكر الآن إن كان الزميل الكبير سعيد سنبل واحدا من هذه الفرقة. ولا أذكر إن كان مستمعا أو مطربا. وقد حاول الزميل الكبير كمال الملاخ أن يغنى. ولكن لا أظن أنه كان يغنى علنا. وإنما كنت ضحيته الوحيد دائما. فقد كان يغنى وكنت أستمع إليه وأنا أكتب. وكان يضايقه ألا أتفرغ لسماعه. وكان يضايقنى أكثر أن أجدنى مضطرا إلى ذلك!

* * *

فى هذا الجو الشبابى المسحور الغامض ظهر عبد الحليم حافظ.. هو الآخر شاب.. وقد دخل بيننا عبد الحليم حافظ وسمعنا ونحن نغنى. وكان يقول: الله.. الله..

وكنا نشجع عبد الحليم حافظ فننشر له صورا وأخبارا. ولا أذكر أن عبد الحليم حافظ غنى لنا مرة واحدة. وإنما نحن الذين نغنى وهو ـ يا ولداه ـ مضطر أن يستمع إلينا..

وأول مرة سمعنا أغنية عبد الحليم حافظ (على قد الشوق) ـ موسى صبرى وعبدالحميد يونس وكامل الشناوى وحمدى فؤاد وكمال الملاخ وسعيد سنبل ـ فى أحد الكباريهات. وكان يغنيها مطرب ليس معروفا الآن هو محمد المصرى أو أحمد المصرى؟ والأغنية من تلحين الموسيقار كمال الطويل. وقد كنا نرددها قبل أن يغنيها عبد الحليم فى أعياد ثورة ١٩٥٢. وكانت هذه الأغنية هى الصاروخ الذى رفع عبالحليم حافظ إلى مدار فوق.. فوق. وكانت هذه الأغنية إعلانا رسميا بأنه مطرب جميل الصوت والأداء.. صحيح أن محمد الموجى هو أول من لحن له أغنيتين جميلتين فى غاية الأسى والشجن هما: يا أبو قلب خالى.. وصافينى مرة..

* * *

وفى يوم طلب منا كامل الشناوى أن نرتدى بدلا كاملة وخصوصا الكرافتة. ولم يقل لنا ما السبب وما المناسبة. وكان هذا حالنا مع كامل الشناوى. أن نطيعه لأننا

نحبه ولأنه يحبنا وأن نهيىء أنفسنا لأية مفاجأة . فكل مفاجأة مقبولة ؛ لأن كامل الشناوى مقبول منا جميعا . مع عظيم الحب والامتنان . .

وارتدينا جميعا البدل والكرافتات ما عدا : فتحى غانم ويوسف إدريس . وغضب كامل الشناوى أو افتعل الغضب . وأمر أن ننتظرهما حتى يرتديا الكرافتة . والتقينا جميعا فى فندق حلمية بالاس ـ وكان يحتل جانبا من المكان الذى يشغله قصر الرياسة الآن . . وفى عدة سيارات تزاحمنا وسارت بنا السيارات إلى حيث لاندرى . وتوقفت السيارات أمام بيت . . لم نره من قبل . ونزلنا ونحن لا نعرف أين نحن . ولكن مع كامل الشناوى لا يهم أين نذهب وإلى من ومع من . وفوجئنا بأن الشخص المجهول الذى كان من المفروض أن نذهب إليه قد سافر . وأشار كامل الشناوى أن نركب وأن نتبعه . وذهبنا وطلعنا سلالم ودخلنا شقة متوسطة . . لقد كان بيت إحسان عبد القدوس الذى لم يستطع أن يبدى دهشته لهذه المفاجأة ولكنه هو أيضا قد اعتاد على مفاجآت كامل الشناوى، آخر الظرفاء فى تاريخ الحياة الاجتماعية والصحفية والسياسية فى مصر .

وجلس إحسان عبد القدوس يرحب بنا وأدهشه أننا نرتدى البدل الكاملة . فسأل : أنتم كنتم فين يا كامل؟

فقال كامل الشناوى : لم نكن فى أى مكان . . نحن جئنا من أجلك . . وينقصنا شيء مهم جدا لكى نبدأ الاحتفال . .

ـ احتفال أيه؟

ـ أنت مالك . . ادخل والبس الكرافتة . . ادخل بس . .

ـ ليه؟

ـ يا إحسان ادخل . . أنت فى بيتك . . هو المشوار طويل بينك وبين الكرافتة . . ادخل يا أخى . . ما تضيعش الوقت . .

ـ بس فهمنى إيه الحكاية . . أنتم ناويين على أيه . .

ـ يعنى ألبس علشان حننزل . . وإلا أنتم قاعدين فوق نفسى هنا؟! . .

ـ قاعدين!

ـ هاها . . يا سلام يا كامل أنت ما تبطلش مقالب .

ـ البس وتعال . .

المنظر العام لنا هو كالآتى : كلنا جالسون ضاحكون غير فاهمين ما الذين قد أعده أو دبره كامل الشناوى . ونحن لا نحاول أن نفهم . . ولا كامل الشناوى يحاول أن يوضح . ونحن مستسلمون تماما لأننا نعلم مقدما أن شيئا مضحكا سوف يقع بعد لحظات . وظهر إحسان عبد القدوس كامل الهيئة . وجلس ووقف كامل الشناوى . وأخرج علبة السجائر وأشعل سيجارة بولاعته الذهبية وقال : الآن أعلن ميلاد المطرب الفنان عبد الحليم حافظ . .

وكان عبد الحليم حافظ يركب آخر سيارة فى هذا الموكب . . ويرافقه شاب لانعرف من هو . ووقف عبد الحليم حافظ يغنى بصوته الجميل الحزين : على قد الشوق !

* * *

هذه هى المرة الوحيدة التى عرفنا إلى أين نحن ذاهبون ومعنا عبد الحليم حافظ ، إنه بيت الراقصة المحبوبة لدينا جميعا : زينات علوى . . وهى محبوبة لأنها بنت بلد وجدعة . ولأن رقصها يسمونه (رقص الهوانم) . وقد شرحت لنا تحية كاريوكا شروط رقص الهوانم : وهى أن تقف مضمومة الساقين وأن تهتز فى مساحة صغيرة . لا أن تجرى من أول الصالة لآخرها كما تفعل سامية جمال . . ولا أن توسع ما بين ساقيها كما تفعل ناهد صبرى . .

أما أن زينات علوى بنت بلد وجدعة فأنا شاهد على ذلك . فعندما فصل الرئيس عبد الناصر كامل الشناوى وآخرين . كنت ملازما لكامل الشناوى . بل كنا ملازمين له . وفى يوم جاءت زينات علوى وكانت صديقة لكامل الشناوى وقالت له : اسمع يا كامل . . غمة وسوف تزول ولا يهمك . . بكرة يعرفوا قيمتك أنت مالكش مثيل يا كامل . . ولا يهمك . . أنت أحسن منهم كلهم . . الليلة تيجى وتتفرج وتفرفش يا كامل . . كل الشلة فى انتظارك . .

ثم أخرجت مظروفا به مبلغ من المال وأقسمت بالله والمصحف والنبى إذا رفض كامل الشناوى هذا المبلغ فسوف تلقى بنفسها من الشباك . . ورفض كامل الشناوى وفتحت هى الشباك ووقعت فوق أحد المقاعد . وبين الحيرة والخجل والامتنان وافق كامل الشناوى .

ولزينات علوى مواقف شهامة كثيرة مع بنات جنسها من الفنانات .

وكانت زينات علوى فى انتظارنا وفرقة موسيقية صغيرة . وبعض الباشوات وأعيان الخليج . . وكانت ليلة جميلة . وغنى عبد الحليم حافظ كما لم يفعل فى أى مكان . . ونحن نصرخ حوله : آه . . يا حليم . . الله يا حليم . . الله يا كامل . . شكرا يا كامل . .

ورقصت زينات علوى على موسيقى على قد الشوق اللى فى عيونى . .

* * *

وفى إحدى رحلاتنا الجامعية سمعت أستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوى يغنى معنا . . وكان حريصا على أن يكون مسموعا لنا وكنا أكثر حرصا .

وفى إحدى المحاضرات لأستاذى منصور باشا فهمى حاول أن يبين وجهة نظره بالصوت فغنى لسيد درويش . وكان موضوع المحاضرة العلاقة بين الحس (الصوت) والحس (الإحساس) وبين الحسن (الجمال) . . وكنت الطالب الوحيد لمحاضرات منصور باشا فهمى . فقد كنت طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة ولعشر سنوات . .

وكان الدكتور منصور باشا فهمى يفضل أن تكون المحاضرة فى فيللا يملكها اسمها (مورد اليمن) بالقرب من حديقة الأورمان . وكنا عندما ، نمر بها يخيل لنا أنها لواحد يتاجر فى البن اليمنى !

وسمعت أستاذنا الشيخ مصطفى عبد الرازق يتلو القرآن بصوته الجميل وكان يوضح لنا الفرق بين أداء بعض القراء المشاهير فى ذلك الوقت . وكان بارعا فى

ذلك . وكان يبين لنا أيضا عيوب القراء الذين يقلدون محمد عبد الوهاب . ثم يرتل القرآن على طريقتهم وكان صوته جميلا أيضا ! !

* * *

أما المفاجأة فهى أننى وجدت الرئيس السادات جالسا تحت شجرة فى القناطر الخيرية . وكان هادئا . ووجهه لامعا . وابتسامته تملأ وجهه . وعنده استعداد لأن يقول . وقال . ومما قاله : والله يا أنيس أنا ما كنت أحب اشتغل بالسياسة . والله أنا رجل فنان . أحب الفن وأقدره وأجد متعة فى لقاء أهل الفن والاستماع إليهم . . ولولا هموم السياسة ما رفعت عينى ولا أطبقت أذنى عنهم . فأنا فنان . . أحب الكلام الجميل والصوت الجميل . . وكنت وكنت . . حا أقول لك أيه؟

ـ كنت تغنى يا ريس .

ـ أيوه . .

ـ وفجأة انقلب جادا وقال : أمال أنت بس إلا بتغنى يا أنيس . . أنا كنت باغنى وكان من الممكن أن أكون مطربا . هاها . . هاها . .

ـ طبعا لابد أنك غنيت يا ريس لابد . .

ـ طبعا . . أيوه يا أخى غنيت وأقدر أسمعك دلوقت . .

وغنى الرئيس لسيد درويش . . وكان صوته جميلا . .

وفى مذكرات السيدة جيهات السادات التى عنوانها (سيدة من مصر) ذكرت أنه فى عيد ميلادها لم يكن معهما فلوس فاقترح عليها زوجها أنور السادات أن يقيم لها حفلا خاصا وعلى قد فلوسهما .

تقول السيدة جيهات السادات إن الرئيس غنى لها عددا من أغنيات فريد الأطرش !

يوم حصل عمر الجيزاوى على الزمالة الفخرية!

كانت أم كلثوم تكره جدا أن تجد فى الصف الأول: مصطفى أمين وعلى أمين، رغم حبها الشديد لهما، وحبهما الشديد لها. ولكن ليس عندهما أى ذوق فنى أو أدبى، ثم إنهما يبحلقان فى الناس ولا ينظرون إلى أم كلثوم، ثم يتهامسان والست عمالة تطلع وتنزل بصوتها الجميل. وعند نهاية الحفلة يذهبان إليها فى الكواليس ويقسمان ـ كاذبين ـ أن صوتها ما حصلش. وفى إحدى المرات سألتهما:

ما رأيكما فى صوتى عندما كنت أقول.. يا نايم فى العسل نوم.. قال لها مصطفى أمين: أحسست أننى فى زورق فى البندقية والزورق يتهادى والسمك يقفز من تلقاء نفسه إلى فمى..

وقال لها على أمين: بل الزورق كان هو السمك والماء شمبانيا وأنت طائر من الجنة.

وضحكت أم كلثوم فلم يكن فى أغنيتها (رجعونى عينيك) أية إشارة لا فى النوم ولا السمك. ولكنهما كانا جالسين فى الصف الأول والحقيقة فى الصف الأخير.. أو أنهما لم يكونا هناك!

وهذه الأغنية وهى أولى أغنيات عبد الوهاب لأم كلثوم. وكان حدثا فنيا عظيما

وقد سمعتها أكثر من مرة . . مرة أثناء البروفات ومرة فى بيت الصديق المحامى مجدى العمروسى . . ولما سألتنى أم كلثوم وكنت أسكن إلى جوارها فى الزمالك فقلت لها : أروع وأجمل ما سمعت . . فكان ردها : أيوه صحيح أنت قلت كده لعبد الوهاب . .

وطلبت منى أن أحضر تسجيلها على شريط وذهبت . وكانت أم كلثوم متوترة وحاولت أن تهدئ نفسها بالنعناع والينسون والنكت . فلما حانت لحظة التسجيل تغيرت ملامحها واضطرب الموسيقيون حولها ، وما إن بدأت تطلع بصوتها الجميل وتمضى فى الأغنية حتى استقر الموسيقيون ومهندسو التسجيل . وطلبت تعديل كلمة أو كلمتين . . وكانت فى كل مرة تبدأ من أول الأغنية .

فى اليوم الثانى سألتنى : أين كنت؟

فقلت : والله يا ست إن الفنانين قالوا لى إن أم كلثوم بعد أن تفرغ من الأغنية تريد أن تعود إلى بيتها مباشرة وألا يكلمها أحد عن هذه الأغنية وما فيها من عيوب فى الأداء أو التسجيل إلا بعدها بيوم .

- وقالوا لك أيه؟

- قالوا لى إنها كاملة الأوصاف رائعة الأداء ليس فيها عيب من أى نوع!

- أريدهم أن يحذفوا جملة كررتها أربع مرات وأنا أفضل المرة الثالثة . .

- والله لم ألاحظ إلا الجمال والروعة والسحر ياست!

- تيجى نضحك . . أطلب لك مصطفى أمين وعلى أمين وأسألهما عن الأغنية . .

وفعلا طلبتهما ، وبادرها مصطفى أمين وقال لها : إن المقطوعة الأخيرة سرق عبد الوهاب لحنها من ألمظ من تلحين عبده الحامولى ولكنك تفوقت على الجميع . .

وسألت على أمين فقال لها : يقولون إن المقطوعة الأولى كانت من تلحين شاب مغمور وعبد الوهاب سرقها!

وضحكت أم كلثوم. فهذا مقلب من كامل الشناوى.. فلا علاقة للأغنية لابألمظ ولا عبده الحامولى..

ووعدت أم كلثوم أن تضع على باب المسرح الذى سوف تغنى فيه:

ممنوع دخول الصم والبكم والأخوين مصطفى أمين وعلى أمين. ها.. ها..

* * *

وكانت لعبد الحليم حافظ أغنية من تلحين محمد عبد الوهاب ناقصة كلمة أو كلمتين. وكنا نسمع التسجيل وننتظر عبد الحليم أن يكملها بصوته.. هيه.. يا سلام.. هكذا كنا نقول.. فقد كان عبد الحليم يقول بالضبط المساحة الناقصة ونصفق مع أنه طبيعى جدا أن يستطيع ذلك عبد الحليم حافظ فقد تدرب عليها وحفظها.. إنها أغنية كفاية نورك على.. وكان عبد الحليم ومصطفى أمين وكمال الطويل ومجدى العمروسى وكامل الشناوى وسعاد حسنى وشادية كلهم يلعبون (الكومى). وكان عبد الحليم حافظ حريفا تماما.. وكان يكسب فى كل مرة. فإذا كسب تعالت الأصوات: هذه المرة صدفة.. إنه حظ عوالم ولكن المرات القادمة سوف ترى العجب. ويلعب عبد الحليم حافظ ويكسب. ويقال له نفس الكلام..

وكان كامل الشناوى يشكو لطوب الأرض من حظ المطربين فى الكوتشينة.. ففريد الأطرش يكسب فى الطاولة عندما يلاعبه الناقد الفنى جليل البندارى. وجليل البندارى رجل عصبى ويشتم ويستخدم ألفاظا من الصعب نشرها. وكان مقبولا منه هذا الكلام القبيح..

وكان عازف الكمان أحمد الحفناوى إذا لعب البوكر أوالكونكان فهو الكسبان دائما. وواحد آخر كان إذا جلس فإنه لا ينطق بكلمة واحدة ولكنه هو الذى يكتسح فى النهاية. وكان اسمه حنفى حجازى وهو الحارس الخاص لحفنى باشا محمود.

* * *

وكان الملحن منير مراد أخو ليلى مراد، يقطع الصمت أثناء وبعد لعب الكوتشينة

بقوله: والآن تسمعون أعظم عازف للعود فى تاريخ الموسيقى العربية: فريد الأطرش!

وبعد أن يسمعوا لفريد الأطرش صاحب البيت الذى يلعبون ويأكلون ويشربون فيه كل ليلة تدور مناقشة: هل هو فريد الأطرش أو هو رياض السنباطى الذى أراد أن يدخل معهد الموسيقى وكان ضعيف النظر فجعلوه أستاذا للعزف على العود.. فلم تعرف الموسيقى العربية أحدا فى براعة السنباطى.

ـ لا عرفت فريد الأطرش..

ـ لا رياض..

ـ لا فريد..

ـ لا رياض..

ويغضب فريد ويأوى إلى أحد غرف بيته وينفض الحاضرون.

لأن فريد قد زعل. ولأنه لا يصح بعد أن أكلوا وشربوا ألا يجاملوه ثم يتفرقون ويخرجون ويلومون بعضهم البعض على هذه الجليطة.. وكان فريد الأطرش طيبا ويمكن أن تقول ساذجا. فعندما أصبحت رئيسا لمجلة الجيل سنة ١٩٦٠ دعانى فريد الأطرش لكى نتعارف.

واعترض أحمد رجب وكان نائبا لى فى رياسة التحرير.

وقال لى: لا تذهب أنت لا تعرفه سوف يفضحك فى كل مكان. لا تذهب..

وذهبت لكى أعرف فريد الأطرش وأجلس وأستمع. ومن عادة فريد الأطرش أن يملأ بيتة بالجميلات من لبنان وسوريا ومصر.. ففى كل وقت نجد عنده جميلات. وقال لى فريد الأطرش:

إنها عزومة على شرفك تحب تاكل أيه؟

ـ سمك..

ـ نوعه؟

ـ أى نوع . .

ـ مطبوخ إزاى؟

ـ لايهم . .

ـ مع السمك؟

ـ عرائس البحر . .

ـ أه . . هاها . .

وذهبت ووجدت ما توقعت . . مائدة كبيرة وكل من يجلس حولى البنات الجميلات . . وفريد وأنا فقط ، وكلام حلو . وهزار وغناء ورقص وفجأة وكأن فريد الأطرش قد تذكر الهدف من هذه الوليمة فقال لى : تعرف يا سعادة البيه إن الصحفيين يجيئون إلى هنا ويأكلون ويشربون ثم يشتمونني بعد ذلك!!

يعنى ما دمت قد أكلت وشربت فكيف لا أمدحه بعد ذلك ـ الله يخيبك يا فريد ويا شماتة أحمد رجب! ولكنه إنسان طيب وكريم مع كل الناس وبعد أن فصلنى الرئيس عبد الناصر من رياسة تحرير مجلة (الجيل) ومن تدريس الفلسفة فى الجامعة ذهبنا إلى الإسكندرية وفى الطريق سألنى الإذاعى جلال معوض إن كنت قد راهنت فى سباق الخيل .

فقلت : أبدا!

ففرح الاثنان فى نفس واحد : إذن العب لى . .

ـ اختر لى . . ولم أفهم . ولكن عندما ذهبنا إلى أرض سباق الخيل قال لى فريد الأطرش : ماذا تختار . .

ـ لا أعرف . .

ـ هذا هو المطلوب . .

ـ تختار هذا أو هذه أو تختار الاثنين معا . أنت وحدك الذى تقرر . .

ـ ولكنى لا أفهم .

ـ وهذا هو المطلوب .

واخترت. وانطلقت الخيول. والناس يصرخون.

وبعد دقائق صرخ فريد الأطرش واقفا: هيه. . هيه. لقد كسبت. فكان اختيارى ناجحا وكسب فى ذلك الوقت من سنة ١٩٦٢ (٥٠٠ جنيه). .

واحتفل بالغشيم الذى تفوق على كل الخبراء.

وكنت مضربا للأمثال: فأصحاب الحظ ليسوا دائما من العلماء والخبراء. . وإنما هم الذين لا يعرفون. .

وفى يوم كنا ندخل فندق سيسل بالإسكندرية ووجدنا فى مواجهتنا الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد أستاذ الجيل فالتفت كامل الشناوى إلى فريد الأطرش وقال له: تعرف يا فريد الرجل الجالس أمامنا من هو؟

فقال فريد: لا أعرف. .

وقال له كامل الشناوى: إنه لطفى السيد أستاذ الجيل. .

فصرخ فريد الأطرش: يا نهار أسود هو ده معقول. . هذا هو الرجل الذى أتوا به بدلا من أنيس منصور فى رياسة تحرير الجيل. .

ـ هاها. .

ـ هاها. .

وفى يوم داعبت فريد الأطرش وقلت له إن لى زميلا فى مجلة (الجيل) يحبك عبادة. وكانت له خطيبة تحب عبد الحليم حافظ ففسخ خطوبتها. وظهرت البهجة والسعادة على فريد الأطرش، وراح يضحك ويقفز وكلما جاءته مكالمة تليفونية حكى هذه الحكاية ورجانى فريد الأطرش أن يرى هذا الشاب العاشق الولهان لفريد الأطرش. . وذهبت إلى الزميل جمعة عبد الصبور. وقلت له إن فريد الأطرش قرأ موضوعك الأخير. وأعجبه جدا. وطلب منى أن يراك وعليك أن تنتهز هذه الفرصة وتكتب عنه ولابد أن أحفظك بعض الأغانى لفريد الأطرش وتقول إنك معجب بها، لأنه لابد أن يسألك. وكان الزميل جمعة عبد الصبور لا يعرف أغانى فريد الأطرش.

فقلت هات ورقة وقلما واكتب أسماء الأغانى الشهيرة لفريد الأطرش : من السيدة لسيدنا الحسين . . ويا أبو قلب خالى . . وأسمر يا اسمرانى . . وأحب عيشة الحرية . . حمال الأسية يا قلبى . وغيرها .

وأقام له فريد الأطرش وليمة ضخمة . وبعد أن أكل جمعة عبد الصبور وشرب حدث ما توقعته ، سأله فريد الأطرش عن الأغنيات التى يحب أن يسمعها الآن . . وأخرج جمعة عبد الصبور الورقة من جيبه وذكر له الأغانى التى لغيره من المطربين فما كان من فريد الأطرش إلا أن ألقى بالعود جانبا وقال له : أنت جاى تهزأنى . . أنت مش فاهم حاجة ولا عارف حاجة . . إيه اللى أنت جاى تقوله . . يلا أستاذ أخرج فورا !

وجاء الزميل جمعة عبد الصبور غاضبا حزينا وقلت له : لا تحزن . . اللى حدث اكتبه . . فأنت عندك موضوع من السماء . . وقل إن فريد الأطرش لا يطيق أن يسمع أغانى أحد غيره . . وأنك حاولت . . وأنت الآن لم تفشل . . فعندك حكاية اكتبها ! هاها !

* * *

وفى يوم سألتنى الإذاعة البريطانية عن أجمل وأسهل وأبسط أغنية فى تاريخ الغناء العربى .

فقلت بلا تردد : يا أبا لالا . . لفيرو . فصوت فيروز هو لمسة حرير . . لسعة نار . . ومضة . . نبضة . . موجزة جدا . . حلوة جدا . . ولكن بعد أن غنت شادية : (يا اسمرانى اللون) لا أظن أن هناك أغنية أجمل وأرق وألطف من هذه الأغنية .

فصوت شادية رقيق حنون شجى . وقد كان بليغ حمدى فى قمة البلاغة اللحنية وكان اللحن هو السهل فى الأداء الممتنع على أى أحد أن يأتى بمثله . . أحسن وأبدع من أغنية يا أبا لالا لفيروز والأخوين رحبانى . .

وفى الإذاعة البريطانية مرة أخرى قلت : إن صوت فيروز صوت بارع . .

وصوت شادية صوت قلب موجوع . . ولذلك فأغنية فيروز تدخل الدماغ وصوت شادية يدخل القلب ويبقى هناك!

وفى مناسبة إذاعية مع بلدياتى الدكتور رشاد رشدى رئيس قسم اللغة الإنجليزية والمؤلف المسرحى قال لى : شاءت المصادفة ولا أعرف كيف أن أستمع إلى الأغنيتين فى حفلة واحدة . . وفعلا أنا معك فى رأيك . فصوت فيروز مميز جدا وصوت شادية أيضا ألطف وأظرف . وأغنية شادية هى الأحلى ، لاشك فى ذلك . وقد أعجبنى تحليلك . . ولذلك عندى مفاجأة لك .

ـ ما هى؟

ـ غدا تصلك دعوة لحضور حفلة لن تستطيع الاعتذار عنها .

ـ أعتذر لك من الآن .

ـ وحياتك لن تستطيع .

ـ أؤكد لك . سوف لن تعتذر .

أؤكد لك أننى أستطيع وأنا أعتذر لك الآن .

ـ سوف نرى!

وجاءت الدعوة فى اليوم التالى لحضور حفل يشهده الرئيس السادات لتوزيع شهادة الزمالة الفخرية من أكاديمية الفنون .

طبعا لا أستطيع أن أعتذر . فأنا أحد المكرمين .

وإلى جوارى جلس الفنان الشعبى عمر الجيزاوى سألته قال لى : تعرف أننى اللى زفيت الرئيس السادات .

ـ إزاى؟

ـ يوم تزوج الرئيس من الست جيهان كنت واحدا من الذين اشترك فى زفة الرئيس . .

وبينى وبينك كان فى نيتى أن أحضر ومعى المزمار والطبلة لكى أزف الرئيس كمان مرة . .

ـ ولكنه ليس عريسا اليوم . . بل أنت العريس .

ـ ولكن الرئيس لا يستطيع أن يزفنى . .

ـ كان من الممكن أن تجىء فرقتك وتزفك أنت . .

ـ آه والله فاتتنى ! هوه بعد كده فيه جوائز أيه . . ـ ما اعرفش . . ولكن الجوائز كلها أدبية . .

ـ يعنى فى الأدب .

ـ أيوه . .

ـ وأنا فى الحالة دى سوف أعيش وأموت ولن أحصل على شىء . .

ـ لا . . ربنا يديك العمر . .

ـ وابقى أديب وآخذ جائزة يعنى ؟

ـ أيوه . .

ـ دى نكتة . . أنا أستحق جائزة فى قلة الأدب . . أنت عارف إن الفنان اللى زينا مالهمش فى الأدب . . احنا عايشين كده على الفطرة . .

لاتعلمنا ولا دخنا ولا خرجنا من أية مدرسة !

ـ ومع ذلك أخذت شهادة الزمالة الفخرية . .

ـ آه يعنى مع واحد زيك؟ هاها . . بينى وبينك دى قلة أدب فى أن أجلس إلى جوارك وأصعد إلى المنصة وأسلم على الرئيس ويعلق فى رقبتى هذا الوشاح . .

والله منتهى قلة الأدب . . هاها . . ولا إيه رأيك . .

ـ أبدا . أنت تستحق هذه الزمالة . .

ـ أستحق إزاى أنا لا أستحقها . .

ـ هاهاها . . أهو المؤدب وقليل الأدب أخذا جائزة واحدة . .

ـ ولكن قلة الأدب أحسن . .

ـ هاها . .

ـ هاها . .

وقبلتها تسعا وتسعين قبلة!

تعالت ضحكات أستاذنا عباس العقاد وهو يقول: الفهم يا مولانا مش مطلوب اليوم.. هاها. وكان ذلك تعليقا على مطرب أرمنى متواضع طلب إليه العقاد أن يغنى أغنية عاطفية وأن يترجمها له فيما بعد. وجلس (أرتين) هادئا تماما. وتلفت يمينا وشمالا.. كأنه اعتاد على أن يغنى للجماهير. ثم وقف. فقال له العقاد: أقعد يا مولانا.

وظل أرتين واقفا.. والمعنى أنه لا يستطيع أن يغنى إلا إذا وقف.

وكأنه يستحضر روحا سماوية قوية يستمد منها قوته وأحزانه.. وقال وتلفت وتثنى وكان صوته حزينا.

بل أنه كان يعصر الحزن كلمات. ونظرات وآهات. وإذا كانت هذه أغنية يدافع بها شعب الأرمن عن حريته من السوفيت، فنحن نؤيده دون أن نعرف ماذا يقول.

ثم طلب منه الأستاذ العقاد أن يقول معنى الأغنية. وهى أغنية حب عادية بين أحد العاملين فى الغابات وفتاة تتعلم فى المدرسة وقرر أبوها ألا تكمل تعليمها وأن تتزوج شابا غير الذى تحبه. وهددت والدها بالانتحار. ولكن الأب أصر على أن يقول: لا.. فما كان من الأب إلا أن انتحر. وقالت البنت لمن تقدم لها: لا..

وكـــان أرتين هذا أول من لفت أذنى إلى البـــرنامج الأرمنى فى الإذاعـــة. والبـرنامج الأرمنى وضـعنى على باب البـرنامج اليـونانى. ولـولا أننى أعـرف اليونانية القديمة ما فرقت بين الاثنتين. ففى اليونانية أيضا شجن وألم.. حتى أكثر الأغنيات مرحا..

ولم أعـرف من الأرمن عددا كبيرا. وإنما بعض الساسة وكبار الموسيقيين: ميكويان وكـان رئيس الاتحاد السوفيتى وأخوه هو الذى اختـرع الطائرة ميج. والموسيقار خاتشا درويان ونوبار باشا و(شجرة الدر) التى حكمت مصر، وكانت ذكية وتتحدث لغات كثيرة وشديدة الدهاء أيضا. ويقال إن (شجرة الدر) كانت عندها واحدة أرمنية أخرى تغنى لها أثناء الطعام وحتى تنام.

ورسام الكاريكاتير كاسا سينوف.. أما صاروخان فقد كان زميلى فى (أخبار اليوم). قصير القامة أصلع طويل الأنف. وكان الأستاذ على أمين يعقد (مجلس النكت) كل يوم. والمجلس كان يضم مصطفى أمين وعلى أمين وصاروخان ورخا. ومن يفتح الباب وينظر إليهم يخيل إليه أنها جلسة لتحضير الأرواح أو أنه (مجلس النكد). أو أنهم يتفقون على صيغة نعى تنشرها الصحف.. مع أنهم فى الحقيقة يفكرون فى نكتة. فالنكتة مضحكة ولكن إبداع النكتة عمل عقلى.. ومثل هذا المجلس يتكرر الآن بين الساخر أحمد رجب والرسام مصطفى حسين أو كان ينعقد!

ولما قرأ صاروخان أننى أحب الأصوات الأرمنية والغناء الأرمنى مع أننى لا أفهم كلمة واحدة، أتى لى بشريط سجلته حفيدته لأحسن الأغانى الأرمنية المشهورة. وكانت تحفة فنية لا أمل تكرارها وإن كنت لا أعرف ماذا تقول. ولم أعرف قبل ذلك اليوم كيف أن الإنسان يبكى من حنجرته. لم أتصور لحظة واحدة وأنا مغمض العينين أن الغناء من الممكن أن يجعلك ترى بالضبط ماذا حدث للمطرب والشاعر والمحبوبة. كل ذلك تراه وأنت لا تعرف ما هى المأساة. وأعجبتنى أغنية قصيرة جدا وطلبت من صاروخان أن يترجمها. فكان كلامها هكذا:

آه يا حبيبى آه.. آه ولا أعرف كيف أجعلها طويلة.. طويلة تعلو فوقى فوقى..

وأجعلها جسرا تمشى عليه المحبوبة إلى الناحية الأخرى . . إلى الأمان . . وآه طويلة طويلة مثل رموش العين . . طويلة مثل ظلال السحاب على الأرض . . وكل ذلك مستحيل . فكيف لا أقول آه ما دامت الآهة هى الشىء الممكن يا حبيبى !

* * *

وفى كل مرة أذهب إلى موسكو لابد أن أتجه ليلا إلى مطعم مشهور اسمه (أرارات) . .

وفى هذا المطعم الأرمنى توجد فرق للرقص والغناء الأرمنى .

ومعظم المطربين فى روسيا من الأرمن وهم الأكثر شجنا وحزنا وأسى .

وفى ليلة ذهبت مع الزميل ممدوح رضا . وجلسنا بالقرب من الباب هربا من دخان السجائر . فتلفتنا حولنا نرى ورأينا ما لم نعرف وما لم نفهم . والمهم أن يجىء أحد وينقذنا من الصمت والغموض ويسحبنا إلى أى مكان آخر . وظهرت فرق للرقص . والرقص رشيق . والموسيقى جنائزية . مع أن أحدا لم يمت . ربما الذى مات هو الملل . وترجم لنا الزميل عبد الملك خليل ما يقول مذيع المطعم .

أنه يبشرنا بأن المطرب فلان الفلانى والمطربة فلانة الفلانية تستعد لأن تغنى فتسعدنا . وتركزت الأضواء على المطرب . وشعره أسود جدا . ورشيق وعيناه سود وإن كان الضوء القوى لا يؤثر فى عينه . فقد اعتاد على ذلك . وعلى نغمات الموسيقى أخذ المطرب يعلو ويهبط كأنه زورق فى بحر ثائر الأمواج . ولكن هذه الثورة لم تمس صوته . فهو ثابت العلو والسمو . ولم نجد أحدا يترجم لنا ذلك . حتى نادينا الجرسون : وحياتك ماذا يقول هذا المطرب الخرافى فقال : إنها قصة حب .

ـ طبعا . ولكن ماذا يقول؟

وقال لنا بسرعة ما هو معروف فى كل قصص الحب فى الدنيا .

لأن الحب عالمى والغيرة دولية وخيبة الأمل هى قدر المحبين . وصاحب الأموال هو الذى يكسب دائما !

وبسرعة عرف أننا أجانب من مصر وأننا معجبون بصوته فأرسل لنا زوجته أو أخته. وكانت تتكلم الإيطالية فقد عاشت فى إيطاليا وتزوجت ومات عنها زوجها. وترجمت عشر أغنيات. الموسيقى أجمل من الكلام. والغناء أجمل من الموسيقى والكلام. بعض هذه الأغنيات من الجنوب وبعضها من الشمال. أما الأغنية التى هزتنى جدا. وطلبت أن أحصل على تسجيل لها. وظللت أسمعها حتى تحولت إلى همس غير مفهوم.. لقد قطعت نفسها وقصفت عمرها!

أما لماذا أعجبتنى فلأنها تقول كلاما يشبه ما تغنيه المطربة الفرنسية الوجودية جوليت جريكو عندما جاءت إلى القاهرة. تقول: وحدى نعم وحدى. أحببتك وحدى. ولكن لابد أن آخرين أحبوك. طبيعى فأنت جميل يا حبيبى. طبيعى فأنت معجزة الإبداع الإلهى.. وحدى نظرت إليك.. وحدى سمعتك. وحدى بكيت ووحدى ندمت يا حبيبى.. كم مرة فكرت فى أن أعترضك ذهابا وإيابا.. ولكنى ريفية خجول ووحدى ندمت على أننا لسنا من أبناء المدن. فهم أجرا وأقدر ولكنى ريفية. أننى صورة من أمى. وكانت أمى خجولا هكذا قال لى أبى.. وحدى أعود إلى البيت وفى أحد الأركان أبكى فأنت لم ترنى ولم تعرفنى. فكيف ترانى وأنا لم أرك يا أى جميل.. يا أى مخلوق بديع لم أره حتى اليوم!

وفى طريق عودتنا مع الرئيس السادات بعد لقائه الخطير جدا مع الرئيس شاوشيسكو من رومانيا إلى مصر ذهبت إلى الرئيس وقلت له:

ـ نحن على خط مستقيم مع جبل (أرارات)..

ـ يعنى أيه؟

ـ يعنى أن جبل أرارات هذا هو الذى رست عليه السفينة التى كان يصنعها نوح على الشاطئ بعيدا عن البحر. والناس يمرون به ساخرين. لأنهم لا يعرفون أن طوفانا سوف يجىء.. وأن هذه هى سفينة النجاة لنوح وأبنائه وبناته والطيور والحيوانات من كل زوجين اثنين.. وسوف تغرق الدنيا كلها ولن يبقى إلا نوح

وأولاده . . ونوح هو آدم الثانى الذى به بدأت الحياة من جديد على كوكب الأرض . .

ـ . . . .

ـ فأنت يا سيادة الرئيس تقوم الآن بدور نوح لإنقاذ الشرق الأوسط من طوفان الحرب والدمار والحقد والظلم . .

ـ والله شاوشيسكو كان يقول كلامًا قريبا من هذا المعنى . . ولكنه لم يقله بهذه الصورة الجميلة المقنعة . .

ـ وسوف يقفز من السفينة الخائفون والمغرورون الذين لايرون ما ترى . . الذين لا يرون أبعد من أنوفهم . . إن مهمتك خطيرة وثقيلة يا ريس . .

ـ ربنا كبير يا أنيس . . قل لى وحتكتب أيه . .

ـ أكتب إيه يا ريس . . هوه حد فيه دماغ من اللى بتعمله واللى لسه حتعمله . . أنت مش عارف أنت عامل فينا أيه يا ريس . . احنا مش لاحقين . . أنت أسرع من أن يلاحقك أو يلحق بك أحد . .

ـ مش معقول يا أنيس حتطلب منى أشيلك على كتفى وأروح بك إسرائيل . .

ـ هاها . .

* * *

يا نهار أسود الراجل بيقول حيروح إسرائيل ! ! معقول الكلام ده؟ ـ قلتها لنفسى ولم أصدقها . .

وفى قبرص وردوس وأثينا ومطعم الأكروبول بمدينة سيدنى بأستراليا ملأت أذنى وعينى بالأغانى اليونانية . إنها حزينة . ولكن اليونانيين أقدر على الضحك والفرفشة من الأرمن . ولكن إذا غنوا وبكوا فليس لهم مثيل فى الدنيا . .

وفى فندق (الحياة الوردية) فى جزيرة رودس عرفت مطربة يونانية (صوفيا

ساريوس) من الإسكندرية. ترجمت لى أغانيها من قبل أن تغنيها لكى نتابعها، أما لهجتها المصرية فسليمة. فجأة أضيئت الأنوار وظهرت سيدة كبيرة ومعها عدد من الأطفال.. وقالت لنا: هذه أمى..

فقالت الأم: أهلا بالحبايب من مصر.

وعادت المطربة تقول: أما هؤلاء فهم أولادى، جاءوا للتحية قبل أن يذهبوا إلى فراشهم.. هذا أرسطو وهذا كوى وهذه أوفيليا..

وقال لنا الأطفال: هالو..

وأطفئت الأنوار وتركزت على المطربة المصرية اليونانية وغنت: بلدى يابلدى وأنا بدى أروح بلدى.. يا إسكندرية (باليونانية)..

وفى مطعم (الأكربول) كانت فرقة يونانية يملكها رجل يونانى اسمه (إسكندر حليم). أبوه مصرى وأمه يونانية. فى مطعمه مطرب يغنى ويرافقه عازف على الكمان. وكان يغنى لأم كلثوم.. مقاطع من أغانيها باللغة اليونانية واللحن المصرى. وكان من السهل أن تميز ماذا يقول وكنا نغنى معه تحية له.. فالأداء مضبوط والموسيقى أيضا. لاشك فى براعة المؤلف والملحن والمطرب.. أما بعد ظهور فيلم (زوربا) من تأليف الأديب اليونانى الكبير كازانزاكس الذى لم يفز بجائزة نوبل بعد أن تقدم لها ست مرات لأنه شيوعى ملحد أصبحت رقصة (زوربا) من تأليف الموسيقار اليونانى ثيودراكس طعاما يوميا فى كل المطاعم. فلا تكاد موسيقى زوربا تتردد نغامتها حتى يقفز الناس وهات يارقص. بل إن زوربا أصبحت كأنها النشيد القومى لكل الجاليات اليونانية فى العالم ـ وهم موجودون فى كل مكان. ويقولون عن أنفسهم أنه لما نزل رائد الفضاء الأمريكى أرمسترونج على القمر وجد جرسونا يونانيا أنحنى له قائلا:

تحب تشرب أيه ياحبيبى؟!

وكان لى فى الإسكندرية صديق اسمه مخالى وكان موظف الاستعلامات فى فندوق وندسور وهو الذى نبهنى إلى رواية رائعة اسمها (الجائزة) للكاتب

الأمريكى أرفنج والاس . لاسمعت عنها ولا عن المؤلف . ولكنها تحفة أدبية وهى تحكى كيف كان الوضع الذى عليه عدد من الفائزين بجائزة نوبل قبل إعلانها . . كيف كانوا أو أين كانوا وماذا عملوا ثم كيف تمنح هذه الجائزة كل سنة . وقد ترجمت هذه الرواية (الجائزة) إلى اللغة العربية فى ٨٠٠ صفحة . وقد حذفت منها الرقابة مائتى صفحة . فقد تصادف ظهورها مع رواية للكاتب الكبير إحسان عبد القدوس (أنف وثلاث عيون) التى اعترض عليها البرلمان المصرى . وقد وافق على هذه الترجمة صديقى المستشار حمدى حافظ الذى كان يرأس هيئة الاستعلامات . . وكان لابد أن أقتطع منها أجمل ما فيها من مظاهر الحب والجنس التى كانت فى مكانها الطبيعى . فهى لم تكن رواية جنسية وإنما رواية رائعة فيها جنس ، كما أن الجنس فى كل شيء .

وكان صديقى مخالى ضابطا فى الجيش الإنجليزى أثناء الحرب العالمية وكان ضخما فخما . وقد بلغه ما أصاب هذه الرواية . فدعانى إلى العشاء فى بيته . وكان ذلك لأول مرة ولم أعرف ما الذى يجب أن أفعله : هل آخذ وردا؟ . . هل آخذ علبة شيكولاته؟ . . ولكنى أخذت نسخة من رواية (الجائزة) وعليها هذا الإهداء : أرد إليك رواية الجائزة ناقصة ٢٥٠ صفحة . ولذلك أعتذر لك عن هذه الجريمة وأرجو قبول عذرى وامتنانى . . قرأها وظهرت دموع الامتنان فى عينيه . . وجلسنا نتكلم عن الحرب العالمية الثانية وما أصاب اليونان ومصر والعالم كله . وتقدمت زوجته وأخته وفتاة حلوة طالبة فى جامعة أثينا . وبسرعة لا أعرف كيف ظهرت الكمان والبيانو وغنت الفتاة الصغيرة لأم كلثوم : افرح يا قلبى . . صوتها جميل وأداؤها سهل . ووقف مخالى يعلن : أن هذه الأغنية تحية لك . . فليس مهما أن يصدر الكتاب كاملا ، المهم أنه هدية . . وأنه جاء دليلا على قلة ذوق الرقابة وسوء فهم الحرية فى مصر وإصرار أديب شاب على أن يترجم هذه الرواية الضخمة والفخمة فى وقت عصيب!

أما هذا الوقت العصيب فهو أننى كنت مفصولا من عملى بسبب مقال هاجمت فيه الرئيس عبد الناصر !

ثم غنت مانويلا عشر أغنيات شعبية . . الله يا مانويلا على صوتها ونواحها السحرى وهى تقول : خدنى بعيدا . بعيدا . . بعيدا . . بعيدا . . لا تأخذنى بعيدا . . فنحن هنا فى مكان بعيد عن كل مكان . . نحن فوق كوكب صغير مجهول يدور حول نجمة مجهولة . . الكوكب هو قلبى والنجمة هى قلبك . . نحن بعيدان . . بعيدان بعيدان خدنى وكفى . . خذنى خذنى . .

* * *

وقد لاحظت أن من أجمل أصوات شبه الجزيرة العربية هم اليمنيون أو الذين من أصول يمنية . . وقد لاحظت ذلك فى (مهرجان الجنادرية) فى الرياض . فأصوات أبناء اليمن أكثر شجنا وأكثر حساسية حتى فى إسرائيل . فمن أجمل الأصوات الحزينة صوت المطربة شوشانا أى سوسن . تماما كأصوات أهل الجنوب فى إيطاليا وأهل الجنوب فى أرمنيا وأهل الجنوب فى الجزر اليونانية . لماذا؟ لا أعرف . ربما كان الجنوب عادة أكثر فقرا وتعاسة من أهل الشمال . . ربما كانوا أكثر شعورا بالعزلة والوحدة . ربما كان الجنوب الريفى الصحراوى أقل تلوثا من الشمال الصناعى . . ربما . .

وقد سمعت قصيدة جميلة بصوتين من أبناء اليمن . المطربان شعبيان . . ويغنيان هذه القصيدة ويقعان فى أخطاء نحوية . ولكن أحدا لا يصوب هذه الأخطاء فالمهم هو سماعها والصراخ عند المقاطع الجميلة الحزينة . ولم أر هذه القصيدة (الشعبية) مكتوبة وإنما أنقل لك الآن بعضها كما سمعتها بأخطائها أيضا :

أراك طروبا والهًا كالمتيم ... تميل إلى ذكر المحاسن بالفم
على شاطئ الوادى نظرت حمامة ... فطالت علىّ حسرتى وتندمى
خذوا بدمى منها فإنى قتيلها ... ولا مقصدى إلا تجود وتنعم
ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها ... ولكن سلوها كيف حل لها دمى

وقـولوا لهـا يا منيـة النفس إنني   قتيل الهوى والشوق لو كنت تعلمي
ولا تحسـبوا أني قـتلت بصـارم   ولكن رمـتني من رباها بأسـهم
لهـا علم لقـمـان وصـورة يوسف   ونغـمـة داود وعـفـة مـريم
ولي حزن يعقـوب ووحشة يونس   ومـحنة أيوب وحـسـرة آدم
أغـار عليـهـا من أبيـهـا وأمـهـا   ومن خطوة المسواك إن دار في الفم

(وهنا يتصايح الناس ويصرخون ويقولون كلاما ليس واضحا لمن يسمعه)

أغـار على أعطافـهـا من ثيـابها   إذا ألبسـتـهـا فـوق جسم منعم
وقـبلتـهـا تسـعـا وتسـعـين قبلة   مـفـرقـة بالخـد واليـد والفم
أشـارت برمش العـين خيفة أهلها   إشـارة مـحـزون ولم تتكلم
فأيقنت أن الطرف قد قال : مرحبا   وأهلا وسـهـلا بالحـبيب المتيم

(أصوات وصرخات عندما قالت : مرحبا واهلا . .)

وآخـر قـولي مـثلمـا قلت أولا :   آراك طروبا والهًـا كـالمتـيم!

وقرأت هذه القصيدة فوجدت تعديلاً في أبياتها .

مثلاً : ولما تلاقينا وجدت بنانها مخضبة

تحكي عصارة ندم

فقلت : أخضبت الكف بعدي   وهكذا جزاء المستهام المتيم

فقالت : وحقك ما هذا خضاب عرفته

فلا تك بالبهتان والزور متهم

ولكن لما رأيت نائيًا وقد

كنت لي كفي وزندي ومعصمي

بكيت دمًا يوم النوى فمسحته

فابتلت بنانى من دمى

ولو قيل مبكاها بكت صبابة

لكنت شفيت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلى فهيج لى البكا

بكاها : فقلت الفضل للمتقدم

وسمعتها أكثر من مرة . ففى كل مرة أجد الصوت سليما حزينا شجيا كأنه يحمل جبالا من المعانى . . ولا ينقص هذه الأصوات إلا وضعها فى إطارات لحنية . . ولما أدمنت سماعها وجدت أنها مثل النباتات البرية . . جمالها فى وحشيتها وليس فى حبسها فى القوالب الزجاجية أو الطبقات الذهبية . .

كامل الشناوى يلهث خلفها ونحن وراءه!

كانت (فايزة أحمد) مقررة علينا. وقبلها كانت (نور الهدى). وبعدها كانت (نجاة الصغيرة). . أما الذى قررها علينا فهو الشاعر والصديق كامل الشناوى. . وأيام كانت نور الهدى فى الخمسينيات مادة إجبارية كنا صغارا فى أول حياتنا الصحفية. ولم نملك أدوات النشر ولامساحات للكلام عنها. .

ولكن عندما صارت فايزة أحمد مقررة علينا ومادة إجبارية، كنا قادرين على الكتابة عنها وتصويرها والحديث والدفاع عنها أيضا. ثم أصبحت مادة اختيارية.

وقد عرفت فايزة أحمد طويلا وأعجبت بصوتها كثيرا، وكانت أسعد الليالى هى التى تجىء فيها فايزة أحمد وزوجها الموسيقار محمد سلطان، هى تغنى وهو يصاحبها على العود، أو هو يعزف وهى تصاحبه بحنجرتها الفريدة الجمال والقوة. .

وكان كامل الشناوى مفتونا بصوتها وكان يسميه الصوت الوحشى أو المتوحش الذى يفترس كل الأصوات الصغيرة. . أو الصوت الكاسح الذى يمحو كل الأصوات المحدودة الحلاوة والجمال. وكانت هذه الصفات مقررة علينا. وإرضاء لكامل الشناوى الذى نحبه ونحرص عليه، فإننا نكرر هذه الصفات أو نتفنن فى شرحها. .

وفايزة أحمد لم تكن جميلة. وكان كامل الشناوى يقول لها: تعرفى فايزة.. ربنا سبحانه وتعالى وضع كل قدرته فى حنجرتك!

وكانت تستمع إلى ما يقول كامل الشناوى وترى أن هذه العبارة إيذان لها بأن تغنى دون أن تفهم معنى كامل الشناوى. ولم يكن يهمنا كثيرا أن نقول أو أن نفكر. المهم أن تغنى..

وفايزة أحمد تغنى طوال الوقت.. فى البيت.. فى الشارع.. إذا طلبت منها وإذا لم تطلب. وكثيرا ما فوجئت بالتليفون يرن وأرفع السماعة لأسمع صوت فايزة أحمد تردد أغنية جديدة.. وأقول: ألو.. ألو فايزة.. إنها لا تسمع.. إنها تغنى وأحاول أن أستوقفها.. وأترك السماعة على المكتب وأنظر فى الأوراق أمامى أو أتحدث فى تليفون آخر.. وهى لا تتوقف عن الغناء.. وحاولت أكثر من مرة أن أقنعها أنه يجوز التليفون خطأ.. يجوز أنا غير موجود.. وليس هناك إلا السكرتير أو السعاة.. ولكن لا يهمها ما أقول فهى تريد أن تغنى حتى لو لم يكن هناك أحد يسمعها..

وإذا فرغت من أغنية فأقول: الله يا فايزة.. الله.. ويكون هذا الإطراء القصير سببا قويا فى أن تبدأ أغنية ثانية جميلة أيضاً.. وأغنية ثالثة. ولا تسأل إن كان عندى وقت لكى أسمعها.. أو كنت مشغولا أو من الضرورى أن أكون. إنها تغنى ويجب أن تغنى ولا تعرف أى شىء إلا الغناء.. ولا يشغلها كثيرا من يسمع ومن عنده وقت ومن ليس عنده وقت..

وطبيعى أن تكون شديدة الحساسية للفوارق بينها وبين المطربات الأخريات.. فهى ليست فى أناقة صباح.. ولا هى فى شهرة فيروز ولا فى رقة شادية ولا عظمة أم كلثوم.. ومعها حق فى كراهيتها لوردة الجزائرية.. وكانت فايزة أحمد قادرة على تقليد الأصوات.. وقد تفردت فى تقليد وردة وإضحاكنا عليها.. وكانت تحلم بأن تظهر بطلة فيلم تستعرض فيه عشرات الفساتين مثل صباح. وصباح جميلة الصوت وسهلة الأداء وأغانيها اللبنانية تحفة فى الغناء والأداء.. ثم إن صباح

فى غاية الشياكة والأناقة والجرأة أيضا على اختيار الموديلات والألوان . . و تسريحة الشعر رغم تقدمها فى السن .

ولكنها حريصة على أن تظهر فى أحدث الخطوط والألوان وأن تكون حديث الرجال ووجع قلب النساء عندما ينظرن إلى فستانها وجرأتها وشعرها ومجوهراتها وغندرتها ودلعها . .

وفى جلسة خاصة عندما قلدت فايزة أحمد كل الأصوات ضحكنا . وفجأة وجدناها تحاول تقليد أم كلثوم . وقلنا فى نفس واحد : فايزة أوعى !

وأصيبت فايزة بالرعب فقد تجاوزت حدودها وتجرأت على سيدة الغناء العربى . وتبارينا فى تحذيرها : إلا أم كلثوم . .

ـ إياك . . فإن مصر كلها تنقلب عليك . .

ـ خدى بالك يا فايزة . . أم كلثوم إحدى الثوابت . . الجبال . . الأهرامات . . لامساس بها لا من قريب ولا من بعيد . .

ـ أنت سورية وسوف تنقلب عليك الدنيا . . وتجدين نفسك على حدود مصر قبل أن تستقرى هنا . .

وبلعت فايزة صوتها كما ابتلع وجهها ألوانها . وانكمشت . ولم تعد إلى هذه المحاولة مرة أخرى . .

وفى ليلة قيل لكامل الشناوى إن معبودتك حاولت تقليد أم كلثوم .

فقال لها كامل الشناوى : هذا انتحار فايزة . لن تجدى لك أحدا حولك ! أنت اتجننت . .

وتراجعت فى خوف ورعب . . ووقفت وأمسكت المنديل فى يدها وغنت رق الحبيب لأم كلثوم . .

ـ الله يا فايزة :

ـ أهو كده

ـ الله يا ست فايزة!

وكانت فايزة من شدة الخوف والشعور بأنها أجنبية عن مصر كانت تقول إنها من أصل مصرى صعيدى . . وإنها من عائلة خشبة .

وليس هذا صحيحا . .

وفى بيروت تقول إنها لبنانية من أصل سورى . .

وفى سوريا تقول : طبعا سورية بنت سورية . .

وبرغم الإقامة الطويلة فى مصر وزواجها من ثلاثة من المصريين لم تتغير لهجتها السورية . . وكان عندها شعور بالاضطهاد . وإن هناك مؤامرة عليها . . مرة من وردة وبليغ حمدى . . ومرة من عبد الحليم حافظ وبليغ حمدى . . ومرة من صباح . . وتدور معارك معروفة فاضحة على المسارح . . وهى مثل كل فنان يريد أن ينفرد بالجمهور . وهى إذا (تسلطنت) فإنها لاتشعر بالزمن وتنسى أن بعدها فنانين وفنانات يجب أن يظهروا على المسرح . وكثيرا ما دارت معارك وخناقات وشتائم من النوع الذى يخرم الأذن ويشعل نيران الخجل لمن يسمع ويرى . ولكنها اعتادت على ذلك وكذلك كثير من الواقفين فى الكواليس . ولكن فايزة ترى أن ذلك سلاح مشروع فى الدفاع عن النفس . .

أما حكاية (المؤامرة) عليها من كل من له علاقة بالموسيقى والغناء فحكاية طويلة يختلط فيها الكذب وخيال فايزة أحمد وما فى الوسط الفنى من أحقاد وسفالات لا أول لها ولا آخر .

يستوى فى ذلك كبار الملحنين وصغار المطربات والمطربين . .

وفى يوم التقى فى مكتبى المايسترو صلاح عرام وفايزة أحمد .

هى سألته : مسافر مع عبد الحليم حافظ إلى المغرب؟

قال : غدا . .

ـ كلكم فى طائرة واحدة؟

ـ أه طبعا .

فايزة : يا رب الطيارة تقع . .

صلاح عرام : بأقول لك إننى مسافر معاهم تقولى لى يا رب الطيارة تقع !

فايزة : بلاش أنت !

صلاح : طيب إزاى يا ست فايزة؟ ! أعوذ بالله !

ـ . . . .

* * *

فوجئت بفايزة أحمد تنتظرنى فى مكتبى . . وقبل أن أقول لها :

أهلا وسهلا . . إيه الفرصة . . إيه المناسبة السعيدة وأيه . .

وجدتها تغنى : غازله له يا امه بأيدى الطاقية . . بأعلى صوتها الجميل . .

حاولت أن أقاطعها وأقول لها : يا فايزة أنا عندى اجتماع مجلس إدارة . . ولكنها مضت تغنى . .

وتركتها تغنى وذهبت إلى أعضاء مجلس الإدارة أقول لهم : فايزة أحمد تغنى فى مكتبى . . إنها تقوم بترديد أغنية جديدة فقالوا نسمعها . وجلس أعضاء مجلس الإدارة يسمعون فايزة أحمد . . أغنية وراء أغنية . . وتأجل مجلس الإدارة إلى ما بعد الظهر . . و فايزة ماضية فى أغانيها دون أن تنظر إلينا أو تسأل ما الذى أحدثته . .

وفجأة توقفت وكأنها على مسرح وأمامها مئات الألوف من الناس . . ونظرت إلينا وقالت : تحبوا تسمعو إيه؟ !

فداعبها أحد الزملاء وقال لها : خمسة فى ستة بثلاثين يوم . .

أما الذى قالته فايزة أحمد فلا يمكن ذكره أو وصفه . .

وتبارينا فى مدح شادية . ولكن فايزة أحمد لسانها طويل . .

فعاكسها أحد الزملاء وقال لها : إحنا عاوزين أية أغنية لوردة . .

وكان ذلك فوق احتمال فايزة أحمد وخرجت من المكتب بعد أن أمطرت الزميل بألفاظ فظيعة . . وبدلا من أن تنزل فايزة أحمد بالأسانسير نزلت على السلالم والذين تابعوها سمعوها وهى تشتم وردة وبليغ والمستمعين . .

ولما حاول عامل الأسانسير أن يفتح لها الباب دفعته إلى الوراء وكان من نصيبه عدد من الكلمات لا يعرف سببها . .

وفى الليل رفعت سماعة التليفون لأجد فايزة تغنى على طريقتها وبصورة فظيعة إحدى أغنيات وردة . ثم أقفلت التليفون دون أن تعرف إن كنت أنا الذى أسمعها أو أى أحد آخر . .

* * *

ولسبب لا نعرفه تحول كامل الشناوى عن فايزة أحمد ، كما تحول إليها قبل ذلك ، واتجه إلى نجاة الصغيرة . وأصبحت مقررة علينا . يجب أن نكتب عنها ، إرضاء لكامل الشناوى . ومجاملة له . . أو اقتناعا بصوتها الرقيق الجميل . .

وعادة نحن لا نسأل كامل الشناوى عن ماذا جرى . ولكننا اعتدنا على أن قلب كامل الشناوى مثل أبواب الفنادق يدور فتدخل واحدة وتخرج من الناحية الأخرى واحدة ثانية . . وبنفس السرعة . ونعلم من تاريخنا الطويل معه أنه سريع التحمس لأى إنسان وسريع التحمس ضده . . وعندما نجد كامل الشناوى يقيم الحفلات والولائم لأى صوت أو موهبة جديدة ، نتوقع أن تكون صلوات الوداع أو التأبين قريبا جدا . .

وكان كامل الشناوى يقول عن صوت نجاة الصغيرة : حرير ملفوف فى حرير مغزول فى ضوء القمر . . أما فايزة أحمد فهو معركة بالذخيرة الحية : قوة ولمعان وبريق ولهيب وهى فى حاجة إلى صحة وإلى شباب . . أما نجاة الصغيرة فهى دواء للمريض ولمسة للحزين واحتضان للقلب !

إذن لقد تحول كامل الشناوى عن فايزة أحمد إلى نجاة الصغيرة . .

ولم يكن لكامل الشناوى من هدية تسعده فى عيد ميلاده إلا أن يرى ويسمع نجاة الصغيرة . . أما الدموع التى تغرق خديه وتمزقنا حزنا له وعليه . فلأسباب كثيرة . إنه كامل الشناوى عميق الحب شديد الغضب . . صانع التماثيل وهادمها أيضا . . ونحن - حبا وامتنانا له - نتبارى فى إرضائه وإسعاده . . وبس !

* * *

وجاءت نهاية فايزة أحمد سريعة . . هذا إحساسنا . مرضت . . وذوت وانزوت . وأعددنا لها الورود والكلمات الحلوة حتى لا تقلق على نفسها . وكذبنا والدكاتره أيضا . فلا أحد يريد للقلب الكسير والجسد العليل أن يتعذب أكثر . وكانت تغنى أيضا . ولحسن حظى لم أسمع صوتها وقد أحتبس . .

وعندما دخلت المستشفى كان الناس يندهشون عندما يسمعونها تغنى .

تؤكد لنفسها أنها لا تزال فايزة . وأنها صوت جميل وأن شيئا لم يتغير فى صوتها ، كما تغير أزواجها واحدا بعد واحد . .

وعندما دخلت مستشفى الصفا ، قرر صاحبها الدكتور سمير طلعت أنها ضيفة على المستشفى تطلب ما تريد عندما تريد . وكانت فايزة تطلب كل شيء ويحضرون لها أى شيء سواء كان له علاقة بالعلاج أو بالماكياج . . ولا أحد يعترض على ذلك . ولكن واحدا فقط أعترض وهو الدكتور أشرف المليجى مدير المستشفى . ورأى أن فايزة أحمد زودتها . وذهبت إليه فايزة أحمد تسأله : لماذا؟

فقال لها : ولكن هذه الأشياء لا علاقة لها بمرضك . .

واندهش الدكتور أشرف المليجى ، وأنا أيضا ونحن جميعا عندما قالت له فايزة أحمد : افرض أن فى أسرتك طفلة يتيمة وهذه الطفلة عبقرية . . وعندها إحساس بأن الناس كلهم يحقدون عليها ويتآمرون . وكان فى هذه الطفلة عيب صغير تافه . . هل معنى ذلك أنها ليست عبقرية . .

فقال الدكتور أشرف المليجى : إن عبقريتها تغفر لها كل شيء . .

وكان رد فايزة أحمد السريع القاطع : أنت تتحدث الآن إلى هذه الطفلة اليتيمة العبقرية التى فيها عيب واحد هو : الطمع !

يا بنت الأيه . . إذن فايزة أحمد ليست الساذجة ولا العبيطة كما كنا نتصور !

وكأن فايزة أحمد أرادت أن تؤكد للدكتور أشرف المليجى أنها العبقرية الطماعة ، وأنها تعلم مقدما أنه موافق على ذلك ، فكانت تزور غرف المرضى . . تجد فى غرفة سلة بها تفاح جميل فتمد يدها وتأخذ حبة . . المرضى يقولون لها : اتفضلى يا ست فايزة . . أهلا وسهلا . .

وفى إحدى جولاتها فى غرف المرضى وجدت عددا من الفتيات الجميلات وأمسكن بها . وطلبن إليها أن تجلس بينهن . وجلست وسألتها واحدة : قولى لى يا مدام فايزة . . إيه اللى يخليك تتجوزى واحد . . يستولى على فلوسك . . واحد أصغر منك . . ليه؟ وكان رد فايزة الذى أدهشنا : إيه يعنى . . زى الرجالة مابتعمل . . رجل غنى عجوز بيتجوز بنت صغيرة حلوة لازم يدفع . وأنا دفعت . غلطة؟ يجوز . مش غلطة! يجوز . أهو ده اللى حصل !

ـ هاها . .

* * *

مصادفة تاريخية تقابلنا فى بيروت : يوسف السباعى وإحسان عبد القدوس ويوسف إدريس ونزار قبانى ، وكان الحديث عن الشعر والفن والغناء والموسيقى وأجور وشهرة المطربين والممثلين والفلوس التى تنهال عليهم . .

يوسف السباعى : بلا قلم بلا ورق بلا زفت . .

إحسان عبد القدوس : لولا القلم والورق ما غنى أحد!

يوسف السباعى : ولكن الفلوس مع من؟ ولمن؟

نزار قبانى : لأناس آخرين ونحن شهود على هذا العصر . . شهود على عقد الزواج ولكن لا نصيب لنا فى العروس . . هاها . .

ونهض يوسف إدريس واتخذ ملامح جادة . وقال : عندى فكرة :

اسكتش غنائى ســريع . . أنا أقــول : هاتوا الورق . . وأنتم تقــولـون : آدى الورق . .

ثم خلع يوسف إدريس الجاكتة وقال : هاتوا الورق . .

ـ آدى الورق . .

ـ هاتوا القلم . .

ـ آدى القلم

ـ ياللى وحشتونى . .

ـ يادهوتى . .

لا . . لا . .

اعترض يوسف إدريس : لا بأس ولكن نعكس الحوار كلاكيت تانى مرة :

هاتوا الورق

ـ آدى القلم

ـ هاتوا الورق

ـ آدى الورق!

ـ ياللى وحشتونى

ـ بلاش الورق . . بلاش القلم . .

ووقف يوسف إدريس فى مقعده يدافع عن هذه الكلمات وهذه الهلوسة والحوار وتجاوبنا معه تماما . . كأننا فى مسرحية عبثية مجنونة :

ووقف يقول : ارتجلوا . . قولوا كل ما يخطر على البال . . يا لله يا نزار . .

يا لله . .

يقـول يوسف إدريس : بلاش القلم بلاش الورق . . ياالليى اتجننتم يا أدباء الأمـة العربية . . قولوا . .

ـ بلاش أنت . . بلاش يوسف إدريس . . بلاش يوسف السباعى بلاش إحسـان بلاش نزار بلاش أنيس منصور . .

ـ هاتوا البوليس . .

ـ هاتوا البوليس . .

ـ هاتوا فلوسنا . .

ـ هاها . .

عندما دق الباب . .

ـ اقعد يا يوسف . . اسكت يا يوسف . .

وانفتح الباب . . وكان الجرسون يحمل ورقة وردية .

ونهض يوسف إدريس وهو يقول : طبعا معجبة بى !

قال يوسف السباعى : ولماذا بك أنت وحدك؟ . .

إحسان عبد القدوس : لا أنت ولا هو وإنما بى أنا . . طبيعى جدا . .

وقال نزار قباني : يمكن لى أنا . . وقال يوسف إدريس : ولا بيك ولا بيه ولابيكم كلكم . . بأنيس منصور . . إنها فايزة أحمد . .

وطلبنا من الجرسون أن يدعو فايزة أحمد فورا . . وانتظرنا أن نكمل الإسكتش الغنائى التمثيلى وطلبنا إلى نزار قبانى أن يرتجل شعرا وأن يتولى الحوار والسيناريو يوسف السباعى وإحسان عبد القدوس والإخراج يوسف إدريس . .

ودق الباب . وكانت واحدة أجمل من فايزة :

واحدة لها نفس الاسم وليس نفس الجسم ، واعتدلنا وانضبطنا . واتخذ كل واحد موقعه . . حسناء من أبى ظبى لا نعرف من هى ما الذى يحدث وما الذى سوف يحدث لها من الذئاب . .

واتخذ الكلام والحوار شكلا مختلفا . . ثقيل الدم سخيفا . . ولم نحاول إكمال الهذيان الفنى الذى بدأناه!

اشرب دم أختك ياواد!!

استأذنت المضيفة إن كان من الممكن أن نستمع إلى أحد الركاب يغنى . . ثم عادت تقول هو وزوجته وابنته . . فوقف رجل ببرنيطة وصديرى وسلسلة ذهبية وقد تعلقت من ذراعه مسبحة متعددة الألوان وبسرعة وقفت وراءه زوجته أما ابنته فقد وقفت أمامه . وأخرجت الكمان من كيس أحمر . . وأخرجت بهدوء ورقة كأنها ثعبان من كيس ساحر هندى . وقال : صدقينى . .

فردت زوجته : لا أصدقك!

ـ المسينى

ـ لا ألمسك!

ـ انظرى لى

ـ فقأت عينى!

ـ صافحينى

ـ قطعت يدى!

ـ أحبينى

ـ . . . .

ـ أحبينى

ـ . . . .

ـ لا . . لا . . لأنك غجرى!

وعاد الرجل مرة أخرى وقد ظهرت ابتسامة الامتنان على وجهه لأننا استمعنا إليه وإلى زوجته وابنته :

ـ صدقينى

ـ صدقتك

ـ المسينى

ـ لمستك

ـ صافحينى

ـ عانقتك

ـ أحبينى

ـ أحببتك

ـ لأننى غجرى !

ـ ولأننى غجرية !

أما معانى الأغانى فقد عرفناها من ورق وزعته ابنته علينا فى الطائرة المتجهة إلى بودابست . .

دعنى أصف لك شكل الرجل الغجرى . إنه متوسط القامة أسود الشعر والعينين لم يخلع قبعته . وتلمع فى صدره سلسلة ذهبية وفى أصابعه خواتم ضخمة . وفى يده اليمنى عصا وفى اليسرى مسبحة . . وهو شاب وليس فى حاجة إلى عصا . . ولكنه أراد أن تلتفت إليه الأنظار . وإذا نظرنا وأطلنا وجدناه فنانا يستحق الاحترام . .

جلس الرجل وسرحت بعيدا إلى أيام حزينة فى طفولتى يوم أسرفت أمى فى ضربى بسبب شقاوتى . فاتجهت ولا أعرف كيف خطرت لى هذه الفكرة ، إلى خيام الغجر على أطراف مدينة المنصورة . ووجدت رجالا جالسين ومعهم كلابهم . ولم يسألنى أحد لماذا دخلت ووجدت مرتبة على الأرض . فجلست ثم تمددت . ونمت تحت لحاف من الصوف .

وفى الصباح وجدت حولى عددا من الأطفال نائمين أيضا . وبشىء من الخوف نهضت . ووقفت ومشيت لتمتد يد تسألنى : أنت مين يا واد . .

ـ . . . .

ـ إيه اللى جابك . وعاوز إيه . . وابن مين؟ وهربت من أهلك ليه؟ ولا جاى تلعب مع ابنتى مورينا . .

كم يوما أمضيت عند الغجر . . لا أعرف ويبدو أن هذه السيدة قد اطمأنت إلى وجودى بعد ما دارت فى الأحياء المجاورة فلم تسمع أحدا يبحث عن طفل تايه . . أو شارد . . ولا أعرف إن كنت قد أعطيتها معلومات صحيحة عن اسمى واسم أمى وأبى وأهلى وأين بيتنا . لابد أننى أدليت بمعلومات غير صحيحة . وإلا ما بقيت أنا هذه الأيام الستة عندهم .

أهم الأحداث هى أنها أتت بسكين وبرشاقة أدخلت طرفها فى ذراعى . . وفى ذراع بنتها الصغيرة . وقالت : اشرب دم أختك يا واد . . وأنت اشربى دم أخوك يا بت ! !

وبسرعة جاءت البنت ومصت دمى . . وقلدتها

وجاء اليوم . . يوم العمل . امسكتنى من يدى ووضعت قفة على دماغى . القفة ثقيلة لا أعرف ما فيها . ونزلت القفة أمام عينى . لعلها تعمدت ذلك حتى أظل ممسكا بذيل جلبابها وأمشى وراءها وهى تقول : نشوف الودع نشوف . . نشوف ونقول الحقيقة . . الصحة والمرض والفلوس والحب والكره . . حقيقة الزوجة والحماة . وطرد الشياطين من البيوت ونشوف . . وكنت أرى الأرض تحت قدمى وقد امتلأت بالطوب والتراب والطين ولا أعرف وأنا تحت القفة ـ أين تتجه هذه السيدة . وتتوقف السيدة الغجرية بعض الوقت تأكل أو تشرب . ثم تمتد يدها وتصل إلى وجهى بحثا عن فمى لتعطينى لقمة خبز جاف . . ونشوف الودع . . ونضرب الرمل . ونكشف المستور ونشوف . .

وتحولت الشوارع إلى مرصوفة ونظيفة وهبت روائح الطعام من البيوت من

الهواء البارد . . لقد دخلنا وسط المدينة . . وصوت السيدة له صدى . ونادتها أصوات سيدات وبنات من أماكن مختلفة : يا بتاعة الودع تعالى . . يا بتاعة البخت . . تعالى . . وفى الوقت المناسب تماما رفعت القفة من فوق دماغى الذى كان يوجعنى . وبحركة لا شعورية جلست إلى جوار الحائط . . بينما هى مدت يدها إلى أعماق القفة وأخرجت منديلا كبيرا أحمر . . وبه قليل من الرمل وبعض الأحجار الملونة . . وقالت كلاما طويلا عندما غلبنى النوم . فضربتنى لكى أصحو . . وكانت الضربة مؤلمة . . فانطلقت أجرى بعيدا عنها . وهى تطاردنى والناس لا يفهمون . وهى تجرى ودخلت بيتا ولم أخرج وهى تنادينى وتتوعد . . بينما ظهرت لها سيدة تلعنها وتتهمها بخطفى وأنه لابد من تسليمها للبوليس . . لقد كان صوت إحدى قريباتى . . ثم جاءت أمى لتسألنى : إيه اللى عملوه فيك ده؟

لقد وشمونى بالأزرق والأخضر على جانبى الوجه وفى الذراعين . وتوقعت علقة من أمى . ولكن وجدتها تبكى . وتمسحت فيها . واعتذرت لها . وقبلت عذرى ونمت هادئا آمنا يوما كاملا !

وكانت جيوبى قد امتلأت بصور لمنيرة المهدية وسعد زغلول وعلى مبارك وصورة لرجل له شوارب ولحية لا أعرف من هو ولا لماذا كل هذه الصور فى جيبى . . ولا من الذى وضعها . .

ولم تغب صورة الغجر عن عينى طوال حياتى . وكنت أبحث عنهم فى كل مكان . ولكن لماذا؟ ولماذا أصدرت بعد ثلاثين عاما كتابا بعنوان(نحن أولاد الغجر) . فما الذى بيننا أو بينى أنا وبين الغجر غير هذه الحادثة التى لا دخل للغجر فيها !

هناك أكثر من سبب . .

فقد كانت حياتى فى الريف المصرى مثل حياة الغجر ـ أنا الذى أقول وليس هذا رأى أمى وأبى . فقد كان أبى يعمل فى أماكن كثيرة . وكنا نجرى وراءه ونلهث . ومن حين إلى حين نجمع أشياءنا ونحشرها فى عربة وننتقل من مكان إلى مكان .

وكانت عندنا ساعة حائط كبيرة كان من نصيبى أن أضعها على ساقى . وكانت مثل التابوت قد مات فيه الزمن . وإذا نظرت وراء السيارة ليلا وجدت غبارا . وفى الغبار كنت أرى أشباحا تلاحق السيارة فاغمض عينى على خوف . . ثم أعاود النظر مرة أخرى لأجد أشباحا تلاحقنا . ولا أقول لأمى ماذا يجرى وراءنا وماذا يجرى فى داخلى وإنما أتغطى بالخوف وأحاول أن أنام .

وفى البلاد التى ذهبنا إليها ، انتقلنا أو هاجرنا فإنى لا أقول أبدا : شارعنا . . أو بيتنا . . أو أصحابى . . أو مدرستى . . فليس لنا بيت وإنما مسكن . . وليست مدرستى وإنما هى مدرسة مؤقتة سوف أتركها إلى مدرسة أخرى . . ولم يتسع وقتى ليكون لى أصدقاء . ومن كل الأمثال والحكم الشعبية القديمة لم يستقر فى أعماقى إلا المثل اللاتينى الذى يقول إننى كالحجر المتحرك لاينبت عليه العشب . . أى ما دام يتحرك فلن تلتصق به بذرة تسقط عليها قطرة ماء فتنبت وتنمو !

ووجدت أننى طوال الوقت وحدى . . أقفل بابى وأقرأ . . كأننى فى كهف فى صحراء . كأننى غجرى فى خيمة عند أطراف المنصورة . . وعرفت أن هذا حال المفكرين وحال الرهبان فى صوامعهم والعلماء فى معاملهم . . كلهم هناك . . بعيدون عن الناس فى عزلة . ولو انتقلوا من بلد إلى بلد لكانت هذه حالهم أيضا ودائما ـ أليسوا غجرا أو كأنهم . . إنهم ليسوا خارجين على المجتمع وإنما كأنهم . . وليسوا منبوذين من الناس ، وإنما كأنهم . . لقد حكموا على أنفسهم بالعزلة والنفى .

قرأت قصة من التراث الغجرى فى رومانيا حكاها الأديب الإيطالى البرتو مورافيا . القصة تقول : إن شابا وسيما قد لعنه آباؤه . . فكان كل شيء يمسكه يتحول إلى سكين . . إذا لمس ملابسه تساقطت على شكل سكاكين . . وإذا مد يده إلى الطعام انكمش واتخذ شكل سكين . . وإذا لمس شعره كان ألوف السكاكين ورمش عينيه . . والبنت التى أحبها . . يطرده أهله بعيدا . . فكان إذا لمس الشجر تحولت إلى سكين . . يداه وساقاه وجسمه . . وأمام هذه الكومة الكبيرة من السكاكين وقف ينادى عليها ويبيعها للناس . وجاء الناس واشتروا . وأعطوه فلوسا تحولت هى أيضا إلى سكاكين . .

وتنتهى القصة بأن هذا الفتى وقف فوق مكان مرتفع ونظر إلى السماء قائلا : عرفت حكمتك يا رب . . عرفتها . وسوف أنفذها . وألقى بنفسه فوق السكاكين!

أما معنى القصة فيقولون : إن هذا هو حال الإنسان الغجرى فكل ما يلمسه يتحول سلاحا ضده : إذا غنى قالوا إن الغناء ليس إلا حيلة لكى يسرق . وإذا ضرب الودع ليكشف للناس خبايا وأسرار حياتهم قالوا : لكى تقوم واحدة غجرية أخرى بسرقة الأطفال والطيور . . وحتى إذا لم يسرقوا أو يخطفوا هاجمهم البوليس بحثا عن أشياء اختفت من البيوت . . أى أنهم فى جميع الأحوال ضحايا . . فى جميع الأحوال سكاكين من صنعهم تهدد حياتهم . . ولذلك فالغجرى ملعون أينما أقام وحيثما ذهب!

وإذا مات أحد الغجر ، فإن أحدا لا يصدقهم وإنما يفتحون النعش ليتأكدوا من أن أحدا فعلا قد مات . وفى نفس الوقت يرفضون دفنه فى أى مكان . وإذا تركوا موتاهم فى العراء جاء البوليس ليودعهم السجن لأن ترك الموتى هكذا يهدد صحة الأحياء . . والبوليس يطلب منهم أن يحملوا موتاهم ويرحلوا إلى مكان آخر . . فكانوا يلقون بموتاهم فى الماء . .

وربما كانت أول جريمة لتقطيع جسم الميت قد سمعت عنها فى المنصورة . فرجل غجرى مات . وكان ضخم الجثة . ولم تستطع زوجته وحفيدها الصغير دفنه . فما كان من الزوجة إلا أن قطعته بالسكين ليحملها الطفل قطعة قطعة ويلقى بها فى النيل!

ومن هناك جاءت أغنية غجرية سمعتها فى مطعم ببوخارست مع الزميل ممدوح رضا ومستشارتنا الإعلامية زينب محمود . الأغنية تقول : تمنيت لو كنت أفريقية . . أفريقية تمنيت . . من قلب أفريقيا . . من أفريقيا العميقة . . تمنيت لكى آكل المرضى وأدفنهم . . لكى آكلهم وأدفنهم فى أحشائى . . كما كانوا فى الأحشاء عادوا إليها . . تمنيت أن أكون من أفريقيا . . فليست لنا أرض ندفن فيها موتانا . . ولا أرض نرقص عليها فرحا بدفن موتانا والعودة إليها . . تمنيت . . ولكنى لست من أفريقيا ولا من أوروبا . . ولا من هذه الأرض . . ابكوا معى . . ابكوا علينا . .

ابكوا على أنفسكم . . ألستم غجرا مثلنا لا من أفريقيا ولا من أمريكا . . ولن تكونوا : يا تراب الأرض وديدان القبور . . يا غجر ! !

وعندما كنت فى روما رأيت فى الصفحة الأولى صورة لسيدة عجوز وفوقها : وفاة ملكة الغجر التى عاشت ثمانين عاما فى صحة وعافية . وكانت سيدة حرة تحكم بالعدل والرحمة . ماتت ملكة الغجر (ميمى) وجنازتها فى اليوم التالى . ونشرت الصحف عنوانها .

وحاول الصديق صلاح يوسف كامل مدير الأكاديمية أن يمنعنى من السفر ـ لتفاهة الرحلة . والعنوان فى يدى . ووجدت البيت وطابورا طويلا من الناس ليروا وجه الملكة قبل دفنها . الملكة شكلها قبيح جدا . كان يجب أن تموت من زمان . ولاحظت أنهم جميعا يرتدون زيا واحدا أبيض . وفى يد كل منهم وردة . وأنا وحدى بالقميص والبنطلون وفى يدى حقيبتى وبها ملابسى لعل أبيت يومها أسمع حكايتها أو حكاياتهم وأكتبها . وطبيعى أن يقترب منى أحدهم ويسألنى : أنت من أين؟

ـ من مصر . .

ـ غجرى؟

ـ طبعا . .

ـ وكيف عرفت وفاة الملكة؟

ـ من الصحف . .

ـ المصرية؟

ـ نعم . .

ـ إذن أنتم عددكم كبير . . وماذا قالت الصحف . .

ـ ما نشرته الصحف الإيطالية هنا . ولكن لم تكن لدينا صورة لها . .

ـ كم عددكم؟

ـ ألوف . .

ـ ولكننا لم نسمع أن مجتمع الغجر كبير فى مصر . . فقد كان لنا أقارب ولكنهم هاجروا إلى المغرب ومنها إلى أسبانيا . . كم يوما تبقى هنا؟

ـ اليوم فقط . .

ـ هل يمكن أن تجلس إلينا بعض الوقت . . أعتقد أننا فى حاجة إلى أن نسمع عن أهلنا فى مصر . . أنت تعرف أننا من مصر . . وأننا جئنا إلى هنا من حوالى مائة سنة . .

ـ أعرف طبعا!

ولكن بعد أن رأيت وجه الملكة . تسللت عائدا إلى روما وفى القطار رحت أفكر فى هذا الذى فعلته اليوم . وما المعنى؟

والمعنى أن شعورى بالوحدة والعزلة والبعد عن الناس والتفرج على المجتمع دون أن أشارك فيه ، وأننى وحدى حتى لو كنت بين ألف من الناس . .

فلا أنا غجرى الأصل ولا أريد ولا أستطيع حتى لو أردت .

ولكنه معنى عميق فى داخلى لا يزال فى حاجة إلى توضيح أو تفسير أو تبرير . . ولكنه هناك فى أعمق أعماقى . . وهذا المعنى قد صار أقوى عندما تخرجت فى الجامعة من قسم الفلسفة وكنت أكثر حيرة من أى غجرى فى أى مكان!!

لأنهم سرقوا مسمارًا من صليب المسيح!!

أول فيلم رأيته فى حياتى كان بعد أن تخرجت فى الجامعة . . وعلى الرغم من أن فى بلدنا أربع دور للسينما، أمر بها ذهابا إلى المدرسة وإيابا فإننى لم أفكر فى الوقوف عند الصور الجميلة. لا وقفت، ولا فكرت، فأنا من المدرسة للبيت ومن المكتبة للبيت . .

وقد قال لى صديقى وبلدياتى المخرج حسن الإمام: تعرف لو وقفت أمام أى دار من دور السينما . . ونظرت إلى الأرض لوجدت طفلا فى مثل سنك يمسح البلاط وينظر من بين رجليه طويلا إلى صور النجوم الجميلات . . هذا الطفل هو أنا . .

وقال لى حسن الإمام: إنه حاول أن يترك المدرسة وأن يعمل فى إحدى دور السينما مجانا لكى يتفرج على الأفلام ولا يأكل ولا يشرب . . وكان عنده استعداد لأن يرى الفيلم الواحد، عشرين مرة . . وفى الوقت نفسه لا يفتح كتابا، وحكى لى أن أول (علقة) أخذها فى حياته كانت حينما عاد فى إحدى اليالى إلى البيت وضبطوه يرقص عاريا فوق السرير مقلدا إحدى الجميلات، ولما ضبطوه سألوه: مغص؟ . فقال آه: . . مغص فى بطنى . . آه . . خدونى المستشفى آه . .

- وفين هدومك؟

- آه . . العفاريت . . العفاريت أخدوها . . بخرونى . . المستشفى . . العفاريت .

وبلغ من قدرة حسن الإمام على التمثيل والإخراج : أن صدقوه . . وأدخلوه المستشفى وبخروه !

لم أر حسن الإمام فى ذلك الوقت ولو رأيته ما عرفته ولا توقعت أن يكون مخرجا عظيما . . وأن الذى كان يعمله فى مسح بلاط السينما ليس إلا تدريبا وميلادا لفنان كبير !

أما هذا الفيلم فهو (غراميات كارمن) قصة الشاعر الفرنسى ميريميه ثم صار أوبرا من تلحين الموسيقار الفرنسى بيزيه وكانت بطلة الفيلم ريتا هيوارث الجميلة التى ماتت وعليها خمسة وعشرون قرشا . . فقد جاءت إلى القاهرة مع زوجها على خان ، وأرادا أن يذهبا للسفارة الأسبانية وليس معهما فلوس مصرية ، فأستأذنت إن كان معى أجرة التاكسى .

فأعطيتها ٢٥ قرشا ، ولم تردها حتى الآن . . لاهى ولا الورثة !

وفى الفيلم قامت بدور فتاة غجرية جميلة ، كل شىء فيها جميل ، الوجه والجسم والملابس والشخط والنطر ، وكانت غجرية قوية مثالية بطولية ، وقالت كلاما بديعا ، وكان لابد أن أكتب على هذا الذى رأيته لأول مرة . . وكتبت كثيرا حتى نبهنى الزملاء إلى أن أكف عن الكتابة فليس هذا هو الفيلم الأول والأخير ، طبعا ليس الأخير ولكنهم لا يعرفون أنه أول فيلم فى حياتى . . وفى ذلك الوقت كنت مؤمنا بالفلسفة الوجودية وداعيا لها ، وأصدرت أول كتاب عن (الوجودية) بلغة سهلة ، وما قالته ريتا هيوارث من عبارات هى من صميم الفلسفة الوجودية ، قالت كلاما لا يصدر إلا عن فهم سليم للوجودية وإلا عن واحدة غجرية صميمة !

ثم عاودت الكتابة عن الوجودية التى سمعتها فى (غراميات كارمن) ، ورأيت (أوبرا كارمن) على مسرح الأوبرا المصرية ورأيتها فى أوبرا فيينا ، والمعنى الذى اهتديت إليه يحاصرنى ويدفعنى إلى الكتابة وكتبت ، وبعد خمسة وعشرين عاما قررت أن أتفرج على الفيلم مرة أخرى وأن أتابعه على مهل وأستوقفه وأستعيد

العبارات الجميلة العميقة . . وكانت المفاجأة . فلم أجد عبارة واحدة لريتا هيوارث لها علاقة بالوجودية ، ولا كلمة !

إنها ـ إذن ـ الفلسفة الوجودية التى فى أعماقى هى التى أخرجت هذه المعانى وجعلتها عبارات بليغة وألصقتها بلسان ريتا هيوارث !

شىء عجيب !

مرة كنت فى الخرطوم وقابلت الزميل عادل رضا ، وسألته إن كانت هنا بيوت غجرية ، طبعا لم أسأل لا عن كباريهات ولا كازينوهات . . واندهش عادل رضا ، وكان رجلا مهذبًا خجولا ، وكأننى طلبت منه شيئا مستحيلا ، أو شيئا لا يليق بى أو يليق به ، ولكنه قال : دعنى أسأل .

وسأل ، وجاء وقال لى : عندنا صعوبة واحدة ، فالدنيا مظلمة تماما ، ولكن سوف نحاول .

وفى أحد أحياء الخرطوم المظلمة نجد لافتات تقول : عوائل . . أى أن هذه بيوت (عائلات محترمة) وليست بيوتا غير محترمة ، أما البيوت غير المحترمة فهى بيوت اللهو . .

وسألت عادل رضا : إن كانت مخاطرة أو هى فى أماكن غير محترمة تماما؟!

فقال : لا . . إنها بيوت يتردد عليها بعض السياح الأجانب . . وهى بيوت لغجر جاءوا من أثيوبيا . . يقدمون المشروبات والشيشة وتسمع فيها بعض الغناء والطرب ، وقد سألته إن كانت صحية أو نظيفة فأكدوا لى أنها كذلك ، وأنه شخصيا جاء إلى الخرطوم عشرات المرات ولم يذهب إليها .

وفى الظلام تجاوزنا بيوت (العوائل) إلى بيوت أخرى . . شكلها مظلم وكئيب من الخارج . . ولما انفتح الباب كان الضوء والألوان والموسيقى الهادئة ، وظهر رجل وسيدة وفتيات . . وعدد من السائحين الأمريكان والأسبان . . وقد جلسوا على الأرض ، وكان يرافقنا أحد الأصدقاء السودانيين وقال لهم بلهجة لا نعرفها ،

فظهرت الحفاوة على وجوههم، وصافحونا وجلسنا على الأرض، ويبدو أننا جئنا فى الوقت المناسب.

فقد ظهرت فتاة حلوة وملابسها مشخلعة وضحكتها أحضان حفاوة وترحيب

وقالت: أهلا بالحبايب ـ أو ما معناه كذلك.. أهلا بالعريس.. كل واحد عريس ما دام لم يتزوج.. أهلا أهلا!

وهمس عادل رضا فى أذنى قائلا: عندنا مشكلة.. أو عندك أنت مشكلة فالعادة هنا وإظهارا للمودة واحتراما للناس أن نغنى لهم شيئا من أغانى مصر.. الأمريكان فعلوا ذلك.. غنوا ورقصوا، وإلا..

ـ وإلا ماذا؟

ـ وإلا كان موقفك غير ودى.. وكنت متعاليا عليهم..

ـ ما تقول لهم إننى غجرى.

ـ صحيح أقول لهم؟!

ـ أيوه قل لهم!

فقال لهم. وهنا ظهرت السعادة على الوجوه، وبسرعة قامت المطربة الغجرية وجاءت بحزام عريض والتف حول وسطى وقبلتنى هنا وهنا.. وقالت: ألف مرحب بالحبايب والقرايب..

وخشيت أن تطالبنى بالرقص فصرخت: هنا غلطة فى الترجمة.. فأنا لست غجريا وإنما أحبكم فقط!

ولكنها قالت: لا.. أنا أول ما شفتك عرفت من أول لحظة إنك غجرى أبا عن جد!!

ـ ....

ولا أحد يعرف من أين جاء الغجر.. يقولون من الهند إلى أوروبا.. ويقولون من مصر. فكلمة غجرى بالإنجليزية هى: جيبسى.. وهى قريبة من كلمة إيجيبت..

وإجبشيان . . مصر ومصرى . . وفى اللغات الأوروبية الأخرى كلمة غجرى هى زانجرى . . وزنجالو . . وتسيجان . . ويقال إن زنجارى أو زنجالو . . من اللغة الهندية القديمة أو من السنسكرية . . فكلمة (سند) أو (سنتى) بمعنى هندى . . و(كالو) أو جالوا بمعنى داكن، أى هندى داكن أو غامق . . أسمر جدا . . وفى الريف المصرى كنا نقول عن الغجرى إنه: حلبى أى من حلب سوريا . . ولا نزال نصف الغجرى بأنه غير المهذب . . منكوش الشعر صارخ الصوت قليل الذوق . . والغجر معروفون فى كل الدنيا بأنهم يخطفون ويسرقون، أو متهمون بذلك . . ولكن فى كل قوانين حقوق الإنسان واحترام الأقليات عاش الغجر فى أوروبا شرقا وغربا، وقد حدث منذ سنوات أن جاءت فرقة موسيقية غجرية تعرض فنونها فى بريطانيا فظهرت الإعلانات تقول: فرقة غجرية، واحتج الغجر على هذا التمييز العنصرى واعتذرت الحكومة البريطانية . . أما لماذا يسرقون ويخطفون ثم يهربون.

فالغجر عندهم حكاية أسطورية ادعوا فيها أن المسيح عليه السلام هو الذى سمح لهم أن يسرقوا كل الشعوب غير المسيحية، لماذا؟ القصة الأسطورية تقول إن الرومان أعدوا أربعة مسامير لكى يدقوها فى كفى المسيح وفى قدميه . . فاقترب أحد الغجر وسرق مسمارا، ولذلك صلبوا المسيح ودقوا فى جسده ثلاثة مسامير فقط: واحدا فى كل كف أما القدمان فقد دقوا فيهما مسمارا واحدا.

فكأنهم قد خففوا عن السيد المسيح عذاب المسمار الرابع فكافأهم على ذلك بالعفو عن كل ما يسرقونه من غير المسيحيين!

وفى القاهرة وفى أوبرج الأهرام دعانى صديقى محمد عبد النبى صاحب الأوبرج إلى أجمل استعراض غنائى راقص فى الخمسينيات، وقال لى: سوف ترى أجمل فرقة غجرية. وقال:

أنا رأيتهم أثناء البروفات، لم أر أجمل من راقصات الغجر ولا من موسيقاهم، وسوف تجد بينهم واحدا يشبهك تماما، وربما كان هذا هو التفسير لحبك غير الطبيعى للغجر!!

وحاولت أن أقنعه بأن الغجر ليسوا هم الذين يشغلوننى وإنما هذا الأسلوب فى الحياة وهذا الأسلوب فى التفكير المفروض عليهم، فالناس أرادوهم غجرا فكانوا غجرا. اتهموهم بالسرقة فكانوا لصوصا، اتهموهم بالخروج على كل شىء فخرجوا. ولو توطن هؤلاء الناس ما كان هذا حالهم.. ولم أطل فى التفسير ولا كان عنده وقت ولا صبر لهذا الذى فى دماغى أنا وليس فى دماغه ولا دماغ أكثر الذين أعرفهم.. قال: تعال، وذهبت. وقدمنى لهم على أننى الموسيقار الصاعد وأن لى مقطوعات موسيقية ورقصات ومعظم موسيقى الأفلام المصرية. وليته لم يقل كل هذه الأكاذيب. فالغجر تحولوا من فنانين تلقائيين إلى فنانين يحاولون أن يكونوا منضبطين وأن يفسروا لماذا هذه الموسيقى ولماذا هذا الإيقاع وأتوا بواحد يترجم ويقول ما لم أفهم..

وانفجرت الطبول وصفقت الصاجات وخرجت البنات الغجريات ذوات الشعر الأسود الطويل الفاحم والبشرة الداكنة، وقال المترجم واقترب من أذنى وقال: هذا عرض خاص لك.. ولكن لا نستطيع أن نعرضه على الناس غدا.

فهناك تعليمات مشددة بأن تكون تعرية الجسم فى حدود.. ولكن ما دمنا أهل (كار) واحد.. فلا يهم!

فعلا لا يمكن أن تظهر البنات بهذه الملابس العارية إلا قليلا جدا.. والموسيقى تعوى وتصرخ، والبنات يتشنجن أو يدفعن من يتفرج عليهن إلى الصراخ وتأوهن وتثنين وتساقطن وذهبن إلى أبعد من ذلك كثيرا واقتربن ودرن حولى وأحطن بى.. هل هذا الذى أحدث لى دوخة أو هى نشوة، من المؤكد أنها دوخة فرائحة الراقصات فظيعة.. ولكن الراقصات جميلات جدا. وفهمت من صديقى محمد عبد النبى أن الفرقة هى التى أرادت أن تعرض فنونها بسرعة ما دمت أنا هذا الموسيقار العظيم. ولكن غدا إن شاء الله سوف يكن فى ملابس أجمل وعطور أروع..

وفى اليوم التالى ذهبت وجلست بالقرب من المسرح وخرجت البنات أجمل

وأرشق وأنعم واختفت التشنجات ، وقبل أن يبدأ البرنامج تقدم مذيع الفرقة وقال باللغة الإنجليزية : يسعد الفرقة ويشرفها أن يكون فى مقدمة المتفرجين علينا الموسيقار المصرى الكبير أنيس منصور صاحب الرقصات الشهيرة ومؤلف موسيقى الأفلام والذى يحبنا ويعرف تاريخنا حتى يخيل إلينا أنه غجرى ابن غجرى!

وقبل أن ينفتح الستار كنت قد هربت عن عيون المتفرجين الذين أدهشهم التقديم وراحوا يتلفتون بحثا عن هذا الموسيقار ، وهل هو فعلا كذلك أو هل هو الكاتب المعروف؟!

تمثال شامبليون وجزمته على رأس الفرعون!!

سألنى الدكتور حاتم أبوراس عمدة المصريين فى فيينا وابن كفر الشيخ : أنت جاد؟ فقلت : طبعا جاد . فأنا أريد أن أرى البيت الذى ولد فيه هتلر . هذا العبقرى الشرير . . واتجهت بنا السيارة إلى أطراف النمسا . إلى مدينة صغيرة اسمها (براون ـ آو) . هنا ولد أدولف هتلر ذلك الجندى المجهول الذى عبر الكوبرى الصغير بين النمسا وألمانيا . . فانتقل بألمانيا وبالدنيا إلى جهنم . .

وبعد ثلاث ساعات وصلنا إلى المدينة . المدينة صغيرة هادئة . ووجدنا حرجا شديدا فى أن نسأل عن البيت الذى ولد فيه هتلر . أما الشارع فأعرفه من الكتاب الذى فى يدى . وقطعنا الشارع القصير ذهابا إيابا . . وتوقفت عند كل اللافتات . . لا شىء يدل على أن هتلر قد ولد هنا .

وأخيراً . سألت فى حرج واضح إحدى السيدات . فأشارت بيدها إلى منتصف الشارع . ولم يظهر عليها الاستياء أو المودة أو الدهشة . لا شىء . . وذهبت إلى منتصف الشارع الذى مررت به أكثرمن مرة . ولم أجد شيئا وتقدمت من سيدة أخرى وبلهجة الباحث الجاد المستاء قليلا كأننى أكره السؤال والشخص الذى أسأل عنه . فالتفتت وراءها وأشارت إلى بيت مررت به كثيرا . ولكن الشىء الذى يدل على أنه بيت هتلر هو مجموعة من الكتل الحجرية السوداء كأنها محترقة أو كأنهم

قطعوها من المحارق التى استخدمها هتلر فى إحراق اليهود وخصومه السياسيين . . والغجر الذين اتهمهم هتلر بالتجسس لحساب اليهود فى أوروبا . وعلى الأحجار السوداء كلمات عن الحرية والحق والعدل والسلام . . وبس!

أما البيت فهو مثل البيوت الألمانية التقليدية : أبواب طويلة ونوافذ عالية . ولا توجد أية لافتة على الباب . وإنما البيت تسكنه إحدى الهيئات الحكومية . طبعا لاشىء يدل على أن هذا البيت أو هذا الشارع كان سكنا لرجل غير ملامح الدنيا . . فليست البيوت ولا الشوارع هى التى تخلق العظماء وإنما شىء فى العقل ينفرد به بعض الناس . .

وسألنى الدكتور حاتم أبو راس إن كان هذا كل ما أريد فأشرت إلى الكتاب الذى فى يدى . وقلت له : بقى شىء واحد . والكتاب يقول إن بالجانب الآخر من الشارع بيتًا صغيرا لونه أحمر بنى . وهذا البيت قد أقام فيه أحد الأغنياء من أصل غجرى . وفى البيت لوحات رسمها الغجر يسجلون فيها عذابهم الطويل فى أوروبا والعنف الدموى فى عهد هتلر . وعلى الجانب الآخر فى الشارع لم نجد هذا البيت .

وكان الدكتور حاتم أبو راس يعرف أن مواطنًا قد هاجر معه من مصر منذ ٣٥ عاما وأنه يملك إحدى الصيدليات . وراح يبحث عنه ثم أتى به . وسألته عنه قصة هذا الغجرى .

فسألنى : هنا فى براون آو؟

ـ الكتاب يقول إنه فى هذا الشارع .

ـ أى كتاب هذا؟

ـ كتاب (الغجر ضحايا هتلر) . .

ـ لم أسمع بهذا البيت . وربما كان فى قرية أخرى . .

وكنت أتمنى أن أبقى وقتا أطول . ولكن الدكتور حاتم يريد أن يعود قبل الظلام فهو يضيق بالقيادة ليلا .

فقلت له : هل أستطيع أن أساعدك؟

فضحك قائلا : بل تستطيع أن تساعدنى على أن أدخل السجن . . فلا معك رخصة ولا تعرف الطريق ثم إنك جئت تبحث عن هتلر فى بلد يخاف فيه أى واحد أن ينطق اسمه . . هاها . .

ـ أنا أستطيع !

ـ أما أنا فلا أستطيع !

ـ ما رأيك لو قلت . (هايل) يعيش هتلر .

ـ يا نهار أسود . أوع . . وإلا رجعت فوجدتهم أقفلوا الأجزاخانة وطردوا زوجتى ومعها قطتها إلى خارج النمسا !

ـ أنت جاد فيما تقول؟ !

ـ أى والله ! عندما نصل إلى فيينا سوف أحكى لك بالتفصيل حكاية السكران الذى هتف بحياة هتلر . وعلى الرغم من أنه كان مخمورا ، فقد أثبت البحث أنه لم يشرب إلا كأسا واحدة وهذه لا تكفى لأن يكون مخموراً . ومعنى ذلك أنه بكامل قواه العقلية هتف بحياة هتلر . .

ـ وبعدين؟

ـ نفس المصير . .

ـ مصير مين؟

ـ مصيرى لو سمعوك تهتف بحياة هتلر حتى لو كنت مازحا !

وفى فيينا طلبت من الزميل مصطفى عبد الله أن نذهب إلى المطاعم الشهيرة على أطراف فيينا . . المنطقة اسمها «هو ريجان» وفيها مئات المطاعم تقدم أحسن أنواع النبيذ النمساوى واللحم الشهير (فينراشنتسل) مع اللفت والفجل وموسيقى موتسارت . .

ولم يكن الطريق طويلا ، ولكن مصطفى عبد الله كان يتوقف من حين إلى

حين . ويفتح باب السيارة . ويمسح أنفه . لعله مزكوم أو خائف أن ينقل لى العدوى .

فقلت فى نفسى : ألاحظ أنه يعطس أو أن عنده رشحا . وكثيراً ما وقف فجأة . وخرج من السيارة وراح يدور حولها . وسألته : فيه إيه يا مصطفى؟ . .

ـ حتجنن!

ـ ليه . . ؟

ـ حتجنن . . البنت راح تتجوز وأنا أقعد لوحدى . .

ـ البنت مين . . ؟

ـ بنتى . . تخرجت فى كلية الطب فى فيينا وترتيبها الأولى . .

ـ مش فاهم . .

ـ كلها كام يوم والبنت سوف تتزوج .

ـ غصبا عنك؟ .

ـ لا . .

ـ طيب إيه اللى مزعلك؟

ـ بنتى الوحيدة . ظهر لها واحد طبيب من مصر واتفقا على الزواج .

ـ وبعدين؟

ـ وبس؟

إذن لم يكن مزكومًا وإنما كان يبكى حزينا على أن ابنته الوحيدة سوف تتركه لرجل آخر . . هو زوجها . إذن مصطفى عبد الله . لا يتصور الحياة من غيرها . ولايستطيع أن يمنعها من الزواج . . يعنى مصيبة!

قلت له : يعنى بلاش نروح المطعم الغجرى .

ـ لا . . لا . . سوف نذهب .

ـ وسوف تجلس معى؟ .

ـ هذا هو الحل الوحيد الذى سوف ينقذنى مما أنا فيه . . يا أخى عاوز أخنق الجدع ده اللى خطف بنتى الوحيدة!

ـ بلاش تقعد معايا يا مصطفى . . اتركنى هنا وأنا أعرف كيف أعود إلى فيينا . .

ـ لا أستطيع أن أتركك وحدك .

ـ فعلا أنت لن تستطيع أن تبقى معى لأن المطعم غجرى : الأكل والشراب والطرب والرقص . . وخصوصا الغناء الحزين الذى يوجع القلب . .

ـ هيه فيها وجع قلب؟

ـ وجع قلبهم هم . .

ـ وأنت كيف عرفت هذا المكان؟

ـ من الكتاب الذى معى!

ـ هوه كل حاجة عندك فى الكتب؟

ـ طبعا . . . .

ولا أظن مصطفى عبد الله كان فى حالة تسمح له بأن يصفق وأن يتابع المطربة الغجرية وهى تقول باللغة الرومانية القديمة القريبة من الإيطالية :

يا دنيا . . أيتها العدم الكبير الذى يستضيفنا على وجه اليأس . . يا دنيا . .

يا دنيا متى موعد العفو عنا والرحمة والتسامح . . يا دنيا . . يا دنيا لماذا نقف فى حلقك . . فلا نحن ندخل ولا نحن نخرج . . وإنما نكون نوعا من التأجيل . . من تعليق الحكم علينا أو الحكم لنا . . يا دنيا!

يا دنيا لماذا اخترت لنا هذا اللون القاتم لوجوهنا دون كل ألوان الطيف . . يا دنيا رضعنا منك الذل وشربنا المر وفى عروقنا الكراهية وفى عيوننا الخوف . . يا دنيا : إية دنيا أنت يا دنيا!

سألنى مصطفى عبد الله : أنت بتقول الله على إيه؟

ـ على المعانى الجميلة والصوت الحزين والمأساة البليغة .

ـ أين هذا الكلام؟

ـ فى هذا الكتاب . .

ـ وهذا الرجل كيف عرف ما فى الكتاب . .

ـ لقد أطلعته عليه فغناه . .

ـ آه . .

وجاءت لحظة صمت طويلة . . لم نسمع فيها إلا همس العشاق ولمسات الكئوس . . وجاءت المطربة وزوجها وابنتهما . وعلى عادتهم قبلونى بشدة .

وقالت لى زوجته : أنت غجرى من مصر؟

ـ نعم . .

ـ وماذا تعمل هنا!

ـ سائح .

ـ أنت تعرف أننا من أصول مصرية؟ . .

ـ أعرف . .

ـ يعنى ممكن نكون أقارب؟

ـ نحن كذلك .

ـ شكرا . .

ـ عفوا . .

ومع الدكتور فاروق شحاتة مستشارنا الثقافى فى فيينا اتجهنا إلى مدينة براتسلافا عاصمة سلوفاكيا وهى على مسافة خمسين كيلو مترا من فيينا . المدينة من أجمل الموانى على نهر الدانوب . ولا تزال فيها القصور والقلاع القديمة . . وأشجار التفاح تملأ الشوارع . ولكنى لم أر أحداً من الفقراء يمد يده إلى تفاحة .

إنها مال عام . أما سبب الزيارة فهو أن نرى المدينة القديمة ، أن نشترى سلعا

أرخص. ولكن هذه السلع لا تهمنى. وإنما لأننى أعرف أن عدد الغجر فيها بالألوف. ومن السهل التعرف عليهم.. ووجدتهم وعرفتهم. قصار القامة والشعر منكوش والعيون سوداء زائغة. وأشرت إليهم. لكى نلتقط صورة معا. وجاءوا ولا أفهم ما يقولون. ولكن قلت لهم بالإيطالية: لو تكلمتم الرومانية فسوف أفهم ما تقولون.. وقالوا. ولم أفهم وقلت ولم يفهموا. والتقطنا الصورة. أغلى صورة فى حياتى. فقد سرقوا حافظة نقودى!! لقد تم ذلك بسرعة هائلة. فلم يستغرق وقوفنا معا إلا لحظات!

وفى باريس طلبت من الزميل الدكتور أحمد يوسف أن أرى الأماكن التى لا يلتفت إليها السائح عادة. أردت أن أرى البيت الذى كان يسكنه الراهب أبيلار وهرب مع محبوبته الراهبة هلويزة. ووجدنا البيت على ضفة نهر السين. وعليه لافتة.. وذهبنا إلى شارع المصريين وشارع الفقراء وقصر الأنف الطويل.. وأماكن أخرى كثيرة. وسألنى الدكتور أحمد يوسف: لقد أنفقنا اليوم كله. فماذا تريد بالضبط؟

وقبلها بيوم ذهبت معه إلى جامعة السوربون أريد أن أنتسب إلى قسم الفلسفة. واخترت (علم الجمال) وذهبت إلى مكان المحاضرة وإلى الأستاذ المختص، فقد لاحظت فى الأيام السابقة أننى لا أفعل شيئا فى باريس. فقط فى الصباح أذهب إلى زوجتى فى إحدى مصحات العلاج الطبيعى على بعد تسعين كيلو متراً من باريس وأبقى طوال النهار ثم أعود إلى باريس.. ثم أقرأ الصحف وأمر على المكتبات. ولم يعد فى المكتبات شىء جديد لم أتوقف عنده وأقلب فيه ثم أشتريه. أما الصحف فلم تعد تهمنى. فقررت أن يكون لى أى نشاط إيجابى. فذهبنا معا إلى السوربون. ورأيت شيئا استفزازيا. رأيت تمثالا للعالم الفرنسى شامبليون الذى فك طلاسم اللغة الفرعونية. ولولاه ما عرفنا تاريخنا. هذا التمثال فظيع. لقد وقف شامبليون وقد وضع جزمته على دماغ أحد الفراعنة! ما هذا؟ سألنا وقالوا لنا: إنه يريد أن يقول إن كل شىء تحت قدميه. أى أنه قد عرف أسرار كل شىء!

وقد قرأت من أيام للدكتور حامد طاهر نائب رئيس جامعة القاهرة فى كتابه الأخير «تجربتى مع الشعر» أنه اندهش جداً كيف أن توفيق الحكيم ويحيى حقى

وغيرهما قد زاروا باريس ولم يشيروا إلى هذا التمثال الفظيع الذى أراد به الفنان أن يقول إن العالم الفرنسى شامبليون قد سيطر على الحضارة القديمة. فكان تعبيرا بشعًا!

وليس من أجل هذا أجدنى ألف وأدور فى شوارع باريس مع الزميل أحمد يوسف.. ففى الكتاب الذى معى أن أحد الغجر الأغنياء. قد صنع تمثالا وضعه أمام البيت وليس فى داخله. والتمثال عبارة عن رجل غجرى قد وضع جزمته على رأس شامبليون. لماذا؟ لأن هذا الغجرى من أصل مصرى فأراد أن ينتقم لإهانة أجداده من الفراعنة!!

وذهبنا إلى البيت. الشارع مضبوط. ورقم البيت مضبوط. ولكن البيت تحول إلى دكان جزارة. ولم نجد أحدا نسأله: منذ متى تحول البيت إلى دكان جزارة.

فقررت أن أرجئ البحث يوما آخر..

وفى إحدى المكتبات فى شارع الشانزليزيه قابلت الزميل عبد الله الشمرى الأديب العراقى.

قال لى: أنا وجدت حلا لمشكلتك.. حلا عبقريا مثلى.

ـ ماذا وجدت؟

ـ خذ هذه الكاميرا وارجع إلى الوراء قليلا: واحد. اثنين. ثلاثة..

ـ مش فاهم!

ـ انظر إلى ما تحت قدمى..

.. وجدت نسخة لمذكرات شامبليون وقد وضعها تحت جزمته وقال لى: صور ولد.. صور. هاها.. هاها..

ومع الزميل الدكتور أحمد يوسف رحنا نتنقل بين المقاهى الوجودية: دى ماجو. م. ودفلور.. وبيتى بالكون.. هنا كان يجلس الفيلسوف الوجودى سارتر والأديبة سيمون دبوفوار. هنا كان يشرب النبيذ وتفيض البلاغة من أصابعه.. أى

جمـال أى جـلال أى عـمق أى إبداع . . شىء عـجـيب أن يشع هـذا النور علينا من رجل قـزم أحـول أصلع قـبـيح الوجـه . . كـأنه سـقـراط أو الجـاحظ أو أبو حـيـان التوحيدى ـ كلهم فى غاية القبح . قبح الشكل وليس الكلام!

وفى الليل تسللت وحدى . . إلى الحى اللاتينى . . واتجهت يمينا ثم شمالا ثم يمينا . . تماما كما يقول الكتاب الذى فى يدى . وعلى الباب كان زميل الدراسة أستاذ الفلسفة فى دمشق الدكتور بديع الكسم . . كان رقيقا هادئ الصوت عميق النظرة . . بادرنى : سوف ترى أجمل ما فى باريس . . ليس جميلا لأنه تحفة فنية فى الجمال والأضواء والإخراج . . وإنما هى بقعة قد نسيتها الحضارة الغربية . فهى بقعة من التاريخ القديم . . ادخل . . ادخل!

وأمسكت يده وتساندنا . . فالسرداب مظلم . . وأضواء خاصة جاءت من بعيد من أصـوات الدفـوف والصـاجـات . . وكـأنهـا جلسـة تحضيـر أرواح . . فـالوجـوه زرقاء . . والأجسام أشباح والشىء الحقيقى هـو صوت المطربة . . صـوتها مبحـوح تقول : الله أعطانى موهبة . .

أن أكرر الشىء ألف مرة
أعطانى موهبة . .
أن يسمعنى الناس ألف مرة
فلا يتثاءب أحد ولا مرة
الله أعطانى موهبة
أن يلعننى الناس ولكنى لا أسمع
الله أعطانى موهبة
أن يزورنى الناس ولا أزورهم
أعطانى موهبة
أن أضحك على الناس ويسعدهم ذلك

أن أوهم الناس أننى مطربة

ويصدقوننى

وأن أسرقهم فلا يشعرون . .

ضعوا أيديكم فى جيوبكم . لن

تجدوا فلوسكم . إنها موهبة!

وتنفتح الأنوار . . ونرى المكان فسيحا . . والناس من كل لون رجالا ونساء يضحكون للأغنية الحزينة . . ويضعون أيديهم فى جيوبهم فيجدون فلوسهم كما هى ولكن مع صورة للمطربة . أما كيف دخلت الصورة؟! هاها . . هاها . . فإن الله قد أعطاها موهبة!

إنها أعجوبة!

آخر كلام عن
ديك فصيح.. لا يصيح!

كان وجيه أباظة رجلا ظريفًا ابن نكتة وابن بلد وابن ذوات . . وكلها دقيقة أو دقيقتان لتجد نفسك فى قلب القبيلة الأباظية . فوجيه أباظة يحدثك عن الذى اشتراه أخوه حسين من الأقلام وأدوات المكتب وعن الذى قاله اليوم ثروت أباظة ونوادر رشدى أباظة وحكمة عمو عزيز باشا .

وكان وجيه أباظة أيامها محافظا للغربية . وذهبت لزيارته وكان صادق الفرحة بى فقال لى : عاوز إيه . . عاوز تتفرج على إيه فى طنطا؟

أقول؟ ما أقولش! . أقول . . ما أقولش! . ولكن قلت له : أريد أن أرى أماكن الطفولة فقد عشت فى طنطا سنة كاملة ولم أكن سعيدا . . فالتاريخ الشخصى كالتاريخ القومى ليس كله لعبا ولهوا .

قال لى : عاوز إيه بالضبط؟ . .

ـ بالضبط لا أعرف . ولكن عاوز أشوف المدرسة التى كنت بها . . واسمها مدرسة الست مباركة . وكنت أسكن فى شارع الجنبية الغربى الموازى للسكك الحديدية . . وأريد أن أتوقف بعض الوقت عند (كفر علاغة) . . (على أغا) . .

فأشار بيده إلى أحد الجالسين . . وبسرعة نهض . وبسرعة نزلت إلى الشارع . وقلت للسائق : على مهلك هنا .

ومن غير أن أخطر أحدا ذهبت إلى مدرسة الست مباركة القريبة من ميدان المحطة . . المدرسة قديمة جدا متهالكة جدا . وأنا لا أذكر كيف شكلها يوم كنت تلميذا . . ولكنها مظلمة منهارة أو سوف تنهار قريبا . . وقابلت أحد المدرسين . لم يكن يعرف أنى كنت بها يوما ما . . ولا أدرى ما الذى أعجبنى أو ضايقنى أو ما الذى أضفته إلى معلوماتى أو ما الذى كنت أريد أن أعرفه . .

وبعد دقائق خرجت لأشير إلى السائق والضابط المرافق أننى أريد أن أرى البيت الذى كنت أسكنه .

الشارع كله تراب والجو كله هباب . وواجهات البيوت كالشارع ليست لها معالم . أو كأنها مقابر وقد وقفت على حيلها . وحاولت جاهدا أن أجد البيت الذى عشت به . . وتذكرت كيف أن بائع الزبادى كان يرسم بالطباشير على كل البيوت خطوطا بيضاء . الخط يدل على أننا أخذنا ولم ندفع بعد . . وكيف أن طفلا فى ذلك الوقت لم يفكر فى أن يمسح خطا واحدا . . أى يغالط بائع الزبادى ويسرق منه سلطانية . لم يفكر أحد فى ذلك . لا أنا ولا غيرى . . ولا أظن أن بائع الزبادى الآن يستطيع أن يرسم خطا بالطباشير على أى باب دون أن يتطوع أى طفل ويمحو هذه الخطوط . . وكل ما أذكره أننا كنا نلعب فى هذا الشارع ألعابا خشنة . كأن ننام على الأرض ويقف على صدرى أحد الأطفال . وحبذا لو كان سمينا ثقيلا ليدل ذلك على قوة الاحتمال . وبعضنا كان ينام ويضع على صدره حجرا ونحطمه وهو على صدره . . أو ينام على الأرض ويقفز من فوقه زميل آخر راكبا البسكليت . ولابد أننا كنا نقلد ذلك (الشجيع) الذى يرتاد الشوارع يقوم بهذه الحركات إظهارا للقوة وطلبا للرزق !

وأذكر أول مرة أصابنى فيها تقلص فى مصرانى الغليظ ثم لازمنى عشرات السنين : فقد كنت أزور أحد الجيران وأستعجله لكى نلعب . وفوجئت به يثور على والدته . . ويلقى فى وجهها طبق ملوخية ! !

فى هذه اللحظة البشعة أمسكت جنبى وظللت طوال عمرى أفعل ذلك . لقد كانت صدمتى شنيعة !

وعلى الغداء قابلت رجلا مبروكا أو يقولون إنه من أولياء الله الصالحين. الرجل اسمه الشيخ محمد محرم. وصورة الشيخ محرم موجودة فى دكان الحاج عبدالفتاح عرفة صاحب محلات الحلويات بالقرب من مسجد السيد البدوى.. والصورة فى مكان رفيع إيمانا بكرامات الشيخ محرم. قال لى وجيه أباظة إن الشيخ محرم جاءه يوما وقال: غدا سوف تحكم المحكمة لصالح السيدة حرمكم!

وكانت مفاجأة. فقد نسى وجيه أباظة أن هناك قضية وأن موعد الحكم فيها فى اليوم التالى. وجاء الغد ومعه الحكم لصالح السيدة حرمه. وحكى لنا حكايات كثيرة أمام عشرات من الناس عن كرامات الشيخ محرم.

وكان له أصدقاء كثيرون يصدقون موهبته الروحية. ومن بينهم الكاتب الكبير محسن محمد والسيدة زوجته هند أبو السعود وعشرات من الفنانين ورجال الأعمال، وكل واحد عنده حكاية.

وكنت لا أصدق كل ما أسمع، ولا كان كاتبنا الكبير يوسف إدريس. فذهبنا إليه فى قرية الرجدية. ولم يكد يرانا الشيخ محرم حتى قال لى: اصبر.. إن الله سبحانه وتعالى يمتحن عباده. اصبر. أنا أعرف أنه شىء مؤلم ولكن اصبر على ما أصابك فإن هذا من عزم الأمور!

ولم أعرف ولم أفهم. ولم يشرح لى ماذا يقصد.

واتجه إلى يوسف إدريس وقال له: أنا عارف أنك لا تصدقنى. وأنا لست صاحب رسالة، أستغفر الله. ولكن الله أعطانى قدرا من الشفافية. هل أستحقها؟ لا أعرف.. ولا أدعى علم الغيب، أستغفر الله. وإنما عندى إحساس غامض بمعرفة ماذا سيحدث. أنت غلطان يا ابنى غلطان جدا. أنت منذ الأمس قد خسرت صديقا غاليا. اعتذر له بقلب طيب!

وكان يوسف إدريس واقفا فجلس. وضرب كفا بكف. والتفت لى وقال: أنت عارف ماذا حدث أمس.. شىء غريب!

وكانت خناقة بين يوسف إدريس ويوسف السباعى. فأمر يوسف إدريس سهل.

فالرجل قد حكى له ما حدث بالأمس، ولكن الصعوبة كلها فيما سوف يحدث لى غدا، أو بعد غد. ففى اليوم التالى صدق الذى أحس به الشيخ محرم لقد ماتت خالتى الغالية! ولم أجد شيئا من الصبر الذى حدثنى عنه أو الذى تمناه لى . .

واعتدت أن أجلس إلى الشيخ محرم فى محل الحاج عرفة. والحاج عرفة رجل دائم الابتسام عظيم الصبر. فقد ذهب ابنه إلى حرب اليمن ولم يعد. وكان يقول: إن العصفور طار إلى الجنة. ولم يعد. ربنا ييسر علينا أن نطير إليه!

وكنت أداعبه وأقول له: يا حاج عرفة أنت الوحيد الذى اسمه حديث نبوى شريف. فقد قال صلى الله عليه وسلم: الحج عرفة!

وفى يوم قلت للشيخ محرم: أنا جئت أستوضح شيئا . .

فضحك الرجل قبل أن أكمل عبارتى وضحك وأخرج منديله ليمسح دموعه. وسألته فقال: ولا يهمك إنه مبلغ صغير . .

ـ أى مبلغ؟

ـ المحفظة وقعت منك. مش كده؟.

وبسرعة وضعت يدى على جيبى. فعلا لم تكن هناك!

وزارنى الشيخ محرم فى مكتبى فى (أخبار اليوم). ولم يكد يجلس حتى مددت يدى إلى التليفون وقلت: اطلع دلوقت . . أيوه جاء حالاً . . اطلع!

وجاء الكاتب الكبير موسى صبرى وصافح الشيخ محرم مستخفا به. وقد أدرك الرجل ذلك. وضحك طويلا وكثيرا.

وسأله موسى صبرى: ما الذى يضحك؟.

ـ أقول لك ولا تزعلش . .

ـ يا ريت . .

ـ ولا تزعلش؟

ـ أبدا . .

ـ أنصحك أن تأخذ معك بدلة أخرى للمقابلة بتاعة بكرة .

ـ وبكرة أنا رايح فين؟ ما عنديش مقابلة!

ـ أنت عارف . .

ـ لن أذهب إلى أى مكان . . بالعند فيك!

ـ سوف تذهب . .

ـ . . . .

وفى اليوم التالى تشاجر موسى صبرى مع مطربة كبيرة مشهورة فألقت بملابسه كلها من النافذة!

وقابلت موسى : ما رأيك؟

ـ رأيى إيه بعد اللى حصل . . إنجيل عاوزة تشوفه .

وإنجيل هى زوجة موسى صبرى أعطيتها العنوان . وذهبت إليه كثيرا . وفى كل مرة ترجع وعندها حكايات عن نفسها وعن غيرها من الزائرات!

ما هذا الذى يحدث!

ليس عندى جواب . ولا عندى تفسير . ولا عند الشيخ محرم . وقد سمعت من الحاج عرفة أن الشيخ محرم قال له : إنه سوف يموت يوم كذا الساعة كذا . . وإنه سوف يسقط من السرير إلى الأرض!

ولأن الحاج عرفة كان مؤمنا بمواهب الشيخ محرم فذهب إليه قبل الموعد الذى حدده للوفاة بدقائق . فدخل أحد أقارب الشيخ محرم يستأذن فى اللقاء وجاءت الموافقة ليجده الحاج عرفة على الأرض وقد خرج السر الإلهى!

وسمعت من أحد موظفى محافظة الغربية وفى بيت وجيه أباظة : أن الشيخ محرم قد طلب من أحد المريدين أن يأتى معه بثلاثة من الخراف . وألا يذبحها إلا بعد الظهر . . ولم يفهم هذا الرجل المريد . وإنما أطاع الشيخ محرم . وأتى بالخراف فى سيارة أوقفها أمام البيت . وفى هذا اليوم توفى الشيخ محرم . وذبحها ووزعها على الفقراء بعد الظهر كما أشار الشيخ أو تنبأ!!

وبذكاء وجيه أباظة أخذنى إلى جانب من القاعة وقال لى : أقطع ذراعى من هنا إذا كنت قد جئت لترى المدرسة والبيت والشيخ محرم . . قل لى بصراحة لماذا جئت!

وقلت له . واندهش جدا . ولم يفكر كثيرا . وقال : السيارة تحت أمرك . عاوز تروح لوحدك . . وإن كنت أفضل أن يرافقك أحد فى هذه المنطقة الغريبة العجيبة!

واتجهت إلى كفر علاغة (على أغا) . ونزلت من السيارة ورحت أسأل عن بعض الناس . . وخرجت بالسيارة إلى خارج الكفر . وانطلقنا فى الحقول . يمينا ويسارا . ولم أجد أحدا من جماعات الغجر التى جئت أبحث عنهم . أما السبب هذه المرة فمختلف تماما . فقد كان والدى يرحمه الله يتردد على هذه الأماكن . وكنت صغيرا أتعلق بذيله ، وغير فاهم . وحاولت وبعد ذلك فهمت . فأبى برغم أنه شاعر رقيق صوفى فى غاية الصفاء كان يمارس هواية (صراع الديوك) . فقد كان له أكثر من ديك . ولابد أن أمى قد اعترضت على هذه الديوك فى البيت . فكان والدى يحتفظ بها عند أحد أصدقائه فى كفر على أغا . . وكان الديك ضخما . وأبى لا يمل أن يلمس ريشه فينشر جناحيه . وأهم من ذلك أصابعه وخاصة أصبعه الأعلى . فكان يستخدم المبرد والصنفرة ليجعله ناعما حادا . يضع على الأصبع زيتا ثم يجلوه ويمسحه حتى يبدو لامعا قاطعا . .

وكان يقوم بتلميع منقاره . ثم يرفعه على يديه . وأحيانا يضعه على كتفه . ويتأمله سعيدا بذلك . هل كان لديه ديك واحد أو أكثر لا أعرف . . وكنت أنظر ولا أعرف كيف أفهم . فهو ديك نراه أحيانا لا يأكل ولا يشرب فى البيت وإنما يأخذه والدى بمنتهى الحماس والحرص عليه إلى مكان ما فى كفر (على أغا) . وهناك يلتقى بأصدقاء آخرين وقد حمل كل واحد منهم ديكا . ولا تكاد الديوك ترى بعضها بعضا حتى تثور وتحاول أن تقفز . وكان الرجال يحرصون على ألا تتقارب أو تتشابك . ولكن الديوك جاهزة للمعركة .

وكانوا ينتظرون جماعة من الغجر وقد جاءوا بأقفاص . وفى الأقفاص ديوك . وبسرعة يكنسون الأرض . ويرشونها بالماء والرمل . ويلتف الناس على شكل

دائرة . . وكان يدهشنى أن أجد والدى قد جلس على ركبتيه وأطلق الديك ، وفى الوقت نفسه ديك آخر . وبسرعة يتشابكان . ويضرب كل منهما الآخر بالأصابع التى صارت حادة . و(يتناقر) الديوك . . أحدهما يركب الآخر ويظل يغرز منقاره فى لحمه حتى يسيل دمه . فإذا رأى الديك دمه توقف عن العراك . ويقف الديك الآخر فوقه أو أمامه معلنا انتصاره وانتهاء المباراة . ليبدأ صراع بين ديكين آخرين !

وبسرعة تجد غجريا يقفز من بين المتفرجين والسكين فى يده ويذبح الديك المغلوب ! .

وحاولت كثيرا أن أعرف تاريخ صراع الديوك فى مصر . وعرفت أن قرارا قد صدر أو قانونًا بتحريم (صراع الديوك) من باب الرفق بالطيور !

ولكن عندما ذهبت إلى جزيرة بالى بأندونيسيا سنة ١٩٥٩ . لم أكن فى حاجة إلى البحث عن حظائر الديوك وعشش الفراخ . فقد كانت المصارعات تقام فى الشوارع . ويقامر الناس على الديك الذى سوف يكسب كما يحدث فى سباق الخيول ! وهذا القمار يخرب البيوت الفقيرة فى أندونيسيا . . ثم إن صاحب الديك لا يجد تعويضا كافيا عن خسارته . ولكن صراع الديوك إدمان لمن يملك الديوك ولمن يراهن عليها !

وفى الفلبين وجدت صراع الديوك قد أدخله الإسبان الذين لا يزالون يمارسون (مصارعة الثيران) تلك الرياضة الدموية . وفى الفلبين حظائر لتربية الديوك يسمونها COCK Pit (كوك بيت) أى عشة الديك أو عشة الفراخ .

ومقدمة الطائرة يسمونها (عشة الفراخ) وفى القرن السابع عشر فى لندن كان هناك مسرح اسمه (كوك بيت) أى عشة الفراخ . . ويسمون دولة بلجيكا (عشة الفراخ) لأن كل الحروب الأوروبية تجتاحها . . وتدمرها وهى ذاهبة إلى القتال ، وهى عائدة أيضا . .

وفى الفلبين طوروا صناعة (صراع الديوك) . فهم يختارون أحسن السلالات . وخاصة التى من تكساس الأمريكية . . ويقولون : إن الديك من تكساس هو

الديك . . كما نقول نحن إن الحمار الحصاوى هو الحمار . . والحمار الحصاوى هو (الحساوى) نسبة إلى منطقة الحسا فى السعودية . . ثم إنهم فى الفلبين بدلا من إضاعة الوقت والجهد فى تحديد أصابع الديك . . أى جعها حادة قاتلة، فإنهم يضعون نصلا أو شفرة من الصلب ويربطونها فى رجلى الديك . فإذا صارع ديكا آخر قضى عليه فى دقيقة واحدة . . ويجيىء ديكان آخران . . وعشرون ومائة فى اليوم الواحد . . والمراهنات بالألوف . وتقام هذه المباريات فى حظائر كالمدرجات يجلس فيها الناس ويصرخون . . والديوك تقتل بعضها بعضا وقد فصلت الأسلاك العالية بين المشاهدين والمتقاتلين . .

ويبدو أن صراع الديوك قد جاء إلى مصر مع الغزو الإغريقى والرومانى كما جاءت الخيول الآسيوية مع غزو الهكسوس . ويقال إن أشهر المصارعين : هم : الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر والقديس بطرس وهنرى الثامن ملك إنجلترا . وقد حرم الإنجليز هذه الرياضة الدموية فى أوائل القرن الثامن عشر . . وحرمناها فى مصر ولا أعرف متى . . ولم يتسع وقتى لأسأل كيف ومتى ولماذا حرمناها فى مصر . ومن أين كنا نأتى بهذه الديوك الضخمة؟ ويقال فى عهد الخديو توفيق . .

وأخيرا قرأت فى كتاب مترجم عن الإسبانية عنوانه (صراع الديوك ـ رياضتنا الوطنية الأولى) من تأليف الفلبينى إنجيل لا نسانج: إن توليد الديوك وتهجينها كان يتم فى المكسيك وفى أمريكا ثم ينقلونها إلى الشرق الأقصى وبعد ذلك إلى كل بلاد العالم . . ومنها مصر!

ولما عدت إلى وجيه أباظة بادرنى بقوله : شكلك كده أنك لم تجد كل ما أردت!

فقلت : فعلا!

ـ ماذا تريد؟

ـ إننى أبحث عن رجل اسمه غريب اسمه : ديكال أو ديك فاسا . .

ـ من الذى قال لك عن هذا الاسم . .

ـ رجل كبير فى السن يبيع البخور فى شارع الشيخة صباح . .

فأشار وجيه أباظة إلى أحد الحراس أن يأتى بهذا الرجل . . ثم استدرك قائلا : عاملوه باحترام ليس متهما . . يعنى لا قلم ولا شلوت . . هاها . .

ـ هاها . .

وجاء الرجل . وحكى لنا حكايات مسلية عن مصارعة الديوك . . وعن دور الغجر فى تنشيطها والاحتفال بالديوك التى انهزمت ولا يريد أصحابها رؤيتها لأنها بالنسبة لهم خسارة فادحة وفضيحة . . وقال لنا إنه شخصيا من أصل غجرى وإنه اسمه الحقيقى ليس (ديك فاسا) وإنما هو الذى اختار لنفسه هذا الاسم الذى هو فى الأصل (الديك الفصيح) . ثم أستأذن فى أن يدخل أحد أحفاده الواقف أمام الباب فى حالة من الرعب فقد ظن أنهم سوف يحبسونه . . فقد توارث الغجر الخوف والاتهام بالسرقة . وبسرعة دخل الولد وقفز كأنه قرد، وهجم على طفاية السجائر من فوق مكتب وجيه أباظة وأخرج سكينا من جيبه وراح ينقر على الطفاية وفجأة وجدنا (الديك الفصيح) يغنى :

من يومها . . من يومها
وأنا . . أنا إيه؟ ديك فصيح !
من يومها . .
قلبى حديد . . ولكن
أبكى أحيانا . . أبكى إيه؟
أحيانا . . من يومها قلت لكم . .
وأنا أحلم بالديك . . من يومها
وجاء اليوم اللى اختفت
فيه الديوك . . ومن يومها . .

مع بعض الكلمات التى ليست عربية . وهذه الكلمات التى تجىء فى نهاية كل مقطع لتخلق شيئا من الموسيقى أو الوزن لهذه الأغنية التلقائية أو المرتجلة . .

وقال لنا (الديك الفصيح) إنه آخر الغجر فى محافظة الغربية وربما فى مصر كلها . .

ثم حكى لنا أن أجداده قد ماتوا فى (الدوسة) . . والدوسة كانت تحدث فى الموالد . . فالخليفة يركب حصانه . . ويتقدمه اثنان . . ثم (يدوس) الحصان فوق عدد من الناس قد انبطحوا على الأرض .

وتدخل حوافر الحصان فى بطونهم وتقتلهم . ويرى هؤلاء المساكين أن هذا شرف لهم أن يموتوا تحت حوافر حصان الخليفة . . أما الخليفة فهو من السادة السعدية ـ أى أتباع سعد الدين الجبائى نسبة إلى قرية (جبا) بالقرب من دمشق . .

وكان الناس ينتظرون الخليفة ساعات وكان المريدون يقدمون لهم الماء والأكل ، حتى تحين لحظة الشرف والموت . . ومن الغريب أن السادة السعدية كانوا يستأجرون الغجر ليكونوا ضحايا (الدوسة الشريفة) . . وأن أجدادهم كلهم راحوا هدرا وبملاليم معدودة مع أنهم لم يكونوا من المسلمين ولا من المتمسكين بالدين . . وإنما فقراء محتقرون من الجميع . .

وفى إحدى المرات أصروا على أن يرتدى أحد أجداده ملابس سيدة ويضع الأبيض والأحمر . . وقال إنهم كانوا يدفعون فلوسا للرجلين اللذين يقودان حصان الخليفة لكى يتفادى فلانا وفلانا ويدوس جده . ولما مات جده لم يدفنوه . . فقد احتقروه حيا وميتا ! !

* * *

ثم اتجه الرجل إلى الباب والتفت إلى وجيه أباظة وقال : بالإذن سيادتك . . فأنا آخر ديك فى مصر !

عندها أشار وجيه أباظة إلى أحد حراسه بأن يعطيه مبلغا من المال وأن يعيده مكرما معززا إلى بيته قائلا :

إنه مطرب شعبى وليس مجرما . . لا ضرب ولا إهانة !

وهكذا انتهت حكاية آخر غجرى رأيته فى حياتى !

حكايات مع الذين لهم نفس الاسم !

كان يوسف السباعى هو الصديق الوحيد الذى يبدأ مكالماته التليفونية بأن يضحك : هاها . . ولابد أن تسأله . . فقال : إيه اللى أنت عملته فى الشيخ أبو زهرة . الرجل زعلان جدا وطلبنى بعد صلاة الفجر . . هاها !

أنا لم أفعل شيئا . وإنما هو الذى هاجمنى فى نقابة الصحفيين . . فقد صدر لى كتاب عن (الوجودية) . ولم يكن يفتح أى صحيفة إلا ويجد كلاما مع الوجودية أو ضدها و ضدى . وفى نقابة الصحفيين قال : إننى أعرف هذا (الولد) . . إنه مسيحى ، وأبوه اسمه جرجس وهو يحتمى بالمسلمين ! !

وطبعا فى هذه الحالة لا معنى لأن يسأله أحد ما علاقة الوجودية بأن يكون أحد مسلما . . أو مسيحيا خائفا يلوذ بالمسلمين ! ووقف يوسف السباعى واستنكر موقف الأستاذ أبو زهرة أشهر أساتذة الشريعة فى كلية الحقوق جامعة القاهرة . وقال : بل هو مسلم وصديق قديم . وأنا متأكد من ذلك !

وقامت السيدة أمينة السعيد واستنكرت مثل هذا الأسلوب فى المناقشة . وسألت الشيخ أبو زهرة : هل لو كان مسلما يكون لك موقف آخر . . ثم إنه مسلم . ولكن أنا مندهشة من هذا السلوك لعالم جليل مثل الأستاذ أبو زهرة ! وانفض الاجتماع فى نقابة الصحفيين والزملاء فى دهشة من مثل هذا الأسلوب الذى لا يليق بالعلماء !

وفى اليوم التالى اقترح يوسف السباعى أن أذهب للقائه . . ووافقت فورا . ففى جميع الأحوال سوف أجد كلاما أنشره معه أو ضده .

وذهبت إليه فى كلية الحقوق . وأدخلونى وصافحته وقلت له : يا أستاذ أنا لم يسعدنى الحظ فأستمع إلى محاضرتك فى نقابة الصحفيين . . وهجومك على أنيس منصور . .

ـ أنت مين يا ولد؟

ـ أنا صحفى من (روز اليوسف) . .

ـ وعاوز إيه؟

ـ أستوضح الأمر . .

ـ أى أمر؟

ـ ما قلته فضيلتك عن الفلسفة الوجودية وعن أنيس منصور . .

ـ هذا الذى يتمسح بالإسلام . لقد خدع كل الناس وأنا مندهش كيف أن الأستاذ يوسف السباعى والأستاذة أمينة السعيد لا يعرفان أنه مسيحى متعصب . وأنه واحد من الذين يفسدون الإسلام .

ولكنه يا أستاذ لم يتعرض لأى دين . . لا الإسلام ولا المسيحية . . ثم إن هناك مسلمين وجوديين ومسيحيين ويهودا ملحدين أيضا . .

ـ إنه يكتب من زمان ويفسد عقول الشباب . . اقرأ ما يكتبه فى مجلة (الجيل) . .

ـ هل يا أستاذ سيادتك قلت عنه إنه جرجس أو هو كالجرجس؟

ـ يعنى إيه؟

ـ إن الجرجس أو القرقس هو البعوض الصغير . . وهو عكس الهجرس . .

ـ إيه ياولد ده؟ أنت مين؟

ـ يا أستاذ . . هذا مجرد سؤال . . لعلك أردت أن تقول إنه الجرجس . أى حشرة صغيرة وليس الهجرس أى الأسد الصغير . .

ـ إيه يا ولد اللى أنت جاى تقوله لى . . مين الحمار اللى قال كده؟

ـ واحد اسمه أبو عثمان عمرو بن حرب الجاحظ!

عندما انفتح الباب ودخل الأستاذ عبد الوهاب خلاف فقال بسماحته وروحه الحلوة: أهلا يا أنيس يا ابنى . . ألا تعرفه إنه أنيس منصور . .

ونهض الشيخ أبو زهرة غاضبا اخرج يا ولد . أنا كان عندى إحساس إن ألاعيبك لم تنته . . أخرج يا إبليس جرجس منصور . .

ـ هاها . .

وقلت ليوسف السباعى : هذا كل ما حدث!

ـ هاها . . أنا اعتذرت له عن المحرر دون أعرف أنك الذى ذهبت إليه!

* * *

وفى الوقت الذى هاجمنى الشيخ محمد أبوزهرة كان إمام مسجد أبو العلا يفتح لى أبواب جهنم وقد اختار لى مكانا عند القاع . ولم أتضايق من هذا الرجل . فمن يدرى . . ربما دخل النار قبلى بملايين السنين . وربما فتح لى الباب وسبقنى إلى الحضيض . . فالجنة والنار ليست مفاتيحها فى أيدينا . .

وقابلت إمام المسجد بعد الصلاة وسألته : بالضبط ما الذى ضايقك من الفلسفة الوجودية . .

فكان رده : إنها الفوضوية والشيوعية والبوذية والكونفوشية . .

ـ . . . .

فلا قرأ ولا فهم . . ولا يصح أن يحاسبه أحد لا فى الدنيا ولا فى الآخرة!

ودخلت فى سلسلة من الأحداث الغريبة والسبب اسمى . . الذى يبدو مسيحيا . وكانت هناك خلافات بسبب صداقتى لكمال الملاخ ، فأكثر الذين لا يعرفوننا يرون أن كمال الملاخ مسلم وأنا مسيحى . لأننا أخفينا الاسم الثانى . . هو كمال (وليم)

الملاخ وأنا أنيس (محمد) منصور . . ولكن لا يهم. فلم يكن الدين مشكلة لأحد. ولا يصح أن يكون . .

وفى يوم سألتنى الفنانة زوزو ماضى وقد رأتنى كثيرا فى رفقة كمال الشناوى وحفنى باشا محمود والمحامى زكى دياب: إن كنت أنا حقيقى الذى يكتب فى (أخبار اليوم) والأخبار وآخر ساعة والجيل؟

فقلت: نعم . .

فقالت: ولكن أعرف واحدا يقول إنه هو الذى يكتب واسمه أنيس منصور أيضا.

ومن يومها نشرت صورى مع مقالاتى . أما هذا الآخر فهو رجل يكبرنى فى السن واسمه محمد أنيس منصور. الشهير بأنيس منصور.

وبرغم أن صورتى قد نشرت مع مقالاتى إلا أنه مضى يقول إنه أنا . . وإنه سوف يغير الصورة المنشورة مع المقالات . . لأنها صورته وهو صغير.

وفى يوم ذهبت أقبض مرتبى من خزينة (أخبار اليوم) فقال لى الموظف إن مرتبى محجوز عليه.

ـ ليه؟

ـ يبدو أنك اقترضت من أحد البنوك ولم تسدد ما عليك!

وانطلقت إلى الأستاذ على أمين وكانت المفاجأة أنه نفس الشخص وليس أنا!

* * *

كان حمدى عاشور محافظا للإسكندرية وبعدها محافظًا للقاهرة ثم وزيرا للحكم المحلى. وهو رجل ظريف ودمه خفيف. وعنده قدرة غريبة على أن يكون ساخرا وقد ارتسمت على وجهه كل ملامح الجد. سافر إلى الخارج وعاد وزرته. وسألنى: كيف حالك؟

ـ الحمد لله . .

ـ أخبارك إيه؟

ـ لا بأس . .

ـ مفيش حاجة عاوز تقولها لى!

ـ ما قلت لك يا أخى حمد الله على السلامة وحشتنى والإسكندرية من غيرك كأنها دمياط!

ـ ما لها بقى دمياط؟

ـ ياسيدى أنا عارف إنك دمياطى متعصب . . يعنى عاوز أقول إن الإسكندرية مظلمة فى غيابك.

ـ وهية دمياط مظلمة؟

ـ يا سيدى باهزر . .

ـ أنا افتكرت حتقول إن الإسكندرية فى عهدى زى المنصورة بتاعتكم . .

ـ الله! الله! . والمنصورة فيها إيه كمان؟ .

ـ ولا حاجة يا سيدى أنتم أولاد ناس وإحنا أولاد القطة . . مش عاوز تقولى حاجة . . مفيش حاجة قدمتها لك علشان تشكرنى عليها؟!

ـ يا ريت . .

ـ يا ريت؟! أنت بتقول إيه يا أستاذ؟!

ودق الجرس ودخل الساعى وأشار حمدى عاشور بيده وبعد لحظات جاء سكرتير عام المحافظة وسأله: كابينة المنتزه . .

ـ بتاعة أنيس بك؟ أيوه استلمها يا فندم . .

ـ كابينة إيه!

فقال السكرتير العام: سيادتك يا فندم استلمت الكابينة . .

ـ أنا؟!

ـ أيوه سيادتك وعندى إمضاؤك . .

واختفى السكرتير العام وجاء ومعه عقد موقع بإمضاء محمد أنيس منصور!

نفس الشخص الذى ليس أنا!

فقد ذهب وسأل عن كابينة. قالوا له: سيادتك مين؟

ـ أنيس منصور . .

وقدم بطاقته. ووقع العقد.

ولما قابلته بعد ذلك قال: سألونى أنت مين . . قلت لهم أنا مين . . أنا لم أكذب فاسم الشهرة هو نفس اسمك!

وطارت منى الكابينة!

ووجدت فى الأسواق كتابا بعنوان (اللامنتمى) للأديب الساخط كولن ويلسون. الكتاب تحفة أدبية فلسفية. والكتاب من ترجمة الأديب العراقى أنيس زكى حسن. ثم وجدت طبعة أخرى فى دمشق لنفس الكتاب ومكتوبا عليه من ترجمة: أنيس منصور. وبسرعة ذهبت للناشر وقلت له: فى عرضك. أنا لم أترجم هذا الكتاب. وأنا لا اتصور أن أجد كتابا لى عليه اسم واحد آخر. وعدت إلى القاهرة وكتبت مقالا أصحح فيه هذه الغلطة التى وقع فيها الناشر. أو التى تعمدها ليضع هذا الكتاب ضمن عشرات من كتبى. وتمنيت لو أعرف عنوان أنيس زكى حسن لأقدم له الاعتذار شخصيا. وقيل لى أيامها إنه ترك العراق وقالوا إلى لبنان وقالوا إلى بريطانيا وقالوا: مرض وقالوا: مات!

* * *

فى أول حياتى الأدبية كنت أتردد يوميا على كل مكتبات القاهرة ـ كلها. فأنا أعرف جميع العاملين فيها . . وكنت أبدأ وأنتهى بمكتبة لطف الله سليمان، بلدياتى وشيوعى جدا وزوجته عراقية يهودية اسمها جانيت عراقى. وكانت لها أخت

جميلة يضعون صورتها على كل ملصقاتنا السياحية . ولطف الله سليمان عندما مات ترك وصية لابن أخته أن يتصل بى لأننى الوحيد الذى سوف يرثيه . وقد فعلت . رغم أن لطف الله له أصدقاء كثيرون .

وفى يوم قدم لى لطف الله كتابا صغيرا هو ديوان من الشعر بعنوان (صرخات) بالفرنسية لكاتبة اسمها جويس منصور . ولم يقل لى من تكون . وقرأت الديوان وأعجبنى جدا : شعر جنسى فى غاية الجرأة والجمال أيضا . وفيه تعبيرات يستحيل ترجمتها إلى العربية . فقد توارت فى سحر اللغة الفرنسية . وقرأت الديوان مرة أخرى، وكتبت مقالا مبهورا بهذه المعانى .

وفى التليفون سمعت من تقول : أنا جويس منصور . قرأت الترجمة الفرنسية لمقالك فى مجلة (اكتواليتيه) التى كانت تصدر مع (جورنال ديجيت) وأريد أن أراك لا شكرك . . فهل عندك مانع؟ . .

فقلت : لا مانع أبدا . .

وكان بيتها ملاصقا لمبنى (دار المعارف) على النيل . وفى الموعد المحدد ذهبت . وكانت صدمة كبيرة . فأنا ذهبت بالقميص والبنطلون . وكل الحاضرين بالملابس الرسمية . خواجات يتكلمون كل اللغات . ودخلت من الباب ووقفت إلى جواره . كأننى موجة فى بحر متلاطم الأمواج البيضاء والسوداء والأضواء . . ولم أعرف إن كنت على الشط أو غرقان . عندما أحسست بيد تمسك ذراعى وتقول لى بالفرنسية : أنا جويس . . ولا يهمك أحسن حاجة عملتها أنك جئت من غير بدلة وكرافتة . . كلهم كانوا يحبون أن يفعلوا مثلك . . وسحبتنى إلى المائدة . . وقفت أمام اسمى المكتوب على ورقة كبيرة . . فجاءت لى وقالت : تعال هنا . . هنا أنيس منصور آخر هو زوجى!

وعرفت فيما بعد أنها ابنة داود عدس . . وأنها اتخذت اسم زوجها الغنى جدا ولاعب التنس المشهور . ثم صدر لها الجزء الثانى من ديوانها (صرخات) . . ولم أكتب عنه . ولا عرفت عنها شيئا . فقد انشغلت بمستقبلى الأدبى والصحفى . .

وعرفت أنها عادت إلى فرنسا . فهى بريطانية الجنسية وكانت تفضل الكتابة بالفرنسية . .

ثم تلقيت خطابا من أستاذى د. عبد الرحمن بدوى . وفى الخطاب قصاصة من الورق وعليها نعى صحيفة (الموند) للأديبة جويس منصور!

وكانت لنا صديقة مشتركة اسمها (أرليت . . .) أسلمت وتزوجت أحد أثرياء الخليج . . فقد رآها ترقص فى إحدى الحفلات ثم اختفت . فقد هاجرت إلى إيطاليا . . وقيل إلى الأرجنتين . وفوجئت بها فى إسرائيل تقول لى : لما عرفت أنك هنا . . أتيت لك بشىء يهمك جدا .

وأخرجت من حقيبتها خطابا كتبته جويس منصور . فتحت الخطاب وجدت تاريخه يرجع إلى خمسة وعشرين عاما تقول فيه : عزيزى (الآخر) إلخ . أرجوك إن صدرت طبعة جديدة لأعمالى الكاملة فأملى الأخير أن تكتب لها مقدمة وأن تسجل فيها آخر أحاديثنا الأدبية . . وإن كنت لا تزال تعرف الأديبة المصرية الكبيرة أندرية شديد فاسألها . . إلخ .

❊ ❊ ❊

ومن الصدف أن يكون لى العديد من الأصدقاء أسماؤهم : أنيس سلامة رجل السياحة المعروف . والمهندس أنيس إسكندر . . والطبيب أنيس روفائيل والمحاسب أنيس سوريال . . والرسام أنيس وجدى . . وكانت لنا زميلة جميلة فى كلية الهندسة اسمها : أنيسة الحفنى . . وكانت لى زميلة فى قسم الفلسفة تعيش فى كندا الآن اسمها : أنيسة عبد العليم .

ويوم تقدمت من الرئيس جمال عبد الناصر أتسلم جائزة الدولة التشجيعية سأل يوسف السباعى بعد أن صافحنى : هو ده الشيوعى؟

فضحك يوسف السباعى وقال له : الثانى اسمه عبد العظيم أنيس . . ده أنيس منصور المفصول . . هاها . .

فقد كان الرئيس عبد الناصر قد فصلنى قبل ذلك من عملى رئيسا لتحرير (الجيل) ومدرسا للفلسفة فى آداب عين شمس!!

* * *

اعتدت أن أكتب عن الأزياء والموضات فى كل المجلات التى رأست تحريرها : الجيل وهى وآخر ساعة وأكتوبر ومايو . وهى حكاية طويلة . والسبب هو أننى عندما عملت فى جريدة (الأهرام) سنة ١٩٥٠ طلبوا منى أن أترجم المقالات التى كانت تبعث بها من باريس المحررة أليس باخوس . ولم أكن فى ذلك أعرف مفردات الأناقة والشياكة . وانتهزت هذه الفرصة ودرت على مصممات الأزياء فى القاهرة وأكتب المفردات وأترجمها . وكانت فرصة أخرى لأقترب من بشرة المرأة وأعماقها أيضا .

وكانوا يداعبوننى ويغيظوننى أيضا ويقولون : أنيس باخوس!!

ولما جاءتنى دعوة لكى أشاهد أحد عروض الأزياء العالمية لم أتردد فى أن أذهب . واستوقفونى . على الباب . لأن العرض لمحررات الموضة فقط . . المحررات وليس المحررين . ونظرت فى بطاقة الدعوة فوجدت أنهم كتبوا اسمى : أنييس . . فلم أجد إلا تفسيرا سريعا قبلوه بعد تردد وهو أن لى أختا توءم مريضة فجئت نيابة عنها . .

ودخلت وجلست فكنت فرجة لكل المحررات . ولا أعرف التفسير الذى قيل لهن بوجودى!

وفى كل عرض للأزياء كنت أتلقى هذه الدعوة ـ وكانوا يكتبون فى الدعوة للسيدات فقط . . أى لأنييس وليست لأنيس!!

النوم والنمل والشعر الحزين!

أكثر الناس مللا هم الأصدقاء. أوالشلة الواحدة. فهم يتقابلون ويقولون نفس الكلام. فلا هم قادرون على أن يهربوا من بعضهم البعض، ولاهم قادرون على تغيير موضوعات الكلام. . فقد كنا شلة من الطلبة: إخوان مسلمين وشيوعيين ووجوديين وفوضويين. هل كثرة الخلافات سببها أننا (عيال) لا نعرف ماذا نريد بوضوح؟ لا. . كنا طلبة فى الجامعة. . ولكن إذا تعرضنا لأى شىء كنا نختلف. المرأة مثلا. نحن نعرف مقدما ما سوف يقوله الإخوان: الزواج والأولاد والتربة. .

والشيوعيون سيتحدثون عن الفقر وأن الأسرة هى مصنع السخط والثورة. والوجوديون يتحدثون عن الحرية فى أن تكون من الإخوان أو من الشيوعيين أو ألا تكون. والفوضويون عبارة عن مقشات لدفع الزبالة الفكرية وكنسها وإلقائها فى النيل. نفس الكلام كل يوم. . وتكون الخناقات والقطيعة هى القرارات التى تنعش هذه العلاقة. فلا ربطنا ولا حللنا. ولا قررنا ولا أفدنا ولا استفدنا. ومن تلقاء أنفسنا لا نلتقى أياما. ثم نشعر بالوحدة وافتقاد القرف فنلتقى. ولم يبق من هذه المجموعة إلا كاتب الأطفال أحمد نجيب وحسن فؤاد الذى صار فنانا كبيرا وفنانا خجولا هو محمد صبرى الذى أصبح فنانا عظيما. وكنا جميعا نسكن فى إمبابة. أما حسن فؤاد ففى الجيزة وأما محمد صبرى فوراء مسجد السلطان أبو العلا. . ثم انتقلت أنا إلى البيت فى ٣٨ شارع الأمير حسين بالزمالك فى بيت صغير إلى جوار قصر نعمت هانم يكن التى كان أبى يعمل مشرفا على زراعتها. .

ولسبب ما : الزهق أو الاستغراق فى حياتنا الدراسية تفرقنا . كل واحد فى طريق . فلم يبق إلا حسن فؤاد . ونحن مختلفان . وحسن فؤاد ظريف دمه خفيف ، واهتماماته وحكاياته مسلية . وفجأة قفز لنا برنامج . . أو ارتباط منظم . فى الصباح نلتقى فى حديقة الأسماك ، وفى الليل نتمشى فى شارع الجبلاية من بيت أم كلثوم إلى كوبرى الجلاء أو كوبرى بديعة . فقد كان كباريه بديعة مصابنى فى نفس المكان الذى يشغله الآن فندق شيراتون القاهرة . وبعد ذلك نذهب إلى (مدينة الملاهى) فى إمبابة . لماذا؟ هذا ما حدث ولأنه كان برنامجا مريحا فقد ارتبطنا به . .

ماذا فى مدينة الملاهى . . كنا نتمشى نتلفت . ولاحظت أننا نمشى بسرعة . كأن هناك هدفا . مع أنه لا هدف . ولابد أن يكون السبب هو أن نوهم الناس أو أنفسنا أن هناك شيئا أهم من الذى أتى بالناس إلى هذا المكان . أو أن السرعة فى المشى تجعلنا نتخبط فى الناس .

وإن التخبط مطلوب لكى يوقظنا من الحركات الآلية أو الملل أو افتقاد المعنى أو الهدف . فما الذى فى مدينة الملاهى : ضوضاء وأناس وتراب وذرة مشوية وزعيق ومراجيح وأراجوزات . كل يوم؟ نعم .

وكأننا مندفعون من الخلف . فنحن نسارع إلى مدينة الملاهى . مع إن السرعة لامبرر لها . ولكنها فرصة لكى نستسلم لشىء . . لقوة ما تحركنا وتستدرجنا وتستغرقنا . فلا نفكر . . ولم نكن نفكر . كم مرة ذهبنا؟ كم يوما؟ . لا أعرف . ولكن الشىء الذى كان يعجبنى ويبهرنى هو تلك اللعبة الخطيرة . وهى أن نرى فتاة تصعد سلما عاليا على ظهر حصان . . الفتاة شقراء حلوة . . أو هى تبدو من بعيد كذلك . أو هى حلوة لأنها بعيدة . . فوق . . بعيدة عن أيدينا . ثم إنها شجاعة . . فوق حصان والحصان فوق سلم . وعند نهاية السلم الصاعد تسكت الموسيقى مرة واحدة لتقفز هى والحصان فى حوض من الماء . وتقفز من فوق الحصان . وينهض الحصان من تلقاء نفسه : قمة الشجاعة والبطولة معا .

وكل ليلة نقف تحت السلم . . لنرى البطلة الشقراء الرشيقة نصف العارية فى غاية الحيوية . والحصان الجميل . . الفارس البطل . .

وفى إحدى الليالى . ، قفز الحصان وقفزت هى من فوقه . ولكن الحصان لم يخرج من حوض الماء لقد نزل على دماغه ومات . وكان يوما أسود فى حياتى !

ولم تستطع كل مباهج الحياة بعد ذلك أن تمحو هذه الصورة . ولا هذه البطولة التى هى أقصى درجات القسوة والعنف . وظللت سنوات لا أقوى على رؤية حصان . وقاومت حتى أصبحت رؤية الخيل متعة . وحتى شاركت فى لجان تحكيم اختيار أجمل الخيول فى مصر وفى البلاد العربية . ولم أعد إلى الملاهى ولا أية ملاه فى أماكن آخرى .

ربما آخر مرة كانت فى السيرك القومى فى موسكو . دخلت أتفرج وقالوا لنا : لابد من الكرافتة . وأمتعنى ما رأيت . وفجأة ظهرت الخيول على المسرح فنهضت من مكانى كأننى حصان جاء دوره ليقفز من مقعده إلى المسرح الذى كنت أشاهده من فوق . وكانت حركتى عصبية غير مفهومة .

ولم أفكر لحظة واحدة فى هذا الذى فعلته . . وإنما كان ارتدادا عنيفا إلى أيام ملاهى إمبابة . وأخفيت وجهى كأننى أرى السيدة الإنجليزية وهى تقفز وحدها والحصان فى الهواء . . نهاية بطل . . مأساة بطولة رخيصة لامبرر لها . ولم تكن شجاعة امرأة ، وإنما عظمة حصان . وذهبت إلى الكافتيريا أقاوم دوخة طويلة . .

وفى تلك الليلة هبط الجليد كثيرا كثيفا وخطرت لأحد الأصدقاء فكرة تعيدنا إلى قصص الأدباء الروس . . فروسيا كلها جليد وعربات تجرها كلاب أو الخيول الصغيرة . وسمعت حولى هيصة معناها : أنهم سعداء بأن نركب زلاقة يجرها عدد من الخيول . . تحية لنا من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى . ووضعونى فى الزلاقة . . أما الذى حدث لى فهو (نوم سعيد) هم الذين قالوا . . ولا أدرى كم من الوقت مضى وأنا ملفوف فى الفراء ودماغى فى طاقية من الفراء ووجدتنى أمام الفندق . وحولى حارس طويل عيناه تلمعان فى الظلام وقال لى :

خرشوا . . يعنى : أنت كويس !

إنهم لم يعرفوا الحكاية . لم يعرفوا أننى كنت فى حالة إغماء شديد . . وظهر

حارس آخر وكانت كلماتهم تقول : صح النوم . . مع أنه لم يكن نوما . . وإنما كان موتا !

❊ ❊ ❊

وكانت سعادتى بالغة عندما وجدت حسن فؤاد فى حديقة الأسماك .

لم نتفق على ذلك وإنما هى المصادفة . وكان لقاؤنا منظما . فى ساعة مبكرة .

نلتقى ونتكلم . . عنده حكايات تؤكد ميوله اليسارية المبكرة التى انتهت بزعامة شيوعية بعد ذلك . ولكنه كان من ألطف الشيوعيين . وكانت أول مرة أسمع عن أساتذة له هم : صلاح طاهر وحسين بيكار . .

وكان الهواء حولنا منعشا . وكل شىء أخضر فى حديقة الأسماك : العشب والشجر . ولا شعوريا نستسلم وننام تحت الشجر . ولا أعرف كيف كان النوم يجىء بهذه السهولة . وننهض لننفض عنا أوراق الشجر؟ .

ويخلع كل منا قميصه لنخلصه من النمل الذى تسلل من القميص إلى داخلنا . . كل يوم . وأدهشنى أن النمل لم يلسعنا . وشغلتنى هذه الفكرة حتى سألت زميلى فى المنصورة الثانوية محمد عبدالغنى . . الذى صار عميدا لكلية الزراعة ثم محافظا للدقهلية . وكان فى مثل سنى وأكثر مرحا . فكان يقول : لأن دمك أنت وصاحبك زى السم !

وأطالبه بأن يكون جادا . فيقول : النمل لابد أنه كان يلسعك ولكن ليس عندكم أحساس !

وكانت حديقة الأسماك هادئة نظيفة . وعدد المترددين عليها قليلين جدا . وأجمل من الحديقة كانت الزمالك . الشوارع خالية ونظيفة والبيوت كلها لامعة . والأصوات همس . ومن البيوت تفوح روائح لاهى رائحة الطعام ولا الفاكهة ولا العطور ، وإنما روائح الأرستقراطية والصفاء والنقاء . .

وكان أكثر المترددين : مربيات الأطفال . وكلهن من أفريقيا أو من آسيا . كل

واحدة تدفع أمامها عربة فيها طفل أشقر الشعر أزرق العينين . . ويتجمعن فى جانب من الحديقة . عيونهن على الأطفال حولهن . . حتى الدادات كلامهن همس .

وفى إحدى المرات كان العمال يرشون الحديقة بالماء الغزير . فلم نجد مكانا نجلس عليه . . إلا دكة واحدة جلست عليها فتاة أجنبية ومعها طفلها . وأمام ابتسامتها تشجعنا وجلسنا إلى جوارها : من أى بلد؟

قالت : إيطاليا . .

ـ وأنا أتكلم الإيطالية . .

ـ وزميلك؟

ـ لا . .

ـ ماذا تعملان . .

ـ أنا أدرس الفلسفة . . وهو فى كلية الفنون الجميلة . .

ـ فيلسوف وفنان؟

ـ . . . .

وفى اليوم التالى جئنا من أجلها . وحرصنا على الدكة ، فإذا جاءت جلست إلى جوارنا . أنا قلت : حلوة رقيقة . صوتها حلو . ونطقها الإيطالية يدل على أنها من أهل روما . .

وحسن فؤاد قال : أنا سوف أرسمها النهاردة . . تلوين وجهها . . وشعرها وشفتاها . . وابتسامتها تحتاج إلى الألوان التى فى صندوق أى فنان . . إنت عليك تتكلم وأنا سوف أرسمها . .

وجاءت أدريانا . . الموظفة بالسفارة الإيطالية . أما طفلها فاسمه جاكامو (٣سنوات) . . وتطوعنا بسرعة نمسك العربة الصغيرة ونستخرج الطعام من الكيس ونرتب الكتب التى معها . ولم تندهش لما نفعل . كأنها توقعت ذلك أو اعتادت

عليه . . ونفضنا أوراق الشجر من فوق الدكة . واقتربنا منها أكثر . . حدثتنا عن حياتها وحدثناها . وتحدثت عن مصر وعن النظرة الشرقية للمرأة . وأنها أفضل كثيرا من النظرة الأوروبية . . فالمرأة الأوروبية تحب الحرية . ولكن تحب ألا يتركها زوجها حرة لكى تفعل ما تشاء . . إنها تفضل الرجل الذى يسألها ويحاسبها . بما يدل على اهتمامه بها وانشغاله بهمومها أو مشاكلها . .

ولا تحب الرجل الأوروبى الذى يعطيها الحق فى أن تضع رأسها مطرح رجليها . وأن تنام وتقوم وتأكل وتشرب وتسهر وأن تكون على حريتها تماما .

وتتمنى لو كانت زوجه شرقية . وبسرعة نظرت إلى حسن فؤاد ووجدت نظراته فى منتصف الطريق إلى . . . كأنها عرضت علينا : إن كان أحد منا يتزوجها . ونظراتنا تقول : إن الرسالة قد وصلت وأننا العنوان الغلط . فلسنا إلا طلبة لا راحوا ولاجاءوا . ولن يروحوا أو يجيئوا قبل سنوات . ثم إننا قمنا من أنفسنا نصحح مسار هذه الرسالة . . فلسنا مقصودين طبعا . . فلا عمل ولا وظيفة ولا منظر . . ولا شىء يغريها . وعندما كنا مشغولين بفك رموز هذه الرسالة كانت هى ماضية فى حكاياتها فى السنوات الثلاث الماضية التى تعلمت فيها اللغة العربية والتى أحب فيها زوجها فتاة من الصعيد . . سمراء حلوة تتكلم اللغة الإيطالية بطلاقة ، فقد كان أبوها دبلوماسيا فى أديس أبابا . . بينما هى مشغولة بتربية ابنها .

سألتها : لماذا من بين كل الأسماء الإيطالية الجميلة اخترت له اسم جاكامو . .

ـ آه . . لم يعجبك الاسم . . معك حق . ولكن هناك سبب . . فأنا أحب الشاعر الإيطالى الحزين ليوباردى . . واسمه جاكامو ليوباردى .

لقد عاش ومات عن ٣٩ عاما فى القرن الـ ١٩ . وكانت فيه كل التشوهات الخلقية فى ساقيه وكتفيه وعنقه . . ومات أعمى . . ولكن لم أعرف أحدا قد زلزل وجودى كهذا الشاعر . مع أننى لا أشكو مما يشكو منه . ولا أنا تعيسة مثل تعاسته . . ولكن شعره سحرنى بهرنى أبكانى بعضى على بعضى . . كأن الدموع احتبست فى عينى فلم أجد لها مناسبة لكى أذرفها أو أذيبها . . هذا الشاعر هو الذى استطاع .

وأشارت إلى كتاب معها وقالت: تحب تسمع . .

وكان حسن فؤاد يرسمها وكأنه لا يسمعها ولا يسمعنى . . ولم يلاحظ حسن فؤاد أنها عندما بدأت تقرأ ديوان ليوباردى قد اقتربت منى أكثر . . وأنها من حين إلى حين تضع يدها على ساقى . . كأن هذا الشاعر الذى اعتزل الدنيا قد جمع بيننا وأذاب الفوارق ودموعها فى وقت واحد . .

قالت بصوت مبحوح تخنقه الدموع كأنها ممثلة مسرحية فى ميليو دراما إغريقية:

ألم أقل لك إنه لا يوجد عظيم وطنى، فالعظماء لا وطن لهم . . الأرض كلها وطنهم . . ألم أقل لك إنه فى الليل لا توجد شمس . فليكن . . فلماذا لا يسعدنا أن نرى القمر . . ألم أقل لك: إن أى شىء لا يبكينى فليس شيئا . . شىء لا يعصر قلبى ليس شيئا . . ألم أقل لك . . ولكنك لا تسمعنى مثل كل الأشجار فى الغابة والنجوم فى السماء . . فلن أقول لك شيئا بعد اليوم . . سوف أقول لنفسى وأبكى على حالى!

وتقلب فى الديوان وتقرأ دون أن تنظر إلى الصفحات:

أريد أن أعيش أريد أن أحيا . . إن أشكو لكم حظى الخشن . .

يا أيتها الغابات والسحب والأمطار والبرق والشمس والقمر لماذا لا يكون لى مثل أعماركم . . لماذا مكتوب على أن أموت ولا أعرف متى . أنتم أسعد حالا لا عرفتم متى ولدتم، ولاتعرفون متى تموتون ولا تقولوا شعرا ولا حياتكم جنازة يومية . .

وأقفلت الديوان وتراجعت فى مقعدها وتركت شعرها يخفى دموعها وقد تغيرت الألوان على وجهها ونظرت بعينين دامعتين وقالت: ما رأيك!

ـ هذه أول مرة أعرف شاعرا بهذا الاسم . . متشائم رقيق . . رومانسى جميل ـ إننى أغرق فى ضبابه وسحابه كل يوم . .

عندما انفجرت أنبوبة المياه بالقرب منا وفى لحظات غرقنا فى الماء المندفع من كل الجهات . ولم نجد سببا وجيها لأن نفعل أى شىء! . أما الطفل فكان سعيدا فظن

أنها لعبة . . وذابت الألوان فى اللوحة التى رسمها حسن فؤاد . . وابتعدنا عن الماء . بعد أن فقدنا كل أمل فى أن نجفف ملابسنا . . ولا فى استطاعتنا أن نخلعها . ونظر بعضنا إلى بعض وضحكنا على هذه المفاجأة .

وكانت هذه هى البداية : فقد دعتنا أدريانا إلى بيتها القريب من حديقة الأسماك لكى نجفف أنفسنا ونكمل حديثنا . .

أما هى فقد التصق فستانها بها فظهرت أرشق وأجمل .

وبداية مفاجئة للبحث عن هذا الشاعر الإيطالى . . وانتظار أدريانا .

وعند وداعها قالت وهى ضاحكة : غدا نفس المكان . . نفس الموعد . . وملابس احتياطية . فلا أحد يعرف ما الذى سوف تقذفه خراطيم المياه هاها . . هاها

ـ هاها . .

قال لى حسن فؤاد : أمك داعية لك . .

ـ بل أمى داعية لك أنت . . فموهبتك حاضرة وليست فى حاجة إلى مجهود . .

ـ بل أمك داعية لك أنت . . فأنت تكلمها بلغتها وقد لاحظت أنا كذا وكذا . .

ـ يبقى أمك أنت داعية لى أنا !

ـ يا عم حنقر على بعض . .

ـ هاها !

في البدء
كانت حديقة الأسماك!

شيء غريب أن تكون بداية اهتمامي بالأدب الإيطالي من هنا . . في حديقة الأسماك . وأن تكون صاحبة الإشارة القوية الجميلة هي أدريانا السكرتيرة بالسفارة الإيطالية . . فمنها عرفت أن في بلدها أديبا عظيما اسمه البرتو مورافيا . . لأكون أول من يقدمه للغة العربية ويترجم له بعد ذلك ثمانين قصة قصيرة ولأدعوه رسميا لزيارة مصر هو وزوجته الأديبة إلزه مورانته . . ثم هو وزوجته الثانية الأديبة داتشا ماريانى . . أما زوجته الثالثة فقد جاءت معه بدعوة رسمية ولم أجد فيها جمال الفن والفكر ، وإن كانت أجمل منهما قوامًا وأكثر مرحًا . .

فالأديب مورافيا مثل الشاعر ليوباردى . . قد أصيب بشلل الأطفال وتعلم اللغة الفرنسية والإنجليزية فى السرير . . وكتب كل أعماله الأدبية على الآلة فى فراشه متحديا كل أنواع العذاب . . وكذلك ليوباردى كان مشوها ولم يبرح البيت إلا فى الثلاثين من عمره أى قبل أن يموت بثمانى سنوات . .

شيء عجيب أن يتدفق الجمال من أصابع وأفواه هذا العدد الهائل من العجزة والمشوهين : العميان طه حسين والمعرى وهوميروس . . والمازنى أعرج وصادق الرافعى أطرش والفيلسوف الدانماركى كيرجكور مقوس الظهر وله ساق أطول من ساق ، والفيلسوف نيتشه أصيب بالجنون وأمير الشعراء الألمانى هيلدرلن عاش بين

الناس أربعين عاما ومثلها فى مستشفى المجانين، والموسيقار العظيم بيتهوفن أصيب بالصمم وكان ينظر إلى الناس وهم يقفون ويصفقون ويصرخون فكان يظن أنهم غاضبون على موسيقاه فكان يصاب بالجنون حتى مات. وكان الفيلسوف سقراط والفيلسوف الوجودى سارتر والشاعر البحترى والأدباء الجاحظ وأبو حيان التوحيدى من أقبح الناس شكلا . . ومعظم المطربات لسن جميلات: أم كلثوم وفيروز وفايزة أحمد وداليدا. ولم يعرف التاريخ إلا مطربة جميلة واحدة هى (إيما سوماك) ولم يطل غناؤها فقد خطفها أحد أصحاب مئات الملايين لتكون زوجته وأما لأولاده!

* * *

وفجأة ظهرت أدريانا تدفع أمامها عربة طفلها وأشارت لحسن فؤاد وكان غارقا فى الرسم وينفض أوراق الشجر والنمل من فوق الورق. . وكان النمل حائرا بين ملابسه والورق. . وكأن النمل مئات النقط تبحث عن حروف. .

وكأن أدريانا تستعد لهذا اللقاء. . فقالت لى: ما دمت لا تعرف مورافيا. . فأنا قد قرأت له رواية طويلة جميلة اسمها (اللا مبالون) أى الناس الذين لا يهمهم أى شىء. . إلا أن يفرفشوا وإلا الفلوس والجنس. إنها الطبقة الأرستقراطية المنحلة التى مشكلتها الأولى: الملل. . كيف تدفع عنها الملل وكيف تتفنن فى الهرب منه بالخمر والسهر والمخدرات. . وهم حاضرون ولكن غائبون عن بعضهم البعض. . إنهم يمشون كأنهم نيام وينامون كأنهم موتى. . ولا طلعت عليهم شمس ولا ظهر لهم قمر. . فعندهم ساعات ودقائق من طراز مختلف. .

وكانت أدريانا تقول وأنا أسجل ملاحظات على ما تقول. . ونسيت أنها أكبر منى بسنوات قليلة. . ولكن هى أكبر جدا بالذى قدمته وأكبر جدا بالطريقة السهلة وصوتها المبحوح الجميل. . وفى زفة من ألوان شعرها وعينيها وفستانها وابتسامتها. . إنها ليست واحدة تقول. . وإنما هى مطربة ومايسترو يقود أوركسترا من كل ما هو جميل فى الإنسان وفى الطبيعة. ولم أستطع أن أتغلب على حيرتى:

بين رغبتى العميقة فى ألا تتوقف عن الكلام . . وبين رغبتى الأقوى فى أن تسكت لكى أتفرج عليها . .

وكأنها استمعت إلى ما يتردد فى أعماقى فسكتت فجاءة ونظرت إلى حيث يجرى الناس إلى جانب من الحديقة . . الناس كثيرون فهو يوم إجازة . . ووقفنا ولم نر شيئا . . فالكل فى لهفة إلى مكان من الحديقة . . ووجدنا الناس قد وقفوا على شكل دائرة . . وعلى العشب سيدة صبغت وجهها بالأحمر وإلى جوارها رجل أشد إحمرارا وأضواء تسلطت عليهما وواحد ثالث يقترب منهما ويقول كلاما غير مفهوم . . وواحد وراء كاميرا يقترب . . ولم نسمع حوارهم بوضوح . . والناس سعداء جدا بما يرون وسألت: من هؤلاء؟

وكانت هذه هى المرة الأولى التى أسمع أسماء: عقيلة راتب وعماد حمدى وصلاح أبو سيف . ولا معنى لهذه الأسماء عندى . . فأنا لا أعرف شيئا عن السينما المصرية . ولا كنت قد دخلت السينما ـ فقط بعد تخرجى فى الجامعة . وأول فيلم لم يكن مصريا بل كان أمريكيا . وعرفت فيما بعد أن هذا المشهد من فيلم اسمه (دايما فى قلبى) . .

ولكن سعادة الناس وحرصهم على الوقوف طويلا لأنهم يعرفون ويهنئون أنفسهم على أنهم عاشوا وشافوا . .

أما حسن فؤاد فلا يزال يرسم مستغرقا تماما . وذهبنا لنرى ماذا رسم وضحكنا، قد رسمنى مع أدريانا ثم رسم طفلها على كتفى . ولا أعرف أين ذهبت هذه الصورة . وبعد أربعين عاما سألت حسن فؤاد عنها . . كان قد نسى!

* * *

آن الآوان لأن أصف لك أدريانا بافيزة . . إنها فى الخامسة والعشرين من عمرها، وتبدو أصغر كثيرا، ليست بيضاء شقراء كما كان انطباعى أول وثانى وثالث مرة . . وإنما هى سمراء خمرية أو هى مزيج من النبيذ واللبن معا . . أما شفتاها فممتلئتان ومن الصعب ألا تبتسم من كانت أسنانها جميلة . . ثم إن وجهها

دائرى وعيناها عسليتان واسعتان ورموشها طويلة وشعرها مرة يبدو أسود ومرة يبدو فى لون الشيكولاتة. طويلة.. فإذا وقفت برزت بطاقتها الشخصية الإيطالية.. الساقان طويلتان يظهر جمالهما إذا جلست ووضعت واحدة على الأخرى.. وصدرها عال وكتفاها مستديران: أيضا. أما كيف تخرج الكلمات من شفتيها فلا تحتاج إلى كاتب وإنما إلى ملحن..

وكأنها لاحظت كل هذا الذى أقول، ولم أقله لها. ولكن تمنيت أن أقول. فقررت أن تجعلنا عاجزين عن الإحاطة بجمالها فقالت: أقول لكم نكتة..

يا سلام. يا ريت.

وقالت نكتة وثانية وثالثة.. أما الألوان والموسيقى معا فى وجهها وهى تضحك.. فشىء لا يوصف.. الألوان لها صوت والصوت له ألوان وهى كل ذلك وأكثر!

* * *

وإذا كان فيلم (دايما فى قلبى) هو أول فيلم عربى أرى لقطة واحدة منه.. فهناك فيلم أمريكى كان يجرى تصويره إلى جوار الهرم ورأيت منه مشهداً واحداً ضخما فخما، إنه فيلم (الوصايا العشر) إخراج سيسل دى ميل وبطولة شارلتون هستون. أما المنظر فكان خروج اليهود من مصر.. وقد جمع مساعد المخرج واسمه بغدادى كل الشحاذين والمتسولين من شوارع وحوارى مصر ليقوموا بدور اليهود الذين خرجوا من مصر وعبروا البحر الأحمر وظلوا أربعين عاما فى سيناء..

ولأسباب ما أعاد المخرج تصوير هذا المشهد أكثر من مرة.. لأنه لاحظ آثار أحذية على الأرض.. ومرة لأنه لاحظ آثار عجلات السيارات.. ومرة لأنه لاحظ ورقة ملونة لعلها بقايا علبة سجائر أو بقايا شيكولاتة.. وقد رأينا المخرج وقد نزل إلى الأرض يتمشى وينظر بعينيه.. ثم طلب من آخرين أن ينظروا من بعيد..

أما المرة الأخيرة التى فقد فيها صوابه وسمعناه يلعن ويسب الدين ـ هكذا قيل لنا ـ لأنه لاحظ بعد التصوير أن هناك قطعة زجاج تلمع من بعيد . .

وقد شاهدت هذا الفيلم بعد ذلك فى أستراليا . ولما عدت سألنى الساعى الواقف أمام مكتبى إن كنت قد رأيته . فسألته : أين؟

ـ فى فيلم الوصايا العشر . .

ـ فى الفيلم؟!

ـ نعم أنا كنت ضمن الناس اللى بتشحت!

وقد اعترضت مصر على تصوير بقية مشاهد الفيلم فى سيناء . . وكان المخرج يريد أن يصور «الوصايا العشر» وهى تنزل على موسى عليه السلام . . ورفضت مصر تصوير عبور البحر الأحمر إلى سيناء . . ولكن عندما ذهبت إلى هوليوود عرفت كيف استطاع المخرج أن يصور موسى عليه السلام وهو يشق البحر بعصاه . وكان التصوير بسيطا جدا : أتوا بمادة مثل الجيلى وصوروها من بعيد . . وضربها موسى بعصاه فانقسمت نصفين وصورا اليهود وهم يعبرون ومن ورائهم جيش فرعون الذى انطبق عليه البحر . . أما تصوير «الوصايا العشر» فكان أسهل . . فعن طريق الصواعق الكهربية التى تضرب الجبل وتكتب حروف «الوصايا العشر» . .

ومنعنا عرض الفيلم رغم أن سيسل دى ميل قد تحدث فى أول الفيلم فقال إنه اعتمد على ما جاء فى الكتب المقدسة والقرآن الكريم ، وإنه لم يغير أى شىء . . ولكننا رأينا فى الفيلم كثيراً من التحريف . . خاصة علاقة موسى عليه السلام بفرعون مصر . . كانت علاقة مهينة لنا . . وليست صحيحة تاريخيا!

* * *

وفى (أبو قير) بالإسكندرية رأيت بعض المشاهد من فيلم (كيلوبطرة) بطولة إليزابيث تايلور وريتشارد بيرتون . وكان الحب بينهما جنونيًا . وترددنا فى عرض هذا الفيلم فى مصر؟! ولا أعرف السبب . ثم رأيناه فى مصر وكان فى غاية الفخامة

والأبهة. وكانت كليوبطرة المصرية فى قمة الجمال والجلال.. مع أنها لم تكن فى جمال إليزابيث تايلور بل كانت دميمة وإن كانت تفوقها فى القوة والذكاء. والفيلم تكلف عشرات الملايين. وفى الفيلم مشهد واحد أعيد تصويره. وتكلفت الإعادة مليون دولار، المشهد عندما دخلت كليوبطرة روما، فغمزت بعينها لريتشارد بيرتون. وهذه الغمزة ليست فى النص!

وأمر المخرج بوقف التصوير فقد أنفق وقتا كثيرا فى الإعداد وتصوير هذا المشهد الذى هو أعظم ما فى الفيلم وأغمى على المخرج عندما وجد إليزابيث تايلور قد قفزت من عربتها الحربية إلى أحضان ريتشارد بيرتون ليصفق لهما الجنود. ولحسن حظ المخرج أنه لم يشعر بذلك كله فقد نقلوه إلى العناية المركزة!

❊ ❊ ❊

مرة ثانية رأيت حركة أخرى تكلفت عشرات الملايين، فقد رأيت فيلم (بن هور) بطولة شارلتون هستون أيضًا. رأيته فى سينما (المسرح المصرى) فى مدينة هوليوود.. وقبل أن يبدأ الفيلم فقد رأينا (الأسد) الذى يظهر عادة مع بداية كل أفلام شركة (متروجولدن ماير) يتحرك يمينا وشمالا ويزأر، إلا هذه المرة. فقد ظهر جامداً ساكنًا. واندهشنا. ولكن عرفنا أن المخرج قد قصد ذلك. فمن أجل هذا الفيلم وما سوف يرويه، يجب أن يتسمر الأسد ولا يفتح فمه.. والفيلم يتكلم عن يوم صلب السيد المسيح.. وقد رأيناه يحمل صليبه صاعداً فى طريق الآلام إلى جبل الجلجثة أو الجمجمة، وكان بين الجماهير وهى تصرخ رعبا وفزعا شاب يهودى اسمه (بن هور). رأى هذا المنظر وتضايق.. وانحنى للأمام كأنه يريد أن يحمل الصليب عن المسيح.. هذه اللقطة من أجلها كان هذا الفيلم. أى من أجل أن يظهر اعتراض اليهود على صلب المسيح.. فقد ظلت التهمة ملتصقة باليهود. إنهم هم الذين صلبوه! وهذه اللقطة العابرة تريد أن تقول ليس كل اليهود. بعضهم فقط وأن كثيرين اعترضوا على ذلك!

ولم ترفع هذه اللعنة أو الوصمة فى تاريخ اليهود إلا فى سنة ١٩٦٣ عندما أصدر

البـابا يوحنا الثـالث والعـشـرون تبـرئة اليـهـود من دم المسيح . . وبذلك لم يعـد الكاثوليك يلعنون اليهود فى صلواتهم!

❊ ❊ ❊

مثير جدا ما أحدثته أدريانا فى توجهاتى الأدبية والفنية، إلى هذه الدرجة كانت مقنعة وكانت أفكارها فاتحة للشهية . . إما لأنها كذلك وإما لأننى على استعداد لأن أعـرف الجديد وأتعلم . وإذا لم يكن هذا الاستـعـداد فـإن أسـاليب أدريانا العـديدة الفاتنة قد تمكنت من كل ذلك وأكثر . .

وأحسست عميقا أن حديقة الأسماك وأدريانا قد زلزلتا نفسى وفتحتا دماغى وعينى على الذى كنت أراه ولا أحس به وإذا أحسست به لا أفهمه وإذا فهمته فلم يكن كله يقنعنى . . كيف كـان كلامها منطقيا قويا مقنعا مستقرا؟ فى أكثر ما سمعت فى حـديقـة الأسـمـاك . . وقلت وتأملت . . ولكن هى وكـلامـهـا والجـو العـام واستعدادى . .

وتذكرت هذه الحوادث العادية التى أحدثت انقلابا فى العلوم:

فالتفاح كان يسقط من الأشجار من ملايين السنين . . ولكن عندما سقطت تفاحة على دماغ نيوتن دفعته إلى أن يكتشف قوانين الجاذبية بين الكواكب . .

وعندما رأى ستيفنسون البراد يغلى ويهتز فكر فى استخدام الطاقة البخارية لدفع القطارات . .

وقبل ذلك عندما لاحظ أرشميدس أنه فى كل مرة ينام فى البانيو الملىء بالماء يسقط الماء من البـانيو . . هذا الماء الذى سقط يساوى حجم جسم أرشميدس . فعرف كيف يمكن قياس أحجام الأشياء .

ولما كان العالم أينشتين يعيش وحده فى سويسرا . كان لا يملك ساعة يد فكان يسأل صاحبة البيت عن الساعة . . ثم يسأل واحدا من المارة وثانيا وثالثا . . لم تكن السـاعـات كلها دقيقة وكانت هناك فوارق . . ولابد أن تكون هناك فوارق بين

الساعات فى كل مكان فى الكرة الأرضية . وكان يقول : أنا الذى وضعت ساعة على كل ملليمتر فى الكون ليست عندى ساعة !

إنه يشير إلى نظريته فى وحدة الزمان والمكان وفى نسبية الزمن !

وفى إحدى المرات سألته : يا بروفيسور اشتر لك ساعة . وإذا كان الزمن «مهما» عندك إلى هذه الدرجة فكيف تقضى الوقت كله نائمًا فى السرير ؟ !

وكان أينشتين يضحك ويقول : ولكنك لا تفهمين !

ـ فقير وقليل الأدب كمان؟ !

ـ هاها . . ها

ـ . . . .

وجاءت لجنة الأستاذ العقاد لتقصى الحقيقة!!

لم أر الأستاذ العقاد يضحك كما فعل فى ذلك اليوم كأنه فى الخامسة والعشرين وليس فى الخامسة والخمسين. فأكثر الكلمات على لسانه هى: هاها. وبعدها وقبلها تجىء كلمات هتلر وموسولينى وروميل.. فالعقاد كان يتوقع أن ينهزم هتلر لا محالة، وكان يسخر من كل الذين يصفقون لانتصار هتلر على الحلفاء فى كل الجبهات. ويقول: هناك فرق بين الذى (ينظر) والذى (يرى).. فالناس ينظرون إلى تقدم القوات الألمانية فى أوروبا وأفريقيا ويجدونها تتقدم وتكتسح.. ولكنى (أرى) أن هذا لن يستمر.. وأن هتلر لا محالة سوف ينهزم!

وانهزم هتلر فى كل الجبهات وزحف الروس وأبادوا القوات الألمانية. ونزل الحلفاء فى نورماندى. وكانت هناك مؤامرة لاغتيال هتلر. واتهموا فيها ثعلب الصحراء روميل.. ولم يكونوا فى حاجة إلى اتهامه. فكل القادة يحقدون عليه وعلى براعته وشهرته. وطلب إليه هتلر أن يختار إما أن يقتلوه وإما أن يقتل هو نفسه. فاختار أن يموت بيده!

وهتلر وزوجته إيفا براون انتحرا فى قصر المستشارية فى برلين تحت قنابل الروس. ويتساءل العقاد: هل قتلها ثم قتل نفسه.. أو قتلته وتركها تقتل نفسها؟.. هل نفذ أحد الضباط أوامر هتلر بإحراق الجثتين.. ليس أحد على يقين من نهاية هذا الرجل الشرير!

ويضحك الأستاذ العقاد لهذه النكتة . .

وكنا نحن نضحك أيضا حتى لا يتهمنا العقاد بعدم الفهم . . أو نضحك تأثرا به ومجاملة له . . وإن كنا لا نجد فى كل الذى يقول مما يبعث على الضحك . ثم تحدث العقاد عن نهاية موسولينى : هاها . . طبعا هذه هى النهاية . . فالرجل الذى يمشى على رأسه لابد أن يعلقوه من رجليه . . هاها

ويقول : وبعد انتحار هتلر بيومين قام الحلفاء والطلاينة بضبط موسولينى هو وعشيقته كلارا بتاتشى وعلقوهما من سيقانهما فى إحدى محطات البنزين فى مدينة ميلانو ! هاها . .

وجاءت للأستاذ العقاد مكالمة تليفونية فتسللت إلى السلالم مسرعا إلى حديقة الأسماك بالزمالك . . ونادانى من ورائى الشاعر عبدالرحمن صدقى : إلى أين؟

فقلت : إلى البيت

ـ أين؟

ـ فى الزمالك .

ـ لماذا؟

ـ عندى مذاكرة . .

ـ ولا عندك الملهمة الإيطالية؟

وكنت نسيت أننى حدثته عن أدريانا . . ونسيت ما قاله عن الإيطاليات فهو، يعرف منهن الكثيرات . ورأيه فى المرأة الإيطالية أنها بنت بلد وتحب الأكل وأحسن طباخة فى الدنيا . أما الثقافة فليست كالفرنسية . . وحكى لى أنه أعجبته إحدى الإيطاليات على شاطئ الريفيرا . فقد كانت كل الفتيات بالمايوهات يستعرضن البشرة البرونزية والحركات المثيرة المبالغ فيها وهن يأكلن التفاح والموز عندما وجد واحدة . واحدة فقط تحت الشمسية تقرأ كتابا . . ورآها من بعيد . . حلوة العينين والشفتين والنهدين والساقين . . ولما لاحظت هى أنه ينظر إليها من بعيد راحت تتلوى وتتقلب على ظهرها وعلى بطنها . . كأنها أيقنت تماما أن اهتمامه بها قد

زاد . . فراحت تعرض عليه مفاتنها وتغريه بأن يتقدم . وأنه إذا فعل فلن يندم فقد عاين البضاعة من كل جهاتها . وتقدم واقترب وتكلم . ووجد الكتاب فى يدها كتابا للطبيخ . ولا رواية ولا ديوان شعر كما كان يتصور . ولكن كانت الفأس قد وقعت فى الرأس ورفع الراية البيضاء . وبعد نصف ساعة قال لها : تتجوزينى يا بت؟

قالت : أيوه يا واد!

وتزوجها الشاعر عبدالرحمن صدقى وأقاما فى فيللا فى شارع منيس فى مصر الجديدة . . هذه الفيللا أقام فيها الفنان محمد نوح . . واكتشف عبدالرحمن صدقى أن زوجته هذه لاتكره فى الدنيا شيئا مثل الكتب . . وفى يوم دخل المطبخ فجأة فوجد عددا كبيرا من الكتب قد تكومت فى جانب من المطبخ . فظن أنها سوف تسلقها وتحمرها ثم تحرقها بعد ذلك . . أى بعد أن تعذبها وتعذب كل من ورد اسمه فيها . .

وسألها : إيه ده؟

قالت : ولا حاجة . . أريد أن ألقى بها فى الزبالة . .

ـ لماذا؟

ـ قديمة!

ـ يا بنت المكرونة . . هذه كتب قيمة يا بنت الشوتشارا (الصرمة القديمة) هاها . .

ـ هاها . .

٢

ووجدت أدريانا ولم تكن وحدها . . وقدمت لى صديقتها : هذه إنجيلا . . حدثتها عنك . فجاءت ترى وتسمع فعندها هى أيضا ما تقوله . فهى زوجة طبيب مصرى أمه إيطالية . .

ـ أهلا إنجيلا . .

ـ أهلا سنيور أنيس . .

ـ بلاش سنيور وإلا قلت لك سنيورا إنجيلا . .

ـ داكور دو (أوكى) . .

ـ جراتسى (شكرًا) . .

دعنى أصف لك أدريانا مرة أخرى . . لقد اختارت ألوانا جميلة . . فستانها أزرق غامق وبه نقط بيضاء . . وحزام أبيض . . وحول الرقبة إيشارب . . وتدلى من أذنيها حلق سماوى وتتوسطه خرزة حمراء . . وتحت الإيشارب عقد من اللؤلؤ الصغير . . ولم أجد فى أصبعها ذلك الخاتم الضخم . وإنما ظهر خاتم رقيق به قطعة ألماس صغيرة، ثم إنها لاتحب ارتداء الجوارب من أى نوع ـ فهذا أفضل كثيرا وأجمل . وهى على يقين من ذلك . لايهم لون الجزمة . .

أما إنجيلا : فهى أطول ممتلئة . . شكلها إيطالى رومانى . . فالرأس كبير والشفتان غليظتان والعينان واسعتان تنظر إليك فى عينيك . وتضحك قبل أن تضحك . وذراعاها جميلتان كأنهما من الرخام الوردى . ولذلك فهى حريصة على أن يكون فستانها بلا أكمام تعرض جمالها تحت جاكت تعلقه على كتفيها . . ولم أطل النظر إلى إنجيلا فأنا مشغول بأدريانا . .

وفجأة وجدت إنجيلا تقول لها : غنى . . غنى يا أدريانا . . ونحن نغنى معك . .

واعتدلت أدريانا وهزت رأسها ليتدلى بعض شعرها على وجهها وقالت : كى سييته . . أيو نون لوسو ! . . كى سييته ـ أى من أنت؟ !

ومعناها : مين أنت؟ أنا ما اعرفش . .

وقالت وقلت . . وعادت وزادت وطلبت إليها أن تسمعنا الأغنية الجميلة التى توجع القلب وقد سمعتها منها فى التليفون . . واعتدلت أدريانا وغنت : أنيما أى كورو (عقلى وقلبى) . . عقلى كان ملكى . . واليوم هو ملكك . . قلبى كان ملكى واليوم هو ملكك . . أرجوك أدينى عقلى لأبحث به عن قلبى . . أو خد أنت قلبى وارحم عقلى . . يابختك عقلك فوق فى دماغك . . فوق . . وقلبك فى صدرك نائم . . وأنا قلبى وعقلى مثل حمام الزاجل . . عقلى خرج من عقلك ثم عاد

إليه . . وقلبى خرج من قلبك ثم عاد إليه . . فلم يبق لى إلا ما ترى . . أين عقلى وعقلك . . أين قلبى وقلبك . . أين نحن أين كل الأشياء . أين . . أين . .

قلت : ولكن الذى بقى منك جميل . . أنت الآن مثل جزيرة المغنطيس التى تحدثت عنها (ألف ليلة وليلة) هذه الجزيرة إذا اقتربت منها السفن سحبت مساميرها فصارت ألواحا خشبية عائمة مفككة . . كل ذلك فعلتيه أنت أيضا بجمالك . . ففى يا أدريانا وسط حديقة الأسماك وسوف تجدين ألف قلب وألف عقل قد هجرت أجسامها والتفت حولك . . ألا يكفيك كل هذه العقول والقلوب؟!

ـ أوه سنيور . . لماذا لا تقول شعرا . . بل أنت تقول شعرا . . وتركيب هذه الجمل ونطقها لا يختلف عن أى إيطالى . . ولو نقلت أنا هذا الذى قلت فإن أحدا لا يشك فى أن هذا كلام واحد إيطالى صميم!

ونزلت دمعتان من عينيها . . وأدهشنى أن تكون لى هذه القدرة على إذابة العيون . . هل أنا الذى فعلت أو هى الكلمات أو هو احتياجها لمن يقول فيها شعرا أو هذه هى أقصى درجات المجاملة؟

وأرى وجهها صادقا صافيا . وكأنها أرادت أن تمتن لى فقالت : كنت سأعود إلى البيت حزينة إذا لم تأت اليوم!

ولم أقل لها إننى لم أذهب إلى الجامعة منذ عشرة أيام . . ولابد أن أنتظم فى الدراسة . فالذى أريده ليس سهلا . لابد أن أكون الأول ، أما الحب والغرام والانشغال بالجمال فهذا ترف عظيم لا أقدر عليه . . ولم أقل لها إنه يجب ألا يكون لى قلب . وإذا كانت تريد قلبى وأن تعطيه لقطتها فلتأخذه فورا . فليس عندى وقت للحب . ولا عندى قلب الآن . ويجب ألا يكون . فأنا طالب أريد أن أتفوق وبس . أما الذى سأفعله بهذا التفوق فسؤال مؤجل تماما ـ مؤجل طول عمرى .

وفوجئت بصديقتها إنجيلا تقول لأدريانا : أغنية مصرية . . الآن . . وراحت تغنى . . أما اللحن فأعرفه . لكن الكلمات لا أعرفها . ولست على يقين إن كانت إيطالية أو لهجة إيطالية . . وسألتها : ما هذه!

ـ أغنية لعبدالوهاب . .

ـ أيوه اللحن صحيح . . لكن ما هذا الكلام؟

ـ إنه عربى . .

أما الأغنية التى ترددها فهى : أنتى وزوليز مانى . هرا ميكى . . أما ترجمة هذه الكلمات فهى : أنت وعزولى وزمانى حرام عليك؟!

ـ هاها . .

٣

وفجأة لم تعد حديقة الأسماك هى المكان الذى ألتقى فيه بأدريانا وإنجيلا والزميل حسن فؤاد والزميل عبدالفتاح الديدى . . فقد فوجئت بزملاء صالون العقاد : لبيب شقير وعبدالرحمن صدقى وعلى أدهم وطاهر الجبلاوى . إيه الحكاية؟!

فقد لاحظ الأستاذ العقاد أننى لم أعد أتردد على صالونه كل يوم جمعة ومن شهور . فكان من رأيه أن يجيئوا إلى حديقة الأسماك ليظبطونى . . وجاءوا . وقررت أن أنتقل من حديقة الأسماك إلى مركب فى النيل اسمها (أرابيا) فى مواجهة حديقة الأسماك . .

ولما عدت إلى صالون العقاد كان سعيدا لأن لجنة تقصى الحقائق التى بعث بها يوما بعد يوم قد ضبطتنى وطفشتنى . . هاها!!

وفوجئت بمقلب كان قد دبره الأستاذ العقاد . . وهو أن يقوم الأستاذ طاهر الجبلاوى باصطحاب خادمة وطفلها . ويجعلها تهجم علىّ وتبكى لأنها زوجتى وأننى تركت البيت بسبب هذه الخواجاية! وكانت تعليمات الأستاذ العقاد مشددة : لا داعى للهجوم على الفتاة الإيطالية أو ضربها أو بهدلتها . . المهم أن الخادمة تمسك فى خناقى وأن يتعلق الطفل بملابسى ويقول : يابا . . بلاش تسيبنا يا بابا! وهى تقول : كان يوم أسود يوم ماصدقتك يا بتاع الخواجات . . إلخ ، ويضحك الأستاذ

العقاد ويقول: يا مولانا.. لولا خوفى عليك من هول الصدمة والفضيحة.. هاها.. لقد أوقفت هذا المقلب الثقيل والموجع.. يا مولانا أنت هربت بجلدك.. هاها..

ولم أضحك.. وتضايقت من الأستاذ العقاد الذى أكد لى أن شيئا من ذلك لم يتقرر. وأنه يداعبنى فقط.. هاها.. هاها..

فقلت: والله يا أستاذ أنا حدثتها عنك كثيرا. وكان يسعدها أن تجىء لزيارتك ورؤيتك..

ـ قالوا لى إنها جميلة جدا.

ولاحظت أن الأستاذ العقاد يريد أن يدعوها.. أو يتردد فى دعوتها.. أو يريدنى أنا الذى أدعوها.. وأسعدنى أننى أحرجت الأستاذ ووجدته حائرا بين أن يدعوها.. وأن أدعوها أنا.. واكتفيت بهذا الانتصار ولم أدعها رغم أنه طلب منى ذلك.. هاها

وكان عبدالرحمن صدقى جالسا فوقف وقال: والله يا أستاذ إنها تحفة فنية.. أنا رأيتها.

فسألته: متى؟

قال: يوم أكلت كوز الذرة أنت وهى.. أنت لم تلاحظ أن بائعة الذرة رفضت أن تتقاضى منك فلوسا وقالت لك: علشان القمورة دى..

ـ أيوه حصل

ـ أنا يا أستاذ الذى أرسلتها وكان الذرة ثمنا تافها لمشاهدة هذه التحفة الفنية.. ومعك حق إذا لم تذهب للجامعة أو تجىء إلى صالون الأستاذ.. أنا لو كنت مكانك.. فلن أعود إلى البيت بل سوف أبقى فى حديقة الأسماك.. وأنام تحت الدكة انتظارا لمجيئها فى اليوم التالى ومعها السندوتش الذى تلفه فى الورق الوردى.. أنا مستعد أتجوزها..

ـ ولكنها متزوجة!

ـ أطلقها يا سيدى من جوزها وأتجوزها وأطلق مراتى الإيطالية . .

وجاءنا صوت نسائى يقول : يا ابراهمان ايب!

وكانت زوجة عبدالرحمن صدقى هى التى جاءت وجلست خارج الصالون وتصرخ : يا عبدالرحمن عيب!

ووجدها الأستاذ العقاد فرصة كبيرة ليضحك بأعلى صوته ويقول لى : يا مولانا . . أنت أضعت علينا فضيحة بجلاجل . . هاها . . هاتها يوم الجمعة القادم . . وتيجى يا عبد الرحمن أنت ومراتك . . هاها . .

فوقف عبدالرحمن صدقى يقول للأستاذ العقاد : فى عرضك . . الطلاينة غجر . . ممكن جدا يضربوا بعض ويكسروا البيت فوق دماغنا يا أستاذ . . بلاش الهزار الثقيل ده . .

أما سعادة الأستاذ العقاد فكانت بلا حدود . .

وعندماوقف العقاد لوداعنا قال : والله أضحكتمونى . . سوف أتناول طعامى المسلوق المقرف بشهية مفتوحة . . شكرا . . اشكرها لى يا مولانا . . هاها . .

ولم أضحك فقد كان الحوار له طعم الفضيحة . مع أنهم يحسدوننى على هذه الصداقة التى سوف تنتهى بعد أيام . . فقد تقرر عودة أدريانا وزوجها إلى إيطاليا وبعدها إلى الإقامة نهائيا فى أمريكا مع كثير من أقاربها . .

كلمة لم أقلها ندمت على ذلك!

١

سألتنى: هل تحبنى؟

قلت: لا . .

ـ لماذا؟ أنت تقول إننى جميلة وإن هذا رأى تلامذة العقاد . .

ـ جميلة جداً . .

ـ وتقول إننى ذكية!

ـ جداً .

ـ وتقول إننى أعرف كيف أتكلم وكيف أكون جذابة . وعندى قدرة على عرض أفكارى . وأتكلم عدة لغات . . . ولم أشعر مرة واحدة أنك تثاءبت وأنا أكلمك . ولا رفعت عينيك عنى ولا انشغلت بأى شىء غير الذى أقول . إذن؟

ـ لا أستطيع أن أحبك .

ـ وهل فى الدنيا أحد يستطيع أو لا يستطيع أن يحب . . كلنا قادرون على الحب . . وكلنا قادرون على الانشغال بالمحبوب .

ـ ولكنى لست قادراً .

ـ عندك واحدة أخرى؟

ـ أبدًا!

ـ هل أنت فى انتظار واحدة أخرى . .

ـ لا

ـ بمنتهى الصراحة سؤالى ليس له أى معنى لأن هذا الحب لاهدف ولا أمل فيه . . فأنا متزوجة عن حب . وعندى طفل ثمرة هذا الحب . . وسوف أترك مصر قريبا . وقد لا نلتقى بعد ذلك . ومادام هذا رأيك فلن أكتب لك ولن أسأل عنك . . لأننى ولا حاجة . .

ـ بل أنا الذى ولا حاجة . . أنا حتة طالب لم يعرف له طريقا ولا أملا ولا ماذا سيفعل غدا . وما قيمة كل هذا الذى ندرسه وما سعره فى سوق الثقافة . . ولكن أعرف شيئا واحدًا . . واحدًا طفوليا عياليا . . وهو أن أكون الأول وبس . أعمل إيه بذلك؟ لا أعرف؟

ـ مش فاخمة؟

ـ وأنت فكرك إننى فاهم . والله ما أنى فاهم أى حاجة . . الليل والنهار نحل ونربط مشاكل فلسفية عن الكون وأين ومتى وإلى أين ولا عندى أية إجابة . . ليل نهار ندرس تاريخ المعذبين فى الأرض . . والواحد منا ليس فى جيبه قرش صاغ . . طبعا أنت مش عارفه يعنى قرش صاغ . . أقول لك حكاية . . لى زميل اسمه وليم الميرى . . فى يوم وجدت معى قرش صاغ وهو معه قرش تعريفة . ونحن فى حاجة إلى مليم لكى نركب الترام من الجامعة إلى هنا . فقد كانت التذكرة بثمانية ملاليم . فبدلا من أن يحتفظ كل واحد بفلوسه التافهة اتجهنا إلى النيل وألقينا بالملاليم حتى لا نركب الترام نحن الاثنان! أو حتى لا يفكر من معه العشرة ملاليم أن يركب الترام ويترك زميله يجرى وراءه . . وهذا يدلك على عقليتنا فى حل مشاكلنا . فقد كان من الممكن أن نحتفظ بالملاليم . . أن نشترى ترمس أو لب أبيض . . وهذا يدلك على عقلية الذين يدرسون الفلسفة فى كل العصور ويقرءون كل المشاكل الكونية والنفسية وكيف استطاع مئات الفلاسفة أن

يجدوا لها حلا . . فهل من المعقول أن تحبى شخصا له هذا التفكير؟ وهل يسعدك أن يحبك مثل هذا الطراز من الناس . . يا شيخه بلا قرف . سيبك منى . أنا كنت سعيداً جداً بالحديث إليك وبالأيام الحلوة التى أمضيناها تحت الشجر فى مسقط النمل والبراغيت . . وكنا مثل الأسماك فى زجاج حديقة الأسماك . . نتحرك فى أحواض شفافة . حركة دائرية . . لا هدف ولا أمل فى الخروج وإنما هكذا حتى الموت .

ـ أريد أن أسألك : إذا كان هذا رأيك فى شخصيتى . فلماذا لم تحبنى؟

ـ لم تفهمى ما قلت . . معك حق . . أنا لا أستطيع . لأننى طالب قد قرر أن ينجح متفوقا على زملائه وبس وليس عنده أية رغبة أو قدرة على أن أنشغل عن ذلك . بل إننى أمنع نفسى عن التفكير فيك أو حتى فى كلامك .

ـ فهمت . إننى أحترم صراحتك المؤلمة . . وأرى إننى أيضا غلطانة . فأنا غارقة فى حب زوجى وابنى . ولابد إنه غرور المرأة فى أن تعرف إن كانت لها قيمة أو كانت لا تزال جذابة . . وهل مفعولها قد ضعف بعد أول رجل أحبته وأحبها . .

* * *

عندما أتذكر هذا الحوار الآن أضحك على سلوكياتى فى ذلك الوقت . . وأيه يعنى لو قلت لها : أحبك . . وهى تستاهل أن يحبها أى إنسان . . أى واحد عنده نظر . . عنده ذوق . . عنده إحساس . . إيه يعنى لو كنت قلت لها : أحبك . . أموت فيك . . لا حياة لى من بعدك . . إيه يعنى؟ كنت أسعدتها وربما أسعد نفسى . . ثم إنها سوف تسافر بعد أيام . . وذكريات جميلة . . وورود وعطور فى الهواء وخطابات سوف تجىء وصور لها . . ومن يدرى ربما عادت إلى مصر . .

مع أننى رأيت بعد ذلك من هن أقل جمالا . وكذبت . ومن هن فى مثل جمالها وكذبت أيضا . ولكن بمنتهى الصراحة والأمانة والصدق لست آسفا على ذلك . فلم أكذب .

ما الذى أخافنى ما الذى أفزعنى؟ كيف تصورت فى ذلك الوقت أنها سوف تلخبط لى عقلى فأجد نفسى فى آخر الصف بين الطلبة المتفوقين!

لا شيء ولكنه جهل . وخوف وفراغ . فقد حذرتنى أمى وأنا صغير ألا أتكلم مع أية بنت . ولم أفعل . ولا أعرف أحدا يعرف البنات وينشغل عن المذاكرة! ورغم أننى انتقلت من مرحلة إلى مرحلة أعلى فى الدراسة والتفكير وأصبحت أناقش مشاكل كبرى فى الفلسفة والدين . . فإن نصائح أمى كانت سلاسل فى يدى وساقى وعقلى وكانت أقفالا من الحديد على قلبى .

٢

لم أجد أسخف من الذى قلت . ولم أجد سببا للأرق وعجزى عن الدراسة أبشع من الذى قلت . ولم يكن هناك سبب واضح إلا الخوف والعناد وسوء الفهم . وجلست وحدى فى حديقة الأسماك وأحسست أن الحديقة كلها بحيرة . وأن الناس أسماك تروح وتجىء . شىء عجيب إننى رأيتهم كذلك . واندهشت لهذه الصورة . فوجدتنى جالسا فى ركن غارقا أتعلق بعود من العشب فى فمى . ولم تحضر أدريانا . وجاءت صديقتها إنجيلا وطفلها . وتمنيت لو فتحت أى كلام لأعتذر عن الذى قلت . . لكنها أكثر انفتاحا ومرحا . وكان حديثها عن حفلات الوداع التى تقام يوميا لأدريانا وزوجها . . وكيف أن كل واحدة حكت قصة حبها لزوجها . وكيف كان الزواج . وأكثر القصص مضحكة . وأكثر الأسباب التى أدت إلى الزواج والحب العنيف كانت تافهة جدا ولكنها الحياة تقام قصورها الفخمة على أكوام من الرمال المتحركة . فلا الرمال سكنت ولا القصور سقطت . . هاها . هى التى تضحك . .

ومدت يدها فى أعماق شنطتها لتخرج عدداً من الكتب أراها لأول مرة فى حياتى . كتاب عن الشاعر الإيطالى كاردوتشى . . وكتاب عن الشعر للفيلسوف الإيطالى كروتشه ومسرحية (ست شخصيات تبحث عن مؤلف) للأديب الإيطالى بيراندللو . . مع تحيات أدريانا وقبلاتها ـ إنجيلا هى التى تقول . ثم تقدمت وقبلتنى وهى تقول : هذه القبلة من أدريانا . . وهذه قبلة منى أيضا!

٣

كم يوم مضت بلا أدريانا ولا حسن فؤاد وزملائى فى قسم الفلسفة : عبدالفتاح الديدى وبديع الكسم وسامى الدروبى . . ولا الزميلات سناء أبو المعاطى وسنية ماهر . . ولم أعد أرى الأستاذ رضا والد الفنانين محمود وعلى رضا وكان أمينا لمكتبة الاستشراق فى مكتبة جامعة القاهرة . . مرة واحدة رآنى هنا . ولا شعوريا وقفت وضربت له سلاما فى حالة من الفزع مع أنه لاشىء يدعو لذلك . ولكنه الخوف الريفى الذى أصبح عميقا رغم أنه لا مبرر له!

وكنت وحدى أسترجع الكلام الجميل لأدريانا . . ولا أنسى ولن أنسى كلمة نطقتها لا أعرف كيف . وهى كلمة (تزورو) أى الكنز . . فالفتاة الإيطالية تقول لصديقها أو حبيبها : تزورو . . ميو . . أى يا أعز الناس . . يا كنز . . يا كل شىء فى الدنيا . .

كانت تنطقها وتغنيها حرفا حرفا . . ثم سمعت منها أغنية مطربة من صقلية اسمها : أماندا نيرى . . تقول : تزورو . . ميو . . يا بعيداً عن عينى يا بعيدا عن يدى . . يا بعيداً عن كل عين وكل قلب . . يا كنزى . . يا كنوزى كلها فى قلب قلبى . . كفانا ألما يا كنزى . . كفانا حرمانا يا كنزى . . ضع كنزك على كنزى يا كنزى إلى الأبد . . تزورو . . ميو!

لا سمعتها من أحد قبلها ولا سمعتها من أحد بعدها . . لم ينطقها أحد مثلها . . إنها حكمة . . بل إنها صوت لحروف . . تخرج حرفا حرفا . . دقات رقيقة على جدران القلب الصفيق والعقل الجليدى . . نغمة عابرة رقيقة لمعت فى الشوشرة الفلسفية التى هى حياتى!

٤

كلمات أخرى سمعتها فهزتنى .

ربما كان الممثل الذى قالها قد نسيها اليوم . أو نسيها فى ذلك الوقت ولكنها أوجعت لى قلبى وأحزنتنى وأبكتنى . .

فقد كانت لى مسرحية ترجمتها للأديب السويسرى ديرنمات. المسرحية اسمها (رومولوس العظيم) بطولة صلاح منصور وزوزو نبيل.. وإخراج سمير العصفوى. المسرحية أبهة فنية وأدبية لانهيار الإمبراطورية الرومانية على يدى آخر أباطرتها رمولوس العظيم.. إنها لحظة واحدة ظهر فيها أحد الجنود وقد أرهقه السير الطويل والانسحاب الذليل إلى روما وكذلك الجوع والعطش. هذا الممثل الناشئ هو أحمد بدير.. جلس على السلالم وقال: أنا تعبان. تعبان..

عبارة عادية جدا. وأعتقد أن أحمد بدير لا يتذكر الآن.. ولكنها زلزلتنى فى ذلك اليوم وفى ذلك الوقت فقد كنت أعانى ويلات الحياة الأدبية والصحفية.. تعبان جدا.. وخطرت لى أفكار كثيرة من بينها أن أهاجر من مصر إلى أى بلد آخر. وحاولت الهرب وفشلت..

ورغم أننى عايشت هذه المسرحية: ذلك السقوط الفخم الضخم للإمبراطورية الرومانية الغربية.. فلم يهزنى ويزعزعنى إلا هذه الكلمة: تعبان... تعبان. إنه صوت هذه الكلمة..

وكنت أرددها وراء أحمد بدير.. حرفا حرفا.. وكل ليلة من ليالى عرض المسرحية!

٥

ولا نسيت صوت الباب والبطلة التى اسمها نورا فى مسرحية (بيت الدمية) للأديب النرويجى أبسن وهى تغلقه بشدة فى وجه القرن التاسع عشر وفى وجه كل المشاهدين للمسرحية. فقد كانت على خلاف مع زوجها وقد أرادت أن تنقذه. وحاولت. ولكن الناس رأوا فى موقفها جرأة واجتراء، فاندفعت غاضبة وأغلقت الباب وراءها بمنتهى العنف. وكان الباب صفعة على وجوه المشاهدين الرجال لدرجة أننى أحسست أنها قفلت الباب على أصبعى أو على لسانى.. ففزعت!

ثم لم أجد أمامى ولا ورائى أحدا شاركنى هذه الحقيقة المؤلمة . ولكن وضعت أصابعى فى أذنى أتقى هذه الإهانة المدوية؟!

٦

وأصوات أخرى : فعندما كنت أقرأ رواية (الجريمة والعقاب) للأديب الروسى دستويفسكى رحت ألهث وراء البطل الطالب راسكلنكوف وهو يهبط الدرج وأسمع فرقعة الخشب تحت قدميه ثم يفتح باب غرفة صاحبة البيت ليقتلها . .

وبلغ من قدرة المؤلف العظيم أن جعلنى أرفع رأسى عن الصفحات وأنظر إلى باب غرفتى كأننى أتوقع انقضاض البطل بين لحظة وأخرى!

٧

وفى رواية (مدام بوفارى) للأديب الفرنسى جوستاف فلوبير وقفت البطلة العروس (إيما بوفارى) تنتظر زوجها طبيب الأرياف . . وقد تأنقت وتألقت وتجملت فى انتظار الزوج الحبيب . . وهى تنتقل من الباب إلى الشباك . . ثم جاء الزوج ونزل من فوق حصانه . الحصان كان يخوض فى الوحل الذى تعلق بحذائه وملابسه . . واقترب الزوج إلا من أحضانها وله رائحة الأعشاب المبللة والطين والمطر . . وجلس على السرير وخلع حذاءه . . طاخ . . صوت الفردة الأولى . . وطاخ . . صوت الفردة الثانية . . ثم انقلب على السرير وهات يا شخير .

أما وقع الحذاء فلم يكن على أرض الغرفة وإنما كان على دماغ الزوجة والقارئ الذى وقف إلى جوار البطلة الجميلة التى كانت تنتظر الكلمة الحلوة والهمسة والقبلة والحضن الدافئ مكافأة على ساعات أمضتها أمام المرآة بجوار النافذة تسوى شعرها وتتخيل قبلة تقضم شفتيها وتغمض عينيها . . ثم يجىء الزوج فلا يغمض لها جفن حتى صباح كل يوم!

٨

كنت فى روما . وكنت سعيداً بلقاء صديقى الأب قنواتى الراهب فى الدير الدومنيكى بشارع مصنع الطرابيش بالعباسية وهو رئيس جمعية (إخوان الصفا) والذى ساعدنى كثيرا على فهم أسرار الفلسفة المسيحية واليهودية . وتعانقنا : إلى أين؟ قلت : لا وجهة لى ! ثم قلت : قرأت فى الصحف عن أمواس حلاقة جديدة . . أمواس جيليت الجديدة . . من المعدن الأبيض . .

وقد نبهنى إلى ذلك صديقى اللواء محمد فريد حجاج . وقد اشتريت له واحداً وأرسلته له بالبريد على أنه اختراع لم يره أحد فى مصر !

وفجأة وجدت الأب قنواتى يمسكنى من يدى بقوة ويقول : يا خبر . . إيه ده . . يا خبارررر . . ياخبارررر !

وإذا أنت سمعت هذه الكلمة بهذه الصورة من راهب رصين معتدل الفكر متوازن المشاعر . . إذن لابد أن شيئا رهيبا عجيبا قد حدث أو كان من الواجب أن يحدث . . أو أنه قد نسى أمراً خطيرا . ثم وقف واضعا يده على رأسه . ووقفت فى ذهول أنتظر .

وقلت : خيرا إن شاء الله . .

ـ يا خبارررر . .

ولم يقل شيئا ، ومضينا نقطع شوارع روما من ميدان السدرة مرورا بالشارع الوطنى وميدان البندقية وشارع السباق . . حتى ميدان الشعب . . ثم إلى القرب من الفاتيكان ودخلنا محلا كل من يعمل فيه من الراهبات واشترى موس جديدة للحلاقة . . واندهشت كيف إننا خبطنا كل هذا المشوار الطويل من أجل موس قد اشتريتها بالفعل . .

ـ ولكن هنا أرخص !

ـ أرخص؟

ـ أرخص على الأقل ثلاث ليرات . .

. . أى ثلاث مليمات!!

ـ هاها . .

ـ هاها . .

٩

لى قريب يعمل فى شركة ماركونى زرته . أبديت شوقى إليه وحنينى . .

ـ وحشتنى . .

ـ وأنت كمان . .

ـ عاوز منك خدمة . .

فقال مندهشا : تحت أمرك . .

ـ النمرة دى . .

ـ إيه دى . .

ـ نمرة تليفون فى مدينة بورتوفينو الإيطالية . .

ـ من تعنى؟

ـ اطلب النمرة وأنا سوف أتكلم .

ـ أطلبها وبس . وطلبها . وسمعت صوت أدريانا وقلت : من القاهرة . . وحشتينى!

ـ ت . . ز . . و . . ر . . وميو . . م . . ى . . و

وندمت على أننى لم أقل لها الكلمة التى كنت منتظرها . . وكنت أريدها!

المسرح اللامعقول في مدرسة أبو حمص!

١

المدرسة كلها لا تعرف أى عمل جليل تقوم به لأول مرة فى مصر! أنه يوم مشهود . . الأعلام تعلقت على باب المدرسة . والأرض قد كنست ثم رشت بالماء . وهذا واضح تماما على الرمل . . فأثر المقشات ذهابا إيابا قد ترك قنوات صغيرة امتلأت بالماء . . والمدرسون فى حركة غير عادية دخولا وخروجا من مكتب حضرة الناظر وهو ثقيل الدم والكل يكرهونه . .

أما نحن التلامذة الذين سوف نظهر أمام آبائنا فى أدوار مسرحية قد تدربنا عليها طويلا ، فواقفون فى الداخل . والداخل هو حوش مرشوش بالماء . والأرض من الأسمنت الرمادى . لابد أنه كان زفتاً أسود ولكن ذهب لونه من شدة الحركة فوقه . وكل واحد منا يعرف مكانه . . وكل التلامذة قد أمسكوا سيوفا خشبية . . ونتكلم . . نقول أى كلام . . حتى إذا سمعنا اقتراب أحد المدرسين تسمر كل واحد فى مكانه . . ونحن جميعا واقفون فيما عدا واحد قد جلس على دكة خشبية . والدكة عليها مفرش أحمر استعرناه من مدرسة البنات الملاصقة لمدرستنا .

مضت ساعة وكمان ساعة . ولا شىء يدل على أننا سوف نبدأ . أما آباؤنا فجاءوا

وجلسوا. ونظروا وانتظروا. وكل واحد يكلم ابنه ويبدى سعادته.. مع أنه لا مبرر لذلك.. ثم ظهرت حركة مفاجئة لقد جاء العمدة.. ورافقه حضرة الناظر إلى مكانه.. ليس المقعد الأول ولا الذى يليه.. وإنما المقعد الرابع.. الأول لسعادة مأمور المركز والثانى لوكيل النيابة والثالث للدكتور هنرى يزبك طبيب مركز أبوحمص..

نسيت أن أقول إننا فى مدرسة أبو حمص الابتدائية فى أواخر الثلاثينيات. واليوم قد اختاروه لعرض مسرحية اسمها (معن بن زائدة). طبعا نحن لا نعرف من هو ولا الحكمة من اختياره. ولكن فيما بعد عرفنا أنه أحد الولاة.. ربما كان آخر الولاة فى عصر بنى أمية.. وكان واليا على اليمن وقائدا عسكريا خشنا. قتل الكثيرين واستعانوا به فى ضرب المتمردين والفتن. وقتلوه فى ٧٧٠ ميلادية.. وكان من أهم صفاته أنه رجل كريم. ويقال رجل حليم. وهذه المسرحية التى سوف نشترك فى عرضها تدل على ذلك..

ومن جلوس حضرة الناظر فى الصف الأول والمدرسين فى الصف الأخير يكون قد اكتمل الاستعداد لبداية الحفل المدرسى. ولا يبقى إلا أن يبدأ (العرض المسرحى) هذا التعبير لم يستخدمه أحد فى ذلك الوقت.. ولا حتى كلمة المسرح.. فالمنظر أمامك الآن هو: أولياء الأمور والكبراء فى ناحية.. والدكة ذات المفرش الأحمر يجلس فوقها أحد التلامذة وحوله عدد من التلامذة قد ارتدوا الملابس البدوية. وهم من العائلات العربية فى مركز أبو حمص: أولاد مخيون وكريّم ـ بتشديد الياء ـ وبّريك ـ بتشديد الباء ـ وخنيسة وسلومه.

أما دورى والزملاء: عبدالرحمن مخيون الذى صار ضابطا كبيراً وجمال ربيع الذى صار زعيما سياسيا ومحسن دياب من عائلة الصحفى الكبير توفيق دياب فهو أن نمنع أى أحد يدخل على الوالى معن بن زائدة ومع أن أحدا لن يفعل ذلك فكان علينا أن نقول معا: قف مكانك ثكلتك أمك!

.. ثم إن هناك مدرس اللغة العربية الذى هو (المخرج) ولم نكن نعرف هذه الكلمة.. ومعه رزمة ورق يلقن التلامذة بصوت مسموع جدا إذا أحد نسى.

وأغلبنا قد عجزت ذاكرته عن حفظ شيء أمام هذا الحشد غير العادى من آبائنا وأقاربنا وضيوف حضرة الناظر . .

والمنظر هكذا : نحن التلامذة فى ناحية نلتف حول (البطل) معن بن زائدة ويجيء شخص يدفعنا لنفسح له الطريق ليخاطب الوالى الكريم العظيم . . ليغضبه فإذا غضب استحق مكافأة مالية من أحد خصوم الوالى . ولذلك سوف يعمل كل ما فى استطاعته لإثارة الوالى حتى يغضب .

ويتقدم هذا البدوى غاضبا شاخطا ثائرا ويقول لمعن بن زائدة الذى ظهرت وراءه صورة الملك فاروق الشاب المحبوب :

أتذكر إذ لحافك جلد شاة   وإذ نعلاك من جلد البعير؟!

فيرد عليه معن بن زائدة فى هدوء شديد : أذكر ذلك ولا أنساه . .

ويعود الرجل البدوى يقول له وقد اقترب منه أكثر :

فسبحان الذى أعطاك ملكا   وعلمك الجلوس على السرير!

ويرد عليه معن بن زائدة : سبحانه وتعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء . . إنه على كل شيء قدير!

فى هذه اللحظة يخترق الصفوف أحد سعاة المدرسة ويهمس فى أذن حضرة الناظر . . الذى يشير بيده لوقف (العرض المسرحى) . . ويشير المخرج إلينا بأن نلتزم الصمت . وينهض أحد أولياء الأمور ويطلب إلى واحد من أبنائه أن يخرج فوراً . . وأن أخاه الأصغر سوف يقف مكانه ـ وخرج زميلنا وعاد ليهمس فى أذن والده . . إنه ربط الحمار جيداً . .

فأولياء الأمور قد جاءوا على حميرهم وخيولهم وربطوهم فى سور المدرسة . ويشير حضرة الناظر إلى المخرج إعادة الحوار فيستأنفون الحوار . . وفجأة يجيء من يهمس فى أذن حضرة الناظر . . الذى ينتفض واقفاً . وبسرعة يخرج . . ويتوقف كل شيء . . ويعود الناظر ومعه اثنان من السعاة الذين راحوا ينزعون

أوانى الورد من أمام معن بن زائدة. فقد كانوا سرقوها من قصر الخواجة ساسون على الناحية الأخرى من مدينة أبو حمص. وجلس الناظر غاضبا. ووقف المخرج صامتا ينتظر الأمر بأن نستأنف العرض المسرحى.. ولكن الناظر لم يفعل.. إنه صامت على مضض. وخشى المخرج أن يصدر قرارا بإلغاء المسرحية.. فتقدم من حضرة الناظر وأشار إليه دون أن يرفع رأسه بأن يكمل: هذا (الهباب)....

وتتجه العيون إلى الممثلين. ويعود الرجل البدوى يقول لمعن بن زائدة أملا فى أن يغضبه

فجد لى يا ابن ناقصة بمال　　　فإنى قد عزمت على المسير!

اسمه (ابن زائدة) والرجل اسماه ابن ناقصه وطلب منه أن يجود عليه ـ منتهى الإهانة. ومفروض أن الوالى لا يغضب ولا يثور..

فرد عليه معن بن زائدة: أعطوه ألف دينار كى تخفف عنه مشاق الأسفار..

فقال الرجل:

فثن فقد أتاك الملك عفواً　　　بلا رأى ولا عقل منير

ـ أى أعطنى ألفا ثانية..

فقال له معن: أعطوه ألفا ثانيًا كى يكون عنا راضيا..

وهنا تدخل المخرج وقال للتلميذ: يا أخى اصح. أنت نائم على روحك.. زعق.. اشخط.. اهجم عليه كأنك تريد أن تضربه.. يا لله. فاقترب التلميذ وراح يسرسع:

سأرحل عن بلاد أنت فيها　　　ولو جار الزمان على الفقير

فلم يغضب معن بن زائدة وإنما قال له بمنتهى الهدوء وآباؤنا يقولون: ما شاء الله.. اللهم صلى على النبى..

قال معن:

إن جاورتنا فمرحبا بالإقامة . وإن جاوزتنا فمصحوبا بالسلامة!

الله أكبر . . الله أكبر ـ صوت أولياء الأمور . .

* * *

انتهى العرض المسرحى الذى استغرق دقائق . . ولكن ظللنا واقفين ساعتين . .

وقبل أن ينهض الضيوف والتلامذة الممثلون وقف المخرج يقول : بقيت كلمات نسيها التلامذة فقد تهيبوا الموقف الجليل . .

وطلب إلى أحد التلامذة أن يخرج من المسرح ويقتحم الباب الذى نقف عنده وأشار لى أن أردد وراءه : خسئت . ثكلتك أمك . .

وقلت : يخسئت (مزيج من كلمتى خسئ ويخص) ثكلتك أمك!

وقال جمال ربيع : عليك اللعنة!

وقال محسن ديات : إلى الجحيم!

وقال عبدالرحمن مخيون : اقتلوه!

٢

لم تدر مدرسة أبو حمص الابتدائية أنها أعدت وعرضت وارتجلت أول مسرحية (لامعقولة) فى العصر الحديث . . وقد سبقت مسرحية توفيق الحكيم ابن نفس المديرية . . أقصد مسرحية (يا طالع الشجرة) . . فلا يوجد مسرح . . ولا يوجد نص قد حفظه الممثلون . وإنما هو المخرج ينبه الجميع بصوت مرتفع ويتابع أوامر حضرة الناظر ويوقف العرض المسرحى . . والممثلون يرون ويرتعدون خوفا وأولياء الأمور على صلة مستمرة بأبنائهم الممثلين ويطلبون إليهم أن يخرجوا وأن يقتربوا ليدخلوا القميص فى البنطلون أو يمسحوا أنوفهم . . وعندما يغضب ناظر المدرسة يمتنع الجميع عن التنفس حتى يرضى . فإذا رضى أعيد العرض المسرحى من أول وجديد . .

وقد خرجنا من المسرح ووقفت المدرسات ينظرن من شبابيك مدرسة البنات المجاورة . . يبحلقن ويغمزن ويهمسن ويهللن لحضرة المأمور والعمدة ووكيل النيابة الحليوة الذى رحن ينادينه فما كان منه إلا أن وضع منظاره الأسود على عينيه ثم أنزل شعره على جبينه وابتسم وضحك . . وزغردت المدرسات!

ولم أقابل والدى فأسمع منه تعليقا أو رأيا ـ وإن كنت لا أتوقع شيئا . فهذه أول مرة . وليس مألوفا أن أسأل والدى عن شىء ثم أنه لم يحدث شىء . لا أنا مثلت ولا أنا قلت . وإنما وقفت طويلا بلا معنى . . ولكن أمى كانت الأسبق وكانت قاطعة صارمة قالت لى : بعد كدة مفيش لعب . . . التفت لدروسك!

يعنى أن الذى حدث لعب يشغلنى عن المذاكرة . ليس هذا فقط . وإنما الاشتراك فى الألعاب : البنج بنج وكرة السلة . وهذا قرار نهائى . . وبالمرة لاداعى للاشتراك فى فريق الكشافة والفرقة الموسيقية .

ولا أعرف إن كانت هناك فرقة . ولكن كنا أربعة أو خمسة . . واحد يضرب الطبلة ويمشى واحد إلى جواره لكى يحملها عنه من حين إلى حين وكنا نسميها الطرومبيطة . . أما الباقون فهم ينفخون فى الناى . . ولم يكن نايا من البوص أو الغاب وإنما آلة معدنية كنا نسميها فى ذلك الوقت (السلاّمية) بتشديد اللام . ولم أكن قد تقدمت فى عملية النفخ .

ولا أعرف كيف تعلمتها . . أو كيف تقرر لى أن أنفخ فيها!

ثم إننى أقسمت لأمى ـ صادقًا ـ أننى لم أكن واحدا من التلامذة الذين طلبوا إليهم سرقة قصارى الزرع من القصر المهجور للمليونير اليهودى ساسون!

وقلت لها : إنه كانت هناك فكرة أن نقتلع أحد التماثيل . ولكن لم نستطع والتمثال عبارة عن رجل يمد يديه لصاحب القصر ويطلب حسنة لله . .

ولو حدث لكان التمثال أبلغ من الشعر الذى سمعه أو لم يسمعه أولياء الأمور عن واحد بدوى جاء يشتم الوالى حتى يفقد أعصابه . ولم يفقد أعصابه . . وإنما الرجل البدوى هو الذى فقد أعصابه وخسر الرهان!

ولم أتذكر ما الذى قلته فى المسرحية ولكن والدى شرح لى العبارة التى كان من الواجب أن أقولها ولم أفعل . فكان من الواجب أن أقول : ثكلتك أمك . . وهو دعاء بأن يموت الشخص وتصبح أمه ثكلى !

ولا أظن أحدا منا قد فهم النص المسرحى الذى كنا نكرره . . .

أما الشعور العام من أولياء الأمور : أنهم عيال والسلام

ربنا يبارك لنا فيهم !

٣

وفى اليوم التالى أشارت لى إحدى المدرسات . . فذهبت إليها . . فأوقفتنى على باب المدرسة ودخلت تأتى برسالة وأعطتنى الرسالة وقبلتنى وقالت : أوع تنسى . . دلوقت على طول . .

ـ حاضر . .

أما شعورى بهذه القبلة على خدى مع ضمى إليها ، فهو مس كهربى . . لا أكثر ولا أقل . . وليس غريبا فخالاتى يفعلن ذلك . . وبسرعة ذهبت إلى غرفة المدرسين . . وتقدمت للأستاذ المخرج وأعطيته الجواب فسألنى . قلت له : من الست اللى جنبنا . .

ـ ست مين؟

ـ مش عارف اسمها . . فى مدرسة البنات .

ـ قالت لك إيه؟

ـ أديه لحضرتك . .

ووقفت وهو يفتح الخطاب عندما قال : يا كلب يا ابن الـ . . . يا حقير . . وطارت أكواب الماء والشاى وأغرقت وجه وملابس مدرس آخر . .

تفسير ذلك : أن الخطاب لم يكن مرسلا للمخرج وإنما لهذا الذى أغرقه الماء والشاى . . وكلاهما على علاقة خفية بهذه المدرسة . .

وبعد ذلك كنت أذهب إلى مدرستى من ناحية أخرى حتى لا ترانى المدرسة . .

شىء واحد تغير تماما . وهو أن أمرا صدر بإغلاق نافذة مدرسة البنات التى تطل على حوش المدرسة . وكنا نلاحظ أثناء حصة الألعاب أن أوراقا صغيرة تلقى من شراعة النافذة وأن أحد المدرسين يلتقطها ويضعها فى جيبه . .

* * *

ويمكن ضم هذا الذى حدث إلى مسرحية (معن بن زائدة) دون أن يشار إلى ذلك . . وهكذا نكمل (لامعقولية) المسرحية الرائدة فى دنيا مسرح العبث دون أن يقصد أحد إلى ذلك ! !

لولا كلاب ابن خالة سمير صبرى!

١

كأننى طفل لم يسافر فى حياته مع أن عندى أربعين جواز سفر قد امتلأت بالتأشيرات. فلا أعرف كم مرة زرت أية قارة من القارات. ولكن أن أذهب فى طائرة خاصة إلى جزيرة سردنيا لأشهد مصر فى كأس العالم كان شيئا عجيبًا.. وأنا أرى فى كرة القدم نوعا من الكذب الأبيض فالذين يتحمسون للأهلى أو للزمالك. إنهم يفتعلون التعصب مثل الذين يتعصبون لأنواع من السجائر أو المشروبات.. وأنا أمارس هذا التعصب لأبناء الدقهلية.

وإنما الذى أطار النوم من عينى هو أن أسافر إلى جزيرة سردنيا وإلى عاصمتها كاليارى بالذات. فكل الذين معى فى الطائرة لا يعرفون السبب الحقيقى. قال لى د. خيرى سمره عميد طب القاهرة: إلى هذه الدرجة؟ وإحنا مش عارفين نقابلك فى مصر..

قلت له: يعنى إيه؟

ـ حبك لكرة القدم..

ـ لا والله.. وإنما كما قال الشاعر العربى القديم:

وما حب الديار ملكن قلبى ولكن حب من سكن الديار!

ليست جزيرة سردنيا ولا مدينة كالياري بسكانها المليون ونصف المليون ومناجمها من الذهب والفضة وبحيراتها من الملح . . ولا حتى كاتدرائية القديسة شيشليا وبرج الفيل . . ولا أنها على مسافة ١٥ كيلو مترا من جزيرة كورسيكا التى ولد فيها نابليون . . ولا لهجتها الإيطالية الخليط من الإسبانية وبقايا اللاتينية واليونانية ولا مطاراتها وشواطئها التى دمرها الحلفاء . . لا والله . . إنما أن أكون فى إيطاليا وأستقل سيارة إلى مدينة نورو التى ولدت فيها الأديبة الإيطالية العظيمة جراتسيا دليدا التى فازت بجائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٦ . فازت بها لنفس الأسباب التى فاز بها نجيب محفوظ . . فهى لم تكتب إلا عن أهل الجزيرة وبساطتهم وفطرتهم . . تماما كما كتب نجيب محفوظ عن أهل القاهرة وصورها . . فصور بذلك الإنسانية كلها!

ففى كالياري، كما فى كل الجزيرة أناس يؤمنون بالسحر الأسود ويضعون الأحجبة ويؤمنون بالأرواح والأشباح ويستحضرونها . كل ذلك وأكثر صورته الأديبة جراتسيا دليدا . .

وكان د . عبدالأحد جمال الدين رئيسا لجهاز الشباب والرياضة وقد ناقشنى فى الذى أتوقعه من هذه المباراة . وتظاهرت بحكمة الذين يعرفون . فقلت له مامعناه أن هناك صعوبة فى أن تذهب مصر إلى أبعد من هذه المباراة مع الإنجليز . وهذا ما حدث . . وظن كثيرون ممن سمعونا أننى إلى هذه الدرجة على دراية بكرة القدم . والله يعلم أننى لا أتابع الرياضة وإنما أقفز فوق صفحاتها . . فلست رياضيا . . وكذلك صفحات الوفيات فقد مات كل الذين أحبهم . فلن يجاملنى أحد فى عزيز لدى ولن أجامل أحدا أيضا!

وقد قدمن الكوكا مجانا . لأن الكوكا هى المشروب الرسمى . وسألت إحدى الحسناوات : هل توجد أية مكتبة مفتوحة اليوم؟ قالت : لا أظن . . ولكن هناك واحدة فقط . . أهلا وسهلا . . ثم أوضحت ذلك قائلة : المكتبة فى بيتنا . أهلا وسهلا . زوجى لبنانى!!

قلت لها ضاحكا : إن أهل سوريا ولبنان قد استعمروا جزيرتكم هذه منذ ٢٥ قرنا . . ألا تزال لهم بقية فى بلادكم؟

ـ زوجى فقط . . هاها

ولم أجد متعة ـ بمنتهى الصراحة ـ فى مشاهدة كرة القدم فى الملاعب . . فاللاعبون تبدو أحجامهم صغيرة والكرة أيضا .

واندهشت جدا أن الذين حولى يعرفون كل أسماء وأرقام اللاعبين . . وكانت تجلس بالقرب منى سفيرة مصر فى إيطاليا . . وعدد كبير من المصريين جاءوا من القاهرة ومن روما ومن باريس ومن لندن . . ولذلك تناثرت كثير من الألفاظ التى تخرم الأذن . . وهى تتعلق بصفات الأب والأم . وطبيعى ألا تكون موجهة إلى اللاعبين المصريين ! ولم يجرؤ أحد أن يلفت نظر المصريين ـ أقصد أن يلفت ألسنتهم إلى أن تعتدل وتتهذب !

وأثناء الاستراحة بين الشوطين دخلت إلى تحت المقصورة . . سندويتشات ومشروبات وفاكهة . ووقفت طويلا أمام نموذج لإحدى البحيرات الإيطالية . وقد قامت فيها وحولها صخور بيضاء . . وبدلا من الظلط كانت حبات الكريز والفراولة . وكانت أرضها زجاجا وماؤها نبيذا . . فكرة تدوخ !

وتساندت على الجدار من الضحك . فقد شعرت بالخجل . إذ كيف لا أتبين أن هذه الأحجار البيضاء الضخمة هى الجبنة الإيطالية الشهيرة «البارماجانو» فقد وجدت حسناء تقطعها بالسكين . . ثم اعتدلت لأمد يدى وأقتطع حجرا وأنتحى جانبا أتذوق ما كنت أتذوقه هنا من أربعين عاما ، عندما جئت لأول مرة وجلست طويلا فى منطقة مارينا أسمع شعرا وماندولين وأرى القمر على وجوه أقمار أخرى . . أين يذهب الشعر والخيال إذا تكاثرت من حولك الأقمار ! !

وفى الطائرة إلى القاهرة جلست إلى جوار من لا أعرف .
فسألنى كيف وجدت المباراة؟
قلت ـ وأنا لا أريد أن أتكلم : راحت علىّ نومة . .

ـ يا سلام . ولم يوقظك أحد؟

ـ لا . . لأننى كتبت ورقة على الباب : الموت لمن يدق بابى !

ـ إذن لماذا جئت إلى كاليارى؟

ـ لكى أنام . وأنت ؟

ـ أنا عائد إلى مصر . . فهل ممكن الدخول من غير فيزا؟

قلت : لا أظن .

فقال : ولكنهم قالوا لى إنك تستطيع أن تساعدنى . .

ـ من الذى قال لك؟

ـ الأستاذ اللى هناك (وأشار بيده . . لم أر من يشير إليه ورائى) . .

ـ ضحك عليك . . إنه هو الوزير . . وزير الداخلية . أما أنا فلا . وهو رئيس نادى السكة الحديد الرياضى . .

وبعد دقائق هبطت الطائرة لأجد هذا الشاب ممسكا بقميص د . خيرى سمره ويبوس يديه وينحنى على قدميه صارخا : فى عرضك يا معالى الوزير . . أنا والله زى معاليك باشجع السكة الحديد . . وأمى مريضة . . ومستعد أدفع لك المبلغ اللى بيقولوا عليه . .

وكان خيرى سمره يصرخ هو الآخر أنا مش مرتشى ومش سكة حديد . يا ابنى ضحكوا عليك . .

ولم أستمع إلى بقية الزعيق والشتيمة فقد تسللت هاربا من المطار . .

وكانت قطيعة طويلة بينى وبين د . خيرى سمره!

٢

أحكى لك حكاية قبل حكايتى . كتب الأديب النمساوى أشتنسلر قصة يقول فيها إن رجلا صعد جبلا وكانت تسبقه فراشة . . كلما تقدم خطوة سبقته خطوتين حتى

بلغ القمة. وتركته الفراشة ودخلت الفراشة القصر الملكى من النافذة إلى غرفة طويلة لم تكد تحط على وجه طفل صغير حتى أصيب بصدمة فمات. الطفل هو ولى العهد وهو الطفل الذكر الوحيد التى رزقت به الأسرة المالكة. وبسبب وفاته تحول العرش إلى فرع آخر من الأسرة وصارت ولية العهد سيدة عجوزا . . انتهت القصة . .

والمعنى أن شيئا صغيرا تافها من الممكن أن يؤدى إلى تغيير سلسلة الوراثة الملكية من ذكر لأنثى ومن أسرة لأسرة!

أما حكايتى فقد كنت يوم ٤ يونيو سنة ١٩٦٧ فى الجبهة. وقيل لنا إن الحرب سوف تبدأ غدا أو بعد غد . . وكان يرافقنى فى الجبهة الزميل أحمد يوسف كبير مصورى (أخبار اليوم) والزميل أنطون البير مصور (الأهرام). وكان عليهما أن يبقيا بعض الوقت فوقعا فى الأسر . . أما أنا فكنت أبحث عن وسيلة للعودة لأننى مرتبط بتسجيل برنامجى فى التليفزيون المعروف باسم (نجمك المفضل) مع المؤرخ الكبير عبدالرحمن الرافعى. أنا أعده وتقدمه المذيعة القديمة ليلى رستم. . هذا البرنامج مسحوه ولم يعد له وجود!!

إذن لابد أن أعود. ولكن لا أعرف كيف؟ ذهبت إلى القاعدة العسكرية أملا فى أن أعود فى إحدى الطائرات إلى القاهرة ربما كانت طائرة المشير عبدالحكيم عامر. فقد قيل لنا إنه فى الجبهة. ووقفت أنتظر. عندما جاء ضابط شاب قال لى : إنه ابن خالة الفنان سمير صبرى. وأن لديه مشكلة تتعلق بالكلاب!!

والكلاب لها حكاية فقد كنت أسكن فى الزمالك وبينى وبين أم كلثوم عمار. ولكن بين بيتها وبيتنا خرابة يقيمون عليها عمارة سكنية. والعمال ينامون فى هذه الخرابة يأكلون ويشربون، وعلى رائحة الأكل تجىء الكلاب من إمبابة وتنبح طوال الليل. وذهبت إلى الصديق شعراوى جمعة وزير الداخلية وشكوت. . فقال لى : اذهب إلى صديقك محمود السباعى مدير الأمن العام وهو أخو الصديق الأديب يوسف السباعى. ورحت وقلت له : يا محمود لا أعرف كيف أنام. قال. خلاص سوف تنام غدا.

وجاء الغد وتعالت أصوات الكلاب وانفتحت النوافذ تتفرج على (السماوى) الذى يقتل الكلاب بالشومة. والكلاب تعوى وتتوجع والناس يلعنون وحشية البوليس. ورجل البوليس يدافع عن نفسه قائلا: يا ناس أنا عبد المأمور. أنا أنفذ الأوامر.. إنه سعادة الباشا..

وأشار إلى الشقة التى أسكنها. والناس يتهموننى بالوحشية.. وأنا لا أعرف ما الذى أفعله. اتصلت بوزير الداخلية ومدير الأمن وكان جوابهما واحد: لا توجد فى مصر المادة القاتلة للكلاب وهى مادة «الاستركينين» ولذلك يلجأ البوليس إلى إمساك الكلاب وضربها بالعصا حتى تموت!

وبعد موت الكلاب يجىء العسكرى القاتل ومعه كيس به ذيول الكلاب التى قتلها. ومطلوب منى أن أوقع على أننى رأيت ضعف هذا العدد من الذيول لأن القاتل يحصل على مكافأة بعدد هذه الذيول!!

وكان يقول إنها عشرة ذيول..

ولكن الذى قتله خمسة فقط. ويقول لى العسكرى: ربنا يخليك يا سعادة البيه.. امضى على عشرة أنا عندى عيال!

وأمضى على عشرة ومرة على عشرين!

ثم رجوت محمود السباعى أن يكف عن قتل الكلاب وثورة الناس ضدى..

وفى الجبهة استوقفنى شاب طيار. وقال: أنا ابن خالة سمير صبرى، وأسكن البيت الذى أمامك، وعندى كلام عن مذبحة الكلاب. ففى ذلك اليوم أصابنى الفزع وقفلت الأبواب على الكلاب حتى لا تصرخ هى الأخرى من الخوف.

ثم حدثنى عن رعب الكلاب وعن رأى الناس فى مجزرة الكلاب وماذا يقولون، وفى تلك الأيام كنت أشترك فى برنامج يقدمه سمير صبرى فى التليفزيون وفيه هجوم على إسرائيل وعادات اليهود وتاريخهم. ولو وقعت فى أيديهم لحدث شىء فظيع لا أعرفه.. انتهت الحكاية.

وفجأة وصل الفريق صدقى محمود، أهلا وسهلا . . إزيك .

ـ إزيك يا أفندم بتعمل إيه .

ـ عاوز أرجع مصر .

ـ خلاص اركب معايا!

وركبت معه الطائرة العائدة من الجبهة إلى القاهرة وكان يقودها حسين عبدالناصر أخو الرئيس جمال عبدالناصر .

هل وافق صدقى محمود على ركوبى طائرته لأنه قرأ لى كتابى (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) فأعجبه .

وكرر ذلك أثناء رحلتنا إلى القاهرة .

هل لأننى قلت له قبل أن نركب الطائرة : إننى أتوقع حربا خاطفة خاسرة . . رغم الذى أراه فى الجبهة : جنود تأكل طعاما ساخنا كالأمريكان وتحارب كالإيطاليين بأسلحة روسية قديمة وتجرى كالمصريين . فضحك كثيرا وقال لى : طيب تعال بقى معايا أحكى لك الحكاية دى!

هل هذا هو السبب فى عودتى إلى القاهرة؟! .

إنها الفراشة فى قصة أديب النمسا وكلاب ابن خالة سمير صبرى فى حكايتى . فانكتب لى عمر ثان ونجوت من البهدلة التى أصابت الأسرة العربية !!

٣

فى طريقى إلى اليابان قال كابتن الطائرة بهدوء :

إن هناك إعصارا يكتسح المحيط الهادى على يمين الطائرة . . وإننا والحمد لله بعيدون عن (عين) الإعصار . نحن فى الطرف الأيسر له . . أما اهتزازت الطائرة فشىء عادى جدا وهى تدل على أننا نقاوم ونتوازن . . وقد درست هذه المنطقة جيدا، وسوف نصل بإذن الله فى أمان .

وأُطفئت أنوار الطائرة التى تهتز بعنف . . وتنشال وتنحط مع أصوات الأكواب والملاعق والفناجين والمضيفات يتحركن ويتساندن على المقاعد، ويختلط فى وجوههن ووجوهنا الابتسام والإرهاق والقلق، ولا يملك الإنسان فى الطائرة إلا أن يستسلم فلا حيلة له . .

فالطائرة صاروخ أو زورق أو تابوت بين السماء والأرض، وفى داخل التابوت لا فرق بين الطيار والراكب. كلاهما على باب الله.

وراكب الطائرة مثل راكب الباخرة. . فأنت لا تعرف العوم ومع ذلك تركب الباخرة وحتى لو عرفت العوم فما الذى تستطيع أن تفعله مع أمواج البحر أو المحيط خصوصا إذا كنت رأيت قبل ذلك فيلم (تيتانيك). . ونمت. وجاءت المضيفة توقظنى وتقول لى: كابتن شقنقيرى عاوز سيادتك!

وذهبت. ووجدت الكابتن يشرب القهوة منتعشا. قال لى: أمامنا نصف ساعة ونهبط فى بانكوك. ولكن لا تزال أمامنا ساعات إلى طوكيو. .

وجلست وجاءت المضيفة بالقهوة وطار النوم نهائيا، وكان قد طار قبل ذلك عدة مرات.

وأمام الكابتن تابلوه ملىء بالأرقام والعيون والأضواء والوميض. . أنت أمام بيانات وجداول وعقول إلكترونية للهواء والحرارة واتجاه الإعصار والضغط وسرعة الريح على جانبى الطائرة وتحتها وفوقها وتوازنها. . طبعا ونادانى الكابتن ليقول لى لماذا هو أيقظنى واستدعانى وما هى الهدية التى أعدها لى؟. . قال أنا عاوز سيادتك تشوف المطب اللى جاى بعد دقيقتين وازاى أنا حاخد المطب بهدوء دون أن يشعر أحد بذلك. .

فعلا هبطت الطائرة ومعها أرواحنا. . أو روحى أنا فقط فالركاب إن لم تكن أرواحهم قد فارقتهم فقد أسعدهم الله بأن ناموا، فلم يشعروا بهذا الهبوط. . الانحطاط الجوى. . أما الذى طار من السعادة فهو الكابتن وحده. . وتجاوزنا المطب. واعتدل الكابتن مع مزيد من القهوة، وحكى لى الحادثة التى كانت قد

أصـابتـه . . وكـيـف أنـهم عـالجـوه فى بـاريس بالمغناطيس . . وكـانت هذه هـى المرة الأولى التى سمعت فيها عن العلاج بشرائح المغناطيس . .

وسمعت فيها اسم الطبيب الفرنسى بارون . .

ولما ذهبت إلى باريس وسـألت عن الدكـتـور بارون عـرفت مـسـاعـده الطبيب المصـرى ألبير طانيـوس المتخـصص فى العـلاج بشرائح المغناطيس ، والتى طورها اليابانيون فجعلوا الشريحة التى فى اتساع الكف فى حجم السمسمة ومن الذهب الخالص !

ولم أنس رغم كل الحكايات التى قـالهـا الكابتن الشـقنقـيـرى أنه أيقظنى لكى يعزمنى على مطب هوائى مخيف . .

وتذكرت أن زميلة صحفية جاءتنى يوما فرحة سعيدة وقالت لى : بأقول لك إيه يا ريس . . بكرة عاوزاك تيجى تتفرج . . مش واحد . . دول ثلاثة . . سوف أنتظر سيادتك الساعة الثامنة صباحا والنبى لا تنس يا ريس !

أنها تعزمنى على مشاهدة ثلاثة سوف يعدمونهم شنقا ! !

تصور سيادته وسيادتها !

يا عوازل فلفلوا فى آداب عين شمس!

١

لا أستطيع أن أقول: يا ربى أنا اصطبحت بوجه مين. فأنا لم أر إلا وجهى.. ومع ذلك فكل شيء يمضى بسرعة.. وليس فى الاتجاه الصحيح.. ففى الصباح الباكر ذهبت إلى الحلاق الذى اعتدت أن أتردد عليه. وكل شيء عادى جدا. لولا أن الأسطى (على) وهو يلعب بالمقص قد جرح أذنى.. وفزعت ووقفت على حيلى أضع أصبعى فأرى آثار الدم. طبعا المقص لم يكن معقما. وملايين الميكروبات قد تسربت إلى دمى الذى يغلى. والحلاق يقول لى: مفيش حاجة يا سعادة البيه.. نقطة ولا نقطتين دم.. وسيادتك حتبقى زى الفل!

بالذمة تقول له إيه.. أشرح له نظرية العالم الفرنسى باستور والعدوى.. أسأله إن كان المقص معقما. لقد مسح المقص فى البالطو الأبيض ووقف يريد أن يكمل ما بدأه عندما دخل صاحب الصيدلية المجاورة وقال لى: لحظة واحدة..

وعاد ومعه مادة مطهرة. ورأيت أذنى قد ازدادت احمرارا. وخرجت غاضبا دون أن يكمل قص شعرى. وفى غضبى لم ألاحظ ذلك.. ولكن نبهنى أحد الزملاء ما لم يكمله الحلاق!

وفتحت باب السيارة وجلست واندفعت فى اتجاه شارع شبرا حيث كلية آداب

جامعة عين شمس التى أعمل بها مدرسا للفلسفة . . وإذا كانت كلمة (الحلاق) وكلمة (الكلية) متقاربين على الورق فإن المسافة بينهما فى الواقع طويلة ومعقدة جدا . خصوصا لمن يركب السيارة لأول مرة فى هذا الشارع . فقد دربنى على قيادتها زملائى فى الأهرام : عدلى جلال وألبير عمون وجورج واصف وكان الراكب الوحيد الزميل كمال الملاخ . . وتدربت فى شارع الجبلاية فى الزمالك ذهابا وإيابا ـ ليلا ونهارا . . وأحيانا تكون السيارة قد امتلأت بالزملاء وأحيانا أكون وحدى أكثر خوفا وقلقا .

أما شارع شبرا فهذه المرة الأولى التى أراه مزدحما . مع أنه كل يوم كذلك . ولكن نظرة السائق غير نظرة الراكب . . السائق المدرب والسائق الغشيم . . شيء غريب وعجيب . فالشارع ممتلئ بالناس . وأكثرهم لا يمشى على الرصيف . . وإنما يمشون كأنهم نائمون ولا يسمعون صوت الكلاكس . . وأحيانا يلتفتون ويشتمون . ويكون سبب الشتيمة اقتراب السيارة منهم . . ولاحظت أن بعض سائقى السيارات يشتمون أيضا .

غلط؟ أحسست فى ذلك اليوم أننى غلطان منذ الصباح الباكر . فأنا زعّقت للخادم . مع أنه لم يخطئ . ولم تصدر عنه أية ضوضاء كما توهمت . . إذن لابد أننى كنت عصبيا جدا . فأنا أقود سيارة لأول مرة إلى الكلية . . وفى هذا اليوم حفلة تمثيلية والطلبة يقولون كبيرة جدا . وأنا لا أعرف لماذا كبيرة ولماذا جدا . . لابد أنهم سعداء بما سوف يعرضونه على زملائهم والمدرسين . .

إذن أنا كنت عصبيا جدا . وقد لاحظ الحلاق أننى مكتئب على غير العادة لا أضحك معه ولا أسأله عن حاله وعن الزملاء الذين حلق لهم هذا الأسبوع وماذا قالوا .

وشغلت نفسى بالتفكير فى موضوع : لماذا يتكلم الحلاقون كثيراً؟ لماذا لا ينتهى لهم كلام؟ وإذا كان الكلام خيطا فكيف لا ينقطع وما حجم هذه البكرة التى يسحبون منها هذا الخيط . . لابد أن يكون السبب هو الزهق . . الملل . . فعمله ممل . . لأنه لا يرى إلا . . قفا بعد قفا . . ولايرى وجوها . . فالكلام هو محاولة منه

لأن يشعر بأنه يتعامل مع أفواه مع وجوه مع ألسنة . . وهذه هى الفرصة الوحيدة لكى يسمعه الزبون مضطرا . . ثم إن الحلاق يأتى بحركات لا ضرورة لها . . يتحرك يمينا وشمالا . . ويقترب ويبتعد ويتلفت والمقص الذى يستخدمه يحدث به أصواتا غير ضرورية بالمرة . . فكأن صوت المقص يقضى على الملل . . على الزهق . .

تماما مثل سائق التاكسى الذى يضغط على الكلاكس معظم الوقت . . مع أنه لا يوجد سبب لذلك . فهو لا ينبه الناس وإنما هو يوقظ نفسه من الملل . . فهو يجرى طول النهار والليل فى زنزانة لها عجلات . . إنها سجن العمر . . سجن لقمة العيش .

وربما كان هذا هو السبب أيضا فى الخناقات العائلية . . إنها إذن محاولة لتحريك الركود العائلى . . الملل البيتى . . التلوث البيئى . .

حتى عندما قطع الحلاق أذنى فقد حاول ذلك لأن صوت المقص لم يكن كافيا للقضاء على الملل والعمل الآلى . . والقرف اليومى فارتكب هذه الجريمة لينعش نفسه وليجدد نشاطه . .

ولم تكن هذه المشكلة مهمة لكى أنشغل بها وأنا فى طريقى إلى الكلية . لكن لم أستطع أن أحول تفكيرى إلى أية ناحية أخرى . . فهل (السرحان) هو السبب الحقيقى فى الحادثة التى وقعت لى فى هذا اليوم . إن علماء النفس يقولون إن (السرحان) نوع من الانتحار . . فإذا كان السرحان من عاداتى المستقرة إذن فأنا انتحارى مع سبق الإصرار .

كيف لم أر الأتوبيس الذى كان أمامى . . كيف لم ألاحظ أن هذا الأتوبيس لابد أن يتوقف أمام الناس الذين ينتظرونه على الرصيف . والناس كثيرون وبوضوح تام . ولكنى لم أتنبه إلى ذلك . . كأننى أردت أن أضيف إلى محاولات الحلاق أن ينعش نفسه بما حدث فى أذنى ، شيئا جديدا أخطر بكثير وهو ما حدث لى ولسيارتى التى عجنها الأتوبيس . وليست غلطته . . فالغلطان دائما هو الذى يمشى فى المؤخرة ـ هذه قواعد المرور . فالذى فى الخلف لا يعرف ماذا يحدث للسيارة التى أمامه . . أى أننى غلطان تماما !

وبسبب هذا الصوت الصارخ الذى حدث . . صوت اصطدام سيارتى بالأتوبيس توقف المشاة . . وتحققت وحدة عاجلة بين كل الناس . لقد تحولوا إلى رؤية الأتوبيس والسيارة السوداء الصغيرة . . وتجمدت الحركة وخرست الضوضاء تماما . . كم مضى من الوقت . . ماذا قال ويقول الناس؟ لا أعرف فقد امتلأت أذناى بشوشرة غريبة وامتلأت عيناى أيضا . وفجأة وجدت سائق الأتوبيس قد قفز على مقدمة سيارتى . وراح يشير لى أن أتجه يسارا وعلى مهلى . . وأدار حركة المرور ودخلت بسيارتى الكلية لأكون فرجة للطلبة!

وبسرعة أدان الطلبة سائق الأتوبيس . فهم جميعا يلعنون الأتوبيس . ولكنهم لا يعرفون أننى غشيم . وأنها غلطتى!!

واختفى سائق الأتوبيس بعد أن دفعت له مبلغا من المال ليصلح له ما أصاب الأتوبيس . . ما الذى أصابه؟ هل إصابته فادحة كما قال لى أمام الطلبة؟

وأدهشنى أن الطلبة دون أن يسألونى دفعوا السيارة إلى جانب من حوش الكلية . . كأنها جريح فى أنتظار عربة الإسعاف أو هى محاولة منهم لإخفاء معالم الجريمة . وكان من الواجب أن أفعل شيئا آخر غير الأسف والحزن على ما حدث!

ولأول مرة ألاحظ أن آخر رقمين فى أرقام السيارة هو رقم ١٣ . . ولكنى لا أتشاءم من هذا الرقم . ولست مصابا بما يسميه علماء النفس : ترسكايدك فوبيا - أى الخوف من رقم ١٣ . . وكل هذا ما حدث وما ردده الطلبة!

٢

وكنت قد اعتدت على ضوضاء الشارع المجاور للكلية . . إنه شارع ضيق . . وصوت الراديو يشتت كل الأساتذة المحاضرين . . ولابد أن الطلبة قد تدربوا طويلا على التركيز فى الذى يسمعونه من الدكاترة الأساتذة . . إلا فى ذلك اليوم . فقد كان صوت الراديو مجلجلا . . وكان برنامج (ما يطلبه المستمعون) من الأغانى التى يحبها الناس . . وكان الموقف صعبا . ولم أستطع أن أمضى فى محاضرتى . .

والطلبة معذورون إذا عجزوا هم أيضا عن الاستماع . . وأشرت على أحد الطلبة أن يرجو أصحاب الراديو فيقفلوه لمدة نصف ساعة ـ ثم قلت له : فقط أن يخفضوا الصوت . .

ومضت لحظات طويلة من الاستماع للأغانى وواضح جدا أن الطلبة سعداء بالأغانى أكثر من سعادتهم بمحاضراتى عن (الفلسفة الوجودية) . . وسكت الراديو . شكرا . وعاودت الكلام . . عندما ارتفع الراديو على الآخر بصوت فريد الأطرش : يا عوازل فلفلوا ما قال لى وقلت له . .

وضحكت وضحك الطلبة . وكان لابد من إنهاء المحاضرة . . أما سبب ما حدث فهو أن الطالب ذهب ودخل البيت وقفل الراديو وخرج دون أن يستأذن أحداً . . فما كان من أصحاب الراديو إلا أن أقفلوا الباب وراءه وفتحوا الراديو على الآخر !

٣

ويبدو أن هذا ما حدث لأساتذة آخرين فى هذا اليوم . . فالطلبة لم يكن عندهم استعداد لأية محاضرات . فاليوم هو يوم الفرفشة والتمثيل . والمسرحية كانت لنجيب الريحانى . . أما البطل فهو الطالب محمد عوض ، والذى صار فنانا كبيرا بعد ذلك . والبطلة هى الطالبة كاميليا الشنوانى التى صارت إذاعية مشهورة ولها برنامج عن المرأة فى التليفزيون وهى زوجة الإعلامى الكبير طاهر أبوزيد . .

ولم أكن قد رأيت لنجيب الريحانى مسرحية واحدة . وكنت كالذين لم يقرءوا لنجيب محفوظ . . فلا أحد يجرؤ أن يقول إنه لم يشاهد أو لم يقرأ . ولذلك لم أعلق على سبب اختيار هذه المسرحية . وكنت أهز رأسى موافقا على أسباب الاختيار وقدرة الطالب محمد عوض على تجسيده على المسرح . . ولم أعرف أيضا من الذى تمثله أو تجسده الطالبة كاميليا الشنوانى ولا حتى من الذى درب الجميع

على الأداء . . ولا من الذى أخرج لهم المسرحية . . سمعتهم يقولون : الفنان حمدى غيث . . ولم أتأكد من صحة ذلك . .

واتجه الطلبة جميعا إلى مكان الاحتفال . وسألنى د . مهدى علام عميد الكلية إن كنت فى حاجة إلى أية مساعدة . .

فقلت : ولا حاجة يا دكتور شكراً .

مع أننى لا أعرف نوع المساعدة ولا نوع النقص . ويبدو أنه اعتاد على نشاط الطلبة . . مجرد نشاط ولا أحد يطلب من الطلبة الدقة ولا أن يكونوا نسخة من الذين يقلدونهم على المسرح . . ثم إن هناك استعدادا جاهزا للتغاضى عن أية أخطاء يقعون فيها . . إنهم طلبة يجتهدون . .

ورأيت السيدة عقيلة راتب بين الجالسين . وهذه هى المرة الثانية التى أراها . المرة الأولى عندما كانت مستلقاه على الحشيش فى حديقة الأسماك مع عماد حمدى والمخرج صلاح أبو سيف . ثم هذه المرة جالسة والكل يرحبون بها . . فهم يعرفون قيمتها الفنية إلا أنا . . فلم أكن قد عرفت دور السينما والمسارح بعد . وقيل لى إن إحدى قريباتها كانت طالبة فى الكلية . وتوقع الطلبة حضور النجم كمال الشناوى فله أخ من تلاميذى فى قسم الفلسفة . . ولذلك كانت عيون الفتيات على الباب انتظارا لفتى الشاشة الحليوة . . ولكنه لم يحضر . .

وبعد الدقات الثلاث على المسرح جاء اثنان من الطلبة يسحبان الستارة من الناحيتين عندما رأيت محمد عوض وكاميليا الشنوانى واقفين . . وفجأة بدأ التمثيل وضحك الطلبة . ورأيت فى ذلك نجاحا سريعا . .

وبعد دقائق جاء من يهمس فى أذنى لأضع يدى فى جيبى وأعطيه فلوسا للطالب محمد عوض الذى أراد أن يدفع لمش عارف مين من الفنانين المحترفين الذين ساعدوا فى إعداد المسرحية لأنهم يريدون أن ينصرفوا . .

ولم يضحك الطلبة كثيرا على الأداء المسرحى . . ولكن الذى أضحكهم جدا هو أن للمسرحية اثنين من الملقنين . . واحد يلقن محمد عوض وواحد يلقن

كاميليا الشنوانى . النكتة هى أن ملقن كاميليا يقف بالقرب من عوض وملقن عوض يقف وراء كاميليا . . ولا بد أن يرفع كل منهما صوته . . وكثيرا ما قال محمد عوض ما يجب أن تقوله كاميليا والعكس . . وضحك الممثلون والمتفرجون وانتهى العرض المسرحى كما ابتدا . . بل كان للنهاية دوى . فقد سقطت الستارة وظهر الانزعاج على وجه الطلبة الذين يحركون الستارة والذين يلقنون الممثلين . . وظهر محمد عوض كأى ممثل محترف وفى يده البطلة وانحنيا للجمهور . . ويادار ما دخلك شر! .

وكان ذلك آخر عهدى بالطالب محمد عوض على مسرح الكلية لأراه بعد ذلك على مسرح الدولة . وكنت عضوا فى لجنة المشاهدة . . وقد تغيب العضوان الآخران . . وبقيت وحدى . وجاءتنى ورقة من الأستاذ السيد بدير يقول لى : استمر حتى ولو لم يأت أحد لمشاهدة المسرحية وأن أحكم إن كانت صالحة للعرض . . وليست فيها حركات أو كلمات خارجة . وكانت المسرحية هى (مطرب العواطف) بطولة محمد عوض . .

وأنا فى دهشة الآن أى بعد ٥ سنوات من وفاته كيف أننى أحببت محمد عوض طالبا وممثلا . ولم أكتب عنه سطرا واحدا . وأغرب من ذلك أننى صارحته بذلك وقلت له فى مكتب الأستاذ مصطفى أمين : يا محمد والله العظيم عاوز أكتب عنك . . إدينى فرصة!

وقد أعطانى أكثر من فرصة . . ولكن شيئا ما يقع فيمنعنى من الكتابة عنه . أو يمنعنى من مشاهدة العرض الأول لمسرحياته وأفلامه . وكان من الممكن أن أكتب عنه وعن موهبته المبكرة . ولم يكن صعباً أن أجد كلاما جميلا يستحقه . ولكنى - مع الأسف - لم أفعل!

وفى مكتب مصطفى أمين راح يذكرنى بما حدث فى ذلك اليوم الكبير فى كلية الآداب . فقال لى : لقد تأخر رفع الستار لأننى حاولت أن أقنع الزميلة أمانى ناشد . ولكنها رفضت رغم أنها وعدتك بالظهور . . ولو كان الأمر بيدى لطلبت من الزميلة مها عبدالفتاح ولكنها كانت خجولة جدا . .

وأمانى ناشد أصبحت بعد ذلك إعلامية شهيرة ذات وجه جميل وصوت أنثوى مبحوح. وهى التى أجرت الحوار الشهير مع الأستاذ العقاد وكان من إعدادى.. ومها عبدالفتاح صارت زميلة صحفية لامعة بعد ذلك..

وقال محمد عوض: إن الزميلة (ف..) وهى جميلة الصوت والصورة.. قد وافقت ولكنها فى آخر لحظة اعتذرت ثم تركت الكلية نهائيا.. أما الزميلة (ف..) فقد تزوجت أحد الوزراء وهددها إن ظهرت على المسرح والمسخرة دى فهى من طريق وهو من طريق.. وأدى دبلتك!

واستقرت الدبلتان فى مكانهما والتحقت هى بكلية الآداب جامعة القاهرة!

ولم يتجه إلى فن التمثيل من كل الطلبة الذين ظهروا على المسرح إلا محمد عوض.. بينما اتجه فيليب جلاب وعبدالملك خليل وعبدالوهاب مرسى وعادل البلك وعائشة مصطفى إلى الصحافة بعد ذلك!

٤

وفى ساعة متأخرة من الليل كلمنى المخرج محمد سالم. وكان شابا طريفا ساذجا وكانت طريقته فى الكلام مضحكة فإذا حاول أن يتكلم باللغة العربية فأنت أمام واحد مستشرق.. قال لى: هه.. عملت إيه؟

ـ فى إيه؟

ـ الله؟ فى الكتب.

ـ أى كتب؟

ـ الكتب التى أرسلها لك الأستاذ السيد بدير.. والبواب الذى أرسله لك الأستاذ حسن حلمى..

ـ لم تصلنى كتب إلا التى بعث بها الحاج سليم بتاع سور الأزبكية..

ـ سليم مين؟ أنت مش قابلت السواق بتاع التليفزيون..

ـ قابلته على السلم وقال لى إن معه كتبا . . قلت له هاتها بكره لأننى مستعجل ومفيش حد فى البيت . .

ـ يا نهار أسود . .

ـ إيه ثانى . . أسود ليه . .

ـ أسود جدا وأسود قاطم ـ يقصد قاتم !

ـ مش فاهم؟

ـ أنت متأكد أنك لم تأخذ منه الكتب . .

ـ يا أخى أيوه . . فيه إيه؟

ـ هاها . . الراجل مات . .

ـ مات؟ إزاى؟

ـ هاها . . لورى دشدش السيارة ومات . . هاها . .

ـ وأيه اللى يضحك فى المصيبة دى!

ـ هاها . . أنا تنبأت له أنه سيلقى مصنعه ـ يقصد مصرعه ـ . . حيموت النهاردة . . السيارة فيها رقم ١٣ واسمه النحاس . . ١٣ ونحس . . هاها . .

ـ . . . .

وكان الأستاذ السيد بدير هو المشرف على النشاط المسرحى فى ذلك الوقت والذى أحدث انتعاشا فى المسارح وفى التليفزيون . قد بعث لى بعدد من الكتب لأختار من بينها مسرحية أترجمها أو أقوم بتمصيرها . . كما أن الأستاذ حسن حلمى مدير التليفزيون قد أرسل لى خطابا . وكان رجلا رقيقا وحاسما يطلب فيه منى مسلسلا للتليفزيون فى أسرع وقت . . وقال لى إنه فهم من الأستاذ يوسف السباعى أننا نعد مسلسلا معا .

وفى الخطاب صورة لعروس يريد نشرها فى (الأخبار) .

ورجانى بعد الذى حدث ألا أجيب سيرة حتى لا يتشاءم العروسان .

عندما دق جرس التليفون وكان المتحدث مرة أخرى المخرج محمد سالم وهو يبدأ حديثه بالضحك عادة وقال : تعرف أن العروسة هى وعريسها وفى طريقهما إلى الإسكندرية وقفت بهما السيارة . فخلعت العروس فستان الزفاف وأخرجت من شنطتها فستانا وراحت تزق العربية مع عريسها هاها . . مشهد يجنن . . لازم تحطه فى المسلسل . . وأنا أوعدك أننى حاكسر الدنيا . . هاها . . هاها . .

- . . . .

جمعية الرفق بمحمد سالم!!

١

فى يوم دعانى صديقى اللواء محمود صاحب مدير سجن مصر لكى أشاهد إحدى المسرحيات الغريبة العجيبة الرهيبة. ذهبت تضايقت وشغلتنى مشكلة: هؤلاء السجناء حفظوا أدوارهم وكانو حريصين على دقة وصدق الأداء. ماذا لو جاء واحد منهم وخرج على النص، كما خرج قبل ذلك على القانون، وكما سيفعل بعد خروجه من السجن؟ ماذا سيفعلون به فى السجن؟ أى ماذا سيفعلون به أسوأ مما فعلوا؟

والجواب: أن فى السجن ألوانا أخرى من العذاب. ولكن السجين عنده ذمة أو عنده ضمير.. وهو حريص على أن يبدو محترما، أو يسترد بعض الاحترام الذى أضاعه.. وكانت المسرحية عن الحياة فى السجون والطعام والشراب والعقاب والعذاب. ومفردات غريبة لم أفهمها ولكن الجمهور ضحك كثيرا. ولا أعرف من هو المؤلف. وصفقت وصافحت الفنانين الذين مثلوا وأخرجوا.. وقد حدث أكثر من مرة أن اعتذر الممثلون لسيادة اللواء عن بعض العبارات الطائشة. فكان يقول: لهم: معلش.. دى آخر مرة. ويكون الرد: حاضر يا أفندم!!

أما المرة الثانية فكانت فى مكتب الأستاذ السيد بدير مستشار التليفزيون.. وكان مكتبه فى مسرح (هوسابير).. المدخل مظلم والأرض جربانة والغرفة ضيقة. وأتوا لى بمقعد لكى أكون قريبا من الباب بعيدا عن دخان السجائر.

أما الجالسون فهم: المخرج كمال ياسين والمخرج نبيل الألفى والمخرج محمود السباع وفجأة وقفوا جميعا. وحاول كل واحد أن يترك مقعده للضيف الكبير د. محمد مندور.

وتعددت الإشارات للجرسون أن يأتى بقهوة من اللى هيه: بن ثقيل وسكر قليل وفنجان محترم. وضحكنا. ويسألنا د. مندور: أنتم كنتم بتقولوا إيه؟

وقال السيد بدير: كلام يا أستاذ من اللى أنت عارفه.. كانت مفاضلة بين سوفوكليس ويوربيدس وموليير والحكيم..

وبسرعة قال مندور: ياه ودى تبقى مقارنة إزاى.. دى زى ما تقارن بين أحمس بنابليون بعرابى بروميل.. صعبة قوى!

ـ ولكن يمكن تحديد الموضوع يا أستاذ.. مثلا لو تحدثنا عن الشخصية ورسمها عند يوربيدس فهى تختلف عن سوفوكليس.. ربما كان موليير أوضح بل هو أحسن من بيراند للو.. أما الحكيم فهو فى الجزئيات وخصوصا إلخ..

ومضى الحوار هكذا لو سمعه واحد لاعلاقة له بالمسرح لظن أنهم مجانين.. وأن الذى يقولونه هلوسة.. ولكنها لغة أبناء المهنة.. تماما كما يتحدث الأطباء معا.. نصف كلامهم بالإنجليزية والباقى كلمات لاتينية أما (الخنافة) وأكل الحروف فهى من مقتضيات المهنة.. ثم إنه حرص من الدكاترة على أن يبعدوا عنهم أى واحد من غير الدكاترة..

ولو أخليت هذه الغرفة الصغيرة منهم وجاء أساتذة فى الفلسفة لكان كلامهم عجيبا. مثلا: أستاذنا سقراط لم يكن جورجياس السفسطانى.. ولا كان هرقليطس الوجودى.. وهو قطعا مختلف عن ذيو جانس اللائرسى.. هذه الفوارق بلغت ذروتها عند هيجل والمثالية الألمانية إلى أن رفضها واستنكرها أبو الوجودية الألمانية مارتن هيدجر وأبو الوجودية النفسية كارل يسبرز لتكون مائدة شهية لذيذة عند سارتر!

هل فهمت أى حاجة؟ طبعا لا. ولكن أبناء المهنة الواحدة يفهمون ويتحمسون

قبولا ورفضا . . وتحملت وتحاملت ورأيت أن المشتغلين بالفن لهم لغتهم كما أننا المشتغلون بالفلسفة أيضا .

ورفع السيد بدير منظاره الغليظ عن الورق وقال : كلام فارغ طبعا !

ـ قلت عندنا زيه تماما .

ـ يبقى إحنا ضاحكين على الشعب . . كلامنا فارغ ونعلمه المنطق والعقل ؟ !

ـ ليس فارغا تماما . . ولسنا عقلاء تماما .

ـ يعنى حتيجى هنا تانى ؟

ـ مؤكد . .

ـ يالله بينا يا أستاذ إلى مطعم . .

قال مندور : أما أنا فلا . . فعندى كلام فارغ آخر يجب أن ألقى به فوق دماغ الطلبة . .

ـ هاها . . هاها

قال لى السيد بدير : والله جت رجلك فى الخية يا جميل . .

ـ بإرادتى باختيارى . . تماما كما يذهب الإنسان بكامل قواه العقلية إلى البار ليفقدها عقله !

ـ هاها . .

ـ . . . .

٢

وكان الأستاذ السيد بدير من أظرف الناس . فتاريخه الإذاعى طويل . كتب أكثر من ثلاثة آلاف تمثيلية وكتب حوار وسيناريو لخمسين فيلما . . وظهر فى مئات الأفلام ومن أنجح أدواره دور الصعيدى الساذج (عبدالموجود ابن كبير الرحيمية ـ قبلى) . . وشغلنا وانشغلنا به وكان هو باعث النشاط المسرحى فى كل مسارح

الدولة وفى التليفزيون. وظهرت لجان للقراءة ولجان للمشاهدة حتى صارت المسارح ورشة حية تصب إنتاجها الفنى البديع فى شاشة التليفزيون.

وفى يوم قال لى السيد بدير: نتقابل الليلة عند بهيجة حافظ.

ـ مين هى؟ . .

ـ هوه حيقول لك. (وأشار إلى الممثل المخرج نبيل الألفى). .

وكانت بهيجة حافظ ممثلة قديمة ومن عائلة عريقة وراعية للموسيقى والموسيقيين. . لا أعرف لها إنتاجا. ولكن قيل إن لها فيلما فاشلا اسمه (ليلى بنت الصحراء). . وأنها كانت عازفة بارعة على البيانو. . ولم أسأل عن السبب فى اللقاء عندها. فلم تبلغ علاقتى بالسيد بدير مرتبة أن أسأل: أين ولماذا؟ فهو يريد أن نلتقى. وهو رجل ظريف. والهدف أن نتعارف أكثر وأن أشارك فنيا بعمل من عندى. . أو مترجما من عند غيرى. وهو سعيد بأية مشاركة وأنا أيضا. ولا أذكر الآن كيف بدأت وانتهت تلك السهرة. فقد كانت تضم عددا من الفنانين والخواجات ورجال الأعمال. . وكان الكلام بين الحاضرين فنيا وتاريخيا وبلغات مختلفة. لم تخرج عن السينما والمسرح وحكاية المتنجين الشوام واليهود. . ولأننى كنت أتوقع أن تبدأ حوارا مباشرا فيما سوف أقدمه، فقد فسدت السهرة كلها. ولكن يبدو أن هذه هى عادة الفنانين. أو هكذا تصورت. . وانتهت الليلة بأن قال لى السيد بدير: غدا فى المكتب نستأنف الكلام!

مع أننا لم نتكلم فى شىء. . والتفت إلى الذين كانوا معى، فلم أجد أحدا منهم قد أندهش لما قاله السيد بدير. . ولكنهم تصافحوا وتعانقوا ضاحكين سعداء بما أكلوا وشربوا وقالوا وسمعوا. وبس!

وفوجئت بتليفون من السيدة بهيجة حافظ تقول لى: شكرا على السهرة الممتعة.

ـ أنا اللى أشكرك.

ـ لا . . والله أنت كلامك كان جميلا . .

كلامى؟ جميل؟ وهل أنا قلت أى شىء؟ إننى لم أفتح فمى بكلمة . . هل السكوت ذهب أو حكمة؟ يبدو ذلك!

فقلت : لا . . حضرتك اللى كان كلامك جميلا . .

ـ وألا أنت زعلت منى لما قلت إن الجماعة بتوع الفلسفة دول مجانين . . وأنا لم أقصدك . . أنا أقصد الدكاترة (وذكرت عددا من أساتذة الفلسفة) . .

ولا أذكر أننى سمعت هذا الذى تقول . إذن أنا كنت غارقا فى السرحان الذى هو طوق نجاتى من طوفان الكلام الذى لا يعجبنى ولا يمتعنى!

وفى الليل قابلت السيد بدير والأستاذ حسن حلمى مدير برامج التليفزيون وكان معى المخرج محمد سالم وهو دمه خفيف . وهو شاب طويل رشيق متحمس . شكله إذا أحسنت الظن به فهو إسبانى وبلدياتى . وإذا أسأت الظن به فهو مافيا . . شعره الأسود الطويل وحواجبة الغليظة وضحكته المدوية وامتداد يده ليدق بطنك أو كفك كلما احتاج إلى توضيح وجهة نظره التى عادة ليست واضحة . .

أنا أقول : إنه ساذج . . وغيرى يقول : ميه من تحت تبن . . وأنا أقول : تبن على وش المية!

وجلسنا . ليجىء د. محمد مندور ويوسف السباعى والشاعر صالح جودت والناقد الفنى جليل البندارى . ودون تمهيد أو مقدمات . وقف محمد سالم وكأنه يخطب فى دائرة انتخابية فى الريف المصرى وقال : عندى مشروع يجنن . . حيكسر الدنيا . .

ودون أن يلاحظ أن أحدا ليس ملتفتا تماما إلى ما يقول . مضى محمد سالم فى خطابه : وقال : طه حسين . وإلى جواره العقاد وبينهما توفيق الحكيم والشاعر

أبو العلاء المعرى . . وأنيس منصور ماسك ورقة فيها أسئلة متفق عليها . . ويوجه لهم هذه الأسئلة وتكون الأسئلة من نار حراقة . .

والتفت كل الجالسين . فالموضوع بهذه الصورة قنبلة . . ومضى محمد سالم يقول : وفيه حركة وهى أن نترك طه حسين يمشى وحده وينقذه العقاد قبل أن يسقط من المسرح . . وفى هذه الحالة لن يضحك أحد على طه حسين لأنه أعمى . . وسوف يكون لها أثر الزلزال فى نفوس الجماهير . .

وكان أول من وجه لمحمد سالم السؤال الاستنكارى د . محمد مندور :

أين ده يا ابنى ؟ ! . .

ـ تحفة فنية .

ـ يعنى إيه . . اللى أنت بتقوله ده خيال . . يعنى أنت بتتخيل هذا .

ـ لا مش خيال . واقع مؤكد .

ـ لا مش فاهم !

وسأل السيد بدير : يا أخ محمد هل أنت اتفقت مع الأساتذة الكبار على أن يجلسوا معا ويقوم أنيس منصور بإدارة حوار بينهم . .

ـ اتفقت معاهم . . (ونظر ناحيتى) أنتوا اتفقتوا معاهم .

قلت : هذه مفاجأة . أنا لم أسمع من محمد سالم هذه الفكرة رغم أننا نلتقى كثيرا !

ورد محمد سالم : ممكن . .

ـ ممكن ؟ لكن هل حدث اتفاق ؟ لو أنه حدث لكانت هذه قنبلة الموسم !

ـ لا . . أنيس منصور يقدر يجمعهم مع بعض . .

ـ آه . . يعنى كلام طق فى دماغك أنت ؟ !

ـ لكن ممكن . .

ـ . . . .

وامتلأت الصحف بالكلام عن خرافات المخرج محمد سالم . وكان محمد سالم

عصبيا جدا . ولذلك فهو فى خلاف مع كل الذين يتعاونون معه . ثم إنه لا يحسن التعبير ولا اختيار الكلمات . وليس قادرا على قبول وجهات نظر أخرى . . ولأننا ـ أنا وآخرون من الأدباء ـ نعرف الظروف النفسية لمحمد سالم فكنا ندافع عنه كثيرا . . وأحيانا كان بعضنا يبرر له أخطاءه . .

ويبدو أن الأستاذ أحمد بهاء الدين قد ضاق بهذه المواقف من محمد سالم رغم أخطائه . فكتب مقالا فى (أخبار اليوم) بعنوان : جمعية الرفق بمحمد سالم . . وكان الرد على أحمد بهاء الدين عنيفا ولم يجامله أحد : كامل الشناوى وكمال الملاخ ومأمون الشناوى وعبدالفتاح البارودى وأنا . وهذا يكفى . ولكن محمد سالم جاءنى غاضبا وهو يقول : أنا مستعد تماما . .

ـ لأيه؟

ـ لمحاربة أحمد بهاء الدين .

ـ يعنى إيه؟

ـ مبارزة . .

ـ يعنى إيه؟!

ـ هو يمسك سيف وأنا أمسك سيف . . وله أن يختار أى مكان فوق سطوح (أخبار اليوم) أو أمامها أو فى ميدان التحرير . .

ـ يا راجل أنت اتجننت؟! أنت فاكر إننا رجعنا للعصور الوسطى . .

ـ أمال إيه؟

ـ ولا حاجة . . إحنا عملنا اللازم .

ـ عملتوا إيه؟

ـ المقالات إحنا كتبناها للرد على أحمد بهاء دفاعا عنك . .

ـ فين؟

ـ فين؟! فى أخبار اليوم . .

ـ يعنى لعنتم أجداده ومسحتم به الأرض . .

ـ أجداده إيه وأرض إيه . . ده كاتب كبير وله وجهة نظر ونحن لنا وجهات نظر . . هوه قال وإحنا قلنا . .

ـ بس كده؟

ـ بس كده!

ـ وإذا كنت أنا عاوز أقتله . .

ـ ده شأنك . . ولن يدافع عنك أحد . .

ـ كده؟

ـ أيوه كده . .

ـ يعنى خلاص؟

ـ طبعا خلاص . .

ـ هاها . .

ـ . . . .

٣

ـ نتقابل فى مكتب حسن حلمى ـ هكذا بدأ السيد بدير الحديث معى فى التليفون . .

والتقينا هناك . واستأذن محمد سالم أن يدخل فقيل له : بعدين يا محمد!

وكان ذلك سببا كافيا لأن يجمع محمد سالم أوراقه ويعود إلى بيته . . والكاميرات والممثلون فى انتظاره فى الأستوديو لإخراج برنامج (البيانو الأبيض) . . ودخلنا فى الموضوع . فقلت للسيد بدير : أيوه أنا عندى مسرحية ولكن فى غاية الصعوبة . .

ـ ليه؟

ـ ثلاثة فصول وممثلان فقط .

ـ حلوة قوى!

ـ نوعها كوميدية بولسية . .

ـ ياه . . دى تبقى قمة ! أشوف النص .

ـ غدا .

ـ يبقى أحسن من يمثلها : حمدى غيث وسناء جميل . .

ـ أتمنى ذلك . .

ـ هذا حدث الموسم . .

ـ وعندى مسرحية من فصلين . . والبطل واحد . .

ـ ياه . . ممكن فنيا ولكن المتفرج يزهق . . وقد حدث فى إنجلترا . وكانت تحفة . ولكن لم تنجح جماهيريا . . خلينا فى المسرحية بتاعتك اسمها إيه؟

ـ مؤقتا : الأحياء المجاورة!

واتجه إلى التليفون وقال : اطلب الأستاذ حمدى غيث ومدام سناء جميل فورا .

والتفت إليه حسن حلمى وقال له : يمكن جلال الشرقاوى . .

ـ علشان إيه؟

ـ كمخرج لهذا العمل المسرحى . .

ـ وجلال الشرقاوى يقدر يعمل منها حاجة . . فعلا أنسب واحد . . تعرف جلال؟

قلت : لا . .

ـ هذه فرصة لكى تعرفه . . وتجلس مع حمدى وسناء أثناء البروفات وإذا كانت

فيه ملاحظات على الأداء فمن الممكن أن تقولها . . وثلاثتهم عقولهم متفتحة . . هذا خبر سعيد جدا . . أنا سألنى د . عبدالقادر حاتم عن الأعمال المسرحية التى نستعد لإظهارها على المسرح . . الآن قد اكتمل عددها عشرة . . عظيم . . أوكى . فى انتظارك . . وتركت للأستاذ حسن حلمى مهمة البحث عن محمد سالم . وإن وجدوه أن يصالحه . . وإذا صالحه أن يعيده لإكمال ما بدأه فى الأستوديو . .

وعاد محمد سالم بعد ثلاثة أيام فلم يجد أحدا فى الأستوديو . .

وهذا طبيعى . وكان ذلك سببا عظيما لأن يجمع كل أوراقه ليضعها فى مكتبى فى (أخبار اليوم) . وسألته : إيه يا محمد؟ . .

ـ ولا حاجة . خلاص .

ـ خلاص يعنى إيه؟

ـ أنا حاسيب التليفزيون . . وأنت تقول للسيد بدير يخلينى أخرج المسرحية بتاعتك .

ـ يعنى هوه أحسن منى؟

ـ هذا شأن السيد بدير . .

ـ أنت تكلمه .

ـ أنا لا أستطيع .

ـ مش مسرحيتك . .

ـ أيوه . . لكن التمثيل والإخراج ليس من شأنى

ـ يعنى ده رأيك؟

ـ طبعا . .

ومد يده إلى الأوراق التى وضعها فى مكتبى وخطفها وخرج . وقبل أن يخرج التفت قائلا : على فكرة أنا قابلت الملاخ وبهاء الدين . . قبل ما آجى لك!

ـ . . . .

ـ الملاخ يحكى لك أنا عملت إيه فى بهاء . .

ـ يخرب عقلك . . عملت إيه؟!

ـ . . . .

وجاء كمال الملاخ . وسألته : هاها . . هاها إيه المصيبة اللى حصلت؟!

ـ قال له . . لولا أنك مع كمال الملاخ صاحبى وحبيبى لكنت (أقلمتك) . .

ـ يعنى إيه؟

ـ هاها . . يعنى ضربتك بالقلم . .

ـ هاها . . ما بيعرفش عربى . . مستشرق!

ترك (الشيخ علام) ليكون رئيسا لجامعة الزقازيق!

١

ـ عارفة يا حواء ربنا خلق آدم الأول وأنت بعدين؟ عارفة ليه؟

ـ ليه؟

ـ علشان يبكى على الأيام الحلوة اللى عاشها من غيرك!

تصفيق حاد فى مسرحيتى (الأحياء المجاورة) وعبارات أخرى قد أضحكت الناس.

ولما عرضت مسرحيتى الجديدة (حلمك يا شيخ علام) على الأستاذ السيد بدير قال لى: حلوة.. بس عاوزينك (تزغزغ) النص شوية..

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى المسرحية مضحكة. ولكن المطلوب أن المتفرج مش يقول: هاها.. إحنا عاوزينه يقهقه.. يصهلل.. أى يكون له صهيل كالخيل.. وإذا قدر يقف ويصفق ويتحزم ويرقص كمان مفيش مانع.. أنا مش عاوز إنك تتعاطى قطعة حشيش أو تاخد نفسين وهات يا كلام.. لا.. بس تعيد قراءتها بقصد أنك تخلى المتفرج يضحك أكثر حتى لا ينام منك.. إذن لابد ألا أنام حتى أفرغ من

قراءة وكتابة نص جديد حتى لا ينام المتفرج . . وفعلت أقصى ما أستطيع . وعرضتها مرة أخرى على السيد بدير . فقال : كده حلو . . والباقى أنا عارف أن الممثلين سوف يقومون بالواجب . . مين يخرج لك المسرحية دى . . مين مين؟ . . وجدته! هوه اللى يقدر مفيش غيره!

أما هو اللى يقدر فهو الأستاذ عبدالمنعم مدبولى . . تكلمنا فى التليفون . اتفقنا على أن نلتقى فى كازينو (الشجرة) على النيل . . وعبد المنعم مدبولى فى غاية الحيوية ويفهمها وهى طايرة . . وبدأ فى قراءة المسرحية وأخذ يضحك . . ويقول : حلوة . . حلوة . . وسألنى : ما هى طلباتك . . عاوز مين من الممثلين . .

قلت : ليست لى طلبات . .

قال : يعنى مفيش أحسن من أمين هنيدى . . هوه اللى يقدر يلعلع!

وطلبت منه طريقة معينة لإغلاق الستار خصوصا فى الفصل الأخير . . واقترحت شكلا للملابس التى يرتديها (الشيخ علام) بحيث لا يبدو كأنه من رجال الدين . لأنه فعلا ليس من رجال الدين وإن كان يتظاهر بأنه يعرف كل شىء فى البيت والغيط وما فى جيوب الناس ويقرأ أفكارهم ويدعى أنها مكتوبة على جباههم أوعلى الأرض وفى السقف . .

وكلمة (حلمك) . . المقصود بها أن الشيخ علام يحلم أو أن الشيخ علام رجل عصبى والمطلوب منه شىء من الحلم . . وذهبت أشاهد الممثلين وهم يتدربون على الأداء . . وكان أمين هنيدى قادرا على الإضحاك بصوته وحركاته وما يرى إضافته من عبارات اخترعها . وكان الممثلون يجيئون فى مواعيد متباينة إلا السيدة عقيلة راتب . . فهى منضبطة . تماما . وقد حفظت دورها وكذلك أدوار الواقفين معها . . وفى حقيبتها سندوتش صغير . .

وفى ذلك الوقت أصبح معروفا أن عبدالمنعم مدبولى كمخرج يتدخل فى النص ويضيف ويحذف . ومن خصائص أدائه أنه يكرر العبارة الواحدة عدة مرات . . كأنه لم يسمع . . أو كأنه إنسان آلى فيضحك الناس . . وانتشرت على

أقلام النقاد كلمة (المدبوليزم) أى مذهب مدبولى فى الأداء والإخراج. وكلها تؤكد أن عبدالمنعم مدبولى يقف أمام النص المسرحى.. لا إلى جواره ولا ورائه.. فالمسرحية منذ اللحظة التى يقلبها أصبحت ملكا له.. وهى مبالغة غير فنية وغير أدبية..

وهناك عبارة شهيرة لعميد المسرح الفرنسى جان جيرودو يقول: إذا المسرحية وقعت فى يدى المخرج انتقلت إلى إمبراطور آخر غير المؤلف. لدرجة أن المؤلف إذا صعد إلى المسرح وأطل بأنفه من الكواليس فمن حق المخرج أن يكسر أنفه..

ولم يكن مدبولى فى ذلك الوقت محتاجا إلى نصيحة جيرودو ليكسر أنف المؤلف. وإنما كان مدبولى يقرأ الفاتحة على روح المؤلف لأنه قد أماته.. حتى أصبحت المسرحية نوعا من الفلكلور.. ولى تجربة سوف أحكيها فيما بعد!

ونجحت المسرحية أكثر مما كنت أتوقع..

والذين شاهدوها قطعوا بأننى رجل حشاش. وإلا كيف تجىء، هذه العبارات وهذه التراكيب الغريبة للجمل والحركات. مع أننى والله لا أدخن ولا أحشش ولست فى حاجة إلى ذلك. ولا من الضرورى أن الذين يقدرون على إضحاك الناس أن يكونوا أكبر الحشاشين فى أى مكان وزمان!

٢

ترددت كثيرا: هل أدعو أم كلثوم كما طلبت منى لكى تتفرج على المسرحية هى وبعض صديقاتها. طبعا أسعدنى ذلك. لكن عرفت أنها وعدت مؤلفين آخرين ولم تذهب. ولكن فوجئت بمن يقول لى إن الست جاءت ومعها عدد من صديقاتها. وبعضهن من السعودية والكويت. مفاجأة.. لقد دعتها السيدة عقيلة راتب. وذهبت أتفرج على أم كلثوم. وعلى الذين يتفرجون عليها ويضحكون أكثر كلما رأوها تضحك.. لدرجة أن أحد المتفرجين وقف يقول لهنيدى: يا بختك ياعم.. أم كلثوم بتضحك لك وتصفق. مين قدك؟

وفى إحدى المرات وقف هنيدى يقول لأم كلثوم : والله يا ست أنا يكفينى شرف أننى أضحكتك وأنت تصفقين والله لولا أن الأستاذ أنيس يزعل منى لطلبت قفل الستارة وأعود إلى البيت . . فليس بعد مجيئك شرف أو مجد!

وكان فى المسرحية موقف يقول فيه هنيدى : اللى شفته قبل ما تشوفك عينى . . وكان يغنيها بصوته وأم كلثوم تضحك . .

والتفت إليها هنيدى يقول : اللى شفته . .

فتضحك الست وتقول : اللى شفته أنا ربنا مايوريك!

وتضج الصالة بالضحك ويرد عليها هنيدى : الله يكرمك يا ست!

٣

غلطت عندما دعوت الأستاذين مصطفى أمين وعلى أمين . . ولم يكن فى نيتى أن أدعوهما أبدا . فأنا أعرف أنه لا صبر لديهما على الجلوس . ولا احتمال مسرحية . . ولا حتى الضحك لما يضحك عليه الناس . . ولا قدرة لهما على التوقف عن التدخين . ثم إن المقاعد غير مريحة . . والفصول طويلة . ولكن على أمين أقنع مصطفى أمين ومصطفى أمين أقنع توفيق الحكيم وجاءوا . .

أما توفيق الحكيم وكان يهز رأسه ويضحك ويقول : عجايب يا اخواتى . . عجايب . .

أما مصطفى أمين فينظر فى الساعة ويتلفت حوله يسأل عن أقرب تليفون . وخرج مصطفى . وخرج على أمين . وبقى توفيق الحكيم وحده . . وطلب منى أن أجلس معه . وسألنى : الدنيا تغيرت ولا إيه رأيك؟ الممثل دلوقت يرتاد المسرح من أوله لآخره عشرين مرة فى غاية الصحة والعافية يرفع صوته . . والمتفرج اتغير لا يريد أن يضحك من حين إلى حين . . عاوز يضحك على طول . . لا يشبع ولا يرتوى . . طيب والمؤلف يجيب له الضحك منين . . الله كأننى إذا قدمت مسرحية من بتوعى دلوقت ما حدش يضحك عليها . . إلا إذا جاء واحد مثلى ووقف على المسرح بين

الممثلين وقال لهم : ده توفيق الحكيم عاوزكم تضحكوا فى الحتة دى . . فإذا فرض أنهم ضحكوا فى حتة ثانية هل يقوم هذا الشخص ويقول لهم : غلط . . اضحكوا بعدين . . وأن الحتة دى جد . . عجايب يا اخواتى . . أمال إحنا بنكتب لمين إذا كان الناس بقوا بالشكل ده . . إيه رأيك نبطل كتابة بقى ولا المسرح يمنع الناس من الدخول ونضحك إحنا مع بعض . . ومفيش داعى للجمهور . والله عجايب . . ده موليير اللى هوه موليير لما كان يلاقى بعض المتفرجين يبالغون فى الضحك كان ينتظرهم عند باب المسرح ويقل لهم : النكتة التى ضحكتم عليها ليست موجودة فى النص . . إن المؤلف يستحق منكم احتراما أكثر !

٤

وغضب بعض رجال الدين من اسم (حلمك يا شيخ علام) فغيرت الاسم إلى (حلمك ياسى علام) الاسم على باب المسرح (يا سى علام) ولكن فى داخل المسرحية (يا شيخ علام) . وكانت هذه نكتة أخرى قد أضيفت إلى عشرات النكت فى داخلها !

٥

وكان من بين الممثلين الشبان فى مسرحية (حلمك يا شيخ علام) طبيب . . الطبيب اسمه د . محمد عامر . كان ظريفا لطيفا وكان من السهل أن يكون ممثلا ممتازا مثل غيره من الدكاترة الفخرانى وأبوعوف . . وكان مهموما . سألنى : ما رأيك هل أجمع بين الطب والتمثيل ؟

قلت : أبدا . . إما أن تكون طبيبا محترما أو ممثلا مسخرة . وإذا قررت أن تجمع بينهما فسوف يكون موقفك صعبا جدا . إذ كيف يحترمك المرضى وأنت شخصية هزلية . صعب جدا !

ورويت له قصة كتبها الفيلسوف الإسبانى الوجودى أوناموتو . . القصة تقول إن طبيبا ممتازا كان أديبا فى نفس الوقت . وكان يكتب القصص القصيرة . ولم يكد ينشر قصة أو قصتين حتى امتنع الناس عن التردد عليه . لماذا؟ بعضهم قال : قصصه بايخة . . قصصه تافهة . .

ممكن . ولكن هذا لا يمنع أن يكون طبيبا عظيما وقصصه ليست عظيمة . ولكن الناس يختارون صفة واحدة ويعممونها . . ولا يقولون إنه برغم أن قصصه بايخة، فهو طبيب عظيم . . أبدا . . أو يقولون هذا طبيب عظيم برغم أن زوجته حشاشة أو تلعب القمار . . وإنما يقولون : لا داعى لأن نذهب إليه فهو عاجز عن كبح جماح زوجته . . مع أنه لا علاقة لزوجته ببراعته فى علم وفن الطب، فالناس أميل إلى تعميم الصفات السيئة وليست الصفات الحسنة . .

واختفى د . محمد عامر . . ولا أعرف أين ذهب . وفوجئت بدعوة من رئيس جامعة الزقازيق لإلقاء محاضرة . والمفاجأة أن الممثل الناشئ محمد عامر هوالعالم الكبير والطبيب البارع رئيس جامعة الزقازيق . وكان دهشة الطلبة عظيمة عندما حكيت لهم قصة الممثل الناشىء الذى قرر أن يقلع عن هوايته حرصا على أن يكون محترما فكان محترما جدا!

القرآن الكريم يقول : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ (الأحزاب : ٤) أى لا تستطيع أن تحب اثنين فى نفس الوقت . .

والإنجيل يقول مامعناه : أنت لا تستطيع أن تخدم سيدين . .

ومنذ أيام كنت أتحدث إلى الصديق كمال الشاذلى وزير مجلسى الشعب والشورى عن قصة د . محمد عامر . الذى هو أخو زوجته وأخو نائبة مجلس الشعب المرحومة نوال عامر . وفوجئت بأن كمال الشاذلى يعرف هذه القصة بحذافيرها وتفاصيلها . ـ وعلى فكرة كمال الشاذلى يمتاز بذاكرة مغناطيسية : الأسماء والأرقام والتواريخ والنصوص كلها حاضرة أمامه . وهذا واضح جدا من مداخلاته ومناقشاته فى مجلسى الشعب والشورى . وكنت أتصور أن قصة مضى عليها أربعون عاما قد

ضاعت فى غابات الأسماء والمعلومات السياسية والبرلمانية ـ نسيت أن أقول : ما شاء الله ـ فأنا لا أتعاطى الحسد!

ولا أدعى أننى نصحت د. عامر بأن يترك (حلمك ياشيخ علام) ليكون رئيسا للجامعة.

ولا أدعى أننى عندما نصحته قد ساعدته . . ولكنه هو الذى استطاع . كأننى قلت له : اهرب من الشيخ علام تصبح رئيسا للجامعة!

وبهذه المناسبة أتذكر أن الكاتب الكبير محمد عودة كان قد أصدر كتابا عن الصين . وفى الكتاب أن الزعيم ماوتس تونج صفع أباه . . وهرب ، ليعود بعد عشرات السنين رئيسا للصين . فكتبت مقالا عنوانه : العن أباك تصبح زعيما للصين!

وكان وقتها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (المجلس الأعلى للثقافة) قد قرر سفرنا إلى الصين . وكان الوفد برياسة الأستاذ أحمد نجيب هاشم . . ووافقت الصين على سفرهم جميعا . . إلا أنا . . بسبب هذا العنوان . فكتبت مقالا أروى فيه ما حدث ، وجعلت عنوان المقال : العن أبا ماوتس تونج لا تسافر إلى الصين . . ومات ماوتس تونج . فكتبت مقالا آخر بعنوان : حتى لو لعنت أباك أنت فلن تسافر إلى الصين!

(جمعية كل واشكر)
ثروت عكاشة!

١

عندما التحقت بجريدة الأهرام أول مرة ، كان سنة ١٩٥٠ . . وقد كلفني الأستاذ شميل عضو مجلس الإدارة المنتدب بترجمة (مذكرات روميل) ثم (ثلاثة ضد روميل) . وكانت قراءة حياة روميل ثعلب الصحراء ممتعة . وكنت مفتونا به وبكل من يحارب الإنجليز الذين يحتلون أرضنا . . وواضح من اختيار الكتابين . أن الكتاب الأول عن القائد الألماني العظيم روميل . والكتاب الثاني عن القادة الإنجليز الثلاثة الذين حاربوه . حتى ترك لهم الصحراء الغربية وعاد لمواجهة قوات الحلفاء في أوروبا . . وينطلق على نفسه الرصاص . . لأن هتلر اكتشف أنه كان أحد المتآمرين عليه . وقد قابلت ابنه مانفرد روميل عمدة مدينة اشتوتجارت . ولا وجه للشبه بينهما . .

وفي مذكرات روميل وقفت عند كلمة غريبة . لم أجد لها تفسيرا في أي قاموس . . وخجلت أن أسأل أحدا عنها . . وكلما وجدتها قفزت فوقها حتى لو أدى ذلك إلى الدوران حول المعنى . ولم أكن أقف أمام هذه الكلمة وإنما هي التي كانت تقف في حلقي وفي عيني . وبعد سنوات طويلة اكتشفت أن الكلمة جرايز هي اسم نوع من السجائر كان يدخنها الجنود الإنجليز . .

وكلمة أخرى بالألمانية لم يكن معناها واضحًا فى ذلك الوقت . ولكن سألت فعرفت المعنى الحقيقى . .

هذا المعنى هو الذى جعلته مسلسلاً إذاعيًا اسمه (ش٣) بطولة محمد رضا وعبدالسلام محمد . وقد طلب منى الأستاذ حسن حلمى مدير البرامج فى التليفزيون أن أجعله مسلسلاً تليفزيونيًا . وكتبته وكان السيناريو للأستاذ فيصل ندا ومن إخراج الأستاذ سعيد عيادة . أما العنوان فهو (العبقرى) أى المخترع لحبوب إذا وضعها الجندى فى الماء الدافئ صارت فرخة أو بيضة أو قطعة لحم . . وقد اخترع الألمان ذلك فى الحرب العالمية الثانية . وقام بدور العبقرى الأستاذ الكبير يوسف وهبى . أما الممثلون فلا أعرف لهم عددا . وأن مسلسل (العبقرى) قد أعجب به الرئيس عبدالناصر هكذا قال لى : د . عبدالقادر حاتم . ورأى أنه يمكن تطويل المسلسل من ١٧ حلقة إلى أى عدد نراه . . وقد رأينا أن ينتهى بالحلقة الرابعة والثلاثين التى استغرقت ساعتين ونصفا ـ كأنها فيلم (ذهب مع الريح) .

أما كيف كانت الحلقة الأخيرة فهذه حكاية أخرى .

فلا أحد يعرف من الذى كتب لمن! ولا من الذى استدعى هذا العدد الكبير من الممثلين . ولا كيف حشدهم أو حشرهم المخرج فى هذا العمل الفولكلورى . . أى مجهول المؤلف والمخرج!

٢

الأستاذ ممدوح الليثى هو الذى سألنى إن كانت عندى قصة قصيرة محندقة . فقلت : عندى . ولكن ليست من تأليفى .

ـ عاجباك؟

ـ جدًا . .

ـ تأليف من؟

ـ زوجتى . .

ـ اسمها : (حقنة بنج) . .

أعدها ممدوح الليثى وأخرجها الأستاذ نور الدمرداش وحصلت على عدة جوائز فى مصر والكويت . ولم تشأ زوجتى أن تكتب اسمها على القصة . فلو فعلت لتقاضت ثلث الأجر الذى أتقاضاه أنا . . واختارت الأجر الأكبر !!

ولم يعرف أحد من هو المؤلف الحقيقى !

٣

أحكى لك شيئًا من ألا عيب العقل أو الخيال : أن تكون فى مكان جميل جدًا وتخطر على بالك أفكار ليست جميلة . . أو تجلس لتكتب شيئًا فيسرح خيالك وقلمك إلى شىء آخر .

مثلا : كنت فى جزر هاواى . . فى مدينة هونولولو . . لا أعرف كيف أصف لك الجمال والدلال والسحر الحلال . . فقد كتبت عن ذلك كثيرا وطويلا فى كتابى (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) تصور أنت وأنا على شاطئ اسمه وكيكى . . جماله خرافى وفجأة أجدنى أتذكر زجلا مكتوبًا على إمساكية شهر رمضان عندما كنت تلميذا فى السنة الثانية الابتدائية فى أبو حمص . الزجل يقول :

إن كنت يوم رايح كفر الدوار
على الشمال زور أبو حمص
تلاقى محل عليه فنيار
فيه البضايع راحة ترقص !

هل هذا معقول؟ ليس معقولا ! ولكن هذا ماحدث . كيف؟ ! ومنذ ذلك الوقت سنة ١٩٥٩ وأنا أحاول أن أفهم . . ولكن لم أجد لذلك تفسيرا علميًا أو نفسيًا . .

مرة أخرى زرت السيدة فاتن حمامة مع الصحفى الكبير سعيد فريحة . وكان

سعيد فريحة يريد أن ينتج فيلما عن حياة المفكر اللبنانى جبران خليل : فأعطانى سعيد فريحة عددا من الكتب لكى أختار منها ما يناسب فاتن حمامة . وتناولت العشاء وافترقنا ولم نلتق بعد ذلك . ولا سعيد فريحه سألنى عن القصة ولا فاتن حمامة ولا عمر الشريف .

وقد خرجت من هذا اللقاء لا كتب قصة أخرى اسمها (القلب لا يمتلئ بالذهب) وبدلا من أن أبعث بها لفاتن حمامة أرسلتها للفنان محمود رضا لتكون بطلتها السيدة فريدة فهمى . ثم نشرتها فى مجلة (الجيل) وأهديتها لفرقة رضا . لا أخذتها فرقة رضا . ولا شكرتنى عليها . . وإنما الذى أخذها ونفذها هو المطرب عبداللطيف التلبانى ومعه محمد رضا . وظهرت فى التليفزيون . طبعا لا علاقة لهذه القصة لا بفاتن حمامة ولا بسعيد فريحه ولا جبران خليل . . ولم أفكر فى موضوعها من قبل . إنما طوح بها الخيال أو الذاكرة من مكان بعيد مجهول فى أعماقى لتطفو على السطح وتكون هى الأخرى علامة استفهام تحولت إلى علامة تعجب ! !

وحاولت فى إحدى المرات أن أذكر فاتن حمامة ، فلم تتذكر . . وحكيت هذه الحكاية للموسيقار محمد عبدالوهاب . . فقال لى : إنه كان فى باريس مع صديقه الأمير بدر بن عبدالعزيز . . وكانا يزوران أحد محلات العطور . ورأى وملأ أنفه وصدره بأجمل ما اخترع الفرنسيون . وفى الليل جاءه الصحفى الأستاذ بديع سربيه . سأله : أين كنت يا أستاذ؟ . .

ـ سيبك من أين كنت . . أنا دلوقت عاوز آكل بصارة وعيش بلدى سخن . تعرف متى فكرت فى ذلك عندما كنا فى أحد محلات العطور !

قال لى عبدالوهاب إنه مندهش لعلاقة مدام شانيل بالبصارة . لا علاقة . لا فى الاسم ولا الجسم ولا الرائحة . ويقول عبدالوهاب : يظهر أن العقل كالمعدة رمرام ! !

٤

إنها فكرة د. ثروت عكاشة وزير الثقافة فى ذلك الوقت . . أعطانى عددا من

المسرحيات الفرنسية . وقال : اخترلك واحدة . وعندك وقت لترجمتها أو لتمصيرها . .

وكان د . ثروت عكاشة بقدر ما هو رجل لطيف هو أيضا رجل دقيق . قال لى : هذه المسرحيات لن يضحك لها الناس كثيرا هذه الأيام . . فهى من مخلفات القرن التاسع عشر وأوائل العشرين . ولكن من الناحية الفنية محبوكة ومسبوكة والباقى عليك!

قرأت المسرحيات وابتسمت . وضحكت . . وتوقفت عند إحدى المسرحيات . وقررت أن أقوم بتمصيرها . وعدت إلى د . عكاشة . فقال : لابأس . وأنت حر أولا وأخيراً . .

ولكنى كتبت مسرحية أخرى لا علاقة لها بكل هذه المسرحيات . وخجلت من أن أعترف للوزير بما كتبت أو بما اقترفت . ولما سألنى قلت : فرغت من المسرحية أخيراً . .

ـ عال جداً . شكرا . اسمها إيه؟

قلت : اسمها (جمعية كل واشكر!)

وضحك د . ثروت عكاشة قائلا : توقعت أن يكون فيها شيطنة وعفرته . . هاها . . هاها .

ولا أعرف من الذى اختار لها الفنان الكبير عبدالمنعم مدبولى لإخراجها . وهو أيضا ممثل قدير . وسافرت فى رحلة طويلة إلى أوروبا وعدت إلى الإسكندرية بحرا . ونزلت ، والتقيت بالصديق يوسف السباعى فقال لى : هاها . . هاها ما تيجى أعزمك على مسرحيتك!!

ولم أكن أعرف أنها معروضة فى الإسكندرية . وجلسنا فى الصف الأول . ويبدو أنها كانت مفاجأة للأستاذ مدبولى وفوجئت بأن السيدة ميرفت أمين هى بطلة المسرحية . ولم تكن ميرفت أمين التى تصورت أنها تقوم بدور البطولة . تصورت

السيدة عقيلة راتب أو السيدة ميمى جمال. ولم تكن ميرفت أمين هى المفاجأة. وإنما المسرحية كلها مفاجأة. فلا علاقة لها مطلقا بما كتبت. وأدهشنى جدا أن يكون اسمى على المسرحية. الكاتب الكبير.... مع أن النص الذى أمامى من تأليف عبدالمنعم مدبولى ـ وهذه هى المدبولية أو المدبوليزم الذى كان يوصف بها كل مخترع أو كل ممثل يخرج على النص. ويضيف إلى النص من عنده عبارات كثيرة. ولكن عبدالمنعم مدبولى أضاف (اسمى) فقط إلى النص الذى اخترعه من أوله لآخره!

وتضايقت جداً. وعدت إلى د. ثروت عكاشة. فأصدر قرارا فريدا من نوعه: أن يوقف عرض المسرحية وأن تعاد إلى المؤلف الذى يختار لها المخرج والممثلين!

أما المخرج الجديد فهو الأستاذ محمود السباع. أما الممثلون فهم الأستاذ توفيق الدقن والسيدة عقيلة راتب وآخرون..

وفى أول لقاء مع محمود السباع. سألنى: هوه النص فين؟

ـ أى نص؟

ـ أنا معى الذى كتبه مدبولى لنفسه وللسيدة ميرفت أمين.. أنا عاوزك تقرأ صفحة واحدة.. أية صفحة من أى فصل وأنت تعرف ماذا فعل المخترع الكبير مدبولى. يا أخى إنه رجل فى منتهى الجرأة.. يعنى الذى فعله ممكن وجايز إذا كان المؤلف هو الشيخ عبدالرحمن الجبرتى أو طارق بن زياد. لكن أن يفعل فعلته هذه وأنا على قيد الحياة أستطيع وأستطيع....

ـ جرىء جداً..

ـ بل أسوأ من ذلك!

وجلسنا وقرأنا. وظهرت ملاحظات وفراغات ومشاهد ودخول وخروج..

ثم حضرت بروفة مع كل الممثلين. وأسعدنى ذلك.. وكان توفيق الدقن ممثلا بارعا مقتدرا. وكان يطلب أن تكون هناك جملة أو كلمة أو حركة. وكان يؤديها ويضيف ويستأذن إن كان ذلك ممكنا. وكنت أقول: بل هذا أفضل!

وفى يوم قرر محمود السباع أن تكون هناك بروفة بالملابس وأمام جمهور من الطلبة والصحفيين . .

وهمس محمود السباع فى أذنى قائلاً : أنت طبعا عارف العبارة الشهيرة التى قالها عميد المسرح الفرنسى جيرودو . . . أنت اللى قلت لنا قصة هذه العبارة . .

ـ أعرفها تمامًا . ولكم جميعا كل الاحترام . .

أما العبارة فهى أن النص المسرحى إذا انتقل من المؤلف إلى المخرج انقطعت صلته بالمؤلف تمامًا ! !

ورويت لمحمود السباع : أن المؤلف السويسرى العظيم ديرنمات عندما ظهرت مسرحيته (الشهاب) فى لندن ، حذف المخرج الإنجليزى منها كثيرا . وحجته أن الحوار الطويل يوقف الحركة المسرحية ولم يعترض المؤلف . .

وقد قدم لى ديرنمات عندما زرته فى بيته فى شمال سويسرا : الترجمة الإنجليزية وكيف اختصرها المخرج الإنجليزى . وكان من رأيه : أن الحوارات الفلسفية أو العقلية الطويلة تحول المسرحية إلى (تمثيلية إذاعية) . . ولذلك لابد من مراعاة الحركة . وكلها بديهيات يعرفها مؤلف كبير مثل ديرنمات . ولكن القاعدة أن المخرج إذا قال فعلى المؤلف أن يستمع !

وقد استمع واستمتع أيضا بالنقد البديع لهذه المسرحية التى ترجمتها أنا وظهرت على المسرح بطولة د . إبراهيم سكر ومن إخراج الأستاذ فاروق الدمرداش الذى يعمل فى هيئة الإذاعة البريطانية .

وكان ظهورها شيئا عجيبًا . .

فهى مسرحية من فصلين . مسرح تقليدى . ولكنها ظهرت على المسرح الإغريقى الدائرى ؟ ! فقد كانت الميزانية لا تسمح بديكور . ولا يوجد مسرح خال . وأنا حريص على ظهورها بأى شكل . . فظهرت على أى شكل . . ثم ظهرت فى كتاب ومعها مسرحيات أخرى للمؤلف السويسرى ديرنمات !

٥

وفى حالة من الرعب والضيق والدهشة قال لى: أنا مش عارف أقول لك . . شىء غريب . . لا يتصوره عقل . . ولم أسمع عن شىء كهذا فى حياتى . . هل أعتذر لك؟ هل أعاقب كل الناس فى مكتبى . . والله مش عارف أقول لك إيه . . ولا عارف أعتذر لك . .

فقلت للأستاذ أمين حماد رئيس التليفزيون: جرى إيه يا أستاذ!

ـ مسرحيتك؟

ـ اشمعنى؟ أية مسرحية؟

ـ الأخيرة.

لقد كان يحدثنى عن مسرحية (مين قتل مين). . وفوجئ بأننى الذى سحبتها من مكتبه عندما سمعت أن عبد المنعم مدبولى هو الذى سوف يخرجها . . يخرجها من هدومها وعن طوع المؤلف!

قلت له: أنا أعطيتها للمخرج كمال ياسين . .

ـ الحمد لله . . يعنى ماضاعتش . .

ـ بل كانت ستضيع!

المسرحية الوحيدة التى شاهدتها حرم الرئيس عبد الناصر!

١

المسرحية كان اسمها (الرعشة). والاسم مؤقت هكذا قلت للمخرج كمال ياسين ـ بلدياتى. وسألنى: لماذا مؤقت؟

قلت: لأن عندى مسرحية مترجمة بهذا الاسم وهى من تأليف الأديب الأمريكى تنسى وليامز..

ثم قابلته بعد ذلك وقلت له: ليكن اسمها: كلهم بيرتعشوا!

وانزعج كمال ياسين وكان رجلا عصبيا جدا. وقال: يا نهار أسود ومنيل.. ودى لها بقى مدلول سياسى؟!

ـ لا علاقة لها بالسياسة.

ـ وبعدين؟

ـ ليكن اسمها: مين قتل مين؟

ـ حلو قوى.. الاسم لوحده يشد الناس.. حلو..

ولا أعرف لماذا عندما قابلت الفنان الكبير فؤاد المهندس فى مبنى الإذاعة بشارع

الشريفين اعتذر عنها . هل لأنه يعرف أنها عرضت على الأستاذ أمين الهنيدى . . هل لأنه مشغول بشىء آخر . . ولم أسأل أحدا بعد ذلك .

ولم أشهد (بروفات) هذه المسرحية ولكن طلب منى كمال ياسين إدخال بعض التعديلات فى الحوار . وهو مطلب معقول جدا . ثم إدخال تعديلات أخرى يراها البطل أمين الهنيدى . ففى الفصول الثلاثة للمسرحية ينفرد أمين الهنيدى بالمسرح ولا يدخل ولا يخرج . وفى ذلك إرهاق له وقال : يا أخى الراجل عاوز يبل ريقه . . والمسرحية دى تنشف الريق لأنه يتكلم كثيرا ويزعق ويشخط وينطر . .

وأدخلت التعديلات التى أرضت الجميع . ورأيت البروفة العامة . وكانت لى ملاحظات أنا أيضا على بعض الكلمات والحركات . ولم يعترض لا المخرج ولا البطل وفى يوم الافتتاح ذهبت مبكرا عملا بنصيحة صديقى د. يوسف إدريس وهى : أن المؤلف يجب أن يستقبل المشاهدين لأنهم ضيوفه . وسوف يلمس فى أيديهم وفى عيونهم ما يسعده . فهم فى غاية الامتنان لما كتبه قبل ذلك ويسعده أن يروا ويسمعوا مزيدا مما أعجبهم . .

ويقول يوسف إدريس : حتى إذا لم تعجبهم المسرحية ، فالمؤلف قد قبض مكافأته عن أعمال أخرى . أما إذا أعجبتهم فليقف فى وداعهم مرة أخرى . . فهذا هو الأجر الحقيقى الذى يتلقاه من الناس . . إنه أكبر كثيرا جدا مما يقبضه بعد أو قبل ذلك!

والله معك حق يا يوسف . .

٢

وبسرعة وجدت قوات الأمن يمينا وشمالا . وتهامسوا بأن وزير الداخلية شعراوى جمعة سوف يشاهد المسرحية . غريبة! إن أحدا لم يقل لى . لا المخرج ولا التليفزيون . ودق الجرس استعدادا لبدء المسرحية . ودخلت فى الظلام وجلست عندما جاء من يهمس لى : تعرف مين هنا؟ مش حتصدق!

قلت : عارف شعراوى جمعة . .

ـ شعراوى مين؟ . . إنها حرم الرئيس عبدالناصر . .

ـ معقول؟!

ـ أي والله السيدة تحية عبدالناصر . .

إذن من أجل ذلك جاءت كل قوات الأمن ووزير الداخلية ومن لا أعرف من رجال المباحث والمخابرات . .

ولمحت فؤاد المهندس جاء يتفرج على المسرحية التى كان من الممكن أن يكون بطلها . .

وانقطع التيار الكهربى . وأظلم المسرح . وفى استطاعتك أن تخمن ما الذى يمكن أن يحدث . . فحرم السيد الرئيس موجودة ورجال المراسم والأمن!

وبعد دقائق عاد التيار الكهربى . . وابتدأ الممثلون من البداية . بمنتهى الصراحة لقد ضاعت منى كل المعانى التى ذكرها يوسف إدريس . لامتعة ولا امتنان . وكل ما عندى هو الخوف من انقطاع التيار مرة أخرى . وتفسد المسرحية والليلة التى انتظرناها . ومن يدرى ربما تضايقت السيدة حرم الرئيس وتركت المسرح . ومعها حق . والحمد لله لم ينقطع التيار وبقيت السيدة تحية عبد الناصر إلى نهاية المسرحية . . وقالوا : كانت سعيدة . .

ونحن أيضًا!

وقابلت كمال ياسين وقال لى : تعرف أننى لم أشأ أن أخبر الممثلين بأن حرم الرئيس كانت موجودة هنا . خفت أن يرتبكوا بعد أن تشاءم بعضهم بسبب انقطاع التيار . . وتبادلوا التهم . فقد حدث لبعض الممثلين ذلك أكثر من مرة . . وقيل وقتها إن فلانا نحس . . وإن فلانا عينه تفلق الحجر . . والحمد لله كل شيء تم على خير . . وعندما انطبق الستار قلت لهم . فكانوا سعداء!

قلت له : ولكى تنكمش سعادتك أنت وليست سعادتهم فقد غضب شعراوى جمعة . . وغادر المسرح؟!

ـ لماذا؟

ـ . . . .

٣

قابلت الوزير شعراوى جمعة فى بيت صديقه الوزير توفيق عبد الفتاح توءم الوزير زكريا توفيق وكلاهما خال زوجتى. بادرنى شعراوى جمعة قائلا: هل ده يصح؟.. ومنك أنت؟ وفى عهدى أنا..

ـ إيه اللى حصل يا سيادة الوزير؟

ـ لا لأ لا يصح.. ومش أنت اللى يقول كده!!

لم يكن شعراوى جمعة يتوقع أن يجىء على لسانى كلام كالذى جاء فى المسرحية. ومن حقه أن يغضب فالعلاقة بيننا ـ عائلية ـ قوية. فهو والتوءم زكريا توفيق وتوفيق عبد الفتاح أصدقاء. فقد كان شعراوى وتوفيق عبد الفتاح من الضباط الأحرار. ولهما حكايات ومغامرات ومنشورات. ولما اعتقل الأستاذ مصطفى أمين، كان شعراوى جمعة هو الذى طمأن أسرتى على أننى لا دخل لى فى قضية مصطفى أمين لا من قريب ولا من بعيد..

وإن الشائعات التى انتشرت فى القاهرة بأن رجال الأمن جرجرونى من مرسى مطروح إلى القاهرة ليست صحيحة. وهو الذى أشار بأن تكذيب الشائعة هو أن أسافر إلى القاهرة وأن أجلس فى مكتبى دون أن أعلق على أى شىء.. ووجودى فى مكتبى تكذيب لأية شائعة! وهذا ما حدث!

أما الذى لم يكن يتوقعه شعراوى جمعة فهو أن يظهر أمين الهنيدى فى أول مسرحية ويقدم لعسكرى المرور سيجارة. وعندما يأخذها يصرخ أمين الهنيدى: رشوة! وهى نكتة. والرشوة لا تكون سيجارة.. وإنما خرطوشة سجائر. فأنت تستطيع أن تقدم لرئيس الجمهورية سيجارة وتشعلها.. ولكن أن تعطيه ثمن السيجارة أو الخرطوشة. هذا ما قلته لشعراوى جمعة. ولكنه غضب ولم يقتنع. فقد كان حساسا لجهاز الأمن ورجال الأمن. ولم أغير شيئا من كلام أمين الهنيدى.. فظل يقدم سيجارة لعسكرى المرور لكى يدخن هو واحدة أيضا!

٤

ودار هذا الحوار بينى وبين الأستاذ توفيق الحكيم .

قال لى : بيقولوا المسرحية بتعاتك نجحت .

ـ بل سوف تنجح أكثر إذا أنت شفتها يا توفيق بك . .

ـ اللى قال لى ثروت أباظة . . وثروت ده ما يعجبوش العجب . .

ـ شكرا . امتى يا توفيق بك .

ـ شوف أنت . . نستنى شوية لحد ما الممثلين ما يسلطنوا ويقفشوا الكلام والحركة . أنت تعرف أن موليير إذا اشترك فى مسرحية من تأليفه ، كان يظهر على المسرح يتحرك بالطول والعرض . ويطلب من الممثلين أن يشاركوه فى الحركة دون كلام . لأن الكلام هوه عارفه ، أما الحركة فهى التى تظهر للناس . . وإذا كان الكلام مقنعا فالحركة أيضا . .

ـ يعنى بعد أسبوع مثلا؟

ـ أيوه . . بس أنت تكون قاعد معايا . . علشان نهاجمك . . هاها . . ده الشرط . .

ـ خلاص يا توفيق بك . .

ـ ومين بقى اللى حيعشينا بعد كده؟

ـ أنا؟

ـ لا . . ده عشاء مش لذيذ . . ليه بقى؟ لأن العشا فى الحالة دى يبقى رشوة . . أنت بترشينا علشان نسكت أو علشان نقول حاجة كويسة . . مش كده وألا إيه . . هاها . .

ـ لأ مش كده . .

ـ لأ كده . . لازم واحد يعشينا ويبقى متغاظ ، وهو يتغاظ وإحنا نبقى مبسوطين . . وتبقى السهرة كلها ضحك . .

ـ زى مين؟

ـ شوف أنت . .

ـ كامل الشناوى؟

ـ لا . . ده كامل ده راجل كريم . . هوه لما بيعزمنا إحنا اللى بنكون متغاظين لأنه بيعملها كل يوم . . ونحن بنشفق عليه من الإسراف الشديد . .

ـ أمال مين؟

ـ شوف أنت!

ـ مين يعنى . . عبدالوهاب؟

ـ ممكن آه . . ممكن . .

ـ أم كلثوم؟

ـ أهو ده اللى مش ممكن أبدا! هاها . . هاها . .

٥

ذهبت لأستاذنا د. طه حسين أعرض عليه أن يتفرج على المسرحية. فسألنى: هل رآها أخونا توفيق؟

ـ ليس بعد يا أستاذ . .

ـ هاها . . لن يذهب!

ـ ولكنه وعدنى.

ـ وأنا أقول لك لن يذهب!

ـ لماذا؟

ـ أنا عارف توفيق كويس . .

ـ ماذا تعرف عنه يا أستاذ؟

ـ أخونا توفيق لا يحب أن يكون هامشا لأحد . . وإنما الناس كلهم هوامش له . . فإذا ذهب فهو يتفرج عليك . . وهو يحب أن يكون هوه اللى فرجة . .

ـ يا أستاذ سوف تضحك . . إنها ليست مثل مسرحية (الأيدى الناعمة) ولا مسرحية (يا طالع الشجرة) لتوفيق الحكيم . .

ـ هاها . . هل تذكر عندما ذهبنا معا . . وضحكت كثيرا وقلت ذلك لتوفيق . . هاها . .

وقد صاحبت أستاذنا طه حسين لمشاهدة مسرحية (الأيدى الناعمة) بطولة الأستاذ يوسف وهبى . . ثم مسرحية (يا طالع الشجرة) . . وكان طه حسين يضحك لا على الذى يسمعه ولكن على أفكار توفيق الحكيم .

ومما قاله طه حسين : إن توفيق الحكيم لم يأت بجديد . . فاللا معقول واللا معنى قديم فى الأدب الفرنسى وهو يعلم ذلك . . فالشاعر لوتريومون والشاعر رامبو . . حتى بودلير وكذلك فرلين . . قد جربوا اللامعقول وتعاطوه وأدمنوه . . وكانوا خفيفى الظل . . ولكن أخونا توفيق ليس كذلك . . إنه شديد التجهم . . مع أنه يريد أن يكون ساخرا أو (مسخرة)! هاها . . هاها . . أظنك سوف تقول له ذلك . . هاها . . قل له! هاها . .

وكان طه حسين أبعد نظرا . فلم يذهب توفيق الحكيم . وكان يقدم أعذارا مختلفة وقصصا دمها خفيف . فهو خفيف الدم والظل والروح ، سواء ذهب أو لم يذهب!

ولما زرت طه حسين بعد ذلك وكان مريضا . بادرنى بقوله : أخونا توفيق أسعدته دعوتك لمشاهدة المسرحية . . هاها . . أنا قلت لك إنه لن يذهب . .

وفعلا لم يذهب توفيق الحكيم . .

وقال لى الحكيم : أنا كان فى نيتى أن أتفرج على المسرحية . . ولكن طه حسين هو اللى قال لى : استنى لما صحتى تتحسن ونروح سوا . . وأدينى مستنى . . ماتتضايقش . . اصبر علينا . . يمكن ربنا يأخذنا إحنا الاثنين أو إحنا الثلاثة . . هاها . . هاها . . !

٦

قلت للسيدة أم كلثوم . . قالت : مفيش مانع . . بس عبدالوهاب يبقى فى إيدى؟!

ـ عبدالوهاب فى باريس . .

ـ استناه لما يرجع . .

ـ عبدالرهاب يمكن يقعد له شهرين على الأقل . .

ـ استناه . . ولاأقول لك . . هات مصطفى أمين وعلى أمين!

ـ قلت لها : إلا الاثنين دول . . فى عرضك يا ست!

ـ هاها . . هاها . . أنا عارفة يبقوا عاملين إزاى فى المسرح أنا شفتهم وكل مرة أترجاهم ما يظهروش قدامى أبدا . . بيتلفتوا طول الوقت حواليهم . . فتتلفت الناس ويشعرون كأن قنبلة سوف يلقيها أحد ويهرب . . أو أنهما جاءا إلى المسرح الخطأ . . أنا سوف أجىء وحدى أوعدك . . أنت تعرف أنا بأحبك قد إيه . .

وجاءت أم كلثوم . ولم تشأ أن تخبر أحدا . . إلا صديقتها عقيلة راتب . . وفى إليوم التالى قالت لى أم كلثوم ، فى التليفون : والنبى حلوة قوى وضحكت . . وعندى فكرة . . مش البتاع ده اللى بيعمله توفيق الحكيم ده اللى اسمه مسرح (اللى مش معقول) وفى المسرحية ينزل الممثل ويتكلم مع الجمهور . إيه المانع إن أمين الهنيدى ينزل من المسرح . . ويدى السيجارة لشعراوى جمعة . . هاها!

هاها . . هاها . . . .

حول العالم فى ٢٠٠ رقصة!!

١

قال لى الصديق ممدوح رضا إنه اتفق مع أديب صينى على أن يترجم كتابى (حول العالم فى ٢٠٠يوم) . ومن عادة ممدوح رضا أن يبتسم وأن يضحك . وكان ظريفا لطيفا مجاملا كريما . ولأنه دائم الابتسام ظننت أنه يمزح . ولكن فوجئت به مع أديب صينى يقول إنه مستعد تماما لترجمة الكتاب على أن تصدر الترجمة الصينية فى العام القادم . وقد حدث . وأرسل لى نسخة من الترجمة . ولم أعرف أين الرجل لكى أشكره . والغريب أنه هو الذى أرسل لى نسخة ومعها خطاب يشكرنى شكرا عميقا . مع أنه هو الذى يستحق عظيم الامتنان!

ولا أعرف لماذا نشرت إحدى المجلات الفنية تقول إنهم فى الصين قرروا أن يجعلوا من كتاب (حول العالم) أوبرا راقصة؟!

وفى نفس الوقت كتب الفنان الكبير فتوح نشاطى معلقا على مقال كتبته : أن لى عبارة راقصة . .

وفى نفس الوقت أيضا كتب الشاعر الكبير صلاح عبدالصبور يقول : إن أسلوبى فى الكتابة مثل الشمبانيا لذيذة فى فورانها طعما ولونا . .

وزارنى مأمون الشناوى فوجد أن القلم الذى أكتب به ملفوف حوله شريط . . فكانت القفشة التى انتشرت فى ليالى القاهرة : إننى أحزم القلم لكى ترقص الكلمات!!

وأنا لم أكن أحزم قلمى لترقص عبارتى . . وإنما القلم أعتز به جدا .

فهو هدية من الممثلة الإيطالية سيلفانا بمبانينى . . ثم له حجم مناسب وسن القلم متوسط وينزلق على الورق . وقد سقط فانكسر . فلففته بشريط لاصق . . وكان من الصعب أن أدور على الصحف والكباريهات أشرح لكل الزملاء والأصدقاء هذه الحقيقة فتكون نكته أخرى! وفجأة قرأت أن مخرج التليفزيون حسيب يوسف قرر أن يجعل (حول العالم) مسلسلا . ولم يأخذ رأيى فى ذلك . وانتظرت حتى يجىء وجاء . وتحاورنا . ولم نتفق!

٢

لقد رأى حسيب يوسف أن أقوم بالبطولة مع نجوى فؤاد . ولم أفهم . فشرح لى : أنت طبعا الذى قمت بالرحلة حول العالم . . فهى تجربة شخصية . أنت الوحيد الذى يستطيع أن يقول وأن يشرح وأن يجعل لكل شىء مذاقا مرحا . .

ـ ونجوى فؤاد؟

ـ إيه رأيك نجعل نجوى فؤاد هى المصور الذى رافقك فى كل هذه الرحلة . .

ـ المصور كان أحمد يوسف كبير مصورى (أخبار إليوم) . وقد رافقنى عند نهاية الرحلة . فقد كان من المفروض أن نلتقى فى طوكيو . . أى بعد أن أكون قد زرت الهند والتبت وفيتنام وكمبوديا ولاوس وسيلان وسنغافورة وأندونيسيا وأستراليا والفلبين وهونج كونج . . وبعدها اليابان وجزر هاواى وهوليوود ونيويورك . . وعاد هو إلى مصر ليتزوج الزميلة نوال البيلى . وعدت إلى إيطاليا . . ثم إن نجوى فؤاد إذا ظهرت فالمتفرج يتوقع أن ترقص؟!

ـ نخليها ترقص . .

ـ أى تصور وترقص بالكاميرا . . وأنا بقى اللى أطبل لها!

ـ أيوه . . وماله؟ بل أنا أريد منك شيئا أبعد وأعمق لم يكن فى الكتاب ولا فى الرحلة .

ـ إيه؟

ـ تحبها؟

ـ أحب مين؟

ـ نجوى فؤاد . . بشرط . .

ـ إيه هوه؟!

ـ بشرط أن توعدها بالزواج . . وتظل هى على هذا الأمل ثم تذهبان معا إلى كل الأماكن الجميلة فى الدنيا وهى على نار . .

ـ كده؟ وإذا قلت لك : لأ!

ـ لأ؟! خسارة والله يا أستاذ . .

ـ أولا أنا لا أعرف كيف أمثل . . فهذا فن آخر غير الكتابة . . أنا أكتب فقط . . كما أن كمال الشناوى وصلاح ذوالفقار والمليجى يمثلون فقط . . ونجوى فؤاد ترقص أكثر وتمثل أقل ـ لأ بالثلث!

ـ أمال حضرتك خليتنى أتكلم من الصبح وأقول كل الكلام ده ليه . . والنتيجة صفر . ليه؟

ـ يا أخى عاوز أسمع وجهة نظرك . ومع ذلك سوف أقترح عليك أن يقوم بهذا الدور صلاح ذوالفقار . .

ـ آه صلاح كويس قوى . إن صلاح يحبها ويتزوجها ويطلقها ممكن جدا . . وقد أمكن عشرات المرات . . على كل حال أعطنى بعض الوقت! ويمكنك الاعتماد على بعض الأفلام الموجودة فى سفارات الدول التى زرتها لتضعها فى المسلسل . .

ـ لابد من حب نجوى . .

ـ ليس أسهل من أن تجد عشرات يحبونها . . حبها أنت!

ـ إزاى؟

ـ والله شارلى شابلن فعل ذلك . .

ـ وهو أنا شارلى شابلن؟

ـ وهو أنا صلاح ذوالفقار؟!

. . . . . . واتفقنا على أن يقوم صلاح ذوالفقار بدورى أنا . . ونجوى فؤاد تقوم بدور المصور الصحفى . . بشرط أن يكون الرقص ـ إذا كان ـ عملا عابرا وليس الأصل أن ترقص نجوى فؤاد رقصات البلاد التى زرتها . .

أوكى . هكذا قلنا معا . .

٣

وفوجئت بالأستاذ كامل الشناوى يرشح لى زينات علوى . ولم أفلح فى إقناع كامل الشناوى أنه لاشأن لى بالممثلين . فهذا اختيار المخرج حسيب يوسف . وكان من رأيه أنه من السهل إقناع المخرج باختيار زينات علوى . وكان من الصعب إقناع كامل الشناوى بعكس ذلك . .

ونشرت الصحف أن كتاب (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) سوف يظهر على الشاشة الصغيرة بعنوان (حول العالم فى ٢٠٠ رقصة) . . وقالوا حول العالم فى رقصة على واحدة ونص . . وقالوا : رقصنى يا جدع حول العالم . .

ولم أجد إلا حلا واحدا هو أن أذهب إلى رئيس التليفزيون أعرض عليه حكاية المسلسل . فأنا لم أكتب مثل هذه المسخرة . ولا كانت تجربتى الطويلة الشاقة بهذه الهيافة . وصدر قرار بالعدول عن إعداد كتابى ليكون مسلسلا بأى شكل!

وفوجئت بالمخرج الكبير حسن الإمام يقول لى : أنا أقدر أعمل المسلسل ده . .

ـ طبعا تقدر . .

ـ وأجعله راقصا . .

ـ الرقص ليس ضروريا . . .

ـ أمال عاوز نجوى فؤاد ليه؟

ـ مش أنا . . ده المخرج .

ـ طيب أقدر أستعين بنجوى فؤاد وترقص أحيانا وأخليها تحب وتتجوز أحد المخترعين فى اليابان أو مهراجا هندى وهو الذى ينفق على الرحلة . . أو أجيب أحد تجار المخدرات ويحب نجوى فؤاد وعن طريقها يهرب المخدرات وقبل دخوله مصرنحبسه فى إيطاليا . . بلاش كده . .

ـ جرى لك إيه يا حسن . . دى مش قصة حياة نجوى فؤاد . . دى حياتى أنا . . وهى رحلة أدبية وكتابى حصل على جائزة الدولة فى (أدب) الرحلات وليس فى قلة الأدب . .

ـ يعنى أنت عاوز توفيق الحكيم يخرج لك المسلسل .

ـ توفيق الحكيم ولا العقاد . . وأنا أصدرت كتابا ممتعا . ولم أهز وسطى . . وإنما هززت قلمى . . والرقص كان بالقلم على الورق . .

ـ ما كل الأقلام كانت على الورق وأنا اللى خليتها ترقص . .

ـ الذى أخرجته كان يقبل أن يكون فيه رقص . . وممكن أن يكون فى هذا المسلسل رقص . . ولكن ليس كله . . ومجرد وجود نجوى فؤاد أو كاريوكا أو زينات علوى يجعل المتفرج يتوقع هزة أو هزتين للوسط على الأكثر وليس مائتى هزة فى ثلاثين يوماً . . بواقع ست هزات فى كل حلقة ! !

وقلت له : أنا عندى حل نهائى يرضينا جميعا .

ـ حلو قوى . . إذن سوف تكتب لنا مسلسلا خاصا . .

ـ لا . .

ـ أمال . .

ـ أنا غيرموافق على هذا المسلسل برقص ومن غير رقص !

ـ . . . .

٤

ونشرت الصحف أن الموسيقار والمطرب المغربى الكبير عبدالوهاب الدوكالى سوف يقوم ببطولة هذا المسلسل فى التليفزيون المغربى أو فى الإذاعة . وهذا خبر مؤكد . دون استئذان من المؤلف الذى هو أنا .

وأدهشنى ذلك . فعبدالوهاب الدوكالى صديقى . وأنا من المعجبين به . ولابد أن يحصل على موافقتى . وإن كنت لا أعرف ما الذى يمكن عمله إذا أنتج المسلسل دون إذن . فلا يوجد من يحمى المصنفات الفنية . . وعشرات من الكتب سرقها الناشرون العرب . ولا عقاب لهم . وعندما يتلطفون بالمؤلف ـ أى مؤلف ـ فإنهم ينشرون كتبه دون إذن منه ولكن أخلاقهم الكريمة تمنعهم من تغيير اسم الكتاب واسم ـ المؤلف ـ وهذه قضية طويلة فيها العجب . !

ونشرت صحف الخليج أن إذاعة الكويت أو أبوظبى تنشر مسلسلا اسمه (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) وأن الذى أعد هذا المسلسل هو الزميل أحمد زين . وأحمد زين لاقال لى ولا حصل منى على إذن ـ لا هو ولا الإذاعة!

٥

وطلب منى الأستاذ فيصل ندا مسلسل (ش٣) الإذاعى والذى صار بعد ذلك (العبقرى) فى التليفزيون . واشترط لهذا المسلسل الذى قام ببطولته محمد رضا وعبدالسلام محمد أن يكون باللغة العربية بدلا من العامية .

وكتبت المسلسل مرة أخرى بالفصحى . .

وإذا أحد صادف الأستاذ فيصل ندا فأرجو أن يسأله : أين ذهب المسلسل وما الذى فعله به . . هو أو الإذاعة التى عرضه عليها . . فقد نسيت أن أسأله من ثلاثين عاما ! !

ولا أستبعد أن يكون المسلسل قد أذيع باسم واحد غيرنا نحن الاثنين . ولكن من

المؤكد أنه أذيع . . كما أذيع مسلسل آخر قائم على أحد كتبى وهو (أعجب الرحلات فى التاريخ) وقيل لى إن الذى أعده دون إذن هو المذيع المصرى الشهير الصارخ أحمد سعيد أو أحمد سعير . . والذين سمعوه يؤكدون أنه قائم على كتابى . وقد تفضل مشكورا فذكر اسمه كمؤلف للمسلسل وطبعا قد نسينى عندما قبض ثمنا لذلك . . وكذلك يفعلون!

٦

وفى يوم كنت أزور أستاذنا طه حسين . . وكنت أجلس معه طويلا استعدادا لعمل حوار معه . . الحوار الوحيد لطه حسين فى التليفزيونات العربية . وقد جلسنا حوله : نجيب محفوظ ويوسف السباعى وثروت أباظة وأمين يوسف غراب وعبدالرحمن الشرقاوى وعبدالرحمن صدقى وكامل زهيرى وأنا . . وهى لوحة تذكارية للأدباء الشبان مع أستاذهم وعميدهم طه حسين . وكان هذا التسجيل قد مسحه التليفزيون المصرى ولكنى حصلت عليه من إحدى الدول العربية . . تصور!

وبعد المناقشة الطويلة الممتعة مع أستاذنا طه حسين سألنى بضحكته الفولتيرية الجميلة التى هى خفة دم ومكر . وكان كلما قال كلمة أتبعها بضحكة . قال لى : يا أستاذ أنيس هاها . . أنت هاها . . سمحت بظهور كتابك هاها على الشاشة . . كامل الشناوى قال لى هاها . . إن المسلسل كله قد تحزم ليرقص هاها . . هذا شأنك . . ولكنى أريد أن أعرف منك . . هل الكتاب كله ما عدا المقدمة . أو المقدمة من غير الكتاب هاهاها . .

أما المقدمة الجميلة فقد كتبها طه حسين!

وهو يسألنى إن كانت الراقصة سوف تؤدى (المقدمة) رقصا . . أو يظهر طه حسين راقصا . .

ـ هاها .

ـ يا أستاذ أنيس . إن كان هذا مصير كتابك الجميل . . فأرجو ألا يكون مصير مقدمتى المتواضعة . .

ـ العفو يا أستاذ . . دى نكتة أطلقوها وزودوها شوية . . وصدقناها وروجنا لها . . وبس !

ـ على كل حال لقد أعذر من أنذر . . وكل ما أطلبه هو أن يكون لى رأى فى الراقصة التى سوف تؤدى مقدمة الكتاب هاها . . هاها . . أنت تعرف أن الشاعر فيكتور هيجو قد وجد بيتا من الشعر مكتوبا على أحد الجدران . . فقرأ البيت ثم وقف أمامه طويلا . وكان البيت من نظمه هو . وظهر عليه الاستياء . فسأله الذين معه فقال : لا مانع أن أجد شعرى مطبوعا على الورق أو على الخشب أو على الجدران . ولكن يحزننى أن تكون به هذه الأخطاء الإملائية . . . هاها . . هاها . .

ـ هاها . .

وكان من رأى طه حسين أن يظهر الكتاب فى مسلسل ظريف لامانع بشرط أن يكون محترما . وقد حدث أن جاء الشاعر الغنائى عبدالسلام أمين وجعله إحدى فوازير نيللى ولكن بعد وفاة طه حسين بعشرين عاما !

كلهم سقطوا بنجاح عظيم!

١

يقول المؤرخون المسلمون إن أبانا آدم عندما هبط إلى الأرض ومعه زوجته حواء وضع قدمه إليمنى فى سيلان واليسرى فى عدن، وإذا كانت المسافة بين قدمية هى ما بين سيلان واليمن فكم يبلغ طوله وطول السيدة حرمه.

وإذا كان آدم وحواء بهذا الطول العملاق، فكيف (انسخط) أولادهما حتى صاروا فى مثل حجمنا. ولكن وصف ابن بطوطة موضع قدم أبينا آدم، وقد ذهبت أنا إلى نفس المكان فى جزيرة سرى لانكا (سيلان) والمكان اسمه (قمة آدم).. وجدت البحيرة الصغيرة التى اتخذت شكل القدم كما وصفها ابن بطوطة، وقبل أن أذهب إلى مكان قدم آدم. مررت على البيت الذى كان يسكنه أحمد عرابى باشا فى مدينة شاندى..

فحياتنا على الأرض بدأت بالسقوط.. سقوط آدم وحواء إلى الأرض بعد أن ارتكبا خطيئة فى الجنة، فجاء سقوطهما فى الامتحان، ووقوعهما فى غواية الشيطان بداية حياتنا على الأرض.. فالسقوط هو البداية.

وسواء سقط آدم فوق جبل أو فى أحد الوديان، فقد سقط، ونهض ليبدأ عذابه وعذاب أولاده إلى يوم القيامة!

وهناك مثل إسبانى يقول عن الحب : سقط واقفا ، فقد سقط . . سقط قاعدا فقد سقط - فهو فى كل الأحوال سقط على بوزه فى الحب !

وكنا فى الفلسفة الوجودية نقرأ عن (السقوط) . . سقوط الإنسان فى دنياه . . لا هو عرف من أين جاء ولا إلى أين يذهب ، ولا الحكمة من الذهاب والإياب ، إنه سقط غريبا فى دنيا غريبة ، وعليه أن يتوافق مع ظروفه الجديدة .

وكنت أرى أوضح صورة لذلك ما فعله الألمان فى غزوهم لليونان ، فقد كانوا يلقون بقوات مظلاتهم من الطائرات ، وكان الجندى ينزل وفى حضنه موتوسيكل قد انطوى وتكوم بعضه فوق بعضه . . . فإذا هبط فإنه فى دقائق يعيد توصيل أجزاء الموتوسيكل وينطلق وفقا للخريطة التى معه ، وفى يده قاموس صغير لعدد من الكلمات الألمانية ومرادفاتها إليونانية ، ويظل يتحرك فى جزء صغير حتى يجىء بقية زملائه ، وكثيرا ما انتظرهم ولم يدركوه ، فقد قتلتهم المقاومة اليونانية ، وكذلك الإنسان قتلته الوحوش والحشرات والجراثيم . . فهو غريب على الأرض الغريبة ، ولا يتسع وقته لكى يتوافق ويتعايش .

ويقول المؤرخون المسلمون إن أبانا آدم عندما هبط عطس . . ولكى يعطس لابد أن يسحب كمية هائلة من الهواء أطاحت بالأشجار ثم عندما أخرج الهواء من أنفه طاحت أشجار الغابات وتناثرت فى المحيط . . فقوة الشهيق والزفير حطمت الأشجار من جذورها وصارت ذرات ، هكذا يقولون .

ومن قضايا رجال الدين : هل السقوط غلطة موروثة . . نتوارثها . . أى نتوارث المعصية . . معصية أبينا وأمنا فى الجنة . . ولم يحدثنا المؤرخون عن أمنا حواء ، وهل هى عطست ، أم أن العطس وتحطيم الأشجار من صفات أبينا آدم . . وأمنا حواء تتفرج عليه وتشمت فيه - ولا تزال !

وقد انشغلت كثيرا بالهبوط والسقوط ، وهى إحدى نظريات الفلسفة الوجودية ، وليس وقت أو مكان التعرض لها . .

٢

ولما سمع منى الصديق د. رشاد رشدى فلسفة السقوط الوجودية سألنى إن كانت هناك مسرحيات يمكن ترجمتها ونشرها ثم عرضها بعد ذلك، فقلت: عندى واحدة سوف أفرغ منها قريبا.

ـ لمن.

ـ لديرنمات.

ـ ما اسمها؟

ـ زيارة السيدة العجوز، وهى تحفة أدبية.

وترجمتها، ولجمال هذه المسرحية ظهرت لها ترجمات عديدة فى مصر ولبنان، ترجمتها أنا وترجمها الأستاذ سعد الدين توفيق.. وترجمها السيد ناصر زغبى، ويقال آخرون غيرنا.. المسرحية تروى قصة حب فاشلة، لسيدة صارت غنية جدا، وقررت أن تنتقم من الحبيب الأول، فذهبت إلى قريته، ولها أتوبيسات بها طعام وشراب وتوقفت عند هذه القرية الجائعة، وأقبل الناس يمدون أيديهم وألسنتهم، ووافقت أن تطعم الجائع وتكسو العريان بشرط.

وكان شرطا قاسيا أن يقتلوا أو يشنقوا أو يدفنوا حبيبها الغادر.

ووافقت القرية، وكانوا يمرون على هذا الحبيب وهو يحفر قبره بيده.. إلى هذه الدرجة قررت القرية قتل واحد منها. لأنها تريد أن تأكل وتشرب، فسقطت القرية كلها فى امتحان الشهامة والإنسانية.. المرأة انتقمت من الرجل ومن القرية كلها.

لقد سقطوا جميعا، فى أقسى امتحان، فلا مثل عليا ولا شهامة ولا إنسانية.. وإنما يا روح ما بعدك روح.. فليمت الرجل ليعيش الجميع!

وهذه المسرحية البديعة ظهرت على المسرح وفيلما عالميا جميلا لسقوط رائع مروع!

٣

أما السقوط الثانى فقد جاء فى مسرحية لعميد المسرح الفرنسى جيرودو، المسرحية اسمها (من أجل لوكرتسيا)، وهى تعتمد على قصة يونانية قديمة، وقد ترجمتها بعنوان (من أجل سواد عينيها).

وعلاقتى بهذه المسرحية غريبة، وبداية هذه العلاقة قديمة.

فقد كنت لسبب لا أذكره الآن أزور السيدة آسيا داغر، مع بعض الزملاء، وكانت الزيارة حبا للاستطلاع، فلم أكن شيئا يذكر فى ذلك الوقت.

وفجأة جاء أنور وجدى، ملامحه كلها واضحة وكبيرة وبارزة، وكذلك خطوته وحركته. كل شيء فيه بارز، ودون أن يعرفنى قال لى: أنا عاوز منك خدمة، تترجم لى أو تلخص مسرحية لواحد فرنساوى اسمه أنوى.. أو اسمه جيرودو.. مش عارف إيه بالضبط.. والمسرحية بتتكلم عن واحدة ست تموت البلد كلها.. وفيه مسرحية تانية اسمها (الأختان) أو (الشقيقتان) لواحد فرنساوى برضه، إيه رأيك.

وخرج ولم ينتظر رأيى، وأنا لا أعرفه، ولكنه حدثنى كأنه يعرفنى، وأنه إذا طلب منى شيئا فلابد أن أستجيب، على أى أساس؟ لابد أن يكون الأساس هو إنه اعتاد على ذلك، وعلى أن يكون فى خدمته كل من يراه، وليس من الضرورى أن يعرفهم أو يعرفوه.. هو طلب.. هو ينتظر.. ولم أفعل شيئا من ذلك، وإنما رحت أبحث عن مسرحيات أنوى وجيرودو.

وفى ذلك الوقت تعرفت على المؤلف الكبير أبوالسعود الإبيارى كنا نلتقى كل يوم نشرب القهوة أمام محل (البن البرازيلى) فى شارع سليمان باشا والملاصق للمسرح الذى يظهر عليه إسماعيل ياسين فى مسرحية من تأليف أبوالسعود الإبيارى كلاما وغناء، ووجدت أبوالسعود الإبيارى هو الآخر يقول: عاوز حدوتة.. عاوز إن شاء الله تلخص قصة.. ماتعرفش عددا من الشبان الذين يعرفون اللغات الأجنبية.. وأنا أشترى منهم..

وكان دمه خفيفا وابن نكتة قال لى: إن مدرسا للغه الفرنسية أتى لى بقصة غريبة

وظريفة، قصة شاب أحب وفشل ثم أحب وفشل . . فقرر أن ينتحر . . هذه بداية ونهاية عادية .

ولكن الذى ليس عاديا أنه كان من عادة الشاب مع الفتيات اللاتى أحبهن أن يتظاهر بالفشل ويتظاهر بالحزن على ذلك، ثم يعلن فى كل مكان أنه ترك وصية بها فلوس لأول واحدة وكانت زميلته فى الدراسة وهاجرت إلى أمريكا ومن يأتى بها فله نصف ثروته التى تقدر بالملايين، وكانت فرصة أمام كل واحدة من اللاتى أحبهن أن تقوم بهذا الدور، وتفوز بنصف الوصية . ولما كشفوا الوصية لم يجدوا سوى ورقة بيضاء .

ويضحك أبوالسعود الإبيارى ويقول : تصور . . إنها تمثيل فى تمثيل، ودمها خفيف جدا، ولما عرضتها على إسماعيل ياسين .

قال : يانهار أسود ومنيل ودى حامثلها إزاى . . إذا كنت أنت حكيتها لى عشرين مرة ولم أفهم!

فقال له أبوالسعود الإبيارى : مفهومة يا سمعة، وكان رد إسماعيل ياسين : خلاص . . أنا أقعد فى الصالة وأنت تطلع على المسرح وفهمنى الحكاية!

ـ هاها . والله ممكن فى مسرح اللامعقول . . أن يتبادل المؤلف والممثل الأدوار والأماكن . طبعا سوف يصفق لها النقاد . وسوف ينخرب بيت إسماعيل ياسين وبيتى، إيه رأيك؟ هاها .

٤

أما مسرحية (من أجل سواد عينيها) فهى تحفة أدبية، وهى عمل مسرحى وليس عملا سينمائيا، ولذلك تعتمد على الحوار الجميل وليس على الحركة، والفرق بين السينما والمسرح : أن السينما أكثر حركة وأقل كلاما والمسرح أكثر كلاما وأقل حركة .

ولذلك فى كل مرة تظهر هذه المسرحية فإن المخرج يحذف منها سطورا كثيرة لأنها تعطل مسار الحركة المسرحية .

. . موضوعها أنه فى إحدى المدن سيدة فاضلة . . واحدة فقط أما بقية الزوجات ففى غاية الانحلال ، ولا شىء يضايق الزوجات إلا أن أزواجهن يقولون لهن ليلا ونهارا : شوفى لوكرتسيا . . أدب إيه وأخلاق إيه ونبل وجمال ورشاقة وشرف وفضيلة . . شوفى واتعلمى . . شوفى واتقى الله . . واحمدى ربنا أنك مازلت على ذمتى .

وضاقت النساء بهذه السيدة الفاضلة ، وفكرن وقررن ودبرن لها مكيدة . فقد استدرجت النساء أزواجهن إلى غداء بعيدا عن المدينة ، وأوعزن إلى أحد الرجال أن يهاجم السيدة الفاضلة الوحيدة فى بيتها ، وأن ينقلن لزوجها أن رجلا فى بيته . . وأن . . وأن . . وكانت فضيحة ، وهكذا لم يعد فى المدينة امرأة فاضلة ، فكلهن فى الوحل سواء . .

ولم تسقط امرأة . . وإنما سقطت مدينة . . لأنها كانت بانحلالها أضعف من امرأة فاضلة . .

ولم أعرف قبلها مسرحية دخلت المسرح المصرى وخرجت . . ولم يجرؤ أحد على تمثيلها ، فى الأعوام الثلاثين الماضية تناولتها الأيدى . ويا سلام على جمالها وحلاوتها وسهولة عبارتها ، وبس ، وقد حاولت كثيراً ولا أزال أنتظر .

ومن ألطف التفسيرات أو التبريرات التى سمعتها ماقاله أحد المخرجين : المشكلة إن هذه المسرحية تعالج مشكلة لم تعد مشكلة الآن . . فكل الأسوار سقطت وكل الحواجز . . ولم يعد أشد الناس ذكاء يعرف أين الحلال والحرام والفضيلة والرذيلة . . إنها حلوة ـ ولكن حلاوة زمان !

٥

ومسرحية (بعد السقوط) للكاتب الأمريكى أرثر ميللر .

ترجمتها باللغة العامية والفصحى أو لغة المثقفين التى ليس فيها (تطجين) ونشرتها .

وكنت أول من فعل ذلك، وأعجبتنى المسرحية، وأعجبنى أيضا تناول المؤلف لزوجته (مارلين مونرو). . فهو يعيب عليها سلوكها وأخلاقياتها ويرى أنها عبيطة، فهو يقوم بشكل منطقى جارح تسفيه أفكارها. وخصوصا شعورها بالامتنان لكل الذين ساعدوها ولذلك تركت الكثير من مالها وجسمها لأصحاب الفضل عليها؟!

وفى المسرحية يهاجمها المؤلف بمنتهى القسوة ويقول لها: أنت عبيطة. . أنت لست مدينة لأحد بأى شىء. إنهم كسبوا الملايين من ورائك. لرشاقتك ولجمالك وابتسامتك وإثارتك. . أنت صاحبة الفضل على الجميع. . على الصغير والكبير فالامتنان واجب عليهم وليس عليك. . أنت غلطانة. . أنت ساذجة. . أنت تستاهلى الضرب والقتل كمان!

وربما كان العيب الوحيد فى المسرحية. الذى جعل عرضها صعبا أن المؤلف وهو يهودى شيوعى لم ينس مذابح هتلر فهى موجودة بشكل ما، وليس من الأمانة حذفها، وإنما الأمانة تقتضى أن تقرأها وبس، ولذلك ترجمتها ونشرتها، وعندما حاول أحد المخرجين إقناعى بأنها من الممكن أن تظهر على المسرح الحديث بشرط أن تكون بالفصحى. وأعدتها إلى الفصحى، وذهب المخرج، ولا أقول أن المسرحية سقطت، وإنما المؤلف يريد أن يقول إن الدنيا كلها سقطت عندما سكتت على مذابح هتلر، فقد كان موقفها سلبيا.

وكان امتحانا صعبا، ولم ينجح فيه أحد، فقد وقف الناس يتفرجون. . وعندهم استعداد لأن يتفرجوا على أى عرض آخر. .

هل لأننى أحب مارلين مونرو وكرهت هذا الرجل وكرهت أديبا يهوديا آخر هو هرمان مايلر فقد دافع عن أرثر ميللر وهو يحاول إنصاف الجميلة الغلبانة مارلين مونرو.

وجمعت المسرحيات الثلاث فى كتاب بعنوان (كلهم سقطوا). .

ولكن سقوطهم مثل سقوط قطرات المطر أو الندى فنرى فيها كل ألوان الطيف. .

٦

وعندما عرضت الكتاب على الأستاذ توفيق الحكيم . . قال لى : أيوه أهى دى بقه حاجة كويسة . . تسبنى كام يوم وتعدى وأنا أقول لك طعم المسرحية الدسمة دى . . تعرف أنا مش نازل من البيت الأيام اللى جايه . . أقعد أقرأ وأتمتع . . هه . . مش كده والا إيه . .

ـ شكرا يا توفيق بك . .

وبعد أسبوعين ذهبت إلى توفيق الحكيم فبادرنى : أنت فين أنا بادور عليك . . دى حاجة حلوة جدا . . ياسلام . . أهوه ده الكلام أهو ده الشغل . . حاجة حلوة قوى . . أنت عملت عنوانها (كلهم سقطوا) . . تقصد الثلاثة . . المؤلفون والمسرحيات بتاعتهم . . الحقيقة أنهم أربعة سقطوا بنجاح عظيم . . المؤلفون الثلاثة وأنت كمان هاها . . والله زمان . . إيه الحاجات الحلوة دى . . بأقول لك إيه . .

ـ نعم . .

ـ ما تسقط لنا كمان مرة كده . . هاها . . والنبى تسقط يا شيخ ! هاها .

طه حسين يقول لكم :
بس وقف عندك!

١

اتصل بنا الأستاذ فريد شحاتة سكرتير د. طه حسين وقال : وقف عندك . .

ـ يعنى إيه؟

ـ الدكتور بيقول بس كده . .

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى إنه مش عاوزكم تكملوا!

ـ والسبب . .

ـ ماعرفش . .

ـ ونعرف إزاى؟

ـ يا أخويا اسأله ما أنت بتكلمه كل يوم .

ـ أنا بس . .

ـ لا . . لا . . كلكم بربطة المعلم!

وكان د. طه حسين قد جمعنا فى بيته . وهنأنا على أن مؤسسة فرانكلين قد قررت إعادة ترجمة كل أعمال شيكسبير . وهو قرار فى غاية الحكمة والصعوبة .

وأن تعاد الترجمة من حين إلى حين فهذا طبيعى أيضا . لأنه لابد أن يترجم إلى اللغة المعاصرة . ولغة الأدباء على أيام شيكسبير مختلفة عن لغتهم اليوم وقبل مائة عام أيضا . . وشيكسبير ليس عبقريا إنجليزيا . وإنما هو عبقرى فى كل لغة . والذين قرءوا ترجمات أدباء كبار من مثل راسين وكورنى إلى اللغة الإنجليزية يرون أنها مختلفة على ترجمتها إلى الألمانية . وقد كانت لى مناقشات طويلة مع المستشرق الألمانى ليتمان . وكان من رأيه أن العبقرية قادرة على أن تعيش فى أية لغة وأن ترتدى أزياءها التقليدية وتبقى عظيمة . . كما هى عظيمة فى لغتها . .

ومعنى كلام طه حسين أنه لامانع عنده من إعادة ترجمة شيكسبير إلى اللغة العربية السهلة بعد أن ترجمت إلى اللغة العربية الشاقة . . ووزع علينا طه حسين مسرحيات شيكسبير . . وكان من نصيبى مسرحية (هاملت) ومن نصيب ابنه مؤنس طه حسين شفاه الله مسرحية (روميو وجوليت) . واندهشنا . فنحن لا نعرف إن كان مؤنس طه حسين يجيد اللغة العربية .

وإن كانت إجادته ترقى إلى مستوى لغة شيكسبير . ولم نشأ أن نذهب فى تساؤلنا إلى أكثر من ذلك . فهو طه حسين وهذا ابنه . ولا أعرف الآن ما هى المسرحيات التى وزعها طه حسين على الأساتذة زكى نجيب محمود وعبدالرحمن صدقى وإبراهيم زكى خورشيد وعثمان نويه وحسن محمود وسهير القلماوى . .

ولم نعرف على أى أساس اختارنا طه حسين واختار لكل واحد مسرحية . ولكن يكفينا فخرا وسعادة أن نعمل مرة أخرى مع طه حسين . .

أما المرة الأولى فقد أصدرنا كتابا عن (الأدب الأمريكى المعاصر) . وكان من نصيبى أن أكتب عن المسرح الأمريكى وكتب لنا طه حسين مقدمة جميلة لكل أشكال الأدب الأمريكى المعاصر . .

وكدت فى إحدى اللقاءات أن أسأله عن سبب تعثر أو إلغاء مشروع شيكسبير لولا أن الأستاذ رياض أباظة نائب مدير مؤسسة فرانكلين همس فى أذنى : لقد اختلفا . .

ـ من هما؟

ـ طه حسين وجلال العروسى مدير المؤسسة.

ـ وكان الخلاف ماديا أولا ثم تمت تسويته. ووقع خلاف آخر رآه طه حسين إحدى الكبائر. فقد قال له جلال العروسى مداعبا له: طبعا يا دكتور دلوقت ما لكش حجة. طلباتك حققناها على العين والرأس.. بقيت مطالبنا.. فتساءل طه حسين: ومن أنتم يا سيدى؟

ـ نحن مؤسسة فرانكلين ونرجوا أن تكون العبارة سهلة مفهومة لدى عامة المثقفين..

وتجهم طه حسين وأحنى رأسه ولم يرد.. وزم شفتيه ورفع رأسه وهى علامة يعرفها سكرتيره فريد شحاتة معناها: أن المقابلة قد انتهت. وأنه لا يقبل أى كلمة. ولم يقبل طه حسين أى اعتذار. وكانت هذه هى النهاية. وكان كل منا قد شرع فى الترجمة!

٢

وفى إحدى ليالى الفرفشة فى بيت الأستاذ إبراهيم زكى خورشيد. وهو رجل أديب ويتذوق الغناء الشرقى القديم. ورغم أن صوته أجش إلا أنه كان يغنى. ويشفع له أنه يؤدى الغناء على القاعدة وعلى العود. وكان شكله مضحكا.. ثم اعتدنا عليه. فهو يمسك العود ويهتز بحماس شديد كأنه موسيقى محترف ومن شارع محمد على بالذات.. فهو ينظر إليك وهو يعزف كأنه يريد أن يعرف رأيك.. أو كأنه يريد أن يتأكد من أنك مبسوط مثله تماما.. وكان لديه عدد من المطربين والمطربات. وهو يصاحبهم! جميعا.. أو يقتسم السهرة الموسيقية بينه وبين الأستاذ إبراهيم الحجار وكانت هناك مطربة لا أذكر اسمها. كانت تحفة فى الأداء.. ومطرب آخر صوته جميل ولكن عيبه أنه يثأثأ. وكنت أقول لخورشيد: يا خسارة..

ـ مش خسارة قوى . صوته حلو أذنه موسيقية وشديدة الحساسية . ثم إنه يغنى فى الجلسات الخاصة . .

وسكت خورشيد ليقول :

شوقى أمير الشعراء والشاعر إبراهيم ناجى بل موسى عليه السلام كان يتثأثأ أيضا . . وصاحبك إحسان عبد القدوس ينطق الراء غينا . . ويوسف السباعى أحيانا يتلعثم . .

واقترب من أذنى وانفجر ضاحكا : وفلانة . . والا إيه رأيك !

وعندما جاء العشاء : عيش وجبنة وخيار وطماطم ـ هذا عشائى أنا . . وكنا قد استمعنا إلى الموسيقى والغناء وإذا به يقول لى : عارف مين كمان سومرست موم . . يتثأثأ ويتأتأ ويتلعثم ولكنه روائى عظيم . . وأنا فرغت من ترجمة إحدى تحفه الأدبية . .

قلت له : إيه؟

ـ الروائيون العشرة . .

ـ يا نهار أسود !

ـ إيه؟

ـ أنا ترجمت فصلين من هذا الكتاب .

ـ ترجمت إيه؟

ترجمت الفصل عن رواية (الإخوة كرامازوف) للأديب الروسى دستويفسكى . .

ـ وأيه كمان؟

ـ الفصل عن رواية (مدام بوفارى) للكاتب الفرنسى جوستاف فلومير . .

ـ بس عندك . . كتابى فى المطبعة !

ـ . . . .

ـ تسمح لى أغنى !

ـ غنى يا أخويا . .

ـ أنا هويت وانتهيت!

ـ هاها . . هاها . .

٣

ونحن طلبة في قسم الفلسفة بآداب القاهرة كنت طالب الامتياز الوحيد في قسم الفلسفة . وطالب الامتياز تضاف إليه علوم أزيد من زملائه العاديين . فكنت أدرس اللغة الألمانية وعلم الاجتماع الفرنسي وعلم الجمال . أما علم الجمال فكان أستاذي هو د . منصور باشا فهمي . وكنا نجلس في غرفة صغيرة خانقة لأنه يدخن . ولم يكن هناك وعي بخطورة التدخين السلبي . . أي الذي أشمه رغم أنفي . . ولم تكن لدى منصور باشا فكرة واضحة عن علم الجمال ولذلك قمت بترجمة كتاب فرنسي اسمه (الخلاصة في علم الجمال) لمؤرخ اسمه لالو . . وجعلنا هذا الكتاب هو (النص) الذي أقرؤه ويشرحه د . منصور باشا فهمي . وأحيانا كنت أستمع إلى أحاديثه في الإذاعة ، وهي مأخوذة من هذا الكتاب . ولما تخرجت رأيت أن أنشر ترجمتي بعد أن كتبت لها مقدمة وهوامش . وفي طريقي إلى دار النشر توقفت عند فترينة مكتبة (زلزل) في ميدان سليمان باشا . . وسقط الكتاب من يدي . فقد وجدته مترجما مطبوعا في بيروت . أما المترجمان فهما الزميلان السوريان : سامي الدروبي وبديع الكسم!

٤

كنا نمشي في جنازة زوجة أحد أساتذتنا . وكانت الجنازة صغيرة والمسافة قصيرة فهي سيدة أجنبية والذين يعرفونها قليلون . فالفرنسيون لا يعرفون أنها غيرت اسمها واعتزلت الناس . وأهله هو من الصعيد الجواني . وكان قد قرر أن لا يخبر أحدا . وخشي أن يفعل ذلك فيجيئوا متأخرين هم وزوجاتهم وأولادهم .

ولم يستغرق العزاء وقتا طويلا . وأشار إلى أخيه أن يصاحب النعش إلى مكان المدافن فى المنصورة . . ووضع يده على كتفى وقال لى : نعود إلى البيت لكى أقرأ لك شيئا سوف يعجبك .

بهذه السرعة انتهت جنازة زوجته وربما الحزن عليها . وكان ذلك دليلا جديدا على واقعيته وفلسفته القدرية وقال لى ضاحكا : والله هى أحسن منا . . هيه لقيت حد يمشى فى جنازتها . . أما أنا فسوف أموت وحدى ولن يمشى أحد فى جنازتى . . أنا فقط الذى سوف أمشى فى جنازتى . . يمكن روحى لا تستطيع أن ترافق جسدى . . فقد كرهت جسدى ، وجسدى كره روحى لأنها أرهقته على الفاضى !

إذن هو قد قام بتصفية حسابه مع الموت ـ موت زوجته وموته هو . وكنا قد وصلنا إلى البيت . . واتجهنا مباشرة إلى مكتبه . وأعطانى رزمة ورق . . وقلبتها بين يدى . . وصرخت . .

ـ إيه صفحات من ترجمة الأستاذ عثمان نويه لكتاب (تاريخ الأدب الحديث) للكاتب فان لون . والكتاب من ألطف وأبسط وأجمل الكتب التى تطير بك فوق الحضارة الغربية والشرقية ترى بوضوح وأنت خفيف لا يستوقفك شىء . .

وجاء دورى لكى يعزينى فى عزيز لدى . فأنا قد بدأت فى ترجمة الكتاب حتى وصلت إلى أقل من النصف . وكان لابد أن أتوقف . . وتوقفت . وأحسست أننى أحمل قتيلا أو ميتا ضمن أوراقى . ولم أستطع أن أخفى حزنى ودمعت عيوننا ـ هو من الضحك !

٥

قلبت فى أوراقى أردت أن أعرف كيف كنت أكتب وأنا تلميذ فى المنصورة الثانوية وعرفت . ولم ألاحظ شيئا غير عادى . وإنما هى محاولات ساذجة للتفكير وأحيانا للتفلسف . ولكنى كنت مثل طفل صغير لم يتعلم المشى ويريد أن يرقص

الباليه. . وحاولت. ولكن لم تكن لها قيمة أدبية أو فنية. ولم أعرف نفسى من الذى كتبته أوحاولت. ومزقت كل أوراقى . .

ومن بين هذه الأوراق وجدت فصولا مترجمة. . مشروعات فلسفية. . إنها فصول من كتب مشهورة. ولم أكمل ترجمة واحد منها. . ولابد أن يكون السبب هو أننى أريد أن أشرك الناس فى هذا الذى أمتعنى. وكنت حسن النية. ولم أذهب إلى أبعد من ذلك. . فأنا طالب مستغرق تماما فى دراستى. وحريص على أن أظل طالب الامتياز الوحيد فى قسم الفلسفة لعشر سنوات. خمس سنوات قبلى وخمس بعدى.

ولكن أغرب ما وجدت مشروع كتاب مكتوب على غلافه: الفيزياء والفلسفة ترجمة: أنيس منصور ومحمود أمين العالم.

غريبة جدا. فمحمود العالم كان زميلى فى قسم الفلسفة، أسبق منى بسنة. ومندهش كيف اتفقنا على ترجمة هذا الكتاب البديع السهل الذى ألفه العالم الإنجليزى جميس جينز. والكتاب نسيج أدبى جميل العبارة. . سهل. . مفهوم. . والذى أدهشنى أكثر أن يكون هناك اتفاق بينى وبين محمود العالم. فنحن مختلفان تماما هو شيوعى وأنا وجودى. . وهو تلميذ لويس عوض وأنا تلميذ عبد الرحمن بدوى. ولا نلتقى عند رأى أو فكرة أو أسلوب أو أمل أو أسلوب حياة. . وربما الشىء الوحيد الذى جمع بيننا هو حبنا للموسيقى. وكانت للويس عوض جمعية اسمها (جمعية الجراموفون) وكنا نلتقى على العشب بين قسم اللغة الإنجليزية والمكتبة. ونأكل سندوتشات الفول ونقارن بين بيتهوفن وفاجنر وموتسارت ونتبارى فى اكتشاف سرقات محمد عبد الوهاب من الجميع. . وأحيانا نستوقف د. محمد عبد الهادى أبو ريدة أستاذ الفلسفة الإسلامية لكى نبدى إعجابنا به. . أقصد إعجابى أنا بما يترجمه للشاعر الألمانى ريلكه فى مجلة (الثقافة). . فقد كان يترجم كتابه الشهير (رسائل مالته بريجه). . وذكرت هذه الحكاية لأصدقائنا. وعلى الرغم من أننى قابلت محمود العالم كثيرا فإننى لم أتذكر أن أسأله كيف اتفقنا على ترجمة هذا الكتاب. ثم أنا ترجمت الفصل الأول فقط!

وبعد أكثر من أربعين عاما تمنيت أن يقوم أ. د. جعفر رجب أستاذ الأمراض الباطنة بقصر العينى بترجمة هذا الكتاب فهو رجل عالم وعنده حس أدبى وفنى وله دراسة طويلة بتاريخ العلوم والأدب والفن. وأعطيته نسخة لكى يقرأ الكتاب. وقرأه وأعجبه فقلت: لماذا لا تكمل ما بدأته أنا.. لا أقصد أن تستبقى الفصل الذى ترجمته وتكمل الكتاب. لا.. وإنما أن تترجمه أنت وبعبارتك أنت. وقد قرأت له قبل ذلك مقالات بديعة. فليس أسلوبه فقط الجميل وإنما خطه أيضا.

وانشغلنا. ومضينا كل فى طريق.

وفجأة قال لى: انتهيت من ترجمة الكتاب. ولكن بقيت مراجعة أخيرة. وبعض الهوامش الضرورية.

وكان يعنى ما يقول. فقد أعاد صياغة الكتاب. وتوقف طويلا عند بعض الكلمات يبحث لها عن مرادفات أنسب. وكلما استعجلته وجدته يراجع ويغير ويبدل.. إنه هكذا دقيق وهكذا أمين..

وفجأة حدث المكروه.. لقد سرقه اللصوص من سيارته مع أشياء أخرى. ولابد أن اللصوص قد تخلصوا من هذا الورق الذى لا يساوى وزنه ترابا. ضاع الكتاب والجهد العظيم الذى بذله أ. د. جعفر رجب.

وأسفت كأن لعنة تحوم حولى كلما شرعت فى ترجمة عمل أو دعوت أحدا لذلك وأصابنا شىء فظيع..

ولم أعرف ماذا أقول له: أعزيه.. أواسيه.. ولكنه جاءنى يوما ليقول: لقد بدأت فى ترجمته من جديد!

إنه إرادة من حديد. وإصرار عظيم. وأكمل الترجمة الثانية. وظهرت الترجمة الجميلة منشورة عن «دار المعارف».. وبعد سنوات أعاد قراءة الترجمة المطبوعة وأضاف إليها.. وظهرت الطبعة الجديدة من منشورات الهيئة العامة للكتاب ليفوز بجائزة أحسن كتاب علمى.

وكانت هذه الجائزة مكافأة له يستحقها . . ويستحق كتابه أن يطبع من جديد ـ فليس أسهل ولا أجمل منه فى زفاف الفلسفة إلى الفيزياء . .

وأ . د . جعفر رجب قد فرغ من قاموس طبى . ورجوته ألا يذكر اسمه وألا يجيب سيرة لأحد، حتى لا يفاجأ بأن أحدا قد شرع أو فرغ من تأليف قاموس مثله ! !

٦

كنا فى مكتب الأستاذ أحمد بهاء الدين فى (أخبار إليوم) وفجأة انتفض د . لويس عوض قال : يا أخى أنا مندهش للجيل الجديد من الأدباء . لا عندهم ذمة ولا ضمير ولا إحساس بالمسئولية . . هل تتصورأن شابا فى مجلة (الجيل) قد نقل مقالة كاملة للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا ونسبها لنفسه . تصور المقال جميل جدا عن الممثلة الإيطالية صوفيا لورين . . هات مجلة (الجيل) . . يا أنيس أنت رئيس تحرير المجلة دى . . كيف تسمح بهذه السرقة والسفالة . . كيف تكون مسئولا عن جيل جديد . . ولا تتحرك ولا تتحرج؟ . .

ـ إيه بس يا دكتور . . إيه اللى حصل . .

ـ اللى حصل أن واحدا عندك اسمه (شريف شريف) ولا عنده شرف ولا أمان . ترجم مقالة ألبرتو مورافيا المنشورة فى صحيفة (صنداى تايمز) دون إشارة إلى ذلك . . لازم تفصله .

ـ حاضر .

ـ حاضر إيه !

ـ ما أقدرش أفصله .

ـ يا أخى أزاى . .

ـ لأنه شخص غير موجود . .

ـ يعنى إيه . .

ـ يعنى ده اسم مستعار . . مفيش حد اسمه (شريف شريف) . .

ـ لكن وراءه شخصا ما . . هذا الشخص ليس عنده أخلاق بالمرة . .

ـ شكرا يا دكتور . .

ـ على إيه؟

ـ لأن (شريف شريف) هذا هو الاسم المستعار الذى استخدمه كل أسبوع . . بدلا من أن أكتب اسمى مرتين فى العدد الواحد . .

ـ هاها . . يبقى أنا شتمت الاسم المستعار . . مش أنت . . هاها . . برضه لازم تقول إن المقالة دى منقولة من (الصنداى تايمز) . .

ـ حاضر حاقول يا دكتور . .

ـ تقول لمين؟

ـ لشريف شريف . .

ـ هاها . .

ونهض د . لويس عوض ضاحكا وصافحنى وعانق تلميذه القديم . . والتفت إلى أحمد بهاء الدين وقال : وهوه تلميذ كان كده عفريت ومشاغب وكان الوحيد من تلامذتى المقربين الذى لم يكن يساريا . . وما زال . .

ـ طيب فيه حاجة يا دكتور . .

ـ إيه . .

ـ إن شريف شريف كاتب مقالة جميلة عن حضرتك . .

ـ انشرها . . هاها بس بإمضائك أنت!

ـ المهم المقال وليس اسم الكاتب . .

ـ مهم جدا اسم الكاتب لأن شريف شريف ده شخص غير . . وغير . .

ـ هاها . . هاها . .

سامية جمال

حلفت لى على المصحف!

١

- عاوز منك خدمة؟!

ولم يكمل العبارة وطلب من أحد الضباط: هات لى رئيس الوزراء على التليفون يا . .

عاوز منى خدمة؟ أقول لنفسى. الرئيس السادات عاوز منى أنا خدمة . . يا سلام . . إيه اللى ميقدرش عليه الرئيس . . ومنى أنا . . يعنى لا أحد يستطيع أن يؤدى هذه الخدمة غيرى . . كل الدولة لا تستطيع؟! . . وجاءه التليفون وقال لرئيس الوزراء . . وأنا أتساءل: منى خدمة . . يعنى زى إيه مثلا، الحقيقة مش عارف. ومش قادر أتخيل إيه اللى أنا أقدر عليه ولا يستطيعه أحد . .

وفرغ الرئيس السادات من الحديث مع رئيس الوزراء والتفت يقول لى: كنا بنقول إيه . . عاوز منك خدمة . .

- العفو يا ريس . . تأمر يا ريس!

- أنت تعرف فلان؟

- لا . .

ـ وتعرف فلان ده كان له صلة بأخبار اليوم . . طبعا عارفه . .

ـ لا أعرفه شخصيا يا ريس .

ـ طيب تعرف فلان؟

ـ أيوه .

ـ شوف دى مهمة صعبة . . تروح لفوزى . . فوزى عنده تعليمات . . وعنده ظرف مقفول به مبلغ عشرة آلاف جنيه تاخدهم وتديهم لفلان ده . .

ـ حاضر يا ريس . .

ـ لأ . . لسه يا أنيس ما تستعجلش . .

ـ أيوه يا ريس . .

ـ يعنى أنت مش حتغلب . . تدى له الظرف بشرط أن يكون قدام مراته . . تعرفها؟

ـ شفتها مرة وسلمت عليها .

ـ كويس قوى . . الظرف المقفول تديه له قدام مراته . . أو لمراته قدامه هو وبس . . لازم الاثنين مع بعض . . وبعدين حاقول لك إيه الحكاية . .

ـ حاضر يا ريس!

وذهبت للسيد فوزى عبد الحافظ سكرتير الرئيس . . وأعطانى الظرف . وحاولت أن أفهم لماذا لا أعطى الظرف لأى واحد منهما . لم أفهم . ولكن الرئيس وعد بأن يشرح لى ذلك . وحاولت أن أجدهما معا . لم أستطع . أسأل عنه فأجده ولا أستطيع أن أسأله إن كانت السيدة حرمه موجودة . . وإذا وجدتها كيف أسألها إن كان زوجها موجودا . .

ومضت أيام وقابلت الرئيس صباحا ومساء . ولم يشأ أن يسألنى ولا أنا قلت له أى شىء ، فأنا لم أفلح فى أن أحقق الشرط المطلوب . سألت وسألت . حتى سألت البواب . فقال لى : إن سعادة البيه أخد سيارته وذهب إلى نادى الجزيرة . وانهم

نزلت مع المدموازيل بس مش عارف رايحة فين. ولا أعرف ماذا يحدث لو ذهب البواب وقال له: إن واحد له سيارة رقم كذا جاء أكثر من مرة يسأل عنك . .

ومضى أسبوع والرئيس يتكلم فى كل شىء إلا فى هذا الموضوع. وطبيعى ألا يتحدث عنه. فهو أمر. ولابد أن ينفذ الأمر. بأى شكل، ليس هذا شأنه. وقابلت فوزى عبد الحافظ كثيرا وهو الآخر لم يسألنى . .

وفى يوم ونحن نتمشى فى القناطر الخيرية سألنى: عملت إيه . . طبعا مش معقول يكون الظرف لم يصل للراجل ومراته. يا أخى أنت صحفى . . والصحفيون عفاريت . . يعنى الواحد منكم يروح بيت القتيل ويمد أيده إلى الحائط يلطش صورته وهو عريس . . أنا عارف الحاجات دى كويس . . ما أنا كنت صحفى يا أنيس . . أنا أقول لك أنت لازم تكون عملت إيه . . سألت عن الراجل ما لقتوش وسألت مراته متى يعود. وعرفت متى يعود ولكن خفت يكون هو الموجود وهى مش موجودة . . فطلبت من واحدة صحفية تسأل عنها ولما تتأكد من وجودهما تطب عليه . . أو إذا لقيته تقول: والله أنا ومراتى عاوزين نزورك فيقول لك: أهلا وسهلا. وتروحوا أنتو الاثنين وتطلبوا بنته لواحد قريبكم فيقول لك: إن بنته مخطوبة فتقوم تدى له الظرف . . أو تقول: عاوزين نعمل لك موضوع ولازم تصوره هو ومراته ومش مهم الصور تتنشر أم لا . . أو تقول إن عندك معلومات عاوز تتحقق منها بنفسك ومعلومات وكلام قالته مراته لواحدة فى نادى السيارات مثلا . . وتخترع لك قصة . . هاها . . ممكن . . أو أقول لك حاجة أصعب من كده شوية . . بس أنت ما تعملش حاجة زى دى: صورة له وإلى جواره واحدة من البنات العفاريت بتوع نادى الجزيرة وتفبرك عليها قصة . . تثيره وتنرفزه وممكن مراته تدخل وتخرب بيتهم الاثنين وممكن تمسك فى زمارة رقبتك وفى الحالة دى ما تقدرش تدى له المظروف . . هاها . . هاها وعملت إيه يا أنيس . . أنت ساكت ما بتقولش حاجة . . هاها . .

ـ أبدا يا ريس . . أنا غامرت ووقفت أمام باب الشقة . . وقبل ما أضع أيدى على الجرس وجدت الراجل وزوجته خارجين معا . . وأعطيت الرجل المظروف وقلت من الرئيس السادات . .

ـ الله؟! وسايبنى أخترع قصصا وحكايات. وأنت ساكت. . هاها. . هاها. . يعنى جيت على أهون سبب طبعا أنت دلوقتى حتموت علشان أحكى لك إيه الحكاية. . الحكاية أنهم الاثنين متخانقين لكن عندهم مشكلة مالية. . وهوه اللى طلب المبلغ، وهو رجل لطيف أنا متأكد من ذلك. . وهو من الضباط الأحرار. . وحكاية طويلة. . يمكن تؤدى إلى الطلاق. . بقى أنت سبتنى أوجع دماغى. . وأدور لك على حيل. . وأنت كده مرة واحدة لقيت الاثنين. وفى ثانية انتهت المهمة. ابقى فكرنى أحكى لك حكاية حصلت لى مع فؤاد باشا. . فؤاد سراج الدين. . حكاية تموت من الضحك. . برضه فكرت ودبرت. . وبصيت لقيت الحكاية اتحلت فى ثانية وبصورة لم تخطر لى على بال. . هاها. . هاها. .

ـ هاها. .

٢

وهذه مهمة أصعب. .

كان أستاذنا عباس العقاد مريضا. وكنا نخشى أن نسأله عن مرضه. فهو مريض ونتمنى له الشفاء. ويصف مرضه ويشخصه ويصف له الدواء. . ويحكى إن كان هذا الدواء قد أتى بنتيجة أو لم يأت. ولماذا. هو الذى يقول وهو الذى يصف ويغير الأدوية. وجاءه أطباء كثيرون. هو الذى طلبهم أو بعض الأصدقاء. أنا شخصيا أتيت له بالأستاذ الصديق د. جمال بحيرى. وهو طبيب جراح وليس طبيبًا باطنيا، ولكن طلبت من د. بحيرى أن يقول إنه طبيب أمراض باطنية. وقدمته للأستاذ وأغلقت الباب. وبعد نصف ساعة خرج الطبيب. وعلى السلم سألته قال لى: ليس فى حاجة إلى طبيب. إنه يعرف أكثر من أى طبيب متخصص. يعرف الأدوية وما ينفع وما لا ينفع. .

ـ يعنى إيه يا دكتور؟

ـ ليس له علاج عند أحد. هو الطبيب وهو المريض وهو الدواء..

وبعد وفاة العقاد قلت: إن العقاد الطبيب هو الذى قتل العقاد الأديب..

وتوقف الأستاذ العقاد عن الكتابة. وأنا على يقين من أنه رجل فقير. لا يملك إلا ما تجود به الكتب. والكتب لا تجود إلا بالقليل. فلا العقاد ولا الحكيم فى استطاعتهما أن يعيشا من الكتب. ولم أجد إلا حلا واحدا وهو أن أطلب إلى الأستاذين مصطفى وعلى أمين أن يكتبا للأستاذ العقاد خطابا تاريخيا يتحدثان فيه عن القيمة الأدبية للمفكر العظيم عباس العقاد وأن يرجواه ـ نعم يرجوانه ـ أن يكتب (يوميات الأخبار). وقلت لمصطفى أمين: أرجو أن تحتفظ بنسخة من هذا الخطاب البديع كوثيقة تاريخية.

وذهبت سعيدا للأستاذ العقاد وأعطيته خطاب مصطفى أمين وتبسم العقاد. فقلت له: والله يا أستاذ سنكون جميعا سعداء لو أن حضرتك وأنت فى طريقك إلى مكتبة الأنجلو تتوقف دقائق فى (أخبار اليوم) وسوف تجد مصطفى وعلى أمين فى انتظارك..

ولم يلاحظ العقاد أننى تحاشيت أن أقول له: تفضل حضرتك ونحن فى انتظارك فى (أخبار اليوم).. ولم يلاحظ أننى لم أقل له: تفضل وتعال إلى (أخبار اليوم).. وإنما قلت وأنت فى طريقك إلى المكتبة أن تتوقف عند أخبار اليوم للقاء مصطفى وعلى أمين.. لم يلاحظ. وإنما قال عبارة كانت مثل رصاصة انطلقت من مسدس كاوبوى!

ـ لماذا لا يجىء الأخوان أمين إلى زيارتى هنا..

صحيح لماذا لا يجيئان؟ وبسرعة قلت له: طبعا يا أستاذ يسعدنا جميعا.

وعدت إلى الأخوين أمين وقلت لهما: الأستاذ يفضل أن تذهبا لزيارته. وفى نفس واحد قالا: طبعا!

مشكلة أخرى: اشتد المرض على الأستاذ. وأصبح عاجزا عن القراءة والكتابة فطلبت من مصطفى أمين أن يبعث للأستاذ بمكافأة عن مقالاته فى ستة شهور أو فى

سنة ووافق مصطفى أمين وذهبت للأستاذ وأعطيته الخطاب والشيك. وقرأ الخطاب واحتفظ به وأعاد الشيك: اشكرهما وقل لهما إننى لا أتقاضى أجرا إلا بعد النشر وأنا لم أكتب وهما لم ينشرا فأنا لا أستحق أجرا!

وكنت أزور إبراهيم باشا عبد الهادى فى المعادى. وهو بلدياتى وقريبى. وسألنى عن الأستاذ فقلت له. ظهر التأثر على وجه الباشا. ولم يقل شيئا. وقال لى: مش ممكن أن أزوره؟

ـ إنه لا يغادر البيت يا باشا..

وأحنى رأسه ولم يقل شيئا.

وفوجئنا بالباشا فى زيارة الأستاذ العقاد. وأغلقنا عليهما الباب.. وكان صوت العقاد قد صار واهنا، والباشا صوته هو الآخر خفيض.. وبعد نصف ساعة انفتح الباب وسمعنا الأستاذ العقاد ينادى ابن أخيه عامر العقاد: يا عامر.. خليك مع الباشا لحد الباب..

وبعد لحظات سمعنا الأستاذ العقاد يصرخ ويقول: يا عامر.. يا عامر.

وجاءه عامر. فقال العقاد: اجر وراء دولة الباشا وأدى له ده..

فقد ترك إبراهيم باشا عبد الهادى مجلة وفى داخلها مبلغ من المال. ووضعها عند قدمى العقاد. فلما مد العقاد أحدى ساقيه سقطت الفلوس على الأرض..

لم يبق إلا حل أخير وهو أننى ذهبت للدكتور عبد القادر حاتم وزير الإعلام. وطلبت إليه أن يسجل التليفزيون حلقات للأستاذ العقاد فى تفسير القرآن تفسيرا عصريا. وأن يبدأ بسورة (النور). فالعقاد له فى هذه السورة اجتهادات رائعة. وقلت للأستاذ العقاد. وأسعده ذلك. ولكن أخذت صحته تزداد سوءا.. وخشيت ألا يتمكن الأستاذ من تسجيل شىء. فاقترحت على د. حاتم أن يدفع مبلغا مقدما قبل التسجيل. ولم يتردد. وذهبت للأستاذ فرفض تماما وقال: لا أتقاضى شيئا مقدما!

ولما أعددت الحلقة الشهيرة مع دكتور طه حسين والتففنا حوله عدد من الأدباء:

نجيب محفوظ ويوسف السباعى وعبد الرحمن الشرقاوى وأمين يوسف غراب وثروت أباظة وكامل زهيرى وعبد الرحمن صدقى وأنا . . طلب طه حسين أجره مقدما واشترط ألا يقل أجره عن العقاد ـ وكنت قد سجلت حلقة مع العقاد قبل ذلك . ولما سجلت حلقة مع عزيز باشا أباظه، طلب هو الآخر ألا يقل عن العقاد وطه حسين وتبرع بالمكافأة لعمال التليفزيون الذين سجلوا له الحلقة!

آخر أمل : كان فى القاهرة رجل دبلوماسى يمنى اسمه الحاج عبد الرحمن السقاف . وهو رجل مثقف ومن محبى الأستاذ العقاد . وسمعت أن له رغبة فى ترجمة كتب العقاد إلى لغة الملايو . . وقال إنه من الممكن أن يدفع للأستاذ ما يريد بالإسترلينى . بشرط أن يكتب له موافقة على ذلك . فقلت له مستحيل . لن يفعل!

ـ ليه؟

ـ هذا موضوع يطول شرحه . سوف يشعر الأستاذ بأنه يطلب صدقة أو يمد يده . .

ـ يعنى إيه؟

ـ زى ما بقولك!

ـ لكن أنت تقدر تعالج الموقف بلطف . فالصلة بينك وبين الأستاذ تسمح بأن .

ـ لا تسمح بأى شىء من هذا القبيل . . إلا موضوع الفلوس!

ـ أحاول

ـ أنت حر . .

ومضت أيام . وقابلته فى طريقه إلى المطار عائدا إلى بلاده وركبنا الطائرة معا . . هو إلى كوالالمبور وأنا إلى طوكيو . وقال لى : معك حق . .

ـ فى إيه؟

فقد ذهب الرجل إلى الأستاذ وعرض عليه الفلوس قبل أن يعرض الفكرة فإذا

بالعقاد يقول : امش أطلع بره . . تريد ترجمة كتبى إلى لغتك وأنت لا تعرف لغتى . . قال له . . يا أستاذ أنا عربى . .

ـ عربى ولا تعرف العقاد . .

ـ أعرفك . .

ـ أنت لا تعرف خلقى وطبعى وقيمتى . . أخرج كما جئت حمارا !

ـ هاها . . هاها

ـ والله أحسست أن لى ذيلا وأننى أستحق الإهانة . . فأنت أدرى به . . هاها . .

٣

وهذه هى المهمة الأصعب جدا . ودار الحوار بيننا هكذا :

ـ تقدر ؟

ـ أقدر . أحاول .

ـ أجى معاك ؟

ـ تعال . .

ـ لا يا عم ده موضوع صعب جدا . ومهمة سخيفة وجريئة وبذيئة إيه اللى خلاك متأكد كده .

ـ معلومات . .

ـ ممن ؟ من الملك فاروق ؟

ـ لا طبعا .

ـ من سامية جمال ؟

ـ ولا من سامية جمال . .

ـ أمال من مين ؟

ـ من واحد قريبى طبيب أمراض نساء . .

ـ هو اللى قال لك؟

ـ عندى معلومات وخلاص . تيجى معايا؟

ـ فى المهمة البشعة دى . لا . . ألف مرة لا . . وأيه الفايدة . . إيه فايدة المعلومات دى . .

٤

ذهبت إلى سامية جمال . وهى سيدة لطيفة ظريفة . مجاملة جدا . لا تزال رشيقة القوام . ووجهها قد أضاء . وشكلها وقور فى ملابسها المحتشمة . .

وقالت وقلت . وضحكنا . . وحكايات من هنا فى السياسة والفن والتاريخ . وفريد الأطرش وشكرى سرحان ورشدى أباظة . . ورشدى أباظة . . ورشدى أباظة!

ـ بأقول لك إيه يا سامية . .

ـ يا ابن الإيه؟

ـ إيه . .

ـ أنت غيرت الكلام بسرعة كده ليه . . وهوه فيه إيه؟

ـ فيه .

ـ إيه؟

ـ سؤال لا أجد حرجا فى أن أوجهه إليك . وأنا أعرف الإجابة مقدما . . هل كانت لك علاقة جنسية بالملك فاروق كما نشرت الصحف . .

ـ يا أخويا أنت اللى كنت بتقول فى (روز اليوسف) وأنت اللى أطلقت علىّ لقب (راقصة مصر الرسمية) وإن العلم المصرى كان يضعونه فوق الفندق الذى كنت أنزل به فى مدينة دوفيل . .

ـ أيوه صحيح لكن لم أتحدث ولا كان فى استطاعتى أن أتحدث عن علاقات مع الملك . .

وفى هذه اللحظة مدت سامية جمال يدها إلى المصحف . ووضعته على وجهها وهى تقول : وحياة المصحف وكلام ربنا ما كانت لى أية علاقة بالملك . . لا عن عفة . ولكن هذا ما حدث . . ألوف يتمنون هذه العلاقة . . ولكن والمصحف ما حصل !

ـ . . . . . .

أنت كنت جاى علشان كده؟

ـ أنا كنت متأكد من كده؟

ـ ليه متأكد؟

ـ متأكد!

ـ أه عرفت . . أنت قريبك دكتور أمراض النساء . كان بيعالجنى أنا والفنانة كاميليا . .

ـ تمام . .

ـ باقول لك إيه تفتكر ممكن ده يحصل لو قابلت فاروق فى جهنم . .

هاها . .

ـ هاها . . يمكن!!

ـ يا ريت هاها . .

ـ هاها . .

فى المدرج ٧٨ كانت لنا أيام

١ ـ جواشون.. جيشون.. وحملناه على الأكتاف!

١

ننظر بعضنا إلى بعض ولا نرانا . . ماذا حدث؟ لاشيء . ماذا سيحدث؟ هذا هو الشيء الذى لا نعرفه . ولا سمعنا عنه من قبل . إنه شيء مختلف عن الثانوية العامة وعن الابتدائية . . إنها الدكتوراه . . يعنى إيه؟ هذا السؤال لم يقله أحد .

لأن السؤال معناه أننا جهلة . فكان النشاط فى كلية الآداب . . حركة فى كل الاتجاهات . . بين الكلية والمكتبة . عدد كبير من الطلبة لم يدخلوا المدرجات ولا ذهبوا إلى المكتبة وإنما يدورون حول شيء . . أى شيء : بعضهم البعض . . حول كليات أخرى . ولا أحد يقول : ما سر هذا الاضطراب أو هذه الشوشوة العقلية . . ولكن على وجوهنا اهتماما عاما . ليس واضحا ولكنه ـ فلسفيًا ـ نوع من الاهتمام الذى هو نوع من الهم والقلق لحدوث شيء ما ليس واضحًا ولا مألوفًا عندنا . .

من المؤكد أن هذه هى المرة الأولى لكل منا أن يرى مناقشة(دكتوراه) فى الفلسفة . . ومن الذى سيناقش من؟ إنهم سوف يناقشون عبدالرحمن بدوى . ومن

هم . . إنهم طه حسين وحسن إبراهيم عميد الكلية وعلى عبدالواحد وافى أستاذ علم الاجتماع والمستشرق الألمانى باول كراوس . هل هى مناقشة؟ كيف؟ هل هو امتحان؟ كيف؟ لا أحد منا يعرف ولا أحد منا قد سأل أحدا إن كانت هذه أول مرة أو أنه رأى قبل ذلك مناقشات فى الماجستير والدكتوراه . أما نحن طلبة السنة الأولى فقد جئنامن الأقاليم ولا رأينا ولا سمعنا .

ولا يزال عندنا متسع من الوقت . فقد تحدد موعد المناقشة الساعة الخامسة فى المدرج ٧٨ الذى كنسوه وغسلوه ومسحوا الأبواب والأرض . وبعض الطلبة قد جلس من العاشرة صباحا . . واستمع إلى محاضرات لا يريدها وفى موضوعات لا تهمه . كل ذلك من أجل أن يحتفظ بمقعد . وأكثر الطلبة حجزوا أماكنهم فى المقاعد الخلفية . . حتى لا يكونوا فى الصفوف الأولى، لكى يروا أوضح . ومعهم سندوتشات وبعضهم نام فى مقعده . .

وكل ما أذكره فى ذلك اليوم أننى حاولت أن أضيع الوقت . ولا أظن أننى قد فعلت شيئا مفيدا . ليس إنجازا عظيما أن أجلس فى النادى وأشرب الشاى وآكل الفطير بالعجوة . وأن أفتعل مناقشات .

أو أهرب من المناقشات إلى المكتبة العامة أبحث عن أى شيء . المهم أن يمضى الوقت . أما الساعات الأولى فقد ضاعت فعلا . ولكن أطول الساعات هى التى كانت سابقة على المناقشة . واسم موضوع رسالة الدكتوراه غريب : الزمان الوجودى . . أى أن هناك زمانا آخر أو أزمنة أخرى . أحدثها الزمان الوجودى . وهذا صحيح . فالزمن فى ساعة يدك هو الزمن الميكانيكى، أى الزمن الذى ترسمه لك عقارب الساعة . . ولكن الزمن الميكانيكى من الممكن أن يكون زمنا أو زمانا نفسيا .

مثلا : محاضرات اللغة اللاتينية واليونانية طويلة جدا . . وتنظر إلى عقارب ساعتك ويخيل إليك أنها لا تتحرك . . ولو كنت تجلس إلى صديقة أو حبيبة ونظرت إلى عقارب الساعة فإنه يخيل إليك أن عليها عفريتا فهى تقفز أسرع . مع أن الزمن هو الزمن . ولكن إحساسك بالزمن هو الذى يتغير . .

ونحن نحسب حياتنا بالأيام والساعات والسنين . . ولكن ليس هذا هو حساب الكواكب والنجوم . وإن زمانها نحسبه بملايين السنين أو بمليارات السنين . . ونحسب المكان بالمتر والكيلو متر . . ونحسب مساحات الكون بسرعة الضوء فى الثانية . . فتقول النجم الفلانى يبعد عنا ساعة أو سنة ضوئية . فهذا زمان آخر . .

ونقول : قيام الساعة . مجيء الوقت الذى تتوقف عنده عقارب الساعة . ويتوقف الزمن . فليس زمانا وجوديا وإنما زمان العدم . .

وتذكرت أشياء كثيرة فى ذلك الوقت . وكل هذه الذكريات جاءت إلى ذاكرتى لا لأننى استدعيتها وإنما هى جاءت لتسعفنى من الانتظار الطويل . فقد حكى لنا الأستاذ العقاد أن مناقشة دارت فى المجمع اللغوى بينه وبين منصور باشا فهمى . عن الفرق فى المعنى بين الزمن والزمان . . وهنا ضحك العقاد بصوت مرتفع : هاها . . هاها . . وحاول العقاد أن يحصل على رأى عام لهذا الذى أضحكه . فقد قال منصور باشا فهمى إن الفرق بين الزمن والزمان : إن الزمن هو الفترة القصيرة والزمان هو الزمن الطويل .

وقال العقاد ضاحكا : يا مولانا إذا كان الزمان الطويل هو أن نضيف حرف الألف إلى الزمن فكم يكون طول هذه الألف إذا كان المقصود بالزمان ملايين السنين . كيف نمد الألف عبر الورق والأرض والسماء هاها . . هاها . . وإذا تحدثنا عن الأبدية : فكيف نرسم حروف هذه الكلمة اللامتناهية الزمان فى المستقبل هاها . . هاها . .

ولم يضحك أحد لهذه الملحوظة الصحيحة والخشنة أيضا . .

والأستاذ العقاد عندما وصف حياته فى السجن فى كتابه(السدود والقيود) قال : إن الزمن كان مثل التراب يحاول أن يكنسه أولا بأول . . ولكن التراب كان ثقيلا . .

وعندما وصف الأستاذ العقاد شبابه ورجولته وشيخوخته فى صعود سلم بيته ١٣ شارع السلطان سليم ، مصر الجديدة قال : كنت أصعده ثلاثا ثلاثا . . وصعدته . . .

اثنتين اثنتين واليوم أصعده واحدة واحدة . . أى أنه عندما كان شابا كان سريعا . أى لا تستغرق منه السلالم الثلاث إلا لحظات . . ولحظات أكثر . . ثم لحظات أكثر وأكثر . . وقال أيضا بعد تقدمه فى السن : كنت أصعد السلالم وبياض شعرى يتوارى فى سواده، واليوم أصعده وسواد شعرى يتوارى فى بياضه . .

وهذا بالضبط هو الزمان النفسى أما الزمان الوجودى . . فهو أحد معانى الزمن .

٢

لحظات ويحدث ما لم نكن نعرف . . جلسنا . صمت تام . . عيوننا على الباب . . من سوف يجىء؟ وكيف؟ وفجأة جاء عبدالرحمن بدوى . كما نعرفه يمشى بسرعة . واتجه إلى مكان وراء منضدة صغيرة عليها مصباح كهربى . وجلس . ووضع ما كان فى يده : بحثه وأوراق أخرى . وراح يقلب فيها . وليس على وجهه إيه ملامح لا الخوف ولا القلق . . ولا الإحساس بالمدرج الذى قد امتلأ تماما . وحدث شىء عجيب فقد صفق الطلبة لعبدالرحمن بدوى . وحرك رأسه واستغرق فى الورق أمامه . . كأن التصفيق صوت أو دوشة جاءت من الشارع . . وجلس كأن المدرج ٧٨ خال تماما، وتعالى التصفيق الطويل : إنه طه حسين ووراءه بقيه أعضاء اللجنة . وابتسم طه حسين وتحركت شفتاه . ولم نسمع ماذا قال . . إنه قد اعتاد على ذلك . ورفع عميد الكلية د . حسن إبراهيم حسن يده بالتحية كأنه هو المقصود . . ولم يبتسم د . على عبدالواحد وافى وربما اغتاظ لهذه الحفاوة بعبدالرحمن بدوى . أما المستشرق الألمانى باول كراوس فقد أشرق وجهه ولم يفعل أكثر من ذلك . فليس هو المقصود بالحفاوة . .

وكما هى العادة تحدث رئيس اللجنة وطلب من الطالب ـ طالب الدكتوراه ـ أن يقدم عرضا لموضوع رسالته . .

واستغرق العرض أكثر من نصف ساعة . الكلام غريب . والتعابير عجيبة وعندما التفت إلى جارى أسأله : فاهم حاجة؟

ـ أبدا . . وأنت؟

ـ مش فاهم . .

ـ وبعدين؟

ـ ولا بعدين ولا قبلين . . إحنا لسه فى سنة أولى ولابد أن الطلبة فى سنة ثانية والليسانس يعرفون ويفهمون . يابختهم . .

وهمس جارى بأن الذى أمامنا هو طالب فى الليسانس واسمه زكريا إبراهيم . وربت على كتفه وقال له : طبعا أنت فاهم . .

ـ ما أقدرش أقول كده . .

ـ يعنى مش فاهم؟

ـ بأحاول أفهم . .

وكان فى ذلك الرد الكفاية . فإذا كان تلامذته من طلبة الليسانس لا يفهمون ما يقول . ولا كل ما قال . فلا لوم علينا إذا هززنا رءوسنا وقلنا : مش فاهمين . .

ونظرت إلى يد ناعمة على كتفى . والتفت أرى زميلة تقول : هيه الفلسفة كلها بالشكل ده . . يادى المصيبة!

ولما انتهى عبدالرحمن بدوى من عرض رسالة الدكتوراه عن(الزمان) . صفقنا واسترحنا إلى هذه النهاية . وجاءت ملاحظات رئيس اللجنة د . حسن إبراهيم شكلية بحتة . ولم يسكت عبدالرحمن بدوى . وإنما رد عليها . ويبدو أنه كان مقنعا . أو لابد أن يكون كذلك لأن د . حسن إبراهيم لا علاقة له بالفلسفة ، وخصوصا هذه الفلسفة الجديدة ولكن كان لابد أن يقول وأن يتكلم . ويترك الميدان لغيره من المتخصصين . .

وتحدث المستشرق الألمانى باول كراوس . وكان واضحا . وأبدى ملاحظات وجيهة ولكنها شكلية . وليس من المناسب أن أذكرها هنا فهى فلسفية منهجية عويصة . وعلى الرغم من أن عبدالرحمن بدوى حاول أن يفندها بشدة . ولكن

باول كراوس على حق. ولم يسترح د. طه حسين إلى هذه الحدة والجفاف والخشونة فى طريقة عبدالرحمن بدوى فى الرد على المستشرق الألمانى. ولكن هذه هى أخلاقيات بدوى: جاف خشن غليظ غير مجامل لأنه غير اجتماعى وليس مضطرا إلى ذلك.. بل إنه كان يسخر من المستشرق الألمانى كما يسخر من د. حسن إبراهيم عميد الكلية.. يكاد يكون قد قال لكل منهما: إنه لا يفهم الفلسفة عموما وهذه الفلسفة خصوصا.. ثم هذا الاجتهاد أو الإبداع الذى يقدمه الآن!

ـ نظرت إلى جارى الذى حملق فى وجهى وقال: عاوز أعيط..

ـ ليه؟

ـ بذمتك ده سؤال.. إيه اللى وقعنا فى المصيبة السودا اللى اسمها الفلسفة.. يا خبر أسود.. هوه أنا حمار.. مش فاهم ولا كلمة.. ولا كلنا حمير.. قل لى قبل ما أنهق وأخلى العالم كله يضحك علينا..

ـ يا أخى كلام صعب.. اصبر.. إحنا لسه فى سنة أولى!

ـ والنبى تاخذنى قلمين.. أو اضربنى بالجزمة.. أنا مالى.. والله حارجع كلية الحقوق..

وكان هو الطالب الوحيد الذى شق الصفوف وخرج وهو يدمدم بما لم نسمع!

٣

هذه هى الساعة.. هذه هى نقطة التحول.. هذا هو برميل البارود يتدحرج نحو النار..

البارود: على عبدالواحد وافى وأعدى أعداء عبدالرحمن بدوى.

والنار طبعا: بدوى

لقد كانت تساؤلات على عبدالواحد وافى مفهومة . وقال :

إن هناك تناقضا . . وإن هناك خطأ فى الترجمة . .

وبسرعة استنكر بدوى وقال : عاوز أمثلة . .

قال له : هات صفحة كذا وكذا وهات العبارة التى نقلتها من مدام جيشون . .

قال بدوى : جواشون!

رد على عبدالواحد : مدام جيشون .

ـ جواشون

ـ جيشون . مش مهم أنت تقول كذا . والحقيقة أنها كذا وتقول كذا وترجمتها كذا . . .

وكان ذلك أكثر مما يحتمل عبدالرحمن بدوى وقال : إن هذا التعبير نقلته مدام جواشون من النص الألمانى . وفى اللغة الألمانية كذا . . وهذا التعبير أخذه الفيلسوف الألمانى هيدجر عن الفيلسوف الإغريقى بارمنيدز . ولذلك هناك فرق بين الوجود والموجود . وبين (وجود هذا) و(وجود ذاك) . . والموجود لذاته والموجود بذاته!

ودخل بنا عبدالرحمن بدوى فى أحراش الفلسفة وغاباتها وظلماتها واستدرجنا وراءه كالعميان وكان د . وافى يفلفص وبدوى مُصر على إغراقه . . كما يفعل التمساح عندما يمسك بغزالة أوبقرة أنه ينزل بها تحت الماء حتى تختنق . . ثم يرفعها وينزل بها تحت الماء حتى تموت . . وكاد د . وافى أن يموت بين أنياب بدوى . وكان لابد أن يتدخل طه حسين . . وقال وكان كلامه تاجا على رأس عبدالرحمن بدوى . قال له : أنت أول فيلسوف مصرى . .

ولا يهم تفسير هذا الحكم . المهم أنه حكم . وأن عميد الأدب قد توج علينا فيلسوفا مصريا . هو أول فيلسوف مصرى . وإن كان قد سبقه إلى هذه الفلسفة الفيلسوف اليونانى الصعيدى السكندرى أفلوطين .

ولكن عبدالرحمن بدوى هو أول فيلسوفُ مصرى . . خلاص!

٤

وتركنا موضوع الرسالة الصعب جدا . . وتناولنا الجانب الواضح من المناقشة : كراهية د . وافى لعبدالرحمن بدوى . كراهية شديدة ولكن بدوى أحرجه . ثم ما علاقة علم الاجتماع بالفلسفة الحديثة . . ما كان يجب أن يجىء لا حسن إبراهيم ولا على عبدالواحد وافى . . كان يكفى طه حسين ـ هكذا يقول الطلبة ويتساءلون لو كنت مكان بدوى وأغاظنى د . وافى هل كان فى استطاعتك أن تتحمل هذه الإهانة؟!

السؤال مش كده . . السؤال هو : كيف تحمل د . وافى استخفاف بدوى به وإحراجه والتأكيد له ولنا أنه لا يعرف الفلسفة الوجودية وأنه لايعرف ينطق اسم الباحثة الفرنسية التى اسمها جواشون ويصر على إنها جيشون؟!

٥

ومضى الوقت بسرعة . وعادت اللجنة لتمنح عبدالرحمن بدوى درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى . وكان ذلك فوق احتمال الطلبة الذين صفروا ودقوا المدرج بأيديهم والأرض بأرجلهم . . وتصفيق . وزغاريد من الطالبات ، وتقدم الطلبة وحملوا د . عبدالرحمن بدوى على الأكتاف . . هيه . . هيه . . يعيش . . يسقط يا كايدهم هيه . . هيه . . ومزيد من الزغاريد!

وهى نهاية غير فلسفية وغير علمية وليس لها أى مبرر ما دام الطلبة لم يفهموا ما الذى قال ولماذا أخذ الدكتوراه بتفوق؟ . . وإذا كان طه حسين قد نصبه ملكا على الفلسفة فلأسباب عنده وليس عند اللجنة ولا عند الحاضرين . المهم أنه أول فيلسوف مصرى . . وأننا سعداء به كأستاذ لنا ، لم نبلغ قدره من العلم ولكنه أستاذنا . أما الطلبة الباقون فقد رأوا ظلما وكراهية . . وقبل ذلك قد وقعوا أسرى ولأسطورة عبد الرحمن بدوى الذى لم يجدوا له مثيلا بين الأساتذة :

جاد . صارم . عالم . قوى لا يهمه أحد . . إنه فوق . . فوق مستوى الأساتذة!

وعند خروجنا من الكلية: صرخت طالبة وهى تقول ولم تعبأ بالضحك والهيصة التى أعقبت عبارتها: أنا مستعدة أجوزه دلوقت حالا والله العظيم . .

وواحدة أخرى قالت: وأنا الزوجة الثانية للدكتور عبد الرحمن بدوى الذى عاد إلى بيته ماشيا على قدميه كأن شيئا لم يحدث . . فلا وضع طه حسين تاجا على رأسه ولا أجلسه على عرش الفلسفة!!

عندما وقع الشاى على فستان مديحة يسرى!

لا يزال عبدالرحمن بدوى: الرجل الأسطورة أو الأسطورة. فنحن لا نعرف عنه كثيرا. يجىء بسرعة. يخرج بسرعة. ويختفى. كل يوم. ولم نعد نتهيأ لاستقباله بالحفاوة أو النظر إليه أو إذا كنا جالسين أن نقف له أو كنا مجتمعين أن نفسح له الطريق. إنه أسطورة تعيش بيننا. ونحن لا نشكل له أى شىء يستحق النظر أو الاستماع. اعتدنا على ذلك وعلى أنه مختلف عن الأساتذة، ولكن ما هو الخلاف بينهم. لقد أجلنا الإجابة عن هذا السؤال. لأن عندنا ما يشغلنا من الألغاز فى الفلسفة والمنطق والميتافيزيقا والفلسفة الوجودية والصوفية ومعضلات علم النفس.

وإذا كان الرجل هو الأسلوب.. أى أن الإنسان يساوى أو يعادل ما يكتبه أو ما يفكر فيه. فعبدالرحمن بدوى هو ما يكتبه أو هو محاضراته.. أما محاضراته فأصبحنا نعرفها: مادتها وطريقة عرضها ومناقشتها أحيانا، أما كتبه فمختلفة تماما. الكتب مطبوعة على ورق بنفسجى كلها. وهو اختار اللون البنفسجى لأنه اللون المفضل عند فيلسوف الحضارة الألمانى اشبنجلر. وقد أصدر د. بدوى كتابا رائعا عن هذا الفيلسوف. وهو أول من قدمه لنا.

وقدمه فى زفة من التعبيرات الجديدة التى ابتدعها هو ولم تكن معروفة عندنا.. وفى بيت د. بدوى غرفة خاصة محكمة الإغلاق لونها بنفسجى ويتصدرها تمثال للفيلسوف اشبنجلر رأيتها مرة واحدة. وقد وجد صعوبة فى فتحها. بما يدل على

أنها لا تفتح إلا فى مناسبات قليلة أو نادرة . وربما كنت أنا الطالب الوحيد الذى دخل هذه الغرفة وقد سألته لماذا يا دكتور؟ سكت فأعدت السؤال : لماذا اللون ولماذا هى مغلقة طول الوقت؟ .

ـ اللون البنفسجى فى رأى اشبنجلر هو آخر الألوان التى اهتدت إليه الحضارة الغربية . . فقد عرفت كل الألون . . ولكن هذا اللون معقد ومركب فقد استطاعت الحضارة الغربية هى وحدها أن تضعه . .

ـ ولماذا هى مغلقة؟

ـ لقد اعتدت أن أجلس فيها وحدى . .

يجلس فيها وحده؟ إنها سجن كئيب . . فهى لا تطل لا على الشارع ولا على حديقة ولا على البحر . . إنها غرفة تعذيب الإنسان لنفسه . . سجن انفرادى . . ولكن الغرفة ليست كذلك بالنسبة لرجل فرض الحبس الانفرادى على نفسه . . فى البيت . . وفى المكتبة وحتى فى الكلية . . فهو يجىء وحده ومن النادر أن يتكلم مع زملائه من الأساتذة الذين يصغرهم فى السن . ولأنه كثير القراءة غزير الكتابة فهو وحده، . . وفى إحدى المرات دخل غرفة الأساتذة وخرج عدة مرات ولم يقل لأحد : صباح الخير . . . أو السلام عليكم . . . وإنما يراهم وكأنه لا يراهم . ويحرك شفتيه كأنه يحييهم وهو لا يقول شيئا لأحد . . فاعترضه د . عبدالعزيز عزت أستاذ علم الاجتماع : إيه يا أخينا لاصباح الخير ولا مساء الخير . . إيه أنت يا أستاذ!

وكأن عبدالعزيز عزت مثل الفيلسوف سقراط . فسقراط عندما كان أحد من تلامذته يقول له : صباح الخير يا أستاذ . .

يرد بسرعة : قل لى ما هو الخير . . وهل الخير لا يقال إلا صباحا .

وما علاقة الصباح بالخير . وهل إذا قيل صباحا يقال أيضا مساء وله نفس المعنى . . . وأنت عندما تقول ذلك : هل تتمنى لى أن يكون الصباح خيرا أو هو بالفعل كذلك . . كلمنى . . . اشرح لى فلنبدأ بمعنى الخير ومعنى الشر . . وهل من الضرورى أن يتلازم الخير والشر كما يتلازم الليل والنهار . . فلو فرضنا أن وحد

ولد ومات بالنهار، هل يموت وهو لا يعرف أن هناك ليلا . . وإذا ولد ومات ليلا، فهل يموت وهو لا يعرف أن ليس هناك نهار . . قل لى!

وكما ترى أنها: مشكلة أن نقول لسقراط صباح الخير وألا نقول . . فهناك دائما مشكلة وهناك دائما رغبة أكيدة فى الحل الذى لا يجىء إلا عن طريق السؤال . ومن لا يسأل لا يعرف . .

أما د . بدوى فليس سقراط ولا من تلامذة سقراط . ولذلك : لا يرد!

كأن السائل لم يسأل . أو كأن ليس موجودا . . لأن (وجود) عبدالرحمن بدوى قد ابتلع كل أنواع الوجود : الأساتذة والمقاعد الجالسين عليها . . وكذلك الطلبة داخلا خارجا!

ولم يكن من الصعب على الأساتذة أن يقولوا : مغرور . . مجنون . . شاذ . . ونحن الطلبة كنا نقول : أستاذ . . عظيم فريد . . ومن الصعب أن يكون أستاذا وعالما وأن يكون خفيف الدم ابن نكتة!

* * *

وعندما اقتربنا منه أكثر حاول أن يكون ظريفا ـ أى إنسانا ظريفا . قال هذه النكتة : إن الفيلسوف اليونانى ذيوجانس اللائرسى (ديوجين) وهو الذى كان يمسك مصباحا مضيئا فى عز النهار يبحث عن إنسان . . لأنه لم يجد إنسانا لا فى ضوء الشمس ولا فى ضوء القمر والمصباح معا . . هاها . . .

هو الذى يضحك . ويقال إن الإسكندر الأكبر راح يبحث عنه فوجده فى صندوق زبالة واقترب منه فقال له ديوجين : إنك تحجب عنى الشمس . . . هاها

د . بدوى هو الذى يضحك . .

ونكتة ثالثة : إن فيلسوفا يونانيا وجدوه يدور حول نفسه مرة يمينا ومرة شمالا . . مرة يتمرغ على الأرض . . ومرة على شاطئ البحر . . ولما سألوه : لماذا؟ راح يدور ويلف . ولما ألحوا عليه قال : شىء عجيب أنا أريد أن أرى قفاى! هاها . . هاها . .

د. بدوى هو الذى يضحك!

وآخر نكتة قالها لنا ونحن فى رحلة معه إلى القناطر الخيرية. . فقد كانت على أيامنا القناطر الخيرية هى الساحل الشمالى. . هى القرى السياحية. . هى غابة بولونيا فى باريس. . ذهبنا إلى القناطر الخيرية. وفى الطريق إليها فى النيل جلس د. بدوى على سطح المركب وجلست إلى جواره إحدى الزميلات وكان الهواء يدفع شعرها إلى وجه د. بدوى. وكان وكنا فى ذهول. . الزميلة ترفع شعرها بعيدا ولكنه بدوى لا يبتعد وإنما يقترب لتسدل عليه خصلة الشعر الذى وصفها عبدالحليم حافظ. . الشعر الحرير الذى يطير. . ووصفه نزار قبانى بأنه الشعر الغجرى. . وكأن هذا الشعر يرفرف فوق تمثال من الحجر الصوان. وفى هذا الجو الرومانسى قال لنا نكتة: إنه كان يجلس فى جروبى. الذى لانعرفه ولاندرى أين هو. . ولا كيف ندخله لو أتيحت لنا فرصة. . وفى جروبى. . وفى حديقة جروبى شارع قصر النيل وليس جروبى فى ميدان سليمان باشا. . ويدخل بدوى فى تفاصيل ومقارنات بين زبائن هذا المحل وزبائن المحل الآخر. . ففى حروبى قصر النيل فى الحديقة يلتقى بمنتهى السعادة مع أ.ك.م. اختصار للمخرج أحمد كامل مرسى. . الذى لانعرفه أيضا. والذى لم يشأ. د. بدوى أن يقول لنا من هو. . فهو قد افترض أننا نعرفه. . أنا شخصيًا لا أعرف أى فنان فأنا لم أدخل السينما إلا بعد أن تخرجت فى الجامعة. . ولذلك عندما حدثنى عن مديحة يسرى وعن لولا صدقى. . لم أفهم. . وإنما هى أسماء تلقى منه احتراما وسعادة وهو ينطقها فى الأول والآخر. . وإنه قال. . وإنها قالت. وإن أ.ك.م. اعترض. . هاها. .

هو الذى قال لمديحة يسرى هاها. . إن فنجان الشاى سوف يقع عليها. . هاها. وبالفعل وقع على فستانها. وقالت له: أنت بتقرأ الكف. . أنت بتاع سحر مش بتاع فلسفة. . هاها. .

ولكن د. بدوى يرى أن هذه قضية فلسفية. فهو لم يقرأ لها الفنجان ولا هو ساحر. وإنما لأسباب بسيطة جدا واعتدل فى جلسته ليشرح لنا بالضبط ...

حدث . . فالأستاذ أ . ك . م . إذا تكلم تحرك . . وإذا تحرك هز الترابيزة . وإذا تكرر ذلك فإن الفنجان يتحرك أيضا . . ولما كانت الترابيزة لها سيقان ثلاث وإحداها أطول من الآخرى فهى تميل ناحية مديحة يسرى . . ولابد أنه فى نوبة من نوبات الحماس الشديد سوف يخبط الترابيزة وتكون الخبطة أكبر من قدرة الترابيزة والفنجان على احتمالها ومقاومتها . . فطبيعى جدا أن يقفز الفنجان فى حجر مديحة يسرى . وهذا ما حدث . .

حدث ولكن لم يتنبه أحد إلى ذلك . هو توقع وانتظر ليتأكد إن كان تخمينه فى محله . وهذا هو أحد عيوب الفلسفة . . فالذى يدرسها يتأمل ويرصد . ولا ينبه ولا يصلح ! هاها . . هاها . . إنه يحلل العطش ولا يقدم قطرة ماء يحلل الجوع ولا يقدم كسرة خبز !

د . بدوى هو الذى يضحك أيضًا !

* * *

أصبح د . بدوى عندما يرانا يتوقف . ويبتسم . إنه يريد أن يقول أو يريدنا أن نقول . وكنا نحن الذين نقول . ولا أتذكر الآن ماذا كنا نقول وأغلب الظن أننا نستوضح ما قاله بالأمس . نوهمه أننا قد قرأنا وفكرنا واستعصى علينا الفهم . وكان يبتسم ويمضى . وفى المحاضرة يوضح لنا ما سألنا عنه . .

أعود إلى أن الإنسان هو أسلوبه . وكانت كتب د . بدوى أسلوبا خاصا . فهى متوسطة الحجم وورقها بنفسجى . .

وكانت كتب العقاد والحكيم من ورق أبيض لين ، وكانت حروفها كبيرة . فالآن هذا هو الورق السائد والأرخص . وكانت حروفها كبيرة لكى تكون واضحة . أو لأن هذه الكتب قصيرة ويريد المؤلف أن يملأ بها اليدين . .

وكانت كتب زكى نجيب محمود من ورق أبيض لين وحروفها متوسطة لأنها مطبوعة فى دار (لجنة التأليف والترجمة والنشر) لصاحبها الأستاذ الكبير أحمد أمين . .

أما كتب لطفى السيد باشا فى الفلسفة فكان ورقها كبيرا لامعا.
وكانت حروفها صغيرة وهى مطبوعة عادة فى المطبعة الأميرية . .

وكتب طه حسين من كل لون وكل حجم وليس من اختياره ورقها وحجمها ولكن اختيار الناشرين. وكان طه حسين أكثر الجميع توزيع وانتشارا. وكان أرقهم وألطفهم . .

فطه حسين هو الأديب . .
والحكيم هو الفنان . .
والعقاد هو المفكر . .
وبدوى هو الأستاذ . .
ولطفى السيد هو المترجم . .
وزكى نجيب محمود هو الشارح السهل العبارة الجميلة . .

وأؤكد مرة أخرى: أن د. بدوى لم يطلب من واحد منا أن يشترى كتابا له أو حتى يقرأه . .

بينما أستاذنا د. على عبدالواحد وافى كان يشير إلى كتبه. ويطلب إلينا أن نقرأها. وكان د. وافى يذكر اسم أولاده وبناته فى هوامش كتبه عندما يضرب الأمثال فى اللغة أو المجتمع. ويقول: ابنتى فلانة وهى صغيرة كذا . . وإذا تقدم أحد ليخطب ابنتى فلانة لابد أن أعرف من يكون ومن أهله . . وما هى طبقته وكيف يستطيع وكيف لايستطيع . . إنه يحاول أن يلغى المسافة بينه وبين تلامذته فيجعلهم أفرادا فى أسرته ليشرح. وكانت كتبه مدرسية سهلة. وكان يتحدث كثيرا عن دراساته فى باريس وعن أساتذته وسر تمكنه من اللغة الفرنسية . . ولكن عبدالرحمن بدوى لم يقل لنا: إنه يتكلم الفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية والفارسية وأنه قد ترجم منها جميعا. وأنه لايزال متمكنا فى اللاتينية واليونانية. ولم يذكر لنا أستاذا واحدا من أساتذته فى الخارج ولا كيف كانت حياته فى باريس وبرلين وروما ومدريد . . فهو ليس حريصا على أن يحدثك عن حياته . . إما لأنه لم تكن له حياة فى المكتبات ولا دور النشر . . وإما لأنه قد فرض العزلة ووضع نظاما حديديا حول حياته الخاصة. واختار بإصرار شديد أن تكون كتبه هى بيته وهى حياته . .

وكان الأستاذ العقاد هو أول من حدثنا عن الفلاسفة الألمان نيتشة وشوبنهور وهيجل. وكان كلامه موجزا واضحا مقنعا.. ولكن ما يكتبه عبدالرحمن بدوى: علم وشمول وفهم وأسلوب وتعبيرات جديدة وقوة وسيطرة كاملة على أفكاره من أولها لآخرها..

لقد كان من الممكن أن يموت عبدالرحمن بدوى فى ذلك اليوم. من سنة ١٩٤٥. فقد وقف طالب صعيدى اسمه عبدالله حسن يطلب الكلمة. وأشار د. بدوى له أن يتكلم فقال: يا أستاذ أنا عاوز أسأل جنابك عن الناس دول..

ـ مين؟

ـ الفلاسفة من أفلاطون لحد نيتشة.. يعنى واجعين دماغهم ودماغنا.. ليه.. معذبين أنفسهم ومعذبنا معاهم.. ليه مش عايش زى بقية خلق الله.. إزاى الواحد يصحو يفكر، ويمشى يفكر، وينام يفكر لاهو استراح ولا زوجته ولا عياله ومن ويومها والناس معذبة تجرى وراهم عشان تفهم.. ومش فاهمين حاجة..

واندهش عبدالرحمن بدوى وسأله: وأنت مش فاهم حاجة؟!

ـ والله يا سعادة البيه ما أنى فاهم حاجة.. مش بس أنا.. كل دول.. كل التلامذة دول: طور الله فى برسيمه!

يتساند عبدالرحمن بدوى على المنصة فيتساقط من الضحك. وكاد ينسى أوراقه ويخرج ولكنه تماسك ولم يفقد وعيه وللم أوراقه وخرج.. هاها.. هاها..

والحقيقة أننا ضحكنا أيضا..

وزميلنا هذا لم يجلس وإنما التفت إلى زملائه وقال: تجدروا تجولوا لى علمتكم إيه الفلسفة.. ياجبناء.. يا جهلة يا أولاد أفلاطون يا مطاريد نيتشة يا ضحايا عبدالرحمن ولد بدوى.. هاها.. هاها

هذه بضاعتنا ردت إلينا!

ولا عندنا فكرة عن الذى يجرى فى الدنيا . . لا ضرب اليابان بالقنابل الذرية . . ولا استسلام إمبراطور اليابان ولا شنق موسولينى وانتحار هتلر ولا قائد الغواصات الذى صار بدلا من هتلر ، ولا نجاح الذين (بلا قمصان) فى الأرجنتين واختارو إخوان بيرون رئيسا للأرجنتين ولا أن الذين ماتوا فى الحرب العالمية الثانية بلغوا ٥٥ مليونا . .

وكلها عبارات وحكايات تتكرر ليلا ونهارا . وأكذب عليك لو قلت لك : إننى كنت هناك . . أو إننى شاهد على هذا العصر . . فأنا وغيرى من طلبة الفلسفة غارقون فى المشاكل والمعضلات الفلسفية وما بعد الطبيعة . . كأنها مشاكل حقيقية . . كأنها أكل وشرب ومواصلات وسكن . . فقد اخترنا أن نعيش فى بيوت من نسيج العنكبوت ، بيوت أنيقة جميلة كل يوم نبنيها ونهدمها وسعداء بهذه القصور الرملية الذهبية التى نقيمها على شاطئ محيط المعرفة اللانهائية . ولم نسأل أنفسنا : وما الفائدة هل أضفنا؟ . . هل أخذنا . ؟ . ولا حاجة . . هل نحن حشاشون؟ أبدا . . هل نحن مصابون بالحمى وهذا الذى نقول ونسمع هلوسة عقلية . . أو هلوسة فى غياب العقل . .

ليست هذه هى القضية . . نحن ندرس الفلسفة . . نحن واقعون فى جاذبية أستاذنا عبدالرحمن بدوى . بس .

وعندما نجلس معا ألاحظ أن كل قسم من أقسام الكلية له شيخ يدور حوله الطلبة ، ولابد لنا من شيخ . والحكمة الصوفية تقول : من لا شيخ له فشيخه

الشـيطان. ولكن نحن لنا شـيخ هو الشـيطان. . فكثـيرون يلعنون الفـلاسـفـة ودارسيها. أى أننا وشيخنا من الشياطين. فليكن. .

فطلبة قسم الجغرافيا يتحدثون عن محمد عوض محمد وسيلمان حزين وعباس عمار. .

وطلبة قسم التاريخ يتحدثون عن شفيق غربال وحسن إبراهيم حسن والجبرتى وابن إياس. .

وطلبة اللغة الإنجليزية يتحدثون عن الشاعر تيللر ذلك الشاب الوسيم الذى يذهبون إلى الفرجة عليه وهو يشرب النبيذ فى نادى(أنجلو إجيبشيان) فى الزمالك. . وهو نادى الضباط الآن. وكنت أذهب وأرى واحدا قد تمدد بالقميص والبنطلون وشعره منكوش وحليوة ويشرب النبيذ. . هم الذين يقولون النبيذ. ولا أعرف ما هو. ولم أسأل عن هذا الذى يشربه وما علاقة ذلك بالشعر.

وفى هذا النادى جاء المستشرق الإسرائيلى أبا إيبان ووزير الخارجية العتيد ليرثى أستاذه المستشرق الإنجليزى نيكلسون، وأبا إيبان هو الذى ترجم إلى الفرنسية رواية توفيق الحكيم(يوميات نائب فى الأرياف) وجعل عنوانها (متاهة العدالة). .

وطلبة قسم اللغة الفرنسية يتحدثون عن زيارة الأديب الكبير أندريه جيد وعن غراميات جمال عبدالرحيم، الذى صار موسيقاراً، بفتاة هولندية جميلة اسمها (ليلى كحيل). وعن غراميات طلبة قسم الفلسفة: مصطفى بسويف بفاطمة موسى، كلاهما صار أستاذا. . وبدرالديب بمن صارت زوجته بعد ذلك. . والزميلة شفيقة التى صارت زوجة الشاعر عبدالرحمن الخميسى والزميلة فاطمة التى صارت زوجة الناقد جليل البندارى. . ولها ابنة زميلة هى أهداف البندارى. . وإحدى زميلاتنا صارت زوجة لأستاذنا شوقى ضيف. . وشائعات عن علاقة حب بين زميلة وعبدالرحمن بدوى، وحكاية زميلة لبنانية وعميد الكلية. .

وطلبة اللغة العربية يتحدثون عن طه حسين والشيخ أمين الخولى والمستشرق

الألمانى ليتمان والمستشرق الفرنسى لوى ماسنيون الذى أصدر كتابا عن (عذاب الحلاج) والأستاذ أحمد أمين . .

وطلبة الدراسات الشرقية يتحدثون عن عبقرية فؤاد حسنين الذى يعرف ١٧ لغة من بينها العبرية والآرامية والسنسكرية والأمهرية والفارسية . وقد تعلم فى جامعات ألمانيا وزوجته ألمانية قررت أن تبقى فى ألمانيا . لماذا؟ لم نتجاوز هذا السؤال فعندنا قصص كثيرة عن هؤلاء المشايخ الذين يدور الطلبة حولهم ليلا ونهارا وفى الكلية وفى البيت . لدرجة أننى وجدتنى أحدث أمى عن هذه الحكايات . وهى لا تستوعب . ولغرابة ما كنت أقول فإننى اعتدت أن أغير القصص وأحكى قصصا مفهومة! فلم نستطع أن نفلت من جاذبية الكبار .

ولو عرف الأساتذة الكبار ماذا يدور فى رءوسنا ما ابتعدوا . فهم أحوج إلينا . إنهم لا يعرفون ماذا نقول عنهم . ولا ما رأينا فى أسلوبهم فى التفكير وفى المحاضرات . ولا ملابسهم ولا طريقتهم فى السير ولا معرفتهم بمدى رغبة الطلبة فى أن يتعلموا منهم . . فالطلبة يستحقون اهتماما أكبر . .

كيف أن الأستاذ د . محمد عوض محمد أستاذ أساتذة الجغرافيا يعطى أرقاما لأبحاث جيدة ٢ ونصف درجة أو ٢ وربع درجة . . وأحسن الطلبة يحصل على أربع درجات ونصف درجة . ثم لا ينجح أحد!!

كيف يظل طالب الماجستير (م . .) يرد على أسئلة محمد عوض محمد وسليمان حزين وعباس عمار حتى يغمى عليه . . ولا يفكر أحد فى أن يقدم له كوب ماء أو يرفعون الجلسة حتى يأخذ الطالب نَفَسه . ما هذا العلم وما هذه المعاملة القاسية للطلبة وما هى متعة التعذيب عند هؤلاء الأساتذة!

ولما ظهر الإرهاق الشديد على الطالب نهض أحد الحاضرين ليأتى له كوبا من الماء . ولما قدمه للطالب رفع د . محمد عوض محمد رأسه بازدراء وقرف وضيق وقال : مش دلوقت بعد السؤال ده؟!

وهنا لم يطق والد الطالب هذه القسوة ونهض واقفا وقال: تسمح لى يا دكتور أروح أجيب له حانوتى!

- وصفق الحاضرون..

- يلعن أبو الجغرافيا!

- الجغرافيا اللى ملعون أبوها برضه؟!

- يا راجل قل كلاما غير هذا..

- الله يلعن أبو اللى أنت شايفهم.. هكذا كانوا يقولون!

* * *

ولم نكن فى قسم الفلسفة أحسن حالا.. فأستاذنا د. على عبدالواحد وافى قال لنا: إنه قد تعلم فى فرنسا على الحرية.. حرية الرأى والنقد. وإنه يسعده جدا أن يكون أحد تلامذته أحسن منه وأعظم.. وأن يرى رأيا آخر. وأن يقول تلامذته. وإذا قالوا فهم أول من يشد على أيديهم بالتهنئة.. فكروا.. قولوا.. انقدوا.. ولا تكونوا دراويش لأى أحد«هجاص» يقصد عبد الرحمن بدوى.. فلم تتقدم الأمم إلا بالحرية.. حرية أن نقول: لا.. هذه الحرية وحدها هى التى تجعلك وتجعلنا نأتى كل يوم بجديد.. وأنا فى الانتظار!

وكان قد طلب إلينا أن نكتب بحثا عن (اللغة والمجتمع). وله كتاب بهذا الاسم..

وأمامنا طريقان: إما أن نحاول أن نفهم كتابه هو وأن نعرضه على طريقتنا.. وإما أن نعتمد على هذا الكتاب ونحاول من مصادر أخرى للمعلومات أن نهتدى إلى تفسيرات جديدة..

.. إلا واحدا هو الزميل مصطفى فودة - ولا أعرف أين هو الآن - فقد عكف على أحد كتب د. وافى أستاذ علم الاجتماع. وقرأ الكتاب وقرأه. ووصل إلى نتيجة جاهر بها. وهى أن هذا الكتاب منقول من أوله لآخره من كتاب لعالم فرنسى. وأن د. وافى لا فضل له على الإطلاق إلا النقل والتلخيص. وبس!

وبخطه الجميل كتب البحث على ورق صقيل . وقام بتجليد البحث . وقدمه فى غاية الأناقة .

ومضى أسبوع وجاء د. وافى ووزع أبحاثنا علينا مع ملاحظات . وقال لى : أنت يجب إن شاء الله أن تقدم الماجستير فى هذا الموضوع . فسوف أكون سعيداً عندما أشرف على رسالتك .

ـ شكراً يا أستاذ . .

وقال لزميل آخر : وأنت كمان يمكنك أن تقدم رسالة الماجستير فى هذا الموضوع . بس أنا عاوزك تركز . . وتجعل أحكامك معتدلة لا تكن متطرفا . .

أما البحث الأنيق الفخم الذى كتبه الزميل مصطفى فوده فقد أصر د. وافى على أن يقرأ علينا تعليقه على هذا البحث . ووقف ثم جلس فى مقعده . . وفتح زراير الصديرى . . وظهر الكلسون الطويل من تحت البنطلون . . وكان د. وافى رجلا قصيرا دقيق الملامح عالى الصوت مرسوم الملامح . . حاجبان وشارب ورأس صغير وهز رأسه وقرأ موجها كلامه للزميل : أنت قرأت كتابى فأسأت فهمه ، واختصرته فشوهته ، وبحثك ضعيف جداً : صفر !

وخرج من القاعة . ونحن لم نجد ما نقوله . ولكن الذى قال وأطال هو صاحب البحث : الراجل ده مش قال لنا : أحب عيشة الحرية . . وأنه تعلم على يد ليفى بريل ودركايم . . مش هو اللى قال . . أنا قلت إيه . . أنا قلت إنه سرق الكتاب من كتب أخرى . . وتعبت حتى أعدت كل شىء لأصحابه . . فلا فضل له فى أى شىء . . غلطت أنا؟ يبقى حكاية الحرية اللى بيقول عليها . . ده بكش فى بكش!

ولم نقل شيئا ولكن أحد الزملاء قال : أنا عندى حل . . الدكتور دايما يتكلم عن ابنته . . هيه اسمها إيه . . موجود اسمها فى الكتاب . . تعرف أحسن حل أنك تروح تخطبها . . وأنت رجل غنى . . والله العظيم ساعتها حيديك أعلى نمرة . . صدقنى . . تعرف حيقول إيه : قرأت كتابى فأحسنت فهمه ، ولخصته فشوقتنا إليه . وبحثك تحفة فلسفية . . عشرة على عشرة!

وسكت ليستأنف كلامه هكذا:

ـ حلو كدة.. وبعدين خلاص..

ـ خلاص إيه؟

ـ خلاص تطلقها!!

ـ هاها.. هاها

* * *

عرض علينا د. عبد الرحمن بدوى عدة موضوعات لكى نكتب فيها بعضها من المقرر.. وبعضها من القراءات الحرة. أى إما أن نكتب فى موضوعات ندرسها ولنا فيها رأى آخر.. وإما أن نختار أى موضوع. وظهر بوضوح مدى تفوقى فى الفلسفة واستعدادى للمزيد منها. وأنه قد تحدد مستقبلى نهائيا: هو أن أستمر فى دراسة الفلسفة والتفرغ لها. لكى أكون ماذا؟ لم أعرف.

ولكن لابد من المضى فى هذا الملكوت الفكرى..

ونحن نعلم مقدما أن د. بدوى ليس سخيا فى تقديره ولا رقيقا فى نقده. ولا يعجبه العجب. ولا يجد حرجا فى أن يعلق بكلماته الشهيرة: تافه.. جاهل.. حقير..

ومن الغريب أنها ليست صفات لأناس. وإنما هى صفات للفكر نفسه. للبحث.. بما معناه: أن صاحب البحث جاهل وحقير.. جاهل؟ ممكن. ولكن حقير لماذا؟ ما وجه الحقارة لمن حاول أن يفهم ولم يبلغ المستوى الذى يريده د. بدوى. هو حقير وخلاص!

وبعد أسبوعين أعاد إلينا أبحاثنا.. لم يوزعها علينا.. وإنما تركها على المنصة وذهبنا نقلب فى أبحاثنا لنقرأ ماذا قال وما رأيه وما نتيجة كل ذلك عند نهاية العام. أكثر الأبحاث مكتوب عليها: ضعيف.. ضعيف جداً.. كان يجب أن تتعلم مبادئ النحو قبل مبادئ الفكر.. لماذا لم تذهب إلى كلية أخرى؟! إن كان هذا

أقصى ما عندك، فليس عندك شيء . . تمخض (الجمل) فولد فأرا . . من الصعب أن أقرأ أكثر من السطور الأولى . . من هو الحمار الذى كتب لك هذا البحث . .

يعنى كلها تعبيرات قاسية . ولكن لم نعرف كم درجة يستحقها أى واحد منا . . وهذا هو الأهم . .

ولكن أحد الزملاء لم يفهم تعليقا على بحثه . ووجد حرجا شديدا فى أن يسأل د . بدوى . العبارة تقول : «هذه بضاعتنا ردت إلينا» .

وهى آية قرآنية كريمة . والمعنى أن الطالب قد أخذ معلوماته من مؤلفات عبدالرحمن بدوى ثم أعادها إليه . أى لا فضل له فى ذلك . أى أنه مجرد شيال لمعلومات د . بدوى . ولكن هل هو شيال ردىء . . هل نقل الأفكار دون أن يشوهها أو أن بعض الأفكار قد تكسرت على قلمه . . لم نفهم . .

وبعد أيام جاءنا الزميل (الشيال) وقال : استودعكم الله .

ـ إيه؟

ـ خلاص . سوف أعود إلى كلية الحقوق .

ـ ليه؟

ـ . . . .

وحكى لنا حكاية . فقد لاحظ والده أن حالته النفسية سيئة . وأنه قد صدم فى د . بدوى مع أنه كان من أشد المعجبين به . وأن والده لم يجد إلا حلا واحدا وهو أن يذهب لعبدالرحمن بدوى فى البيت . يدق الباب يخرج له الفيلسوف بالبيجاما . . البيجاما خطوطها باهتة . . قديمة أو هذا لونها وبالشبشب وشعره القليل منكوش . وعلى وجهه مزيد من القرف الإضافى ومخزون لا ينفد من التعالى قد استدعاه فورا لهذه المناسبة المفاجئة .

وتردد عبدالرحمن بدوى فى أن يدعوه . ولكن لأن الرجل محترم ووقور . ويقف وراءه سائق بملابس أنيقة . ووجد فى عينى الرجل إصرارا وتحدي .

دخل . الصالة غير مضاءة . ولم يحاول إضاءتها . وليس بها مقعد واحد . أوقفه بعض الوقت ودخل وأتى له بكرسى . وأشار إلى أن الكرسى مكسور ولن يتحمل جلوسه طويلا ، ولم يشأ والد الزميل أن يجلس . وسأله بدوى : فيه إيه؟

ـ ابنى .

ـ مين؟

ـ فكرى . .

ـ فكرى مين؟

ـ ابنى . .

ـ ماله؟

ـ إيه اللى أنت عملته فيه يا أستاذ . . الولد ده . .

ثم اتجه عبدالرحمن بدوى إلى داخل البيت عندما سمع زجاجا قد تكسر وتطاير ، فوالد الزميل فكرى عسكر قد سحب الباب وراءه بكل قوة!

* * *

وفى نادى الكلية يتجمع الطلبة من كليات أخرى ويتحدثون عن الذى فعله مشايخهم . فطلبة كلية العلوم يتحدثون عن على مصطفى مشرفة ، وطلبة كلية الطب يتحدثون عن على باشا إبراهيم ، وطلبة كلية الحقوق يتحدثون عن عبدالرازق السنهورى والشيخ عبدالوهاب خلاف . .

وكانت الزميلة أمينة الحفنى ، أخت د . رتيبة الحفنى ، طالبة فى كلية الهندسة . . وكانت لطيفة ومرحة وكانت تحكى لنا حكايات غريبة . من بين هذه الحكايات أن أحد الأساتذة أراد أن يشرح نظام الصرف الصحى وأنه رأى فى أمريكا وفى اليابان وأن له نظرية فى (السيفون) وأن لديه فكرة فى الاقتصاد فى الماء المستخدم فى (دورة المياه) . . وكان رجلا جادا . وضحك الطلبة . وقد جاء بنموذج «للكابينيه»

والسيفون . وجاء بعدد من السعاة يمسكونها . واتجه إلى الطلبة وأشار قائلا : أى واحد . . أية واحدة . .

ـ . . . .

ـ أى واحد يتفضل . .

ـ . . . .

ـ حاجة غريبة . اعملوا اللى بتعملوه فى البيت . . آمال بتعملوا إزاى . . وبعدين

ـ . . . .

ـ إذن مفيش غير حل واحد . . ولا حياء فى العلم . .

وبدأ يخلع الجاكتة واتجه إلى الحزام والبنطلون فصرخت الطالبات وتركن القاعة ومن وراءهن الطلبة . .

ويقال كلام كثير بعد ذلك . .

ـ يا أمينة هوه الجنون فى كلية الهندسة كمان؟!

ـ ليه؟

ـ إحنا كنا فاكرين أن الفلاسفة وعلماء الجغرافيا هم المجانين .

ـ لا . . أنا أقول لك حكايات أخرى . .

وقالت وضحكنا . . ولم نصدق . ولكنها لم تكن تكذب!

* * *

لابد أن د . بدوى قد لاحظ وجوما على وجوهنا . . فنحن فى غاية الأسى والحزن على ما حدث لزميلنا ووالده . . وقررنا قبل أن يبدأ فى المحاضرة أن نسأله لماذا . .

قال بدوى : إنه راجل مجنون . جاى يضربنى فى بيتى . .

ـ . . . .

ـ طبيعى جدا أن أطرده على الأقل . . إنه شىء حقير . .

ـ . . . .

ـ حقير إزاى يا أستاذ . .

ـ شىء حقير . .

ـ بل هو لا شىء . ولذلك لا يصح أن نصف اللاشىء بأنه حــقــيــر أو ليس حقيرا . . هاها

كأنه قال شيئا . وكانت صدمة لنا . فالحكم على هذا الرجل المحترم لا هو منطقى ولا هو فلسفى . .

هيه دى بقى الفلسفة؟!

مطلوب أن تفهم كلاما من دخان على صفحات من سحاب!!

كأننا (كوتشينة) فرقتها ووزعتها أصابع خفية . . ووضعت الولد مع الولد والبنت مع البنت . . ونحن لا ندرى . إننا انقسمنا على أنفسنا : وجوديين وشيوعيين . أو هكذا كنا نقول على أنفسنا . ولا أدعى أننى كنت أعرف الفرق بين الفلسفتين فى ذلك الوقت . كأننا قررنا أن ننتمى إلى مذهب فى الفلسفة وفى الفلسفة السياسية وأن نرجئ الأسباب إلى ما بعد . وكنا نقول عن أنفسنا إننا مختلفون . ومن مظاهر الاختلاف أننا لا نجلس معا . وأن نبادر بكلمة : لا . . قبل أن ندخل فى أية مناقشة . هكذا :

ـ هل من الضرورى أن نمارس حريتنا كاملة؟ . .

ـ لا توجد حرية كاملة . . أنت الذى تستطيع أن تجعلها كاملة وتجعلها ناقصة . أنت محكوم عليك بالحرية . فالحرية قدر .

ـ لا . . لا حرية فردية . . وإنما الحرية كلها للشعب معا . لا توجد حرية فردية أو منفردة . ثم كيف تقول إنك حر وكل الناس حولك عبيد هل الحرية أن تأكل وحدك . . هل الفلوس أن تستولى عليها أنت وآخرون من الإقطاعيين والرأسماليين اللصوص .

ـ ليس لصا من عمل وتعب وكسب . . إنه لم يضع يده فى جيبك . . أنت الذى وضعت يدك فى جيبك وأعطيت . وكان العطاء مقابل سلعة . .

ـ لا شأن لنا بحريتك فى أن تأكل وحدك وتنام وحدك وتجوع وحدك . . فليس عندنا أحد وواحد ووحدانية وانفرادية وعزلة . نحن معا فى أى مكان وفى أى وقت!

ـ لا . . لست من رأيك . .

ـ ولا أنا من رأيك . .

هل فهمت شيئا . . هل فهمنا شيئا . . هل قلنا شيئا . . لا قلنا فى ذلك الوقت فليس عندنا متسع من الوقت لكى نفكر ونتأمل بعد أن نرفع أعيننا عن الكتب ونسد آذاننا عن الأساتذة . . ولذلك لم نكن جادين فى هذه المناقشات الطويلة المضنية . . كأننا تروس تدور على الفاضى . . كأننا طواحين هواء طواحين بلا قمح تطحنه . . ومن أين نأتى بالقمح ، نحن فوق أكوام من قشر القمح . . ولكن كنا نظن فى ذلك الوقت . . أننا نعرف ونفهم وقادرون على أن نشق الصفوف وأن نقيم لأنفسنا قبائل فلسفية متصارعة بلا أسباب واضحة . . وإنما نحن عميان متعصبون . . أو متعصبون اخترنا أن نكون عميان!

كنا نلتف حول د. لويس عوض أستاذ الأدب الإنجليزى ولم يكن سبب الالتفاف حوله هو الأدب الإنجليزى . فلم نكن نعرف منه إلا القليل . ولكن لأنه أنشأ جمعية موسيقية اسمها (الجراموفون) .

وأنا أجد صعوبة الآن فى شرح معنى الجراموفون . . إنه الجد الأكبر للكاسيت . فهذه الجمعية تجمعنا لنستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية : فاجنر وبيتهوفن وموتسارت وهايدين وباخ ودفور جاك وشوبان وأسماء أخرى كثيرة . . الأسماء لا تتداخل ولكنها الموسيقى : السمفونيات والأوبرات . وكنا نتذوق هذه الأبهة العقلية والفنية . ومن حين إلى حين يحدثنا د. لويس عوض عن الفرق بين هذا العملاق وهذا العبقرى . .

دعنى أصف لك الهيئة التى كنا عليها فى ذلك الوقت :

بعد أن نستمع إلى الموسيقى فى نادى الكلية نجلس على العشب بين قسم اللغة

الإنجليزية والمكتبة. ونحن جميعا بالقمصان والبنطلونات. وبيننا ورقة جريدة بها سندوتشات فول وطعمية.

السندوتشات من محل معروف فى ميدان الإسماعيلية (السادات الآن). المحل يملكه رجل يوجوسلافى هو أحد الذين هاجروا مع ملك يوجوسلافيا فى الحرب العالمية الثانية. والرجل اسمه إيسائفتش. وكان يحب الطلبة. ويحب طلبة الفلاسفة لأن أحد إخوته أستاذ للفلسفة فى جامعة بلجراد، وأنه يراه عندما يرانا ويتذكره عندما نجيء إليه. وكان يرفض أن يتقاضى أجرا. حاولنا فرفض. فكان ذلك يدفعنا إلى أن نذهب إلى غيره. وكان يغضب وأفلحنا فى أن نقنعه بأن ندفع نصف الثمن. وكان السندوتش فى ذلك الوقت بقرش صاغ.. ونختلف كثيرا فى معانى السيمفونيات. ولكن هذا الخلاف لم يجعل أحدا يتوقف عن الطعام أو إلقاء الفول فى مكان بعيد فقد نختلف ونبقى معا. نأكل معا. ونختلف ونتفق على اللقاء فى اليوم التالى.

وكان د. لويس عوض سعيدا بنا.. وقد كنا جميعا من طلبة الفلسفة.

وكان أكبرنا سنا الزميل عبد الحميد توفيق زكى الذى دخل الجامعة وبقى على حاله يعزف البيانو فى نادى الكلية. ثم صار بعد ذلك مؤلفا موسيقيا معروفا. وكان يتردد علينا واحد اسمه عبد الرحمن الخميسى، صار شاعرا فيما بعد. وكانت زوجته فلسطينية زميلة لنا فى السنة الأولى. ولم نكن نعرف أن نسأل من يكون.. إنه يجيء ويأكل ويتخانق ويختفى شهورا. ولا نعرف أن كان طالبا أو هاربا.

وحول لويس عوض نلتقى نختلف ونفترق ولكن نلتقى. وكان لويس عوض شخصية لطيفة أليفة يحب الطلبة ويحبونه. وإذا مشى بين الطلبة فمن الصعب أن نميزه.. متوسط القامة خفيف شعر الرأس إذا مشى قفز مع ميل إلى جانب من الجسم. وإذا اقتربت منه توقف. كأنه داس فرامل مرة واحدة!

ولم يكن أحد الزملاء يمزح عندما قال: يا إخواننا عاوزين حد هنا يشترى قميص وبنطلون للدكتور لويس.. لويس الحادى عوض!

هنا تنبهنا إلى أنه فعلا يحتاج إلى القميص والبنطلون والحلاق والجزمجى ولكن: إيه يعنى.. إنه أستاذنا وظريف يتذوق الفول بنفس حماسه لبيتهوفن..

❊ ❊ ❊

أما د. بدوى فهو مفرق الجماعات وهادم اللذات. فنحن إما متحمسون له.. وإما ضده. الوجوديون معه والشيوعيون عليه.. ولكن لماذا؟ لا أظن أن أحدا فى ذلك الوقت كان يعرف الفوارق الجوهرية بين الوجودية والشيوعية.. فنحن - الوجوديين - نرفض مفهومات كثيرة للماركسية فى ذلك الوقت. مع أن الماركسية فلسفة أيضا. لها أول ولها آخر.. وفلسفة حركية. إيجابية. إنها لا تتأمل الحياة ولا تتفرج عليها.. أو تتوقع معجزة لحل مشاكل الإنسان والمجتمع.. بينما فلسفتنا - تسلط الأضواء وتستخدم المشارط. وتقطع وتصل وتحل وتربط ونحن مسلطون على أنفسنا.. وكان الشيوعيون فى ذلك الوقت أمهر فى اختيار المشاكل وتعقيدها وإحراجنا. وكنا نجد وسائل كثيرة للهرب، مثلا:

- واحد دخل السجن فما رأيك؟

- لابد أنه أخطأ واستحق العقاب.

- فإذا لم يكن قد أخطأ؟

- إذن هناك خطأ فى تطبيق القانون.

- فماذا نعمل؟

- لا نعمل شيئا نحترم القانون.

- فإذا اكتشفنا أن تطبيق القانون كان أكذوبة.. خرافة.. وإنها إرادة القوة وليست قوة القانون.

- أنا لا أستطيع أن أحكم فى هذه القضية.. فلا أنا قاض ولا أنا محام.

- وأنا أيضا لا كنت قاضيا ولا كنت محاميا. ولكن أرى ظلما. فماذا أنت فاعل.. هل نكتفى بالفرجة على الظلم والفرجة على الهوان.. وتسجل علينا

وعلى نفسك أن هذا خطأ . وأن الإنسان حر في اتخاذ قراره : أن يكون عادلا أو يكون ظالما . . كده وبس؟!

ـ . . . .

* * *

الذين قالوا إن من يدرسون الفلسفة مثل أناس يبحثون عن قطة سوداء في غرفة مظلمة . يسمعونها ولا يرونها لم يبعدوا عن الحقيقة . . ولكني أشعر بشيء آخر : إننا نكتب بالدخان على الضباب . .

أو أننا نتكلم كلنا في وقت واحد . . وبلغات مختلفة . . فنحن نسمع ولا نعرف ماذا نقول . فعدد الأسماء التي تصادفنا وتصدمنا كل يوم كثيرة كلهم يقولون وكلنا نسمع . .

هل لهذا السبب نريد واحدا فقط يقول لنا أي كلام مفهوم؟!

كنا نجلس على مقهى نلعب الشطرنج بالقرب من كباريه (كيت كات) في إمبابة . الكباريه انهدم وأقيم في مكانه مسجد . لقد تاب الله على أرض كيت كات . وكان يقال في ذلك الوقت إن الملك فاروق كان يدخل من باب سري ويخرج منه . والباب ضيق يحرسه واحد عسكري بملابس مدنية . يقال!!

وفجأة كان هذا الحوار : طيب نحن نعرف أين يوجد لويس عوض . .

ـ وأنا أعرف بيت منصور باشا فهمي .

ـ وأنا أعرف بيت طه حسين .

ـ وأحد أقاربي يسكن في مواجهة لطفي السيد باشا . .

ـ ومصطفى عبد الرازق بلدياتي ونحن أقارب . .

ـ وأنا أعرف بيت د . مصطفى حلمي .

وسكتنا . فقد طرأ على دماغ واحد منا : ماذا يحدث لو ذهبنا إلى أي منهم لنسأله

فى هذه المعضلة التى ألحت علينا ـ على عقولنا الصغيرة التى لم تنبت لها أجنحة و لا أظافر : ما هى الحكمة فى وجودنا . . نحن البشر . . فنحن لا نفهم إن كانت هناك كائنات غيرنا فى أماكن أخرى . . تماما كما أن النمل لا يعرف أننا موجودون . . وإذا كنا بهذه التفاهة وكوكبنا أيضا فما المعنى وما الحكمة . .

سؤال : أليس من الممكن أن نكون حميرا أو بقرا . .

ـ هاها . . أنت كده بالفعل !

ـ هاها !

ـ لا صحيح . .

ـ فى الهند يؤمنون بتناسخ الأرواح والأجسام . . فأنا لا أعرف إن كنت بعد الموت سأكون حمارا أو كلبا . . أو أننى كنت حمارا قبل ذلك ثم صرت إنسانا . . مش مهم كيف كنا وماذا سنكون . لكن ما المعنى؟ . . ما الحكمة؟ قل لنا يا بتاع الوجودية . .

ـ أنا أقول لك . . أنا أعلق الإجابة عن كل الأسئلة التى تتحدث عن الوجود . . الوجود أمس وغدا . وإنما أتحدث عن (هذا) الوجود . . وجودنا . . فأنا لا أستطيع أن أرى فى هذه اللحظة ماذا يجرى فى كوكب المريخ مثلا . . ولا أعرف من أين جاء وإلى أين يذهب . . أو إن كان سوف يبقى فى مكانه ونبقى نحن أيضا . . هذه أسئلة يجب أن أؤجلها إلى مئات الألوف من السنين . ولذلك فأنا لا أفكر فيها . ولاينبغى .

ـ أما نحن فقد ولدنا لنعمل . . نأكل ونشرب ونقوم بتجديد الأداء وبتوسيع معانى الحرية وبعد ذلك نموت أما بعد الموت فلا نعرف عنه شيئا . . وطالت المناقشة وتعالت الأصوات . . وأغلقنا رقعة الشطرنج ووضعناها جانبا . . وظهر صاحب المقهى يقول : جرى إيه يا أفندية أمال العربجية يتكلمون إزاى . . علىَّ النعمة من نعمة ربى أهاليكم مساكين . . أنهم يطفحون الدم علشان تتعلموا الكلام الفارغ ده . . الله يلعن أبو التعليم على اللى يخلف عيال . . يا الله يا أفندية عاوزين

نقفل . . عاوزين نرش المكان ده . . وألف سلامة . ما حدش ييجى هنا تانى . . بالسلامة . . جتكم نيلة . . إلخ .

وعلى النيل مشينا حتى بلغنا شارع الجبلاية فى الزمالك ونسينا أننا ذكرنا كل هذه الأسماء لأن واحدا منا فكر فى أن نذهب معا (بربطة المعلم) إلى أحد هؤلاء الأساتذة ويطلب النجدة لقد غرقنا فى شبر ميه . . فالذى نعرف من الفلسفة لا يزيد على شبر طولا وعرضا وعمقا . .

وفجأة طلعت الشمس وبددت أشعتها كل ما لدينا من أفكار ووساوس . . ودون أن يقول أحد لأحد شيئا تفرقنا . . كل فى طريق . . ودون أن نتفق وجدنا أنفسنا أمام دكان عم بلال بائع الفول . . هاها . . إنها نهاية الذين يتفلسفون ونهاية الذين يسمعون الموسيقى الكلاسيكية . فما هى العلاقة بين أرسطو وبيتهوفن؟ فالطريق إلى الموسيقى والطريق إلى الفلسفة يمر ـ حتما ـ بدكان عم بلال . . فنحن والذين لا يتفلسفون على باب عم بلال . . فهو الحياة والموت ولا فرق بيننا . والشاعر شوقى قال :

إذا ما نفقت ومات الحمار أبينك فرق وبين الحمار؟!

لا فرق يا أمير الشعراء . .

* * *

وكان أشجعنا الزميل فريد كامل حسين . إنه ليس من قسم الفلسفة ولكنه يحب أن يسمع وأن يقرأ وأن يختار ما يعجبه . وكنا فى المكتبة عندما فوجئنا بالدكتور بدوى . وتقدم ناحيته وقال : يا أستاذ ممكن أكلم حضرتك دقيقتين . .

ـ . . . .

ـ أننا تعبنا من التفكير . . مش أنا بس . . كلهم ومن يقول غير ذلك كذاب . . وأنت طبعا علمتهم على الصدق . .

ـ إيه؟

ـ حاقول لحضرتك . . (إحنا تعبنا وبدأ عبد الرحمن بدوى يتململ . ويحاول أن يلف حول نفسه . ولكنه لا يطاوع نفسه) إحنا عاوزين نعمل زى سقراط الذى كان يتمشى مع تلاميذته فى الشارع ويقف بهم على النواصى يتناقشون . . بلاش سقراط . نعمل زى أرسطو . . كان يمشى ويدور حول الأشجار ومن ورائه تلامذته . .

ـ مش فاهم .

ـ حاقول لحضرتك . . عاوزين نعزمك عندنا فى البلد . . إحنا عندنا جنينة حلوة . . نجلس معا وعندنا أسئلة كثيرة . مش ضرورى تجاوب عليها كلها . . بعضها . لأننا تعبنا ومش لاقيين إجابة .

ـ طبيعى ما تقدروش تلاقوا إجابة أنتم لسة مبتدئون . .

ـ ولكن لابد أن يكون لكل سؤال جواب . . يعنى لو سألنى طفل ٢+٢= تساوى كام أقول له : أكثر من ثلاثة وأقل من خمسة . . إجابات ليست نموذجية . . ولكنها إجابة . . وكلما كبر الطفل كبرت الإجابة . ونحن أطفال وأنت أستاذنا . . ما رأيك يا أستاذ تكون سقراط ولو مرة واحدة . . لأنك بترمح طول الوقت . . لا تتوقف تكلم أحدا ذهابا إلى بيتك وإيابا . وبس .

ـ بعدين ؟

ـ بعدين امتى ؟

ـ قبل آخر السنة . .

وإيه المانع اليوم أو غدا .

ـ أنا مشغول . .

ـ نحن نعرف . ولكننا نحن فى أشد الحاجة . .

ـ بعدين . .

ـ إلى من نذهب يا أستاذ . إن معظم الأساتذة . . إذا عرضنا عليهم مشكلة جلسوا معنا وشرحوا كلهم . . لويس عوض يأكل ويشرب معنا ولا يخجل . .

ـ يأكل إيه؟

ـ يأكل فول . .

ـ هوه يأكل فول؟!

ـ أكثر منا . .

ـ لازم شايفكم حمير! هاها . .

ـ . . . .

وظللنا واقفين مكسوفين من أنفسنا . . وبالصدفة البحتة ظهر د . لويس عوض . وقف معنا ضاحكا يسأل إيه مالكم؟

ـ ولا حاجة يا دكتور . .

ـ فيه إيه؟

ـ ولا حاجة أحد الأساتذة قال لنا إننا حمير . .

ـ هاها . . ليه؟

ـ وهو بيدرس للحمير إيه؟

ـ فلسفة!

ـ مين ده؟

ـ بدوى .

ـ هل أحد منكم قال له إن كلامه مش مفهوم . .

ـ لا . . . .

ـ هل قال له أحد إن كتبه صعبة . . وإن الدكاترة على عبد الواحد وافى وعثمان أمين وأبو العلا عفيفى أوضح منه؟! . .

ـ لا . .

ـ قلت له إن لويس عوض يجى إلينا ويأكل معنا فول . .

ـ آه . . علشان كده نحن جميعا حمير . . هاها .

إنه لم يشتمكم بل شتم مصر كلها . ثم إنه يأكل الفول . أنا جعلته يأكل الفول

على حسابى . . إذن هو رأيه أن من يأكل فول على حسابه فهو حمار ولكن إذا أكل على حساب واحد آخر فليس حمارا! المهم أنه لا يدفع . أو بعبارة أوضح كل من اشترى فولا وأكله فهو حمار . . لأنه أكل على حسابه هو . . أما الذين يأكلون على حساب الآخرين مجانا فليسوا حميرا . .

ـ يعنى إيه . .

ـ اعزموه على فول . وسوف يكون هو الوحيد الذى ليس حمارا!

ـ والله يا دكتور كلامك أوضح . . فلم تكون قضيتنا إذا أكل اثنان فولا وكانا سعيدين فنحن لا نسأل أينا الحمار؟

ـ هاها . .

نقلنا هذا الحوار إلى أستاذنا د . إبراهيم بيومى مدكور وكان يدرس لنا الفارابى وهو الذى درسه وحصل به على الدكتوراه . . وكان أيامها عضوا فى مجلس الشيوخ . فسمع . وأحنى رأسه وانتظرنا ما سوف يقول هو الآخر . .

ثم رفع رأسه يقول : ليست هذه فلسفة . . وإنما هى : سفه!

وفى الفنجان :
مين أبو كرش ومين أبو عمة
ومين الجميلة فى السماء

واضح لنا جدا أننا فى ذلك الوقت قد انشغلنا بأنفسنا تماما . فما أكثر علامات التعجب والاستفهام وما أقل الجمل المفيدة .

وكثرت أسماء الفلاسفة والمؤرخين وتوارت أسماء الأساتذة .

حتى لو سأل أحدنا الآخر وقال له : عبد الرحمن . .

ـ عبد الرحمن مين؟

ـ بدوى .

ـ بدوى مين . . ؟

هكذا كنا نجلس نياما ونمشى سارحين . . وتكومت المشاكل والتفت أعناقنا ثعابين تخنق وتلسع . . لم تعد هناك . . أصبحنا هناك وهنا ولا مكان لنا : لم يعد لنا أين ومتى وكيف ولماذا؟

وكنا نجلس متجاورين ولا أحد يكلم أحدا ولكن نتسارع نحو الجلوس معا . والصمت معا . تماما كأننا نسخة حديثة من صور ريفية قديمة . ففى الريف نجد

الفلاحين قد جلسوا وظهورهم إلى الحائط وفى أيديهم نبابيت ونظروا إلى الأمام ولا يتكلمون. لماذا؟ ما المعنى؟ إنهم هكذا.. أو كالتماثيل النصفية الموجودة فى جزيرة (الفصح) فى المحيط الهادى التماثيل ضخمة والعيون قد اتجهت إلى حيث لا تدرى من الذى أقام التماثيل؟ ولماذا تركها؟ وما المعنى؟ المهم إنها كتل حجرية متراصة متجاورة. أما المعنى فقضية مؤجلة من ألفى سنة. ولا إجابة عند أحد. وأغلب الظن أنها تماثيل صنعها أهل الجزيرة تسجيلا لذكرى أناس أو كائنات جاءت من مكان ما وكما جاءت عادت والمعنى والسبب معها!!

ومن المؤكد لنا جميعا أننا مختلفون فلسفيا. كل واحد له نظرية. المهم أنه مختلف وأنه يقول: لا.. ويقول نعم إذا تساءلنا. وليس من الضرورى أن يوضح السبب لأننا نعرف السبب: هذا وجودى.. وهذا شيوعى.. وهذا ملحد وهذا متطرف!!

ويقال فى ذلك الوقت إنه ظهر فيلم على الشاشة يتحدث عن مشكلة مدينة تريستا فى شمال البحر الأدريانى. الجزيرة قسموها بين يوجوسلافيا وإيطاليا. ورسموا على الأرض خطوطا بيضاء. وفى أول الفيلم كان الأطفال يلعبون فى هذا النصف اليوجوسلافى.. ويعودون إلى بيوتهم كأن شيئا لم يرسم على الأرض. وبمرور الوقت أصبح الأطفال لا يدوسون الخط على الأرض وإنما يقفزون فوقه كأنه حاجز حجرى أو حديدى..

ولا يدوسون الخط ولا يمسحونه ولا يحاولون..

وبمرور الوقت. أصبح الأطفال يدوسون الخط ويلعبون.. ولكن عندما ينتهى اللعب يذهب كل فريق إلى جانب من المدينة.. ثم افترق الأطفال ولسبب ما كانوا يقفون متواجهين وراء الخط ويتحدثون عن بعد. إذن لقد انتقل خط التقسيم من الأرض إلى نفوس وعقول الأطفال. فهم ينتسبون إلى شعبين.. إلى دولتين وإن كانت لغتهم واحدة. لقد انقسموا!

وكذلك قد رسمنا الخط الفاصل بيننا.. وابتعدنا وملأنا الفراغ بيننا

بسور عال . . لأننا نريد ذلك . وما زال الفاصل يعلو حتى لم نعد نرى بعضنا البعض إلا نادرا . فى المكتبة أو فى الطريق إليها . ولم يعد ضروريا أن نتصافح وأن نتواعد على اللقاء اختلفنا . انفصلنا تعادينا . تحاربنا . .

بل إن هذه الخلافات بيننا لم تكن كافية فظهرت خلافات أخرى . فقد كان لنا زميل ـ لا أعرف أين هو الآن ـ اسمه أحمد كمال الصاوى . أبوه دبلوماسى . فى يوم قال لنا : إن اسمى الحقيقى يجب أن يكون أحمد التاوى . .

ـ يعنى إيه؟

ـ هوه ده السؤال .

وقال لنا إن والده أقام طويلا فى الشرق الأقصى وأنه قرأ وسمع عن مذهب أخلاقى اسمه (تاو) أو المذهب التاوى وكلمة (تاو) كلمة صينية معناها : الطريق . . أى طريق . وإن على الإنسان أن يسلك الطريق الذى يريحه هو . وليس الذى يسلكه كل الناس ـ فهو ـ مثلا يرى أن التعليم مرهق ولا فائدة منه . فليتوقف فعلا عن التعليم . . يرى أن المشى على يديه أو على الحبل هو الأقرب لمزاجه . فليفعل . ولا يهمه إن كان يخالف الناس .

ـ يعنى إذا أنت وجدت الفلسفة موجعة للدماغ . . فلماذا لا تتركها .

ـ عاوز . ولكنها إرادة من يطعمنى ويسقينى . . أبى . فدخولى قسم الفلسفة هذا هو (التاو) الخاص بوالدى . وهو الآمر والناهى . وهو الذى يدفع وهو الأولى بالطاعة !

ـ هناك مذهب فلسفى اسمه مذهب (كأن) . . . وصاحب المذهب هو الفيلسوف الألمانى فاينجر . . هذا المذهب يقول لك : حتى لو كانت الأفكار الشائعة خاطئة . . أو خرافية ولكنها مريحة فهى الأولى بالرعاية والأصح بأن نتمسك بها لأن فائدتها النفسية والاجتماعية والمادية أكبر . . حتى لو كانت خطأ . . أو بعبارة أخرى : سيدنا الحسين لم يثبت تاريخيا أنه جاء إلى مصر . . لا رأسه ولا ذقنه . أبدا . ولكن الناس يؤمنون ببركته وأثره العميق فى نفوسهم . ونحن على يقين من أنه ليس موجودا فى

هذا الضريح . ولكن مادام الناس يعتبرون أنه موجود هنا فلا مانع من أن تبقى الأسطورة . ولا داعى لأن نصدم الناس . أكثر من ذلك : إن الناس يلقون بخطاباتهم وشكاواهم إلى داخل الضريح . . يطلبون فيها من الله أن يحل لهم مشاكلهم . . ويرون أن إلقاء الخطابات فى ضريح سيدنا الحسين يصل إلى السماء أسرع . ويريحهم ذلك . فيجب أن يبقى الحال على ما هو عليه . أن تبقى هذه العادة وكأنها صحيحة . . وكأنها حقيقة لاشك فيها !

ـ طيب ما تيجى نروح نزور سيدنا الحسين .

ـ والله فكرة . .

* * *

واضح لنا جدا أنه لايوجد أستاذ واحد لايكره الأساتذة الآخرين أو يشتمهم . .

اسأل د . عثمان أمين عن د . بدوى . فيهز رأسه ويعدل منظاره الكبير على وجهه الأحمر : أراجوز . . ده أراجوز ! !

ونسأل د . بدوى عن عثمان أمين فينفض السؤال عن أذنه كأنه ذبابة ويقول : تافه . .

ونسأل د . عبدالعزيز عزت عن د . بريستيانى اليونانى الذى تخصص فى قبائل (كيبسكيس) فى أفريقيا فيضحك بالقوى ويقول : أكل عيش !

نسأل د . مصطفى حلمى وكان أعمى ويقلد طه حسين فى الحديث والمحاضرة : وما رأيك فى د . إبراهيم بيومى مدكور . .

فيقول : إنه رجل سياسى . .

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى لا علاقة للسياسة بالدراسة !

وكان د . مصطفى حلمى رجلا ظريفا . أذكر أنه عندما كان يدرس لنا فلسفة

محيى الدين بن عربى وتفسيره للوجود ابتداء من نور الله فوق وانتهاء بالإنسان تحت . . كان يقول : نريد أن نفهم الكون والوجود من فوق لتحت ومن تحت لفوق ـ مشيرا إلى مونولوج شكوكو المعروف . .

وإذا وجد سجعا فى كلامه يحوله إلى نكتة تخفف عناء الدراسة الفلسفية وفى إحدى المرات قال : من فوق لتحت ومن تحت لفوق إن صح هذا (التعبور) يا أنيس يا منصور ! هاها . .

ـ هاها . .

فإذا سألنا د . على عبدالواحد وافى عن كل هؤلاء كانت إجاباته متحفظة وهى أقرب إلى الشتيمة . ومفرداته المعروفة هى :

إنه صغير لايعرف ما يقول . . أو هو كبير لم يعد يعرف ما يقول . . أو لابد أن يكون كذلك لأنه لم يتعلم فى السوربون وإنما كان يكنسه . . وقد ظلمه من أتى به إلى هنا ، وكان يجب أن يبقى فى المدارس الثانوية . . وإذا أراد أن يكون كريما فإنه يقول : اصبروا عليه عشر سنوات أخرى وسوف يكون مفهوما ! !

يعنى أن كلهم ولا حاجة . فليكن فنحن مشغولون عنهم تماما . . فالكتب التى قد ارتمت بعضها فوق بعض وصارت حاجزا بيننا . . ولم يعد يرى أحدنا الآخر . وليس من الضرورى . وغلب على مزاجنا المرح أو الضحك أو السخرية من أنفسنا بقسوة . فقد أخذناها بصورة جادة . وما ينبغى لنا أن نفعل ذلك . فليس فى حياتنا ما يضحك . وإنما كل شىء يدعو للأسى والهم والغم . وكرهنا الفلسفة وأساتذتها وأنفسنا . . فنحن ضائعون تماما . .

وإليك أنواعا من الحوار بيننا :

ـ تعرف . .

ـ مش عاوز أعرف . .

ـ تفتكر . .

ـ لا أريد أن أفتكر . .

ـ طيب أمال حتعمل إيه؟

ـ ولا حاجة . .

ـ . . . .

أو هذا الحوار :

ـ بتذاكر؟

ـ نسيت كله . .

ـ كل إيه؟

ـ كل اللى سمعناه . .

ـ حتعمل إيه؟

ـ نسقط . .

ـ مالك قرفان كده؟

ـ أنت مالك مش قرفان؟

ـ ما تيجى . .

ـ نروح فين . .

ـ نقابل الدكتور . . .

ـ لا . نروح سيدنا الحسين أحسن . .

ـ علشان إيه؟

ـ علشان يتوسط لنا أن ربنا يأخذنا وقبل ما يخدنا يأخد الأستاذة .

ـ . . . .

ـ أو هذا الحوار فى الطريق من الكلية سيرا على الأقدام إلى إمبابة . .

ـ أنا ذاكرت نصف المقرر . .

ـ أى نصف؟

ـ نصف والسلام . .

ـ حتحضرو اجتماع الإخوان المسلمين؟

ـ لا . .

ـ يا أخى مش عاوز وجع دماغ . .

ـ اجتماع بسيط للشيخ حسن البنا وبعده نعود إلى بيوتنا .

ـ لا . .

ـ طيب أقول لهم إيه؟

ـ قل لهم مات . .

ـ يا راجل خليك جاد شوية . .

ـ يا أخويا إحنا جادين بقى لنا ٣ سنوات . أخذنا إيه؟! تقدمنا فى إيه؟! حصل لنا إيه؟! فيه أى أمل؟ اتغيرت الدنيا؟ أبدا! . اتغيرنا نحن . . أبدا! فى أى أمل مفيش! قررنا نحل مشكلة واحدة؟ ولا واحدة . . كمان عاوزنا نروح جمعية الإخوان المسلمين فى إمبابة علشان مشاكل ثانية . . وهية خلصت مشاكل الأرض لما حنستورد مشاكل السما!!

ـ بس . . ارحمنى بقى!

ـ والأساتذة حيرحموك؟

ـ إيه رأيك لا رايح إخوان مسلمين ولا رايح جامعة . . ولا عاوز اسمعك ولا أشوفك . . لا أنت ولا فلان ولا علان . . الفلسفة علمتنا القرف المنظم والكراهية البطيئة والضياع الوجودى . كويس كده . .

ـ والله أنت مجنون . .

ـ وأنت؟

ـ مجنون بالثلث!

ـ هاها . .

ـ هاها

ـ إيه رأيكم؟

ـ فى إيه؟

ـ نعمل حيوانات . .

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى إحنا بالقرب من جنينة الحيوانات . . ولابد أن هناك شبها بيننا وبين هذه الحيوانات . . وفى الفلسفة الهندية أن الحيوانات كانت بشرا ولما عاقبتها الآلهة حبستها فى أجسام حيوانات . . ولابد أن سلوكياتنا لا تزال تشبه بعض الحيوانات . . يعنى أن أرى الزميل شوقى . . ثعبانا ناعما يلتف حولك ثم يلسعك . . لسعة القبر . . وأن سمير زرافة جسمه ضخم وعقله صغير . . لكنه لا يدرك إلا أن جسمه أكبر فيحاول أن يبدو أعلى وأسمن والحقيقة أنه هايف . .

ـ آه . . كده طيب وأنت ثعلب . . مكار خبيث وإذا اتزنقت فإنك تخترع قصصا وحكايات تسيل لها الدموع . . والثعلب يفعل ذلك إذا وجد نفسه محاصرا فإنه يلف نفسه على الأرض وينفخ بطنه ويقطع نفسه ويصدر روائح كريهة كأنه قد تعفن بعد أن مات . . فإذا ذهبت عنه الحيوانات أو الإنسان الذى حاول قتله راح يجرى هاربًا . . وكذلك بعض الطيور إذا انطلق عليها رصاص الصياد . . فإنها تطوى جناحها وتسقط على الأرض كأنها أصيبت . فإذا قرب منها الصياد طارت بأقصى سرعة . . أنت هكذا . . تفلت . .

ـ وفلان هذا ذئب ضخم قوى وإذا نام فبعين واحدة مفتوحة يرى وهو نائم . . أو ينام كأنه نائم فإذا اقتربت الفريسة انقض عليها . . وحادثتك مع الزميلة وداد من كلية الحقوق أكبر دليل على السفالة المغطاة بالشهامة المزيفة . . والمثل اللاتينى يقول : الإنسان للإنسان ذئب! وأنت من أصل إيطالى . يعنى لاتينى مائة فى المائة!

ولا أعرف أين ذهبت اللوحة التى رسمها لنا الزميل حسن فؤاد الذى صار فنانا كبيرا بعد ذلك . رسمها بعد أن طلب إلينا أن نبالغ فى صفاتنا الحيوانية . ولو ظهرت هذه الصورة لكانت أضحوكة لعدد كبير من طلبة الفلسفة الذين صاروا اليوم كتابا كبارا معروفين!

❊ ❊ ❊

كان لابد أن نبحث اليوم عن نهاية سعيدة، مثل بقية الأيام، فى غاية التعاسة وأستاذنا أحد الزملاء من جماعة الإخوان المسلمين فى إمبابة:

ـ إيه رأيك؟

ـ فى إيه؟

ـ نروح لطانط . .

ـ مين؟

ـ والدتك . .

ـ أهلا وسهلا . .

ـ أنت عارف ليه . .

ـ عارف يا أخويا. وأنا مش فاهم أمى بتحبكم على إيه . .

ـ لا أنت مش عارف . .

ـ آه تشوف لكم الفنجان . . يا الله . .

وقلبت الفناجين ومدت يدها وقالت: يا ساتر يا رب . . أنت مالك كده يا ابنى حزين . . هوه فيه إيه . . ده زملائك بيقولوا عليك أحسن واحد . . آه عندك واحدة عيانة . . وكمان واحد عيان . . وربنا قادر على أن يشفيهم لك . . كل شيء غير كده كويس . . حتنجح بتفوق . . وحتكون حاجة كويسة قوى . . وبكره تقول إن طانط عزيزة قالت . . وده مين الراجل أبو كرش أسمرانى . . بطربوش . . وده مين ده الراجل القصير أبو كرش اللى بيقع منه الطربوش . .

ـ فى الفنجان الطربوش بيقع؟!

ـ أيوه . .

ـ حاجة غريبة .

ـ ليه

ـ فعلا الطربوش بيقع ولسه واقع النهارده بعد المحاضرة . .

ـ وده مين الراجل القصير اللى زى الثعبان يتلوى ويتقطع ولسانه زى السم . .

ـ كمان ده ظهر فى الفنجان . .

ـ أيوه . . أهو . . حواجبه ثقيلة وعنيه بتبرق . .

ـ صحيح . .

ـ ودول حتعمل معاهم إيه . .

ـ والله يا ابنى ده قدر . . مقدر عليكم . . لكن حتفرج فى النهاية برضه حتنجح كويس قوى . .

ثم مدت يدها إلى فنجان الزميل حشمت بركات: هات يا أخويا أشوف فنجانك زى ما توقعت . . ضحك وفرفشة . . أنت بقى رايق والنبى أحسن منهم كلهم . . الجماعة دول كلهم عواجيز وشايلين الجبال دى ورايحين بيها فين . . والنبى أنت اللى فيهم . . مين بقى القمورة اللى فى الفنجان . . حلوة لكن مش حطولها يا ابنى . . دى لها أجنحة وأنت ما عندكش أجنحة . . هى غنية قوى . . وحواليها شباب كثير . . وأبوها وأمها واقفين بيهددوا أى أحد يقرب لها . . ومش حتكون من نصيبك حتى لو عملت لهم قرداتى . .

ـ يعنى إيه يا طانط؟

ـ يعنى خد بالك من دروسك لأنه فيه خطر عليك فى الامتحانات . . سيبك منها يا ابنى! ومين يا ابنى الرجل الأسمر أبو كرش اللى حالف يسقطك . .

ـ هاها . . هاها . .

ـ مين يا ابنى؟

ـ واحد يا طانط . اسمه عبد الرحمن بدوى . .

ـ ده يا ابنى راجل ما بيضحكش أبدا . . يا ساتر مفيش حد بيحبه . وده حتعمل معاه إيه؟

ـ . . . .

ومين ده أبو نظارة يا ابنى برضه مكشر ومش حينجحك، وعلشان أنت بعيد عنه . . مين ده؟

ـ واحد يا طانط اسمه د. يوسف مراد بتاع علم نفس.

ـ وليه يا ابنى؟

ـ يا طانط رجل دمه ثقيل . . وبصراحة الراجل ده كرّهنى فى علم نفس . .

ـ آه . . لكن فيه واحدة أهى . . سمرة ونحيفة وحلوة . . وبتشوفها كتير . . يمكن كل يوم . .

وضحكنا ولم نكن نعرف أنه يقابل كاميليا زميلتنا فى كلية الزراعة . . وعادت تقول له: أنت وعدتها بالجواز كده ولا لأ . .

ـ أيوه . .

ـ يعنى أنت بتجرى وراء واحدة وواحدة بتجرى وراك . . واللى بتجرى أنت وراها وعدتها بالجواز . . والثانية اللى طايرة فى السماء ما عندهاش فكرة أنك مش عايز تتجوزها . .

ـ أيوه . .

ـ يعنى يا ابنى أنت لا طايل دى ولاطايل دى . . أو مش قادر تهرب منها . . والضحية أنت . . وأنت اللى حتدى فرصة للأسمر أن يسقطك وأبو نظارة أن يسقطك برضه.

واعتدلت لتمد يدها إلى آخر فنجان. نظرت وقلبت الفنجان بين يديها وقربته من عينيها وأبعدته وقالت: لا . . أنت يا ابنى مالكش مشكلة . . كل فنجانك سالك وعندك فلوس كثيرة وأبوك طبعا ده أبوك أمير . . وأمك حلوة وطيبة . . هو أنت ابنهم الوحيد؟

ـ أيوه يا طانط . .

ـ ومين يا ابنى الراجل أبو عمة كبيرة . . بيحبك . . لكن عنده حاجة كده . . مش مبسوط منك . . مين ده؟

ـ ده الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية . . وقريبنا . .

ـ أنا شايفة أن زى ما يكون معترض عليك أو على حاجة أنت عملتها . . وعلشان كده رافض يجوز بنته أو واحدة قريبته . . مش كده ولا إيه؟

وضحكنا كلنا . . وعادت تقول له : إيه الحكاية يا ابنى ؟

ـ يا طانط دى حاجة غريبة . . الصدفة هى السبب . . صدفة عجيبة . . ماما تعبت ورحت بها إلى الطبيب . . وفى الأسانسير ظهر عليها الإعياء الشديد أو الإغماء فأسندتها إلى صدرى . . واللى يشوف ماما يتهيأ له أنها بنت صغيرة . واللى يشوفنى بجسمى الكبير وشاربى ولحيتى يتهيأ له أننى أبوها أو أخوها الكبير . . والصدفة البحتة لقيت الشيخ مصطفى عبد الرازق ارتبكت كان من الصعب أن أترك أمى لكى أصافحه . . فحاولت أن أتجاهله وأنشغل بأمى . . ولكنه وقف وبدأ الاستياء على وجهه . .

ـ ليه يا ابنى ؟

ـ يا طانط . . كانت شورة للأستاذ (وأشار ناحيتى) فقد ذهبنا بعدها بأيام نخطب إحدى قريباته . ولأنه عميد الأسرة فلم يكد يرانى حتى صافحنا جميعا وانصرف والمعنى أنه غير موافق . . ولم أفلح فى إقناعه بأن التى رآها معى هى أمى وليست زميلتى . . حاولت ولكن الشيخ مصطفى قال : إنه لا يكذب عينيه . . الله يخرب بيتك (بيقول لى وليس لها وليس للشيخ مصطفى) . .

ـ هاها . .

ـ هاها . .

شيء عجيب: ما اجتمع طالب وأستاذ فلسفة إلا كان الحمار ثالثهما!!

زملاؤنا الشوام لغتهم العربية أسلم ولغتهم الفرنسية أقوى ومعلوماتهم الفلسفية أكثر . . أما شيخهم الذى قفز فى حياتنا فهو الأستاذ جميل صليبا . ولم نسمع به فى ذلك الوقت . ولكنه كان لسانهم فى كل مناسبة . وفى رأيهم أنه أستاذ ليس له نظير فى الإحاطة والشمول وإنه وإنه . . وكان الأدب يمنعهم من أن يقولوا إنه أحسن من كل أساتذتنا . . يجوز . . ولكننا فى ذلك الوقت لم نعرفه . . ولا عندنا وقت لقراءته ثم إن المصطلحات الفلسفية عندنا وعندهم مختلفة . أما زملاؤنا الشوام فهم : سامى الدروبى وبديع الكسم وعبد الله عبد الدايم وعبد الكريم زهور ووفيق العظمة . . وقف واحد يسأل د . عبد الرحمن بدوى فلم نفهم ما قال . وحاولنا . ولم نعرف إن كان يعترض أو يستوضح أو يضيف . .

وفى إحدى محاضرات د . عثمان أمين وثقافته فرنسية حاول أحد الشوام أن يتكلم بالفرنسية فمنعه د . عثمان أمين قائلا : أنت مش خواجه ولا إحنا خواجات . . كلمنى بالعربى . .

وغضب الزميل وغضب د . عثمان أمين . ولم نفهم لماذا غضب الاثنان . .

ودارت مناقشة هكذا:

ـ أنت بتسألنى بالفرنساوى ليه؟

ـ آسف. لم أقصد شيئا.

ـ ومع ذلك ففى سؤالك غلطتان لغويتان هما.. كذا وكذا..

ـ أنا آسف يا أستاذ.. نحن عادة نفعل ذلك فى دمشق.. ولا أحد يتهم أحدًا بأنه عاجز عن التعبير.. ولكن لأن دراستنا الفرنسية تشمل كل العلوم ولأن جميل صليبا..

ـ اسمع الاسم ده لا أحب أن أسمعه.. جميل بتاعكم ده حمار!!

ـ ....

شيء غريب.. إن أكثر الحيوانات شعبية فى قسم الفلسفة هو الحمار.. الحمار بين الطلبة والأساتذة! فما اجتمع طالب وأستاذ إلا كان الحمار ثالثهما.. أو أحدهما!

وحاولت أن أداعب د. عثمان أمين الذى يؤمن بعظمة اثنين من المفكرين هما: ديكارت الفرنسى والشيخ محمد عبده. فقلت له: إن ديكارت له عبارته المشهورة تقول: متساوون فى التفكير. فلماذا لا نقول إن الحمار هو أكثر الكائنات قسمة بين طلبة وأساتذة الفلسفة؟

فغضب غضبا شديدا وظن أنه هو المقصود.. ولكن شرحت له ما يقول كل الأساتذة عن بعضهم البعض. فضحك وضحك وقال: فعلا أستاذكم ده بالذات حمار وحصاوى كمان.. هاها.. بلاش هاها.. خليها.. هاء.. هاء!

هاها..

فانتشرت بيننا عبارة (اصطبل الفلسفة) بدلا من قسم الفلسفة!

* * *

ـ تيجى نتفق على ألا نذكر اسم أستاذ من أساتذتنا . . تيجى نتفق على ألا نذكر كلمة حمار . . يعنى لا أستاذ ولا حمار . . ولا أستاذ حمار . . ولاحمار الأساتذة ولا أستاذ الحمير . .

ـ طبعا الحمير هم : نحن!

ـ هاها .

ـ هاها .

ـ عندى اقتراح قديم . . تيجى نروح جنينة الحيوانات يمكن نلاقى حيوانات أخرى أفضل من الحمار .

ـ اضبط . أنت ذكرت الحمار!

ـ آسف .

وكنا ستة مصريين وشواما . . وأعلن أحد الشوام أنه هو الذى يدعونا للغداء على حسابه . . وقال : ليس بينكم من هو أغنى منى . . أيها الفقراء أنتم ضيوفى .

وتوقفنا عند أقفاص الحيوانات وفى دماغ كل واحد منا أن يقارن بيننا وبين هذه الحيوانات وبين الأساتذة . واتجهنا إلى (جزيرة الشاى) . وكان الجو ربيعا . الهواء بارد . . والأوز يسبح فى البحيرة اثنين اثنين وثلاثا . . ولها ظلال على الماء والموسيقى تجىء من بعيد . . وفيها جرسون ظريف قال لنا : نهاركم قشطة . . مش سيد قشطة . الأفندية يطلبون ماذا؟

وطلبنا . وسادنا صمت تام . كأننا فقدنا ألسنتنا أو آذاننا . . فلا أحد يسمع لأن أحداً لا يقول . هل كنا نتأمل هل كنا نستريح من الساقية التى ندور فيها على الفاضى ـ أى الساقية هى التى تدور ولا يخرج منها ماء . والعيب ليس فى الساقية وإنما فى نقص الماء . .

وفجأة . . نعم مفاجأة . إنه أستاذنا د . بدوى ومعه سيدة أجنبية . وكان صوته عاليًا وهو يحدثها بالفرنسية عن تاريخ الحديقة وعن الحيوانات . ولاحظنا أن الموائد

حولنا قد امتلأت بأناس من كل لون. وأكثرهم من طلبة الكليات الأخرى. ولم يجد د. بدوى إلا منضدة خلت توا من الطلبة. ونادى د. بدوى الجرسون وقال له: أنت عارفنى؟

ـ أيوه يا بيه.

ـ طيب عارف أنا باكل إيه؟

ـ تحت أمرك.

ـ تبقى مش عارف. أنت نسيتنى والا إيه؟

ـ تحت أمرك يا أفندم.

ـ يبقى أنت مصر على النسيان.. إزاى مش فاكر.. كانت بيننا خناقة كبيرة.. أنا رجعت لك اللحمة.. كانت بدمها ومش مشوية جيداً..

ـ تحت أمرك.

ـ إيه تحت أمرك تحت أمرك؟.. ما عندكش كلام ثانى؟ أنت ناسى حكاية اللحمة؟

ـ أصلها بتحصل كثير.

ـ بيحصل كثير أن الناس ترجع اللحمة.. إذن المطبخ هنا سيئ جداً ويجب إبلاغ السلطات..

ـ تحت أمرك.

ـ أمرى إيه وزفت إيه.. انده لى صاحب المطعم.

ـ المطعم مالوش صاحب.. إحنا كلنا موظفين.

ـ أمال من اللى كنت اتخانقت معاه المرة اللى فاتت..

ـ واحد زميلى.

ـ يعنى أنت فاكر.. الله.. وبتتظاهر أنك مش فاكر.. ليه الكذب ده..

ـ ليه الغلط يا سعادة البيه..

ـ أنا للى غلطان؟

ـ تحت أمرك يا بيه .

ـ لولا أن معايا السيدة الأجنبية كنت تركت المكان . .

ـ برضه تحت أمرك يا بيه .

ـ هات لنا زفت .

ـ اللى هوه إيه يا بيه؟

ـ اللى أنا أكلته المرة اللى فاتت .

ـ وحترجعه ثانى؟

ـ لا . .

ـ هيه الهانم مش حتاكل؟

ـ مين اللى قال؟

ـ المرة اللى فاتت . كانت مع جنابك واحد ست . برضه ما أكلتش!

ـ لا . . دى حتاكل . . أسعاركم غالية . . طبق السلطة هنا ثمنه يساوى عشرة أمثال التكلفة . . واللحمة ثمنها أضعاف تكلفتها . . وده يبقى اسمه إيه .

ـ عبد مأمور . .

ـ اللى هوه مين؟

ـ اللى هو أنا يا سعادة البيه . .

ـ أنت غلباوى ليه؟!

ـ اللى تأمر بيه يا سعادة البيه . .

وبسرعة جاء الطعام له وللسيدة . . وبدأ د . بدوى يناقش فى مكونات السلطة بالذات : ربع خيارة وشريحة طماطم والباقى بصل وجرجير ونقطتين زيت وشوية ملح وشوية ميه . . آدى السلطة . .

ـ تحت أمرك . . تحب أرجعه . .

ـ لا خلاص الست بدأت تأكل .

ـ أى حاجة ثانية؟

ـ ما تورنيش وشك ثانى !

ـ حيحصل يا أستاذ .

وبدأ يترجم للسيدة الفرنسية ما قاله لها هكذا : إنه موظف غلبان من أعالى الصعيد له مشكلة فى القاهرة . هو ليس متعلمًا ويريد أن يشغل وظيفة كتابية لأنه زهق من حديقة الحيوانات . . من الحيوانات ومن الناس . . وأن الحياة هنا مملة . وحاولت إقناعه أن الملل هو هواء الدنيا وهو الملح فى كل طعام . ولكنه لم يقتنع . .

وسمعنا السيدة تقول : ولكنه لم يغير عمله . . فلابد أن الخيارات التى أمامه قليلة . . فليس أحسن من هذا المكان رغم سخطه عليه . .

ـ عنده مشكلة أخرى . أنه لم يتزوج بعد . .

ـ فى أصبعه دبلة . .

ـ زوجته ماتت أخيرا وهو لم يتزوج بعدها . وتركت له أطفالا . .

ـ إنه شاب صغير . .

ـ عيب الشباب المصرى إنه يتزوج مبكرا لأنه يحب الأولاد والأسرة . وهى عقلية ريفية . لأن الأطفال بالنسبة له . . وكما يقول الشيوعيون : أدوات إنتاج . . فهم يعملون فى الحقول والمصانع والبيوت . ويكسب من ورائهم .

ـ أطفال يعملون؟ غلط . . وأحيانا جريمة .

ـ أقنعته بألا يفعل ذلك . . وأفضل له ولهم أن يتعلموا ليكسبوا أكثر فى المستقبل إنها مشكلة معقدة . . ما رأيك فى اللحم . . نسيت أن أسألك إن كنت تشربين البيرة . . البيرة المصرية مشهورة .

ـ أشرب .

ـ وأنا لا أشرب . .

ـ إذن أنا لن أشرب .

ـ على كيفك . . هذا أفضل . .

وبقية الحوار مثل أول الحوار شيء مدهش . . فواضح أن الجرسون لا يريد أن يخدم د . بدوى لأنه مناكف ثم إنه لا يدفع بقشيشا فهو يرى أن الطعام فادح الثمن . . ثم حكى للسيدة قصصا أخرى فنظر بعضنا إلى بعض :

ـ إيه ده؟

ـ . . . .

ـ ما حاجته إلى فبركة كل هذه الحكايات . .

ـ . . . .

ـ إيه رأيك . . إيه رأيكم؟

ـ أقول لك وأمرى لله . .

ـ حمار اللى يصدق كلام بتوع الفلسفة . .

ـ رجعنا للحمار تانى؟

ـ ولا رجعنا ولا حاجة . . إننا مربوطون فى ذيل حمار . . حمير كثيرة

ـ هاها .

* * *

كانت فكرتى أن نذهب بأكبر عدد ممكن إلى (صالون العقاد) . ليرى الذين لا يعرفونه كيف يشرح لنا القضايا الفلسفية أوضح وأكثر إقناعا . . واتفقنا على أن نسأله كل واحد فى موضوع . وإذا سألنا العقاد من أى الكليات فلنقل من كليات متفرقة حتى لا يشعر أننا جئنا وفى جيوبنا فوازير نسأله عنها أو نمتحنه فيها . . أوكى . اتفقنا .

وكنا أول من وصل إلى صالون العقاد . وجاء د . زكى نجيب محمود وأحمد

فؤاد الأهوانى وتوفيق الطويل ـ وكلهم أساتذة للفلسفة . ولكن ليس من بينهم أحد يدرس لنا .

وسبقنا إلى السؤال أحد الزملاء الشوام وقال إن كتابا صدر للأديبة الوجودية سيمون دى بوفوار بعنوان (أفواه لا مجدبة) . تقول فيه . .

ولم يكمل عبارته حتى قال العقاد : وجودية إيه يا مولانا ده كلام فارغ دول ناس شواذ . . أفكارهم مثل فساتين السيدات موضات . . موضة الفستان الطويل والقصير . . والأكمام الطويلة والصدور العارية والظهور . . تقاليع فرنسية . . لأن مقياس الفلسفة الصحيحة والعقل السليم أن تتحدث عن الفرد وعن حرية الفرد ضمن حرية الجميع . . أنت منين؟

ـ من سوريا .

ـ وأنتم هناك تدرسون الوجودية؟

ـ لم ندرسها بعد . فعدد كبير من الأساتذة يخشى على عقولنا من الأفكار التى لم تستقر ولم تناقش . .

ـ لا خوف من مناقشة أية أفكار . ولكنها أفكار تافهة يريد أصحابها أن يعرضوها . . تماما كما فعل مصممو الأزياء . . إنهم يريدون أن ينشروا قماشا أو لونا فيجعلونه فساتين عارية لإغراء المرأة بشرائه لأنها حريصة على أن تتعرض للرجل . .

ـ لكن فى الفلسفة الوجودية لا شىء من هذا يا أستاذ . .

ـ إزاى يا مولانا . . اقرأ عن الراقصات الوجوديات . . والمطربات الوجوديات مثل الست المجنونة أديت بياف . .

ـ هى التى تسمى نفسها وجودية . . ولكن لا علاقة بما تفعله بفلسفة جادة . .

ـ هاها . . هاها . . وأنت يا مولانا قلت : إنها فلسفة جادة؟

ـ يا أستاذ ومرهقة للعقل أيضًا . وبها مصطلحات صعبة مستعارة من فلاسفة كبارمثل كنت وهيجل وهوسرل وغيرهم . .

ـ هذه الأسماء يا مولانا لا تخيفنا وإنما هناك مقياس لكل فكر سليم . . هذا

المقياس يجعلنا نسقط من حساباتنا هذه الفلسفة الوجودية . . يعنى أنتم ساقطون حتى لو نجحتم . . هاها . . هاها .

وكان أساتذة الفلسفة الجالسون معنا يضحكون . فربما كان رأيهم من رأى العقاد . ونحن فقط الذين نختلف مع الأستاذ . ولم يقنعنا الأستاذ . ولم يبذل جهدا فى ذلك . فهو يرى أننا مخطئون . . وخلاص . .

ولم تكن عندى معلومات كافية للدخول فى مناقشة عن الفلسفة الوجودية . فالذى لدىّ من المعلومات قليل . والعقاد قد قرأ فيها أكثر . ورفضها قبل القراءة وأثناءها وبعدها . ولا جدوى من الحوار معه . .

ولكن ، واحداً منا قال : يا أستاذ أنا أرفض الوجودية لأسباب سياسية . فأنا ماركسى يا أستاذ .

ـ يعنى إيه يا مولانا . . شيوعى يعنى؟! وأنت أيضا منحرف وشاذ . فالذى يبالغ فى حريته على حساب الآخرين شاذ . . والذى يبالغ فى حرية الآخرين على حساب حريته وكرامته شاذ أيضا . فالوجوديون والشيوعيون لا يستحقون منا إلا عظيم الاحتقار . . وأنا أتهم هذه الجامعات التى تعلم الطلبة أن يمشوا على رجل واحدة قبل أن يمشوا على اثنتين . . يجب أن تتعلموا الكلام وبعد ذلك من حقكم أن تعبثوا بالكلمات . . أن تتعلم الصحيح وبعد ذلك لك أن تخطئ . . ولكن أن تبدأ غلطانا فلن يتسع وقتك لتصحيح نفسك . الجامعة ما شية بالمقلوب . . فلا غرابة فى أن تحنو رءوسكم وترفعوا أحذيتكم فى وجه المنطق . . ليست هذه فلسفة إنها آراجوزات . . أكروبات . .

ـ تسمح لى يا أستاذ .

ـ . . . .

ـ إن الشيوعية ليست سيركا . . إنها منطق التاريخ . . وحتمية التاريخ . . ونحن لم نفعل أكثر من أننا نقرأ التاريخ . . ورأينا وفهمنا بعمليات التنظير . . لا أكثر ولا أقل . .

ـ لا . . يا مولانا . . هناك ما هو أكبر وهناك ما هو أقل . . هناك احتقار للإنسان

واحترام أقل لحريته . . فالشيوعية هى استهانة وإهانة منظمة لكل ما هو محترم ومقدس عند الإنسان . . وأنتم يا مولانا أيضا شواذ . .

ـ كلنا يا أستاذ .

ـ كلكم يا مولانا . . أنتم الذين اخترتم أن تكونوا حيوانات ليضعها كارل ماركس فى محاريث التاريخ .

ـ أى أنواع الحيوانات يا أستاذ؟

ـ حمير يا أستاذ!

ـ . . . .

ـ هاها

ـ هاها .

وبعد ساعة وأكثر لا ندرى ما يقال حولنا . . ونزلنا من صالون العقاد نتحسس ذيولنا . . فلابد أن لنا ذيولا . . وإلا من أين جاء الاجماع على التشابه بيننا ـ طلبة وأساتذة . . والحمير . . كيف حدثت هذه النكسة العظيمة . . دخلنا قسم الفلسفة بشرا ، وتعبنا ثم تخرجنا حميرا . .

ولكننا لا نصدق ذلك . لا نصدق هؤلاء الأساتذة . . ولا نحترم أن يضعونا جميعا تحت اسم واحد . . لمجرد أننا نختلف ونخالف . .

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى مش إحنا الحمير . .

ـ هاها .

ـ هاها . .

الذين يأكلون سندوتشات الطعمية بالوجودية!!

لا كانت فى يدى ساعة ولا فى جيبى مفكرة. فالزمن لا معنى له . . . لأننا نحدد أيامنا بالمحاضرات والأساتذة. وندخل مع دقات الساعة ونخرج. وننطلق إلى المكتبة، وننزل تحت المكتبة لنشرب الشاى ونأكل السندوتشات ونسأل عم محمود النوبى: حسابك كام يا عم محمود؟ ويقول. وندفع أحيانا. وأحيانا نناقش، وهو هادئ الصوت والملامح. وفى إحدى المرات قلت لزميلى: تضحك أنت ولا أعيط أنا؟

ـ ليه؟

ـ بتسأل؟ مش ملاحظ إحنا بنقول إيه وبنعمل إيه؟

ـ منذ ساعة كنا بنتكلم عن الأبدية والأزلية. . وأصل الكون والكائنات. وهل هناك قانون واحد. . وهل هناك نظام واحد. . وهل للكون بداية. . فإذا كانت هناك بداية، فما الذى كان قبل البداية وإذا كانت للكون نهاية فماذا بعد النهاية؟ هل من المعقول أن يبدأ الكون بالعدم وينتهى بالعدم. . ويكون العدم هو البداية والنهاية. . . ونحن الآن نتناقش فى عدد السندوتشات التى أكلناها فى الأسبوع ونتهم الرجل بأنه يغالطنا. . أو هو يتهمنا ومش عاوزنى أضحك على بتوع الأبدية والفول والطعمية؟!

ـ يعنى إيه؟

ـ الصح مين . . والصح فين . . والأنفع لنا إيه . . وإذا كانت الأبدية التى تطعمنا الطعمية . فما قيمة النظريات الفلسفية . .

ـ حترجع تانى؟

ـ وهوه أنا طفشت من قسم الفلسفة . . ما إحنا مزروعين ليل ونهار . . ولانعرف بكره من إمبارح . . ولا الليل ولا النهار . . إحنا مدمنين!

ـ مؤمنين؟

ـ مدمنين!

ـ وبعدين؟

ـ إحنا الآن فى البعدين . . يمكن كمان مالناش بعدين . .

ـ أنا عندى حل يريح الجميع .

ـ مين الجميع؟

ـ أنت وزملاؤنا ويمكن الأساتذة .

ـ إيه؟

ـ نلقى بأنفسنا فى النيل . . الفئران اللى هيه الفئران فى السويد والنرويج تنتحر كل سنة بأن تغرق نفسها فى البحر . . وفى طريقها إلى البحر تهلك الغابات والمزارع . . وبدلا من أن تموت بريئة تموت مجرمة ويكون انتحارها عقابا لها . .

ـ نكته بايخة!

ـ طيب إيه النكتة الحلوة؟

ـ مفيش نكتة . هذا قدرنا نتكلم عن الوجود وحالنا عدم . . نرتاد السماوات ونعود إلى بيوتنا سيرا على الأقدام . .

ـ اشمعنى إحنا . . ما عندك عبدالرحمن بدوى لابس ومتشيك . . وعثمان أمين عنده عربية . . والباشا منصور فهمى فيللا . . وأفلاطون كان غنيا . ولكنه ترك

أستاذه سقراط يغسل التماثيل . . وكان جير التماثيل هو الذى ترك الحفر والنقر فى وجهه . . ولم يفلح أفلاطون فى إقناع سقراط بأن يتفرغ للتفكير ويتولى أفلاطون الإنفاق على زوجته وأولاده . .

ـ سقراط غاوى فقر ـ زينا . . وأفلاطون بخيل زيك أنت وعبدالرحمن بدوى . . والعقاد فقير ونزهى . . ـ زيك؟

ـ أنا لا فقير ولا نزهى . .

ـ أمال أنت إيه؟

ـ والله العظيم ومالكش على يمين . . . والله ما أعرف . . وأنا دخلت قسم الفلسفة علشان أعرف الدنيا إيه والإنسان إيه والكون إيه . . وبكره أتخرج كما دخلت يا مولاى كما خلقتنى . .

ـ أقول الكلمة المحرمة؟

ـ على إيه؟ لاداعى! يا خبر أسود إحنا نسينا ندفع لعم محمود ثمن السندوتشات!

ـ سندوتش الفول بالأبدية والطعمية بالوجودية . . .

ـ عندى فكرة . . إيه رأيك لو أخذنا سندوتش فول واديناه للدكتور بدوى إنه جالس فى المكتبة من ثلاث ساعات . لا أكل ولا شرب .

ـ مش أنا . . أنت بتعرف تكلمه وبياخد ويدى معاك . .

وذهبنا . ورأينا د . بدوى بين عدد كبير من الكتب . . مرة يلبس النظارة ومرة يقلعها . . وكانت فكرتى مجنونة . كيف ـ ولأى سبب نخرجه من صومعته الورقية . . ومن شرنقته الفكرية . ولكنى حاولت اقتحمت .

وقلت : صباح الخير يا دكتور . .

ـ إحنا بعد الظهر . .

ـ بعد الظهر خير يا كتور . .

ـ إيه . . فيه إيه؟

ـ سؤال؟

ـ بكره . عن إيه؟

ـ كنا فى (صالون العقاد) وقال لنا . .

ـ بس بس . .

واتجه إلى كتبه وانكسفنا!

* * *

فى الهند يقدسون الأبقار . . الإناث فقط . فإذا نامت بقرة فى الطريق العام توقف المرور . ولا يجرؤ أى إنسان أن يقول للبقرة : هس . . . وإذا قال فمن بعيد . . لا يمد يدا ولا ساقا لأنها مقدسة . . وكثيرا ما دخلت البقرة أحد المحلات الكبرى وتبولت . ولا كلمة . أو توهمت أن أحدا يطاردها فاتجهت بكل ثقة وهدوء وداست وحطمت ودشدشت كل ما يعترضها . . ويمكن أيضا أن تحشر نفسها فى الباب . فلا أحد يدخل ولا أحد يخرج . . أليست مقدسة؟

هذه هى حالنا تماما تماما . . الأستاذ العقاد دخل معبدنا المصنوع من الزجاج : أطباق وملاعق وسكاكين وتماثيل . . كلها من الزجاج الملون . وهدم علينا المعبد . ولم يتوقف وإنما خرج سعيدا ولم يدرك أنه حطم عقولا وقلوبا . .

وجردنا من ملابس العيد ومخدات ريش النعام . وتركنا فى العراء!

فكل فكرة نعرضها يقول : سخيفة!

وكل نظرية تافهة . . وكل أستاذ : حيوان له ذيل وينهق! ونحن أحرار فى اختيار الصفات التى تعجبنا . فهذه هى الحرية الوحيدة عندنا . .

يعنى إيه؟ ـ أقول لنفسى ـ من المؤكد أننا الآن نعرف بعض النظريات الفلسفية

أكثر من الأستاذ العقاد. إنه أستاذ عظيم ومفكر وشاعر وناقد وعلى العين والراس. ولكن أنا لاحظت أنه عندما عرض نظرية الفيلسوف الألمانى كنت فى معنى الذات لم يكن دقيقا ولا كان مقنعا. ولما عدت إلى البيت أراجع ما قاله الأستاذ على الذى عندنا فى الكتب، وجدت العقاد لم يكن ملما تماما. ولابد أن نظريات أخرى غيرها بعيدة عن أصابعه. وعينيه.. ليه لأ!

فهل هى أفكارنا الهزيلة ونظرياتنا السخيفة أو هو الأستاذ عنيف يرفض الرأى الآخر والنظريات الثانية أو الثالثة.. هل هو يكره الجامعة لأنه لم يدخلها؟ معه حق. هل يكره أساتذة الجامعة وبالذات أساتذة الفلسفة؟ معه حق. فالأساتذة يقدمون لنا معلبات فكرية. لا نعرف كيف تم تصنيعها وتعليبها ومطلوب أن نقبلها كما هى وأن نبلعها أما الهضم فعلى الله.. وفى كل مرة نناقش أستاذا لعلنا نعرف أن نفهم، تكون السخرية هى المكافأة الفورية أو العقاب الجماعى المرتجل..

مرة أحد زملائنا الشوام من غير مناسبة سأل أستاذ الفلسفة الإسلامية د. محمود خضيرى وهو رجل رقيق خفيض الصوت عنده ابتسامة تجمع بين السخرية المهذبة والفرحة بتلامذته قال له الطالب: الإمام الغزالى له مذهب فلسفى فى معنى الأسباب (وأطال الطالب فى السؤال)..

وكان رد د. محمود خضيرى: أنا سوف أصلح لك السؤال. فالغزالى ليس له مذهب فلسفى فى الأسباب.. ولكن له نظرية أو فكرة يمكن الرجوع إليها فى كتاب كذا. ارجع لهذا الكتاب. وتعال بعد يومين واقرأ لنا ما كتبت.

وفى ذلك الوقت كان يدرس لنا (الفلسفة الأخلاقية) أو فلسفة الأخلاق أستاذ إنجليزى هو البروفيسور لامونت. وكان رقيقا ناعم الخطوة هامس الكلمات.. وإذا تكلم فكأنه يقرأ فى كتاب. كلامه محدد. وإذا أعاده فى اليوم التالى فهو كما قاله بالأمس. وقال فى المحاضرة: إن مفهوم الأخلاق عند الفيلسوف الألمانى نيتشه...

وعند نهاية المحاضرة طلب منا : ابحثوا وتعالوا الأسبوع القادم نقرأ معا ماذا كتبتم . وكيف . طلب من بعضنا أن يقرأ . وقرأت أنا . وقال لى : لا بأس . ولكن لم تنتقد نيتشه . لم تقل رأيك . .

وهل من الممكن أن يكون لى رأى فى فيلسوف عظيم لم أسمع عنه إلا من سنتين ضمن عشرات الفلاسفة الآخرين .

ولا أدعى أننى قلت أو رددت ولكن أحد زملائنا الشوام وقف يقول : ليس من الضرورى أن يكون له رأى . فاختيار الموضوع وبهذه الصورة هذا رأى . ولكن أن يجارى الفيلسوف أو يعارضه فرأيه غير مقبول . لأنه دون مستوى العظمة الفكرية للفيلسوف .

وقال الأستاذ لامونت : كلامك صحيح . ولكن لابد أن يكون لك رأى حتى لو كان غلطا . وفى الغالب سوف يكون خطأ وأنا أريد أن أعرف قدرتك على الغلط وأنت تختار غلطا . على كل حال هو ـ أى أنا ـ كان له رأى . ولكن أردت أن يكون رأيه أقوى وأعنف وأكثر تطرفا . فأنتم فى سن التطرف أما الاعتدال فسوف يجىء بعد ذلك . . تطرفوا الآن بلا خوف . . وسوف يتحول الخوف إلى حكمة . . والاعتدال حكمة !

والتفت إلى الزملاء وقلت : يعنى إيه؟

ـ هوه أنت كل حاجة عندك يعنى إيه . . يعنى اللى أنت سمعته . .

ـ . . . .

وفى اليوم التالى ذهبنا إلى الأستاذ العقاد وأعدنا عليه ما قلنا وما قيل لنا . . ودق جرس التليفون فذهب العقاد يرد . فما كان من د . زكى نجيب محمود إلا أن قال وكان كلامه واضحا مقنعا . وكان من الممكن أن نكتفى بهذا الموضوع ، ولكن الأستاذ العقاد استأنف المناقشة . وقال وجال وصال . .

هنا فقط أسعدنى أن الزملاء قد اقتنعوا بالبراعة الفكرية للأستاذ العقاد وأنه قادر على التوضيح والإقناع . بشرط أن تتركه يقول دون أن ترفع أصبعا أو عينا . ولكن لم

نتفق فيما بيننا على السكوت إذا تكلم العقاد. فقاطعه أحدنا وقال له: يا أستاذ. . أنا عندى سؤال. . لا مؤاخذة أنا قاطعتك لكن خايف أنسى السؤال. .

ـ . . . .

ـ هوه مذهب حضرتك إيه؟

ـ إيه ده يا مولانا؟

ـ يعنى إحنا مثلا. .

ـ مين أنتم؟

ـ إحنا الأربعة دول. . واحد شيوعى وواحد وجودى وواحد يهودى وواحد من الإخوان المسلمين. . ولكن إحنا مش عارفين مذهبك الفلسفى إيه يا أستاذ. .

ـ ماليش مذهب. . أنا عندى منطق. . كل شىء بالعقل. . الذى يدخل عقلى هو الصحيح والذى لا يدخل عقلى يبقى كلام فارغ. . زى اللى بتقوله ده وزى اللى بيقولوه الدكاتره بتوعكم. . هاها. . هاها. .

ـ حنرجع لحكاية الحمير؟

ـ حمير إيه يا مولانا. .

ـ يا سعادة البيه دى حكاية قديمة. .

ـ طيب أنت عاوز إيه؟

ـ ولا حاجة يا بيه. . ربنا يخليه عامر. .

ـ اللى هوه إيه يا مولانا؟

ـ البيت. .

ـ البيت ما يهمش. . المهم العقل. . العقل هو الذى يجب أن يكون عامرا. . فالبيت لا يخلق بيوتا وقصورا وحضارة. . يبنى ويهدم ويغسل ويكنس ويرفع ويخفض. .

ـ والله ما أنا فاهم حاجة يا بيه. .

ـ أنت بتدرس إيه يا مولانا؟

ـ فلسفة .

ـ هاها . . بقى مش فاهم هناك وجاى تفهم هنا . . يا مولانا فيه حاجة وقعت منك فى السكة .

ـ حاجة . . حاجات يا أستاذ ! !

ـ لا حاجة واحدة

ـ . . . . . .

ـ العقل . . هاها !

* * *

ـ حاقول لكم حاجة . . وحتقولوا مجنون

ـ أنت مجنون من غير ما تقول . .

ـ اسمعوا بس . .

ـ إيه رأيكم نجيب د. بدوى يلقى محاضرة هنا . .

ـ هنا؟ فى جمعية الإخوان المسلمين فى إمبابة؟ أنت مجنون!

ـ مجنون ليه . . وبدوى له دراسات للمستشرقين عن الإسلام والصوفية وله اجتهادات فى الفلسفة الإسلامية . .

ـ إن شا الله يكون له ألف كتاب . . لاهوه يرضى؟ ولا الإخوان . . فهم لا يعرفونه . يكفى أن يقال لهم إنه أصدر كتابا عن نيتشه الذى قال : إن الله قد مات ! ! . . هذا يكفى لقتله أو طردنا قبل أن يقتلوه . .

ـ طيب نجرب .

ـ تجربة مجنونة . ومرفوضة . . ثم إحنا عاوزين منه إيه . . أنت عاوز تجرب ما الذى يمكن أن يقوله . . كلنا نعرف ما سوف يقول . سيبك من الحكاية دى . .

ـ قل أنت حكاية ثانية . .

ـ والله ما أنا عارف . .

ـ يا أخى هلكتنا طول الوقت تقول إنك مش عارف . . مش عارف . . أمال اللى بتقرأه وتكتبه وتجاوب عليه فى المحاضرة ده كله إيه . . مش دى كلها معرفة؟!

ـ معرفة إيه . . . ده كلام صغير لا طلع ولا نزل . .

ـ أمال الكلام الكبير إيه؟

ـ مش عارف . .

ـ يا نهار أسود . السنة دى حتاخد الليسانس وطبعا حتطلع الأول . .

ـ والله العظيم ما أنا عارف . . ليس تواضعا . . لأنه لا يوجد سبب للتواضع . . فليس عندنا أى شيء . . وإنما نحن أخذنا عناوين الفلاسفة . والخطوة القادمة أن ندق أبوابهم وأن ندخل إن سمحوا لنا . وإذا دخلنا جلسنا واستمعنا إن قالوا لنا شيئا . إلا إذا ظلت الأبواب مغلقة وأوجعنا أيدينا . وردونا نجرجر خجلنا وعجزنا . .

ـ يا أخى دوختنا . . وقرفتنا فى عيشتنا . . الله يخرب بيت سقراط على أفلاطون على بيت بدوى على بيت سارتر على الوجوديين واحد واحد . . أنت عاوز . . أروح أرمى نفسى فى النيل . .

ـ . . . . .

ـ قل لنا نعمل إيه . . قلت لنا روحوا للعقاد رحنا ولطه حسين والمازنى ولطفى السيد ومنصور فهمى وحسن البنا . . ومشينا وراك . . دلوقت عاوزنا نروح فين . . .

ـ إلى قدرنا . .

ـ عارفينه . قدرنا الأسود؟

ـ لا مش عارفينه!

ـ إيه هو؟

ـ عم محمود بتاع الفول بالأبدية والطعمية بالوجودية . .

ـ هاها . .

ـ هاها . .

* * *

استوقفت د. عبدالرحمن بدوى وقلت له : عندنا مشكلة يا دكتور . .

ـ . . . .

ـ واحد زميلنا قرر الانتحار ويريد أن يراك قبل أن يموت . . .

ـ مين ده؟

ـ فاروق عبدالرحيم . .

ـ ليه؟

ـ الفلسفة هى السبب . .

ـ . . . . . .

ـ هوه مش فاهم وحاول يفهم مش قادر . . كان مؤمنا ثم كفر . . ثم اهتدى وصار مؤمنا . . والآن . .

ـ الآن ماذا؟

ـ ارتد كافرا . .

ـ هاها . . يعنى رجع له عقله . . هاها . .

ـ ويريد أن يراك . .

ـ إيه فايدة أن يرانى مادام قد قرر ألا يرى الدنيا كلها . .

وكأن د. بدوى إنسان آلى . . مشى وابتعد واختفى . .

ويسألوننى : مين هوه فاروق عبدالرحيم؟

ـ مفيش حد . .

ـ أمال إيه؟

ولا حاجة عاوز أعرف رأى أساتذتنا فى مستقبلنا . . إذا كنا حنعيش

أو حنموت . . وأنتم شفتم . . يعنى لم يسأل جادا ولم يفكر لحظة ولم ينزعج لانتحار أحد تلامذته . . بلاش أحد أولاده . .

ـ طيب يا أخى هوه ما كانش يهمه أى أحد . .

ـ أمال بيدرس لنا ليه؟

لأنه موظف وبس . . هذه مهنته . . وأنت حر تعيش عالم أو تموت جاهل . . . هذا شأنك مش هيه دى الفلسفة الوجودية؟!

ـ لأ مش هيه دى . . .

ـ إحنا بنحمل الأساتذة أكثر مما يطيقون . . هو يعلم وبس . . أنه كتاب . . أسطوانة . . حديث إذاعة لكل الناس وليس لواحد بالذات . . تقرأ أنت حر . . تستمع أنت حر . . تسقط تنجح . . يعجبك لايعجبك . . تروح وتيجى فى ستين داهية . .

ـ طيب سلام عليكم . .

ـ رايح فين؟!

ـ فى ستين داهية . .

ـ يعنى فين؟!

ـ رايح أحضر محاضرة (الوجودية فلسفة إسلامية) . .

ـ لمين؟

ـ د . بدوى . .

ـ هاها . .

ـ هاها . .

جزمة حسن البنا ولا طربوش العقاد!!

عفريت ركب أيامى . الأحداث سريعة . كأنها كانت حبيسة ثم انفتح أمامها الطريق وخرجت كلها من عنق الزجاجة . تخرجت . وكان ترتيبى الأول . مات أبى . قابلت د. عبدالرحمن بدوى فى مكتبة النهضة واقترح لى موضوعا للماجستير هو (القلق الوجودى) . قابلنى أستاذى د. شوقى ضيف وكان من رأيه أن أتفرغ للدراسة والتدريس الجامعى . أما إذا قررت عملا آخر فمن رأيه أن أذهب إلى د. عبدالوهاب عزام وكان عميدا لكلية الآداب . قابلت زميلى فى قسم الفلسفة محمد شرف وكان يعمل فى جريدة (الأساس) قال لى : اكتب قصة أو ترجمها . هاتها وسوف أنشرها . . كتبت ونشرها . وكان الزميل موسى صبرى مشرفا على الصفحة الأخيرة .

ثم ترك موسى صبرى جريدة (الأساس) إلى جريدة (الزمان) وشغلت مكانه يساعدنى الفنان عبد السلام الشريف وتلميذه حنا صبرى .

سألنى رئيس التحرير د. على الرجال إن كنت أريد أن أشتغل بالصحافة . فقلت : نعم .

هل هذا ما أريد؟ لقد وجدت أمامى طريقا فمشيت . . وعاتبنى د. عبد الرحمن بدوى عتابا خشنا . كيف أعمل بالصحافة مهنة التفاهة والإثارة . ولا تليق بالفكر الجاد ولا بالفكر المحترم!

ولكنه لا يعرف كل الظروف . .

قابلت أستاذى د. لويس عوض قال لى : فهمت من كلام عبد الرحمن بدوى أنك قررت العمل بالصحافة. اعدل عن هذا القرار . . خسارة!

وهو أيضا لا يعرف الظروف . .

فى الدير الدومنيكى قابلت صديقى الأب قنواتى رئيس جميعة (إخوان الصفا) وأكد لى أنها خسارة!

خسارة مين ومكسب مين؟ إنهم لا يعرفون إلا جانبا من الصورة التى صارت حياتى بعد أحداث زلزلت جوانبى وصدعت دماغى وحطمت قلبى . . وأوقفتنى فى ميدان واسع تخرج منه شوارع مظلمة وحارات خانقة وضوضاء وعواصف وأمطار وصراخ كأننى شخصية إغريقية خرافية. مطلوب منها أن تركب الريح وتناطح الموج وتصل إلى الجزيرة المسحورة وهناك بدلا من أن أقابل كبير الآلهة زيوس، أجد على بابا والأربعين أستاذا فى الفلسفة والأدب والتاريخ والجغرافيا وكل من هو حانوتى فى تاريخ الحضارة الإنسانية . . ثم أجلس ليقدموا لى مستقبلا باهرا على صينية من ذهب : شبيك لبيك . . الكون كله ملك إيديك . . ألست الأول على قسم الفلسفة . . ألست الوجودى الأول فى مصر . . ألست تسكن فى ٣٨ شارع الأمير حسين بالزمالك فى قصر الأميرة نعمت هانم يكن . . ليس فى القصر بالضبط ولكن مبنى ملاصق له أنت ووالدك؟ إذن لم نخطئ فى العنوان . . هات إيدك . . امشى ورائى . . أنت صيد سمين فى مصيدة جهنم التى رسمها ونظمها وغناها الشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى . . أهلا بك . . ارفع رأسك يا أخى ارفع . . اقرأ المكتوب على الباب : أيها الداخلون اتركوا وراءكم كل أمل فى النجاة . . هاها . .

❊ ❊ ❊

لا يزال بعض الزملاء الشوام فى القاهرة لم يعودوا إلى بلادهم . . إنهم فى إجازة فرفشة . . إنهم يعرفون المرح . . وهم دائما فى غاية الأناقة . لا أعرف كيف .

فالزميل بديع الكسم الذى صار زوجا للزميلة فى قسم الفلسفة درية فؤاد نظيف أنيق يرتدى البدلة والكرافتة طول اليوم طول السنة .

شىء عجيب . والزميل عبد الله عبد الدايم هو أيضا جاد متجهم . الكتب فى يده . . وإذا تكلم فكأنه يحاضر . . والزميل سامى الدروبى وسيم جميل العينين ملىء الصوت رحب الصدر ابتسامته الحلوة لا تفارق كلامه الذى يخرج من أعماقه . وفى منتهى الأناقة . والدعوة إلى العشاء من أستاذنا د . عثمان أمين . لا أعرف كيف جاءت الدعوة . ولكن وجدتنى مدعوا . . إنهم يضحكون . إنهم سعداء بالنجاح . وأنا نجحت ولكن لم أكن سعيدا . . إنهم لا يعرفون الأضواء التى أنطفأت فى حياتى . . فهناك أكثر من صورة لكل منا : صورتنا التى صنعناها بعضنا لبعض . . صورتنا عند الأساتذة . . صورتنا عند أهلينا . . وصورتنا كما نراها . . كما نحب أو كما لا نحب . . ولكنها صور . وكلها معلقة فى الهواء . . وهم يضحكون . لم أكن قد رأيت البيرة ولا النبيذ . . لم أرها قريبة هكذا . أما زملاؤنا الشوام فقد اعتادوا على ذلك . لقد عرفوا أشياءكثيرة جدا وبسهولة . .

ودار الكلام أو على الأصح أن يقال : داخ الكلام . . الكلام ما داخ ولكننا دخنا .

ماذا تريد؟ سألنى أحد الزملاء . .

ـ إننى أحاول الإجابة عن هذا السؤال .

ـ تشتغل بالتدريس فى الجامعة . . أو تبحث لك عن شىء آخر . .

ـ لم أحدد بعد . . وأنت؟

ـ سأعمل مدرسا فى جامعة دمشق . . وأنت؟

ـ أيضا . .

ـ وأنت؟

ـ بس لحد كده . . أبويا رجل غنى وأمى فرحانة بالشهادة وسوف أعمل بالزراعة . .

ـ كأنك جئت إلى المكان الغلط .

ـ أبدا . كل مكان غلط . فلم يكن من أملى أن أدرس فى الجامعة . وإنما فقط حتى لا أكون أقل من إخواتى غير الأشقاء . أمى عاوزة كده . وأنا حققت لها ما تريد . فأنا ابنها الوحيد . . وأبى حققت له ما يريد فسوف أساعده فى أعماله الواسعة . .

ونظرنا جميعا إلى زميلتنا (ف . .) وقلنا : وأنت؟

ـ هه . . حتجوز . .

ـ وهل كنت فى حاجة إلى ليسانس فى الفلسفة . . يمكن قدرك أو قدر العريس . . !

ـ أبدا . ولا قدر ولا حاجة . . هوه معاه ليسانس فلسفة من السوربون . .

ـ يا نهار أسود . . اثنين فلاسفة فى بيت واحد . . جناية على أى طفل يولد لكما . .

ـ اطمئن الفلاسفة معندهمش أولاد . .

ـ يمكن لأن أكثرهم لم يتزوج . .

ـ أيوه . . الفلاسفة الألمان : كنت ونيتشه وشوبنهور وفيلسوفكم الوجودى هيدجر لم يتزوجوا . . وسارتر الوجودى أيضا وحتى لو تزوجوا فلن يكون أولادهم فلاسفة . . فأنا لا أعرف فيلسوفا ابن فيلسوف . . العقاد بتاعك وبدوى بتاعك لم يتزوجا . .

ـ والله أحسن!

وتدخل د . عثمان أمين : مالكم فيه إيه . . أنتم مشغولين بزواج الفلاسفة وطلاقهم . . مالكم . . اللى عاوز يتجوز واللى عاوز يطلق . . هو حر . . وهو يعنى أبونا كان سقراط أو كان أفلاطون . . إحنا كده شيطانى!

ولا أذكر الآن ماذا كان الطعام . . فكل الأطعمة التى أراها وأفضلها هى من العيش والخبز والطماطم والبيض . . حتى لو لم تكن كذلك فإننى أريدها أن تكون .

وفجأة ظهر اقتراح يقول : أحسن ما يمكن عمله الآن هو أن نبعد عن الأساتذة .

كفاية علينا أربع سنوات بالطول والعرض وبالعمق . . وأحيانا بلا عمق . وننفرد بأنفسنا ونحاول . .

كنا كالسائرين نياما . . نمشي ونقعد ونقوم ونتواعد على اللقاء فى الأيام التالية . ومن الغريب أننا نجيء فى الوقت المحدد كأننا فى غاية اليقظة . والتقينا . وتسابقنا فى التساؤل :

ـ أنت لو كانت عندك بنت تدخلها قسم الفلسفة؟

ـ اشمعنى أنا . .

ـ أى واحد منا . . أنت؟

ـ فلسفة لا . . أفضل لها كلية الزراعة . .

ـ وأنت؟

ـ أجوزها للدكتور عبد الرحمن بدوى وأخليها تتوبه عن الفلسفة .

ـ يا شيخ حرام عليك . . وإحنا كنا حنلاقى من ينقل لنا أحدث نظريات الغرب فى الفلسفة الحديثة ويترجم لنا أصعب المصطلحات . .

ـ طيب أنت؟

ـ أنا مش بتاع فلسفة أنات بتاع علم الاجتماع . .

ـ طيب عاوزها تبقى إيه . .

ـ والله مش عارف . . يا أخى تبقى زى ما تبقى . . إن شاء الله تكون أستاذة فى علم التخاطب البذىء . عميدة لكلية (يا عمر) مع وضع يديها فى وسطها ونطقها هكذا : يا عووومر!

ـ إيه ده؟

ـ أنت طلبت منى أكلمك عن ابنتى فاخترت لها أطول الوظائف لسانا .

ـ طيب ليه؟

ـ أنتو اللى سألتونى لو كانت عندك بنت ولم تقولوا لو كان عندك ولد . .

ـ طيبب لو كان عندك ولد؟

ـ لن أبعد كثيرا . . أتمنى من الله ولا يكتر على الله أن يكون بلطجيا كالجدعان التى نراها فى روايات نجيب محفوظ . .

ـ وليه كده؟

ـ يا أخى أنا مش عاوز أولاد ولا بنات . .

ـ وأنت؟

ـ أنا مش عاوز حاجة . . الفلسفة كانت وسرف تبقى هواية لذيذة ، وأشوف حالى مع والدى وأتفرغ للتجارة والفلوس والسفر وقد وعدت أبى أن أعوضه عن أولاده الثلاثة الذين ماتوا فى ظروف قاسية . . حتى لو أدى ذلك إلى الزواج من أربع فى وقت واحد . . ولكن من يضمن لى أن يعيش أبى ليرى أولادى العشرة . . ربنا كريم . . وكما سيريحنى منكم جميعا ، سوف يسعد والدى بأحفاده!

ـ . . . .

ـ لحظة صمت . . لحظات صمت .

ـ . . . .

ـ إيه الحكاية؟

ـ مفيش . الحكاية هى أننى أطلب إلى حضراتكم أن تقفوا لحظة حداد . .

ـ على مين؟

ـ على واحد منا . .

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى لابد أن أحدنا سوف يخيب أمله إن شاء الله . . ونندم على ما كان فى سنواتنا الجامعية . .

ـ هوه أنت زعلان لأننا خلصنا من وجع الدماغ؟

ـ الفراق صعب يا إخواننا . . الزمن الذى جمعنا مات . . الجليد قد غطى أرضنا . . والظلام دفن زماننا . . وانتهينا كما ابتدينا بعيدين وسوف نزداد بعدا كأننا مثل بقية الكون فكل شىء فى الكون يتباعد من ألوف ملايين السنين . فلا يزال

الفـراغ والعـدم أوسع وأعـمق . . فـمن حـيث لا ندرى جـئنا وإلى حـيث لا ندرى نعود . .

ـ عندنا فى الصعيد نرقع بالصوت . . يا إخواننا حد يصوت وحد يلطم . . وهو فيه إيه . .

❊ ❊ ❊

والذى حـدث بعـد ذلك شىء غـريب . . أو مـثل كل شىء غـريب . . فـقـد تفككنا . . تحللنا تباعدنا . . دون كلمة وداع . . ودون وعد باللقاء . تعبنا . . أتعبونا وأتعبنا أنفسنا . .

فقد تسللنا واحدا واحـدا إلى بيت صديقنا يوسف هرارى . أما البيت فأنيق نظيف مرتب . كشاب عايق . . ورود فى كل مكان . شىء غريب . والأركان بها كتب . والبيت مغسول تماما . دخلنا فى غرفة إلى غرفة إلى شرفة لنجد الأبوين فى غاية الأناقة . وفرحتهما بنا واضحة . . . وخرجت الأم أولا . . ووراءهما الخادمة التى ارتدت ملابس كالتى نراها فى أفلام القرن التاسع عشر . ويبدو أنها أجنبية . . وما جرى بعد ذلك : تقديم الشاى والجاتوه وإغلاق الباب علينا لنكون على حريتنا .

واعتدل يوسف هرارى وقال : أنا عندى كلام جديد . .

أما يوسف هرارى فهو متوسط القامة . تاجر ابن تاجر ابن تاجر ولكنه مثقف ابن مثقف جدا وهو غنى ابن غنى ابن غنى جدا فى السودان وجنوب إفريقيا وبولندا وأستراليا . . وهو نظيف الملابس واليدين والكلام .

قال : أنا قابلت فى ساعة واحدة د . بدوى فى مكتبة النهضة والأستاذ العقاد فى مكتبة الأنجلو ود . يوسف مراد فى مكتبة زلزل . . والمفكر الشيوعى فتحى الرملى فى مطعم إكسلسيور . . إيه رأيكم ؟

ـ معقول ؟ كل دول مرة واحدة !

ـ هذا هو المعقول الوحيد فى الأيام الأخيرة . وكانت علقة كسرت عظامى . .

ـ يعنى إيه؟

وحكى لنا كيف أنه التقى مع المفكر الماركسى فتحى الرملى صديق اليهود الشيوعيين . وانفتح فتحى الرملى كأنه مدفع رشاش يحدثه عن هجوم العصابات اليهودية على أحد سجون عكا وإطلاق سراح ٢٥٠ سجينا من اليهود . . وكيف حاول اليهود أن ينزلوا فى ميناء حيفا فمنعهم الإنجليز وأعادوهم إلى قبرص لينضموا إلى عشرين ألفا آخرين . . وكيف أن السفلة الأمريكان قد أدانوا الانقلاب فى المجر . . وحكايات طويلة وعبارات ملتهبة . .

وقال هرارى : كأننى وصلت إلى بيت فتحى الرملى وهو يكتب مقالا جهنميا ضد الأمريكان والصهيونية . . فترك القلم وأكمل مقاله كلاما كالرصاص فى أذنى . . مع أننى لا دخل لى فى كل هذا . . وإذا كنت يهوديا فأنا واحد بسيط ابن تاجر ونحن مصريون وسوف نبقى حتى لو طردونا نحن أيضا . وكرهت أن أكون أقلية شيوعية أو يهودية فلا فرق بين الاثنين : فكلاهما خائف وكاره لكل أغلبية فى أى مكان .

ـ ود . بدوى قال لك إيه؟

ـ هو مندهش جدا من حالاتكم المرضية . . ومندهش جدا لأنكم فى حالة (أزمة) مفتعلة . . ورأى أنكم (عيال) عندها حرية وتخاف منها . . ويقول لماذا لا تختار ما يعجبك ولتكن النتيجة ما تكون . . فأنت فى حالة خوف مما سوف يحدث . . فلماذا لا تقفزون على المستقبل دون خوف . . إيه اللى ممكن يحدث ولا يمكن الفرار منه إلى شيء آخر . . إلى مساهمة جديدة فى حدث جديد . . فى قدر . . فى مصير . .

ـ عيال؟ . . والله يمكن معه حق . .

ـ وقابلت مين كمان . .

ـ د . يوسف مراد . . أستاذكم فى علوم النفس الكثيرة . إنه صديق والدى وهو

وكنت أول من فعل ذلك، وأعجبتنى المسرحية، وأعجبنى أيضا تناول المؤلف لزوجته (مارلين مونرو) . . فهو يعيب عليها سلوكها وأخلاقياتها ويرى أنها عبيطة، فهو يقوم بشكل منطقى جارح تسفيه أفكارها. وخصوصا شعورها بالامتنان لكل الذين ساعدوها ولذلك تركت الكثير من مالها وجسمها لأصحاب الفضل عليها؟!

وفى المسرحية يهاجمها المؤلف بمنتهى القسوة ويقول لها: أنت عبيطة . . أنت لست مدينة لأحد بأى شىء. إنهم كسبوا الملايين من ورائك. لرشاقتك ولجمالك وابتسامتك وإثارتك . . أنت صاحبة الفضل على الجميع . . على الصغير والكبير فالامتنان واجب عليهم وليس عليك . . أنت غلطانة . . أنت ساذجة . . أنت تستاهلى الضرب والقتل كمان!

وربما كان العيب الوحيد فى المسرحية. الذى جعل عرضها صعبا أن المؤلف وهو يهودى شيوعى لم ينس مذابح هتلر فهى موجودة بشكل ما، وليس من الأمانة حذفها، وإنما الأمانة تقتضى أن تقرأها وبس، ولذلك ترجمتها ونشرتها، وعندما حاول أحد المخرجين إقناعى بأنها من الممكن أن تظهر على المسرح الحديث بشرط أن تكون بالفصحى. وأعدتها إلى الفصحى، وذهب المخرج، ولا أقول أن المسرحية سقطت، وإنما المؤلف يريد أن يقول إن الدنيا كلها سقطت عندما سكتت على مذابح هتلر، فقد كان موقفها سلبيا.

وكان امتحانا صعبا، ولم ينجح فيه أحد، فقد وقف الناس يتفرجون . . وعندهم استعداد لأن يتفرجوا على أى عرض آخر . .

هل لأننى أحب مارلين مونرو وكرهت هذا الرجل وكرهت أديبا يهوديا آخر هو هرمان مايلر فقد دافع عن أرثر ميللر وهو يحاول إنصاف الجميلة الغلبانة مارلين مونرو.

وجمعت المسرحيات الثلاث فى كتاب بعنوان (كلهم سقطوا) . .

ولكن سقوطهم مثل سقوط قطرات المطر أو الندى فنرى فيها كل ألوان الطيف . .

معهم لا أبيض ولا أسود. . هاها. . ولكن أنت نجحت، كما نجح أبوك وأجدادك فى أن تعيشوا بين الناس وأيديكم فى جيوبكم وليست فى جيوب الناس. . أما ظهور العباقرة اليهود فليس بسبب أنهم يهود ولكن لأنهم من شعوب أخرى فأينشتين العالم العظيم، عظيم لأنه ألمانى وليس لأنه يهودى وكذلك فرويد النمساوى والشاعر الألمانى هينه والموسيقار الألمانى مندلسون والفيلسوف الفرنسى برجسون والأديب الفرنسى بروست. . ولكن يا مولانا أنتم علشان مجموعة من النصابين حسبتم عبقرية هؤلاء النابهين على الديانة اليهودية. . هاها. . هاها. . وأنت لطيف وظريف ومهذب لا لأنك يهودى ولكن لأنك مصرى. . هاها. .

وسكت يوسف هرارى وقال: طيب أقول للرجل ده إيه. . والله ما فتحت فمى ولا نطقت بكلمة ولا أذكر أننى قلت له إزيك يا أستاذ. . إنه مثل فتحى الرملى كلاهما وجدنى مناسبة مفاجئة لكى يكمل الكلام اللى فى دماغه. .

ـ . . . .

بصراحة هذه أتعس ساعة فى نهاية السنة العبرية. . بل فى حياتى كلها. . كلهم فى وقت واحد. . خبطة فى القلب وخبطة فى الدماغ توجع. . آه يا. . مش عارف أقول: آه يا قلبى ولا يا دماغى ولا يا دينى ولا يا أهلى ولا يا بلدى. .

ـ . . . .

أقول لكم حاجة ومش حتصدقونى. . لكن اسألوا صديقنا عبد الفتاح الديدى. . واسألوا لبيب شقير. . لقد قابلت الشيخ حسن البنا النهارده نازل من سيارة. . وانحنيت على يده وقبلتهما!. .

ـ إزاى؟!

ـ مش عارف إزاى أهو ده اللى حصل. . اسألوا قدامكم أهوه عبد الفتاح الديدى. .

وكان الديدى سريع الضحك. . وكانت ضحكته عالية وكنا نتبه [illegible]

الأستاذ العقاد . . فصرخ وقال : يا هرارى أنت أسلمت الله يخرب بيتك . . نهارك أسود من أبوك وأمك . .

ـ يا سيدى لو لم يمد الشيخ البنا يده لسقط على جزمته . .

ـ تبقى كفرت يا هرارى!

ـ إذا أنا قبلت إيده أبقى مسلم وإذا قبلت جزمته أبقى كافر . . يا سيدى أنا لا قبلت إيده ولا قبلت جزمته . . أنا حصل لى انهيار . . زى عمارة وقعت . . أحسست أننى بعد كلام العقاد والرملى كأننى كوم تراب .

ـ اسمع يا هرارى إحنا حنلم لك قرشين . .

ـ ليه؟

ـ لأن أبوك حيطردك من البيت ويسيبك تشحت فى الشوارع . . إزاى تعمل العملة السودة دى . .

ـ طيب أنا شفتك أنت بتبوس إيد أخويا . .

ـ أنا ما أعرفش إنه أخوك . . أنا لقيت طفل حلو كده بست إيده . .

ـ أنت تعرف إن أمى نذرت لله أن تجعله حاخام . . يعنى أنت بست إيد واحد حاخام . . نلم لك إحنا كمان قرشين؟

ـ أنت فكرك إن أهلى حيطردونى أبدا . . إحنا مطاريد الفلسفة من زمان . . وأنا بأمد لك إيدى أهه . . ومستعد أقبل أى مبلغ من المال . . مال اليهود حلال يا هرارى يا كافر يا ابن الكفرة . . هاها . . والله لابد أن أحكى الحكاية للأستاذ العقاد . .

ـ يا أخى قرفتونا بالراجل ده . . دى آخر مرة تشوفنى عنده . . جزمة حسن البنا ولا طربوش العقاد . . هاها!

ـ هاها . . هاها . .

بين قوسين :
د. شوقى ضيف!

ثلاثة دفعونى إلى الدراسة الأدبية والفلسفية : د. شوقى ضيف ، ود. لويس عوض، والمستشرق الألمانى كراوس . . وثلاثة شجعونى صحفيا : كامل الشناوى وإحسان عبد القدوس وعلى أمين . . وثلاثة لم يقولوا كلمة حلوة بأية مناسبة : الأستاذ العقاد ود. عبد الرحمن بدوى ومنصور باشا فهمى . .

وثلاثة تمنيت أن يعيشوا : أبى مات عندما قلت له إننى نجحت مع مرتبة الشرف . وأمى عاشت بعده ٢٣ عاما وهى لا تعرف ماذا أعمل ولا قرأت سطرا مما كتبت . ولم أكن أراها إلا لكى أبكى على صحتها واليوم كأننى أراها . . ود. فؤاد حسنين أستاذ اللغات الشرقية ، فقد كان يعلمنى الأديان المقارنة وكنت أقرأ عليه كتاب (دلالة الحائرين) لابن ميمون . فقد كان الكتاب باللغة العربية ولكن بحروف عبرية . . وكنا نجلس تحت شجرة . والشجرة مانجو وقد وضع على كل حبة ورقة وعلى الورقة رقمها فقد كان يشكو من اللصوص . فإذا اكتشف أن حبة سرقت فإنه يثور ويلعن . أما هيئته فى تلك اللحظة فهكذا : إنه يرتدى جلبابا أبيض وشبشبًا كان أحمر ، ثم يقف وفى يده شومة أو نبوت أو كما كان يسميها (زجلة) ويرفعها فى الهواء ويلعن ويدور حول الشجرة كأن اللص قد اختفى فيها أو تحتها . . وبعد لفة أو لفتين يجلس وينسى الهدف الذى جئت من

أجله. وينتهز هذه الفرصة ليقوم بإحصاء حبات المانجو المرقمة فى بقية الأشجار.. فإذا وصل إلى هذا الحد من الغضب كان ذلك تصريحا بأن أنصرف على أن أعود غدا. مع الدعاء له بأن كل من يأكل حبة مانجو فبالسم الهارى ومطرح ما تسرى تهرى!

ـ هاها..

ـ هاها..

* * *

كنا ونحن طلبة فى السنة الأولى بقسم الفلسفة نقول: ليس ألطف من شوقى ضيف وليس أكثر تواضعا من لويس عوض.. وليس أكثر تعاليا من عبد الرحمن بدوى.. ولا أب أعظم من طه حسين ولا أبهر من باول كراوس..

فقد كان د. شوقى ضيف يدرس لنا الشاعر أبا تمام. لا أذكر الآن ما كان يقول.. لكنه رجل مهذب خفيض الصوت رشيق القوام.. وإذا دخل القاعة أو خرج كأن فى مشيته القليل من الخيلاء.. أما طريقته فى الكلام فهى كطريقة أكثر الأساتذة. ينطقون الكلمات بطريقة خاصة كأنه يلحنها أو كأنه يتغنى بها..

وفى يوم طلب إلينا د. شوقى ضيف أن نكتب بحثًا عن الشاعر أبى تمام وكتبنا. وأعطيناه ما كتبنا. وبعد أيام عاد ووزع علينا أبحاثنا. فجاء د. ضيف ووقف إلى جوار السبورة: من الذى كتب بحثا بعنوان: الموضوعية والذاتية فى شعر أبى تمام ونسى أن يكتب اسمه؟ فرفعت يدى وطلب منى أن أقرأ البحث. وقال يومها: سوف يكون لك شأن عظيم فى عالم الأدب والفلسفة.

ولابد أننى سعدت جداً. وإن كنت لا أعرف ما سوف يكون هذا الشأن فى أى شيء.. ومضت السنوات وتخرجت. وفى سنة ١٩٨٠ حصلت على جائزة الدولة التقديرية. أما جائزة الدولة التشجيعية فحصلت عليها سنة ١٩٦٣. وكانت فرحتى

عظيمة عندما ظهرت للدكتور شوقى ضيف مقالة فى (الأهرام) يتحدث فيها سعيداً بأنه كان أول من تنبأ لى بأننى سوف أكون شيئا مهمًا فى عالم الأدب والفلسفة . ولم أكن فى مصر يوم صدور المقال . وقرأته فى الخارج . ومع الأسف نسيت أن أشكر أستاذى على لطفه وأن أبدى امتنانى العظيم على تشجيعه عندما كنت طالبا، وعندما صرت كما كان يتوقع . .

ويتردد اسم د . شوقى ضيف كثيرا فى كتبى بعد ذلك . . فى كتابى (شارع التنهدات) وفى كتابى (عاشوا فى حياتى) وفى كتابى (أحزان هذا الكاتب) . ولم أنسه رغم حيرتى العنيفة عندما كنت ممزقا بين التفرغ للدراسة الجامعية والاشتغال بالصحافة وقرار الهجرة إلى خارج مصر . وكانت الخيارات كثيرة لولا أن مات أبى . والآن فقط كان لابد أن أبقى فى مصر وأن أجد عملا . أى عمل وبسرعة . واخترت العمل ولم يسعد بى . د . شوقى ضيف فقد كان يحلم بأن أظل أكاديميا .

وعملت بالصحافة فوراً . وبعد سنوات قابلت د . عبد الرحمن بدوى فى مكتبة النهضة وقال لى : تيجى تعمل معى معيداً فى قسم الفلسفة بجامعة عين شمس . فقد صدر قرار بتعيينك . وغدا نلتقى لأقول لك ما الذى سوف تدرسه للطلبة . . يمكن ست محاضرات فى الأسبوع وتبقى فى عملك الصحفى أيضا .

والتقينا وقال لى د . بدوى : سوف تدرس للطلبة تاريخ الحضارة ونصوصا فلسفية باللاتينية واليونانية وربما محاضرة واحدة فى الميتافيزيقا أو محاضرة واحدة فى الفلسفة الوجودية . .

وفى اليوم التالى ذكر لى د . بدوى أسماء المراجع التى يمكن قراءتها وإعداد المحاضرات منها . بعض هذه الكتب موجودة فى المكتبات العامة . ثم أعطانى كتابين من عنده . ولم يحدث قط أن طلب منى أن أدعو الطلبة إلى شراء كتبه هو . أبدا . .

ولم يسألنى د. بدوى ما الذى أفعله مع الطلبة بعد ذلك. ولا مرة. ولا شكوت إليه. فلم يكن هناك ما يبعث على القلق. هو حدد لى البرنامج واختار لى المراجع والباقى هذه مهمتى. لاشكوت ولا الطلبة.. وأعتقد أن أسلوبى فى المحاضرات مثل أسلوبى فى الكتابة. العبارات سهلة والكلام واضح. وأحاول أن أنعش الطلبة المرهقين بحكايات ونوادر تيسيرا للفهم. ولذلك كان يتردد على محاضراتى طلبة كثيرون من الأقسام الأخرى. فلم يكن كلامى فلسفيا جافًا أو خشنًا. ولكن كنت أتوسل إلى المعانى من طرق سهلة حتى ليخيل لمن يسمعنى أن هذه محاضرة فى التفكير وليست فى الفلسفة اليونانية القديمة أو الأوروبية الحديثة أو الوجودية الجديدة..

* * *

كل شىء عادى جدا فى آداب عين شمس. محاضرات منتظمة صباحا ومساء. والعودة إلى مكتبى فى أخبار اليوم.. وكنت أيامها أكتب فى مجلة (الجيل) التى رأست تحريرها سنة ١٩٦٠ وكذلك فى (آخر ساعة) وفى (الأخبار) و(أخبار اليوم)..

وفى يوم جاءنى من يقولى لى: أنت مطلوب فى النيابة.

لم أفهم العبارة ولم تخطر على بالى الأسباب التى استدعونى من أجلها.

س: أنت تدرس الشيوعية للطلبة؟

جيم: نعم.

س: لماذا؟

ـ لأنها ضمن المقرر.

ـ ما هو المقرر؟

ـ المقرر هو تدريس تاريخ الحضارة الغربية مع بيان أهم التيارات الفكرية والسياسية والفلسفية. والشيوعية من أهم التيارات الثورية فلسفيا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا..

ـ لدرجة أنك تدرس (البيان الشيوعى) الذى أصدره كارل ماركس وفريدريش إنجلز؟

ـ نعم .

ـ من قال لك ذلك؟

ـ أستاذى د . عبدالرحمن بدوى .

ـ هوه اللى قال لك؟

ـ أيوه . .

ـ كل الشيوعية بكل تفاصيلها؟

ـ نعم .

ـ هل هذه محاضراتك؟

وقدم لى كشكولا به محاضراتى فى الماركسية والفوضوية . . والتفسير المادى للتاريخ . . ونظرت فى الكشكول وقلبت وأطبقته .

ـ هيه . . محاضراتك؟

ـ نعم

ـ يبقى اتفضل حضرتك وربما دعوناك مرة أخرى . .

ولكن لماذا؟ لأن البوليس ألقى القبض على عدد من الطلبة الشيوعيين فى طريقهم إلى طنطا-واحد منهم أنا أوصلته بسيارتى إلى محطة مصر ولا أعرف أن حقيبته قد امتلأت بالمنشورات .

هذا الشاب ألقوا القبض عليه بتهمة توزيع المنشورات لقلب نظام الحكم ووجدوا الكشكول الذى يضم محاضراتى عن الشيوعية . . وأكد الطالب أنه لا دخل لى بالشيوعية بل إننى من أعدى أعدائها وأننى أنتسب إلى المدرسة الفلسفية التى تكره الشيوعية . . وكذلك د . عبد الرحمن بدوى .

فسألوه: كيف يكره الشيوعية ويدرسها؟!

-هو يدرسها لأنها وظيفته.. تمامًا كما تكره الزهرى والسيلان وتجد من يدرسها بالتفصيل.. هاها.

* * *

-اخرص يا كلب يا ابن الـ... وبتضحك كمان... أنت لسه شفت حاجة.. وهوه أنيس منصور ده من أمتى شيوعى..

ـ هو مش شيوعى ولا عبد الرحمن بدوى..

ـ إذا كان هو بعضمة لسانه قال إنه شيوعى.

ـ هو قال كده.. غريبة.. يبقى القيامة حتقوم.. هاها..

ـ (طاخ. طاخ)

هذا صوت قلم على الخد الأيمن مع كام كلمة لا تليق..

ـ وعامل لى جدع مش راضى تعترف على أساتذتك يا كلب يا ابن الـ..

ـ أنا اعترفت على زملائى.. لكن دول مش شيوعيين.. دول رجعيين..

ـ حتقول لى رجعيين.. اللى همه مين؟

ـ اللى همه أنيس منصور وبدوى..

ـ يعنى مش عاجبينك لأنهم وسخين وكلاب زيك.. خده يا..

وأخذه العسكرى واختفى فى غياهب السجون سنوات.. لا أعرف كم عددها. وعندما خرج من السجن وجدته أمامى فى (أخبار اليوم). بالحضن والدموع وقال لى: عاوز اشتغل.

ـ ممكن.

ـ عاوز فلوس..

ـ أسلفك..

ـ عاوز تيجى معايا لأمى وتقول لها إيه اللى حصل . .

ـ أنت مش قادر تقول لها . .

ـ أنت عارف أمى صعيدية وهيه بيتهيأ لها أننى اتجوزت واحدة غير بنت خالتى اللى مستنيانى بقى لها عشر سنين . .

ـ وهيه حتصدقنى؟

ـ المصيبة أن هيه مصدقاك . . . وهيه بتشوف أننى كان لازم أكون زيك . . أنت اللى قلت لها كده يوم خطوبة أختى . .

وكان شابا فى مثل سنى . وأمه من بنات الصعيد اللاتى تعلمن اللغة الفرنسية وتنطقها كبنات فرنسا . ولكن إذا تكلمت اللغة العربية فأنت أمام غفير ببندقية ولا ينقصها إلا أن تقول : مين هناك . .

وكانت تقولها وأولادها يرتعشون من الخوف . .

رحت . وقلت لها وصدقتنى . وقالت لى : جوازه من بنت خالته إمتى؟

ـ لا مش عارف .

ـ قول يا ولد حتتجوز جورجيت أمتى . . قدامك شهر . .

ـ حاضر يا أمه . . حاضر!

ـ أمال كنت فين . . قالوا إنك هربت رحت أستراليا عند أولاد عمتك . وطردوك من الشغل . .

ـ أيوه يا أمه . .

ـ إزاى ولا واحد من أصحابك سأل عليك .

ـ كانوا فى السجن .

ـ وأنت كنت فى السجن يا وله؟!

ـ أيوه يا أمه .

ـ ليه يا ولدى؟

ـ اتهمونى بالشيوعية .

ـ التهمة دى ما تهمش . . المهم أن مفيش تهمة فى شرفك ولا فى ذمتك . . تعال يا ولد (وصفعته على قفاه مرتين) الشيوعية ما تهمش مش عيب . لكن لا تكذب . المسيح قال إيه؟

ـ عارف يا أمه . .

ـ وأنت يا ولد!!

ـ وتشير بيدها ناحيتى . أنت!

ـ يا أمه عيب . . ده أستاذى عيب يا أمه . .

ـ إيه رأيك : أنت؟ قلت إيه؟ (تحدثنى)

ـ فقلت : أنا من رأيه .

ـ هاها . ولكنه لم يقل أى شىء!

ـ هاها . ولذلك أنا من رأيه!

ـ هاها . .

ـ هاها . .

* * *

واستدعت المباحث د . عبد الرحمن بدوى (مكتب مكافحة الشيوعية) . وسألوه . ولم تستغرق المساءلة وقتا طويلا . وكما روى لى بعد ذلك كان سؤاله هكذا :

ـ أنت سيادتك أستاذ فلسفة؟

ـ رئيس قسم الفلسفة .

ـ ما علاقة الفلسفة بالشيوعية؟

ـ مثل علاقة الإسلام بالمذهب السنى والشيعى . . والمسيحية بالمذهب الكاثوليكى واليهودية بمذهب القرائين . .

ـ يعنى إيه؟

ـ زى ما قلت.

ـ مفيش كلام أوضح؟

ـ هيه كده!

ـ بقى سيادتك معترف بأنك اللى طلب من أنيس منصور أن يعطى محاضرات فى الشيوعية..

ـ محاضراته عن الحضارة الغربية. ومن مظاهر الحضارة الفكر والفلسفة المثالية والمادية والظاهرياتية والوجودية.

ـ يعنى سيادتك موافق على أن يحاضر فى الشيوعية..

ـ قطعا!

ـ ألا تعلم أن فيها ضرراً؟

ـ كل الأفكار من الممكن أن تكون ضارة تماماً مثل عدم تدريس الشيوعية. وكذلك الحجر على أفكار الطلبة الذين نعلمهم حرية التفكير والشجاعة!

ـ وتخريب المجتمع..

ـ التخريب لا شأن لى به.. التخريب هو محاولة التطبيق الخاطئ للأفكار الفلسفية..

ـ ولكن إذا قام هؤلاء الطلبة وتآمروا على الدولة..

ـ هذا شأنهم مع الدولة.. ثم إنهم ليسوا فى حاجة إلى فلسفة لكى يتآمروا.. فليس كل المتآمرين طلبة الفلسفة.. فهناك كثيرون من طلبة الكليات الدينية.. أو الذين لا دين لهم..

ـ لا يهمك؟

ـ ولكن تلامذتك يقولون إنك شيوعى؟

ـ هاها . . هم يقولون ذلك . . أو أنتم تضعون على ألسنتهم مثل هذه الاتهامات هاها . . مش كده؟

ـ نعم يا أستاذ؟

ـ نعم يا حضرة الضابط أو وكيل النيابة أنا مش عارف . .

ـ لا أنت عارف .

ـ أيوه أنا عارف أن تلامذتى لم يقولوا ذلك .

ـ إنهم كذابون . .

ـ ممكن . ولكن ليسوا جبناء!

ـ وتدافع عنهم!

ـ أيوه . . أختلف معهم ولكن أدافع عن حريتهم فى إبداء أى رأى ـ هذه قاعدة فلسفية عندنا!

ـ تفضل سيادتك . . ويمكن نطلبك مرة أخرى .

ـ لن تطلبنى!

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى مفيش تهمة .

ـ فعلا مفيش . .

ـ هل أشكركم .

ـ ولكننا نشكرك!

ـ أنا لا أصدقكم!

ـ ونحن أيضا . . هاها

ـ . . . .

* * *

وبعد عشرين عاما من حصولى على جائزة الدولة التقديرية فكر كثيرون فى منح د. بدوى هذه الجائزة. وكتبت وآخرون كتبوا على استحقاقه لها. ولكن عندنا مشكلة: ماذا لو فاز بالجائزة ولم يشأ أن يترك باريس ليتسلمها.

طلبته فى فندق (لوتسيا) بباريس. أحسست بأنه لن يجيء إلى مصر حتى لو فاز بالجائزة. سألت زوجة أخيه المهندس عبد المنعم بدوى فقالت ضاحكة: إذا كان فيها فلوس فسوف يجيء!

ولما نقلت إليه ـ مداعبًا ـ ما قالته السيدة زوزو العبد زوجة أخيه وحماة الصديق عمرو موسى أمين الجامعة العربية قال: كذب. لم تقل ذلك هذه تشنيعة من عندك!

وفى باريس قابلت د. بدوى وقلت له: هل تحضر إلى مصر؟

فأجاب: إذا كتب لى الرئيس حسنى مبارك خطابًا فسوف أحضر..

ـ عادة هذا لا يحدث! فملك السويد لا يكتب خطابا للمرشحين أو الفائزين بجائزة نوبل فى العلوم أو فى الآداب أو فى السلام..

ـ هذا هو الشرط.

وعندما رشحناه لجائزة مبارك فاز بها بصعوبة فليس معروفًا تماما لدى عامة الأدباء والمثقفين. فهو بعيد فى باريس ودراساته فلسفية ليست فى متناول الناس وغيابه ثلاثين عامًا عن الساحة والمنابر جعلته غريبا. وفاز نجيب محفوظ بجائزة مبارك فى الآداب. وفاز عبد الرحمن بدوى بجائزة مبارك فى العلوم الاجتماعية..

والتقيت مع د. شوقى ضيف فى جائزة مبارك. ولم نحصل على هذه الجائزة أول مرة فقد تعادلت أصواتنا: ١٧ : ١٧.. وفى العام التالى تواجهنا وحصل د. شوقى ضيف على ٦ أصوات وحصلت على ٢٨ صوتا وفزت بها فى الآداب. وتلاقى د. شوقى ضيف مع د. عبد القادر القط وفاز بها د. القط. ولم يكن السبب أن د. ضيف لا يستحق الجائزة. بل يستحقها وهو أستاذ جليل فى مجال متخصص. ثم إن الذين طبّلوا له وزمروا من غوغاء الثقافة وأفّاقيها قد أفسدوا عليه

وحوله كل صورة محترمة. فبدا مهرجًا، وهو ليس كذلك وسقط ثلاث مرات وهو لا يستحق هذه العقوبة من كدابى الزفة والذين وصفهم الشاعر القديم: جسم البغال وأحلام العصافير!

ود. شوقى ضيف كأى أب لا يضايقه أن يتقدم عليه أحد من تلاميذه.. أى من أبنائه. وقد فعلت. وأصبحت أنا وأستاذى عبد الرحمن بدوى حاصلين على جائزة واحدة. ثم صرنا ثلاثة من خريجى الفلسفة حاصلين على جائزة مبارك: نجيب محفوظ وعبد الرحمن بدوى وأنا..

ومع الأسف لم يحضر د. عبد الرحمن بدوى لتسلم شيك جائزة مبارك وقدره مائة ألف جنيه..

وفى ذلك الوقت كنت مريضا نزيلا فى مستشفى (أوتل ديو) عندما زارنى د. بدوى وجاء معه الزميل سعيد اللاوندى.. ثم الأستاذان لطفى الخولى وعبد الوهاب مطاوع.. ولم أسأل د. بدوى أو أحدا غيره ماذا حدث.. وماذا قال وماذا نقلوا له.. والذى لم يقله بلسانه قالوه بألسنتهم حكايات وأكاذيب ضايقته جدًا. وضايقتنى..

أما الذى قاله د. بدوى فقد وصف كل أسماء الثقافة ورموز الأدب بأسماء كل حيوانات حديقة الحيوان.. وإن كان الحمار أفضلهم وأحبهم وأكثرهم شعبية. وما قاله فى المستشفى جاء فى سيرته الذاتية بعد ذلك. وكرهت منه ذلك، ولكنه هو الذى اختار إهانة الآخرين.. فكانت إهانته لنفسه أكثر وإن كان كثير منهم يستحق هذه الإهانة!

ثم مرض وسقط فى الشارع ونقلوه إلى المستشفى لا يدرى ولا يعرفون من هو.. ولما أفاق كلمته وهنأته بأن مصر قد رشحته لجائزة نوبل. فكان هذا النطق السامى: ملعون أبو نوبل وأبو الجائزة الزفت دى.. أنا عاوز حد يدفع لى تكاليف المستشفى! سامعنى..؟

ـ أيوه يا دكتور..

ـ حتعمل إيه مع الحمير؟

ـ همه مين؟

ـ ما أنت عارف الحمير . . حتعمل إيه؟

ـ أعطنى فرصة يا دكتور . .

ـ لحد إمتى؟

ـ بكرة . .

ـ بكرة كثير جدًا . .

ـ أمال أعمل إيه؟!

ـ ما أنت عارف كل الحمير . .

ـ . . . .

ـ ساكت ليه؟

ـ بأفكر يا دكتور . .

ـ لأمتى؟

ـ لبكرة . .

ـ أكون أنا مت . .

ـ سلامتك يا دكتور . .

ـ يا شيخ بلا سلامتى بلا زفت . .

ـ يعنى حضرتك موافق على الترشيح؟

ـ مش عاوز ترشيح!

ـ ولكن الدولة رشحتك فعلا!

ـ قول لهم مش عاوز بس يخلصونى!

ـ حاضر . .

ـ أنت عارف حتقول لهم إيه؟

ـ طبعا . .

ـ إيه؟

ـ اللى حضرتك قلته . .

ـ جرى لك إيه . . أنت بقيت عامل زى الدبلوماسيين البهايم دول . .

ـ . . . .

ساكت ليه . .

ـ يا دكتور أنا لسه عارف إن حضرتك فى المستشفى من ساعة واحدة فقط . وعارف إنهم رشحوك لنوبل من دقائق . . وسوف أجد حلا . . ما تشغلش بالك يا دكتور . . كل حاجة أنت عاوزها حنعملها . .

ـ وأنت حتلاقى حل مع الحمير دول؟

ـ حنلاقى حل . .

ـ ولا أنت؟

ـ حمار يعنى؟

ـ هاها . . لأ مش قصدى .

ـ متخافش إحنا حمير مع بعض نفهم بعض وحنلاقى حل للبنى آدمين اللى زى حضرتك . .

ـ أنت زعلت . .

ـ لا والله . . إحنا متعودين على كده من أربعين سنة . .

ـ هاها . . صح أنا كنت دائما أقول كده . .

ـ هاها . .

ـ أوع تنسانى أحسن أموت ويبقى ذنبى فى رقبتك . .

ـ إحنا كلنا ذنبنا فى رقبتك أنت يا دكتور . .

ـ هاها . . على كل حال أنا أديتك فرصة كبيرة للانتقام . . هاها . .

ـ والله زمان يا دكتور . . لم نسمع منك كلاما يسم البدن . . ويصد النفس ويعطى للدنيا لون الزفت وطعم الهباب . .

وتمضى عشرات السنين وتنقلب الأوضاع ويصبح د. بدوى فى حاجة إلى مساعدة الحمير لكى يستأنف حياته كإنسان كان مريضا ليتعافى ويلعنهم من جديد فى آخر كتاب له عن سيرة حياته!

ولا اعتراض لى على وصف بعضهم بأنهم حمير، ولكن الطريقة غير الفلسفية أو الأدبية هى التى تستحق الاستنكار..

وطلبته فى التليفون لأنقل إليه اهتمام الدولة كلها بمرضه: وزير الثقافة الفنان فاروق حسنى ووزير الصحة د. إسماعيل سلام وكل المثقفين.. ولم يكن لكلامى أى أثر فهو يريد. وإرادته قرار. وقراره أن يعود إلى مصر.. وعاد..

وفى التليفون وفى معهد ناصر كنت أتحدث إليه وكان مندهشا هو وأقاربه كيف أننى لم أزره.

ولم تطاوعنى نفسى أن أراه بهذه الصورة التى آل إليها: الهزال والضعف والقرف من كل شىء وكل أحد..

داعبته قائلا: ولكن الناس لم يفهموا تمامًا ما قلته أخيرا فى التليفزيون.

ـ حمير.. أنت عارف حكاية شوبنهور.

ـ عارفها!

أما حكاية الفيلسوف الألمانى شوبنهور فهو أنه أصدر كتابًا. وكان يتردد على المكتبات كل يوم ليرى إن كان أحد قد اشتراه. لا أحد لمدة ثلاثة شهور.. وأخيرا اختفت نسخة من الفاترينة فذهب يسأل من الذى اشتراها. فقيل له: أحد أساتذة الجامعة.. فلان

وذهب إليه فى بيته يسأله عن رأيه فى الكتاب. فأجابه الأستاذ: مش مفهوم!!

فغضب شوبنهور وقال: شىء غريب وعجيب.. هل فى كل مرة يفتح إنسان كتابًا ثم يسمع صوت حمار ينهق، لماذا يكون هذا صوت المؤلف دائما؟!

ـ هاها..

يومها: لا الدكاترة تكلموا ولا توقف عبدالرحمن صدقى عن الضحك!

كان د. لويس عوض ألطف الأساتذة وأكثرهم بساطة. وأقربهم إلينا إذا جلس على الأرض وأكل السندوتشات وكان وكنا نناقش ملابسنا.. ولا يجد حرجا فى أن يفاجأ بأنه وهو يحدثنا عن شكسبير أن تتركز أنظارنا على بقع فى الجاكتة أو فتلة فى البنطلون. وكان يتوقف ثم يمضى فى الكلام كأنه طبيعى أن يكون كذلك وطبيعى أن يستلفت النظر.. ثم لا يفعل شيئا بعد ذلك.. وربما كان هو الوحيد الذى إذا سمع اسم د. عبدالرحمن بدوى يضحك ويقول: إنه فى عالم آخر.. أى ليس فى عالمه.. دون أن يقول ما هو عالمه وما هو العالم الذى فيه د. بدوى ويبعث على الضحك...

ولكننا لا نرى لويس عوض مضحكا. إنه يقول كلاما غريبا عنا أو غير الذى اعتدنا عليه.. فإذا كانت صناعتنا هى تركيب أجنحة لكل فكرة.. لكى تظل أفكارنا فوق دماغنا فى السماء، فإن لويس يستخرج من جيبه مقصا أو سكينا ليجرد أفكارنا من ريشها ويجعلها (داجنة).

فالنسور تتحول إلى بط وأوز.. وكل أفكاره اليسارية تمشى على الأرض..

وكل صوره ملموسة فهو يقوم (بتدجين) أفكارنا الألمانية المثالية أو الوجودية بمنتهى الهدوء . .

وكانت نظرتنا إلى د. لويس عوض بعينى الأستاذ العقاد. فالعقاد يكرر نظرية العالم الإيطالى لمبروزو - فيرى أن الشيوعيين مجموعة من الشواذ. ولأنهم شواذ فأفكارهم كذلك. تماما مثل نظرية لمبروزو فى المجرمين . . الوجه والعينان والشفتان والرأس . . فقال لنا العقاد وكأنه يقلب فى أوراق كوتشينة : انظروا إليهم . . فلويس عوض أحول . . والثانى أعور والثالث أعمى . . وهذا أعرج . . كلهم هكذا . . . ونتيجة لهذه التشوهات الخلقية جاءت التشوهات الفكرية . يكفى أن تسترجعوا حياة الرجل المجنون كارل ماركس . . دماغ كبير ولكنه سكير أخرق . . وقد طردوه من الجامعة عدة مرات لأنه يشرب ولا يدفع ، له رائحة كريهة فهو لا يشم . . . بلاش كارل ماركس انظروا إلى بناته . . لقد انتحرن جميعا بطريقة منظمة . واحدة انتحرت بعد قرار مع زوجها : إذا نفدت الفلوس التى معنا فلا مبرر لحياتنا وانتحر الاثنان ، وكذلك الابنتان الثانية والثالثة!

ومن المؤكد أن لويس عوض قد صدمنا كثيرا . فأفكارنا ومشاعرنا الشابة أو الرومانسية لايراها كذلك . وإنما يراها ميوعة وانحرافا . وإن الرأسمالية والإقطاع فى صدامها مع الطبقة العاملة - وكلمات أخرى غريبة . . قد ضربها بعضها فى بعض فكانت أفكارنا . يعنى أننا - دون أن ندرى - نتيجة ضربات وخبطات وأننا ألعوبة فى أصابع القوى التى تحرك التاريخ . .

ولكننا لا نشعر بذلك . فأنا قد أعجبتنى فلانة زميلتنا فى قسم اللغة الفرنسية . . وأضحك كلما وجدتها تتكلم اللغة العربية . . وأقول عن ذلك كلاما . أنا الذى أقوله فى كل مرة أراها - دون أن أعرف شيئا عن قوى التاريخ والصراع الطبقى وكارل ماركس وأى فيلسوف شيوعى آخر . . فلست فى حاجة إلى نظرية فلسفية أو اقتصادية عندما أقول إنها جميلة الصورة والصوت . . وإن صوتها لا يقل جمالا عن شفتيها وعينيها . . ولا علاقة لى بأى مذهب فى تفسير حركة التاريخ!

ولما قلت للدكتور لويس عوض ذلك قال كلاما كثيرا مرتبا . وإيه يعنى فيتقن .

ولكن لا علاقة لكل ذلك بأن الفول بالزيت ألذ من الفول بالسمنة . . وأن الشاى بالنعناع أجمل من الشاى السادة وأن بتهوفن أروع من سيد درويش . . وأن ترجمة د. محمد عبدالهادى أبو ريدة للشاعر الألمانى ريلكه قمة فى الفن والأدب والفلسفة . .

وسألنى لويس عوض . . أنت تقرأ ما كتبه عبدالهادى أبو ريدة؟ فقلت : نعم . .

ـ ويعجبك؟

ـ جدا . .

ـ ما الذى يعجبك؟ . .

ـ يعجبى مش عارف بالضبط . ولكن الجو الرومانسى الساحر الغامض الضبابى يلف عباراته ومعانيه . .

ـ يعنى الغموض والضباب والألغاز وعدم الفهم؟

ـ ليس عدم الفهم . . وإنما الجو الشتوى . . فكل الكلمات من ضباب والمعانى من سحاب ، والأفكار رعد وبرق . . جو أوروبى . .

ـ جو؟

ـ إننى أفضله على جو الصيف . . لا لأننى أكره الوضوح ، ولكن لأن هذه الألوان الرمادية لها مذاق خاص . . ثم إن الشاعر ليس فيثاغورس أو إقليدس يضع أمامنا معادلات رياضية بديهية . . فلا بديهية فى الشعر . .

ـ لا . . بل فى الشعر بديهيات . يجب أن يكون به بديهيات . . فالشاعر يريد أن يقول . وقال وفهمنا وأقنعنا . .

ـ ممكن ولكن ليس شعرا .

ـ يعنى إيه؟

ـ يعنى الأستاذ العقاد قرأ لك قصيدة يصف فيها الوحدة أو التكامل أو الاندماج

أو المظاهرة ضد المجتمع عندما وضعت يدك ويد المحبوبة فى (كعكة) . . أدخلتما يديكما فى كعكة كبيرة وسرتما فى الشارع!

واندهش د . لويس عوض كيف أن العقاد قرأ له قصيدة من الشعر الحر أو الشعر المنظوم فى ديوانه (بلوتو لاند) . . وسألنى : بالضبط ماذا قال!

وتبارى بعض الزملاء فى وصف المناسبة التى أضحكنا فيها العقاد على شعر أو الكلام الفارغ المنظوم للخواجة لويس . . هذا كلام العقاد . . .

ووصف العقاد وضع اليدين فى كعكة من السميط : وحدة الجياع . . أو وحدة الشحاذين . . أو كعكة الزواج الماركسى . . فبدلا من وضع الدبلة فى أصبع كل منهما . فإنهما يفضلان أن تكون الدبل من الخبز . . وبعد لحظات يأكلانها ومعها كل القيم الأخلاقية والجمالية . .

ويسكت العقاد ويقول : يا مولانا هؤلاء شواذ عقلا وجسما وسلوكا . . وتقول إنه رجل لطيف رقيق . . وتقول إنه عالم ومفكر . . يعلم بأيه يا مولانا، عالم نظرياته التى تبعث على الضحك . كيف يفوتكم أن تضحكوا على هذه الأمشاج من البشر . . إلخ . .

كثير جداً ما يقوله الأستاذ العقاد عن الذى يختلف معهم فى النظرة والنظرية . طبيعى أن يختلف . لكن ليس من الضرورى أن نتفق معه فى كل شىء . . فعبدالرحمن بدوى هو الآخر شاذ إذ كيف يكون هو وحده الحكيم فى هذا الكون يرتب وينظم ويقبل ويرفض؟

ولكن العقاد يفعل نفس الشىء! . ولا نقول إنه شاذ . بل إننى سمعت لويس عوض يقول عن العقاد : إنه رجل شجاع . . إنه مؤمن بحرية التفكير . وإنه دخل السجن لأنه مفكر جرىء!

واقترح أحد الزملاء الشيوعيين : لماذا لا نذهب للأستاذ العقاد فى بيته ونناقشه . ومن المؤكد أننا سوف نتغلب عليه . .

وكان من رأى لويس عوض : لا فائدة من مناقشة العقاد . فهو ليس مكسبا للشيوعية ، وإن كان هو مكسب للحرية والديمقراطية والقيم الأخلاقية . . ثم إنه رجل إيجابى ومفكر إسلامى يعرف ما يقول بالعقل .

وأشار د. لويس عوض إلى أحد الزملاء لكى يقول لنا كيف كان الحوار مع العقاد فى مكتبة الأنجلو . . بعد أن صافح العقاد وادعى أنه أخى الأصغر .

فقال له العقاد : أنت إذن مش ابن حلال؟!

- إزاى يا أستاذ؟

- لأنك لو كنت ابن حلال لكنت مجنونا مثل أخيك الخواجة لويس . . هاها . . لا تغضب يا مولانا فهذا قدرك . . أن يرتكب أخوك الحماقات الأدبية وتتولى الدفاع عنها . . يعملوها الكبار ويقعوا فيها الصغار . . وأخوك من الصغار وسوف يبقى كذلك . . هاها . .

- . . . .

❊ ❊ ❊

كان د. محمد عبدالهادى أبو ريدة يترجم فى مجلة (الثقافة) كتابا للشاعر الألمانى رينر ماريا ريلكه اسمه (مذكرات مالته بريجه) . كنت أتابع هذه المذكرات ولا أدعى أننى فهمتها جيدا . ولكن بهرنى الجو الفلسفى الشاعرى فى هذه المذكرات . . وقد شغلتنى هذه المذكرات عشر سنوات بعد ذلك ربما شغلتنى عشرين فى البحث عن إحدى معشوقات الشاعر .

وكنا نرى د. أبوريدة يرتاد المسافة بين الكلية والمكتبة بالخطوة العسكرية السريعة . وكان رشيقا وكان أبيض اللون مع شحوب . يتكلم بطريقة خاصة . . كأنه مستشرق . ولكن ملامحه دقيقة : الأنف والشفتان والأصابع والمنظار الأبيض . ويحمل تحت إبطه شنطة من جلد لا هو أسود ولا هو بنى . ولكنه يبدو دائما مهموما . وهو قد ترجم من الألمانية كتباً فى تاريخ الفلسفة أهمها كتاب «ديبور» عن

الفلسفة الإسلامية. ولكنه لا يدرس لنا. استوقفته وأبديت إعجابى بترجمة مذكرات الشاعر الألمانى ريلكه. اندهش أننى أقرأ هذه المذكرات. ولابد أن يكون سبب الدهشة هو أنها أدبية ونحن طلبة فلسفة ومشغولون.. واندهش أننى أعجبت بالشاعر وحفظت له عددا من التعبيرات. أشهرها على ما أذكر هذه العبارة: لقد صار المكان زمانا..

وسألنى: كيف فهمتها؟

قلت: لعله يريد أن يقول إنه هنا كان يجلس.. وهنا كان يشرب.. وقبل ذلك التقى بمحبوبته. هذا فى سنة وهذا فى سنة.. فالمكان كله سنوات متلاحقة ينسى بعضها بعضا. أو يلح بعضها على بعض.. فهنا اتحد الزمان والمكان..

ـ هذا أوضح من الذى خطر على بالى.. وإذا عدت لشرح بعض عباراته الغامضة فسوف أقول أن أحد تلامذتى قد فهمها أوضح..

أما سعادتى فلا توصف. وانشغلت بما قال وما قلت. ولم أجد آذانا صاغية لكى أعيدها وأزيدها وأن أحكيها لزملائى. والتقينا بالدكتور عبدالرحمن بدوى فى المكتبة. وسأله أحد الزملاء عن رأيه فى ترجمة د. أبوريدة للشاعر الألمانى. فقال: إنه لم يقرأها.. ولكنه هو الذى تحدث عن القلق الحزين فى شعر ريلكه. وهو الذى كتب عن الوجوه الرومانسية الرفيعة لروح العصر عند ريلكه..

ولم يقل رأيه فى الترجمة الشاقة لشاعر عميق المعانى والشجن..

ونحن نستمع إلى موسيقى موتسارت بعد أن أكلنا سندوتشات الفول والطعمية. قلت للدكتور لويس عوض: إن موتسارت هذا رومانسى..

ـ طبعا. والرومانسية مرحلة من مراحل الفكر الأوروبى.. وقد سبقته وتبعته مراحل مختلفة. تماما كما أن الطفولة مرحلة يجىء بعدها الشباب وبعد الشباب الشيخوخة..

ـ قرأت ترجمة د. أبوريدة.

ـ سمعت عنها . .

ـ ولن تقرأها؟

ـ إذا اتسع وقتى .

ـ أنا مستعد أن أقرأ لك الآن بعضها . .

ـ الآن؟

ـ نعم . وهى فرصة تشرح لنا فيها بعض الغموض الذى يلف الشاعر ويجعله أجمل . .

ـ أنت أعجبك الغموض إذن؟

ـ ليس الغموض . . ولكن تداخل الألوان والموسيقى وإحساسى بأنه يمشى أو يقترب من أذنى ويهمس . .

وأخرجت من بين كتبى العدد الأخير من مجلة (الثقافة) . وقرأت . وحاولت أن أقرأ كأننى أغنى . . ثم رفعت عينى من المجلة لأجد د . لويس عوض قد أخرج ورقة من جيبة وراح يمسح جزمته . . وتوقفت . ولم يدرك أننى توقفت . كأنه لم يسمع شيئا أو سمع فلم يجد شيئًا واختار شيئًا أنفع ومسح جزمته . . وطويت المجلة . . وألقى هو بالورقة بعيدا . وكأننى لا قرأت ولا هو سمع . وكان الصمت رأيا جارحا . لقد نسيت أن أساتذتنا لا يتحمسون بعضهم لبعض . وأن لويس عوض ليس استثناء فى هذه القاعدة . .

ـ ها ها . .

ـ ها ها . .

كل واحد منا يضحك لسبب آخر . .

* * *

وكانت لى هواية : وهى أن أقارن بين طريقة مشى الأساتذة : فعبدالرحمن بدوى ود . أحمد بدوى وباول كراوس وحسين مؤنس وفؤاد حسنين وعبدالهادى أبوريدة

والزميل جمال عبدالرحيم، لأن ثقافتهم ألمانية. كانت لهم مشية عسكرية. إن لم تكن عسكرية فرءوسهم مرفوعة. وعباراتهم قاطعة. وعندهم اعتزاز واعتداد بالنفس. وكنت أرى كلماتهم كأنها أوامر.. ولكن حسين مؤنس ليس عسكريا. وإنما هو رجل دمه خفيف وساخر. ولكن رأسه فوق ود. أحمد بدوى مؤرخ واثق من نفسه صعيدى ألمانى صلب. والزميل جمال عبدالرحيم ـ الموسيقار فيما بعد ـ خطوته واسعه وإذا تكلم هز رأسه وتهدل شعره على جبهته. وكانت كلماته خواجاتى ينطقها بطريقة خاصة.. والزميل نورالدين أيوب أمه ألمانية.. ولذلك فنطقه مختلف. ورغم أنه لم يدخل الجيش الألمانى لكن حركاته عسكرية جلوسا ووقوفا ولمعان العينين والتصاق الشفتين وضحكته المجلجلة مع كلمة: يا.. أى نعم سواء كان موافقا أو معترضا. ثم إنه لم يقرأ عن ريلكه لا بالعربية ولا بالألمانية. وإن كان قد وعدنى أن يسأل والدته. فهى أيضا تحب الشعر وأنها توقفت عن نظمه عندما جاءت إلى مصر.. فالحياة المصرية ليست شاعرية بالمرة.. عندنا كل الأجواء التى تجعلنا شعراء ولكن لا نشعر بما فى بلادنا من جمال..

هذا كلامها!

يقول نقلا عن والدته إنها عندما توقفت بها السفينة الإيطالية فى ميناء الإسكندرية كانت نهارا. فقررت أن تبقى فى الإسكندرية ليلة حتى ترى حلم حياتها: غروب الشمس.. وأن ترى ظهور القمر وكان بدرا.

ونظمت شعرا.. أما القصيدة الثانية فهى عندما ذهبت ليلا إلى منطقة الأهرامات لترى القمر وراء الأهرامات وفوقها.

.. وعندما ذهبت إلى المعادى وقالوا لها: هنا ألقت أم موسى ولدها موسى فى النيل.. هنا تركته.. ومشت إلى جواره على الشاطئ حتى التقطته ابنة فرعون.. سارت فى هذا الطريق والدموع فى عينيها. وكانت قصيدتها الثالثة والأخيرة..

أما المنظر الذى كان مفاجأة قاتلة لنا جميعا فعندما دعانا نورالدين إلى بيته لتناول الشاى. وحدد لنا موعدا. الخامسة مساء. وأكثرنا يعرف البيت. فهو صديق

لطيف . ومهذب جدا . ورأينا والدته لأول مرة ألمانية جدا . طويلة شقراء . وتنظر إليك فى عينيك . وتضغط على يدك بشدة وتشير إلى مكان لكى تجلس . وتتحدث الإنجليزية والفرنسية . وبعض الكلمات العربية إذا أرادت أن تضحكنا . .

وفجأة دخل د. عبدالهادى أبوريدة .

وفجأة جاء د. عبدالرحمن بدوى ثم د. لويس عوض . . وأخيرا د. حسين مؤنس . .

ولا أتذكر الآن ما الذى قيل . . من قال ومن لم يجرؤ على الكلام . ولا كيف التزم كل هؤلاء الصمت . وكانت السيدة هيلجا هى التى تتحدث بكل اللغات التى تعرفها . . وفجأة دخلت باقة من الورد وراءها الشاعر عبدالرحمن صدقى . وله ضحكة مجلجلة . . حياها وقبل يدها وامتدح فستانها وعطرها والذوق والجمال فى البيت . والمناسبة السعيدة التى تجمعت فيها هذه الباقة من الأساتذة الذين يقرأ لهم ولم تسعده الظروف بأن يراهم إلا هذه المرة . وطلبت إليه أن يجلس إلى جوارها . .

وكانت لعبد الرحمن صدقى ضحكة غليظة عالية وقال : هذا ـ أى أنا ـ أعرفه تماما . . ولنا مناقشات فى الفلسفة . . وخناقات مع مراتى فى الكلام عن الفيلسوف الإيطالى كروتشه . . وهو من تلامذة العقاد وعبدالرحمن بدوى ولا أعرف بالضبط تلميذ العقاد فى إيه وبدوى فى إيه . . وبكرة يلعن أبوخاش الاثنين . . هاها . . كلنا عملنا كده . . ولم نندم . . هاها . . تعرفى حضرتك أنا كنت أجيب مطربى الأوبرا . . وأنا أعرف أنهم يكرهون بعضهم البعض وأتعمد أن يجلسوا معا . . ونناقش أى موضوع . . وتكون النتيجة لا أحد يتكلم وأظل أنا أتكلم وحدى طوال الليل ونحن جميعا سعداء : أنا أتكلم طول الوقت وهم ساكتون طول الوقت . . زى دلوقت . . أنا بقى لى ساعة أتكلم والأساتذة ولا كلمة . . وأنا عارف أننى لو سكت ، فلن يتكلم منهم أحد . . هاها . . هاها . . إيه رأيك فى الطريقة دى . . إنك تجيبى ناس لسانهم طويل وتجيب من يقطع ألسنتهم إلى آخر السهرة . . هاها . . أنا اكتشفت أن الأستاذ العقاد كان يستخدمنى سلاحا لإسكات الناس . فإذا زاره واحد

سخيف فانسدت نفس العقاد عن الكلام كان يلتفت إليّ ويقول : يا سيد عبدالرحمن أين أسلحتك؟! فأعرف أن العقاد لا يريد أن يتكلم، فأنطلق أنا وأقول حتى يزهق الناس ولكن . . هاها . . هذا السلاح لم ينفع مع زوجتى الإيطالية فلا أكاد أبدأ حكاية حتى تقول لى : أبدراماان (عبدالرحمن) اسكت أشان أنى أوزا أتكلم (علشان أنا عاوزة أتكلم) . . إيه رأيك نقف إحنا فى البلكونة ونسيب الناس دول يأكلوا بعض . . هاها . .

وقد حاولت أن أتذكر كيف انتهت هذه الحفلة أو حتى كيف استمرت أو كيف قاوموا الصمت واكتفوا بالقرف من بعضهم البعض . .

ونادانى عبدالرحمن صدقى أن أقف معه فى البلكونة وقال لى : عندى لك حاجة مهمة . . أنا سامعهم بيتكلموا عن الشاعر ريلكه . . سيبك منهم . يمكن أبوريدة هو الوحيد اللى فاهم . . لكن أنا قرأت من زمان أنه كان يحب فتاة مصرية جميلة . هذا مؤكد اسمها إيه مش عارف . . لكنه مات على صدرها . . أيوه ولازم كانت بتتخانق معه زى مراتى . . هاها . . كانت جميلة . . وهوه على فكرة ولا رومانسى ولا حاجة . . ده كان رجل زى حالتنا غرقان بين الجميلات . . ولم يكن وحده فى أى وقت . . يمكن بس عندما كان يدخل الإنعاش فى كل البلاد التى انتقل إليها . .

ـ طيب ما تسأل مراتك . .

ـ مراتى؟ دى حمارة . . دى مشغولة طول الوقت بالمكرونة . أشكال وألوان من المكرونة . . ومؤمنة بأن لها رسالة فى الدنيا هى أن أفطر وأتغدى وأتعشى مكرونة حتى إذا أصبحت فيلا تركن سيارتها وتركبنى . . بنت العفاريت دى . . استطاعت أن تجعلنى كالفيل وأن تصرفنى عن القراءة . . وهى ترى أن كل كتاب هو امرأة تريد أن تتزوجنى! تخطفنى منها . . جتها خيبة . . يعنى حيخطفوا الأملة . . ما تسعدنى وتخلى عندك مروءة . .

ـ إيه؟

ـ ما تيجى نرميها فى النيل . . هاها . . إيه رأيك؟

ـ . . . .

ـ هاها . . طيب بلاش هيه . . نرمى الأساتذة اللى جوه . .

أنت ترمى أبوريدة وأنا أرمى بدوى . . هاها . . ولا . . بلاش أبوريدة . . ده رجل طيب مؤمن . . هاها . .

ـ . . . .

ـ إحنا الاثنين ـ حبا فى الأستاذ العقاد ـ نشيله هيله بيله . . ونرميه من البلكونة

ـ مين؟

ـ لويس عوض . . هاها . .

ـ . . . .

شنق نفسه..
وكان طه حسين هو السبب!

تعـال أعلمك! يا سـلام لقـد تخـرجـت فى قـسم الفلسـفـة، ولـم أسـمع هـاتين الكلمتين من أحد. كل الأسـاتذة طلبوا منا أن نكتب أبحاثا ولكن لم يقولوا كيف. وإنما تركونا ننقل من الكتب مع تغييرات طفيفة. لم يقولوا لنا كيف نقرأ كتباً بلغة أخرى. ولا واحد. وكنت طالب امتياز ومن حقى أن أستعير ثلاثة كتب وليس كتابا واحـدا. ولكن المسـتشـرق الألمانى بـاول كـراوس هو أول من قـال لى كـيف أمـسك كتابا. كـيف أقلبه. كـيف أعـرف الموضـوعـات التى يتناولها وكـيف أقـرأ الهـوامش وفهرس الموضوعات والأسماء وأين أجد كل ذلك؟

وعـلاقتى بالمستشرق الألمانى كانت لهـا بداية غـريبة. كنت أمر أمـام المدرج ٧٨. وسـمعت زعـيقا. وتوقـفت. ليست خناقة. ولكن الكلام له إيقـاع منتظم. يعنى أن شخصا يتكلم بصوت مرتفع. وهذا غير مألوف. واقتربت ونظرت ووجدت باول كـراوس وقد اقترب من السبورة يكتب ويخطب. توقفت لحظات. وهو مـاض فى الزعيق. ونظرت إلى المدرج فلم أجـد إلا ثلاثة من الطلبة متـجـاورين مـثل (أنس الوجود) فى خوف أو فى حيرة. أو كحـائط سد ضـد الصـوت. . وأشار لـى أحدهم أن أدخل. دخلت جلست بـالقرب من البـاب. والأسـتاذ باول كراوس يتحدث عن (جـابر بن حـيـان). . وينطقـهـا بملء الفم. . ثلاث نقط تحت الجيم والألف ممدودة

طويلة وكان يرفع رأسه حتى تخرج الألف من أعماقه إلى السقف. كأنه يوحنا المعمدان (الصارخ فى البرية) كما يقول الكتاب المقدس. . وفعلا المدرج كان مثل البرية. . فلا أحد يحتاج إلى هذا الزعيق.

ولاحظت أن أحد الطلبة قد نظر يمينا وشمالا. . وتسلل خارجا. ولم يلاحظ د. كراوس. . وبعد لحظات تسلل الثانى والرجل الذى يزعق ووجهه إلى السبورة ورأسه إلى السقف لم يتنبه إلى ذلك. والثالث لحقه. ولم يبق سواى. ولا أعرف إذا كان الوقت قد مضى بسرعة أو أننى نمت. فقد لاحظت أن الأستاذ كراوس قد توقف. ووضع البالطو على كتفيه واحتضن عددا من الكتب ورفع إحدى الحقيبتين. وأشار لى أن أساعده فى حمل الحقيبة الثانية. وبالخطوة العسكرية السريعة وصل باب الكلية وبسرعة نزل السلم متجها إلى برج ساعة الجامعة، وتلفت يمينا وشمالا ثم عاد إلى باب الجامعة ووقف فى الشارع فى انتظار التاكسى. وجاء ووضعت فيه الحقيبة. . وهز رأسه شاكرا. واختفى. .

وفى اليوم التالى انتظرته وسرت وراءه إلى المدرج. واستكمل ما كان قد قاله عن العالم الكيميائى جابر بن حيان. وعن الذى ساهم به فى علم الكيمياء. وعن نظريته العجيبة فى المعادن أو فى العناصر. فهو يؤمن بأن كل شىء حى. حتى المعادن لها نفس ولها روح ولها عمر. وأنها تتحول بعضها إلى بعض. . وأن لها طفولة وشبابا وشيخوخة. كما أن هناك أحياء فهناك أموات. مادة حية ومادة ميتة. وكلام كثير غريب وأسماء ما سمعت بها. ولا أعرف متى وأين أجدها، وفى أى العلوم الفلسفية. ومن العجيب أن أحداً من الطلبة لم يحضر. كنت وحدى. والرجل يصرخ ولم يتوقف له صوت ولم يبرد له حماس. وأنهى المحاضرة. ووضع البالطو على كتفيه واحتضن عددا من الكتب وحمل حقيبة وترك لى حقيبة أخرى. وسرت وراءه وفتح باب إحدى السيارات. وجلس وأشار إلينا فقد أصبحنا أربعة أن نجلس على الأرض.
وسألنى: عندك إيه؟

ـ فى إيه؟

ـ عندك إيه من المشاكل؟

ـ مفيش

ـ إزاى . لابد أن تكون لديك مشكلة . لابد أن تكون مشغولا بقضية . لابد أن تطير النوم من عينيك إلى أن تجد لها حلا . أنت قلت لى إنك تحب الفلسفة . . الفلسفة كلها مشاكل . . ما مشكلتك؟

ـ . . . . . .

التفت إلى الزملاء وسألهم وكان الصمت جوابهم . قلت : عندنا مشاكل ولا نفكر فيها . يقوم الأستاذ بتلقينها وبس .

ولكنه لم يسكت فقال : إن جابر بن حيان نسبوا إليه ألف كتاب وبعض المؤرخين يقولون إنه شخصية خرافية . . أى لا وجود له . وعلماء يؤكدون أنه كان موجودا وكان على علاقة قوية بالخلفاء . المشكلة : أريد أن تثبت لى أنه فعلا شخصية خرافية . . اقرأ فى كتاب كذا وكتاب كذا وسوف تجد أنه لا وجود له . وبعد ذلك اقرأ نفس الكتب وأثبت لى بالدليل القاطع أنه موجود . . وأنت؟

وأشار إلى زميل آخر : أنت تعرف جحا . شخص كان حيا . ولكن علماء يقولون إنه غير موجود . أثبت لى أنه غير موجود . وأنت؟

وأشار إلى زميل ثالث : هل تعلم أن مجنون ليلى شخص خرافى . . وأن ليلى لم يكن لها وجود . . أثبت لى أنه خرافة . . ثم أثبت لى أنه شخص حقيقى . . وأنت عندى لك موضوع صعب . لكن لا يوجد شىء صعب أمام الشباب . . أنت تعرف العالم الرياضى ابن الهيثم طبعا تعرفه .

ـ . . . .

ـ ابن الهيثم تقدم بمشروع تنظيم جريان نهر النيل . . ولكن المشروع لم يتم . ولكنها فكرة عظيمة . . هناك مشروع آخر تقدم به الرسام العبقرى د فنشى ى

الأمير فى ذلك الوقت . . هذا المشروع عبارة عن تصميم كبارى فوق الأنهار . . هذا هو الموضوع وهذه هى المشكلة وعليك أن تحلها حتى نهاية العام . .

- . . . .

وهبط من السيارة وحمل كتبه وحملت الحقيبة وزميل حمل الحقيبة الأخرى والثالث حمل البالطو وسرنا وراءه نجرى إلى الباب الخارجى . . واستوقفنا تاكسى . وعرفنا أن د . كراوس بلا سيارة . وأنه فى كل مرة يبحث عنها ناسيا أنه لا يملك سيارة!

وانفجرت ضاحك . وقالوا : إيه؟

قلت : سيدنا فى الكتاب كان يفعل بنا نفس الشىء . . هاها . . كل الأساتذة زى بعض سواء فى آداب القاهرة أو فى كتاب الشيخ سيد . .

هاها . .

- إزاى؟!

* * *

كتاب سيدنا الشيخ سيد الزبلاوى عبارة عن حجرتين . . واحدة لا نعرف عنها شيئا ولابد أنها غرفة نوم له ولأولاده . . ثم هناك فرن وفوق الفرن أقفاص للدجاج . وكان واجبنا أن نجمع البيض كل يوم . . وغرفة هى مثل المدرج ٧٨ . . مفروشة بالقش والقش مليان براغيث . وكنا نجلس وتلسعنا البراغيث ولا نقول : آه . . ولا نجرؤ أن نشكوا لآبائنا . فهم يرون أن الشكوى من أستاذنا عيب جدا . . كيف نشكو من واحد يعلمنا كيف نحفظ القرآن . فإذا اكتمل عددنا فى المدرج ٧٨ أرض أرض راح ينادينا :

- يا ولد يا أنيس!

- نعم يا سيدنا (بعد تقبيل يده) . .

ـ خذ .

وأحمل العمامة وأضعها على المصطبة التى سوف يجلس عليها سيدنا .

ـ يا ولد يا فتحى !

ـ نعم يا سيدنا (ويقبل يده) . .

ـ خذ (العصا الطويلة) . .

ويضعها فوق المصطبة . .

ـ تعالوا أنتم بقى . .

ويذهب بقية التلاميذ . واحد يضع الصينية فوق دماغه والباقون يمسكون أطرافها حتى لا يقع الفطير المثلتت وطبق القشدة ويضعونها على المصطبة فى انتظار سيدنا . .

ويبدأ أصعب ما فى الدروس اليومية . . سيدنا يأكل المشلتت السخن الذى ملأت رائحته المكان وأنوفنا وجعلت قدرتنا على التركيز زيرو ! وعصا سيدنا لا ترحم : قل يا ولد . . ارفع صوتك سمعنى . .

ونحن نقول ونقاوم رائحة المشلتت وعصا سيدنا وخوفنا من آبائنا إن هو اشتكى . وهو كثير الشكوى . .

أما المسافة التى كنا نقطعها ذهابا وإيابا من غرفة سيدنا وقاعة القش والبراغيث فلا تزيد على مترين . ولكن سيدنا لا يحمل عمامته ولا عصاه ولا إفطاره . . وإنما هؤلاء الأطفال يحملون عنه هذا العبء الثقيل كل يوم . . أليس المثل يقول : من علمنى حرفا صرت له عبدا . . وكنا عبيدا بأمر آبائنا ونحن جميعا سعداء . . هم سعداء بأننا مطيعون نتعلم . . ونحن سعداء بأننا نحفظ ونتقدم . . وسيدنا ليس سيدنا فقط وإنما هو سيد البلد كلها .

والليلة الكبيرة فى كل بيت هى يوم يثبت أن الطفل قد حفظ القرآن الكريم فى سنتين ونصف السنة تقام حفلة أو وليمة وتذبح فيها الخراف ويجىء عدد من المنشـ

يمتحنون الطفل فيطلبون إليه أن يكمل آيتين من سورة (البقرة) وآية من سورة (طه) وآية من سورة (النمل). فإذا نجح فى الامتحان سوف يقبله الجميع ويدعون له بالبركة والهداية، ويهنئون والده وسيدنا الشيخ على الإنجاز العظيم، ويجوز أن يقبل الناس يده لأنه حافظ للقرآن الكريم. . وممكن أن يصلى بالناس أليس حافظا للقرآن الكريم. . وقد يلعب مع الأطفال فى الشارع وإن كان بعضهم لا يشجع على ذلك لأنه قد حفظ القرآن.

وإذا حدثت مشاجرة سألوه، والقول ما قاله لأنه لا يكذب، فمن حفظ القرآن حفظه القرآن من الكذب. . ولم تعد أمى تضربنى إما لأننى حافظ للقرآن وإما لأننى لم أعد أتخانق مع أحد الأطفال!

حدث أن أوقعت صينية عليها أكواب فى بيت أحد أقاربى، وجاءت أمى مسرعة وسألتنى: إن كنت أنا. .

فقلت: أيوه. . وصفعتنى على وجهى أمام الناس، ولم تكن صفعة وإنما كان ارتجاجا فى المخ، فمن الممكن إذن ـ أن تحفظ القرآن الكريم وتضربك أمك بلا تردد أمام الناس، واعتذرت أمى وبكت وقبلت يدى ورأسى وطلبت منى أن أسامحها، ولكنى احتجت إلى وقت طويل. . وحتى لو لم تعتذر أمى لكنت سامحتها فقد عاشت وماتت وأنا لم أر لها عيبا واحدا. . يرحمها الله!

* * *

وكان د. باول كراوس قد نسى المشاكل التى طلب إلينا أن نجد لها حلا وأن يكون لنا رأى، فانطلق بنا إلى ما وراء كلية الآداب، وجلسنا على الأرض وهو فى إحدى السيارات، وقال: عندى فكرة. . لا أحد يعرف من الذى كتب (ألف ليلةوليلة)، من المؤكد أنه ليس واحدا. . والمطلوب منكم معا أن تبحثوا لى كم عدد الذين ألفوها ومن أى البلاد. . وزعوا العمل عليكم. . وأريد أيضا أن أعرف من هم (إخوان الصفا وخلان الوفاء) لا أحد يعرف. . ولكن هناك تكهنات كثيرة، اقتسموا العمل بينكم، وإذا وجدتم صعوبة أو طال البحث أو ضقتم. . أو حارت أقدامكم أو عقولكم

كلمونى . . طاردونى . . انتظرونى . لابد أن تكون هناك مشكلة ، والمشكلة تحدث فى النفس أزمـة ، وكـل أزمة لهـا انفراج ، والمثل يـقول : اشتـدى يـا أزمـة تنفرجى . . لا تخـافـوا ، حـاولوا ولا يهـم أبدا أن تفـشلوا ، المهم أن تحـاولوا وأن تصلـوا إلى أية نتيجة ، وأية نتيجة ليست خطأ ما دام الواحد منكم سليم القصد هيا بنا . . ثم توقف وهو يقول : فعلا ليست عندى سيارة : كـانت عندى وبعتها ، لكن لـم أفلح فى نسيان ذلك اعذرونى . . فأنا لا أعرف أصحاب هذه السيارات التى أجلس فيها . .

فقلت له : إن هذه السيارة بالذات لأحد أساتذة كلية الحقوق ، وقد وقف بالأمس يستمع إليك وأسعده ذلك ، ولم يشأ أن يقاطعك . .

ـ ولماذا لم تخبرونى ؟

ـ هو الذى رفض .

ـ تعرفونه ؟

ـ نعم الشيخ مصطفى عبد الرازق . .

ـ ما الذى سمعه ؟

ـ المشاكل .

ـ كل المشاكل ؟

ـ ربما . .

ـ أن تقول : ربما هذا معناه أنك كنت مستغرقا فى الاستماع إلى ما أقول ولم تتنبه إلى وجوده . . وأنا يعجبنى هذا . . يعجبنى الذى يستغرقه التفكير فيشغله عن كل شيء آخـر . . أحب ذلك ، أنا سـألت عنك د . بدوى . . وقـال لى إنه يتـوقع لك مستقبلاً كبيرا .

ـ لم أسمع منه ذلك .

ـ هناك نوع من الأساتذة . . أساتذة يقـولون للطلبة وأسـاتذة يقولون لأنفسهم وينتظرون . . والذين يقولون لطلبتهم يشجعونهم ومن الممكن يفسدونهم أيضا .

فلأنكم صغار قد يفسدكم هذا التقدير أو هذا التشجيع الزائد عن اللزوم . . والذين يقولون لأنفسهم فهم يخافون عليكم أيضا . . وينتظرون ماذا ستفعلون بأنفسكم، ولكنى أفضل أن أدفع الطالب إلى البحث وأدفعه وأساعده وأشجعه . . أدفعه وانتظر أن يكمل هو الطريق وحده . . آه . . نسيت لقد فهمت من د. بدوى أنك تلميذه . .

ـ نعم .

ـ كأنك لست تلميذى .

ـ لا . .

ـ إذن؟

ـ إننى أحضر لأننى معجب بك يا أستاذ . .

ـ لست طالبا فى قسم الدراسات الشرقية؟ . .

ـ لا . .

ـ وكل هذا العناء والأبحاث التى أطلبها منك ومراجعة مفردات القاموس العربى اللاتينى اليونانى كل ذلك وأنت متطوع؟

ـ نعم . .

ـ أوه . . ليتك تلميذى . .

ـ ليتنى . .

ـ لقد جعلتك تحمل كتبى وشنطى وتستعير لى الكتب من مكتبة القاهرة ومن مكتبة (الدير الدومنيكى) فى العباسية، كل ذلك وأنت متطوع . .

ـ ويسعدنى يا أستاذ . .

والتفت د. باول كراوس إلى زميل قد حضر لأول مرة: أنت طالب هنا؟

ـ نعم يا أستاذ .

ـ ولم تحضر إلا اليوم؟

ـ نعم .

ـ لماذا؟

ـ ظروف يا أستاذ . .

ـ طبعا ليست عندك مشكلة؟

ـ عندى .

ـ ما هى؟

ـ السكن .

ـ لا . . لا . . مشكلة علمية تبحث لها عن حل . .

ـ لا . .

ـ عندى لك مشكلة ، من المعروف أن العالم حنين بن إسحاق كان له أساتذة ، من بينهم أستاذ ومعلوماتنا عنه قليلة . . هذا الأستاذ اسمه (إذن الحمار) . .

ـ اسمه إيه؟

ـ إذن الحمار . . هاها . . لا أقصد إهانتك . . اسمه بالفعل كذلك . . وأنت . .

ـ هاها . .

ـ هاها . .

وغضب الزميل وترك القسم إلى قسم آخر . . والحقيقة أن هناك عالما بهذا الاسم!

هل كان باول كراوس جادا أو مازحا؟

* * *

وتركت باول كراوس ولم أرفع عينى عن أبحاثه ولكنه استطاع أن يغرس فى أعماقى أسماء عدد كبير من المستشرقين العظماء :

فلهاوزن وجولد تسيهر ولتمان ونولدكه وبلا ثيوس وبرو كلمان ونللنيو وكارا دوفو . . وغيرهم وكان لهذه الأسماء سحر فى خيالى وتمنيت على الله ولا يكثر على الله أن أعرف منهم وعنهم . .

وعرفنا أن أكثر الكتب التى كان يكلفنا بقراءتها موجودة عنده هو فى البيت

ولا يردها إلى المكتبة، بل كان يؤمن إيمانا قاطعا بأن سرقة الكتب ليست حراما، وكان يشجعنا على ذلك.. ولم نجرؤ أن نقول له ذلك، فكان هو الذى يعطينا الكتب ويطلب منا أن نعيدها إليه.. مع أنه تمشيا مع نظريته هذه كان من حقنا أن نحتفظ بها.. فسرقة السارق ليست حراما. ولكننا لم نجرؤ!

ـ هاها.. كان هذا رد فعله عندما قلت له: ما رأيك لو سرقنا كتبك؟

ـ كتبى لا.. كتب الدولة نعم..

ـ هاها..

* * *

أعود إلى ما بدأت به هذه السلسة من (المدرج ٧٨) يوم مناقشة الدكتوراه للدكتور عبد الرحمن بدوى وكان موضوعها (الزمان الوجودى)، وكانت لجنة الامتحان برياسة طه حسين والدكاترة حسن إبراهيم حسن عميد الكلية وعلى عبد الواحد وافى وباول كراوس.. ومن المؤكد أنهم جميعا لا يعرفون الكثير عن الفلسفة الوجودية الألمانية أو الفرنسية، ولكن ملاحظات باول كراوس هى الأصح، فقد أُخذَ على د. بدوى التوسع فى استخدام أحد المصطلحات الفلسفية، ورفض د. بدَوى هذا النقد، ولكن باول كراوس هو الأصح..

فى هذه المناقشة رفع طه حسين أستاذنا عبد الرحمن بدوى إلى السماء عندما قال إنه أول فيلسوف مصرى. واستخدمت دور النشر هذا اللقب عندما راحت تعلن عن كتب د. بدوى، أما باول كراوس فرفعه طه حسين إلى ارتفاع مترين عن الأرض.. مترين فقط.. فعلى أثر مناقشة حادة بين باول كراوس وطه حسين الذى كان وزيرا للتربية والتعليم، عاد باول كراوس إلى بيته فى الزمالك وشنق نفسه من حزام (الروب ده شامبر).. ولم يكتب سطرا واحدا عن الذى حدث.. أما أرملته فتزوجت مستشرقا آخر هو (سلامون بينس) الذى كان يعيش فى إسرائيل!

وساد صمت رهيب على حياة العالم الجليل.. ولم يختف من حياتنا.. ولكن

استغرقتنا حياتنا فلم نبحث عن الذى أصابه . . ولم نفلح فى أن نجعل موته مشكلة ندرسها ونصل فيها إلى رأى . .

وهو الرجل الوحيد الذى علمنا القراءة . وعلمنا أن نكتب كل اسم بالعربية وبالحروف اللاتينية . . وأن نفعل ذلك كثيرا حتى لا ننسى . . وأنه هو شخصيا كان يكتب الأسماء بخط النسخ الأحمر ويكتب الباقى بخط الرقعة أو الفارسى وبالحبر الأسود .

وتعلمنا منه أن كل شىء مهم، لا يوجد شىء تافه . . حتى الأشياء التافهة لها أسباب جادة . . فالذى رفعه عن الأرض مترين لكى يموت فوق . . لا هو قال السبب ولا طه حسين ولا نحن عرفنا . .

يومها لم يحضر جميع الأساتذة!

خـايف أقـول اللى فى قلبى . . ومـين زيك عندى يا خـضـرة . . وأنا هويت وانتهيت . . أجمل وأرق وأبدع ما سمعت فى المدرج ٧٨ بصوت الزميل فى قسم اللغة العربية جمال أبورية الذى صار أديبا يكتب للأطفال . وكان جمال أبورية زميلى فى مدرسة المنصورة الثانوية . . وكان يغنى لنا فى الفصل وفى شارع النيل ابتداء من حى توريل وانتهاء بشجرة الدر . . وكنا ستة ارتبطنا بالتاريخ والفن : ضياء الدين بدر ومخالى سقراط وجمال أبورية وخالد حسونة وأنا . . وأحيانا نطلب إليه أن يغنى جالسا على سلم المكتبة الفاروقية . وكان يفضل أن يغنى فى زورق فى النيل لولا أننى أخاف من الماء فأنا لا أعرف العوم . أو أننى غرقت فى النيل وأنا صغير ومن يومها أبلل قدمى فقط وأتفرج على المستحمين فى الإسكندرية وفى الريفيرا وفى سان فرانسيسكو وفى جزر هاواى!

ولم تكن عندى الشجاعة فى ذلك الوقت أن أقول : إننى أيضا أغنى . . أو أريد . وقد شجعنى على ذلك أن والدى كان جميل الصوت إذا غنى وإذا قرأ القرآن . . وكذلك كانت إحدى خالاتى جميلة الصوت وجميلة الصورة جدا . وكان صوتها سبحان الله . . فتنة .

ولم أكن مفتونها الوحيد . . وقد غنيت أنا أيضا . ولم ألاحظ أننى وجمال أبورية قد غنينا فى مكان واحد أو فى حفلة واحدة . لم أتبين ذلك إلا متأخرا .

ولم أعرف السبب . وقد غنيت لجمال أبورية . . وصفق لى . ولكن كنت أشعر بأن صوته هو الأجمل وهو الأقوى وأن لديه شجاعة وسلاسة فى الأداء . وكنت أنظر إلى حنجرته وإلى وجهه وعينيه الخضراوين . إنه لا يبذل جهدا فى الغناء .

فالصوت ينطلق منه ولا يوقفه شيء!

وفى يوم ونحن نتمشى على النيل رحنا نتساءل : ما الذى ينتظرنا . . شيء غريب أن أقول أنا ومحمد ضياء الدين الذى أمه ألمانية إننا سوف ندخل الأزهر ويكون لكل منا رواق أو مقعد عال ويلتف الطلبة حولنا .

ـ وبعدين؟

ـ لأ مش عارف . .

ـ طيب ماذا ندرس للطلبة؟

أنا قلت : فلسفة . .

وهو قال : الأحاديث النبوية .

على أى أساس اخترنا هذه المهنة . ليس الدين فلم نكن نعرف منه إلا القليل . وربما الأستاذية ، أن يكون لنا مقعد عال ويلتفت حولنا الطلبة . . أما الذى سوف نقوله فيجيء . . فيما بعد . وتغيرت أفكارنا . ولم أقل أبدا إننى أريد أن أكون مطربا . فلم أكن أعرف فى ذلك الوقت ما معنى أن يكون الواحد منا مغنيا . هل هى مهنة . . هل هى وظيفة لا أظن أن أحدا منا قد فكر فى الفرق بين الأستاذية فى الأزهر والغناء فى المدرسة أو الجامعة أو الحفلات . . إنها ـ إذن ـ أحلام صغيرة لطلبة صغار . لا تجارب لهم ولا معلومات ولا مستقبل واضح . وإنما هم يقولون ويلفون ويدورون ويتسكعون . وفى يوم ونحن جالسون على سلالم (المكتبة الفاروقية) أن جاءنا من يقول لنا :

أنتم يا طلبة يا صايعين يا ضايعين يا تافهين يا أولاد الـ . . . . . .

ـ ابنى فين؟

ـ مين هو؟

ـ مش عارف مين هوه . . اللى بيصرف عليكم . . اللى جاب لكم الهدوم دى والجزم دى . .

ونهضنا منزعجين نسأل : مين هو؟

ـ أنتوا لسه بتسألوا ! !

وأمسك خالد حسونة ـ الذى صار رئيس محكمة فيما بعد ـ من قميصه . . وسحبه إلى الأمام . . ولما تصدى له محمد ضياء ـ الذى صار مهندسا كبيرا ـ مزق قميصه . . ولما هجم عليه مخالى سقراط ـ الذى صار صاحب فندق فى أثينا ـ وطرحه أرضا أخرج الرجل من جيبه مطواة . ودفعنا وظهورنا للحائط . . عندما فوجئنا بالرجل قد ألقى المطواة على الأرض . . وراح يبكى ويعتذر ويبكى . . وجاء من يضع يده على رأسه وينهضه قائلا له ولنا : آسف يا جماعة . . بابا غلطان . .

والتفت إلى والده وقال له : يا بابا أنا قلت لك . . مش دول . . دول شوية بنات . .

ـ أنت قلت بنات يا ابن الـ . . . .

ـ أيوه يا بابا . . ومش قدام المكتبة . بنات قدام المحكمة . . اللى هناك دى . .

وذهب الأب والابن . ومرت علينا لحظات صمت طويل . وفى نفس واحد : بيقى نطلع ضباط بوليس . .

ـ الدنيا : يا عسكر . . يا حرامية . . إيه رأيكم؟

ـ حرامية !

ـ لا عسكر ! !

ـ عسكر . . حرامية ! !

* * *

بعد أن فرغنا من السندوتشات فى المكتبة وشربنا الشاى فى الدور الأرضى عند

عم محمود خرجنا أكثر انتعاشا . فوجدنا زملاء لنا من كليات الحقوق والهندسة والزراعة . وقالوا : الوقت حالا . . نفى بما وعدناكم . .

ـ بأى شىء . .

ـ وعندنا لكم مفاجأة .

ـ إيه . .

ـ عاوزينكم تسمعوا صوت خالد الشربينى .

والذى صار بعد ذلك عميدا . .

ـ أين؟

ـ فى المدرج ٧٨ .

وذهبنا وكنا عشرة أما الحادى عشر فهو د. لويس عوض وكان تلامذته يداعبونه : د. لويس الحادى عوض . . والثانى عشر د. حسين مؤنس .

وقيل الأستاذ أمين الخولى سوف يكون هناك . .

واتخذ كل منا مكانا . . وذهب الزميل خالد إلى المنصة وقال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿**الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ**﴾ (الرحمن : ١ـ٦) .

قالها فى نفس واحد . . ياه ولا الشيخ رفعت ثم أعادها مرة ومرتين . . الله . . الله يا خالد . . الله . .

ـ إنه فى كلية الحقوق . .

ـ لالا . . فى كلية الزراعة . .

أبوه أستاذ الحشرات هناك . . وأمه أستاذة الألبان . . قريبى . . وأبوه خايف إنه يترك كلية الزراعة ويتجه إلى الدراسات الدينية . . لأن عمه أحد أساتذة

الأزهر . . والبنت اللى عاوز يتجوزها محجبة وهى أيضا تتلو القرآن فى المناسبات الخاصة . .

- . . . .

وكان زميلنا عازف البيانو والطالب العتيد عبد الحميد توفيق زكى ـ الذى صار موسيقارا بعد ذلك ـ قد حضر . وجلس وانتظر أن يسمع . ولكن الزميل خالد قد فرغ من التلاوة . فأصر عبد الحميد زكى أن يسمعه .

وسمعه يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ **فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (٢٢) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (٢٣) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا** ﴾ (مريم : ٢٢ ـ ٢٤) .

ـ الله . . الله يا خالد . . الله يفتح عليك .

ومضى خالد : ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (٢٥) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا** ﴾ (مريم : ٢٥ ـ ٢٦) .

ـ الله يا خالد . . الله . .

وقف عبد الحميد توفيق زكى وقد ظهر العرق على وجهه . . وتهدج صوته . وتحشرج وقال : أنا النهارده سمعت صوتا ملائكيا . . صوتا من السماء . . أنا مستعد أقدمك . . ومستعد أستمع إليك فى أى وقت . . وإن ده شرف أن يكون بيننا هذا الصوت الذهبى . .

ونزلت الدموع على خدى عبد الحميد توفيق زكى . .

وكانت دهشتنا كبيرة . فعبد الحميد توفيق زكى ليس هكذا لطيفا مجاملا . . إنه يتعالى علينا . وعرفنا السبب فيما بعد فقد ظل فى السنة الأولى بينما جميع زملائه

صاروا مهندسين وأطباء ومدرسين له فى نفس الكلية. وهو قابع فى ركن من أركان نادى كلية الآداب حيث يوجد البيانو الوحيد فى الجامعة!

وعندما كان عبد الحميد توفيق زكى يغادر مكانه جاءه أحد السعاة وهمس فى أذنه. وتغيرت ملامحه وصرخ: أبدا.. أنا لن أفارقه لحد آخر نقطة دم فى جسمى.. أنا سأقتله.. إن شاء الله يكون صاحب المقام الرفيع.. مش ممكن.. ده كلام فارغ! أبدا!

ثم التفت ناحيتى وهو يقول: أنتو يا بتوع الفلسفة والكلام الفارغ.. إيه فيه إيه.. جرى لكم إيه.. وحتعملوا بالبيانوا إيه.. إيش فهمكم.. خليكم فى الهجص بتاعكم.. مش ممكن!

وكان لابد أن نفهم..

- إيه الحكاية يا عبدالحميد!

- ولا حكاية ولا رواية.. أنتم زودتوها..

- وأنظر ورائى فلا أجد أحدا قد زودها أو أنقصها..

- الرجل بتاعكم اللى اسمه منصور فهمى.. منصور باشا.. عاوز ينقل البيانو للمدرج ٧٨.. مش فاهم علشان إيه.. وهوه ماله؟ شيء غريب!

ولم نفهم. وفجأة ظهر أستاذ اللاتينى مسيو باترى وهو عازف كمان فى أوركسترا الأوبرا. وعنده محاضرة عنوانها: (ميتافزيقا الموسيقا) ومكانها المدرج ٧٨.. فى الساعة الخامسة من مساء اليوم. وسوف يحضرها أساتذة اللغة الفرنسية ورجال السفارتين السويسرية والفرنسية وبعض أساتذتنا الذين يعرفون الفرنسية: د. عبدالرحمن بدوى ود. عثمان أمين ود. يوسف مراد ود. حسين مؤنس والأب قنواتى وعازف البيانو أيضا الطالب جمال عبدالرحيم الذى سوف يعزف لشوبان وموتسارت. ويقوم د. باترى بشرح المعانى الفلسفية لهذه الأعمال الموسيقية.. وموضوع المحاضرة هو معنى الجمال فى الموسيقى.. الجمال فى الفلسفة والموسيقى.. شيء جميل وبديع ويجب ألا يفسده عبد الحميد توفيق زكى الذى

قال: طبعا بالفرنسية لأننى لا أعرف الفرنسية. ولأنهم يريدون عزلى.. طردى استبعادى..

واقترب منه د. عبد الرحمن بدوى: يا عبد الحميد أنت زعلان ليه؟

ـ جعلوها بالفرنسية علشان لا أعرف ماذا يقولون..

ـ هاها.. طيب ده أنت كمان ما تعرفش عربى.. هاها..

ـ وجمال عبد الرحيم ده مين؟

ـ طالب..

ـ لكن أنا أحسن منه.

ـ ولكنه يعرف يتفاهم مع مسيو باترى بالألمانية..

ـ أنت عارف أننى حمار فى كل اللغات.. طيب بلاش البيانو..

واقترب منه منصور باشا فهمى وفى هدوء سأله: فيه إيه يا ابنى؟

ـ ولا حاجة يا باشا..

ـ أمال الزعيق ده ليه؟

ـ ....

ـ تعالى أعزف يا ابنى.. اللى أنت عاوزه.. بس المطلوب موسيقى أوروبية.. وأنت باين عليك بتاع هشك هشك..

ولم يطق عبد الحميد توفيق زكى واختفى..

وقيل يومها: إنه سوف يلقى بنفسه فى النيل..

ولكن الذين يعرفونه قالوا: أبدا تلاقيه فى جنينة الحيوانات بيشرب ويأكل وبعد كده يروح ينام. والصبح حتلاقوه هنا زى الجن.. أنا عرفه ياما اتخانق معانا.. وانتهى كل شىء بملء بطنه والنوم..

ـ هاها..

ـ وده مدرس هنا؟!

ـ هوه شاهد على مئات المدرسين كانوا زملاءه وتخرجوا وتركوه ينظف البيانو وينام على صدره ويكون له بعد ذلك صوت غير موسيقى بالمرة.. هاها..

ـ هاها..

* * *

وقيل لنا إن العلاقات أصبحت صافية كاللبن بين عبد الحميد توفيق زكى وكل الأساتذة. واقتنع أنه ليس المقصود إطلاقا.. وظهرت السعادة على وجهه. وبالأحضان والقبلات لكل من يلقاه فى نادى الكلية..

ولكى يؤكد لنا أن كل شىء عاد كما كان وأحسن أعلن أنه وعلى حسابه ويوم خميس القادم سوف يقيم حفل تكريم للأساتذة.. وقد دعا إليها عددا من الفنانين الشبان.. وأن هؤلاء الشبان مفاجأة.. وأن الأساتذة جميعا وافقوا على الحضور.. وذكرهم بالاسم: الدكاترة عبد الرحمن بدوى وعبد العزيز عزت ويوسف مراد ومسيو باترى ود. لامونت ود. بريستيانى وربما طه حسين ـ وصدقنا كل هذه الأسماء إلا أن يجىء طه حسين. فلا علاقة لنا بطه حسين.. ولكنه قال لنا إن بعض أقاربه هم أعز أصدقاء مدام طه حسين.

ومن الصباح الباكر بدأ العمل فى نادى الكلية.. كنس وغسل وتلميع وباقات الورود.. وسعاة يروحون ويجيئون ويتهامسون كأن شيئا خطيرا سوف يقع، وبين كل كلمتين يجىء اسم الأستاذ عبد الحميد.. الأستاذ زكى.. هوه.. وأنا متأكد.. والفلوس.. ومضت ساعات وانتصف النهار.. واتجهنا إلى الساعات الأولى بعد الظهر.. والعمل لا يزال مستمرا.. وانتقلت بعض المقاعد إلى النادى.. ربما من غرف الأساتذة.. المسألة جادة جدا..

وظهر عبد الحميد توفيق زكى أنيقا: بدلة وكرافتة والشعر لامع والوجه ازداد احمرارا. والتففنا حوله نسأله: البرنامج إيه يا عبد الحميد؟

ـ أبدا . . كلمة . وشرح لمحاضرة الخواجة السويسرى مسيو باترى . .

ـ مين اللى حيشرح؟

ـ منصور باشا . .

ـ وهو منصور باشا جاى . .

ـ طبعا . وتعليق من د . بدوى . . وربما من د . حسين مؤنس . .

ـ دى حاجة عظيمة . . وفيه شاى . .

ـ آه للأساتذة بس . . أنا حاجيب لكم فلوس منين . . كفاية السعاة والبوفيه . . احمدوا ربنا . .

وحمدنا ربنا . . ولكننا كنا نسأل فقط فنحن لا نطمع فى أكثر من ذلك . ثم إن عبد الحميد طالب مثلنا لا عنده ولا قدامه ولا وراه . . وهو أقدم تلميذ فى الجامعة . وناس بيقولوا أقدم تلميذ فى الكلية . . ولا أحد يعرف فى أى قسم من أقسام الكلية . .

ودخلنا أربعين أو خمسين . . وجلسنا . . وانتظرنا وبدأنا نتلفت حولنا . . وتهامسنا وتساءلنا أين عبد الحميد . . أين عبد الحميد . . لم يظهر لا فى الساعة الخامسة ولا فى السادسة . . نقوم؟ وقمنا . ووقفنا أمام النادى . . وأطفئت الأنوار وعدنا إلى بيوتنا . . ولم نفهم ماذا حدث . . وتساءلنا ولكن أحدا منا لا يعرف أكثر من الآخر . . وأجلنا علامات الاستفهام والتعجب إلى الغد . وجاء الغد . . هاها . . بايخة جدا . .

فقد أرسل عبد الحميد توفيق زكى خطابات الدعوة إلى د . عبد الرحمن بدوى ولم يحضر طبعا . ود . يوسف مراد وما كان يجب أن يحضر . ولا لويس عوض ولا د . عبد العزيز عزت . .

وعرفنا أن خطابات الدعوة الشخصية كان نصها هكذا : يقيم قسم الفلسفة حفلة غنائية يحييها المونولوجست عبد العزيز بدوى والمطرب لبيب عوض

والمطربون عبد العزيز عزو ومؤنس حسين . . والراقصة ليلى باترى . . وكل أسماء المدعوين بهذه الصورة الساخرة الفجة الخشنة . . أما الإمضاء فهو : حمير وبغال قسم الفلسفة والأقسام الأخرى!

وبعد يومين ظهر الطالب إلى الأبد : عبد الحميد توفيق زكى : هاها . . هاها . . إيه رأيكم لقد انتقمت . . هاها . .

ـ . . . .

وكان النطق السامى كلمة من حرفين.. منتهى القسوة!

كأننا فى قطار اقترب من المحطة الأخيرة. عيوننا على الباب.. لا أحد ينظر لأحد. تعبنا مللنا وقفنا نتحسس أيدينا ننشط سيقاننا. ولكن أحدا لا يرى أحدا.. كأننا بلا عيون. كأننا بلا آذان.. بعضنا سحب حقائبه من فوق. بعضنا نظر إلى أشيائنا وتركها. ولكننا حريصون على أن نهبط إلى الرصيف. شىء. غريب.. كأننا كما يقول البوصيرى نمشى على ساق بلا قدم.. اختفت الألوان من كل شىء. فنحن قطع من السحاب أو الضباب لنا وجهة واحدة وليست لنا أشكال ولا ألوان ولا إيقاع.. نحن نهاية كل شىء.. نهاية الخط.. نهاية الطريق.. نهايتنا.

ونحن خارجون من الكلية عند نهاية العام الدراسى.. تغيرت كل الألوان. حتى الأعشاب لم تعد خضراء كأنها كانت تضع الأبيض والأحمر والأزرق من أجلنا ولم نعد هناك، ولذلك غسلت وجهها وأصبحت بلا مكياج.

من قال إن ساعة الجامعة لم تعد تدق؟ بعضنا قال. هل هى ابتعلت صوتها أو أننا فقدنا القدرة على السمع.. أو أن كل ما سمعناه فى مدرج ٧٨ قد انحشر فى آذاننا فلم يعد أى صوت قادرا على أن يتسلل وسط هذا الزحام.. هل صحيح أن د. عبدالرحمن بدوى توقف يسألنا فلم يرد عليه أحد؟ لا أذكر ذلك. ولكن زملاء قالوا. ولكن لماذا؟ والجواب: كفى جدا ما كان منا وما كان منه ومن غيره. ليس استخفافًا به ولكنه التعب الذى جردنا من كل أسلحتنا وطاقتنا على الرؤية والرأى

والاستماع والاستيعاب . . انتهى كل شيء . . البطاريات فرغت . . الحيوية صارت زيرو . . شيء غريب : إن أحدا منا لم يودع أحدا أو يسأل كيف نلتقى . . تعبنا من أنفسنا . وليس أمامنا إلا الراحة من الجميع . . إلى هذه الدرجة كنا عبئا على أنفسنا . . تحت وطأة المحاضرات والمناقشات والهموم والمخاوف والأبواب الضيقة كلما فتحناها أغلقت نفسها فى وجوهنا وعلى أصابعنا . .

ولا أنسى أبدا صوت قطار وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة عندما وصل إلى نهاية الخط . . كلنا كذلك . .

وكالذين نزلوا من قطار العمر . . فليست هذه هى المحطة الأخيرة . . إنما هى الأخيرة فى الخط . ولابد من قطارات أخرى وسيارات وطيارات وخيالات تنقلنا من مرحلة إلى مرحلة . . وكما أن السكك الحديدية محطات فالعمر أيضا ! وإذا كنا نعرف للسكك الحديدية بداية ونهاية فنحن نعرف بداياتنا أما النهاية فعند الله . .

ونحن ننتقل من بداية إلى بداية . .

اقترح أحد الزملاء أن نذهب إلى جروبى . واعترضنا جميعا . فليس هذا هو المكان الذى نلتقى فيه بأستاذنا عبدالرحمن بدوى . كيف نذهب إليه وكيف نسأله . وهل كان مشجعا لنا؟ هل فتح لنا صدره؟ هل اقترب منا؟ هل اقترب منه أحد؟ ثم نسأله عن ماذا؟ . انتهى كل شيء . هو انتهى عندنا ونحن انتهينا عنده . . وأسخف من ذلك اقتراح أن نذهب للأستاذ العقاد . . ولا داعى لأن نذهب إلى طه حسين . . ولا معنى لأن ندق باب لطفى السيد . . فليس عندنا ما نقوله . أما أنا فرفضت تماما أن نذهب إلى فيللا منصور باشا فهمى . فقد ظن الزملاء أنه هو الأستاذ اللطيف الطيب الذى إذا شاء : انفتح لنا المستقبل ونزل من السماء مكتب وتليفون وسكرتيرة جميلة لأى خريج فى قسم الفلسفة . وقلت : أبدا . . لا أذهب ولو انسدت كل الأبواب والنوافذ . فهو رجل قد امتلأ بنفسه وأخفى يديه فى جيوبه وانطوى وانزوى واكتفى ولا يهمه بمن عداه من الناس .

* * *

سؤال محدد مفاجئ منى لها ونحن فى حديقة الأسماك بالزمالك: ما الذى نريده الآن؟ لقد تخرجنا. ولا نعرف أين نذهب وأى شيء يصلح لنا. ثم ما هو وجه الاستعجال. فلنأخذ نفسنا.. نشم هواء.. نجلس إلى جوار الحائط.. تحت شجرة.. نلتقى بزميلات الدراسة فى حديقة.. فى مطعم.. عندنا وقت لكى نصرح بما أخفيناه من قبل..

ـ مثل ماذا؟

ـ مثل أنت حلوة.. أنت عاجبانى.. ما رأيك بعد شهر بعد اثنين.. ما رأيك فى الهجرة. ما رأيك لو تزوجنا ورزقنا الله ونبنى عش الزوجية طوبة طوبة.. واحدة من ذهب والثانية من ذهب أيضا.. ولنبدأ من فوق.. السطوح ونظل ننزل حتى تكون لنا شقة فى الدور الأرضى ثم نعود إلى الصعود من شقة إلى شقة أكبر.. إلى فيللا.. تماما مثل كثيرين من الذين لم يكونوا شيئا فصاروا أشياء وشويات... إيه رأيك نجرب؟

ويكون رأيها: أجرب لا.. أمى جربت وعاش أبى ومات فقيرا.. وهى لا تنصح بلعب العيال.. وحكاية الطوبة طوبة لم تتحقق فى التاريخ.. فقط فى خيال الشبان حديثى العهد بالتخرج فى الجامعة. ولا معنى لاستعجال الفقراء على الزواج.. هم وأولادهم الأكثر فقرا.. الحل عند ماما.. وهو أن أتزوج غنيا إن لم يكن متعلما فعنده القدرة على تعليم أولادنا... أما إذا كان غنيا ومتعلما فهذه هى طاقة القدر قد انفتحت على الآخر.. وبصراحة أنا لا أرى معك شيئا من ذلك.. إذن يا ابن الحلال أنت من سكة وأنا من سكة.. ومن يدرى ربما نلتقى وإن كان من المؤكد أننا سوف نلتقى فى جهنم أو فى الجنة.. سوف نكتشف فى الحالتين أننا سلكنا الطريق الغلط.. وإن كنت ناسيا أفكرك بما قاله د. عبدالرحمن بدوى لما أنت سألته عن معنى الجنة. فقال لك: إنها من صنعك أنت.. والنار؟ فقال: من صنعك أنت أيضا.. يعنى أنت الذى تحفر بأظافرك ولسانك طريقك إلى الجنة والنار.. والزواج هو الجنة والنار على هذه الأرض..

ولابد أن تجىء لحظات صمت يبتلع كل منا ما سمع . . أو يحاول ذلك . فمن الصعب أن يكون الكلام له طعم الفشل ثم يسهل ابتلاعه . .

ولابد أن أكون قلت لها : لم يغير كلامك من لون الأشجار حولنا وفوقنا . . فلا تزال الأوراق لامعة الخضرة أو خضراء اللمعان . . ولا تزال أوراقها تتلقف العصافير ولا تزال العصافير من ملايين السنين تغرد لحنا واحدا . . لازهقت ولا الكون ضاق بها . . ونحن حياتنا مكررة ولكن التكرار لم يقتل الإبداع . . وأكثر الكلمات شعبية : أحبك . .

ـ شعبية عندك أنت؟

ـ عند البشرية . .

ـ وعندك أنت؟

ـ كلمة مؤجلة . .

ـ يعنى ليس لها معنى . .

ـ لها معنى . . ولكن النطق بها مؤجل . .

ـ لم تقلها لأحد؟

ـ أبدا .

ـ ولن تقولها؟

ـ لابد أن يجىء يوم . .

ـ كل شىء عندك محدد . . الحب بموعد . والكراهية بميعاد . .

ـ الحب ليس بالطلب . . نحن نطلب الحب ولكنه لا يجىء . . أو هو يطلبنا ثم لا يجدنا . .

ـ وأنت الآن طالب أو مطلوب؟

ـ لا طالب ولا مطلوب . أنا على الرف . أنا لا مكان لى فى أية جملة مفيدة . .

ـ لماذا؟

ـ إننى كواحد شيال كان يضع على كتفه عشر شنط . . ثم أنزلها على الرصيف . . صحيح الشنط على الأرض ولكن لاتزال كتفى توجعنى كأن الشنط مازالت هناك! فلا وقت ولا قدرة ولا رغبة ولا معنى . .

ـ لا . . هناك معنى . . الحب له معنى . . حتى لو رفضته . . وحتى أن تنحى نفسك جانبا . . أن تتفرج . . أن تتوقف . . أن ترفض كل ذلك له معنى . . هل تذكر ما قاله لنا د. يوسف مراد عندما سألته إحدى الزميلات إن كان الزواج ضرورة؟ فكان الرد أنه ضرورة. وإن كان الحب ضرورة؟ فقال إنه أفضل للزوجين وللأطفال . . ولكنه ليس ضروريا لتكون حياة . . وقال: إننا لا نعرف بالضبط طبيعة العلاقات بين الناس من مئات ألوف السنين . . ولا إن كان بين الحيوانات هذا الذى نسميه الحب ولكن عندى سؤال أهم من كل ذلك: ما الذى أدخلنا هكذا فى عالم الحب . . كيف تدحرجنا إلى هذا المنزلق . . إلى هذا المنحنى الخطير . . إلى حقل الألغام . . إلى المجال المغنطيسى لأكثر العلاقات الإنسانية عمقا واضطرابا وغموضا . .

ـ هذا الذى قلت لك عنه ولكنك لم تلتفت إليه . . إننا فى مهب الريح من هنا ومن هناك . . لا نستطيع أن نردها ولا أن نوقفها . . نحن هدف لقوى كثيرة نعرفها أو لا نعرفها . . ولكن ليس من الضرورى أن نحسم كل شىء الآن . . ففى حياتنا الجديدة قضايا معلقة من أعناقنا ونحن معلقون أيضا من قدرنا . .

ـ وهكذا عدنا إلى ما بدأنا به . . من المجهول إلى المجهول . . طيب تيجى نروح له؟

ـ لمين؟

ـ للأستاذ العقاد.

ـ يا ساتر . . أنت زى واحد مجرم يلف ويدور حول جريمته وكل ما يتمناه هو أن يسلم نفسه للبوليس . . العقاد جريمة والإصرار عليه إصرار على حبل المشنقة لكل أفكارك وأفكارنا . وهل عرف العقاد الزواج لكى نسأله؟

ـ لن أسأله عن الزواج؟ .

ـ عن الحب الذى يفضى إلى الزواج . . عن الحب بلا زواج . . عن الزواج بلا حب . .

ـ إنه أحد الذين أفسدوا علينا حياتنا . .

ـ هو؟ لم يفعل . . أنت تختار من أفكاره ما يعجبك . . ما يناسبك . . أو أنك اخترت ما لا يناسبك ثم ألقيت المسئولية عليه وعلى بدوى وعلى سارتر وعلى فولتير . . على كل الناس إلا أنت . ألا ترى أن هذه سذاجة فكرية طفولية . . تفكير عيالى؟ سؤال محدد . . أنت .

ـ نعم . .

ـ هل تحبنى؟

ـ لا . .

ـ لأننى لا أستحق .

ـ لأننى لا أعرف . . لأننى معطل . . لأننى مرفوع من الخدمة . . لأن فى دماغى شوشرة فلسفية . . لأننى أدور حول نفسى . . فلا أعرف لى وجها ولا وجهة . .

ـ مجنون؟

ـ إلا قليلا .

ـ عاقل؟

ـ إلا قليلا .

ـ حيوان؟

ـ كلنا كذلك!

ـ طيب إيه اللى تعلمناه؟

ـ تعلمنا أن نسأل وألا نجد جوابا . . واعتدنا على السؤال حتى أصبحنا نؤمن بأن الإجابة عن السؤال هى سؤال آخر . .

ـ فهمت . . يعنى أنا لما أقول لك تحبنى تقوم أنت ترد علىّ بسؤال : وأنت هل تحبيننى؟ . . أفرض أننى قلت لك : أيوه بأحبك . . يكون ردك إيه؟

ـ صحيح؟

ـ أيوه صحيح .

ـ أنا مش مصدق . . لماذا؟

ـ . . . .

ـ . . . .

* * *

أقسمنا على ألا نعود إلى الكلية . . حتى لو كان طه حسين هو الذى يحاضرنا . . وحتى لو كان موضوع المحاضرة هو الفلسفة الوجودية . . انتهى . . لقد كان عبدالرحمن صدقى على حق عندما وصفنا بالمشايخ . قلت لعبدالرحمن صدقى فى صالون العقاد : يعنى إيه مشايخ . . إن بيننا عددا لا بأس به من الملحدين . . كانوا مسلمين وكانوا مسيحيين وكانوا يهودا . . ولم يشأ عبدالرحمن صدقى أن يقول كلمة ورد غطاها . . وإنما انتظر حتى اكتمل الصالون الأدبى : د. عثمان أمين ود. زكى نجيب محمود وعلى أدهم والشاعر حمام والشاعر العوضى الوكيل . . ثم وقف واستأذن العقاد : يا أستاذ هناك شىء يجب أن توضحه عن هؤلاء الضالين (ثم أشار إلينا وقد جلسنا بالقرب من الباب . . ثلاثة فى داخل الصالون الصغير واثنان أمامه) .

وضحك العقاد قائلا : أنت تشير إليهم وأنا أشير إليك . هاها . .

وجلس عبدالرحمن صدقى ليكمل الأستاذ العقاد كلامه : لقد اتفقنا على أن تكون لنا حديقة حيوان . . كل واحد له قفص . . وكل واحد استقر فى القفص كما استقر فى جلده . ولم يعد مفر من الخروج منه . . إلا عبدالرحمن صدقى . . فقد وجدنا له قفصا . ولكنه حطم القفص وراح يجرى بين الأقفاص . فإذا كنتم ضالين فهو

أبو الضلال . . لم يستقر على صورة إنسانية أو حيوانية أو شيطانية . . فيا مولانا إذا كان في نيتك أن تقوم بتوصيف هؤلاء الضالين الصغار فسوف أقوم أنا بربطك بالسلاسل وأحشرك في القفص القديم أو نبني لك بيتا مثل بيت الفيل . . أو نحكم عليك بما حكمت به الآلهة على بروميثوس . . نربطك بالسلاسل ونأتي لك بنسر يأكل قلبك الذي يدق كأنه موسيقى حسب الله . . هاها . . هاها . . جاء دورك يا عبدالرحمن قل لنا كيف وجدت هؤلاء الشبان ضالين . . وطبعا ليس من العدل أن تتحدث عنهم فلست أحسن حالا منهم . . أنت كبير ولا يجدي معك أي إصلاح وهم صغار ولايجدي معهم أي إصلاح أيضا . . بل من الطبيعي ألا يقوم أحد بإصلاحهم . . فهم لم يجربوا لم يتمرمطوا بما فيه الكفاية . . بل الطبيعي ألا يكون لهم رأي ونظرية الآن . . دعهم . . وإلا حكيت لهم حكايتك . .

ونهض عبدالرحمن صدقي وهو يصرخ بصوته الغليظ : بلاش يا أستاذ . . أترك لي هذه الفضيحة أنا مستعد أن أحكيها وأزيد عليها . . هاها . .

ولكن أستاذنا د . عثمان أمين كان لطيفا وهو إذا تحدث فإن يهز رأسه يمينا وشمالا كما كان يفعل الشاعر البحتري ، فكان البحتري مفتونا بشاعر واحد هو البحتري . . وكان الناس يجدونه يلقي شعره ويقول لنفسه : الله . . ما أروعك . ما أبدعك يا سيد شعراء الدنيا والآخرة . .

وكان د . عثمان أمين يقف كما نفعل نحن الطلبة أحيانا . ولكن عاد فجلس وقال : والله أنا عايشت هؤلاء الشبان ولا أستنكر منهم أي شيء . . بل هم أحسن حالا منا . . فأنا عندما كنت في السوربون كنت أعمل مثلهم تماما . . لا أكاد أسمع عن أستاذ جليل إلا ذهبت إليه . . ولم أكن أجد كلاما مناسبا أقوله . . فقط أردت ألا يفوتني منظره . . وكنت أجلس بين تلامذته اتفرج عليه . . وغالبا لا أسمع ما يقول . . أقدر أقول حاجة واحدة . . إنهم يشتركون في صفة واحدة . . الإخلاص والتفاني . . إن محاضراتهم في الفلسفة : صلوات . . هو كأنه يصلي والطلبة كأنهم يقفون وراءه . . الهدوء . . الصمت . . الاحترام العظيم . . وبس . . وأنا أرى أن هذه حالة أو مرحلة . . أو وقفة وبعدها يتغير كل

شيء . . إننى عندما أقبلت على دراسة الشيخ محمد عبده كنت أحس أننى أنتقل من مسجد إلى مسجد حتى استقر بى المقام فى الجامع الأزهر . . ولما سافرت إلى فرنسا نسيت كل شيء . . حتى أننى كنت أتحدث الفرنسية مع المصريين . . اندماج . . استغراق . . فناء صوفى فى شخصية فلسفية جديدة . . وأنا أرى أن هؤلاء الشبان كذلك . .

أبدا ـ صرخ عبد الرحمن صدقى ـ خدعوك إنهم ليسوا كذلك . . إنهم يترددون على كل شعراء وأساتذة الفلسفة فى مصر . . إنهم مشايخ تماما مثل مشايخ زمان لا يكادون يسمعون عن واحد عالم إلا شدوا الرحال إليه . . أمس الأول كانوا عند الشيخ عطية البرلسى . . تمام؟ أيوه الشيخ البرلسى فى بلد اسمها وراق العرب . . قال إيه . . إنه أحسن واحد يفهم الإمام الغزالى . صح (والتفت إلينا) وذهبوا إلى الرجل، فراح يكلمهم طول الليل عن السيد البدوى هاها . . هاها . . وسمعوا عن . . أحسن واحد كافر زنديق . . ذهبوا إليه فى آخر شارع السكاكينى . . بهائى أو من (شهود يهوه) . . أو يهودى من القرائين . . اسمه اشلومو ضاينا . . أو حاجة زى كده وهو موظف فى محل شيكوريل . . يمكن علشان عنده بنت حلوة جدا اسمها ماليكا . . صح . . أيوه صح . . لن يرد أحد . . ليس هذا هو المهم . . المهم أن يحكوا لنا ماذا سمعوا يا أستاذ . .

وجاءت إلى الأستاذ العقاد مكالمة تليفونية ونظرنا بعضنا إلى بعض وقمنا، فقد ضايقنا عبد الرحمن صدقى وندمنا على أننا عندما التقينا به عند سور الأزبكية واستوقفنا واستدرجنا وقلنا له . . والذى قلناه ليس إلا هموما صغيرة . . صحيح فارقنا الجامعة ولكنها لم تفارقنا، تحررنا من المحاضرات ومن الأساتذة ولكن قضايانا ومشاكلنا لم تنحسم . . نحن أنفسنا قضايا وعقد ومشاكل وأزمات ومعضلات . . هل هى بالفعل كذلك . . أو أنها أوهامنا؟ . فليكن فنحن أوهامنا أيضا . هل كل الطلبة مثلنا؟ ليسوا كذلك . . فليكن، فهذه حالنا . أسوأ حالا . . أحسن حالا . . هذه حالنا . زودناها شوية . فليكن فنحن مبالغاتنا أيضا . هل كل الطلبة مثلنا؟ ليسوا كذلك . . فليكن . نحن نبالغ فى كل ما يخصنا ونبالغ فى كل

ما يخص غيرنا . . نضيف هموما إلى همومنا . . ولا نفعل ذلك مع غيرنا . . وقد أصبح طعم كل شيء مرا على ألسنتنا . فليكن . . فلا يوجد شيء نعتذر عنه . . عندى صداع كيف لا أشعر به وكيف أعتذر عن كلمة : آه . . دماغى يكاد ينفلق اثنين . وأنا أمسكه حتى لا يقع منى أو حتى لا أقع منه . .

عبد الرحمن صدقى يقارن بين حالنا وحالة شخص اسمه موريللو بطل مسرحية من فصل واحد للشاعر الألمانى ريلكه . . المسرحية دراما نفسية . . فيها شخص واحد هو الذى يتكلم . واحد فقط . . الدنيا كلها استعارت لسانه وأذنه وقلمه . . هو يقول لنفسه . يتحدث عن حياته التى هى كالموت ، وعن الموت الذى هو بشارة لحياة أخرى ، ويسأل عن القس الطيب الذى سوف يجيء . . وهو مشغول بنفسه عن الدنيا . . فهو لا يرى إلا نفسه وإلا حاله . . والدنيا كلها كأنها لا شيء . . فلا شيء إلا خوفه وعذابه وانتظاره للحظة الخلاص . . وكان عبد الرحمن صدقى عنيفا عندما أضحك علينا كل من فى صالون العقاد . . حتى أساتذتنا فى الفلسفة ولم يخفف من وقع كلامه ما قاله د . عثمان أمين . .

ولولا أن الزميل عبد الفتاح الديدى وقف يطلب الكلمة وفى يده ورقة يقرأ منها : عندى الكلام الشافى فى هذه القضايا . .

وتطلعنا إليه قبل خروجنا من صالون العقاد قال : قبل أن يجيء الأستاذ عندى هذا النطق السامى . . فقد أرسلت خطابا إلى د . بدوى نيابة عن كل الزملاء فى قسم الفلسفة الأحياء والأموات الناجحين والراسبين ، الذين يحبونه والذين يلعنون الزمن الذى جعلهم تلامذة له . . دخلوا مؤمنين وخرجوا كافرين . . وعندما عرضوا حالهم على الأستاذ وما آل إيه حالهم قال هذا النطق السامى . . وقال ما قاله هابيل بعد أن قتل أخاه قابيل . فقد سأله أبونا آدم : ماذا فعلت بأخيك . . قال قولته المشهورة : وهل أنا حارس لأخى . . هذا ما قاله جدنا الأكبر القاتل لأخيه . . وجاءتنا هذه العبارة الدموية عبر العصور ، فهى فى دماء كل واحد منا : القاتل . . والقتيل السفاح والشهيد . . ولكن أستاذنا العظيم عبدالرحمن بدوى . . قرأ هذه الورقة التى شخصت فيها حالنا وطلبت إليه أن

يدلنا على السبيل . . فلم يقل ما قاله قابيل لأبيه بعد أن قتل أخاه . . وإنما قال كلمة من حرفين سوف تبقى تاجا على رءوسنا أو حلقة فى آذاننا . . وهى خلاصة التجربة الفلسفية الألمانية والفرنسية . . وهى مثل أعلى لما يجب أن يقوله الأستاذ للطالب بعد أربع سنوات من العذاب . . وأنا اليوم أريد أن أقدمها للأستاذ المايسترو الشجاعى . . وهو الآن جالس بيننا ليعد لها موسيقى تصويرية . . هو يغنى ونحن وراءه . . (هنا دخل الأستاذ العقاد) . .

وسكت عبد الفتاح الديدى . فقال له العقاد : أكمل يا مولانا . . وقال الديدى : قلت كل شىء يا أستاذ ولم تبق إلا كلمة واحدة هى النطق السامى المتعالى أو المتسامى كما يقول الفيلسوف الألمانى كنت : طظ ! هاها . .

ـ ما هذا يا مولانا؟

ـ كل ما عندى يا أستاذ .

ـ من قالها؟

ـ أستاذنا . .

ـ وماذا قلتم له؟ قولوا له : طظ !

ـ طظ !

ـ هاها . .

ـ هاها . .

ـ فيه خيبة أمل أكثر من كده؟

ـ نعم يا مولانا خيبتكم جميعا . . هاها . . هاها

ـ هاها . .

* * *

مضت أيام ولم نلتق . لا أحد يريد . ولا أحد يرى سببا قويا لذلك . . لقد أخذنا إجازة من بعضنا البعض . . ولكن اتسع الفراغ بيننا . . تماما الكون من حولنا . . كل النجوم تتجه بعيدا عن بعضها البعض واعتدنا على ذلك . حتى

الأماكن التى كنا نرتادها لم تعد تفعل ذلك . . ففى صالون العقاد لم نجد أنفسنا . . وإذا حدث فإن أحدا يسألنا : وأين أنتم وكيف كنتم . .

ولا سؤال . حتى هذه العلاقة قد تلاشت . وكنا ـ زمان زمان ـ إذا نزلنا من صالون العقاد ظللنا نمشى متجاورين نستأنف المناقشات ونقول ونعيد ونزيد . كأننا لا نريد الجلسة أن تنتهى . . كأننا نحمل الصالون معنا . فالعقاد موجود فى كل الأحوال . خرجنا من الصالون ونزلنا السلالم إلى الشارع . وانتهى . . أصبحنا نقف فى محطة الترام وكل واحد يدخل من باب . كأننا غاضبون ساخطون . . فقد أخطأنا الطريق . كأننا ندمنا . . كأننا مدمنون وقد ضبطنا أنفسنا نتعاطى الذى أقسمنا على ألا نعود إليه .

ولم ينقذنا إلا الأستاذ على أدهم . إنه كان قليل الكلام . وكان يجلس بيننا وقد رفع رأسه إلى فوق . كأنه يستمع إلى أحد غيرنا أو يكلم أناسا فى السقف . وكانت له ضحكة ساخرة لطيفة ليست فى خشونة عبد الرحمن صدقى ولا عنف الأستاذ العقاد . قابلنا على الرصيف ومنعنا من ركوب الترام : أنا مش مبسوط منكم . . العقاد نفسه كان أسوأ حالا . . كان ضالا أيضا وكان كافرا ملحداً . وكان يكره الحياة والناس . وحاول الانتحار أكثر من مرة . والحمد لله أن عاش بعد ذلك . وكانت قضاياه أخطر من قضاياكم . فأنتم تطلبون المساعدة من الذين هم أكثر منكم تعاسة . . وهذه هى لعنة الفلسفة . ولكن العقاد لم يكن يساعده أحد . فهو يرى أنه مثل أى أحد . مثل أى فيلسوف كبير . ولذلك لا يطلب أن يعينه على نفسه أحد من الفلاسفة الأموات . . طبعا كلهم أموات . . هاها . . إلا العقاد نفسه . . وكانت له آراء لا داعى لأن أقولها لكم . . فهى وجهة نظر عنيفة بشعة . . وقد أدهشنى العقاد عندما استنكر سلوككم . . إذن قد نسى كيف كان . . أنا عاصرته وكانت لنا مناقشات فظيعة . ولم يكن أحد يستطيع أن يقنع العقاد بأى شىء لأنه كافر بكل شىء وبكل أحد . . هاها . . وأنا لا أريد أن أقضى على البقية الباقية عندكم . وفى يوم سوف أجمعكم بعبد الرحمن صدقى والشاعر طاهر الجبلاوى وسوف تسمعون منهما ما الذى كان يقوله العقاد قبل أن يرتد إلى الإيمان العميق . . وأنتم لم تبلغوا

هذه المرتبة . . أنتم حائرون ولستم ضالين كما يقول عبد الرحمن صدقى . . وأنا أرى أن الحيرة هى نصف الطريق إلى الاستقرار عند رأى أو نظرية أو يقين . . ولم يعرف قمة اليقين من لم ترهقه الحيرة والقلق . . ولكنى أعيب عليكم أنكم تبالغون فى أزمتكم وتنصرفون بها عن البحث عن طريق . . هناك طرق كثيرة وكلها مضيئة . ولكن غلطتكم فى رأيى أنكم وضعتم عصابة على عيونكم حتى لا تروا . . ثم إنكم تمشون إلى الوراء . . ارفعوا العصابة عن عيونكم فورا . ففى الدنيا نور وسبل وأضواء باهرة عند نهاية الطريق . ولا تستعيروا أساليب المعاقين والمعوقين . . فلا أنتم هوميروس ولا أنتم المعرى . . وليس من الضرورى ذلك . .

ثم التفت إلينا ضاحكا ويقول : طبعا أنتم مش مستعجلين . . انتظرونى هنا وسوف أجد «تاكسى» وأذهب إلى البيت وأقرأ صفحات من كتاب «البخلاء» للجاحظ وأعود إليكم . . ففى الكتاب فصل عن الشحاذين . . كل أنواع الشحاذين . . وسوف نستعير بعض العبارات التى تصلح لأن نسرح بها جميعا على الأبواب . . إلا بيت العقاد وعبد الرحمن صدقى . . هاها . .

ـ هاها . .

لو عرفت زوجات المشاهير

«وصفة» عايدة صلاح طاهر!!

كنا خمسة واقفين فى مكتبة الأنجلو عندما جاء فريد شحاتة سكرتير د. طه حسن وقال لنا: الدكتور يفضل فى هذه الحالة (اللف والدوران) بدلا من الخط المستقيم! فقد كان يحدثنا عن المحاضرة المنتظرة لأديب فرنسا أندريه جيد فى المدرج ٧٨. . أما هذه العبارة الغريبة فقد جاءت ردا على سؤال: كيف فى الأيام القليلة القادمة أن نفهم وجهة نظر هذا الأديب الكبير قبل أن نراه ونستمع إليه؟!

الرأى هو: أن نبحث عن الذين عرفوه والذين كتبوا عنه. قبل أن نقرأ له مباشرة رواياته ويومياته. والحقيقة أننا لم نكن نعرف أى شىء له قيمة عن أندريه جيد. . ربما أسماء بعض رواياته. ولذلك اقترحت أن نسأل زملاءنا فى قسم اللغة الفرنسية. وأول ما خطر على بالى أن نستعين بالزميلة جورجيت مرجان. . لطيفة ظريفة دمها خفيف ومن الصعيد الجوانى. . إذا تكلمت الفرنسية هى خواجاية. . أما ـ والعياذ بالله ـ إذا تكلمت بالعربية فأنت أمام سفرجى صعيدى يحاول أن يقلد صوت صاحبة العمارة. وكانت لها كلمات مضحكة كأن تقول مثلا: أحمرة ـ وهى جمع حمار. . وتقول أبوالعلاء المرسى. . تقصد الشاعر أبو العلاء المعرى. سألناها. كان الرد عندها حاضراً: مدام جاك أنها تعرف أكثر. وتحب من يسألها عن أى شىء فى فرنسا. . وهى موظفة بالسفارة الفرنسية. .

فعلا كانت ناعمة الصوت رقيقة العبارة . . قدمت لنا زوجها وأولادها . وتحدثت عن الأدب الفرنسى من أوله لآخره . . ولم تتوقف عن أدباء القرنين التاسع عشر والعشرين كثيراً . . وليس عن أندريه جيد بالذات . وقالت كلاما مفيدا، ولكن ليس مفيداً جداً . معلومات . . قشور . . نكت . .

فقالت : إنه كان يجلس فى أحد المساجد فى مدينة وهران واكتشف نفسه .

يعنى إيه؟ لم تقل . وسألتها : حضرتك تقصدين إيه باكتشافه لنفسه؟

وقالت : إنه فى الهدوء والصمت والوحدة والغربة عرف حقيقته وهو أنه شخص يتحدى كل ما هو ثابت فى القيم الأخلاقية . . وأن شعاره هو : أزعج الناس مادمت قادراً على ذلك! وقد أزعج الناس . فهو يتمسك بمبادئ خاصة يرفضها . ولا يعتذر عنها . .

كلامها ليس مفهوما لنا تماما . .

ثم عادت تقول : إن مسيو جيد رأى شابا يسرق حقيبة زوجته . فلم يشأ أن يمنعه فقد كان مفتونا بجماله وعضلاته وجرأته . . . ولم ينس مسيو جيد جمال هذا الشاب . ويمكن أن يقال إنه كان مفتونا بالشباب أكثر من الشابات . . هاها . . هاها .

ولم أفهم . ووجدت زملاءنا أيضا لم يفهموا!

شكراً لها . وذهبت إلى المكتبة أقلب فى دائرة المعارف . . كلها معلومات عامة . تفترض أن القارئ يريد فقط أن يتذكر ما كان يعرفه من قبل . وأهم رواياته هى : الأغذية الأرضية . . والباب الضيق . . والسيمفونية الريفية . . وإذا لم تمت البذور . . واليوميات هى أهمها جميعا . . فما الذى يقصده طه حسين باللف والدوران حول شخصية الأديب . . لابد أنه يقصد أن نعرف (عنه) قبل أن نعرفه هو! أن نسأل عنه قبل أن نسأله . .

وربما هذا هو الفارق الكبير بين طه حسين والعقاد . . فالعقاد يذهب إلى الشخص نفسه . . أى يحاول أن يفهم ويعرف الكاتب ويفهم عقله وروحه وعيوبه ومزاياه . فإذا عرف (مفتاح شخصيته) عاد يفك طلاسم حياة وإبداع الكاتب . .

أما طه حسين فمشغول بالمعلومات العامة التى سوف تكتمل عندما يقرأ أعماله الأدبية أو الفنية . . هذه الأعمال هى الأساس . فطه حسين يستعين بما كتب الأديب لكى يفهمه بعد ذلك . . والعقاد يستعين بما فهمه عن الأديب لكى يستوعب ما كتبه . .

فمذهب طه حسين هو التفسير الأدبى للأديب . . والعقاد مذهبه : التفسير النفسى والعقلى للأديب . .

وأنا لا أجد فارقا بين الاثنين . ففى الحالتين لابد من قراءة ما أبدعه الأديب أو الفنان ، أى قراءته فى حضوره أو قراءته فى غيابه . .

ولما اكتملت الفلسفة الوجودية عند الفيلسوف سارتر كان مذهبه هو التفسير الدياكلتيكى للأديب . . أو التفسير الثنائى : نفهم الأديب ثم نقرأ ما كتب . . ثم نعود نقرأ ما كتب لكى نفهمه . . أى أن نكون فى حالة مراجعة مستمرة له وللذى قاله . . ولا أجد فرقا بين هذا الرأى والعقاد وطه حسين . فلابد من قراءة ما كتب وما أبدع . .

وليس عندنا وقت ! !

يعنى نعمل إيه؟ وعادت زميلتنا جورجيت تقول : إن عندها فكرة أحسن وهى أن نذهب إلى مدام مارسيل . . وهى مصممة أزياء . تعلمت فى فرنسا وعملت مدرسة للآداب الفرنسية فى مدارس الراهبات . ثم عدلت عن ذلك إلى تصميم الأزياء . . أى تركت الأزياء الأدبية والفكرية إلى الأزياء الحريرية والصوفية . .

والله فكرة ! وذهبنا إليها فى إحدى عمارات شارع الشواربى . وكانت فى انتظارنا . أعدت الشاى والكعك . وفى غاية الأناقة . وجاءت فتاة حلوة وقدمت الحلوى والشاى وأقفلت علينا الباب . وجلسنا ننتظرها حتى تفرغ من إشعال سيجارتها . نفسا وراء نفس وسحابة فى الهواء من داخل سحابة ورفعت ساقا حلوة على ساق . وتراجعت لتبرز صدرها . . هى تعمدت ذلك . مع أننا لا نساوى مثل هذا الاستعراض الصامت . ولكن المرأة (استعراضية) بغريزتها وهى مصممة

الاستعراض الأنيق. فليس غريبا! ولكن لسنا الجمهور المناسب . . فمنظرنا يبعث على الدهشة والشفقة. بقمصان وبنطلونات وكشاكيل. ومناديل غير مكوية نمسح بها عرقنا من حين إلى حين . . ولكن لحسن الحظ لم تكن هذه السيدة تنظر إلينا وإنما ظلت تلحن ما تقول، وقد قام الدخان بدور الكورس والفساتين فى الفتارين بدور الديكور. وقالت وعادت وزادت. وإنها كانت ترى الأديب الفرنسى فى باريس. وإن إحدى قريباتها تسكن بالقرب منه . . قصير القامة ضئيل الحجم لا يستلفت النظر. ولكنه قضية من قضايا الفكر الشاب الصارخ فى فرنسا. وهو مصدر قلق لكثير من الناس . .

والآن قد تجمع لدينا ما نصح به طه حسين. ولكن لا أظن أن الذى لدينا له قيمة أدبية . . وإنما هى قشور تافهة عن رجل عظيم . . إذن لم يبق إلا أن نقرأ رواياته. ولا أظن أحدا منا قد استطاع فى هذا الوقت الضيق. فليس عندنا وقت. ولا هو قضيتنا ولا الأدب الفرنسى كله . . وإنما الفلسفة الفرنسية أو الوجودية بصفة خاصة . .

وقالت مدام مارسيل : إنه رجل غريب العادات . . فهو يكتب جالسا على الأرض . . وأكثر الأحيان على السرير . . فقد عاش مريضًا طوال عمره . . ثم إنه (دلوعة) ابن ذوات . . وأحيانا يأكل فى السرير . . فإذا سقط شيء على فراشه أمر فوراً بتغيير وإعادة ترتيب كل محتويات الغرفة . . ويحدث ذلك كثيرا. غريب؟ وشاذ؟ ولكن عنده إحساس عميق بضرورة التغيير . . وهو عندما يغير أماكن محتويات غرفته يحس كأنه يكتب . . يرسم . . كأنه ينظم . . وهو الذى قال كثيرا : اترك الكتاب الذى فى يدك إذا فكرت لحظة فى أن تشغل نفسك بالأشياء الغريبة التى أقولها لك!

وقالت : والذى يراه فى البيت لا يصدق أبدا أن هذا هو الأديب العظيم . . كيف يشغل نفسه بتغيير السرير والمقاعد . . مرة ومرتين فى اليوم . . لماذا؟ وماذا حدث لو سقط فنجان القهوة على الفراش . . إيه يعنى؟ إن بيتهوفن العبقرى كان يرتمى على الفراش والصراصير تجرى فوق أوراقه . . لا قتل الصراصير ولا أحرق أوراقه . . إيه يعنى؟

ـ صحيح إيه يعنى؟

ـ هذا رأيك أيضا؟

ـ لا . . إيه يعنى لو لم تكن لدينا كل هذه المعلومات واستمعنا إليه ثم لم نفهم أى شيء مما يقول . . طبيعى ألا نفهم فنحن لا نعرف الرجل إلا أخيراً .

ـ لا تقل الرجل!!

ـ يعنى إيه؟

ـ هاها . . يعنى أنه ليس رجلا . . هاها . .

ـ . . . .

ـ هاها . .

* * *

لحسن الحظ الأدباء والفنانين وكل العباقرة أننا لا نعرف إلا الجانب (المطبوع) من حياتهم . . أما ماذا يحدث فى البيت أو فى المكتب أو فى المعمل فأكثرنا لا يعرف . إن أكثر الشخصيات احتراما فى التاريخ الفرعونى هو الكاتب المصرى (الجالس القرفصاء) . .

وأكثر الناس يعملون جالسين أمام مكاتبهم أو إلى مكاتبهم . . الأستاذ العقاد كان عنده مكتب صغير . . فلم يكن العقاد قادرا على أن يدلف تحته ولذلك كان يجعل المكتب إلى جانبه . فهو جالس إلى جواره . .

وهناك عظماء يكتبون واقفين : الشاعر الألمانى جيته بسبب إصابته بالتهاب عصبى لمصرانه الغليظ ، والأديب الأمريكى همنجواى بسبب كسر فى عموده الفقرى عندما تحطمت به الطائرة . . وكذلك الأديبة فرجينيا وولف بسبب آلام فى كتفها . .

وكما أن هناك أدباء واقفين ، فهناك أدباء نائمون لا يكتبون إلا منبطحين على وجوههم ثم يتمرغون على الأرض مثل الكاتب الأمريكى ترومان كابوت والكاتب الساخر مارك توين والروائى الإنجليزى ستيفنسون . .

ثم هناك الكتاب العراة: مثل الشاعر بليك.. وكان بليك وزوجته يجلسان فى البانيو هى تقرأ وهو ينظم فإذا دق الباب قال له: ادخل.. ليس هنا إلا آدم وحواء!

وكان الأديب الكبير فكتور هيجو يخلع ملابسه تماما. وينادى الخادم: خذ هذه الملابس واجلس هنا وراء الباب حتى أفرغ من الكتابة!

أما الأديب الفرنسى فلوبير فيضىء كل مصابيح البيت ويرتدى ملابسه ويجلس فى غرفة الطعام وقد وضعت أمامه الأطباق والأكواب فارغة.. ويبدأ فى الكتابة ويتصور الناس أن الأديب قد أقام وليمة وأن الضيوف سوف يتوافدون. والحقيقة أنه أقام هذه الوليمة لنفسه وأنه صاحب البيت وأفكاره هى الضيوف.. والطباق والأكواب ليست إلا كلمات فارغة تنقصها المعانى..

وكان الأديب النرويجى ابسن يكره أديبا آخر هو استرندبرج.. ولذلك كان يضع صورته أمامه على الحائط ويقول: يجب أن يحترق غيظا كلما رآنى أكتب!

أما السياسى الأديب دزرائيلى فكان يرتدى ملابسه كاملة وينفرد بأكبر غرف البيت أمام النافذة يجلس ويكتب ويمشى ذهابا وإيابا.. ساعات ثم يكتب أو لا يجد ما يكتبه!

أما الكاتب كوهان فكان الجو الذى يصنعه لنفسه مكلفا جدا، وهو قادر على ذلك لأنه رجل غنى. فقد كان يستأجر عربة قطار.. ويغلق العربة عليه.. ويجلس يكتب من أول الخط، وعندما يصل إلى آخر محطة يكون قد فرغ من مائتى صفحة دون أن يشطب كلمة واحدة!

أما الأديبة (أنايس نن) فقد كان أبوها موسيقارا إسبانيا وأمها كوبية، وقد ولدت فى فرنسا وتعلمت فى أمريكا وهربت من البيت لتعيش وحدها وهى فى الثانية عشرة من عمرها. وهى أديبة عارية تماما.. عارية من: الملابس والكلمات والمعانى.. فهى عريانة ملط. عارية الجسد والقلم.. ولذلك أحبها وعشقها الأديب الأمريكى العريان ملط هنرى ميللر!

وكانت أنايس نن تقول عن نفسها : لم تعد عندى ورقة توت واحدة . . لا على جسمى ولا على عقلى . . لم يبق أمامى إلا أن أسلخ جلدى لكى تتعرى أحشائى !

ولحسن حظ هؤلاء المشاهير أن القراء لا يعرفون كيف حياتهم . . وكيف الفوضى واللامبالاة والانحلال والقسوة والمرارة والقرف واليأس . .

ولا أظن أحدا يحب أن يرى كاتبه المفضل بهذه الصور الشاذة . .

مثلا : لو أن أحدا رأى الموسيقار محمد عبد الوهاب وهو يأكل ما استمع إلى أغانيه . . فعبد الوهاب لأن نظره ضعيف أو يتظاهر بذلك كما يقول صديقنا الأمير بدر بن عبد العزيز ـ فهو يجعل وجهه قريبا من الدجاج المسلوق . . ثم إنه يأكله بيديه، أما متعته الكبرى فهى أن (يمصمص) عظام الدجاجة ويكون له صوت فظيع !

ولو رأى أحد شاعرنا الرقيق البديع كامل الشناوى وهو يأكل . . إننى أترك الوصف التفصيلى للصديق قدرى طوقان الذى كان وزيرا لخارجية الأردن وحصل على جائزة الدولة التقديرية يوم حصلت أنا على الجائزة التشجيعية .

يقول قدرى طوقان : وجدته قد وضع فوطة على صدره وأمسك القضبان . . يضع كل قضيب فى ناحية من الفم ويمضغ الاثنين معا . . مع أنه لا داعى للسرعة . فهو وحده الذى سوف يأكل وتقع السلطة والطحينة على القميص والكرافتة، وتتعلق بشفتيه ووجنتيه، ويقول ولا يتوقف عن الكلام والضحك . . وإذا قال شعراً فليس أروع ولا أجمل من ذلك نظما وإلقاء . .

أما (القضيب) الذى يتحدث عنه قدرى طوقان فهو أصابع الكفتة، وهم فى الأردن يسمونها قضيبا . .

وكان كامل الشناوى مسرفا فى كل شىء على نفسه إذا أكل وإذا شرب وإذا دخن وإذا سهر وإذا نام . . بعشرات فناجين القهوة السادة يصحو، وبعشرات الحبوب ينام . . والليل يشده حتى تنقطع أنفاسه والنهار يرهقه حتى يتكوم فى فراشه . .

ولحسن حظ هؤلاء المشاهير جميعا لم يرهم الناس فى المسافة التى بين السرير

ودورة المياه. ولم يعرفوا كيف يتخلصون من المعجبات.. لأنهم لم يعرفوا (الوصفة السحرية) التى اهتدت إليها عايدة زوجة الفنان الكبير صلاح طاهر..

طبعا صلاح طاهر له معجبات كثيرات. أضعاف عدد البورتريهات التى رسمها. فهو فنان كبير ولطيف وظريف ومجامل جدا واللبانة التى فى فمه هى كلمة واحدة: مدهش فى كل شىء وكل واحدة مدهشة وهو لا يقصد أى معنى غير طبيعى. فالأكل مدهش والشرب.. وهو مدهش إذا فتح الشهية أو كان سببا فى انسدادها.

وهكذا اختصر صلاح طاهر كل كلمات المديح والإطراء والاستغراب والاستنكار فى كلمة واحدة من أربعة حروف: مدهش!

ولا توجد سيدة واحدة ليست جميلة جمالا مدهشا: العينان والشفتان والبرفان والابتسامة.. إلخ

وكل واحدة رسمها أو فى نيته أن يرسمها: تقف الفرشاة عند عينيها.. وتعجز موسيقى الألوان عن تصويرها.. وأنه تعب جدا جدا فى تسجيل الابتسامة مع النظرة الخبيثة والشفاة البريئة. طبعا هذه المعانى كلها مدهشة!

ولم يتنبه صلاح طاهر حتى الآن إلى أنه لو حدث ـ لا قدر الله ـ أن سجلت إحدى المعجبات ما قاله فيها.. ثم جمعت كل المعجبات وأسمعتهن ما قاله صلاح طاهر لفعلن به ما فعلت (شجرة الدر) بزوجها.. قتلوه بالقباقيب!

ولحسن الحظ لم يحدث.. فلا يزال له عمر!

أما الحيلة التى اهتدت إليها عايدة حرم صلاح طاهر فهى جهنمية. وذات قوة قتل ثلاثية ورباعية.. مثل أسلحة الدمار الشامل.. فقد كانت هناك بنت صغيرة مجنونة بالفنان صلاح طاهر.. تجلس طوال الليل على الكورنيش وحدها ملطشة لكل المارين.. ولكنها عن غير صلاح طاهر سدت عينيها وأذنيها وعقلها وقلبها.. ولا تعود إلى بيتها إلا عندما تنطفئ آخر لمبة فى شقة صلاح طاهر. وصلاح طاهر يسهر طويلا وكل ليلة والبنت المسكينة تفرك عينيها وتتثاءب،

وتسمع كلمة من هنا وترى محاولات جريئة . . من المشاة والعشاق ورجال الأمن . ولكنها لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم . .

وقد عرفت عايدة طاهر مأساة هذه الفتاة . فذهبت إليها واستدعتها إلى بيتها . تماما كما تستدعى درويشا إلى قدس الأقداس وكادت البنت تخلع حذاءها وتضعه أمام باب الشقة . ومن الصدمة والصورة والألوان والجو الذى يتنفسه صلاح طاهر والمقاعد التى يلمسها والجدران التى ينزل عليها الوحى جلست على أول مقعد . دون أن ترد أو تصد . إنها فى قمة النشوة .

قالت لها عايدة طاهر : صلاح حياته منظمة جداً . يصحو مبكرا وقد ارتدى ملابسه الأنيقة التى رتبها قبل أن ينام . ويجىء له الحلاق مبكرا يحلق له ذقنه ويصفف له شعره . ويجىء ماسح الأحذية ينظف له جزمته . . ثم يكون البانيو قد أعد له ووضعت فيه الشامبو والعطور التى يحبها تماما كما كانت تفعل كليو باترا . والبنت المسكينة كأنها تسمع سيمفونية رومانسية وتسأل عايدة : وماذا يأكل يا طنط؟

ـ الأكل مشكلة عند صلاح . . لابد أن يأكل فى الصباح كورن فليكس وعجة وكافيار مع القهوة باللبن . . ثم بعد ذلك قهوة . . ثم شاى مع قهوة . . والخدم حائرون ذهابا وإيابا لأنه لا يطيق أن يرى الأطباق والأكواب . . ولا يمكن أن يدخل غرفة السفرة إلا إذا كان البيت معطرا تماما .

ـ الله يا طنط . . أنا سعيدة أننى بأسمع كل الحاجات اللى أنا تخيلتها . . وأول كلمة يقولها فى الصباح يا طنط .

ـ يقول صباح الخير يا حبيبتى . .

ـ لحضرتك . بس كده؟

ـ نسيت أقول لك إن الموسيقى لابد أن تملأ كل جوانب البيت . . موسيقى كلاسيكية . .

ـ ويسمع فريد الأطرش؟

ـ مطربه المفضل .

ـ أنا تخيلت كده . .

ـ وعبد الحليم؟

ـ يحبه جدا .

ـ أنا تخيلت كده . . وأحسن أغانى أم كلثوم يا طنط . .

ـ رق الحبيب . .

ـ الله يا طنط ياى . . والله العظيم يا طنط أنا تخيلت كده . .

وحكايات وروايات لعايدة طاهر . . ثم اتفقت عايدة طاهر مع العاشقة الولهانة على أن تجىء فى اليوم التالى لتقضى معهم يوما كاملا فى حياة صلاح طاهر من لحظة نزوله من السرير . . حتى يعود إليه . .

اقترحت عليها عايدة طاهر أن ترتدى ملابس الخادمات . . وحتى لا يظن صلاح طاهر بأنها صحفية حشرية ، قالت له إنها الخادمة الجديدة . . واختارت لها اسم : رباب . .

وجاءت رباب فى الساعة السابعة صباحا وجلست فى المطبخ . ولم تظهر عايدة طاهر . . ويبدو أنها أعطت الخادمة الكبيرة أجازة فى ذلك اليوم . . وظلت رباب تتأمل الأطباق والشوك والسكاكين التى لامست شفتى معبودها صلاح طاهر . . وربما نامت ، وربما رأت فى المنام فارسها يخطفها على حصان أبيض . . إذن هذه الأصوات التى سمعتها فجأة هى المدافع التى انطلقت تحية للعروسين . . مدافع لها صوت وصوت على وزن : رباب .

ومن الداخل جاء صوت صارخ : أنت يا هباب . . أنت يا هباب أنت يا زفت الطين . . أنت فين يا بنت . .

وأطلت رباب برأسها لترى صالح طاهر : بنطلون البيجامة والقميص خارج منه أو خارج عليه . والشعر منكوش وحافى القدمين . . ويبحلق فيها ويقول لها : أنت يا هباب فين الزفت . . حطيه فى الزريبة اللى هناك دى . . أوعى من سكتى !

ودخل صلاح طاهر دورة المياه . .

وتنفيذا لتعليمات عايدة طاهر أعدت رباب الشاى والقهوة والبيض والجبنة، ومضى وقت طويل فى السعال والعطس والتف والنف فى الحمام واترزع الباب مع خروج صلاح طاهر على الهيئة السابقة بعد أن أضيف إليها فردة شبشب : فين الفردة الثانية يا هباب . . يا عايدة أنت سايبانى لوحدى مع الكارثة دى . . وهوه ده وقت كوارث يا عايدة . . أنت ناسية أن الملاخ وأنيس منصور جايين يطفحوا النهارده، دول عاوزين بصارة بالشطة يا عايدة . . روحى يا بت يا جاموسة اندهى لعايدة وهاتى شوية بصارة . . شيل القرف اللى أنت حطاه على الترابيزة . . شيلى . . وشالت الزفت وقدمت له سندويتش فول وسندويتش طعمية . . إفطارها الذى أتت به ولم تستطع أن تأكله فى البيت المقدس . . وابتسم صلاح طاهر ليقول لها : الله ما أنت بتفهمى أهوه . . هاها . . هاها! هاتى الفول والطعمية أهو ده الكلام . . هاتى يا بنت!

لم تكن تعرف أن صلاح طاهر الفنان الرقيق موسيقار الألوان له ضحكة مدفعية نشازية . . ودون أن تقول رباب كلمة واحدة كان صلاح طاهر قد شرب القهوة وأكل السندويتش . . واتجه إلى غرفة النوم ليغير ملابسه . .

وخرجت عايدة طاهر من غرفتها لتجد رباب قد سقطت فى المطبخ . . انهيار عصبى . . حملتها عايدة فى سيارتها لتفيق فى غرفة الإنعاش بمستشفى القوات الجوية بالمعادى . .

ولم تعد رباب تجلس على النيل . فقد رأت معبودها (دراكولا) وحشا كاسرا . . وكان صلاح طاهر آخر من يعلم . . هاها . . هاها

وفى اليوم التالى توالى الزعيق : أنت يا هباب . . وظهرت له عايدة لتقول : مفيش هباب . . أنا الهباب القديم!

ولو عرفت زوجات المشاهير الوصفة السحرية لعايدة طاهر ما كان هذا حالهن جميعا . . إن تجربتها قد نجحت مائة فى المائة . . وقضت على دابر المعجبات من الباب والشباك . . هاها!

ـ مش قلت لكم ـ كمال الملاخ وأنا ـ إن عايدة دى مدهشة . . إنها أخبث امرأة فى العالم . . هاها . . إن كيدهن عظيم . . إيه رأيك؟

ـ مدهشة!

ـ هاها . .

* * *

وجاء يوم محاضرة أندريه جيد . وقد جمعت المعلومات القليلة على ورق صغير كأنه برشام . حشرته فى جيبى لكى يسعفنى إذا سئلت أو سألت . وقدمه لنا طه حسين . وضحكنا ـ ثلاثة فقط بصوت مرتفع ـ عندما قال طه حسين : أقدم لكم أيها الشباب مسيو أندريه جيد . . إنه ليس غريبا عنكم . . طول عمره يحب الشبان ويحبونه . . هاها . . ويحبهم . . هاها . . ويحبونه!

ـ هاها . . هاها . .

ورأى زملاؤنا فى ضحكنا قلة أدب ورأينا فى عدم ضحكهم جهلا . . هاها . . هاها . .

ـ هاها . .

لو كنت أعرف والنبى غسل الصحون..

غلطنا؟ وأيه يعنى؟ إن حياتنا على الأرض بدأت بغلطة فى الجنة . فالكائن الحى هو القادر على الغلط . ومن لم يخطئ لم يعش ولم يحاول . ذهبنا إلى أساتذة ما كان يجب أن نذهب إليهم . ذهبنا إلى د . على عبدالواحد وافى أستاذ الاجتماع . وكما ذهبنا عدنا فهو لم يترك أى أثر فينا . فلا كان مكسبا ولا كان خسارة . اعترضنا طريق د . عبدالعزيز عزت وهو رجل ظريف لطيف قال لنا : حاولوا لا تيأسوا . أنتم بلا مشكلة والمشاكل سوف تجىء بعد غد .

فى بيت أستاذنا لطفى السيد وجدت الأستاذ إبراهيم البطراوى مدرس اللغة الإنجليزية فى المنصورة الثانوية . . زوجته يهودية . وهى أول سيدة يهودية أراها فى حياتى . ولم أعرف يعنى إيه أن يكون الإنسان يهوديًا . بيضاء اللون دائمة الابتسام ابنها من زوج آخر اسمه سامى أبيض ممتلئ أسود الشعر والعينين أبيض الأسنان لطيف جدًا . . أما الشىء البشع فإن الأستاذ البطراوى يضربها ضربًا عنيفًا . . أول مرة فى حياتى أرى رجلا يضرب زوجته . وهو كئيب الشكل غليظ العنق رخامى الصدر والكرش . . والسيدة تبكى وتستجير ولا أحد يذهب إليها . . إما لأنه رجل شرس . أو لأنهم حاولوا ذلك كثيراً ولكنه لا يتوقف ومن الغريب أنها لا تترك له البيت وتهرب من وجهه الكئيب . لم تفعل ولا مرة!

وكان الأستاذ لطفى السيد مشغولا بأناس كبار . وكنا صغارا وفى كل مرة ندخل بحفاوة حارة ونتسلل بخيبة أمل !

لماذا لانجرب ـ قلتها أنا للزملاء السبعة الدائخين معى وورائى وطبيعى أن ندوخ فالفلسفة لم تعطنا إلا علامات الاستفهام تنبت فى عقولنا كما ينبت الشعر . . فقد علمتنا الفلسفة الحيرة . وحب الحيرة . ونحن نحب الحيرة لأننا لم نعرف الكثير من اليقين . فلا يكاد الواحد منا يتكلم حتى تتحول عباراته بقدرة قادر إلى ما يشبه ثعابين الكوبرا . . لها شكل علامات الاستفهام . أما أساتذتنا فمثل السحرة الهنود يطبلون ويزمرون فترقص علامات الاستفهام . والفرق بين أستاذ وآخر هو رقصة الكوبرا . . بلدى . . أو أوروبى . .

ولم نعد نندهش لما كان يفعله البطل الإغريقى سيزيف . حكمت عليه الآلهة بأن يدفع أمامه حجرا إلى أعلى الجبل فإذا سقط عاد فرفعه مرة أخرى وإلى الأبد . . والفلاسفة لا يتقدمون خطوة إنهم يدفعون أمامهم أحجارا متفاوتة الحجم والوزن واللون من تحت لفوق ومن فوق لتحت . . أما العلماء فإنهم يضيفون كل يوم شيئا جديدا . فإذا كان لابد من دفع الأحجار إلى فوق فإنهم يخترعون قوى دافعة . يحركون الأشياء من البعد وكل يوم يصنعون جديدا . أما فى الفلسفة فهى خمس أو ست مشاكل يعيد الفلاسفة ترتيبها وتبويبها من ٢٧ قرنا . . من سقراط حتى هيدجر . . وبس !

وعلى دكة كبيرة على النيل فى شارع الجبلاية بالزمالك ظهر علينا الإعياء تماما . تعبنا من اللف حول أنفسنا والدوران حول الأساتذة . ولم نسأل أنفسنا إيه الحكاية . . ما الذى يستطيعه الأساتذة ولا نستطيعه نحن . إنهم أساتذة فلسفة . وقفوا عند هذه النقطة . . ولم يتحركوا أبعد منها . مهمتهم الجرى وراء الفلاسفة الكبار واعتراضهم والاعتراض عليهم . وبس . ونحن نفعل نفس الشيء . فلا نحن أسوأ ولا أحسن من أساتذتنا . . ولكنهم استقروا . وقفوا . تجمدوا . ونحن نحاول أن نفعل شيئا آخر مع أن أدواتنا التى نستخدمها لكى تكون شيئا هى هى . ولذلك لم يكن غريبا أن يقف واحد منا هو سليمان أبوالليل : أنا عندى فكرة !

ولم يلتفت إليه أحد. فقد مللنا الأفكار ولم يقل واحد منا: أنا عندى حل. . أنا وجدت طريقا. أنا عندى طوق نجاة. . وعاد يكرر: أنا عندى فكرة. .

ـ إيه؟

ـ نرمى أنفسنا فى النيل. والله العظيم أنا جاد جدا. . فلاسفة كثيرة وجدوا أن الحياة لا معنى لها فقرروا أن يتخذوا موقفا إيجابيا بأن يعلنوا أن الحياة فعلا بلا معنى. . وأن أتعس الناس هم الذين يدرسون الفلسفة مثلنا، تيجى نموت وسوف أكون أول واحد.

ـ يا شيخ اتنيل. . أبوك عنده فلوس وأمك عندها عمارات تموت ليه. . أنت بالذات يجب أن تعيش بفلوس أهلك. . اقعد اقعد. .

ـ طيب تيجى نعمل زى اليهود لما حاصرهم الرومان يموت منهم كل يوم واحد. . حتى ننتهى جميعا ولا من شاف ولا من درى! أو نعمل كما كان يفعل أجدادنا. . يلقون بواحدة حلوة للنيل. . يتزوجها. . وبعد ذلك يفيض خيرا على البلاد. .

وكانت معنا الزميلة فاطمة حسان ونظرنا إليها جميعا. فصرخت: إيه عاوزنى أرمى نفسى فى النيل يا مجانين. . أنا مخطوبة وسوف أعيش حياتى. . وأقسم لكم بالله العظيم أننى لن أنساكم أبدا. . وسوف أقيم لكم الأربعين والسنوية وارتدى الحداد عليكم سنة أو سنتين!!

وساد الصمت. وعدنا إلى ما كنا فيه من قرف من أنفسنا ومن الذين علمونا. قلت أنا: لم يعد لدينا إلا فكرة واحدة. . هذه الفكرة هى (العشاء الأخير) المعروف للسيد المسيح. . عندما تناول العشاء مع الحواريين. وفى ذلك اليوم خانه أحد تلامذته. وقدمه للرومان مقابل مبلغ تافه. .

ـ هيه فيها خيانة. . وفيها مبلغ تافه. . ومن هو المسيح الذى سيخونه واحد منا. . إيه الكلام ده. . هو كله كلام بالشكل ده. . يا أخى مفيش أى وجه للشبه. . ثم إننا لسنا حواريين لأحد وسوف نخونه. . إيه ده. . هوه كلام كده. .

قلت : ورايا . . لآخر مرة . .

ـ لسه نمشى وراك؟

ـ آخر مرة!

❊ ❊ ❊

الحمد لله لم نجد أحدا يبيع النبابيت . . ولو رأيناه لتوقفنا جميعا وخطفنا ما معه ودخلنا فى معركة . يا قاتل يا مقتول . فقد تعبنا وزهقنا وكفرنا بأشياء كثيرة . وفقد كل أمل فى النجاة والخلاص . . وانسحب الطريق من أقدامنا . . وصرنا ضالين . .

وقلت : ورايا . .

وعبرنا شارع الجامعة . . واتجهنا يسارا وعبرنا الشارع العمومى واتجهنا إلى اليمين . . واحد . . اثنين . . فالبيت على اليمين . . مدخل البيت كأنه مدخل اصطبل . البيت بارد مظلم وتخرج منه رائحة كريهة . أو كأن الروائح تجمدت فصارت قوالب من الطوب الذى لا هو أحمر ولا هو أبيض ، وإنما هو لون ذابل كأن اللون قد مات . . وعلى اليمين سلالم . . والسلالم كأنها أسنان متآكلة . . وكان لابد أن نتساند عليها وعلينا . . وأقول : ورايا لآخر مرة يا أخوانا . .

ـ علشان إيه؟ أنت عندك مشكلة . .

ـ أنا معنديش . .

ـ ولا أنا . .

ـ مين هوه ده . . قل لنا مين اللى إحنا رايحين نقابله لآخر مرة . . وماذا يملك لنا . وكنت ساكت ليه طول الوقت . .

ـ آخر مرة . .

وضربت الجرس . مرة ومرتين . الشقة مظلمة . فالأضواء قد أطفئت إلا من مكتبه . وضربت الجرس . وظهر واحد وراء الباب يقول : مين؟

ـ إحنا . .

ـ مين . .

ـ افتح بس . . إحنا . .

وانفتح الباب . وكان السفرجى أو الخادم مثل خفير أرياف . . بالجلابية والطاقية التى كبسها فى دماغه فظهرت أذناه مثل آذان الفناجين .

ـ نعم؟ (قالها باستنكار ودهشة كأنه من المفروض ألا يجىء أحد) . نعم؟ (قالها كمان مرة) . .

ـ عاوزين نقابل الأستاذ .

ـ أنتو مين؟

بسرعة أخرجت ورقة وكتبت كلمتين وأعطيتها للخادم الذى أغلق الباب بإحكام ثم بالترباس . . ومضت دقائق والزملاء لا يريدون أن يسألوا وإنما تجملوا جميعا بالصبر فى مواجهة الجو البارد فى البيت وفى كلمات الخادم . وعاد الخادم وفتح الباب مواربا . وقال : الأستاذ بيقول : مفيش موعد سابق! وأغلق الباب وعدت أضرب الجرس . وجاء الخادم : نعم . .

ـ تلامذته لأمر مهم . .

وأغلق الباب . وعاد يقول : مفيش موعد سابق . وأغلق الباب فأخرجت ورقة وكتبت أسماءنا . وضربت الجرس . ويبدو أن الأستاذ قرر ألا يقابل أحدا . . وضربت الجرس . ورأينا حركة وراء الباب وانفتحت شراعة الباب وقدمت له الورقة وقلت له : سوف يقابلنا . أنا متأكد بس أعطيه الورقة . ودار الحوار بيننا : مين ده .

ـ واحد مهم .

ـ يقدر يعمل إيه؟

ـ حنشوف . .

ـ واحد ومهم وساكن فى شقة زى دى . . شقة زى السجن والخادم كأنه شيخ خفر لا ينقصه إلا النبوت أو البندقية . . مهم؟ مهم فى إيه . . وإحنا عاوزين منه إيه . .

ـ أنا يا عم ماشى . . الله الغنى!

ـ انتظر . . آخر مرة .

ـ وبعدها؟

ـ يا نعيش . . يا نموت . .

ـ نعيش طبعا . . مفيش أى إنسان مهما كان يستاهل أن نموت بسببه أو من أجله . .

ـ أنا مش عارفه إيه اللى جابنى وياكم . . أنا غلطانة . . خطيبى يبقى قريب د . إبراهيم بيومى مدكور . . وهو أحسن واحد درس لنا الفلسفة الإسلامية وخصوصا الفيلسوف الفارابى . . . د . مدكور يعرف الدنيا كلها . . وأنا نسيت الحكاية دى من الأول . . أنا غلطانة . . أمى قالت لى إنها تعرف د . هيكل باشا . . وهو بلدياتنا من المنصورة . وكان من الممكن . .

عندما انفتح الباب نصف فتحة وأشار الخادم أن ندخل فدخلنا بالجنب ولم نفهم لماذا لم يفتح الباب . . كأنه لا يريدنا أن ندخل اثنين اثنين . . أو كأنه يريدنا أن نغير رأينا فى آخر لحظة وألا ندخل . . أو كأنه يريد أن نعطيه شيئا . . فعيناه متسولتان . . دخلنا . . وأغلق الباب وراءنا بالترباس . غريبة واتجه إلى الغرفة يفتحها . أدخل المفتاح ودفع الباب . . ولكن الباب تمسك بموقعه . . أراد أن يمزق ضلفتى الباب . والباب لا يطاوعه . . نظر إلينا أن نساعده . واقترب أحدنا من الباب وضربه بكتفه فانفتح الباب على غرفة لها رائحة البوية . صغيرة . . خانقة كأنها مقبرة فرعونية فتحت لأول مرة . أضاء الخادم الغرفة ولم يشأ أن يفتح النافذة . وخرج وأغلق الباب . وبسرعة اتجهت الزميلة فاطمة حسان التى صارت عميدة بعد ذلك إلى الباب وفتحته بقوة : يا ناس حتختنق . . وهو مين ، هو إحنا هنا عند مين . .

ـ آخر مرة . أجرب . .

ـ والنبى إحنا عند مين؟ . .

ـ واحد كبير . . وهمه كام كلمة ونعود . . وسوف نودع بعضنا جميعا ولن نلتقى . إنه آخر يوم فى حياتنا . لا تستعجلى هذه النهاية المأساوية!

ـ نهاية . . مأساة . . إيه ده أعوذ بالله . . ليه إحنا فى بيت عشماوى؟! طيب إيه التمثال اللى فى الركن ده . . مين ده؟

ـ واحد فيلسوف . .

ـ فيلسوف تانى . . يا نهار أسود . . يا أخى إحنا عاوزين ننسى . . عندما انفتح الباب عن د. عبد الرحمن بدوى بالجلباب الأبيض الذى أبرز كرشه . . وبدا د. بدوى أسمر اللون أكثر مما اعتدنا . . ولم يصافح أحدا . وقال لنا : اقعدوا . . أهلا وسهلا . . ونظر إلينا يسأل عن السبب فى الزيارة . .

ـ آخر مرة قبل أن نتفرق فى كل مكان . .

ـ آخر مرة ليه؟ . بعد كده إيه؟

ـ بعد كده كل واحد منا سوف يذهب فى طريق . .

ـ وبعدين؟

ـ . . . .

يعنى أنتم اتفقتم مع بعض على زيارتى . . إذن لابد أن عندكم سببا واحدا . أو اتخذتم قرارا موحدا ، علشان إيه؟

واتجه إلى الزميلة فاطمة . فقالت : أنا مش عاوزة حاجة يا دكتور . أنا عاوزة الأرض تنشق وتبلعنى . أنا غلطانة . .

ـ هاها . . أما الأرض سوف تنشق فلن يحدث ذلك . وإذا كان الهدف هو الموت . . هاها . . فأمامك الشباك . . أو كان أمامك النيل . . هاها . . بس كده . . أنت حتيجى علشان تقولى إنك عاوزة تموتى . ده قرارك!

ـ . . . .

لا إحنا جئنا علشان نسأل ما الذى يمكن أن نفعله بعد ذلك .

ـ بعد إيه؟

ـ بعد تخرجنا . .

ـ إما أن تواصل دراسة الفلسفة وإما أن تعمل فى أى مكان . .

وكان ألطفنا وأخفنا دما حمدى فؤاد . . فقال لدكتور بدوى : أنا الوحيد اللى جئت وعندى سبب واضح جدا . .

ـ . . . .

ـ إيه فائدة الفلسفة دى . . هاها . . إيه فايدة المنطق وكل اللى قاله أفلاطون وأرسطو . . دول ناس عاشوا وماتوا ولا قدموا ولا أخروا . . أنا لقيت كثيراً من الناس عايشين أحسن وعندهم عقل أحسن منا مئات المرات . . ومفيش واحد سمع عن أفلاطون والرجل اللى كان بيوزن الأكل والشرب والهدوم علشان يفضل فى وزن واحد اسمه إيه؟

اسمه كنت . .

ـ الله طيب حضرتك لا مؤاخذة عندك كرش . . إزاى هو من غير كرش وإزاى حضرتك بكرش . . إيه المعنى . . نصدق مين . . ونصدقكم ليه . . هاها . .

ـ أنت عاوز تشتغل إيه؟

ـ إن شا الله بواب . .

ـ فعلا من المناسب لك أن تعمل بوابا . .

ونظر إلينا د . بدوى يسأل : وأنت عاوز إيه؟

ـ مسش عاوز حاجة .

ـ وأنت؟

ـ زيه .

ـ وأنت؟

ـ راح منى الكلام يا أستاذ . .

ونهض د. بدوى . . بما معناه أن المقابلة انتهت . . وأنه ما كان يجب أن نجىء إليه . وظهر اللوم والعتاب على وجوه الزملاء . . وبعد أن اتجه إلى الباب ابتلعه البيت . ثم ظهر الخادم يطلب إلينا أن نساعده فى سحب الباب . . وانسحب الباب الخارجى وأغلق الباب فكان له صوت كأنه ألف قلة انكسرت وراءنا . .

* * *

ـ شفت موقف د. بدوى من الشعر؟

ـ آه . . إيه القصيدة اللى أنت قلتها دى . .

ـ مش هو شاعر؟ . . أردت أن أعرف رأيه فى الشعر الحديث . وأديك سمعت إيه اللى قاله . شتمنى وقال إن الأبيات مكسورة وإنها كلام فارغ . .

ـ معاك القصيدة .

ـ أيوه . .

ـ أنت بتقول سونيا يا سونيا . . البنت اللى أنت بتحبها اسمها سونيا . . هاها . . والنبى أسمعها ثانى . .

ـ اسمع يا سيدى :

إيه يا سونيا أنت الرضا والحنان

كيف ضاءت بك الليالى الحسان

كيف أنساك إذا نسيت شقائى

وعذابى وليس بى أشجان

وإذا بى أرى بعينيك دنيا

خير ما فكرت به عينان

ثم قلت له قصيدة أخرى عن (سونيا) وهى التى جعلته يقف ويقعد كأنه يريد أن يلقى بى من النافذة . . عاوز تسمع؟

أيوه . . هاها . .

- ما اسمع ياسيدى :

- إيه سونيا . . إيه سونيا

أنت دنيا . . أنت دنيا

قد نسينا وطوينا

كل ما قبلك طيا

كل من يلقاك لا يذكر

فى الأمام شيا

غير سونيا . . إن سونيا

هى دنيا . . أى دنيا!

- هاها . . إيه سونيا سونيا ودنيا دنيا . . يا أخى معه حق . . شعر بايخ!

- وقال عليه إنه شعر غير موزون والكلمة الفلانية ليست فى موضعها وإن البيت من بحر كذا والبيت الثانى من بحر كذا . . طبيعى إيه رأيك أنت والأستاذ بتاعكم إن هذا ليس شعرى . . إنه لشاعر عظيم اسمه إبراهيم ناجى ! !

- . . . .

- علشان تعرف أن الأساتذة بتوعك كلهم زى بعض . . العقاد أسوأ من بدوى ، وبدوى أسوأ من على عبد الواحد . . الذى هو أسوأ من حسن إبراهيم عميد الكلية . . يا شيخ قرفتنا . . هل معقول ترفض شعرا لشاعر كبير . . أنا مش عارف السبب . . وإذا كان هذا رأيه فى شعر إبراهيم ناجى فكيف يكون رأيه فى شعرى أنا لو كنت حاولت أن أقرأه عليه . . أفكرك بحاجة تضحك . . هل تذكر أن الشاعر محمد حمام عندما قرأ أبياتا من الشعر فى صالون العقاد وأعجب بها

العقاد . . وشكره حمام كأنها من نظمه هو . . ثم سأل العقاد . . والنبى يا أستاذ تقول لنا ما الذى أعجبك فى هذه الأبيات ، فراح العقاد يشرح ويتحدث عن الرقة والجمال وحسن الاختيار ولطف المعانى وظهرت السعادة على وجه الشاعر حمام . . ووقف ضاحكا وهاربا وقال للأستاذ قبل أن يبرح الصالون : إنها ليست من نظمى وإنما من نظم أمير الشعراء شوقى . .

فشتمه العقاد وقال له : يا . . . يا ابن الـ . . .

وكان العقاد يهاجم شوقى عمال على بطال ولم ينس لحمام هذا المقلب . . العقاد وبدوى من طينة واحدة . . وطينة سودة زى الزفت . إيه تانى عندك . . إيه عاوزنا نسمعه ولا نشوفه . .

- . . . .

* * *

- أنتم كلكم اتكلمتم واقترحتم العجائب . . أنا الوحيدة التى لم أقل شيئا ولم تأخذوا منى أى نصيحة . . أنا عندى قرار نهائى . وعليكم . . بلاش عليكم . . أنتم أحرار . . أنا سوف أذهب إلى د . عباس عمار . .

- يا نهار أسود . . يا ساتر وهوه يرضى يقابلنا . . أعوذ بالله من أساتذة الجغرافيا . . لا لا . . إلا دول . . لا عباس عمار ولا سليمان حزين . . ولا محمد عوض محمد . . يا ساتر . . أبدا .

- طيب فيه واحد كلنا بنحبه . . إنه د . محمود الصياد . .

- أيوه . . هو ده . .

- أنتم فاكرين القصيدة التى ألقاها فى القناطر الخيرية . . أنا فاكر منها بيتا أو بيتين . . هو أراد أن يقول إن الطالبات ذهبن إلى النوم فى اللوكانده وبقى هو فى الأتومبيل . . الأوتوبيس . . قال :

وتركتنى وحدى ونحن فى الكنابيلا

لو كنت أعرف والنبى غسل الصحون

غسلتهن غسيلا

وتركتنى وحدى . . إلخ

وذهبنا إلى قسم الجغرافيا . . وكان له مبنى مستقل على النيل . . ووجدناه على السلم مع كثير من الزميلات . . وكان ظريفا ودودا . . وأشار إلينا أن نقترب وسألنا : خير . .

لا نستطيع أن نرد عليه كما كان يفعل سقراط ونسألك : وما معنى الخير . .

ـ أهوه (ومشيرا إلى الزميلات) . . وتضاحكت الزميلات وواحدة منهن أخفت وجهها فعرفنا أنها هى الخير الذى يغمز له . .

سألنى : إيه؟

ـ ولا حاجة يا أستاذ زملاؤنا قرفوا من كل شىء . . وفى حالة ثورة على آبائهم وأمهاتهم . .

ـ ليه؟

ـ عاوزين يجوزوا زميلا لهم من قسم الجغرافيا . .

ـ ياه غالى والطلب غالى برضه . . قدامكم . . انظر . . لك النظرة الأولى والثانية . . وتوكل على الله . . فيما عدا . .

ـ البنت الحلوة الشقرة دى . .

ـ اللى زى دى مهرها غالى يا دكتور . . تلاقيها عاوزة تتجوز أستاذ مش طالب وأستاذ جغرافيا كمان . .

ـ أبدا دى سنة أولى فلسفة . .

ـ لا يمكن تكون عاوزة تتجوز أستاذ فلسفة . . ما حصلش أبدا . .

ـ ليه . .

ـ أهو كده . . الفلاسفة ما لهمش بخت يا دكتور . .

ـ ولا بتوع الجغرافيا . .

ـ يعنى كلية الآداب دى كلها مالهاش بخت . . وأنتو عندكم عبد الرحمن بدوى وجايين عندنا تدوروا على حل . .

ـ أيوه . .

ـ ده دكتور بدوى باعتنا علشان نشوف له حل عندكم . .

ـ هاها . . اللى زيه مالوش حل . . لا هنا ولا هناك . .

ـ . . . .

* * *

إذن لم يبق إلا نعمل مثل أهل أندونيسيا . . يمشون فى جنازة الميت ويؤجلون البكاء عليه سنتين . .

ـ الأول نشوف أى عمل ونبكى على خيبتنا بعدين . .

ـ عندى حل . . والفكرة مأخوذة من مهنة والدى . . أنتم تعرفون أن والدى يعمل فى الطب الشرعى . . إذن نضع كل الكتب فى نعش وتمشى وراءه ونتلقى العزاء ولا أحد يعرف من هو الميت . . والله العظيم ممكن . . أى واحد ممكن أن يضعه فى النعش وبعد أن يمشى وراءه الناس الطيبون يرفع غطاء النعش ويقوم . . معجزة . . والناس تجرى وتهرب إيه رأيكم . . أنا سمعت من والدى أن فيه رئيس جمهورية فى أمريكا الجنوبية . . قطعوا له رجله واحتفظ هو برجله أربع سنوات ثم أقام لها جنازة عسكرية مهيبة . . ودفنها . . وكان رئيسا للمكسيك فى القرن التاسع عشر . . وحكم البلاد وكان طاغية . . وأسقطوه ولما مات لم يجدوا له مكاناً لدفنه . . ولا حتى إلى جوار رجله التى دفنوها قبل ذلك . .

ـ يعنى إيه . .

ـ أنا عارفه . افهم اللى أنت عاوز تفهمه . . باى . .

ـ باى . .

ـ باى . .

ـ . . . .

ومضت سنوات لم ير أحد منا الآخر . . وكان ذلك آخر عهدنا بأبناء وزملاء ومحبى وكارهى والقرفانين والمأخوذين بالمدرج ٧٨ فى كلية الآداب جامعة القاهرة!

أو هكذا توهمنا هذه النهاية!!

أحسن من تورتة فى المريخ
رغيف سخن بالطعمية
هنا فى يدى!

يوم ولا أى يوم . . قوات الأمن فى كل مكان . بوليس ومباحث ومخابرات . وجوه صارمة تدخل وتخرج . وتنظر فى الأرض وفى الجدران وتحرك المقاعد . وتدخل المدرج ٧٨ وتضع يدها على كل شيء . . وتنظر إلى الباب ووراء الباب . . وبعضهم ينظرون من النوافذ . . ويشيرون بأيديهم إلى زملائهم تحت . . والمنصة التى يجلس إليها الأساتذة مسحوها بأيديهم وعيونهم . . وهذا جلس فوقها وهذا أدخل تحتها . . واحد وراء واحد . وهذا يدقها بيده . . وهذا برجله . . وفى أيديهم بطاريات . . والباب . . لقد لف الباب بعناية فائقة . . حركوه يمينا وشمالا وببطء وبسرعة . . وراحوا يدقون أرض القاعة من هنا . . ثم من هناك . .

وأغلقوا الباب ومنعونا من الاقتراب والدخول . وفى لحظه ينفتح الباب بسرعة وبشدة . ويدخل واحد كبير الشأن وحده . ويغلقون عليه الباب ويفتحون الأنوار كلها على الآخر . . ويتركونه وحده لا يعرف ماذا يعمل . . لابد أنه يعاود التفتيش والبحث بصفه شخصية أو بطرق خاصة . ونحن نرى ونحاول أن نفهم . . وسمعنا أن شخصيات مهمة سوف تجيء وكنت أعرف ولكننى لم أقل ـ التعليمات هكذا : اعرف واسكت فأنت محظوظ وإنك قريب منهم . .

فى هذا اليوم الغريب العجيب كانت مناقشة رسالة الدكتوراه المقدمة من السيدة جيهان رءوف حرم الرئيس السادات. وجاء الرئيس السادات وأفراد الأسرة وجلسوا فى الصف الأول. وجلست بالقرب من السيدة جيهان التى كانت واقفة تنظر يمينا وشمالا وتداعبها. وهى تقول: والله أنا متلخبطة.. صحيح أنا عارفة كويس قوى وأيه اللى أنا حاقوله.. لكن امتحان..

ونضحك. وكان هناك من يقدم الحلوى لا أعرف بالضبط ما هى.. وجلست السيدة جيهان ـ الدكتورة بعد ساعتين تقلب فى أوراقها. عندما جاءت اللجنة تضم الأستاذة المشرفة على الرسالة وهى د. سهير القلماوى ود. مجدى وهبه.. ووقفت الطالبة ووقف الرئيس السادات ونحن جميعا.. وتحدثت د. سهير القلماوى عن الطالبة جيهان رءوف وموضوع رسالتها عن (الشعر الرومانسى).. ثم طلب إليها أن تلخص موضوع رسالتها. وكانت الرسالة باللغة العربية. وقالت. وجاء وقت المناقشة..

نسيت أن أقول إن مدرج ٧٨ لم يكن ممتلئا. فلم يسمح الأمن إلا بعدد قليل جدا. أربعة صفوف إلا قليلاً. وفرغت هى من تلخيص رسالتها وسألوها. وكانت ترد. ويناقشونها وكانت تجد ما تقوله. ويطلبون إليها أن تضيف وأن توضح وأن تحذف وتقول: نعم.. حاضر..

وخرجت اللجنة وعادت لتمنحها درجة الدكتوراه.. وصفقنا.. هنأناها والرئيس السادات.. وفى لحظات عاد الصمت إلى المدرج ٧٨..

وفى اليوم التالى قابلت الرئيس السادات فى بيته وبادرنى بقوله: إيه رأيك..

قلت: والله يا ريس الدكتورة جيهان كانت مذاكرة. وموضوعها بديع..

ـ وأيه كمان..

ـ لابد أن تطبع هذه الرسالة. وأنا رأيى يا ريس أن النسخة التى سوف تقدمها للجمهور لابد أن تحذف منها الكثير من الأسماء والهوامش. لأن المراجع والهوامش تهم الباحثين. أما عامة الناس فهم لا يطيقون الأسماء الكثيرة والهوامش والنصوص الطويلة المقتبسة..

ـ ابقى قول لها الحاجات دى يا أنيس .

ـ طبعا صعب على الباحث أن يحذف ما تعب فى جمعه ولكن القارئ العادى لا تهمه هذه المراجع كثيرا . .

ـ هه . . وما لاحظتش حاجة يا أنيس . .

ـ زى إيه يا ريس؟

ـ زى إيه . . وهوه أنا اللى حاقول لك . . ما كان الكلام قدامك . .

ـ ربما بعض الاضطراب . . طبعا الأساتذة بيتناقشوا قدامك يا ريس . .

ـ آه . . فيه حاجة ثانية . . هاها . . هاها . ما خدتش بالك . . إن جيهان كانت طول الوقت . . هاها . . بتقول حاضر يا أفندم . . نعم يا أفندم . . هاها . . خدت بالك . .

ـ أيوه يا ريس . .

ـ لكن دى حاجات مابنشوفهاش فى البيت . . هاها . . هاها .

ـ طالبة أمام أساتذتها . .

ـ نعم . . حاضر . . على طول الخط . . هاها . . هاها . آه نسيت أقول لك . . تعرف جيهان مبسوطة من إيه . . من حاجة أنت كتبتها وبتوريها لكل الناس . . أنت أهديتها كتابك الأخير وجعلت الإهداء : إلى (الزميلة) جيهان رءوف . . سعيدة جدا بحكاية (الزميلة) دى . . أنا قلت لها لازم تقرأ سلسلة (فى صالون العقاد كانت لنا أيام) اللى أنت بتنشرها فى مجلة أكتوبر . . أنا والله يا أنيس بأسيب كل شغلى وأقرأ السلسلة العجيبة دى . . . وزى ما أنا قلت قبل كده لك . . وفى تسجيل عندك إننى مفتون بالسلسلة دى . . وأنا كنت غايب عن الدنيا اللى أنتم عايشين فيها . . أنا فى ناحية تانية خالص . . وأنا بأحكى للناس حكايتك .

ـ حكاية إيه يا ريس؟

ـ أنت جيت قلت لى إنك حتطبع (فى صالون العقاد) وطلبت منى أقول رأيى فى السلسلة دى. وقلت لك. . وأنت قلت لى: عاوز منك كلمتين عن الصالون علشان أستخدمها فى الدعاية وأنا ضحكت وقلت لك: آه علموك اليهود يا أنيس. . هاها. . هاها. . لكن تعال هنا. . أنت فى السلسلة دى كتبت عن واحدة وقعدت تقول فيها شعر وزودتها شوية. .

ـ أيوه يا ريس. . فعلا أنا نسيت أنها زوجه الشاعر عبدالرحمن صدقى. . هى إيطالية. .

ـ الله ده أنت قعدت توصف رجليها ورقبتها وصدرها. . إيه ده يا أخى أنت ماعندكش حيا ولا خشا. .

ـ والله ماخدتش بالى يا ريس. .

ـ لازم حلوة وإلا ماكنتش خرجت عن حدود الأدب. . والثانية والثالثة. . يا أخى أنتم يا أدباء ملاعين. . لكن سيبك أنت. . أنا كنت أحب أشتغل بالفن مش الهبابة اللى اسمها السياسة. . والله يا أنيس أنا فنان. .

ـ أنا متأكد. . فأنت تتذوق الكلام الحلو. . وتجيد النطق فأنت عاشق للغة العربية قراءة وأداء. ومذكراتك فيها فكر وفيها أدب يا ريس. . وأنا أرجو أن أكتب مذكراتى معك يا ريس وما رأيت فى الحرب والسلام هنا وفى إسرائيل. ورأيك فى الذى تقرؤه والذى يكتبه عنك وعليك كثير من كتاب الشرق والغرب. . ومدى كراهيتك للفلسفة. .

ـ آه. . أنت حر فى حبك للفلسفة. . أنا لا أحبها. . أنا عاوز تقول لى مشكلة وتقول لى أحلها إزاى. . أما الفلسفة فهى عرض وتجميل وتعقيد للقضايا. وبس. لا أنا عاوز علاج. لأنها ليست قضية واحدة وإنما قضايا ملايين وأنا لا أستطيع أن أتفرج على هموم الملايين مستمتعاً بالنظر إلى همومهم. لابد من حل. إنما بتوع الفلسفة دول بتوع مش عارف إيه. . فوازير. . يجوز أناس كثيرون يحبونها. أنا عاوز الفزورة ويكون لها حل. وتساعدنى على حلها. لأن الفزورة سوف تلد ألف فزورة، فلو

وقفت أتفرج على الواحدة واستغرقنى التفكير سوف تصبح مليون واحدة . . لكن للأمانة هناك أفكار فلسفية لذيذة وتخريجات ونظريات بديعة . . مؤسسات معمارية لكن لا أحد يستطيع أن يقيم فيها . . قصور جميلة تسكنها الأشباح . . أنا عاوز بيوت . . شقق صغيرة يسكنها مواطنون عاديون . مهمتى البناء والتسكين وهمه يفكرون على كيفهم . . لا تكلمنى عن أجمل تورته اخترعها الإنسان ثم وضعها فى كوكب المريخ . . كلمنى عن رغيف عيش بلدى سخن وفى داخله طعمية سخنة برضه . . آدى الكلام وآدى الفلسفة العملية . . هاها . . هاها . . شفت جيهان كانت واقفة إزاى وهمه يقولوا لها اقعدى . . وهى تظل واقفه هاها . . هاها . . ومش عارف كم مرة : نعم . . وكم مرة : حاضر يا أفندم . . هاها . .

- . . . .

عناوين كثيرة ولا كتاب واحد!

كان صديقى الأستاذ كمال الملاخ يتدفق بالمشاريع والأفكار. أكثرها أمنيات لم يحققها. ولكنه لا مانع عنده من أن يذكرها. الكتب مثلا: يختارشكل الغلاف وأحيانا اسم الكتاب. وبس.

وفى إحدى الليالى خطر له أن نؤلف كتابا معا.. ثم عاد وقال: عشرين كتابا. أنا أكتب المقدمة والفصول الأولى والباقى هو. ولا أعرف كيف. فنحن أصدقاء نعم. ولكن دراستنا مختلفة. واهتماماتنا المشتركة قليلة أو ضيقة. فهو مهتم بالآثار الفرعونية. واهتماماتى بالحضارات القديمة والفلسفات التى من بينها الفرعونية. ولم أتخصص فيها. ولكن يمكن بالقراءة عن بعض الشخصيات البارزة نلتقى أو نختلف. ممكن. فما أكثر ما كتبت عن ملوك وملكات مصر. ونتفق على شيء من ذلك وتمضى السنون دون أن نعاود التفكير. ولا يظهر لنا أى كتاب بينما أنا ماض فى التأليف والنشر..

وعندما رأست مؤسسة (دار المعارف) كان أول المهنئين كمال الملاخ وفى جيبه قائمة بأسماء كتب سوف يؤلفها. مشاريع كتب. بل أسماء كتب. ويريد أن يتعاقد عليها وأن يقبض فلوسه فورا.

ولم أفلح فى إقناعه بأن هذا غير ممكن فالتعاقد يكون عادة بعد تسليم الكتب. وغضب وافترقنا. ولأنه إنسان طيب ولأنه صديق.. تعاقدت معه على نصف

الكتب التى تقدم بها وعددها عشرة . وقبض فلوسه ومن حق دار المعارف أن تطالبه اليوم بالفلوس لأنه لم يبعث بالكتب حتى الآن . .

لقد ألف كمال الملاخ ثلاثة أو أربعة كتب وأنا ألفت أكثر من مائتى كتاب . .

وفى زورق فى النيل وكان معه وفد من علماء الآثار رجالا ونساء . . وكانوا غارقين فى مناقشات علمية . اقترحت عليه عددا من الكتب . وحددت بالضبط ماذا أكتب وماذا ينبغى أن يكتب . وكنت جادا .

مثلا لماذا لا نكتب عن عبادة الشمس . فيكون عنوان الكتاب : أخناتون . . النصف الأول من الكتاب هو أخناتون ـ بالخاء والنصف الثانى احنا تون . . ونكتبها هكذا : احنا ـ تون . . أى نحن الشمس . . أو نحن الذين نعبد الشمس . . أى شىء ساطع . . أى نجم لامع . . أى واحد عنده نفوذ . . عنده سلطان . . فالإنسان عابد للقوة . . قوة العضلات أو السلطة أو الفلوس . . والقرآن الكريم يقول : ﴿ **فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ (الأنعام : ٧٨) إلخ . .

اقترحت كتابا آخر هو : ليالينا . .

كيف كانت حياتنا ونحن شباب فى مصر وفى أوروبا . . وكيف درنا فى فلك كامل الشناوى وعبد الوهاب وأم كلثوم ويوسف وهبى والعقاد وعبد الرحمن بدوى وحسن البنا وسلامة موسى ، ماذا قالوا وماذا قلنا . . وكيف كانت تنتهى كل ليلة . والفنانات . . وكمال الملاخ وله علاقات أطول وأكثر . .

واقترحت كتابا آخر بعنوان (لو كنت إنسانا) . . وموضوعه أننا لسنا بشرا طول الوقت . . فأكثر نشاطنا حيوانى : أكل وشرب ونوم . . وقليلا جدا أن نكون بشرا . حتى فى المواقف الإنسانية لا تكون كذلك . فلماذا وماذا ومتى وكيف وإلى متى . . والنماذج كثيرة فى حياتنا وفى التاريخ أيضا . .

واقترحت كتابا بعنوان : عذاب القبر . . فليس القبر هو الذى ننتهى إليه . ولا نعرف ماذا بعد ذلك . ولكن القبور هى التى نعيش فيها : هى بيوتنا ومكاتبنا

والنوادى والمقاهى والمعابد . . حتى هذه الأماكن التى حبسنا أنفسنا فيها نأكل ونتآكل ونعذب ونتعذب . . ونعاقب ونشمت ونكره ونحب . . حيث إدمان الحياة والجنس والدين والمخدرات . ولا نفلت منها . . جلودنا هى قبورنا أيضا . وكل واحد يحمل قبره ويمشى حتى النهاية فيكون القبر الذى ليس بعده قبر . .

واقترحت كتاب (وحدى مع الآخرين) فلى كتاب اسمه (وحدى ومع الآخرين) هذه (الواو) لم تكن موجودة فى العنوان ولكن كامل الشناوى هو الذى اقترح وأصر على أن أضعها فى العنوان . وبذلك يكون عنوان الكتاب قد تغير معناه . فهو يريد أن أحكى حالى مع نفسى مرة ومع الآخرين مرة آخرى . وأنا أول من كتب عن (الآخرين) أو عن الغير . . واستخدمت هذا التعبير . ولكنى قصدت أن أحكى أننى وحدى حتى مع وجود الآخرين . . فالمسافة التى بينى وبين نفسى لم أحشر فيها أحدا من الناس . تماما كما تدخل السينما التى بها ألف شخص . وأنت لا تعرف منهم أحدا . ولا يعرفك أحد . فأنت مع الآخرين ولكنك وحدك . فالقضية هى : الوحدة هى الغربة هى العزلة . . هى أن تكون وحدك رغم وجود ألف غيرك . . فأنت فى البيت الذى تسكنه لا تعرف أحدا . لا يعنيك أحد ولا تعنى أحدا . . وكذلك كل سكان المدن الكبرى . ويكون الحوار هو الجسر الذى يقام بسرعة بينك وبين الناس . . وفى مسرحية (فى انتظار جودو) للأديب بيكيت وكل مسرحيات العبث يتجاور الناس ويتكلمون . ولكنهم لا يتحاورون . فأنا أقول وأنت أيضا ولكنى لا أتابعك ولا أنت . . ولكننا نقول . وفى مسرحية (الكراسى) للأديب يونسكو . . نرى المسرح قد امتلأ بالمقاعد الخالية ونرى أناسا قد وقفوا لتحية الضيوف ولا نراهم ويجلسونهم على مقاعد . . وأكثر من ذلك فالمؤلف يقول : إنه إذا لم يأت أحد لمشاهدة هذه المسرحية . فهذه هى الواقعية . . فالصالة خالية من المشاهدين والمسرح خال من الممثلين !

واقترحت أن نكتب معا كتابا بعنوان (بلدى) أنا أكتب عن المنصورة وهو يكتب عن أسيوط . . وأن نزور بلادنا كالسياح أو كالغرباء ونصور وننقد ونقول ماذا أعجبنا وماذا لم يعجبنا . ووجدنا أننا سوف نكون ظالمين . . لأننا نعرف بلادنا أكثر

من السياح . ولذلك إذا انتقدنا فسوف يكون نقدنا قاسيا . . ثم إننا لا نطاوع أقلامنا إذا قست علينا . . فلن يظلمك أكثر ممن يحبك . . فنحن لا نظلم بلادنا فقط إذا قارناها بالعواصم الأوروبية . ولكن لماذا لا نحاول . .

وأخيرا اقترحت كتابا بعنوان (ولم نتفق) نحكى فيه كل ما دار بيننا وما توهمناه وما كنا نحلم به . ورغم حسن النية وصدق العزيمة وقدرتنا على ذلك . فلم نتفق . وهكذا نؤلف كتابا عن كتب لم نتفق عليها . وهكذا نكون قد ألفنا كتابا يحكى قصة عجزنا عن عدم تأليف كتاب آخر !

ثم عاودنا التفكير مرة أخرى . واقترحت كتابا بعنوان (كاريكاتير) . وهى كلمة إيطالية بمعنى التغيير أو التشويه . فالكاريكاتير هو المبالغة فى بعض ملامح الوجه والجسم أو الشخصية بقصد الإضحاك . . أو التشويه بقصد التدمير . أى أنها غريزة التدمير تتخذ شكلا متساميا هو الضحك . فالكاريكاتير هو التسامى بالغريزة أى إطلاق الطاقات المكبوتة فى صورة متحضرة . وعندنا شخصيات كاريكاتورية فى حياتنا . . وكيف صورنا غيرنا وكيف نتصورهم . وكان فى حياتنا الكثير من الشخصيات الضاحكة : كامل الشناوى ومصطفى أمين وعلى أمين ورخا وصاروخان وصلاح جاهين وحسن فؤاد وعبد السلام الشريف والأخوان أدهم وسيف وانلى وحسين بيكار وجمال كامل ومأمون الشناوى ومصطفى حسين . . وعندنا حكايات وروايات عن أم كلثوم وعبد الوهاب وحفنى باشا محمود وأحمد الألفى عطية وتوفيق الحكيم . . وغيرهم . .

ولماذا لا نكتب عن (الحس الجمالى) أو الإحساس بالجمال . . الذوق . . وهناك فرق بين الحس الجمالى والإحساس الجمالى . . أو الإحساس بالجمال . . فأنا إذا رأيت لوحة لفتاة جميلة فإننى أشعر بالبهجة للملامح الجميلة وأملأ عينى من المساحات اللونية والضوئية والخطوط ناعمة الانحناء . وبس . . هذا حس جمالى . . ويتوقف إحساسى عند هذا الحد . . فالحس الجمالى هو بداية وهو نهاية . . والنتيجة : سرور وبهجة . ولكن الذى يرى اللوحة ويتخيل (صاحبتها فى حضنه . . شفتاها ونهداها وعيناها وساقاها . فليس

هذا هو الحس الجمالى وإنما هو اشتهاء . . فالصورة ناقصة لأنه يحلم بأن تقفز صاحبتها فى فراشه . وعندنا حكايات عن ذلك كثيرة نراها ونسمعها فى مناسبات كثيرة . .

آخر كلام . . لقد مللنا الحياة الليلية . أنا لا أستطيع أن أظل مفتوح العينين طول الليل . . لا أنام نهارا . مرة كل أسبوع . . حتى لا يغضب صديقنا الكبير كامل الشناوى الذى ـ ككل الفنانين ـ ينام نهارا ويسهر ليلا . . أما أنا فحياتى مختلفة . ولم أفلح فى تغييرها أو الخروج من قفصها أو شرنقتها . . أى أننى لم أستطع أن أخرج من جلدى الذى هو كما يقول توفيق الحكيم : سجن العمر . . فأنا أنام قبل منتصف الليل لأصحو عند الفجر . . أى الساعة الرابعة صباحا . وأقرأ وأكتب حتى العاشرة . بس . وهذه كل حياتى الثقافية أما بقية اليوم فلقاءات . . ثم هذه السهرات الملعونة الطويلة الجميلة الحارقة للعينين والتى أربكت حياتى . . ولكنى تحملت وتحاملت حتى أفرج عن نفسى قليلا . وحتى لا يغضب الأصدقاء الذين يحبون السهرات الطويلة . .

وعلى الرغم من أنه ليس شريرا ـ أقصد واحداً من هؤلاء : كامل الشناوى ومحمد عبد الوهاب ومصطفى أمين وفريد الأطرش . ولكننى كنت أقول إنهم (إبليس فى الضواحى) ـ وهو عنوان لرواية قصيرة للفيلسوف العظيم برتراند رسل كتبها عندما بلغ الثمانين . وهى حكاية بديعة . طبيب كتب على باب العيادة هذه العبارة : د . . . هنا نصنع الرعب!

عنوان غريب . وكان الناس يذهبون إليه . ويخرجون فى غاية الحزن . فالرجل قد قلب حياتهم . أما لماذا يذهبون فلأن حياتهم مملة ويريدون من يهزها من يحركها من ينعشها . ولكن نكتشف أن هذا الطبيب إذا جاءه واحد فإنه يحكى له قصة واحد صاحبه له نفس ظروف الزائر تماما ولكنه خرج من حياته بصورة أخرى . . وتنتهى الحكايات بأن الناس الطيبين يتحولون أشرارا مجرمين . قتلة لصوصا . وهذه براعة الطبيب . لكن أحد الجيران عرف مأساة كل هؤلاء وذهب إلى الطبيب وناقشه ووجد أنه رجل مجرم كاره للحياة وللناس . وقرر فى أعماقه أن يدمر البشرية كلها . فما كان من هذا الجار إلا أن أطلق عليه الرصاص . . وقتله واعترف لزوجته التى لم تصدق ودخل السجن . .

يعنى إيه؟ أن شيئا من ذلك يحدث كل ليلة . وأن الساخرين من أصدقائنا قادرون على أن يربكوا ويلخبطوا حياة أى إنسان بالنكتة القاسية والقفشة المميتة . وقد حدث كثيراً . وعندنا حكايات ونوادر وفواجع . وسألت صديقى كمال الملاخ : إيه رأيك؟

فضحك وقال : أنا أقدر أقتل كامل الشناوى وحدى هو وعلى أمين ومصطفى أمين!

ـ هاها . . هاها

ـ . . . .

أما الأسباب الحقيقية فلها قصة أخرى . . فى كتب أخرى!!

كتب للمؤلف

(أ) ترجمة ذاتية:

١ ـ فى صالون العقاد . . كانت لنا أيام .
٢ ـ عاشوا فى حياتى .
٣ ـ إلا قليلاً .
٤ ـ طلع البدر علينا .
٥ ـ البقية فى حياتى .
٦ ـ نحن أولاد الغجر .
٧ ـ من نفسى .
٨ ـ حتى أنت يا أنا .
٩ ـ أضواء وضوضاء .
١٠ ـ كل شىء نسبى .
١١ ـ لأول مرة .
١٢ ـ شارع التنهدات .

(ب) دراسات سياسية:

١٣ ـ الحائط والدموع .
١٤ ـ وجع فى قلب إسرائيل .
١٥ ـ الصابرا (الجيل الجديد فى إسرائيل) .
١٦ ـ عبد الناصر ـ المفترى عليه والمفترى علينا .
١٧ ـ فى السياسة (٣ أجزاء) .
١٨ ـ الدين و الديناميت .
١٩ ـ لا حرب فى أكتوبر ولا سلام .
٢٠ ـ السيدة الأولى .
٢١ ـ التاريخ أنياب وأظافر .
٢٢ ـ الخالدون مائة ـ أعظمهم محمد ﷺ .
٢٣ ـ على رقاب العباد .
٢٤ ـ ديانات أخرى .
٢٥ ـ وكانت الصحة هى الثمن .
٢٦ ـ الغرباء .
٢٧ ـ الخبز و القبلات .

(جـ) قصص:

٢٨ ـ عزيزى فلان .
٢٩ ـ هى وغيرها .
٣٠ ـ بقايا كل شىء .
٣١ ـ يا من كنت حبيبى .
٣٢ ـ قلوب صغيرة .

(د) مسرحيات مترجمة:

** للأديب السويسرى فريد ريش ديرنمات:

٣٣ ـ رومولوس العظيم .
٣٤ ـ زيارة السيدة العجوز .
٣٥ ـ زواج السيد مسيسبى .
٣٦ ـ الشهاب .
٣٧ ـ هى وعاشقها .
** للأديب السويسرى ماكس فريش:
٣٨ ـ أمير الأراضى البور .
٣٩ ـ مشعلو النيران .
** للأديب الفرنسى جان جيرودو:
٤٠ ـ من أجل سواد عينيها .
** للأديب الأمركى آرثر ميللر:
٤١ ـ بعد السقوط .
** للأديب الأمركى تنسى وليامز:
٤٢ ـ فوق الكهف .
** للأديب الأمركى يوجين أونيل:
٤٣ ـ الإمبراطور جونس .
** للأديب الفرنسى يوجين ليونسكو:
٤٤ ـ تعب كلها الحياة .
** للأديب الفرنسى أداموف:
٤٥ ـ الباب والشباك .
** للأديب الإسبانى أرابال:
٤٦ ـ ملح على جرح .

(هـ) دراسات نفسية:

٤٧ ـ الحنان أقوى .
٤٨ ـ من أول نظرة .
٤٩ ـ طريق العذاب .
٥٠ ـ ألوان من الحب
٥١ ـ شباب . . شباب .
٥٢ ـ مذكرات شاب غاضب .
٥٣ ـ مذكرات شابة غاضبة .
٥٤ ـ جسمك لا يكذب .
٥٥ ـ اثنين . . اثنين .
٥٦ ـ الذين هاجروا .
٥٧ ـ غرباء فى كل عصر .
٥٨ ـ أظافرها الطويلة .
٥٩ ـ هموم هذا الزمن .
٦٠ ـ زمن الهموم الكبيرة .
٦١ ـ الحب الذى بيننا .
٦٢ ـ عذاب كل يوم .
٦٣ ـ كيمياء الفضيحة .
٦٤ ـ كل معانى الحب .

(و) دراسات علمية:

٦٥ ـ الذين هبطوا من السماء .
٦٦ ـ الذين عادوا إلى السماء .
٦٧ ـ القوى الخفية .
٦٨ ـ أرواح وأشباح .
٦٩ ـ لعنة الفراعنة .
٧٠ ـ دقات الصحة هى الزمن .

(ز) نقد أدبى:

٧١ ـ يسقط الحائط الرابع .
٧٢ ـ وداعًا أيها الملل .
٧٣ ـ كرسى على الشمال .
٧٤ ـ ساعات بلا عقارب .
٧٥ ـ مع الآخرين .
٧٦ ـ شيء من الفكر .
٧٧ ـ لو كنت أيوب .
٧٨ ـ يعيش . . يعيش .

٧٩ ـ الوجودية .
٨٠ ـ طريق العذاب .
٨١ ـ وحدى . . مع الآخرين .
٨٢ ـ ما لا تعلمون .
٨٣ ـ لحظات مسروقة .
٨٤ ـ كتاب عن كتب .
٨٥ ـ أنتم الناس أيها الشعراء .
٨٦ ـ أيها الموت . . لحظة من فضلك .
٨٧ ـ أوراق على شجر .
٨٨ ـ فى تلك السنة .
٨٩ ـ دراسات فى الأدب الأمريكى .
٩٠ ـ دراسات فى الأدب الألمانى .
٩١ ـ دراسات فى الأدب الإيطالى .
٩٢ ـ فلاسفة وجوديون .
٩٣ ـ فلاسفة العدم .

(ح) رحلات:

٩٤ ـ حول العالم فى ٢٠٠ يوم .
٩٥ ـ بلاد الله خلق الله .
٩٦ ـ غريب فى بلاد الغربة .
٩٧ ـ اليمن ذلك المجهول .
٩٨ ـ أنت فى اليابان وبلاد أخرى .
٩٩ ـ أطيب تحياتى من موسكو .
١٠٠ ـ أعجب الرحلات فى التاريخ .

(ط) مسرحيات كوميدية:

١٠١ ـ مدرسة الحب .
١٠٢ ـ حلمك يا شيخ علام .
١٠٣ ـ مين قتل مين .
١٠٤ ـ جمعية كل واشكر .
١٠٥ ـ الأحياء المجاورة .
١٠٦ ـ سلطان زمانه .
١٠٧ ـ العبقرى .
١٠٨ ـ كلام لك يا جارة .
١٠٩ ـ فوق الركبة .
١١٠ ـ هذه الصغيرة (وقصص أخرى) .
١١١ ـ عريس فاطمة .
١١٢ ـ يوم بيوم .
١١٣ ـ إنها الأشياء الصغيرة .
١١٤ ـ إلا فاطمة .
١١٥ ـ القلب أبدًا يدق .

(ى) المسلسلات التليفزيونية:

١١٦ ـ حقنة بنج .
١١٧ ـ اثنين . . اثنين .
١١٨ ـ مدرسة الحب .
١١٩ ـ عريس فاطمة .
١٢٠ ـ من الذى لا يحب فاطمة .
١٢١ ـ غاضبون وغاضبات .
١٢٢ ـ هى وغيرها .
١٢٣ ـ هى وعشاقها .
١٢٤ ـ العبقرى .
١٢٥ ـ القلب أبدًا يدق .
١٢٦ ـ حلمك يا شيخ علام (مسرحية) .
١٢٧ ـ يعود الماضى يعود .

(ك) كتب (مقالات):

١٢٨ ـ ثم ضاع الطريق .
١٢٩ ـ النجوم تولد وتموت .
١٣٠ ـ هناك أمل .

١٣١ ـ أحب وأكره .
١٣٢ ـ الحيوانات ألطف كثيراً .
١٣٣ ـ مصباح لكل إنسان .
١٣٤ ـ أتمنى لك .
١٣٥ ـ لعل الموت ينسانا .
١٣٦ ـ اقرأ أي شيء .
١٣٧ ـ ولكنى أتأمل .
١٣٨ ـ حتى تعرف نفسك .
١٣٩ ـ الحب والفلوس والموت . . وأنا .
١٤٠ ـ نحن كذلك ! !
١٤١ ـ اللهم إنى سائح .
١٤٢ ـ كائنات فوق .
١٤٣ ـ تعال نفكر معًا .
١٤٤ ـ آه لو رأيت !
١٤٥ ـ النار على الحدود : لعبة كل العصور .
١٤٦ ـ انتهى زمن الفرص الضائعة !
١٤٧ ـ هناك فرق .
١٤٨ ـ الرئيس قال لى . . وقلت أيضًا ـ الجزء الأول والثانى .

(ل) الترجمات القصصية:

١٤٩ ـ رواية (الجائزة) للكاتب الأمريكى أرفنج والاس .
١٥٠ ـ (المثقفون) للأديبة الوجودية سيمون دبوفوار .
١٥١ ـ (لو كنت مكانى) للأديب السويسرى ماكس فريش .
١٥٢ ـ (قصص مورافيا) للأديب الإيطالى ألبرتو مورافيا
١٥٣ ـ (الجلد) للأديب الإيطالى كورتسيو ملبارتة .
١٥٤ ـ (الجيل الصاخب) للأديب الأمريكى جينز برج .

الفهرست

الأهرام من ٥٠ عاما

فى المدرج ٧٨ كانت لنا أيام

رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٨٦٣٩
الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977 - 09 - 1003 - 1

مطابع الشروق
القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت:٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

